



إسبانيا العربية (الأندلس)

إضاءات على تاريخها وفنونها

تأليف: برنارد والن ويشو

ترجمة وبحث: صفاء كنج

مراجعة وتحرير: د. أحمد إيش

إسبانيا العربية (الأندلس)

يرى المؤلفان أن تاريخ الأندلس، أو إسبانيا تحت الحكم الإسلامي، هو تاريخ لم يكتب بعد. فالمواد المتوفرة بكميات كبيرة لا يزال معظمها في مخطوطات. وبالمقارنة، لم يترجم سوى عدد قليل فحسب من النصوص العربية القليلة التي تم نشرها بأي من اللغات الأوروبية. وإلى أن يتم إخراج كل هذه الوثائق القيمة المتعلقة بإسبانيا والمخبأة حالياً في مكتبة الإسكوريال Escorial وفي مكتبات أوروبية أخرى وكذلك في مصر والمغرب، إلى أن يتم إخراجها إلى النور ونشرها، فلا بد أن يتم التعامل مع كل ما يقال عن تلك الفترة الأكثر أهمية من التاريخ بوصفه مؤقتاً وقائماً إلى حد كبير على الحدس والتخمين. وهما يضيفان في المقدمة:

لم نكد نصل إلى إسبانيا حتى لاحظنا أن الفن الإسلامي العائد للفترة الأولى في إشبيلية، كان مختلفاً بصورة ملفتة عن الفن الإسلامي الأول في قرطبة. لم نجد أحداً قادراً على أن يشرح لنا سبب ذلك، ولقد تطلب الأمر ثمانين سنوات من الدراسة لتتوصل إلى الاستنتاجات المطروحة في هذا الكتاب. ورغم الإعاقة التي واجهناها بسبب جهلنا باللغة العربية، فقد تمكنا مع ذلك، كما نعتقد، من تسليط الضوء على فترة غير مكتشفة من تاريخ إسبانيا، ونأمل أن يتم قبول دراساتنا بوصفها نقطة علام تشير إلى طريق مليء بالمحطات المبهرة للمهتمين بدراسة الفترة الأولى من التاريخ الإسلامي، والفترة الأولى من فن القرون الوسطى في إسبانيا.

السعر 65 درهماً



إصدارات
esdarat
دار الكتب الوطنية



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

روّاد المشرق العربي

إسبانيا العربيّة (الأندلس)

إضاءات على تاريخها وفنونها

برنهارد ولن ويشو

ترجمة وبحث

صفاء كنج

مراجعة وتحريّر

د. أحمد إيش

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.

فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DP102.W12 2014

Whishaw, Bernhard, 1857~1914

إسبانيا العربية (الأندلس): إضاءات على تاريخها وفنونها / برنهارد والين ويشو؛ ترجمة وبحث: صفاء كنج؛ مراجعة وتحضير: أحمد إيش. - ط. 1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2014.

ص. 1 سم. - (سلسلة رواد المشرق العربي)

تدمك: 4-174-17-9948-978

ترجمة كتاب: Arabic Spain :sidelights on her history and art

1. المسلمون في إسبانيا - تاريخ. 2. الفن الإسلامي - إسبانيا، 1516-711. 3. إسبانيا - تاريخ،

711-1516 4. إشبيلية (إسبانيا) - تاريخ، 1516-711 أ. Whishaw Ellen M.

ب. كنج، صفاء. ج. إيش، أحمد. د. العنوان هـ. السلسلة.



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إصدارات
esdaraat

دار الكتب الوطنية

© حقوق الطبع محفوظة

دار الكتب الوطنية

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

المجمع الثقافي

© National Library

Abu Dhabi Tourism &

Culture Authority

"Cultural Foundation"

الطبعة الأولى 1435هـ - 2014م

الأراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - المجمع الثقافي

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة

ص.ب: 2380

publication@tcaabudhabila.ae

www.tcaabudhabila.ae

إسبانيا العربيّة
(الأندلس)

سلسلة

رواد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة» للمكتبة العربية بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من هذه السلسلة الثقافية التراثية تحت عنوان: «رواد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويتهم الوطنية، وذلك من خلال الحرص على جمع كافة المصادر المتعلقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلمية بنشر التراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلمية ومؤسساتنا الثقافية على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التراث ونشر أصوله، وخاصة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تراثية عريقة ثمينة واسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربية في مجالات شتى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشعر، النحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطب وهندسة ورياضيات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرحلات.

وما دُمنّا بصدد ذكر تراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نؤكد على أنّ ثمة تياراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتممه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتم التركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقه وما يقدمه من فوائد لمثقفي العربية ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسياسي والاجتماعي.

هذه الرحلات لم تتوقف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلات هيرودوتوس ونيارخوس، ورحلة الأناباسيس لكسينوفون الأثيني)، وكذلك في عصر الرومان (كرحلة إيلْيوس غالوس، وتطواف البحر الإريثري). ثم في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصليبيّة، فمكثت فيه على الشريط الساحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنها أخفقت وارتدت على أعقابها.

فلما أطلّ القرن السادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلفات إبداعية فريدة. أما جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رّحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشّائقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاھلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المشات من نصوص الرّحلات النادرة، تتابع «هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة» اليوم نشره بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطّباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النادرة.

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

هذا الكتاب

من دواعي سرورنا أن نقدم للقراء الكرام اليوم كتاباً ثميناً هو الثالث في جمعتنا عن الأندلس، فردوس المسلمين المفقود، بعدما نشرنا كتاب آلبرت كالفرت «غرناطة وقصر الحمراء»، وخاتمة كتاب خوسيه أنطونيو كوند «تاريخ حكم المسلمين في إسبانيا». ومزية كتاب الزوجين ويشو اليوم هي في تصديهما لتفاصيل جزئية فريدة في تاريخ الأندلس وعمارتها العربية وفنونها، مما لا نجد له مثيلاً لدى بقية الباحثين. وعلى الرغم من كون كتابهما غير جامع لتاريخ الأندلس بالإجمال ويقتصر على «إضاءات» فهو يبقى مصدراً قيماً ذا شأن، لم يسبق لقراء العربية أن استمتعوا بمطالعة من قبل.

ولد الكاتب البريطاني برنهارد ويشو Bernhard Whishaw عام 1857، وفي السنة ذاتها ولدت في ديفون إلن ماري أبدي وليامز Ellen Mary Abdy Williams وعملت في صباها كاتبة وصحفية. وفي عام 1885 تزوجا واستمرت إلن في عملها بالصحافة وتأليف الروايات، بينما تابع برنهارد عمله ككاتب ومصلح تربوي. ثم انتقل الزوجان حوالي عام 1900 إلى إشبيلية في الأندلس، حيث كرسا نفسيهما لدراسة ثقافة الأندلس وعمارتها، فأمضيا في ذلك ثماني سنوات. وكانت حصيلة دراستهما بضعة دراسات، من بينها هذا الكتاب الذي نشر للمرة الأولى عام 1912.

ومنها أيضاً كتاب عن مقتنيات الفخار والدنتيل في متحف إشبيلية:

Illustrated descriptive account of the Museum of Andalusian pottery and lace at Seville, antique and modern, together with notes on pre -

Roman Seville and the lost city of Tharsis, London 1913.

كما كان برنهارد أصدر كتباً أخرى، أشهرها:

A Guide Book to Books, 1891 (with Edmund Beale).

توفي برنهارد سنة 1914 عن 57 عاماً، فانتقلت إلن للعيش بشكل نهائي في الأندلس حيث أسهمت في إنشاء متحف للثقافة الأندلسية، وألفت عنها عدة كتب، مثل:

My Spanish Year (1914).

Atlantis in Andalucia: A Study of Folk Memory (1929).

كما نشرت بالإضافة إلى ذلك عدة روايات، وتوفيت في إسبانيا سنة 1937 عن عمر يناهز 80 عاماً.



بُعِيد وصولهما إلى إسبانيا، لاحظ المؤلفان أن بواكير الفن الإسلامي في إشبيلية كانت مختلفة بشكل غريب عن الفن في قرطبة. فسرهما هذا الأمر، واستغرقا ثماني سنوات من الدراسة المستفيضة في إشبيلية، مستفيدين من المصادر المتاحة في مكتبات المدينة، ليقدّما لقراءتهما هذا المؤلف عن تاريخ المسلمين في إسبانيا، الذي نُشر عام 1912.

وبالتركيز على إشبيلية، قدّما سرداً زمنياً حول إسبانيا من الفتح الإسلامي عام 711 م وحتى حرب الاسترداد Reconquista في القرن الخامس عشر. ويبدأ الكتاب بتقييم الأوضاع إبان حكم القوط، ويلبي ذلك بحث للتأثيرات المتعددة على ثقافة الأندلس وحضارتها، وكيف تم إثراء الفن والعمارة الرومانية والقوطية على أيدي العرب اليمانيين والأقباط المصريين. ويختتم الكتاب بدراسة الأحداث التي أعقبت انحسار موجة الإسلام في إسبانيا، والتأثير المرئي العربي المستديم على وجه التاريخ الإسباني.

وعلى الرغم من أن أياً من المؤلفين لم يكن بالأصل باحثاً في مضمار الدراسات

الإسلامية، فقد دفعهما اهتمامهما وعشقهما للتاريخ والفن إلى تقديم ما يعدّانه «كثيراً من الإضاءات لخصوصيات مهمة لم تجرِ دراستها بعد في سياق تاريخ الأندلس». وكان لديهما وطيد الأمل بأنّ دراستهما «ستكون بمثابة منطلق لدرب شائق وممتع للدارسين المهتمين بالتاريخ الإسلامي الباكر، وفنون إسبانيا المبكرة في العصور الوسيطة».



قامت بترجمة هذا الكتاب السيدة صفاء كنج، والواقع أنها أجادت في الترجمة وضبط أغلب أسماء الأعلام والأماكن والمسميات الاعتبارية الأخرى، وبذلت جهداً طيباً في مراجعة التصور والاقتراسات على مظانها في المصادر العربية حسب الإمكان. وتابعت أنا بدوري تدقيق النصّ والأسماء، وضبطت ما وقع من خلل أثناء الترجمة وحتى من المؤلفين أنفسهم. وقمت بضبط التسميات الإسبانية بصورة أصح، على اعتبار أنّ منطوقها اللفظي يختلف كثيراً عن الفرنسية والإنكليزية، وهذا ما سأبيّنه أدناه.

وفي الإجمال، هذا الكتاب إضافة قيّمة وممتعة لسلسلتنا الحاضرة، وكذلك لمكتبة الدراسات الأندلسية التي ما برحت تتوسّع يوماً بعد يوم، ولا ريب أنّ مهمة لازمة وضرورية ما برحت تفرض علينا نفسها الآن وعلى الدوام، ألا وهي متابعة ترجمة كتاب كوندّه الأشهر: «تاريخ حكم العرب في الأندلس»

Historia de la Dominación de los Árabes en España

فعسى أن يقبّض لنا الله تعالى هذا الأمر في وقت غير بعيد.



حول قواعد اللفظ الإسبانية

لا بدّ لنا من الإشارة إلى أنّ ثمة خصوصيات تنفرد بها هذه اللغة عن سواها، لا يستقيم لفظ أسماء الأعلام والأماكن إلّا بها. كحرف V الذي يلفظ بـاء بالقشتالية

كقولهم: «پور فابور» por favor أو «برابو» bravo، ومع ذلك فقد فضلتُ في بعض الأحيان الإبقاء على حرف ف بدلاً من (ب) لأن الأخير يبقى لفظاً عامياً كما يطالعك في مدريد مثلاً اسم: غران بيا Gran Via (أحد أشهر شوارع العاصمة). ولذلك أكتب: دي لا پولفورا بدلاً من پولورا، وأونتيغوروس بدلاً من أونتيغوروس. والمسألة على أي حال تبقى سجلاً ما بين لهجات الكاستيلانو والأراغونيس والقطلانو، والخوض فيها هنا أمر لا طائل منه.

أما حرف H فهو في الإسبانية يُكتب ولا يُلفظ إطلاقاً، مثل: آستا مانيانا hasta mañana. ولذلك أكتب: لوس إيدالغوس Los Hidalgos، أو ميناخه Homenaje، لاس إرماناس Las Hermanas. ومن الخطأ أن نكتب بالعربية: هراندز، هندوراس، هافانا (صوابها آبانا Havana).

وأما حرف S فهو يلفظ في الإسبانية سيناً بالمطلق، وحتى قد يأتي مشوباً بشين كقولك: باشكوال Pascual أو: ريوش كاتوليكوش. ولا يُلفظ زائياً أبداً مهما أتى بعده من حروف علة فهو لا يابه لها شروي نقيز، كقولهم في اسم البرازيل: «براسيل»، وفي اسم ملكة قشتالة إيزابيل: «إيسابيل». لكنني اضطررت لكتابة اسمها كما هو شائع بالعربية.

وغني عن التعريف أن حرف Z يلفظ ثاءً، كقولهم: إيبشا Ibiza أو إرناندث Hernández أو مندونا Mendoza. ومثله حرف C إن أتى متبوعاً بحرفي العلة e أو i كقولهم: نيترو centro، نيوداد ciudad. وسماعياً، قد يلفظ الحرف D مشوباً بذار في آخر الكلمة، كقولهم: مدريد Madrid، غراناذا Granada، كوردوبا Cordoba. وقد تُلفظ الجيم اللّهوية G غيناً، كقولهم: آراغون Aragón، پريغونتا pregunta.

وأما حرف X فهو من الأحرف غير النظامية في اللغة الإسبانية، ويمثل دليلاً على أن المعايير اللفظية فيها لا تتظمها قواعد ثابتة. فكثيراً ما يلفظ هذا الحرف كالإنكليزية في وسط الكلمة، وخاصة إن تلاه حرف ساكن غير معتل، مثل: expedición إكسپيديشون. ولكن إن جاء في أول الكلمة (وهذا نادر وغير إسباني) فهو يلفظ سيناً،

مثل: xenofobia سينوفوبيا. ولكنه في اللهجة القطلانية ولهجة الباسك يلفظ شيئاً، مثل: Xavi شافي. وهذا ما نراه في بعض لهجات أميركا اللاتينية وأميركا الوسطى، ولو أن لهجة المكسيك ترمي بهذه القاعدة عرض الحائط، فتلفظ اسمها Mexico «ميخيكو» كلفظ حرف L في الإسبانية. وكذلك في الأندلسية: خيريث Xerez، كيخوته Quixote.

وكذلك في الإسبانية إن جاء حرف X بين معتلين فهو يُلفظ كالإنكليزية لكن بشكل مخفف، كقولهم: exactamente.

ومن خصائص الإسبانية حرف ñ الذي يُلفظ (ني) كقولهم: España، واللام المثناة ll التي تلفظ ياءً مشددة مثل: lluvia يوبيا، doncella دونتيا، وثنائية ch التي تلفظ (ج - تش)، مثل: chorizo چوريشو، Echeverria إچيڤيريا.

أخيراً، فلفظ الحرفين G و J ما بين الجيم اللهوية والحاء أو الشين، أمرٌ متشعب ويتعذر تفصيله هنا، ويمثل إحدى أعسر المهارات اللفظية التي تواجه الطلاب الأجانب عندما يشرعون بدراسة الإسبانية. هذا طبعاً ما عدا اختلاف اللفظ ما بين إسبانيا وأميركا اللاتينية. فالإسبان يسمون لغتهم: Castellano بينما يسميها أهل الأرجنتين: كاستيجانو. ويقول الإسباني: يو سوي إسبانيول، بينما يقول الأرجنتيني: جو سوي آرختينيو. وكثيراً ما يلفظ لديهم حرف C (المتبوع بحرفي العلة e, i) سناً بدل الثاء، كالبر تغالتيه.

ومن شاء الاستزادة في أصول ضبط اللفظ الإسباني بمنطوقه القشتالي، فخير مرجع هو:

Mariano Velázquez de la Cadena, Edward Gray, Juan L. Iribas: *A New Pronouncing Dictionary of the Spanish and English Languages*, D. Appleton, London, New York, 1900 – 1902.



أخيراً، من الممتع لنا الآن الانتقال من العمل على النصوص الإسبانية إلى مضممار
غير بعيد عنها، هو نشر أعمال بعض الرّحّالين والملاحين البرتغاليين الذي ارتادوا
منطقة الخليج العربي وبحر العرب والمحيط الهندي في القرن السادس عشر، ولعلّ
نقطة البداية تكون بكتاب الملاح دوارته باربوزا، فإلى لقاء قريب بإذن الله.
والحمد لله على ما وفق وأعان.

جبيل، 15 ديسمبر 2013

د. أحمد إيش



نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والاسماء الأجنبية، يواجه القارئ العربي دوماً خلافاً كبيراً لم تتمكّن مجامعنا اللغوية من حسمه إلى اليوم. لكن بما أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقصر هنا على ذكر سبع نقاط:

1 - بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتباع طريقة اللغة التركية العثمانية القديمة: (دي) بالمطلق. هذا في الاسماء الفرنسية، أمّا في الاسماء الإيطالية والإسبانية فأتركه: دي.

2 - الحرف (ج) يُلفظ: تش، كما في اسم: جركس، لاجين، سلجوق. وهو ليس بحرف عربي، ويمثله في الإنكليزية ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسبانية كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يمثله في الإيطالية حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويمثله في التركية حرف ç كقولك: çay, çok, çinar. لكن مع أنني أكتب بعض الأسماء: چستر، فرانچيسكو، چيكو، بحرف (ج) فثمة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (ج) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّج، شلونج، پاچه. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: جورج) لترجمة الجيم المُعطشة المرققة، التي يُعبّر عنها في التركية العثمانية والفارسية والأوردية بحرف: ژ، ويمثلها في الفرنسية والبرتغالية ز والإنكليزية zh والروسية ж والبولونية z والجيكية ž.

3 - أما عقدة الترجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغوية، فاسم Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السعودية: قوغل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: فوغل، وفي فلسطين: جوجل، إذ يعربون لوحات الطرق: چلعداد، چدعون، چدُول، رامات چان (علماً أن ڭ هي ذاتها جنة بالعربية أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهـي ليدي غاغا أم جاجا أم فاغا؟ وكم أشعر بالغربة عندما أقرأ: لقزس، قوديز، كلوقز، قلف. ومن مظاهر التشويش الذي يفرضه الأمر أن بعض الكلمات صارت تُلفظ مغلوطة بجيم شجرية: جَلَنط Galant، كتالوج Catalogue جندول Gondol.

هذا الحرف تصنّفه اللسانيات العربية باسم (الجيم اللهوية) تمييزاً له عن (الجيم الشجرية) المشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرغم من أن أصله في لهجات العربية القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليمن ومصر) فأرى الأجدى والأدق (في الوقت الحاضر) اتباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عربوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغش، أراغون. لكن على أن نسمّه بثلاث نقاط: (غ) تمييزاً له عن الغين العربية المشبعة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: أي جيم موسومة برمز مميز: وليكن بقلم المُسنَد الحِميري اليمني، أو جيماً كنعانية، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأردو. لكن متى ترانا نفعل؟ ولماذا الجيم دون الغين أو الكاف؟ لأن «اللسانيات التيمانية» تحتمل الإقلاّب بين الجيم المشبعة وهذه الجيم اللّهيّة، التي حافظت عليها القبطيّة بمصر كاليونانيّة γ المفتقرة إلى جيم مشبعة، وبقيت في لهجة اليمن عن أصل العربيّة الجنوبيّة القديمة، وما زالت في العبريّة والسريانيّة كالجيم المصريّة.

الواقع أن الفرنسيين كانوا أكثر حذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجرية وجيم لهوية، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (غيرير) أو كما

في اسم: Guillaume (غِيّوم). وكذلك حلّ الطليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (غيزي). وهذا طبعاً في الاسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلة e أو i، أما عندما يتبعه حرف ساكن أو حرفا العلة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهوية. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطالية فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كِييفو).

وأما الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانية القديمة تُكتب الجيم الشجرية كالعربية ج، وأما اللهوية فاستعاروها من الفارسية گ. وفي التركية الحديثة بالأبجدية اللاتينية جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصّصوا حرف g للجيم اللهوية، كقولهم: gerçek (غِرْجَك)، وحرف c للجيم الشجرية، كقولهم: geceler (عِجَلَار)، Avci (أوجي)، Cem (جم).

أما الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجرية أصلاً بل لهوية فحسب، كما في: Gewehr (غِغِير)، وإن أرادوا رسم الاسماء العربية لقوا التّباريح، كقولهم في «جبل»: Dschebel، حيث أن حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياء بالمطلق. وأما لدى الإسبان، فعرف G له أحكام يطول شرحها، فالأصل في القشتالية أن يُلفظ جيماً لهوية (غ)، وإن تلاه e أو i يلفظ خاء، ولذا يضيفون u عند اللزوم كما في: Miguel ميغيل. ومن الناحية الصوتية اللفظية ثمة مناطق تلفظه غيناً لهوية، وسمعتُ بأذني في غرناطة من يلفظ اسم Aragón: «أراغون»، وليس آراغون. هذا عدا عن أن حرف G يلتبس لفظياً مع J الذي يُلفظ أيضاً خاء مع كل حرف صوتي، كقولك: Jerez, Jiménez, Jaén, Juan, Jordi.

لكنّ التعبير في العربية عن حرف الجيم اللهوي بكتابتة جيماً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السعودية) يمكن حسم بطلانه بلحظة واحدة: احتكموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقة. ثم إن الجيم لا تصلح للتعبير عن جميع الكلمات الأجنبية، وحتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، بُرُتْجال،

بلجارية، مجنطيس، إجريق، شيكاجو.. أم هل نسمي البُرغل مثلاً: بُرْجُل؟ (وهي كلمة معربة عن التركية bulgur).

4 - ثمة أسماء في اللغة الفرنسية تنتهي بكسرة مُمالة ممدودة، على غرار اسم: Colet أو René أو Garnier أو Gervais، ونظراً لانعدام وجود الكسرة المُمالة في العربية (كما هي في السريانية والعبرية مثلاً) فإن التباساً ينشأ في طريقة نقل الاسم إلى العربية. وفي المغرب العربي تشيع طريقة غير صحيحة البتة باستخدام الياء وحدها كقولهم: لويز كولي (وهي أديبة ورخالة فرنسية)، رغم أن اسمها هو: Louise Colet والياء هنا لا تؤذي المنطوق الصحيح أبداً. كذلك نلاحظ في أسماء الأرمن مثل: Vahé, Shahé أنهم يكتبونها بالعربية في لبنان وسوريا: واهي، شاهي.

فإذا عدنا إلى عهد عظماء كتاب العربية في العصر العباسي، نجد أن هذه المعضلة التي واجهتهم في الأسماء الأعجمية قد حلّوها على نحو أدق باستخدام ياء وهاء، كقولهم: سيويه، خسرويه، خمارويه، خالويه، نفطويه. وهذا يضارع أسلوب زمرة اللغات الكنعانية باستخدام الكسرة والهاء، كقولك: أرييه، موشيه. وهو قطعاً الحل الأمثل للمعضلة، وستتبعه فنكتب الأسماء الفرنسية: كولييه، رُنييه، غارنييه، جرفيه. والأسماء الإسبانية: خوسيه، بيكيه.

أما في الأسماء الإنكليزية، فرغم تشابه حرف a أو ثنائية ay مع الكسرة المُمالة، تبقى مدتها طويلة، ولذا نكتب Gray: غراي، Mabel: مايبل.

أما في الأسماء التي تنتهي بكسرة مُمالة قصيرة، فتكفي بالعربية كسرة وهاء، كما في الاسم الإسباني Condé كوندّه، أو Enrique إنريكه، والألماني Porsche پورشه، أو Pritzke پريتسكه، والهولندي Goeje خويّه، والبولوني Tyskie تيسكه، والإيطالي Simone سيمونه، أو Michele ميكيله.

5 - نصرّ في هذه السلسلة على كتابة الأسماء الأجنبية كما ترد في لغاتها، لا كما تمّت قولبتها بالإنكليزية والفرنسية. فالأصح بالألمانية: مدينة لايتسيك وليس

لايزغ، زولنغن وليس سولنجن، كولن وليس كولونيا، فلهلم وليس وليم، ريخارد وليس ريتشارد. ثم نكتب أميركا وليس أمريكا، فارشافا وليس وارسو، پراغا (پراها) وليس براغ، بيجينغ وليس بكين. وفي البرتغالية الأصح لفظ: كريشتيانو، كوشتا، جوزيه، جواو. ولكن ثمة أسماء رسخت بشكل مغلوط في الأذن العربية مثل: برشلونة (وصوابها بالقطلانية: بارثيلونا)، دون كيشوت (وصوابه بالقشتالية: دون كيخوته)، باريز أو باريس (وصوابها بالفرنسية: پاري)، لويس (لوي)، ملك القدس جاي أوف لوزجنان (غي دي لوزينيان)، وليم الصوري (عُثُوم)، برج إيفل (وصوابه: آيفل).

لكن أعجب ما أسمعه هنا في لبنان، أنَّ أحفاد كنعان العاشقين للفرنسية يصرون على لفظ الكنى الأرمنية المنتهية جميعها بلاحة: ian بلفظ فرنسي فيه غنة، كما لو كانوا يلفظون اسم Evian أو Christian، حتى لم يسلم من ذلك الاسم التركي إردوغان Erdoğan الذي بات وكأنه فرنسي ابن فرنسي، علماً أنَّ ثمة شيئاً في التركية يسمى: Yumuşak Ge أي الجيم الطرية، تلفظ كمدة مكبوتة لا كفين، كقولك: Doğan دوآن، أو: Ağaç آج.

6 - حرف H يُكتب ولا يُنطق بجميع اللغات اللاتينية: الإيطالية والإسبانية والبرتغالية والفرنسية والرومانش والترومانية، ما خلا حالة في البرتغالية بآخر الكلمة مع الألف والواو فيلفظ باء، مثل: Covilhã كوفيليا، filha فيليا، ilha إيليا، Mourinho مورينيو. وعلى ذلك، فمن الخطأ لفظ الاسم الفرنسي Henri هنري بل أنري، وهو بالإيطالية إنريكو، والإسبانية إنريكه. وأيضاً فيكتور أوغو Victor Hugo وليس هيجو أو هيغو.

7 - وأغرب الأمثلة هي الأسماء العربية التي ترد على السنة المسلمين من غير العرب، فنستوردها بصيغ لفظية مختلفة دون انتباه لأصولها العربية، كالاسم التركي ميرفت Mervet الذي ترنمت به الأسماع دون إدراك أنَّ أصله: مروة. أو اسم فتاة الشاشة التركية Tuba الذي يُكتب لدينا بالعربية «توبا» على أنه اسم تركي فريد، وما هو إلا اسم من القرآن الكريم: طوى.

وثمة كنية عريقة في لبنان: جانيته، يطيب للتأمل أن يلفظوها بلكنة فرنسية: Jean B y - بينما الاسم تركي قديم يعود إلى عصر المماليك، ولفظه بالتركية: Can Bey (جان بيه)، ومعناه: رُوح أو نفس. وكذلك اسم قَبْلان، وصوابه: Kaplan ومعناه بالتركية: نمر.

والأعجب من هذا وذاك اسم سوريا، الذي هو صيغة هيلينية (إغريقية) Συρία (سُوريّا) مقولة لاسم «آشور» الدولة العظيمة في بلاد الرافدين، سُميت بها بلاد الشام الواقعة على البحر الأبيض بما يشمل اليوم سوريا ولبنان، على اعتبارها كانت في وقت مضى تتبع لها. غير أنّ المضحك أنّ حرف الشين لا يوجد في الألفباء اليونانية، فأقلب سيناً وما زلنا إلى اليوم نلفظه مغلوطاً بعد 27 قرناً من الزمان. وكذلك فمن الخطأ كتابته: سورية، لأن الهاء بآخر الكلمة ترد بالتسميات العربية والكنعانية، لا اليونانية. وللبحث صلة..

د. أحمد إيش



ARABIC SPAIN:

*SIDELIGHTS ON HER HISTORY
AND ART*

BERNHARD AND ELLEN M. WHISHAW

WITH ILLUSTRATIONS

LONDON
SMITH, ELDER & CO., 25, WATERLOO PLACE

1912

All rights reserved

الطبعة الأولى للكتاب، دار سميث إلدر، لندن 1912



عذراء روكامادور، كنيسة سان لورنثو، إشبيلية. رسم جداري بارتفاع ثمانية أقدام، مُستعري أعيد ترميمه مع إضافات في حوالي القرن الخامس عشر مع الحفاظ على الخطوط الأساسية.

مقدمة المؤلفين

تاريخ الأندلس، أو إسبانيا تحت الحكم الإسلامي، هو تاريخ لم يكتب بعد. فالمواد المتوفرة بكميات كبيرة، لا يزال معظمها في مخطوطات، وبالمقارنة، لم يترجم سوى عدد قليل فحسب من النصوص العربية القليلة التي تم تحويلها إلى نصوص مطبوعة إلى أي من اللغات الأوروبية. وإلى أن يتم إخراج كل هذه الوثائق القيمة المتعلقة بإسبانيا والمختبأة حالياً ليس في مكتبة الإسكوريال Escorial فحسب، وإنما في مكتبات أوروبية أخرى وكذلك في مصر والمغرب، إلى أن يتم إخراجها إلى النور ونشرها، لا بد أن يتم التعامل مع كل ما يقال عن تلك الفترة الأكثر أهمية من التاريخ بوصفه مؤقفاً وقائماً إلى حد كبير على التخمين والحدس.

عندما أتينا للعيش في إسبانيا قبل سنوات، حاولنا، مثل أي شخص آخر مهتم بالبلاد، أن نحصل على كتب قد تتضمن معلومات حول نهضة الفن الإسلامي في إشبيلية وتطوره. لكننا سرعان ما نكون لدنيا قناعة ببطلان الشهادات التي غالباً ما يدلي بها علماء الآثار المحليون، بأن كل أثر للفن العربي الذي يعود إلى الفترة التي سبقت حكم الموحدين Almohades اختفى تماماً من المدينة، في حين أن التناقضات الصارخة فيما تسميه جماعة الكتاب ذاتها الفن «المدجن» mudéjar سرعان ما تظهر بادية للعيان حتى لطلبة علم الآثار والهندسة المعمارية الإسلامية ذوي الذهنية التحليلية البسيطة⁽¹⁾.

(1) وردت في النص الأصلي كلمة mudéjar المشتقة من الكلمة العربية «المدجن». ويلاحظ المؤلفان أنها بحسب القاموس الأكاديمي تستخدم لوصف المسلمين الذين بقوا على دينهم

لقد نجح «المدجنون» - إن صحّ أن نستخدم هذه الكلمة لوصفهم - وللأسف في ثني الطلبة الجادّين عن القيام بأبحاث في هذا الجزء من الأندلس. فلن يهتم أي عالم آثار بإضاعة الوقت على سبيل المثال، لدراسة قصر إشبيلية Alcazar of Seville عندما يعلن المدجنون أنه قصر يعود إلى القرن الرابع عشر بناءً على يدرو ملك قشتالة مستعيناً بـ «معمارين مسلمين أفارقة من طليطلة»⁽¹⁾، في حين أنّ قدم المسلمين الأفارقة لم تطأها أصلاً. كما لم يفكر أيّ من الأكاديميين العرب بأنه يجدر أن يصرف بعض الوقت لدراسة النقوش والزخارف الكوفية والقرمطية والأفريقية التي تغطي كامل المبنى، منذ أن نشر أمادور دي لوس ريوس⁽²⁾ دراسته عن القصر في عام 1874. فإثمة أهمية يمكن أن يولّيها المستشرقون لكتابات قيل إنّ «معمارين مسلمين» قاموا بنقشها من أجل تشريف ملك نصراني، بعد قرنٍ من طرد المسلمين من المدينة التي عُثر فيها على هذه النقوش؟ كان من الطبيعي أن يغضّ الكتاب المهتمون بالفنّ الإسلامي النظر عن إشبيلية خلال السنوات الثماني والثلاثين التي أعقبت نزول لعنة إطلاق تسمية

بعد استسلام المنطقة التي يعيشون فيها كتابعين للملوك النصارى. لكن القاموس لا يعطي لها شرحاً بوصفها كلمة ذات دلالة فنية.

(1) Moorish، Moors، وبالإسبانية Moros: وهي تسمية ذات أصل يوناني ومعناها أسود، أطلقها الرومان على سكان غرب أفريقيا. وفي القرون الوسطى أطلقت على الشعوب «السمراء» في غرب وشمال أفريقيا سواء من البربر أو غيرهم الذين شاركوا مع العرب المسلمين القادمين من الشرق في فتح جنوب إسبانيا واستيطانها، وأشهرهم القائد البربري طارق بن زياد. تم لاحقاً تعميم استخدامها وأطلقت على كل مسلم في إسبانيا حتى لو كان إسباني الأصل وتحول عن المسيحية إلى الإسلام، ثم استخدمت وخصوصاً من الإسبان للدلالة على كل مسلم. لاحظ الباحثون في بداية القرن العشرين أن هذه التسمية ليست لها قيمة إثنية، أي لا تدلّ على قوم أو شعب معيّن. وفي الترجمة ستستخدم الكلمة بمعنى «المور» أو المسلمين الأفارقة أو المغاربة أو بصورة أقل العرب، تبعاً للسياق الذي ترد فيه. وينبغي عدم الخلط بين هذه الكلمة وكلمة موريسكي Morisco التي أطلقت على الإسبان الكاثوليك من أصل مسلم، وتحولت في وقت لاحق لتصبح ذات دلالة سلبية لتُطلق على من يدعون اعتناق المسيحية في حين يمارسون الشعائر الإسلامية في السرّ. (م)

(2) خوسيه أمادور دي لوس ريوس José Amador de los Rios (1818 - 1878)، كان مؤرخاً وعالم آثار إسبانياً متخصصاً في الفن والأدب. (م)

«المدجن» على إحدى أقدم وأكثر المباني الإسلامية أهمية في إسبانيا.

وتستند النظرية برمتها إلى بعض النقوش التي نسبت بناء القصر إلى پدرو الطاغية^(١). وبعض هذه النقوش هي على أي حال مضافة، ومن بينها واحد تتضح طبيعته تلك بحيث يصعب تصوّر كيف يمكن إغفال تلك الحقيقة من مجرد نظرة سريعة إليه. ويكفي أن نلاحظ أنه لا يصعب إدخال نقوش على حائط خارجي أو في زخرفة الجصّ ضمن غيرها باستخدام المواد ذاتها. في المقابل، لا توجد على الإطلاق أية سجلات، سواء في محفوظات القصر أو أية سجلات معاصرة أو شبه معاصرة أو أية وثائق أخرى، عن هذه القطعة من العمل المعماري العظيم وباهظ التكاليف الذي يفترض أنه قام بتنفيذه حاكم كان يعاني على الدوام من صعوبات مالية. علاوة على ذلك، هناك أدلة موثقة بأن ألفونسو الحادي عشر، والد پدرو، أقام لفترات طويلة في القصر؛ حيث أنّ سجلاته تذكر في الحقيقة وجود سلم ملتفّ في ذاك القصر، وقد تمّ بالتحديد اكتشاف هذا السلم ليس قبل فترة طويلة خلال القيام ببعض التعديلات.

يبدو غريباً أن تكون لا تزال هناك ظلال من الشك بشأن حجم مساهمة پدرو ملك قشتالة في بناء قصر إشبيلية. إن مقارنة الجناح المعروف حالياً باسم «قاعات كارلوس كيتو» Salones de Carlos Quinto بمحاريب بعض الكنائس الإشبيلية القديمة، والتي أضافها ذاك الملك، طبقاً للمعلومات المستقاة من الحوليات، كتكفير عن خطاياها، تظهر أن قاعات القصر تلك، مثل محاريب الكنائس، تنتمي إلى فترة حكم پدرو نفسه، وربما قام مهندس المعماري الخاص نفسه بتصميمها كلّها، نظراً للشبه الكبير في الفكرة والطراز. ولكن بما أننا سنناقش هذه النقطة باستفاضة في مكان آخر، فإننا بالكاد نمرّ على ذكر هذه الوقائع هنا.

الحقيقة أنّ مسلمي إسبانيا لم تكن لديهم عمارة أو فنّ خاصان بهم. فكل الفنون والحرف والعمارة التي يطلق عليها خطأ عمارة وفناً وحرفاً «أفريقيا مسلمة» هي عربية

(١) اسمه بالإسبانية: Pedro el Cruel.

تقدّمه المراجع العربية باسم بطرس الطاغية (م)

في الأصل، نظراً إلى أنّ عرب إسبانيا (وليس المسلمون الأفارقة) استمدّوها من اليونان والرومان والأقباط والفرس، ويمكن تتبع ازدهارها وأفولها خطوة خطوة في إسبانيا، كما يمكن تتبع تطورها في الشام ومصر اللتين كانت بالتأكيد بعيدتين عن أي تأثير للأفارقة.

يصعب في الحقيقة أن نقول إن كانت تسمية «مسلم أفريقي» أو «مدجن» هي أكثر التسميات المغلوطة عبثاً للفنون البيزنطية والقبطية التي تطورت خلال الحكم الإسلامي لهذه البلاد. ولا يتم تناول الفن البيزنطي العربي الذي يشكل مسجد قرطبة التجسيد الرئيسي له في إسبانيا، سوى باقتضاب في هذا الكتاب، حيث تمت مناقشة تاريخه وتطوره من قبل الكثير من الكتاب الأكفاء. لكننا نأمل أن يقتنع كل مهتم بتاريخه وفن الأندلس، ممن يتحلّى بما يكفي من الصبر لقراءة وتقييم الحقائق التي نعرضها هنا، بأن الفن «المدجن» الذي يفترض أنّ الحرفيين «المسلمين الأفارقة» هم من قاموا بتنفيذه نزولاً عند أوامر أسيادهم المسيحيين هو، مع بعض الاستثناءات التي يسهل التعرف عليها، من عمل فنانين وحرفيين أقباط، أو تلامذتهم العرب أو المسيحيين، وقد تم تنفيذه خلال الفترة الطويلة المديدة عندما كان المسيحيون القوط الجنوبيون، أو المولّدون⁽¹⁾، أو المتحدّرون من أصول مختلطة قوطية ورمية عربية، ومسلمو القبائل اليمانية، يعيشون جنباً إلى جنب بسلام وودّة، في ظل حكم المولّدين أو الأمراء اليمانيين الذين سكنوا في قصر إشبيلية - المدينة الشرقية التي يجد من يعبر شوارعها الضيقة عند كل مفرق بقايا الزخارف النباتية التي كان يعشقها المسلمون الذين حكموا تلك البلاد في النصف الأخير من القرن الثاني عشر، وتفوّق فنهم على الفن المسيحي المصري الخالص والسابق عليه، وازدهر هنا في ظلّ حكم العرب اليمانيين.

لم يمضِ وقت طويل على وصولنا إلى إسبانيا حتى لاحظنا أنّ (ما يسمى) الفن الإسلامي العائد إلى الفترات الأولى في إشبيلية، كان مختلفاً بصورة لافتة عن الفن

(1) Muwallads، المولّدون، هم المسلمون أبناء سكان إسبانيا والبرتغال إبان العصور الوسطى الذين اعتنقوا الإسلام بعد الفتح الإسلامي وعاشوا في الأندلس.

الإسلامي الأول في قُرْبَة. لم نجد أحداً قادراً على أن يشرح لنا سبب ذلك، ولقد تطلب الأمر ثماني سنوات من الدراسة لتتوصل إلى الاستنتاجات المطروحة في هذا الكتاب. ورغم الإعاقة التي واجهناها بسبب جهلنا باللغة العربية، فقد تمكنا مع ذلك، كما نعتقد، من تسليط الضوء على فترة غير مكتشفة من تاريخ إسبانيا، ونأمل أن يتم قبول دراستنا بوصفها علامات تشير إلى طريق مليء بالمحطات المبهرة للمهتمين بدراسة الفترة الأولى من التاريخ الإسلامي والفترة الأولى من فن القرون الوسطى في إسبانيا.

ومن بين الصعوبات الكثيرة التي واجهناها كانت تهجئة الأسماء العربية، لأن كل مترجم كان يعتمد نهجاً خاصاً به في هذا المجال. وبعد الكثير من التمعّن، قرّرنا أنه من الأفضل أن نعتدّ التهجئة الأكثر تداولاً للأسماء والشائعة في القصص الشعبية التي تروى عن مسلمي إسبانيا، طالما أنّ كتابنا موجه في الأساس إلى القارئ العادي وليس إلى الأكاديميين، رغم أنه بالنسبة لأولئك الذين يتقنون بعض مبادئ اللغة العربية، تبقى التهجئة خاطئة. لقد اضطررنا للإشارة بصورة متكررة إلى الأسماء القبلية والعائلية خلال مناقشتنا، والأسماء العربية هي في أحسن الأحوال غريبة ولا يسهل التعرف عليها بالنسبة للقارئ العادي، لذلك شعرنا أنّ تبسيط التسميات كلما أمكن أهم من اعتماد ما يمكن أن يكون في أحسن الأحوال تهجئة صحيحة نسبياً فحسب. وللتبسيط عينه، ومع أننا بالطبع مدركون أنّ الإسلام كان منقسماً إلى عدّة مذاهب، فقد حاولنا تجنّب الإرباك من خلال تجنب التطرّق إلى المذاهب الصغيرة، ومن خلال تجميع مسلمي إسبانيا بصورة عامة ضمن المذهبين الرئيسيين: الشيعة والسنة. فنحن نعتقد، مع عدد قليل من الاستثناءات أو حتى دون استثناء، أنّ كل العرب اليمانيين في إسبانيا كانوا من الشيعة⁽¹⁾، في حين أنّ كل العرب المُضَرِّيِّين كانوا من السنة. قد يكون من الخطأ تقسيم العرب إلى قسمين بهذه الطريقة، ولكن من الضروري بالنسبة لدراستنا أن نحدّد الطرفين الرئيسيين اللذين كانت عداوتهما المستمرة مفتاحاً

(1) نعيم غير صحيح على الإطلاق، يتمّ عن ضعف في معرفة تاريخ الأندلس. (أحمد)

لفهم تاريخ الأندلس⁽¹⁾. وهكذا صنفنا ضمن الشيعة كل من أعلنوا ولاءهم للخلفاء العباسيين⁽²⁾ والفاطميين الحاكمين في الشرق، وضمن الشنّة كل أولئك الذين - من غير البربر والأفارقة - ناصبوا الشيعة العداء في أية فترة من الفترات التي نتولّى دراستها. لم يكن هدفنا إعطاء تفاصيل بشأن الخلافات الدّينية التي قسمت المسلمين، بقدر ما كان الهدف أن نظهر أن مسلمي الأندلس كانوا ينقسمون إلى فرقتين كبيرتين، بينهما عداوة على أساس الانتماء القبلي والدّين، والأثر الذي تركته هذه العداوة على التاريخ والفنّ في الدّويلات التي كانت موطناً للعرب الشيعة من أصول يمانية.

لم ينقل وجهة النّظر هذه أي من المترجمين من العربية في أوائل القرن التاسع عشر. ولكن عندما نفكر في العمل الذي قام به هؤلاء الرّجال، وخوضهم الجريء في حقبة من التاريخ الأوروبي لم يتطرق لها أحد من قبل، فإن ما يثير إعجابنا، ليس ما تم أغفاله أو الأخطاء التي وقع فيها هؤلاء المترجمون، وإنما ما أنجزوه. لقد كتب زيولد⁽³⁾ على سبيل المثال مع توفر المصادر العربية لديه، بصورة تثير الشّفقة عن «الأوقات العصيبة لغزيري⁽⁴⁾، وكونده⁽⁵⁾، وغايانغوس⁽⁶⁾». ولكن من بين كل الأعمال

(1) يستخدم المؤلفان عبارة إسبانيا المسلمة Moslem Spain تكراراً للدّلالة على الأندلس. (م)
(2) يظنّ المؤلفان كتاباً صريحاً في كتابهما أنّ الخلافة العبّاسيّة كانت على مذهب الإماميّة، وهذا بالطبع خطأ، فقد كانت خلافة سُنّيّة المذهب بلا مراء. ويبدو أنّ اتّخاذها شعار التّواد مند تأسيسها على يدّي أبي جعفر المنصور، وطلبها لثأر الحُسين من بني أميّة قد جعلهما يظنّان ذلك. (أحمد)

(3) المستشرق الألماني Christian Friedrich Seybold، كريستيان فريدريش زيولد، 1859 - 1921. (م)

(4) Miguel Casiri ميخائيل الغزيري (1710 - 1791) ورد أنه راهب ماروني من حلب، وأنه ولد في طرابلس في شمال لبنان. درس في روما وسافر إلى إسبانيا في منتصف القرن الثّامن عشر وعمل مترجماً في المكتبة الملكيّة في مدريد ثم أصبح أمين مكتبة قصر الإسكوريال. (م)

(5) المستشرق José Antonio Conde y García خوسيه انطونيو كونده (1766 - 1820). من أوائل المستشرقين الإسبان. (م)

(6) الباحث والمستشرق الإسباني Pascual de Gayangos y Arce، پاسكوال دي غايانغوس (1809 - 1897)، من مواليد إشبيلية. (م)

الوارد ذكرها في مقاله عن الأندلس في «الموسوعة الإسلامية» *The Encyclopedia of Islam*، نرى أن أياً من المستشرقين ما عدا كوندو ودوزي⁽¹⁾ وغيانغوس، لم يسعَ حتى إلى تقديم عرض متصل لتاريخ المسلمين الإسبان من أجل فائدة القارئ غير القادر على دراسة ذلك التاريخ في المصادر العربية الأصلية. هناك، وهذا صحيح، دراسات مجزأة للسلاطات والحقب التاريخية والأحداث، ولكن حتى هذه الدراسات نفسها ليست كثيرة. لكن الطالب المهتم بالتاريخ الإسباني العربي منذ الغزوة الأولى في عام 711 وحتى سقوط إشبيلية في عام 1248، ليس لديه من مرجع سوى كتاب تلك «الأوقات العصيبة» الذين تفرغوا للعمل الضخم القائم على جمع وترجمة الكتابات العربية المبعثرة عن تلك الحقبة.

نحن، اللذان أمضينا ساعات طوال محاولين العثور على كتابات تنسجم وقائعا في سرد بعض هذه الأحداث وتكوين فكرة عن الأسباب الكامنة وراءها، لدينا أسباب تجعلنا ننظر باحترام إلى العمل الذي قام به هؤلاء المؤرخون الأوائل: وعلى الرغم من أنه لم يكن لدينا من مفر سوى أن نستنتج أنهم جميعهم ارتكبوا العديد من الأخطاء ولم يراعوا الدقة، فإن مثل هذه الهفوات قلما تؤثر على قيمة عملهم بالنسبة للقارئ الذي يجهل العربية. وربما من الممكن أنه في حالتنا الخاصة، مكتبتنا نواقصنا، على الرغم من العديد من الأخطاء التفصيلية، من عرض جانب من تاريخ الأندلس غفل عنه الباحثون الذين كرسوا أنفسهم لشرح النصوص العربية التي كانوا أقربهم الشديد منها غير قادرين على رؤيتها من منظور موضوعي.

يبدو أن مؤرخي القرن التاسع عشر لم يعطوا أية أهمية للانحياز الحتمي للكتاب العرب، رغم أن ذلك يكتسي أهمية قصوى للكشف عن الوقائع؛ كيف، على سبيل المثال، كان يمكن لابن حيان⁽²⁾، المُضْري السُّني، أن يكتب بطريقة موضوعية عن

(1) المستشرق الهولندي من أصل فرنسي Reinhart Pieter Anne Dozy، رابنهارت پتر آن دوزي (1820 - 1883). (م)

(2) ابن حيان القرطبي (أبو مروان)، Abu Marwán Hayyán Ibn Jalaf Ibn Hayyan al - Qur - tubi (987 - 1075) كان مؤرخاً أندلسياً. ولد في قرطبة. (م)

الدور التاريخي الذي لعبه أعداؤه الدينيون والقبليون، العرب الشيعة الممتنون إلى قبائل يمانية؟ لقد كتب تاريخ إسبانيا كما رآه في قُرْبَة المكان الأكثر أهمية بالنسبة للرجال الذين يشبهونه في انتمائهم الديني والقبلي. لقد كانت الحرب الأهلية التي استمرت لسنوات طويلة خلال القرن التاسع بالنسبة له، على سبيل المثال، فتنة قادها «مسلمون فاسقون» و«متمردون» و«قطاع طرق». وكان طبيعياً أن يسير أحمد المقرئ⁽¹⁾، المُضْري والسُّني مثل ابن حبان، على خطاه وخطي غيره من الكتاب الذين يتمنون إلى الفكر نفسه، وبالطبع كانت وجهات نظرهم تختلف تماماً عن وجهات نظر اليمانيين، هؤلاء «المسلمون الفاسقون» و«المتمردون»، الذين كانوا يكتنون لهم كل الكره.

كما أن روايات المقرئ تناقض نفسها بشكل ظاهر. فقد كان نهجه يقوم على نقل روايات عن الأحداث نفسها كما يجدها لدى كتاب مختلفين، دون أية محاولة للتوفيق بينها عندما تكون متناقضة، مكتفياً بإضافة: «كذا ذكر بعضهم وهكذا كان. والله وحده العليم الخبير الذي أحاط بكل شيء علماً».

اعتمد كوندّه، الذي نشر كتابه «تاريخ حكم العرب في إسبانيا»⁽²⁾ في عام 1820، النهج نفسه الذي اتبعه المقرئ، وإن كان قد جاء بعده بقرنين من الزمن. لقد جمع كل المواد التي عثر عليها معاً دون أن يبذل أي جهد للتوفيق بين الروايات المتضاربة، ولكن المؤسف بما يخص مكانته العلمية، أنه نادراً ما أشار إلى مراجعه، وبخلاف المقرئ لم يحرص على إخلاء مسؤوليته عما ينقله. توفي كوندّه قبل أن تنشر كل أعماله، وهكذا خلت من الملاحظات والتصحيحات التي كان سيضيفها بلا شك لو أنه عاش. ولم يلحظ غايانغوس على ما يبدو سبب الإرباك الكبير في سرد كوندّه، ودان

(1) أبو العباس أحمد بن محمد المقرئ التلمساني المالكي الأشعري، Ahmad el – Makkari، (1591 – 1631). ولد في تلمسان. (م)

(2) كتاب بالغ الأهمية في ثلاثة أجزاء تقوم بترجمته لهذه التسلسلة، وعنوانه بالإسبانية: *Historia de la dominación de los Árabes en España*.

وقد أصدرنا منه حتى الآن الجزء الثالث، وهو الأهم. (أحمد)

ما عدّه «جهلاً» و«إيماناً ضعيفاً» لدى مواطنه واعتبره لدى المقرّي نزاهة في الغرض .
ولسوء الحظ، فإن عمل غايانغوس، المجتهد والدّؤوب ولكن الذي يخلو من أية
لمحة من التّبصّر التاريخي، لقي على الفور قبولاً في إنكلترا وإسبانيا بوصفه عملاً
موثقاً، وتبنّى مختلف الكتاب الذين اتبعوه موقفه التقدي من المترجم السابق، وظلّوا
يردّدونه بطريقة تدعو إلى الرّهق، حتى جاء من وصف انتاج كوندّه بانه «كتاب ذو قيمة
سرديّة كبيرة وإنما قيمته التاريخيّة ضئيلة، ومصدر معظم الأخطاء الواردة في الأعمال
اللاحقة». إن كان هناك ما ينقص أعمال كوندّه أكثر من أي شيء آخر، فهو القيمة
السّردية. فاللغة الإسبانيّة غالباً ما تصبح ركيكة من خلال جهد المترجم للحفاظ على
أساليب السّرد العربيّة. لكن كوندّه، على الأقل، لم يخطئ أبداً ويخلط ما بين العرب
والأفارقة، كما فعل الكاتب الذي وصف عمله باستخدام الكلمات الواردة أعلاه⁽¹⁾.

وتكمن قيمة عمل كوندّه، كما علّمتنا التجربة، في أنه اعتمد في كثير من الحالات
على سرده للوقائع نقلاً عن مصادر يمانية، أو بعبارة أخرى عن مصادر شيعية، وعليه
نحصل على نسخة مختلفة تماماً عن تلك التي كتبها خصومهم القبليّون والدينيّون
والسياسيون، من المؤرّخين المُضّرّين السّنة الذين لم يفعلوا غير أن ينقلوا وجهة نظر
قُرطبة. علاوة على ذلك، راجع كوندّه أعمال مؤرّخين لم يكن غايانغوس على اطلاع
عليهم لأنه لم يكن مسموحاً له العمل في مكتبة الإسكوريال. كانت في حوزة كوندّه
مخطوطة واحدة على الأقل لم تكن لدى المقرّي ولا لدى غايانغوس، والتي يؤكّد
القائمون على المتحف البريطاني أنه لا توجد منها نسخة كاملة معروفة. المخطوطة
وضعها المؤرّخ اليميني ابن أبي الفياض، والتي كان جزء منها ملحقاً بنسخة كوندّه

(1) لقد ميّز فرناندو الثالث، ملك قشتالة، (1199 - 1252 م) بوضوح بين العرب والمور - القادمين
من المغرب - وكذلك ابنه ألفونسو العاشر. لقد حارب الملكان المسيحيّان طوال خمسين
عاماً إلى جانب الأمراء اليمانيّين ضد الموحّدين، أعدائهم المشتركين. ولكن بعد القضاء على
آخر الموحّدين (المور الحقيقيين) خلال النّصف الثّاني من القرن الثّالث عشر، بات الكتاب
المسيحيّون يطلقون على كل المسلمين الباقيين في البلاد اسم الموروس Moros. وهذا ما أثار
الكثير من الإرباك.

من «الأبصار»⁽¹⁾ Al Abbar. يشير كوندّه في متن عمله إلى تاريخ كتبه ابن أبي الفيتاض «ترجم إلى العبرية». ويستشهد سنيور پونس⁽²⁾ في حديثه عن ابن أبي الفيتاض بقول دوزي⁽³⁾ أنه تم اقتباس هذا الكاتب في كتاب القرطاس⁽⁴⁾. وهكذا فإن كتاب كوندّه الذي اعتبره غايانغوس «نسخة غير أمينة ومحوّرة عن القرطاس» قد يتضمّن مقاطع أخذها الكاتب الذي جاء قبله مباشرة عن المؤلف الأصلي.

لقد وجدنا مراراً وتكراراً، من خلال مقارنة الأسماء والتواريخ وقبل كل شيء الصّلات القبلية، كما نقلها كوندّه، مع روايات عن الأحداث نفسها لمؤلفين آخرين، حيث لم ترد الأسماء القبلية، أنّ ذكر العلاقة القبلية يلقي الكثير من الضوء على ما ظلّ غير مفهوم إلى أن أدركنا أنّ مُضَرِّياً كان يصف بمنياً، أو العكس.

لقد أغفل الشّتيّ ابن حيّان ومؤرّخو قُرْبَة بشكل عام وقدّر الإمكان، أي اعتراف بقوة وأهمية العناصر المعادية لفريقهم. الحقيقة أنه حتى القرن العاشر كانت قُرْبَة موحّدة، وهذا لا يعني دائماً بأي حال أنها كانت الأقوى بين الدّويلات الخمس التي كانت تنقسم إليها الأندلس. كانت الدّويلات الأربع الأخرى هي الأراضى التي أعيدت إلى أبناء غيطشة (فيتيتسا)⁽⁵⁾ وثبتت ملكيتهم لها بأمر من الخليفة الوليد، و«بلاد ثيودومير» التي عرفت فيما بعد باسم مُرسية. في الوقت الذي كانت هذه الإمارات تعترف بشكل أو بآخر بالسلطة الاسمية لقُرْبَة، فقد كانت تحيط بها من كل صوب وتشكل باستمرار

(1) المقصود المؤرّخ الأندلسي الشهير ابن الأبصار القُضاعي صاحب كتاب: «الحلّة السّيّاء». (أحمد)

(2) F. Pons Boigues

(3) Cf. Pons., p. 138.

(4) القرطاس (The Kartas, Ibn Abi Zar') لابن أبي زرع الفاسي (المتوفي في حدود سنة 726) الشّيخ أبو الحسن علي بن محمّد بن أحمد بن عُمر بن أبي زرع الفاسي، وعنوانه: «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» ويعرف بكتاب القرطاس. (م)

(5) Witiza (فيتيتسا)، ورد اسمه في كتاب ابن القُوطيّة القرطبي: غيطشة، وكان آخر ملوك القوط الغربيين، حكم اعتباراً من عام 694 م.

خطراً عليها. ولم تكن الحرب الأهلية التي انتهى معها القرن التاسع، كما جاء في عرض ابن حيتان، اضطرابات سببها قادة ثائرون مشتون يحارب كل منهم على حسابه الخاص، وإنما جهداً مجتمعاً بذلته الدويلات الأندلسية للتخلص من تلك السيطرة. كانت طليطلة في الشمال ذات أغلبية مسيحية حتى سيطر عليها ألفونسو السادس في القرن الحادي عشر، وشكلت باستمرار مصدراً للقلاقل بالنسبة للأمويين حتى قبل اندلاع الحرب الأهلية في عام 886. وشكلت قشتالة (Cazlona) (كاثلونا) وجيان مركزاً للصراع الطويل الذي خاضه عمر بن حفصون (وهو نصراني) من 886 وحتى تولي عبد الرحمن الثالث الحكم في قرطبة. وتركت مرسية منذ بداية الحكم الإسلامي تحت حكم المسيحيين القوط، في حين كانت إشبيلية - حيث، وباعتراف ابن حيتان نفسه، حكم بنو حجاج أبناء الأميرة سارة حفيدة غيطشة كالملوك - أكثر قوة وثراء من أي من الدويلات الأخرى، بفضل التعايش التسلمي بين القوط والعرب والذي كرسه زواج الأميرة سارة تباعاً من اثنين من أشرف اليمن.

لا يزال سكان الأندلس - أي العامة كما يسميهم كوند في تراجمه من العربية - وإلى حد كبير على ما كانوا عليه قبل ألف سنة. لقد جلب العرب اليمنيون كل تقاليدهم القبلية وأساليب عيشهم معهم عبر مصر إلى إسبانيا، مع الحرفيين والفنانين الأقباط الذين ارتبطوا بهم على ضفاف النيل. ومن بين ما جلبوه التقاليد وأساليب العيش المرتبطة بذكرى الازدهار المادي والحضارة التي عرفها اليمن عندما كان مركزاً عالمياً لتبادل الدرة واللبذ والزيت والكتان الممتاز، وغيرها من المصنوعات، من سبائك الفضة والبرونز والحديد، التي كان يبادلها الفينيقيون مقابل الأحجار الكريمة والعاج وخشب الصندل والبهارات والفلفل والقرقة والقطن التي كان يستوردها اليمنيون من الهند، إلى جانب البخور والمر والآذن أو صبغة الخشخاش وصبر الألوة والمرمر والعقيق اليمني ولائى مضيق هرمز، من جزيرة العرب نفسها.

نسمع القليل عن التقدم الذي حققته قرطبة قبل عهد عبد الرحمن الثالث. فقد بدأ عهدها المتألق مع القرن العاشر، عندما استعان حكامها لأول مرة برجال دولة

يمينين في مجالسهم. شهدت الأندلس في تلك الفترة ازدهاراً لم يعرفه أيّ مكان في أوروبا في العلوم والفنون والآداب؛ فشُيّدت مباني رائعة، وعرف الناس رخاءً وفخامة في حياتهم بصورة لم يحلم بها سكان الشمال. وتبوّأت النساء مكانة في المجتمع لم يصلنها في أيّ من البلدان المسيحية في ذلك الوقت، أو لقرون تلت. ازدهرت الزراعة بصورة لم تشهدها إسبانيا في ظل الحكم المسيحي من قبل بفضل اعتماد وتطبيق نظام الرّي المصري. وازدهرت صناعة الخزف المطلي بالذهب والزجاج الجميل في إشبيلية ومُرسية، وحازت شهرة ويات عليها طلب في الخارج. زرعت مختلف أنواع الفاكهة وحُفظت من أجل الشتاء. واستخدمت المواقد الموصولة بالأنابيب لتدفئة المنازل، ويات الصّابون يعتبر أحد أهم احتياجات الحياة. لقد عرفت إشبيلية معظم هذه المنتجات والتجهيزات ووسائل الراحة الحضارية قبل أن يعرفها أهل قرطبة، وتفيد الدلائل أنها استُخدمت من مصر عن طريق عرب اليمن، وتم تطويرها في ظل ما يمكن أن نسميه السباق على التحضر بين المسلمين الشيعة والتبلاء القوط الذين ارتبطوا بالمصاهرة، وزاد في اتحادهم عداؤهم المشترك للمُضريين الذين سعوا بلا جدوى للسيطرة على كل البلاد انطلاقاً من مركز الحكم في قرطبة.

اشتهرت مدينة قرطبة بقصورها ومسجدها وجسرها وخصوصاً بعلمائها وأدبائها وبفخامة بلاطها بصورة عامة في عهد عبد الرحمن الثالث وخلفائه، ولكن لم يُذكر شيء عن مراكز صناعية أو مشاغل حرفية فيها.

في المقابل، اشتهرت المدن والتواحي التي عاش فيها العرب اليمينيون والأقباط والمولّدون والمسيحيون القوط بصناعاتها وزراعتها وهناك العديد من الكتب المخصصة للزراعة التي انتشرت في الفترات المزدهرة للخلافة⁽¹⁾.

يمكننا أن نضرب مثلاً على ذلك المَرّة التي تقول الحوليات إنها تجاوزت كل

(1) نأمل أن تقدّم في كتاب لاحق في المستقبل معلومات وافية عن تلك الأماكن مع أسماء القبائل اليمانية التي استقرت فيها، والمنتجات التي اشتهروا ولا يزالون في بعض الحالات يُشتهرون بها. (المؤلفان)

مدن العالم في فترة ما في صناعة المنتجات الحريرية من مختلف الأنواع بما فيها الطرز⁽¹⁾ والديباج المطرز بالحريز أو المقصب، والبروكار الدمشقي (الدَّمَقْس)، إلى جانب كل أنواع الأواني الحديدية والنحاسية والزجاجية. اشتهرت جيان بدورها بتربية دود الحريز، وبياسة بالزعران، ومُرسية بالحريز والتجاد، وبلنسية بيساتين الفاخرة والحدائق والأزهار التي كانت تملأ كل أرجائها بحيث أطلق عليها المسلمون اسم «مطيب الأندلس»، وشاطبة التي عرفت صناعة الورق قبل أي مكان آخر في أوروبا. أما إشبيلية، فكان نيذها وزيت زيتونها مصدراً رئيسياً للثراء في عهد اليمينيين كما كانا في عهد الرومان وكما هما عليه اليوم، ولكن في حين كانت هذه المنتجات أهم صادراتها على مرّ العصور، فقد امتلأت بكل فكاكة الأرض في سهل الوادي الكبير Guadalquivir الذي يجري فيه النهر الكبير، إلى درجة أنه سار عليه المثل بوصفه المكان الذي يمكن العثور فيه على «حليب العصافير» في حال طلبه أحدهم. وفي كل هذه المناطق، كان اليمينيون العرب والمسيحيون القوط يشكّلون الغالبية.

من المعروف أنّ خلافة قُرطبة انقسمت في القرن الحادي عشر إلى عدد من الدويلات المستقلة، كل منها يحكمها ملك صغير⁽²⁾، في حين سعى أتباع الأمويين سُدى لإعادة الحكم إلى عرش قُرطبة. هذه هي الرواية الشّنية للأحداث التي بدأت مع خلع هشام الثاني، حفيد عبد الرحمن الثالث، عن العرش. أما المؤرّخون اليمينيون فيقدّمون رواية أخرى للأحداث. لقد واجهنا صعوبة في أن نحصل على رواية منسجمة من الاقتباسات المجزأة من الكتاب الذين استند إليهم المؤرّخون لدى الفريق الآخر، والذين كانوا في الغالب يغفلون ذكر اسم قبيلتهم، لكننا نجحنا، كما نأمل، في جمع ما يكفي من الأدلة لكي نبيّن أن الكلمة الأخيرة عن تلك الحقبة لم تُقل بعد. حيث أنّ الرواية اليمينية للأحداث - كما هي متوفرة اليوم في الترجمات - تبيّن أن الرجال

(1) ملابس مشغولة غنية بالزخارف والكتابات المطرزة على أطرافها، كانت مخصصة في الفترات الأولى لأفراد العائلة الحاكمة.

(2) تُعرف هذه الفترة باسم «عهد ملوك الطوائف». (م)

الذين كان ابن حيان وتلامذته يصفونهم بأنهم ملوك صغار⁽¹⁾ أو «ملوك الطوائف»، أو أشخاص غير ذي قيمة، هم في الحقيقة حكام وأمراء حكموا من خلال «الحجاجة»⁽²⁾ واتخذوا لقب «الحاجب» الذي يحكم باسم هشام الثاني الذي اعترفوا به إماماً وولياً عليهم حتى سنة 1057 - 1058. لم يكن هذا بأي شكل من صنع خيال المؤرخين اليمنيين، لأن لدينا أدلة من النقود التي سكها حجاب مختلف الدويلات اليمنية حتى وفاة الخليفة المعزول في قصر إشبيلية كما يقال. انهارت الخلافة بسبب المبالغة في العداء القبلي. لقد خلع العرب السنة والبربر حفيد عبد الرحمن الثالث لأنه اعتمد على وزراء ومستشارين يمينيين، وتنادى اليمنيون لحماية الرجل الذي قبلوا به أميراً عليهم لأن جدّه ولد من امرأة تنسب إليهم من سكان البلاد من المولدين.

ولا يمكن أن نرى تحامل ابن حيان على الفريق اليمني أكثر مما نجد في روايته لأحداث الحرب الأهلية الثانية، حيث يصّر مراراً وتكراراً على الدوافع الدنيئة لأولئك الذين اعترفوا «بصانع حصر من قلعة رباح» بوصفه الخليفة المخلوع والهارب (هشام المؤيد بالله). حتى يبدو أنه كانت لديه شكوك بشأن «النصاب المخادع» وفيما إذا لم يكن في نهاية الأمر الشخص الذي كان الأمراء والولاة في الدويلات اليمنية يزعمون أنه هو. ولكن الاعتراف بذلك، كان يعني الاعتراف بأنه كان الخليفة الحقيقي للأندلس وإعادة هشام خليفة على عرش قُرطبة سيعني إعادة سلطة اليمنيين الذين انقذوا حياته وواظبوا على ولائهم له. وهكذا رفض الشّنة في قُرطبة الاعتراف بأنّ خليفتهم الشرعي نجا من محاولتي اغتيال، رغم أن كل طامع للحكم جعلوه يعتلي العرش كان يثبت أنه أقلّ كفاءة وأقلّ شعبية ممن سبقه، حتى في نهاية المطاف اختار الناس أنفسهم

(1) وردت العبارة في الإسبانية بمعنى ملوك الطوائف *reyes de taifa*، وتمت ترجمتها إلى الإنكليزية بمعنى الملوك الصغار، أو أشباه الملوك.

أما بالنسبة للترجمة، فسيتم اعتماد «ملوك الطوائف» لاحقاً. (م)

(2) الحجاجة هي رتبة الوزارة، وكان الحاجب في الأندلس هو أرفع الوزراء شأنًا عند الأمير. وتطوّرت سلطات الحاجب حتى بات يشرف على كل الأمور المدنية والعسكرية كما سيرد ذلك في عهد الحاجب المنصور. (م)

حاكماً أكد ولاية الرّجل المسن فاقد الحيل المحتجز بأمان خلف جدران قصر إشبيلية حيث لا يستطيع أيّ من أعدائه الوصول إليه وإيذائه، وهكذا عرفت قُرْبَة مجدداً بضع سنوات من الازدهار النّسي.

بعد وفاة هشام وحاميه، المعتضد بن عباد، شكّل الأمراء اليمينيون تحالفاً برئاسة المُعتمد بن عباد أمير إشبيلية. ولم يكن دافع بن عباد في حصّ رجال القبائل المؤيدين له على الانضمام إلى الحلف تعظيم شأنه، كما يؤكد المؤرّخون الشّنة، حيث لا يوجد ما يشير إلى أنه اطلق في أي وقت على نفسه لقب ملك على الأمراء الذين تحالفوا معه. كان الهدف الرّئيسي للمُعتمد بن عباد خلال اثنين وعشرين عاماً من الحكم هو إقناع الدّويلات المسلمة بتوحيد جهود المقاومة في مواجهة تعديّات المسيحيين على ثغورهم الشّمالية. لقد وافق على هذه التّياسة الأمراء الذين أعلنوا ولاءهم لهشام، ورفضها أولئك الذين تمرّدوا عليه. ولم يكن سقوط المُعتمد، كما هو مسّلم به عموماً، بسبب تحالفه مع السّطان المرابط يوسف بن تاشفين، وإنما بسبب المكائد التي حاكها مُضري عربي وبربري انضويا تحت راية الحلف اليميني تحت ستار الصّداقة، ولم يكفّ أبداً عن حبك الدّسائس حتى تحقّق هدفهما في إشعال الحرب بين الحكّام الشّبيعة الأفاقة والأندلس.

لو أنّ المقرّي ذكر أسماء قبائل الفاعلين الذين اضطلعوا بدور في الأحداث المأسوية التي شهدتها الأندلس بين 1086 و1091، لكانت أسباب الأحداث وتتابعها أكثر وضوحاً بكثير. ولكن على العكس من ذلك، يبدو أنه كان يواجه صعوبة في إخفاء العلاقة بين بني جُذام في سَرَقُسطة وبطلّيوس، وبني أبي عامر في بلنسية، وبني طاهر في مُرسية، وبني العامري في دانية، وبني أبي بكر في ولبة ولبلّة، وغيرهم من الحكّام اليمينيين، مع المُعتمد بن عباد اللّخمي الذي ينتمي إلى قبيلة لَخْم مثل زوج الأميرة سارة، والذي تزوج امرأة من عائلة بني حجاج الذين حكموا إشبيلية لأكثر من قرن نظراً لكونهم أحفاد الملوك القوط.

يبدو ذلك مختلفاً بصورة كبيرة عن الصّورة التي نقلها كتاب القرن التاسع عشر

بشأن «المدجنين» وواقع العلاقات القبلية بين الدويلات المسلمة في القرن الحادي عشر. ولكن المعالم الفنية التي ينسبها المدجنون إلى يدرو عديم الرحمة، ملك إشبيلية، تشكل صلة الوصل. ففي جميع المحافظات التي كانت مسكونة بأكثرية من العرب اليمنيين عندما كان المعتد ملكاً على إشبيلية، يمكن بوضوح تمييز ما يسميه هؤلاء الكتاب فناً مدجناً وما نسميه نحن فناً يمينياً أو عربياً - قبطياً. وبما أنه لا يكفي التأكيد بصورة جازمة بأن مدرسة الفن هذه تعود في الأندلس، ليس إلى القرن الرابع عشر، وإنما إلى القرن الثامن، فإن البديل الوحيد هو في وضع الأساس التاريخي لاستنتاجنا قبل أن نخوض في مناقشة بقاء واستمرارية الفن الإسلامي في إشبيلية.

إن التفصيل المحدد الذي كان السبب الرئيسي في تضليل المدجنين هو ما نسميه القوس أو العقد القبطي - العربي. فحدوة الفرس هي في رأيهم علامة على فن العمارة «الأفريقي المسلم»، أما القوس المدتب أو المستدق فينتهي إلى العمارة القوطية. وهكذا يمكن تلخيص حججهم بصورة مقتضبة؛ لم يكن هناك فن مسيحي في أراضي إشبيلية قبل عام 1248، لأنه لم يكن فيها مسيحيون بعد القرن الثامن، وعليه فإن أي عقد مستدق يعثر عليه هنا لا بد أن يكون بني بعد حرب الاسترداد الإسبانية (لا ريكونكيستا) La Reconquista. إن أول ملك مسيحي ورد ذكره بوصفه قام ببناء كنيسة في إشبيلية (باستثناء ألفونسو العاشر، الذي وردت كنيسة سانتا آنا التي بناها في سجلاته) هو يدرو الطاغية، الذي أمره الأسقف على ما يبدو بأن يكفر عن بعض خطايا من خلال ترميم بعض المباني المقدسة. والكنائس التي ذكرت باعتبارها ذات صلة به تحتوي على أقواس مستدقة. وعليه، فإن كل كنيسة فيها أقواس مستدقة شبيهة بالأقواس المبنية في تلك الكنائس، لا بد أن يكون بناها يدرو ملك قشتالة⁽¹⁾.

يخفي منتقدو هذه المدرسة واقع أن بعض العقود المستدقة في الكنائس التي أوردت

(1) يدرو ملك قشتالة، ويسمى أحياناً «بطرس الطاغية» Pedro el Cruel، كان ملك قشتالة من 1350 وحتى 1369. بعد مماته تم الاعتراف بمزاياه وبحث المؤرخون عن لقب جديد له فبات

يسمى «يدرو القانوني». (م)

الحواليات أنها كانت مساجد في عام 1248 - والتي يقال إنّ يدرو أعاد بناء بعضها - ليست شبيهة بالأقواس القوطية العائدة إلى القرن الرابع عشر في أي مكان آخر من العالم. وبما أنه لم يخطر في بال هؤلاء أنه قد تكون هناك علاقة ما بين الفن الإسلامي في إشبيلية والفن الإسلامي في مصر، فإنهم لم يلاحظوا أن الأقواس المستدقة التي ينسبونها إلى يدرو هي في أغلب الأحيان متطابقة مع تلك التي بناها المهندسون القوط الذين عملوا ابتداءً من القرن الثامن وما بعده في مصر لدى مسلمين، مثل عمرو بن العاص وابن طولون والخلفاء الفاطميين. هنا أيضاً، علينا أن نغوص في تاريخ اليمانيين في إسبانيا لنعرف لماذا استخدموا مهندسين أقباطاً لينوا لهم في إشبيلية، في حين أنّ المُضَرِّين في قرطبة اتَّبَعُوا الطراز البيزنطي الدمشقي.

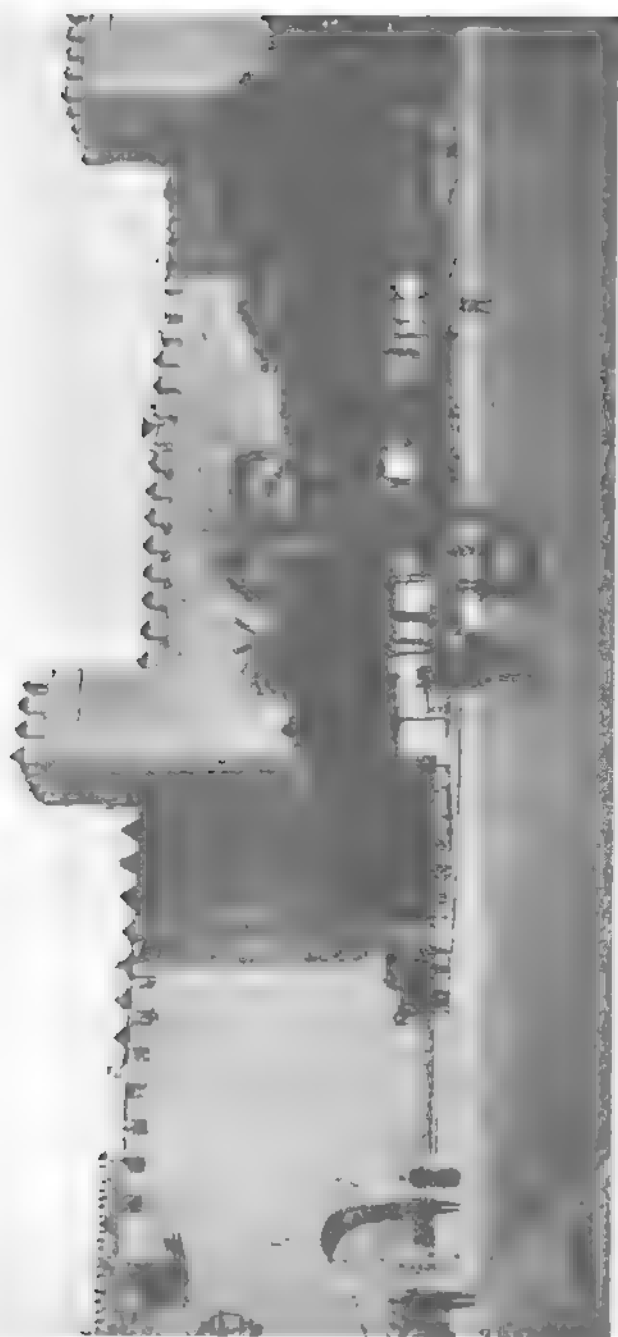
وهكذا، قادنا بحثنا عن أصول الفن المسمّى خطأ بالفن المدجّن إلى مصر. ولكن الحقيقة أنه لا تفصل سوى خطوة واحدة بين الأندلس ومصر، لأنه، وكما يقول مسيو فرانتس Franz في مقال قرأه أمام المعهد المصري: «خلال تلك الرحلة (في جنوب إسبانيا) لاحظنا الكثير من الأشياء التي تذكّرنا بمصر»، والمقال كله مليء بالمقارنات التي صعّقت لشدة تشابهها⁽¹⁾.

إن كان بإمكاننا إقناع قرائنا بأنه، من بين الفريقين الكبيرين المتعادين للذين كان ينقسم إليهما مسلمو إسبانيا، كان أحدهما يتطلّع دائماً إلى مصر بحثاً عن الإلهام الفني، سيبدو لهم تطوّر الفن اليمني والحضارة الظاهرة فيما كان يعرف قديماً باسم مملكة إشبيلية، حتمياً كما نراه نحن. ولكن لكي نضمن تكوين هذه القناعة، لا بدّ أن نقودهم عبر ما نخشى أن يكون مسارات ممّلة ووقائع جافة، ومن بينها مراجع لا بدّ من ذكرها كما حصلنا عليها. وإذا ما أوتى لأيّ مستشرق أن يقرأ هذه «الإضاءات» التي وضعناها، فنقدّم له جزيل شكرنا إن أشار إلى أخطائنا، لكي نصّحها إن تم إصدار الكتاب في طبعة ثانية.

برنهارد ويلين ويشو

(1) *L'Andalousie et ses monuments arabes*, Cairo, 1801.

الأندلس وآثارها العربية، القاهرة، 1801.



أسوار القصر الملكي في إشبيلية، الكاينول الروماني: قصر الأمراء القوط الغربيين: أعيد ترميمها وتجديد واجهتها خلال الحكم الإسلامي. بات القصر منذ استرداده عام 1248 وحتى يومنا الحاضر مكان الإقامة المفضل لملوك وملكات إسبانيا.

إسبانيا العربية إضاءات على تاريخها وفتها

الفصل الأول المسيحية في ظل الإسلام

لو اعتبرنا ما كتبه بعض كاتبى الحوليات الكنسية ومن أتبعوهم صحيحاً فذلك يعني أن الكنيسة المسيحية عانت مع أتباعها في ظل الاحتلال الإسلامي لإسبانيا لفترة طويلة من القمع والعذاب المرير. ولكن الحقيقة، أنه حتى غزو الموحدين، حين قد تكون البلاد شهدت قدراً من الاضطهاد، تمتع المسيحيون بصورة عامة بأقصى قدر من التسامح، مقابل شرط وحيد هو أن يدفعوا الجزية ويمتنعوا عن ازدراء ديانة الفاتحين.

تكفي نظرة سريعة إلى مجلدات «إسبانيا المقدسة» *España Sagrada* ليتبين بما لا يدع مجالاً للشك أن الهيكلية التنظيمية لرجال الدين المسيحيين، وشعائر العبادة المسيحية، وحركات الرهبنة المسيحية، استمرت عملياً دون أي تدخل لما يربو على مئتي عام بعد الفتح الإسلامي. بعد ذلك كانت الحوليات ضئيلة بالمقارنة، ولكن حتى في السنوات اللاحقة، كانت الأحداث المعزولة تشير إلى استمرار تمتع المسيحيين بالحرية. وعليه، وفي إشارة إلى بعض الأمثلة ليس إلا، فقد وردت أسماء ستة أساقفة من قرطبة تولوا مهامهم بين 850 و988 م. كما يذكر المؤرخ الإسباني مورغادو Alonso de Morgado قائمة بأسماء 13 من أساقفة إشبيلية، تعاقبوا على مناصبهم

حتى منتصف القرن الثاني عشر⁽¹⁾. ويذكر في الحوليات أن مالقة كان لديها أسقف في عام 865، وآخر في نهاية القرن الحادي عشر. وورد ذكر أسقف في ماردة في القرن التاسع، وسبعة أساقفة في قلمرية، وتسعة في فيزو Viseu. ويشير نقش إلى وفاة أسقف في إستجة Écija في عام 931، ووردت أسماء 11 أسقفاً في طليطلة تولوا الأسقفية بين 713 و1077. وقد ذكر رودريك ملك طليطلة أن أساقفة مدينة صيدونيا (شدونة) ولبله Niebla ومارتشينا، لجأوا إلى طليطلة في عام 1146 مع دخول الموحدين إلى إسبانيا⁽²⁾.

تفيد سجلات قُرطبة بأن ست كنائس كانت موجودة داخل المدينة وست أخرى خارجها، في منتصف القرن التاسع. وفي لشبونة، تم تخصيص «أكثر من كنيسة» للعبادة المسيحية⁽³⁾. لقد ذكر مورغادو نقشاً يسجل اكتمال بناء كنيسة سان لوكار لا مايور بين إشبيلية ولبله في سنة 1214⁽⁴⁾، وهذا هو الأكثر أهمية لأن الكتابة تثبت أن هذه الكنيسة، التي لا تزال كنيسة البلدة الصغيرة، بُنيت خلال احتلال الموحدين، في الوقت الذي يفترض فيه أن البلاد شهدت قدراً من عدم التسامح. وهناك إشارة مهمة تتحدث عن كنيسة في كتاب الإدريسي، عالم الجغرافيا العربي، الذي وضع كتابه في القرن الثاني عشر. وبما أن المقطع يتضمن بعض التفاصيل الملفنة التي لم نرها مقتبسة في أي مكان آخر، سنوردها كاملة⁽⁵⁾. تسمى الكنيسة كنيسة «الغراب» وهي تبعد سبعة أميال عن «طرف الغرب وهو طرف خارج في البحر الأعظم»⁽⁶⁾ (المقصود هنا رأس سان فيثته). يصف الكاتب الكنيسة على النحو التالي:

(1) *Prelados Sevillanos*, pp. 217 ff.

(2) *España Sagrada*, v. 336 – 84, 376 – 7, x. 112 – 4, 217, 272 – 87, 308, xi. 63 – 4, xiv. 76 – 90, 187, 317 – 21.

(3) *España Sagrada*, v. 327, x. 249 – 60, xiv. 187; cf. *Crónica general*, vii. 260 – 1.

(4) *Prelados Sevillanos*, p. 168.

(5) Idrisi, p. 17.

(6) البحر الأعظم هو المحيط الأطلسي. (م)

«هذه الكنيسة من عهد الزوم إلى اليوم لم تتغير عن حالها، ولها أموال يُتصدق بها عليها وكرامات يحملها الزوم الواردون عليها، وهي في قرطيل خارج في البحر. وعلى رأس الكنيسة عشرة أغربة لا يعرف أحد قفلها ولا عهد زوالها، وقتيسو الكنيسة يخبرون عن تلك الأغربة بغرائب يتهم المخبر بها ولا مسيل لأحد من المجتازين بها أن يخرج منها حتى يأكل من ضيافة الكنيسة ضريبة لازمة وسيرة دائمة لا يتقلون عنها ولا يتحولون منها، ورثها الخلف عن السلف وهو متعارف دائم والكنيسة في ذاتها كنيسة عامرة بالقسيسين والزهبان وبها أموال مذكخرة وأحوال واسعة وأكثر هذه الأموال محبسة عليها في أقطار الغرب ويلاذه وينفق منها على الكنيسة وخدامها وجمع من يلوذ بها مع ما يكرم به الأضياف الواردون على الكنيسة المذكورة قلوا أم كثروا»⁽¹⁾.

بنيت هذه الكنيسة في حوالي منتصف القرن الثامن، لكي تضم رُفات القديس فيثته بعد نقلها من بلنسية⁽²⁾. إن بقاء الكنيسة واستمرارها مع كل المباني والأراضي الشاسعة التابعة لها وأموال الوقف الطائلة المخصصة لها، هو بحد ذاته دليل قوي على التسامح الذي تعامل به المسلمون مع مواطنهم المسيحيين.

إن الشعائر الذينية القوطية القديمة، التي كانت تمارس عموماً في إسبانيا حتى العام⁽³⁾ 1088، لا تزال إلى اليوم تعرف باسم الشعائر المستعربة *Oficio mozarabe*. وتعني كلمة *mozarabe* «مسيحي كان يعيش سابقاً بين مسلمي *moros* إسبانيا، وكان يختلط بهم»⁽⁴⁾⁽⁵⁾. وعليه، فإن اسم هذه الشعائر بحد ذاته دليل على استمرار ممارستها عبر العصور الإسلامية. ولا تزال هذه الشعائر تمارس في واحدة من كنائس كاتدرائتي

(1) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الإدريسي، ص 250. (م)

(2) *España Sagrada*, viii, 187 – 9

(3) Mariana, Book IX., chapter xviii.

(4) *Dict. Acad.*, s. v.

(5) Mozarabs هم المتعربون أو المستعربون المسيحيون الذين عاشوا المسلمين في الأندلس، وتبنوا بعضاً من تقاليد العرب ولغتهم. (م)

طليطلة وشلمنقة، وكذلك كما نستنتج، في كنيسة لا باترياركا La Patriarca في بلنسية، التي لا يسمح للنساء بدخولها دون تغطية رؤوسهن.

لقد ذكر أيبالا⁽¹⁾، أنه تم الإبقاء في طليطلة على ست كنائس لممارسة الشعائر المسيحية في فترة الفتح الإسلامي، واستمرت الشعائر المستعربة تمارس فيها حتى 1351. لقد سبق وذكرنا عدداً من الأساقفة الذين يتولّى كل واحد منهم إدارة أبرشية وعدد من الكنائس التابعة له. ينقل فلوريث Florez عن سانت أولوخيو St. Eulogius قوله إن المسيحيين كانوا في عهده (القرن التاسع) قادرين على بناء كنائس جديدة، وإن «كانت بسيطة الطراز». ربما لم يكن في وسعهم بناء ما هو أفضل، أو أنهم لم يرغبوا في استعراض ثروتهم خوفاً من الضرائب. يقول الكاتب نفسه إن مسيحيي قرطبة كانت لهم الحرية التامة في ممارسة شعائرهم الدينية وإنه كانت للمسيحيين كنائسهم ذات الأبراج والأجراس، وإن الكنيسة كانت تمارس مختلف شعائرها، وإنه «حتى في الفترات المضطربة»، استمرّ تنظيم الجنائز عبر الطرقات⁽²⁾.

لم يواصل القساوسة ممارسة مهامهم والكنائس إحياء شعائرها فحسب، بل ازدهر العديد من الأديرة كذلك. وذكرت الحوليات ثمانية أديرة على مشارف قرطبة في القرن التاسع وأسماء العديد من رؤساء الأديرة في ذلك الوقت ومن بينهم سامسون Sampson الذي أهدى في عام 875 جرساً لا يزال موجوداً في قرطبة، إلى كنيسة سان سياستيان. عاشت القديسة أوريا St. Aurea ثلاثين عاماً في دير قبل أن يتم إعدامها بقطع رأسها في إشبيلية في عام 856، والقديس تيودومير St. Theodomir شهيد آخر من شهداء إشبيلية كان عضواً في دير في قرمونة. وأمضى عبد الرحمن، الملقب شنجلول، ابن الحاجب المنصور بن أبي عامر، ليلة في دير يدعى دير شوس، قبيل اغتياله⁽³⁾.

(1) *Cronica del Rey Don Pedro*, p. 63.

(2) *Inter ipsos sine molestia fidei degimus*,

(3) Mariana; Book VII. Chapter xvi. *España Sagrada*, ix. 294, x. 255 – 60; An – Nuwairi in Makkari, ii. 490.

إن الهستيريا الدينية التي تفشت في قرطبة في منتصف القرن التاسع هي بلا شك السبب الذي أتاح لنا الحصول على قدر أكبر من المعلومات حول وضع الكنيسة في تلك الفترة أكثر من أي وقت آخر في ظل الحكم الإسلامي. لقد نهل محرر «إسبانيا المقدسة» من الكتابات المسهية التي تركها الفارو وأولوخيو وعمل بكبد على استخراج كافة الوقائع وأضاف إليها وقائع من «حالات الاستشهاد» المختلفة ومن كتابات معاصرة أخرى، وألقى الكثير من الضوء على ظروف الكنيسة ومكانة المسيحيين في تلك الفترة.

يتحدث كتاب «إسبانيا المقدسة»، (6 - 265 x *España Sagrada*) باستفاضة عن قانون صادر في عام 734 لتنظيم حكم المسيحيين في قلمرية. هناك شكوك في صحة الوثيقة التي اقتبس عنها هذا النص، ولكن المحرر أضاف واستشهد بمعطيات من مصادر أخرى ستظهر أن القوانين التي تم الاستشهاد بها كانت في الأساس شبيهة بتلك المطبقة في مناطق أخرى. بموجب قانون قلمرية هذا كان على المسيحيين أن يدفعوا جزية تفوق بمرتين الخراج الذي كان يؤخذ من المسلمين. كانت الكنائس تدفع خمسة وعشرين بيسوس pesos من الفضة، والأديرة خمسين، والأبرشيات مئة بيسوس. وكان على المسيحيين أن يقوموا «بإحصاء» مواطنيهم الذين يتعين عليهم أن يحترموا القوانين⁽¹⁾ بما يتماشى مع العادات المسيحية. كان يُمنع عليهم دخول المساجد أو ذم الرسول تحت طائلة اعتناق الإسلام أو القتل. يقول فلوريث إن الإساءة إلى الرسول «كانت أفظع جريمة يرتكبها شهداء تلك الفترة، وعليه وعلى الرغم من أنهم كانوا يمتجدون دينهم لم يكن لذلك تأثير على القضاة إلى أن تصدر عنهم كلمات تسيء إلى ذكر محمد أو ذريته». ورد في كتاب «التاريخ العام»⁽²⁾ *Crónica general* أن اثنين من «شهداء» تلك الفترة، روخيليو وسرفيوديو، دخلا إلى مسجد قرطبة ولم يكتفيا «بالتبشير بالعقيدة» وإنما راحا يناديان بدم «النبي» وما يقود أتباعه إليه. وليس مفاجئاً أن نعلم أن مثل هذه التصرفات كلفتها حياتهما.

ومعناها: الحرص على تطبيق القانون. "Que los mantega en Buena ley" (1)

(2) Vii. 322

وسيجد المهتمون بتفشي ظاهرة الاستشهاد هذه القصة كاملة مروية بالتفصيل في كتاب دوزي «تاريخ المور»⁽¹⁾ *Geschichte der Mauren* لقد بذل الحكام المسلمون والأكثر تعقلاً من المسيحيين قصارى جهدهم للحيلولة دون قيام هؤلاء المتعصيين بإلقاء أنفسهم إلى التهلكة من خلال تعمّد إهانة ديانة الفاتحين. وكان ريكافريد Recafred أسقف إشبيلية في حوالي الفترة بين 851 - 862، متميّزاً بحكمته في معالجة هذه القضايا. فقد منع المسيحيين من طلب الشهادة عندما لم يسعّ حكامهم إلى دفعهم إلى التخلّي عن عقيدتهم، حتى أنه سجن «عددًا من الكهنة» الذين عصوا أوامره. لقد عيّنه عبد الرحمن الثاني «رئيس أساقفة الأندلس وهذا يجعله قادراً على أن يفعل الشيء نفسه في قرطبة» حيث قام هناك بسجن عدد من المسيحيين وبينهم القديس أولوخيو وأسقف قرطبة، وذلك دون شك لكي يمنعهم من أن يأتوا بأفعال تؤذيهم⁽²⁾.

وإذا صحّ ما ذكره مورغادو، فقد كان حكام قرطبة المسلمون يعمّتون الأساقفة المسيحيين. يؤكد ذلك مقطع في كتاب «إسبانيا المقدسة» (xi. 311) إلى حدّ أنه عندما قام فالتبوس، أسقف قرطبة، بتعيين كاهن في تلك المدينة رغم مرور فترة قصيرة فقط على صدور قرار عن «مجلس الأساقفة» بحرمانه كنسياً، حصل الكونت (القومس) سرفاندوس، سيد المسيحيين⁽³⁾، من «ملك المور» على مرسوم بتنجية فالتبوس وتعيين أسقف آخر مكانه.

يبدو أن قومس المسيحيين كان شخصاً ذا نفوذ ويتمتع بسلطات واسعة، وإن كنا لم نوفق في العثور على مراجع تتحدّث عن وظائفه وصلاحياته المحددة. هناك رسالة من الفارو موجهة إلى «اللورد رومانو المعظم، الأسمى بين عموم الكاثوليك»⁽⁴⁾. كان

(1) *Geschichte der Mauren*, Vol. I. Pp. 310 ff.

(2) Morgado, *op. Cit.* 221 - 2.

(3) The Count of Christians

(4) "Serenissimo omnium Catholicorum summo Domino meo Romano," *España Sagrada*, xi. 151.

رومانو هذا، سلف سرفاندوس Servandus في منصب قومس المسيحيين، طبيباً وصديقاً لألفارو. وتدلّ عبارات التبجيل والألقاب المبالغ بها التي يخاطبه بها ألفارو على الرغم من صداقتهما ومن أنه لم يعد يشغل منصباً رسمياً، على الأهمية القصوى لذلك المنصب. في هذه الرسالة، يطلب ألفارو من رومانو التدخل في دعوى قضائية رفعها ضده بعض المسيحيين، قائلاً إنّ رومانو قادر، لو أراد، أن يدحض ما صبه ابن القاضي غراسيوسو في أذني الحاكم. كان فيليكس ابن القاضي أحد المدّعين في تلك الدّعى التي لم يحكم فيها بالطّبع والده، وإلا لما استدعى الأمر أن يخاطب القومس سرفاندوس. ربما كانت تحال قضايا بسيطة أمام القاضي، أما تلك الأكثر أهمية، فكانت تعرض على القومس. وسبق في ذاكرتنا أن المنصب نفسه مذكور في تشريعات قلمرية. ومن بين أولئك القومس ذكر الكتاب الإسبان أسماء أربعة: رومانو، سرفاندوس، أدولفوس الذي أهدى كنيسة سان أسيسلو في قرطبة مكتبة، وغيفريدوس وزوجته غيسينده Guisinde، الذي حكم بعد سرفاندوس⁽¹⁾. يقول أياالا، المؤرّخ المعاصر ليدرو ملك قشتالة، إن مسيحيي طليطلة كان لديهم قاضٍ خاص بهم وتشريعاتهم الخاصة في ظل الحكم الإسلامي⁽²⁾.

ولقد وجدنا لدى الكتاب العرب أمثلة عديدة على استخدام لقب القومس. وأول من منحه الحاكم المسلم المنصب هو أرطباس ابن غيطشة⁽³⁾ (انظر الصّفحة 57 طبعة الأصل). ويقول التّسنور كوديرا نقلاً عن ابن حيان إن أرطباس كان كبير المسيحيين وجابي الجزية التي يدفعونها. وهذا بلا شك يشمل المسيحيين الذين يعيشون ضمن الأراضي التابعة لأرطباس.

كان القومس أبو سعيد يتمي إلى عائلة أرطباس. والقومس المحجّاج وابنه سرفاندوس الذي فرّ في عام 889 من قرطبة وانضم إلى عمّار بن حفصون، هو، بالنّظر

(1) *España Sagrada*, x. 364.

(2) *Cronica del Rey Don Pedro*, p. 64.

(3) ورد اسمه كذلك أرطباس لدى المقرّي. (م)

إلى اسم أبيه، من ذرية الأميرة سارة، حفيدة غيطشة (انظر شجرة العائلة). كما يأتي المؤرخ دوزي على ذكر ألفونسو، سلف ابن حفصون، الذي كان ابن خلدون يلقبه القومس.

وكلمة القومس العربية تأتي بلا شك من اللاتينية «Comes». الدلائل التي تمكنا من جمعها ضئيلة، لكنها توحي بأن الحكام العرب كانوا يمنحونه إلى كبار وجهاء العائلات المتحدرين من آخر ملك قوطي شرعي⁽¹⁾.

ورد ذكر قاضي المسيحيين في رسالة ألفارو المذكورة آنفاً، كما أورد المقرئ اسماً آخر هو وليد بن خيران، بوصفه كان حاضراً في حفل استقبال رسمي أقامه الخليفة الحكم في عام 962 على شرف أوردونيو ملك ليون⁽²⁾. وفي النص نفسه، ورد أن عبيد الله بن قاسم، أسقف قرطبة، تولى هذا المنصب. ويلاحظ غايانغوس إنه لمن المثير للفضول أن يحمل أسقف، سواء كان عبيد الله أو قاسم، هذا الاسم العربي الأصل، رغم أن ذلك، كما يقول، ليس المثال الوحيد من نوعه في تاريخ إسبانيا إبان الحكم الإسلامي⁽³⁾.

كان هناك كذلك شخص يدعى «إكسپتور» *Exceptor* يتولى منصباً رسمياً. وقد أشار أولوخيو إلى أحد هؤلاء الـ *Exceptores* بوصفه رجلاً ثرياً، اختار كيلا يخسر لقبه وحقه في الدخول إلى البلاط، أن يتنكر لنصرانيته⁽⁴⁾. وكان يشار إليه بعبارة «*publicae rei exceptor*»، التي يعتقد فلوريت أنها تعني «أمين أو مدير الضرائب». هناك كاتب آخر معاصر وصف الرجل الذي تحدث عنه أولوخيو بوصفه

(1) Al Kuttiyyah (ابن القوطية) in *Journal Asiatique*, 433, 460 – 70, Codera, *Estudios criticos*, 35 – 6.

Makkari, ii, 415, 451 – 2, Dozy, G. *Der M.*, i. 366 note.

(2) لا تعترف السجلات الإسبانية بأوردونيو هذا باعتباره واحداً من ملوك ليون. Makkari, ii. 162, 465.

(3) المصدر السابق نفسه. الصفحة، 471.

(4) *España Sagrada*, x. 265.

«متعاقداً» أو «جابي ضرائب» (المصدر السابق نفسه). ويقول دوكانج Ducange إن كلمة "Exceptor" تعني كاتب العدل. وربما يكون هذا الموظف الرسمي جمع بين منصبه ككاتب عدل وجاب للضرائب. أما دوزي⁽¹⁾ فيسميه الكاتب، أو السكرتير، ويستقي اسمه من مصادر عربية.

كانت الضرائب تُجمع شهرياً من المسيحيين، وكان بإمكانهم على ما يبدو التهرب من دفع الضريبة من خلال البقاء في منازلهم. يقول فلوريت إن أولئك الذين كان الفقر أو المرض يمنعهم من الخروج، فيبقون في منازلهم، كانوا «مُعفين من أيّ ابتزاز»⁽²⁾.

مع أفول القرن التاسع، لم يُكتب في الحوليات سوى القليل عن الكنيسة في إسبانيا المسلمة، ويزعم كاتب «الحوليات العامة»⁽³⁾ *Crónica general*، أن الاضطهاد كان سبب انحلالها. لكن ذلك يدعو إلى الشك، أولاً، فيما إذا كانت الكنيسة المسيحية انهارت فعلاً، وثانياً، ما إذا كان هناك أي شكل فعلي من الاضطهاد في الأساس. يقول دوزي إنه في إشبيلية، ومنذ عهد عبد الرحمن الثاني (822 - 852)، كان الإقبال كبيراً على اعتناق الإسلام بحيث استدعى الأمر بناء مسجد جديد كبير، وإن الأمر نفسه حصل في البيرة في الفترة نفسها تقريباً⁽⁴⁾. لكن الحقيقة أنه لم تكن هناك حاجة إلى بناء مساجد جديدة في أيّ من المدينتين إلى ما بعد أكثر من مئة عام من الغزو، مما يفترض أن حالات اعتناق الإسلام كانت بالأحرى معدودة.

إنّ ما شهد انحلالاً على وجه التأكيد بعد القرن التاسع هو استخدام اللغة اللاتينية بين

(1) *G. der M.*, i. 331.

(2) *Ut qui ex nobis ad remanentes Doctores imbecillitate corporis praepediente dirigere gressus nequiverit, aut quern inquisitio, vel census, vel vectigalis quod omnium lunari mense pro Christi nomine solvere cogimur, retinuerit: saltim nocturno tempore qui necessarium duxerit, legat. Presbiter Leovogild in España Sagrada*, x. 268 - 9.

(3) viii. 375.

(4) *G. der M.*, i. 379, 393.

المسيحيين الذين كانوا يعيشون على وفاق تام مع جيرانهم المسلمين، فيأخذون عنهم عاداتهم وأسماءهم ومصطلحاتهم، وفوق كل شيء، لغتهم، المحكية والمكتوبة على حدّ سواء. ويشكو ألفارو من إدمان معاصريه وإقبالهم على الدراسات الإسلامية في منتصف القرن التاسع. ويقول «إخواني في الدين يسعدون بقراءة تاريخ وأدب العرب، إنهم يدرسون كتابات علماء الفقه والفلاسفة المسلمين، ليس لدحضها وبرهان عدم صحتها، وإنما ليتعلموا الكتابة العربية الصحيحة بخط أنيق. أتى لنا أن نجد اليوم رجلاً من العامة لا يزال يقرأ التفسيرات اللاتينية للكتابات المقدسة؟ ومن من بينهم هناك يدرس عن الإنجيل والزّسل والتلاميذ؟.. لقد نسي المسيحيون لغتهم نفسها، ومن بين ألف منهم، لا يمكن للمرء أن يجد فرداً واحداً قادراً على كتابة رسالة صحيحة باللاتينية لصديق». ويقول غييون إنه في عام 1039، «كان من الضروري إعداد نسخة عربية من القوانين الكنسية الصادرة عن المجامع الكنسية الإسبانية لتكون في متناول الأساقفة ورجال الدين في الممالك المسلمة»⁽¹⁾.

والجدير بالملاحظة أن ألفارو لا يشكو من أن مواطنيه تنكروا لعقيدتهم وإنما يشير إلى لغتهم فقط. لا بد أن الأبرشيات الأندلسية كانت تشهد فترة ازدهار حتى يكون بوسع ألفارو أن يتحدث عن «آلاف» من أخوانه في الدين، حتى وإن أفسحنا في المجال للمبالغة. ولم يكن مسيحيو الأندلس يتلقون في ذلك الوقت أية إمدادات من الشمال على وجه التأكيد. وكما سنرى لاحقاً، ففي نهاية القرن الحادي عشر، أشار الكتاب العرب في كتاباتهم إلى «آلاف المسيحيين» في غرناطة.

لم تتوفر معلومات دقيقة عن الأعداد الكبيرة المفترضة لمن يتحولون عن المسيحية إلى الإسلام لا من مصادر مسيحية ولا مسلمة - أو أنها لو وجدت، فإننا لم نتمكن من العثور عليها. ولكن المعلومات المتوفرة أصلاً بشأن وجود الأساقفة والكنائس حتى فترة

(1) Dozy, G. *der M.*, i. 311; *Decline and Fall*, Chapter li.

تعود النسخة المطروحة إلى 1049، وقد كتب عليها «من أجل استخدام أنبل الأساقفة، جون دانيال». (غزيري، i. 541. Casiri).

متأخرة في القرن الثاني عشر، تبرهن على أن المسيحيين الذين ظلوا مخلصين لعقيدتهم، نعموا بالتسامح الديني على مر العصور. ويؤكد ذلك ما يروى عن التكريم الذي حظي به الموفدون المسيحيون القادمون من شمال إسبانيا عندما جاؤوا، كما فعلوا في أكثر من مناسبة، في طلب نقل رُفات القديسين والشهداء المدفونين في الأراضي المسلمة.

وهكذا نقرأ في «الحواليات العامة»⁽¹⁾ *Crónica general* أن سانجو التميمين أرسل إلى قُرْبَة ليطلب من عبد الرحمن الثالث نقل عظام القديس سان پيلايو؛ ونظراً لثقلته الثامة في حصوله عليها بدأ مسبقاً ببناء دير في ليون لاستقبال الرُفات. وبالمثل، في عام 1063، أرسل ملك قشتالة فرناندو الأول، أسقفين إلى المُعتمد بن عباد ملك إشبيلية في طلب رُفات القديس سان خوستو، أحد القديسين شفيعي تلك المدينة الذي استشهد في القرن الثالث لأنه أمان صورة ديانا، كما جاء في الحواريات⁽²⁾. فأبلغ المُعتمد الأسقفين بأنه لا يعرف للأسف أين يمكن العثور على رُفات القديس ولكن بإمكانهما نقل الرُفات إن عثروا عليها. وفي حين كان الإسقفان يفكران بما يجدر بهما أن يفعلوا، ظهر لهما القديس سان إيسيدورو، شفيح إشبيلية، وأبلغهما من يكون ومكان دفنه، واقترح عليهما أن يأخذا رُفاته بدلاً من رُفات سان خوستو. فقاما بنش رُفاته حيث أشار لهما، وعندما وُضعت في وعاء الدخائر المقدسة، غطاه المُعتمد بغطاء رائع من الحرير المطرّز والمشغول، وألقى فيه خطبة وداع⁽³⁾. لم تتمكن من العثور على أية سجلات تتعلق بنقل رُفات سان پيلايو أو سان إيسيدورو لدى أي من الكتاب العرب الذين تمكّنوا من الاطلاع على كتاباتهم، كما أنّ دوزي، الذي أورد قصة سان إيسيدورو كاملة، اعتمد في نقلها على المراجع الإسبانية فقط. وعلى الأرجح لم يُعر العرب أهمية كبيرة للحديثين⁽⁴⁾.

(1) viii. 257.

(2) كان خوستو في الثالثة عشرة من عمره عندما جُلد وقطع رأسه في ساحة مدينة الكالا (القلعة) في فترة الإضطهاد الروماني للمسيحيين، لأنه استخفّ بإلهة الصيد الرومانية ديانا Diana. (م)

(3) *España Sagrada*, ix. 206 – 10.

(4) جاء في القصص الدينية القديمة أنّ دير سان إيسيدورو دل كامبو في سانتيبونث Santiponce،

يتحدث الفصل العاشر باستفاضة عن تعاملات الوزير الأكبر أو الحاجب المنصور مع المسيحيين من أهل بيته، ومدى احترامه لأماكن العبادة المسيحية وما قدمه لها من عطايا. ويتحدث الفصلان الحادي عشر والخامس عشر عن زواجه من أميرة مسيحية وزواج ألفونسو السادس ملك قشتالة من ابنة المُعتمد بن عباد ملك إشبيلية. ويتم التطرق إلى الأسلاف المسيحيين لعبد الرحمن الثالث في الصفحة 79 (طبعة الأصل). يقودنا هذا إلى نهاية القرن الحادي عشر دون أن نعثر على أية أدلة على وجود أي نوع من الاضطهاد الشديد أو الدائم.

وتشير بعض المقاطع لدى المقرري والتي تتحدث عن العام 1122 إلى استمرار وجود طائفة مسيحية قوية في قلب البلاد المسلمة.

كان ألفونسو الأول ملك أراغون قد بدأ حملة مظففة عبر الأراضي الخاضعة للحكم الإسلامي، وقام بأعمال تخريب ومناوشة ومضايقات من محافظة إلى أخرى على مدى ستة أشهر متواصلة، دون أن يتهدد منعه أي من المدن الرئيسية على ما يبدو. ويواصل المقرري سرده لهذه الغزوة بقوله⁽¹⁾: «لقد قيل فيما سبق إن الموحدين أو التصاري الذين يعيشون في نواحي غرناطة كانوا السبب الرئيسي في غزوة الأذفونش لأنهم لم يكتفوا بحضه على التوغل عميقاً في أراضي المسلمين ويعدوه بتقديم كل عون ومساعدة في مقدورهم، وإنما قدّموا لجيشه كل ما يلزمه، وأرشدوه، وأنضوى عدد منهم تحت رايته. ولكن الخونة لم يفلتوا من العقاب الذي يستحقون. وبطلب

بين إشبيلية ومدينة إينالिका الزومانية المطمورة، مبني فوق النقطة التي عُثر فيها على رُفات القديس. لقد جعل غوزمان إل بويرو الذير في عام 1298 وفقاً للكنيسة. وإل بويرو هو مؤسس دوقية شدونة (مدينة صيدونيا) ووهب الوقف إلى كنيسة قائمة في الأصل ومكرّسة للقديس إيسيدورو. وبما أنه لا يوجد ما يشير إلى أن هذه الكنيسة بنيت بعد استعادة الإسبان للأندلس في عام 1248، كما لا توجد أي إشارة إلى أنها كانت مسجداً تم تحويله إلى مكان للعبادة المسيحية، فإن ما يمكن استنتاجه أنّ هناك أساساً واقعياً للزوايا التقليدية القائلة بأن الكنيسة بنيت في عهد المُعتمد عندما تمّ العثور على رُفات القديس. وتشبه الكنيسة والذير في تصميمهما تصميم القلاع أكثر مما يشبهان مكاناً للعبادة.

(1) المقطع هنا مترجم وليس بحرفية نص المقرري. (أحمد)

من عدد من أشرف قُرطبة وإشبيلية وغيرهما، عبر القاضي الجليل أبو الوليد ابن رشد (واسمه اللاتيني Averroes) إلى أفريقيا واجتمع بالسلطان علي⁽¹⁾ شارحاً له خطورة أحوال مسلمي الأندلس الذين كان عليهم أن يقاتلوا الأعداء في الخارج ويواجهوا الجواسيس في الداخل. وناشده أن يعالج هذا الشر بأن يأمر بنقل المسيحيين الذين يقطنون في نواحي غرناطة والمناطق التي سيطر عليها ألفونسو لاحقاً؛ ونزولا عند طلبه أصدر أمير المسلمين الأمر اللازم وتم ترحيل الآلاف من أهل الغدر ونقلهم إلى مكناس وسلا وغيرهما من مدن غرب أفريقيا⁽²⁾.

تقول الحوليات اللاتينية للملك ألفونسو السابع التي ينسبها محرّر «إسبانيا المقدسة» إلى كاتب معاصر، إنه في عام 1138 عبر السلطان المرابط تاشفين بن علي بن يوسف، من إسبانيا إلى المغرب، آخذاً معه عدداً كبيراً من المسيحيين الذين «كانوا قد عاشوا رديحاً من الذهب في إسبانيا»، وفي عام 1124 ذكر أن أعداداً كبيرة من مستعربي مالقة رحلوا إلى المغرب⁽³⁾.

في حوالي العام 1150، عاد الكثير من مسيحيي المغرب إلى إسبانيا. وتقول الحوليات نفسها إن «آلاف الجنود المسيحيين، مع أسقفهم والعديد من رجال الدين التابعين لهم، متّين كانوا من أهل بيت السلطان علي وابنه تاشفين، اجتازوا البحر وقدموا إلى طليطلة». ويقول التنيور كوديرا الذي اقتبس هذا المقطع أنهم كانوا مدفوعين للرحيل بسبب اضطهاد الموحدين لهم. وأياً كانت عليه الحال، يشير هذا الامر إلى أن وجود طائفة من المسيحيين مع أسقفهم والعديد من رجال الدين في القرن الثاني عشر في المغرب، تحت حكم المرابطين، لهو دليل آخر على التسامح الذي كان يعامل به المسلمون وخصوصاً أتباع المذهب الشيعي، أصحاب تلك العقيدة⁽⁴⁾.

(1) علي بن يوسف 1107 - 1143 من ملوك دولة المرابطين.

(2) ii. 306, 307.

(3) *España Sagrada*, xxiii. 387.

(4) Chron. Adefonsi Imp. In *España Sagrada*, xxi. C. 64. Codera, *Almoravides*, p. 119.

ومجدّداً، انتفض مسيحيو غرناطة في عام 1162 في وجه الموخدين بالتنسيق مع الملك اليماني ابن مردنيش⁽¹⁾، الذي كان والياً حينها على قسم كبير من شرق الأندلس. أرسل ابن مردنيش ألفين من الخيالة المسيحيين من مرسية - التي كانت تضم دولة ثيودومير أو تدمير، التي يحكمها المسيحيون القوط بموجب معاهدة وقّعوها مع عبد العزيز بن موسى في عام 714 - لمساعدة المتفضين وتمكنوا من ابقاء غرناطة تحت سيطرتهم لبضعة أشهر. وعليه، ورغم الأعداد التي تم ترحيلها في عامي 1122 و1138، فمن الواضح أن أعداداً كثيرة كانت لا تزال تعيش هناك⁽²⁾. ونجد أن الآلاف من المسيحيين كانوا يعيشون داخل حدود مناطق الحكم الإسلامي بعد أربعة قرون من الغزو الإسلامي، وبما أنهم لم يكونوا بالطبع من ذرية أولئك القوط الذين كانوا في حرب مستمرة مع المسلمين تحت حكم بيلايو وخلفائه، فلا بد أن يكونوا أبناء وأحفاد القوط الذين بقوا في الأندلس في عام 711، بموجب المعاهدة الموقعة مع الخليفة الوليد⁽³⁾ في دمشق والتي كان عليهم بموجبها أن يدفعوا الجزية للخليفة على أن يولّى عليهم أمراء من سلالتهم ومن أبناء دينهم.

في القرون الأولى من الحكم الإسلامي، لم يكن هؤلاء القوط على اتصال مع أنباع رودريغو (رودريك)⁽⁴⁾ المهزومين، ويمكننا أن نفهم حالة انعدام الثقة التي كانت

(1) ابن مردنيش (1124 - 1171 م)، هو محمّد بن سعد بن محمّد بن أحمد بن مردنيش الجذامي، أبو عبد الله، أمير شرق الأندلس. (م)

(2) Makkari, ii, 316; Codera, *Almoravides*, 138 - 40, 214; cf. Dozy, G. *der M.*, ii, 388 - 9.

استتج أنه بعد موجة الترحيل الثانية، لم يبق سوى عدد قليل منهم في الأندلس.

(3) الخليفة الأموي الوليد الأول بن عبد الملك، (705 - 715 م). جعل معاوية بن أبي سفيان (662 - 680 م)، مؤسس الخلافة الأموية من دمشق عاصمة للخلافة الإسلامية. (م)

(4) Roderick، رودريك أو رودريغو بالإسبانية والبرتغالية. ورد اسمه في الكتابات العربية لـ *Ludhriq*. قتل أثناء الفتح الأموي للأندلس في عام 711 أو 712، يشتهر بأنه «آخر ملوك القوط».

كان قبيل الفتح الإسلامي ملك هسبانيا (شبه الجزيرة الإيبيرية) لفترة وجيزة بين 710 و 712. (م)
قلت: وسبب تسمية العرب له لـ *لُدْرِيْق* أنّ حرف D في القشتالية مراراً ما يُلفظ ذالاً، كقولهم: غراناذا، مَدرِيْد. أمّا اللام فهي إقلاب شفوي لفظي مع الزاء. (أحمد)

يمكن أن تنشأ بين الفريقين. كان جيش رودريغو تحت قيادة رجال الذين الفاسدين الذين تنسب إليهم المكائد لاغتصاب عرش غيطشة وسلالة الملك الشرعية. أما القوط الذين تحالفوا مع موسى بن نصير ووقعوا معاهدة مع الخليفة الأموي فهم الذين بقوا مخلصين لعائلة الملك غيطشة بعد وفاته. لم يكن الفريق الأول يحظى بتأييد قوي في صفوف الجيش أو بين الناس، ولهذا السبب، بالإضافة إلى التحالف بين موسى والأمراء الثلاثة الورثة الشرعيين للملك، رضع جنوب وغرب إسبانيا بكامله بسرعة كبيرة للغزاة الفاتحين، أو عقد حلفاً سلمياً معهم. لقد كان حتماً أن يتوارث أبناء الفريقين المتعارضين تماماً في البداية العداء بينهما وأن يغطي انعدام الثقة والزينة على علاقتهما لبضعة أجيال.

ولكن مع بداية القرن الثاني عشر، كان الوقت كفيلاً بأن يجعل هذه العداوة تضمحل. فباستثناء اختلافهم في الدين، وفي بعض الأحيان اختلاف أسماء عائلاتهم، كان قوط الجنوب والغرب بحلول ذلك الوقت قد اندمجوا تماماً مع جيرانهم وأصدقائهم اليمانيين، عبر أربعة قرون من المصاهرة والتحالفات الهجومية والدفاعية ضد أعدائهم المشتركين. ولذلك نجد أن هذه الدويلات والمدن القوطية - اليمانية كانت أول من تعامل أو رضع للغزاة المسيحيين القادمين من الشمال والشرق، عندما اجتاح الموحدون أو المغاربة، الذين يختلفون في انتمائهم الديني وأصولهم القبليّة عن القوط والعرب اليمانيين على حدّ سواء، البلاد وسعوا إلى فرض عقيدتهم المتمزّنة على مسلمي الأندلس.

في هذا الإطار، ورغم أن الأمر يشكل استطراداً وخروجاً عن الموضوع على نحو ما، سيكون مفيداً أن نستعرض مصير المسيحيين الإسبان الذين تمّ ترحيلهم إلى المغرب في عام 1122.

يورد المؤرخ ثونيغا⁽¹⁾ Zúñiga معلومات مهمة عنهم. لقد أرسل سان فرانسيس في عام 1219 خمسة من رهبانه إلى إشبيلية التي كانت حينها عاصمة حكم الموحدين

(1) هكذا لفظ اسمه بالإسبانية برغم وجود الحرف ñ وليس: ثونيغا. (أحمد)

في إسبانيا. بشر الزهبان بالدين المسيحي فسُجنوا في البرج الذهبي (تورّه دل أورو) ثم أرسلوا إلى المغرب حيث استشهدوا في السنة التي تلتها. وفي سنة 1237، قرّر غريغوريوس التاسع⁽¹⁾، «وقد أدرك حالة الفقر والفاقة التي يعانيها أولئك الكاثوليك»، أن يرسل إليهم أسقفًا. وكان خليفة هذا الأسقف موجوداً في إشبيلية بعد وقت قصير من الاستيلاء عليها، وعاد إلى أبرشيته حاملاً رسائل توصية من البابا إينوسنت الرابع⁽²⁾ إلى سلطان المغرب⁽³⁾.

وفي عام 1386، أوفد المسيحيون المقيمون في المغرب بعثة إلى خوان الأول ملك قشتالة⁽⁴⁾ يطلبون منه القيام بمساع حميدة لدى سلطان المغرب لكي يأذن لهم بالمجيء للعيش في إشبيلية. وقد سرد ثونيغا ما حدث كما يلي:

«كان بين المسيحيين المقيمين في مملكة المغرب، والذين تحدّث عنهم في مكان آخر، بعض العائلات المعروفة التي تحمل لقب آل فارفانس، والذين كانوا يفخرون بانتماهم إلى سلالة القوط. كانوا يرغبون في المجيء إلى إسبانيا، ويرجون الملك أن يقبل بهم وأن يطلب من ملك المغرب [أن يسمح لهم بالذهاب] وأن تستقبلهم إشبيلية كمواطنين: وهذه السنة أرسلوا فرداً منهم يدعى سانجو رودريث الذي حمل لدى عودته رداً إيجابياً من المدينة. الرسالة موجودة في نص مطبوع، وتقول إحدى فقراتها: «نرغب أن نراكم في هذه المدينة فيما يرضي الله وسيدنا الملك، نريدكم أن تعرفوا أنّ قريكم سانجو رودريث زارنا وتحدّث إلينا في بعض الأمور، وقد فهمنا منها رغبته ورغبتكم، ولقد استقبلناه أفضل استقبال، ولذلك فلتطمئثوا وتعلموا أنه إن

(1) البابا غريغوريوس التاسع (1227 - 1241).

(2) البابا إينوسنت الرابع (1243 - 1254).

(3) Zúñiga, i. 83.

زار ابن الخطيب مدينة سلا في عام 1360 ووجد أن مدينة الزباط مأهولة كلها تقريباً بأبناء العائلات التي تم ترحيلها في سنة 1122.

Gayangos in Makkari, ii. 515.

(4) خوان الأول ملك قشتالة (1358 - 1390).

كانت مشيئة الله أن تأتوا إلى هذه المدينة، فستلقون منا أحسن ترحيب، وسنفعل من أجلكم ما يرضي الله وسيدنا الملك، وليحفظكم الله في تمام الصحة».

تحمل هذه الرسالة تاريخ الثامن من أكتوبر (عام 1386) وتوقيع سلطات البلدية، وخمسة من أفراد طبقة النبلاء وكبار الموظفين التي كانت تسمى «مجموعة الأربعة والعشرين» *Veintiquatros*.

توجه خوان الأول بطلب الإذن الضروري من سلطان المغرب أبي الحسن، وحصل عليه، كما جاء في رسالة نقلها ثونيغا وتضمنت «مقدمة طويلة، كما جرت عليه العادة لدى المغاربة»:

«ها أنا ذا أرسل لكم أولئك الذين أرسلتم في طلبهم، من يتسبون إليكم برباط النسب العظيم، والذين كانوا منكم: هؤلاء هم المسيحيون الخمسون من آل فارفانس من سلالة القوط العريقة في مملكتكم، ليحفظهم الله، على حسن صنيعهم وبسالتهم وعملهم الذؤوب وذكائهم وهنائهم وولائهم، فإن رغبتم أن يكونوا عوناً لكم لجنتهم من ذلك خيراً، وها هم أولاء يمشون وهم يشدون رحمتكم إلى الممالك التي ملكها أجدادهم القوط الصالحون، رحمة الله عليهم، وها أنا ذا أرسلهم إليكم نزولاً عند مشيئكم، والله هو المعين».

ويضيف ثونيغا: «هذا ما جاء في الترجمة التي نقلت في حينه عن الرسالة المكتوبة في الأصل بالعربية». «كانوا في الإجمال خمسين عائلة استقرت في إشبيلية، واحتفظ كبار أعيانهم بهذه الرسالة وبامتيازاتهم، والتي توجد نسخ أصلية منها تم تدقيقها للتحقق من أصولهم النبلية. ذهب بعضهم لاحقاً يشد لقاء الملك الذي كان قدومهم عليه مأسوياً».

«... كان في الكالا دي هيناريس (قلعة النهر)، إلى حيث جاء هؤلاء الفرسان يشدون تقبيل يده، وعندما سمع عن مراسهم وخبرتهم الواسعة في مجال الفروسية، خرج على ظهر الحصان إلى الرّيف لكي يتفرّج عليهم وهم يتمرنون، وبعد وقت قصير، ورغبة منه في أن يعرض عليهم مهارته جرى بفروسه في حقل محروث فتعثرت

الفرس، وكان سقوطه عنها من القوة بحيث مات الملك. كان موته مفاجئاً بحيث أن أحداً لم يسمع صرخته الأخيرة. وحصل ذلك الحادث المأساوي والمؤسف يوم الأحد، الموافق التاسع من أكتوبر [1390].

في عام 1394، منح إنريكة الثالث، ملك قشتالة، آل فارفانس الامتياز الذي وعدهم به والده قبل موته المفاجيء، فأعاد إليهم ألقابهم النبيلة، وتم تثبيت ذلك في عهد الملوك الذين تابعوا على الحكم حتى الملكة خوانا، والدة كارلوس الخامس. لقد وصفتهم الوثائق المذكورة بأنهم «فرسان فرانس القوط» *Caballeros Farfanés de los Godos*. استقروا في إشبيلية حيث أصبحوا من أصحاب الأماك وأسسوا كنائس وأماكن للعبادة. وعندما كتب ثونيغا في عام 1680، كان أحد محاربيهم في كنيسة أبرشية سان مارتين وقد نقش شعاراتهم على أفريز بوابتها الحديدية وثلاثة ضفادع خضراء في إطار مذهب. كان لديهم مندوب هو بمثابة متحدّث باسم العائلة كلها ومكلف بصيانة امتيازاتهم. ولم ينجز بناء كنيسة «سلالة فارفانس» حتى مطلع القرن التاسع عشر، حين تم إنشاء ممّر عبرها إلى التوهّف (خزنة المقدّسات)⁽¹⁾.

وعليه، يبدو أن الكنيسة المسيحية كانت حاضرة بقوة وبصورة مستمرة بناء على المعلومات التي تمّ جمعها، ليس فقط في ظلّ الحكم الإسلامي لإسبانيا، وإنما كذلك في المغرب لحوالي مئة وخمسين سنة بعد زوال الحكم الإسلامي في كل إسبانيا ما عدا في مملكة غرناطة. هذه الحقيقة وحدها تبرهن أنه لم يكن هناك وجود للإضطهاد أو أنه كان ضئيلاً إن وُجد، فحتى العقيدة الأكثر رسوخاً كانت بالكاد ستبقى وتستمرّ على مدى خمسمئة أو ستمئة عام لو أنها واجهت محاولات مستمرة للقضاء عليها.

لقد ورد ذكر أسقفية المغرب بصورة متكررة في الحواريات الكنسية حتى العام 1560. ويبدو أن آخر من حمل لقب الأسقف كان دون سانچو دي تروخيو (ترجالة)،

(1) Zúñiga, ii. 224, 232, 245. Gonzales de Leon, *Noticia artistic de Sevilla* (1844), I. 106.

كاهن كاتدرائية إشبيلية، والعضو في ديوان «العمل المقدس»⁽¹⁾. وكانت الأسقفية اعتباراً من 1248 على صلة وثيقة بإشبيلية، حيث كانت الرواتب تدفع من أموال الوقف التابعة لهذه الأبرشية. لقد ورد ذكر دون سانچو دي تروخيو بوصفه يملك عقود صكوك ملكية أبرشية سان تلمو San Telmo (التي أصبحت فيما بعد كلية بحرية) وأراضي تورّه بلانكا (البرج الأبيض) في إقليم الشرف. من غير الواضح في أية فترة منع سلطان المغرب حملة لقب الأسقف في تلك البلاد من ممارسة شعائهم فيها، ولكن الأدلة المتوفرة تشير إلى أنهم كانوا يمارسون ذلك حتى عام 1412⁽²⁾. ويعود تاريخ التّيابة الأسقفية القائمة حالياً في المغرب إلى فترة بناء المستعمرات الإسبانية في شمال أفريقيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر.



(1) The Holy Office (El Santo Oficio): The Congregation for the Doctrine of the Faith (CDF)

مجمع عقيدة الإيمان هي التسمية الحديثة لما كان يعرف قديماً باسم: ديوان العمل المقدس لمحاكم التفتيش (Holy Office of the Inquisition). (م)

(2) Zúñiga, iv. 16 – 7.



جزء من الزخرفة في قصر إشبيلية. كان إلى حين اكتشافه قبل بضع سنوات مغطى بطبقة من الجص والطلاء الجيري ويجري ترميمه اليوم. وهو جزء مما تبقى من قصر المعتضد بن عباد (1042 - 1069).

الفصل الثاني

أبناء غيطشة (فيتيتسا)

يبدو أن المؤرخين، الإسماني منهم والأجانب، لم يتتبعوا تاريخ أبناء الملك القوطي غيطشة الذي حكم قبل رودريغو مباشرة، ومات بعد فترة قصيرة من الغزو الإسلامي في عام 711⁽¹⁾. ومع ذلك فإن المغامرات أو الأحداث الخطيرة التي تعرض لها هؤلاء الأمراء وذريتهم وما آل إليه مصيرهم لا تشكل فحسب فصلاً رومانياً في تاريخ

(1) يقول رودريغو الطليطلي، الذي تعود كتاباته إلى النصف الأول من القرن الثالث عشر، وقد كان سابقاً للمؤرخ ماريانا، إن رودريغو القوطي خلع غيطشة عن العرش. ولكن كافة المراجع الموثوقة السابقة التي تمكنا من مراجعتها تنفق على ما يبدو على أنه مات قبل أن يستولي رودريغو على السلطة. ويفترض الكاتب غير المعروف الذي يعرف باسم إيسيدورو پائسيس والذي تعود كتاباته لحوالي سنة 754، وكان على ذلك معاصراً تقريباً للأحداث التي وثقها، أن غيطشة مات قبل أن يظهر رودريغو على الساحة، لكنه ليس جازماً في ذلك. ويخبرنا كاتب «السجل الشيباسنياني» *Chronicon Sebastiani* الذي كُتب في حوالي العام 883، أن رودريغو انتخب ملكاً عندما مات غيطشة، في حين يقول المقرئ، استناداً إلى مصادر عربية، ويوضح إن خلافات داخلية ظهرت لدى موت غيطشة عندما «قرّر القوط أن يولّوا على العرش قائداً يدعى رودريغو». ويبدو على الأرجح عموماً أن رودريغو لم يخلع غيطشة، كما يقول رودريغو الطليطلي، وإنما استولى على العرش عند مماته. ويرى غايانغوس أن رودريغو خلع غيطشة على أساس الاختلاف بشأن مدة الولاية الممنوحة له بين إيسيدورو وسيباستيان تبعاً، لكن ليس لهذا التحليل وزن يذكر في ضوء البيانات التي تدحض ذلك والتي وثقها مؤثّقون عرب وإسماني، والأفكار المتساهلة حول الحاجة إلى سجلات دقيقة والتي سادت في ذلك الوقت.

(Makkari, i. 254, and Gayangos not, p. 512 – 3; Isidorus Pacensis in *España Sagrada*, viii. 261 ff; *Chronicon Sebastiani* in id. xiii. 478; Rodericus Toletanus in Schott, *Hispania illustrata*, ii. 62 – 3.)

إسبانيا، وإنما كان لها أثر كبير على الأحداث التي شهدتها القرون الثلاثة الأولى للحكم الإسلامي في شبه الجزيرة الإسبانية.

لقد ظل غيطشة، آخر الملوك القوط الشرعيين، ولاثني عشر قرناً يحمل لقب «الخيث». يمكننا أن نأخذ وجهة نظر تمثل نموذجاً لوجهات نظر المؤرخين الكنسيين عن هذا الملك، وذلك في الوصف الذي قدمه عنه الأب اليسوعي ماريانا الذي توفي في سنّ متقدمة في العام 1623. فيقول هذا الكاتب إنّ غيطشة بدأ حكمه بأسلوب حميد، فأعاد إلى كل من نفاهم أبوه ألقابهم وأراضيهم، وأحرق كل الأوراق والسجلات الحافلة بمعصياتهم حتى لا يبقى أي أثر لها. ولكن، يضيف ماريانا: «من الصعب كبح جموح الشباب والسلطة بالمنطق والفضيلة والاعتدال». ويخبرنا الكاتب أن غيطشة كان مولعاً بالنساء، وكان يعامل خليلاته وكأنهن زوجات شرعيات له. و«لكي يجمل حالة الفوضى هذه ويبرزها، ارتكب جريمة أشنع بأن أصدر قانوناً أباح به للجميع أن يفعلوا الشيء نفسه، وأصدر تصريحاً خاصاً لرجال الكنيسة المكرّسين لخدمة الله، لكي يتزوجوا، قانون بغض مقيت، لكنه أشاع البهجة لدى الأكثرية.. كما أصدر قانوناً يرفض الانصياع للأب المقدّس، كان من شأنه أن يزيل أية موانع أو أقنعة ويفتح الطريق على مصراعيه أمام دمار المملكة التي كانت حتى ذلك الوقت تنعم بالازدهار بفضل طاعتها لروما». وعلاوة على ذلك فإنه و«خلافاً لأحكام القوانين المعمول بها منذ القدم»، سمح لليهود بالعودة إلى إسبانيا⁽¹⁾.

(1) Mariana, Book VI. Chapter xix.

يسير ماريانا في هذه المقاطع على خطى رودريغو الطليطلي وربما لوكاس، أسقف توي Tuy في جليقية (غاليسيا)، الذي توفي في عام 1288. يستعرض الكاتبان كلاهما حكم غيطشة بالتفصيل لكن أياً منهما لا يستشهد بمراجع سابقة موثوقة. ومن بين الكتاب المسيحيين لم يكن سوى اثنين معاصرين لغيطشة: إيسيدوروس پائيسيس Isidorus Pacensis، المذكور آنفاً، والكاتب الذي واصل كتابة «سجلات بيكلارنس» *Chronicon Biclarense*. ولكن على أي حال، يقال اليوم إنّ كتاباتهما كانت نسختين مختلفتين للسجل نفسه. ولكننا نعرف من خلالهما أن [أباه] إخيكا Egica ولي عهده وشريكه في العرش، وأنه حكم تقريباً لخمس عشرة سنة، وأعاد الاعتبار لأولئك الذين نفاهم والده، وأحرق سجلات سوابقهم. ويبدو في الحقيقة

يوحى هذا التشريع، إن صح، أن غيطشة هو واضعه، أنه ويعيداً عن أن يكون في صورة الفاسق الماجن التي اشتهر بها، فقد كان غيطشة حاكماً متسامحاً ومتنوراً حاول أن يختبر ما يشاع عن انعدام أخلاق رجال الدين من خلال إلزامهم بأن يتزوجوا⁽¹⁾، كما أكد استقلالية الكنيسة الإسبانية، في حين أن إعادة اليهود ربما كانت على الأرجح من أجل المصلحة التجارية للبلاد. نحن للأسف نعلم فيما نعرفه عن تشريع غيطشة على التلميحات الضمنية التي تركها كتاب عاشوا بعد القرن الثامن بكثير بسبب ضياع قرارات سينودوس أو مجلس طليطلة الثامن عشر، التي صدرت خلالها تشريعاته⁽²⁾.

وكان غيطشة، البعيد كل البعد عن صورة الماجن غير الورع كما صوره الكتاب اللاحقون، أظهر حماسة مفرطة تقريباً لاحترام المقدسات، حيث أنه حتى سنديرد، أسقف طليطلة على اتخاذ تدابير إصلاحية اعتبرها المؤرخ لفترة حكمه متطرفة.

“Per idem tempus divæ memoriæ Sinderedus urbis regiæ Metropolitanus Episcopus sanctimonie studio claret: atque longævus et merito honorabiles viros, quos in suprafata sibi commissa ecclesia reperit, non secundum scientiam zelo sanctitatis stimulat, atque instinctu jam dicti Witizæ Principis eos sub ejus tempore convexare non cessat.” (Isidorus Pacensis in *España Sagrada*, viii. 290)

ولم يذكر هؤلاء المؤرخون الأوائل شيئاً عن سلوك غيطشة الفاسق على الصعيد الشخصي، أو عن سماحه بزواج رجال الدين، وخلافه مع روما. ومن المستحيل أن نعرف إن كان لدى رودريغو الطليطلي أي إثبات على روايته، أو إن كان، مثله مثل كثيرين من الكتاب الكنسيين، اعتمد على خياله لسرد وقائمه عندما لم يحصل على شيء من مصادر أخرى.

وجدنا أقدم الكتابات التي تتحدث عن توصية غيطشة لرجال الدين بأن يتزوجوا في «السجل السياسي» الذي كتب بعد العام 866. ولا يذكر هذا الكاتب الخلاف مع روما، ولا عودة اليهود. (*España Sagrada*, xiii. 477 – 8.)

(1) أو على الأرجح في عدم التسمي إلى تطبيق التحريم الذي فرضه الملك القوطي ريكايرد (586 – 601 م). كان رجال الدين القوط، مثل الجميع غيرهم في ذلك التاريخ ولقرون بعدها، يتزوجون بحرية وفي العلن.

Cf. Lea, *History of Sacerdotal Celibacy*, i. 135, and *passim*.

(2) ربما كان لمعاملة الحكام القوط ورجال الكنيسة لليهود أثر كبير في تسهيل نجاح المسلمين. فقد خضعوا على مدى نحو مئة عام قبل الفتح الإسلامي لاضطهاد وحشي. وفي كل مرة كان يعقد فيها مجلس طليطلة أو سينودوس لكبار المسؤولين الكنسيين والأساقفة ابتداء من السينودوس الرابع (633 م) كان يتم إصدار تشريعات ضمتهم، حتى قرّر السينودوس السابع

إن كان هناك أي أساس تاريخي لما يرويه ماريانا عن طريقة تعامل غيطشة مع الكهنة ومع روما، فقد كانت هذه وحدها كافية لكي يتآمر رجال الدين ويغيثوا تعاقب الخلافة ويعطوا العرش لرجل يخدم مصالحهم بصورة أفضل. وتشير جملة أوردها إيسيدورو پائسيس إلى أن هذا هو ما حصل، إلى حد أن رودريغو اجتاحت المملكة بإيعاز من المجلس⁽¹⁾. ولكن من غير الواضح ما الذي يعنيه بالمجلس Senate، ولكن إذا تذكرنا سلطة الكنيسة الهائلة على الدولة في المملكة القوطية، فلن نكون بعيدين عن المنطق إذا افترضنا أن ما يعنيه إيسيدورو بالمجلس هو مجلس الأساقفة⁽²⁾. علينا كذلك أن

عشر (694) أنه ينبغي استرقاقهم جميعهم ومصادرة ممتلكاتهم. الكتاب الثاني عشر (Book XII. Tit. li.) من «الهيئة التشريعية» Fuero Juzgo ملئاً بشريعات مضطهدة. كان يمنع على اليهود الاحتفال بعيد الفصح أو بأعيادهم التقليدية وإجازات يوم السبت، وأن يعقدوا قرانهم طبقاً للطقوس اليهودية، وأن يأكلوا الطعام الذي يعدونه وفقاً لأحكام شريعتهم، أو يمارسوا الختان، وسواء تم تعميدهم أم لا، لم تكن شهادتهم مقبولة ضد مسيحيين. وكانت النتيجة أن اليهود رغبوا بالغزاة لدى وصولهم، هذا إن لم يحضوهم على المجيء، كما أنهم فعلوا في عهد إنيكا.

يقول المقرئ إن الفاتحين العرب أولوا شؤون قرطبة وغرناطة وإقليم رية الذي يضم مقاطعة مالقة، لليهود بعد فتحها، وأصبحت هذه الممارسة شائعة تقريباً في السنوات اللاحقة، ففي كل مرة كان المسلمون يسيطرون على مدينة، كانوا يتركونها في وصاية اليهود، مع عدد قليل من المسلمين، حيث كان باقي الجيش يواصل طريقه لتحقيق فتوحات جديدة. ويقول غايانغوس، استناداً إلى ابن خلدون، إن معظم القبائل البربرية التي تقطن السواحل الشمالية لأفريقيا، كانت تعتنق اليهودية، وإنه، رغم أن الاثنى عشر ألف رجل الذين كان يقودهم طارق بن زياد [وهو من البربر (م)] كانوا قد اعتنقوا الإسلام، فإن هذا التحول إلى الإسلام لم يكن على الأرجح صادقاً تماماً بحيث يؤثر على الفور على تعاطفهم مع بني دينهم (Makkari, i. 280, 530). ويقول لوكاس ابن توي إن اليهود فتحوا بوابات طليطلة أمام المسلمين في حين كان المسيحيون يقيمون القداس بمناسبة أحد الشعمتين في كنيسة سانتا ليوكاديا خارج المدينة (extra urbem) (Schott, iv. 70).

(1) Rudericus tumultuose regnum hortante Senatu invasit.

(2) لا يفيدنا دركانج كثيراً هنا حيث أن الإشارة الوحيدة التي يعطيها للمجلس Senatus عن مكتب السنانور الروماني، تتعلق بميثاق فرنسي يعود إلى القرن الثالث عشر. لكن عبارة سنانوريس Senatores وفق المصدر نفسه كانت مستخدمة تكراراً للإشارة إلى النبلاء nobles

نتذكر أن المدون رودريغو، بوصفه كبير أساقفة طليطلة، كان قادراً على الوصول إلى محفوظات الكاتدرائية التي كان يمكن في ذلك الوقت أن تحتوي، إن لم تكن تحتوي على ذلك في أيامنا هذه، على بعض الوثائق الخاصة بقانون غيطشة، وعليه فإنه قد يكون هناك أساس واقعي للمعلومات التي أوردها وإن كان من غير الضروري الموافقة على تفسيره لها.

وصف الكتاب المسيحيون الدور الذي اضطلع به أبناء غيطشة خلال الغزو الإسلامي بأنه خيانة، ولكن المؤرخين العرب رسموا صورة مختلفة له، ونقلوا روايات عن أحداث عدة مرتبطة بهذه الشخصيات الملكية.

يقول ابن القوطية⁽¹⁾ «إن آخر ملوك القوط بالاندلس غيطشة، توفي عن ثلاثة أولاد، أكبرهم المُنْد، ثم رُمْلَة، ثم أَرطَباش (أرطباس)⁽²⁾، وكانوا صغاراً عند وفاة أبيهم، فضبطت عليهم أمهم مُلك أبيهم بطليطلة، وانحرف لُذريق (رودريغو)، وكان قائداً لملك أبيهم، بمن يطيع به من رجال الحرب، فاحتل قُرْبَة»⁽³⁾.

ينقل المقرئ وقائع الأحداث عن عدة كتب رووها مباشرة قبل الفتح الإسلامي، ولكن ذلك النص الذي كتبه ابن القوطية وترجمه غايانغوس في ملاحظته، (Vol. I., p. 513) في كتابه عن المقرئ، هو الأكثر وضوحاً. وبما أن ابن القوطية كان سليلاً مباشراً لغيطشة كونه من سلالة أبناء حفيدته الأميرة سارة أميرة إشبيلية، فإن ما يكتبه

سواء أكانوا أبناء أعضاء مجلس الشيوخ أو الأعيان في المناطق أو الذين مارسوا مهامهم بصفتهم أعضاء في المجلس أو فضاة في مدنهم نفسها. ويمكن للمختصين باللغة اللاتينية المستخدمة في العصور الوسطى أن يحكموا أفضل منا إن كان إيسيدورو يقصد النبلاء nobles من خلال إشارته إلى المجلس Senate.

(1) الكتاب المذكور هو «تاريخ افتتاح الاندلس» لمؤلفه القرطبي أبي بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم ابن القوطية. (م)

(2) Almand, Romulo, and Artebas.

(3) Al - Kuttiiyyah in J.A., p. 430.

النص العربي منقول مع تصحيحات المحقق من: ابن القوطية، «تاريخ افتتاح الاندلس»، تحقيق إبراهيم الإياري، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، 1989، ص 29. (م)

يكتسب للوهلة الأولى مصداقية أكبر من أي كاتب آخر، بشأن الدور الذي اضطلع به الأمراء القوط إبان الفتح الإسلامي، وإن كان ينبغي لنا أن نتذكر أن كتابه يعود إلى قرنين بعد الأحداث وأنه لا بدّ اعتمد بشكل ما على كتاب سابقين، حتى فيما يتعلق بأحداث مرتبطة بأجداده أنفسهم.

بعد سرد ومناقشة نظريات وروايات مختلفة تتعلّق بالأسباب المباشرة التي دفعت المسلمين إلى غزو إسبانيا، يقول المقرّي إنه في الوقت الذي كان رودريغو يقيم به في قرطبة، دعا أبناء غيطشة للانضمام إليه في محاربة العدو المشترك، وأنهم عسكروا بقواتهم «على ضفة نهرها قبالة القصر، ولم يطمئثوا إلى الدخول على لذريق أخذاً بالحزم، إلى أن استتبّ جهاز لذريق وخرج، فانضمتوا إليه ومضوا معه وهم مرصّدون لمكروهه». لكن المقرّي يضيف نقلاً عن كتاب آخرين، أن أولاد غيطشة لم يستجيبوا لنداء رودريغو الذي اغتصب إرثهم، وأنهم على العكس من ذلك انضموا إلى طارق بن زياد بكل قواتهم. ولا يجزم المقرّي بصحة أي من هذه الروايات، «والله أعلم» كما يقول. إذ أن الكثير من الغموض، كما يقول المقرّي، يكتنف كتابات المؤرخين الذين سجّلوا أحداث الأيام الأولى للفتح الإسلامي⁽¹⁾.

يبدو أن الحوليات المسيحية أغفلت تماماً مصير أبناء غيطشة. ولولا التفاصيل التي أوردها الكتاب العرب عن حياتهم، لكان من الصعب علينا أن نعرف أن الملك القوطي خلف وراءه أولاداً. ولحسن الحظ، على أي حال، بات من الممكن تتبع سيرتهم لبضعة أجيال بأسمائهم العربية، ونقترح أن نستعرض كيف حكموا على مدى قرنين كاملين كملوك على أراضيهم وممتلكاتهم، بفضل الثروة التي ورثوها واكتسبوها، وإخلاص قسم كبير من أبناء البلاد لهم، والتقدير الذي حملته لهم أصدقاؤهم المسلمون ومعارفهم.

(1) Makkari, i. 269.

الفقرات الواردة نصاً من: المقرّي، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، 1988. ج 1، ص 257. (م)

يبدو من المؤكد أنّ أبناء غيطشة، أو رسلهم وموفديهم، طلبوا مساعدة المسلمين لاستعادة أملاكهم. يؤكد «الذهبي وأفضل الكتاب العرب» ذلك⁽¹⁾، وهو أمر لم يؤكد رودريغو الطليطلي ولو كاس ابن توي فحسب، لما لأعمالهما من وزن، وإنما كذلك مؤلف «السجل السيباني» الذي يقول إنّ أبناء غيطشة أرسلوا في طلب المساعدة من المسلمين⁽²⁾ Saracens وأحضروهم إلى إسبانيا في سفن، وهو ما يؤكد كذلك سجل⁽³⁾ *Chronicon Albedense*.

في روايته للأحداث التي سبقت الواقعة مباشرة يقول المقرئ: «قالوا وعسكر لُذريق في نحو مئة ألف ذوي عدد وعدّة (...) وأقبل نحوهم لُذريق في جموع العجم

(1) Gayangos in Makkari, i. 528.

(2) تعني كلمة Saracens تاريخياً المسلمين الذين حاربوا الصليبيين، كما كانت تطلق على أفراد القبائل السورية والعربية في عهد الأمبراطورية الرومانية. ونستخدم عموماً بمعنى العرب. (م)
(3) Witiza's sons, "callide cogitantes, missos ad Africam mittunt, Sarracenos in auxilium petunt, eosque navibus advectos Hispaniam intromittunt." *Chron. Sebast. In España Sagrada*, xiii. 478.

لكنّ دوزي بعد دراسة هذا الإعلان يدحضه (*Recherches*, i. 74 ff.) وحقته أن الهدف من حملة طارق بن زياد لم يكن سوى كسب الغنائم.

يورد رودريغو إنهما كانا سيبان سيبيرت Sisibert وإيفا Eva، ويقول إنهما قصدا ريسبلا كونت تينخيتانيا Tingitania. يقول لو كاس إنهما كانا يدعيان فارمايوس وإكسبوليو وإنهما قصدا تينخيتانيا لدى الكونت خوليان. يقول ابن القوطية، كما ورد آنفاً، إنّ أبناء غيطشة كانوا أئمنند ورملة وأرطباس، وهي الأسماء التي نقترح أن نعتدّها في هذا الكتاب؛ في حين أنّ مؤلفاً مغفل الاسم وضع كتاباً عن فتح إسبانيا يقول إنّ أحدهم كان يدعى شيبيرت Shithibert. في سجل *Chronicon Albedense*، الذي كتب في حوالي سنة 883، نصّ باللاتينية يقول:

"per filios Vitizani Regis oritur Gothis rixarum discessio: ita ut una pars eorum Regnum dirutum videre desideraren: quorum etiam favore atque farmalio Saraceni Spaniam sunt ingressi."

يقول محرّر «إسبانيا المقدّسة» إن كلمة "farmalium" اللاتينية تعني حلفاً أو عهداً؛ ولكن الكلمة لم ترد لدى دوكانج Ducange.

España sagrada, xiii. 478, 459. Schott, ii. 63, iv. 70.

Gayangos in Makkari, i. 512 – 3, 523.

وملوكها وفرسانها، فتلاقوا فيما بينهم وقال بعضهم لبعض: إن هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا وليس من أهله وإنما كان من أتباعنا، فلستنا نعدم من سيرته خبالاً في أمرنا، وهؤلاء القوم الطارقون لا حاجة لهم في استيطان بلدنا وإنما مرادهم أن يملأوا أيديهم من الغنائم، ثم يخرجوا عنا، فهلّم فلنتهزم بابن الخبيثة إذا نحن لقينا القوم لعلهم يكفوننا إياه، فإذا انصرفوا عنا أقعدنا في مُلكنا من يستحقه، فأجمعوا على ذلك، والقضاء يبرم ما ارتأوه.

«وكان لُذريق ولّى ميمته أحد أبناء غطيشة، وميسرته الآخر فكانا رأسي الذين أداروا عليه الهزيمة، وأداهما إلى ذلك طمع رجوع مُلكٍ والدهما إليهما.

«وقيل: لما تقابل الجيشان أجمع أولاد غطيشة على الغدر بلُذريق، وأرسلوا إلى طارق يعلمونه أن لُذريق كان تابعاً وخادماً لأبيهم فغلبهم على سلطانه بعد مهلكه وأنهم غير تاركين حقهم لديه، ويسألونه الأمان على أن يميلوا إليه عند اللقاء فيمن يتبعهم، وأن يسلم إليهم ضياع والدهم بالأندلس كلها، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة نفائس مختارة، وهي التي سُميت بعد ذلك صفايا الملوك، فأجابهم إلى ذلك وعاقدهم عليه، فالتقى الفريقان من الغد، فانحاز الأولاد إلى طارق، فكان ذلك أقوى أسباب الفتح، وكان الالتقاء على وادي لكّة من كورة شذونة، فهزم الله الطاغية لُذريق وجموعه، ونصر المسلمين نصراً لا كفاء له، ورمى لُذريق نفسه في وادي لكّة وقد أثقلته الجراح، فلم يُعلم له خبر ولم يوجد»⁽¹⁾.

من غير المعقول أن يكون رودريقو، الذي قام على وجه التأكيد بإزاحة أبناء غيطشة عن عرش أبيهم وانتزع منهم ميراثهم، قد وثق بهم لكي يتولّوا مراكز قيادية مهمة في جيشه في تلك المعركة الحاسمة. بالإضافة إلى ذلك، فإن المساحة الشاسعة من الأراضي التي استعادوها، والمسجلة بكامل تفاصيلها، من الصعب أن تكون مُنحت لهم مقابل خدمات قدّموها في معركة واحدة خاضها ثلاثة شتّان بالكاد بلغوا الحُلُم

(1) i. 270 - 1

المقرّي، ص 257، 258.

وباتوا قادرين على ركوب خيلهم⁽¹⁾. ولكن إن كان الغزو بأكمله نتيجة معاهدة وقعها الأمراء ومؤيدوهم مع طارق بن زياد أو موسى بن نصير، على أساس أن تُعاد إليهم أملاكهم، اعتباراً لما لهم من نفوذ على أتباعهم، تصبح المسألة واضحة. وما يدعم وجهة نظرنا هذه، وكما سنرى، أن كل جنوب غرب الأندلس عملياً حذا حذوهم في الخضوع أو التحالف مع الغزاة في الأيام الأولى من الغزو. يبدو في الواقع وكأن كل سكان ذلك الجزء من إسبانيا كان مخلصاً لسلالة غيطشة ومستعداً للقبول بالظروف الجديدة فيما آلت إليه الأمور، حيث لم تصدر المعارضة سوى عن فرقة صغيرة مؤيدة لرودريغو.

غالباً ما تُعزى المقاومة الضعيفة التي أبدتها مناطق جنوب غرب إسبانيا أمام الفتح الإسلامي إلى رخاء العيش والمناخ المعتدل للأندلس التي استنزفت طاقة القوط. ولكن تلك الفرضية تنهاوى أمام ما نعرفه عن المقاومة العنيدة التي أبدتها بعض المدن المعزولة - مثل ماردة - حيث كان فريق رودريغو هو المسيطر، والتضال الطويل الذي استمرّ والذي ستطرق إليه لاحقاً على أرض إشبيلية *la tierra de Sevilla*، كما كانت وظلت تسمى إشبيلية والأقاليم المحيطة بها لقرون لاحقة. في حين أنه في حال كان استنتاجنا بقيام تحالف مع طارق بن زياد وموسى بن نصير صحيحاً، يصبح استسلام المدن ذوات الأسوار المحصنة مثل إشبيلية وقرمونة مع قليل من المقاومة أو دون مقاومة على الإطلاق، مفهوماً.

إنّ مجمل التعامل مع عائلة غيطشة، ليس من جانب الغزاة فحسب، وإنما كذلك الخليفة الأموي في دمشق، يظهر الأهمية التي أوليت للتوايا الحسنة التي أبدتها هؤلاء الأمراء. ففي فترة الفتح الإسلامي وفيما بعد، عندما زار أحفاد غيطشة قصر الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك في دمشق، أعيد الاعتراف بمكانة العائلة الرفيعة، واستقبل أبناؤها كضيوف مكرّمين وليس كأعداء مهزومين.

يخبرنا رودريغو الطليطلي ولوكاس ابن توي أنّ قيام غيطشة بهدم أسوار أكثر المدن

(1) Alkuttiyyah in J.A., p. 430.

تحصيناً أسهم في تسهيل مهمة الفاتحين المسلمين. ولكن الكتاب المسلمين لم يشيروا بتاتاً إلى تخريب تلك الحصون، وإن صدقت سجلات القرن الثالث عشر فقد كان ينبغي أن تكون الأسوار المهتمة ظاهرة للعيان في جميع الاتجاهات إبان الغزو الذي حصل بعد خمس سنوات تقريباً من تنفيذ أمر الهدم وفق الحوليات. على العكس من ذلك، لقد أشار الكتاب العرب باستمرار إلى المدن المسورة التي استسلمت بعد توقيع معاهدات معها أمام التقدم الكبير للفاتحين، وأعربوا عن الإعجاب الذي أثارته في اذهانهم عظمة ومنعة تلك المباني المهيبة والطرق والجسور التي تركها الرومان، والتي أمر القادة المسلمون على الفور بإصلاح ما خرب منها.

وبعد هزيمتهم في المعركة التي دارت عند بحيرة لاغونا دي لا خاندا⁽¹⁾، انسحبت فلول جيش رودريغو⁽²⁾ إلى مدينة أسيدو التي تعرف حالياً باسم مدينة صيدونيا⁽³⁾، في محافظة قادس والتي تشرف على السهول الواقعة تحتها من ارتفاع شاهق يجعل أية محاولة لمهاجمتها صعبة جداً⁽⁴⁾. وكتب المقرري عما حدث حينها على الشكل التالي:

- (1) تعرف باسم معركة وادي لكه، او موقعة البحيرة. (م)
- (2) يسميه العرب للذريق أو رُذريق، كما ورد في المقرري. (م)
- (3) سماها العرب شذونة. (م)

(4) ينسب دوزي (Recherches, i. 313) وجهة نظر فلوريس (*España sagrada*, x. 20 ff.) بأن خيريث (شريش)، وليس مدينة صيدونيا، هي أسيدو الرومانية. في الفترة التي كتب فيها فلوريس، كان المقبول عموماً أنّ رودريغو هُزم على ضفاف نهر وادي لكه (هوادالته - Guadalete)، في مكان قريب من پويرتو دي سانتا ماريا. لكن تم التوصل الآن إلى أن المعركة حصلت على ضفاف بحيرة لا خاندا، بالقرب من نهر برباط الصغير الذي يصب في البحر إلى الشرق من رأس طرف الغار Cape Trafalgar، وبالقرب من الطريق الروماني من الجزيرة إلى قادس. من غير المعقول أن ننصّر أنّ فلول جيش رودريغو المهزوم، الباحثة عن ملاذ، عبرت مدينة شذونة ذات التلال الوعرة، على بعد اثني عشر أو خمسة عشر ميلاً من ميدان المعركة، للاحتماء بمدينة سهلية، تبعد عنها ضعفي المسافة. نعتقد أنه من الصحيح القول إنّ دوزي لم يزر جنوب إسبانيا، وبذلك فهو غير مطلع على الطبيعة الجغرافية للمنطقة. هناك خمسة طرق رومانية تقود من مدينة صيدونيا في اتجاهات مختلفة، واحدة منها تتجه إلى مدينة بيخير دي لا فرونتيرا Bejer de la Frontera على نهر برباط، من حيث كان يتم اصطياد السمك وجلبه كل مساء إلى أسياذ المدينة الرومانية، وهي عادة لا تزال تمارس إلى اليوم.

«وتسامع الناس من أهل برّ العدو بالفتح على طارق بالاندلس وسعة الغنائم فيها، فأقبلوا نحوه من كل وجه، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر، فلاحقوا بطارق، وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع، وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال، ثم أقبل طارق حتى نزل بأهل مدينة شذونة، فامتنعوا عليه، فشدّ الحُصر عليهم حتى نهكهم وأضرهم، فنهأ له فتحها عنوة، فحاز منها غنائم، ثم مضى منها إلى مورور [أوربما مورون]، ثم عطف إلى قرمونة فمرّ بعينه المنسوبة إليه، ثم مال على إشبيلية فصالحه أهلها على الجزية، ثم نازل أهل إسبجة وهم في قوة ومعهم فل عسكر لُذريق. فقاتلوا قتالاً شديداً حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين، ثم إنَّ الله تعالى أظهر المسلمين عليهم فانكسروا، ولم يلقَ المسلمون فيما بعد ذلك حرباً مثلها»⁽¹⁾.

يكتسب ذكر جيش رودريغو هنا أهمية كما هي الحال بالنسبة للجملة التالية (p. 276):

«وقذف الله الرعب في قلوب الكفرة لما رأوا طارقاً يوغل في البلاد، وكانوا يحسبونه راغباً في المغنم عاملاً على القفول، فشقط في أيديهم، وتطايروا عن السهول إلى المعازل، وصعد ذوو القوة منهم إلى دار مملكتهم طليطلة»⁽²⁾ بهدف الصمود والمقاومة داخل أسوارها.

أما مدينة سيدونيا، أو شذونة، فمعلقة على نتوء جبلي في سلسلة جبلية تشكل جزءاً من جبال سيرانيا دي روندا وقد يكون المسيحيون الذين هربوا إليها لجأوا فعلياً إلى الجبال للاحتباء فيها. ولكن لا توجد جبال على مسافة عشرة أميال أو أكثر من شريش. يبين غايانغوس من خلال سلسلة من التحريفات وذلك بسبب الحروف التي يستخدمها عرب الأندلس وأفريقيا كيف أن وادي برباط الذي كانوا يستقون كذلك وادي بكة، قد يكون تغير ليصبح اسمه وادي لكّة. (Makkari, i. 526 – 7.)

(1) Makkari, i. 275.

المقاطع العربية مأخوذة بنصّها من المقرّي، نفع الطيّب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، 1988. ج 1، ص 259 – 260.

(2) المقرّي، ج 1، ص 260.

يتعين علينا الآن أن نعود إلى الأمراء القوط.

بعد معركة بحيرة لا خاندا مباشرة، طلبوا من طارق أن يسلمهم رسالة إلى قائده موسى بن نصير في شمال أفريقيا يشرح فيها الاتفاق الذي عاهدهم عليه؛ فأجابهم طارق بما طلبوا لكن موسى بن نصير لم يشأ أن يتحمل مسؤولية اتخاذ القرار، فأرسلهم إلى الخليفة أمير المؤمنين في الشام، «فلما وصلوا إلى الوليد أكرمهم واتفق لهم عهد طارق في ضياع والدهم وعقد لكل واحد منهم سجلاً»⁽¹⁾. يبدو من ذلك أن الخليفة عامل أولاد غيطشة بسخاء⁽²⁾، وكان يمكن أن يوصف تعامله معهم بأنه مبالغ به لو أنهم جاؤوا ضارعين متوسلين عطف فاتح بلادهم. كما أن عدم اكتراث الوليد لهم كان سيثير الشكوك. فقد كان الأمراء القوط في موقع يجعلهم قادرين على إثارة البلبلة إن لم يعلنوا ولاءهم لقادة الأندلس الجدد، ولا شك أن الخليفة كان مدركاً لهذا الواقع. لقد كان مسيحيو إشبيلية قد ثاروا على الحامية الصغيرة التي تركها موسى بن نصير هناك، وقتلوا ثلاثين من رجالها، وأرغموا الباقين على الالتحاق بالجيش الذي كان يحاصر ماردة⁽³⁾.

لم يكن قد وصل البلاد عدد كبير من المسلمين وكانوا موزعين في مناطق عدة، وعليه فلو أن الشكوك انتابت القوط الراغبين في التسلم في جنوب غرب البلاد بأن الأمراء الساعين لاستعادة أملاكهم إنما عوملوا كالتساعين إلى الحصول على عطايا، لكان الوضع أكثر خطورة مما نقله الكتاب العرب.

وإثباتاً كانت حقيقة الأمر، فما من شك بأن الخليفة الوليد فعل قصارى جهده لإرضاء الأمراء. فهو لم يصدق فقط على الاتفاق الذي عقده مع طارق بن زياد، بل أعطى كلاً

(1) Makkari, i. 275.

النص المنقول عن المقرئ، ج 1، ص 266.

(2) li. 14.

(3) Conde, i. 45 – 6.

يقول المقرئ إن المسيحيين قتلوا ثمانين من المسلمين، وإن إشبيلية استسلمت بعد معركة قصيرة، لكن موسى بن نصير واجه مقاومة في ماردة. (Makkari, i. 285).

منهم وثيقة إضافية تضمن لهم ولذريتهم من بعدهم ملكية كل الأراضي المذكورة في المعاهدة وتحميهم من تعرضهم للتسلب من جانب العرب الوافدين للإقامة فيها.

وعن ذلك كتب المقرئ: «فقدّموا الأندلس، وحازوا ضياع والدهم أجمع، واقتسموها على موافقة منهم، فصار لكبيرهم أَلُمُنْد ألف ضيعة في غرب الأندلس فسكن من أجلها إشبيلية مقرباً منها، وصار لأرطباش [أرطباس] ألف ضيعة، وهو تلوّه في السّن، وضياعه في موسطة الأندلس، فسكن من أجلها قُرْبَة، وصار لثالثهم وقلة [رُملة] ألف ضيعة في شرقي الأندلس وجهة الثغر، فسكن من أجلها مدينة طليطلة، فكانوا على هذه الحال صدر الدولة العربية، إلى أن هلك أَلُمُنْد كبيرهم، وخلف ابنته سارة المعروفة بالقوطيّة وابنين صغيرين»⁽¹⁾.

(1) Makkari, ii. 14.

ورد في كتاب المقرئ أنه بعد وفاة أَلُمُنْد والد سارة، «فبسط أرطباش يده على ضياعهم وضتها إلى ضياعه، وذلك في خلافة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، فأنشأت سارة بنت أَلُمُنْد مركباً بإشبيلية حصيناً كامل العدة، وركبت فيه مع أخويها الصّغيرين تريد الشام حتى نزلت بعسقلان من ساحلها ثم قصدت باب الخليفة هشام بداره بدمشق، فأنهت خبرها، وشكت ظلامتها من عمتها واستعدت عليه، واحتجّت بالعهد المنعقد لأبيها وأخويه على الخليفة الوليد بن عبد الملك، فأوصلها هشام إلى نفسه، وأعجبته صورتها وحزمها، وكتب إلى حنظلة بن صفوان عامله بإفريقية بانصافها من عمتها أرطباش وامضائها وإخويها على سُنّة الميراث فيما كان في يد والدها مما قاسم فيه أخويه، فأنفذ لها الكتاب بذلك إلى عامله بالأندلس أبي الخطار ابن عمة، فتم لها ذلك». (المقرئ، ج 1، ص 266 - 267)

يضيف شربوتو Cherbonneau في ترجمته لابن القوطيّة بعض التفاصيل، وفيها أنّ الصّكوك التي أعطاه الخليفة الوليد للأمراء نصّت على أن يحافظوا على الحياد. لقد تمّت ترجمة «ضياع» villages كما وردت في نص المقرئ إلى «مزارع» farms. كان اسم ابني أَلُمُنْد ماتروبال وأوباس، ويقال إنّ الأخير مات في جليقية (غاليليا). ويقول غايانغوس (Makkari, ii. 415) إنه كان الأسقف أوباس الذي قتل في كوفادونغا Covadonga (صخرة بلاي) لكن هذا خطأ واضح، فالمند لم يكن سوى طفل في عام 711، ومعركة كوفادونغا جرت في عام 718.

في كتاب «أخبار مجموعة في فتح الأندلس» Akhbar Majmua وهو عمل مجهول المؤلف يعود إلى القرن الحادي عشر، ورد أن الخليفة الوليد استقبل الأمراء بحفاوة وأنفذ لهم ما عاهدهم عليه طارق بن زياد في استعادة ملك أبيهم، وأعطى كلّاً منهم صكاً (هل هي نسخة من

ولم تنتهِ معاملَة المسلمين لأبناء غيطشة عند هذا الأمر، ففور الاستيلاء على طليطلة، تم تعيين الأسقف أوياس، أخي غيطشة، حاكماً على المدينة⁽¹⁾، في حين عاد موسى بن نصير إلى دمشق بأمر من الخليفة، وواصل طارق بن زياد حملته في شمال إسبانيا. ونحن نقرّ بأن كل هذا يظهر بأن طارق بن زياد وموسى بن نصير قاما بغزو إسبانيا كحليفين لأبناء الملك الشرعي، الذين حُملوا على الاعتقاد بأن الهدف الأول من الغزو كان إعادة ملكهم إليهم بوصفهم الوارثين الشرعيين لغيطشة. لقد جاءت المقاومة الرئيسية من أنصار رودريغو (لُذريق) مغتصب العرش. لكن المؤرخين العرب، سواء فعلوا ذلك عمداً أم بغير قصد، أخفوا الوقائع وموّهوا السبب الحقيقي للغزو لكي ينسبوا المجد كله لأبناء أمتهم. وهي رؤية للدور المؤرّخ لا تنسجم سوى مع الأفكار السائدة في ذلك الوقت⁽²⁾.



المعامدة؟) وأعطاهم امتياز ألا يقفوا للداخلين إلى الغرفة التي يتواجدون فيها [«وجعل لهم ألا يقوموا لدخل عليهم»، المقرّي، ج 1، ص 266]. تختلف هذه الرواية عما نقله ابن القوطيّة والعائد كذلك إلى القرن الحادي عشر. حيث ورد في «اخبار مجموعة في فتح الأندلس» أنه عندما عاد الأمراء إلى إسبانيا «أسياداً على أملاك والدم»، فإنهم «اقتسموها على موافقة فيما بينهم». في حين يقول ابن القوطيّة إن القسمة تمت بموجب المعامدة. (*Akhbar Majmua*, 5 - 184)

(1) Dozy, G. *der M.*, i. 269.

(2) هناك أمر ثانوي تجدر الإشارة إليه وهو أن قصر عمرة Kusair Amra وهو من المباني الأُموية الشهيرة، في الجانب الشرقي من نهر الأردن على خط مستقيم من ضفة البحر الميت الشماليّة، توجد على جدراته صور لشخصيات تاريخية، منها صورة لرودرغو (لُذريق) بوصفه واحداً من أعداء الإسلام [الذي قضى عليه القائد طارق بن زياد في معركة وادي بكة]. وهناك أيضاً نقش للقصر البيزنطي وللتجاشي ملك الحبشة وآخر لكسرى ملك الفرس. (*Encycl. Islam*, s. /v.). ('Amra.



بوابة إشبيلية في قرمونة: أعمال رومانية مع إضافات إسلامية.

الفصل الثالث

السلالة المولدين الملكية

تتعمّد العائلات المتحدّرة من آخر ملوك القوط الشرعيين والتي ورد ذكرها كثيراً في تاريخ الأندلس في القرن التاسع، بحيث أننا عملنا على رسم شجرة عائلة لكل منها انطلاقاً من الجدّ الأول في الجداول الملحقة بهذا الكتاب. وأوردنا المراجع التي استندنا إليها في رسم تسلسل كل شخص، وأضافنا استفساراً بالقرب من أسماء أولئك الذين افترضنا أنهم من أبناء تلك الدّرية في غياب سجلات ومراجع تدعم ذلك، أو أننا لم نتمكن من العثور عليها. نأمل أن يجد القارئ بمساعدة هذه الجداول صعوبة أقلّ في تتبع العلاقات المعقّدة للمولدين (ذوي الأصل أو النسب المختلط) مع الإسبان من جهة، ومع العرب من جهة ثانية، خلال فترة متشابكة ومعقّدة من الحرب الأهلية. يقول المقرئ (مراجعة الفصل السابق) إنّ رُملة حصل على ألف مزرعة (ضبعة) في الثغر، واختار العيش في طليطلة للاعتناء بها ومتابعتها.

خلال فترة حكم الأمويين لقرطبة، عُرفت الأراضي التابعة لطليطلة باسم الثغر الأدنى، في حين أنّ تلك التابعة لأراغون سميت الثغر الأعلى⁽¹⁾. وبين أراضي رُملة في منطقة طليطلة وتلك التي كان يملكها أخوه أرطباس، في «وسط الأندلس» يمتد جبل الشارات (سييرا مورينا) ويمرّ عبره الطريق الرئيسي إن لم يكن الوحيد المستخدم حالياً للشكك الحديدية كما يعبره الطريق السريع من الجنوب باتجاه طليطلة ومريد. يعرف هذا الممر أو الوادي باسم ديسپينايروس *Despeñaperros pass* ويقع

(1) Makkari, i. 47.

بالقرب من بقايا كاستولو الرومانية والتي كتب عنها سترابو Strabo بوصفها واحدة من مدن أورتانيا الرّاقية، بالقرب من الحدود الشرّقية لباطقة⁽¹⁾ Baetica. لقد أصبح اسم كاستولو في العربية كشطالي⁽²⁾ Kashtalah وفي الإسبانية كاثلونا Cazlona. ولم يبق من مدينة كاثلونا اليوم سوى مزرعة تعرف بذلك الاسم. وتوجد في داخل المزرعة بقايا آثار رومانية بينها حمامات ومدّج روماني، ويقطع النهر جسر حجري نُقشت أسفله كتابات رومانية يمكن قراءتها من على مركب فوق النهر. وعلى تلة مرتفعة قليلاً، على بعد أقل من مئة متر⁽³⁾ خارج الأسوار الرومانية، توجد بقايا القلعة الإسلامية المنيعة التي ذكرها دوزي وغيره من الكتاب⁽⁴⁾.

ولو أنّ الغزو تم، كما نعتقد، في الظاهر أو في الحقيقة بهدف رئيسي هو إعادة ملك غيطشة إلى أبنائه، يمكننا أن نفهم خشية موسى بن نصير من القلاقل التي كان يمكن أن تنشأ عن اندفاع طارق بن زياد في طليطلة، التي كان أهلها يترددون بين ولائهم لرودريغو وأبناء الملك غيطشة، حيث كان من شأن التعامل بحكمة ودبلوماسية أن يحقق مزيداً من الانتصارات دون سفك للدماء. يبدو هذا الأمر أكثر ترجيحاً من القول بأن موسى بن نصير حاول وقف تقدّم طارق بن زياد السريع لأنه كان يغار من نجاحه، لأنّ موسى بن نصير كان قائداً عسكرياً ورجل دولة ذا مكانة عالية لكي يخشى من أن يحلّ القائد البربري مكانه. لكن وإثر وفاة الخليفة الوليد المبكرة قام خليفته وأخوه سليمان⁽⁵⁾ بعزل موسى بن نصير، فلم تعد حنكته السياسية تجديه نفعاً.

(1) Strabo, i. 228, 250.

(2) أورد الإدريسي مكانين شبيهين في اللفظ هما حصن قسطيلة في الشمال (ص 335) ورابطة كشطالي (بالياء وليس بالآلف المقصورة) المنيعة في الغرب (ص 247، 256). (م)

(3) ورد في الكتاب على بعد نحو مئة ياردة والياردة تساوي 91,44 سمتراً. (م)

(4) G. der. M., i. 453.

ندين في وصف كاثلونا هذا للسيد جورج بونسور George Bonsor، عالم الآثار المتميّز الذي ألقت مؤلفاته عن الأندلس على مدى ثلاثين عاماً الضوء على نواح مظلمة في التاريخ الروماني - الإيبيري.

(5) الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك. (م)

حكم المُنْد المناطق التي مُنحت له في إقليم إشبيلية، واستقرّ أرطباس في كاثولونا أو جيان، ورُملة مع عمه المطران أوياس في طليطلة. لقد كانوا جميعهم رجالاً عظاماً وهم لا شك كان يمكن أن يشكّلوا خصوماً مرهوبين الجانب للحكم الإسلامي لو قرّروا الاتحاد في مواجهته. ولكن الخليفة الوليد، أو وزيره موسى بن نُصير، أدركا بلا شك ما سيصيب حكمهم ونفوذهم من الوهن بعد قسمة مناطق نفوذ القوط إلى ثلاثة أقسام وترتيب الأمور بحيث أن الأخوة الثلاثة، وفي حين تم الاعتراف بهم كأمرأء، كانوا مرغمين على التّخلي عن المطالبة بالعرش. كانت غاية الخليفة الذي ضمن لهم استعادة أملاكهم أن يتقاسموها جميعهم وبالتساوي. وجاء في وثيقة العهد أنّ كلاً من الأمراء حصل على «ألف ضبعة» لا أكثر ولا أقل. وهذه القسمة المتساوية ذاتها تجعل من الصّعب على أيّ من الثلاثة أن يطالب بالسيادة على أخويه، وهو ما كان يمكن أن يحدث لو أنّ أكبرهم حصل على حصة الأسد من الأملاك.

لم يكن أمر قسمة الأملاك على الأخوة الثلاثة محكوماً بالصدفة. ولو أنه أتيح لموسى بن نُصير أن يكمل سياسة المصالحة التي اعتمدها، لكان جيلان من المصاهرة كفيلين بجعل الدويلات القوطية متراساً حصيناً للمسلمين في وجه تقدّم مسيحيي الشمال الذين، تبعاً للمعلومات المتوفرة، كان يقودهم في الفترات الأولى هاربون من فلول جيش رودريغو المعادون للمسلمين ولأبناء غيطشة على حدّ سواء. ولكن خطط موسى بن نُصير والخليفة الوليد الحكيمة لم يكتب لها الاستمرار، ونجد اليوم أن المولّدين، وهم مختلطو النسب، وكثيرون منهم من أحفاد الأمراء الثلاثة، يقودون حرباً أهلية في الأندلس. لقد كانت حرباً ضروساً امتدّت لفترات طويلة بحيث هدّدت مراراً بإطاحة الخلافة الأموية.

تولّى الأمير المُنْد، كما ذكر سابقاً، على ألف مزرعة في الجنوب الغربي، في قلب الأراضي المسلمة، وتمتّع بسيادته على أملاكه حتى مماته قبل سنة 745، استناداً إلى الاستنتاج المنطقي للأدلة المتوفرة.

بعد وفاة المُنْد، استولى أخوه أرطباس على أملاكه وليس المسلمون كما يمكن

للبعض أن يتوقعوا. هذا ما يقوله على الأقل المؤلفون العرب، ومن بينهم ابن القوطية، وإن كان هذا السلوك يشذ عن طباع أرتباس كما وصفه ابن القوطية نفسه. يورد پونس⁽¹⁾ هذه المعلومات نقلاً عن ترجمة غير منشورة لتاريخ ابن القوطية أعدها خوليان ريبيرا، وتستحق أن تترجم إلى الإنكليزية نظراً لقلة المعلومات المتوفرة عن الأمراء القوط وأسلوب عيشهم.

ونقل پونس عن ترجمة ابن القوطية مقطعاً ورد فيه أن عبد الرحمن بن معاوية⁽²⁾ أمر بمصادرة المدن الواقعة تحت سلطة أرتباس وذلك لأن قلبه امتلأ بالحسد عندما رأى، خلال خروجه في رحلة معه، بالقرب من مقر إقامته «عددًا غير قليل من الهدايا» التي اعتاد الناس أن يقدموها له في كل محطة من محطاته خلال زيارته للقرى التابعة له. لقد صودرت أرضه وأعطيت إلى أبناء أخي عبد الرحمن، ويات أرتباس معذراً. فذهب إلى قرطبة وطلب من الحاجب ابن بُخت أن يستأذن له الأمير ليراه⁽³⁾.

قصد أرتباس «قرطبة»، وأتى إلى الحاجب ابن بُخت، فقال له:

«استأذن لي على الأمير، أبقاه الله، وإني أتيت لأتودع منه، فدخل الحاجب واستأذن له، فأدخله عبد الرحمن بن معاوية إلى نفسه، فنظر إليه في هيئة رثة، فقال له: يا أرتباس، ما بلغ بك هاهنا؟ فقال له: أنت بلغتني هاهنا. حُلَّتْ بيني وبين ضياعي، وخالفت عهد أجدادك في بلا ذنب يوجب ذلك عليّ، فقال له: وما هذا التوديع الذي تريد أن تتودع مني؟ أظنك تريد التوجه إلى رومة؟⁽⁴⁾ قال: لا ولكنه بلغني أنك تريد التوجه إلى

(1) Pons, pp. 86 – 7.

(2) الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، الملقب بعبد الرحمن الداخل أو صقر قریش، توفي عام 788. (م)

(3) يتابع المؤلفان نقل أحداث تلك الواقعة عن پونس وهي مطابقة لما ورد في كتاب ابن القوطية الوارد في النص العربي. (م)

(4) “Rum.” ? Constantinople.

ورد اسم المدينة في النص العربي «رومة» وفي الإنكليزية “Rum”، ويتساءل مؤلفا الكتاب إن لم يكن المقصود: القسطنطينية.

الشَّام، قال له: ومن يتركني أرجع إليها وبالسيف أخرجت عنها؟ قال له أرتبّاش: فهذا الموضوع الذي أنت تُريد أن توطّد لولدك بعدك أم تأخذ منه ما أعطيتك بنفسك؟⁽¹⁾ قال له: لا والله، ما أريد إلا أن أوطّده لنفسك ولولدي.

وهنا قال أرتبّاش، دون مداورة أو استطراد، كل ما كان الناس يأخذونه على عبد الرّحمن، فسّر عبد الرّحمن من كلامه وأبدى له امتنانه، وأمر بإعادة عشرين ضيعة من ضياعه إليه، وكساه بأجمل الثياب، وحمله بالهدايا، وولّاه القماسة، فكان أول من يتولّى منصب القومس في إسبانيا⁽²⁾⁽³⁾.

ويتابع يونس أنّ ابن القوطيّة نقل عن استاذة الشيخ الموقر محمّد بن عُمر ابن لبّابة، قوله إنّ «الله حفظ أرتبّاش في فقره، لأنّه كان رجلاً من خيرة الرّجال»، وسرد قصة طويلة رواها عنه ابن لبّابة الذي سمعها من أقرانه حول تعامل أرتبّاش مع عشرة من الأشراف الشّاميين، ومن بينهم «ميمون العابد، جدّ بني حزم البوابين»⁽⁴⁾.

كتب ابن القوطيّة: «وحكى الشيخ [محمّد بن عُمر] ابن لبّابة، رحمه الله، عمّن أدركه من الشيوخ: أنّ أرتبّاش كان من عقلاء الرّجال في أمر دنياه، وأنّه دخل عليه عشرة من الشّاميين، فيهم: أبو عثمان، وعبد الله بن خالد، وأبو عبدة ويوسف بن بُخت، والصّميل بن حاتم، فسلموا وجلسوا على الكراسي المحيطة بكرسيه، فلما أخذوا مقاعدهم، وحيّا بعضهم بعضاً، دخل ميمون العابد، جدّ بني حزم البوابين،

(1) ورد في النصّ العربي: «أم تأخذ منه ما أُتيخذ لك؟».

(2) ورد في النصّ العربي: «وقال أرتبّاش فعين هذا العمل أعمل فيه، ثم عزّفه بأشياء كان الناس يُنكرونها عليه ويبتئها له، فسّر بذلك عبد الرّحمن بن معاوية، وشكّره عليه، وأمر له بعشرين ضيعة من ضياعه صُرفت إليه، وكساه ووصله، وولّاه القماسة، فكان أول قومس بالأندلس».

(3) معظم المقاطع الواردة مأخوذة بنصّها عن ابن القوطيّة، ص 58. مع تعديل في الجمل التي اختلفت فيها الترجمة عن العربية، وقد تمّ التنويه إلى ذلك في مواضعه. (م)

(4) بصف غايانغوس (Makkari, ii. 416) في ملاحظته بشأن هذه الواقعة نقلاً عن المقرّي أنّ ميمون كان زاهداً متعبداً (fakir). (كتب المقرّي: إنّ ميمون «كان في عداد الشّاميين، إلا أنه كان شديد الانقباض عنهم لزمه وورعه، فلما بصر به أرتبّاش قام إليه دونهم إعظاماً». المقرّي، ج

1، ص 267. (م)

وهو أحد الموالى الشاميين، فلما رآه أرتطاش داخلاً قام إليه والتزمه وجعل يقوده إلى كرسيه الذي قام منه، وكان مصمداً بالذهب والفضة، فأبى الرجل الصالح الجلوس عليه، وقال له: لا يحلّ لي هذا، وجلس في الأرض فجلس معه ثم قال له: ما جاء بمثلك إلى مثلي؟ فقال له ميمون: قدمنا إلى هذا البلد وظننا أنّ ثواناً لا يطول فيه، ولم نستعد للمقام، فحدث من الاضطراب على موالينا بالمشرق ما نتوهم أنا لا نعود إلى موضعنا منه، وقد وسّع الله عليك، فأريد أن تعطيني ضيعة من ضياعك أعتمرها بيدي، وأؤدي لك الحق منها، وأخذ الحق، فقال له أرتطاش: لا والله، ما أرضى أن أعطيك ضيعةً مناصفةً، ودعا بوكيل له، فقال له: ادفع إليه المجشّر (المرعى) الذي على وادي شوش، وما فيه من البقر والغنم والعبيد، وادفع إليه القلعة بجيان، وهي المعروفة بقلعة خزم ملكه⁽¹⁾.

وبعد مغادرة ميمون، لام الأشراف الشاميون أرتطاش على تصرفه السخي مع «شخص معدم فقير» مقابل إهماله لهم. وكان رد أرتطاش عليهم ملفتاً لأنه يظهر أنّ المسيحيين ما كانوا يخشون في ذلك الوقت إظهار تمسّكهم بعقيدتهم. فبعد أن يقول للصّميّل إنّ «أهل ديارك يخبروننا أنّ أدبهم لم يأخذك ولو أخذك لم تنكز عليّ برّ من بررت»، ثم يضيف «وقد روينّا عن المسيح، صلّى الله عليه وسلم، أنه قال: من أكرم الله من عباده وجبت كرامته على جميع خلقه»⁽²⁾.

ورغم أن ترجمة شريونو لابن القوطيّة تسرد الأحداث نفسها التي أوردها هونس، فإنها تختلف عنها في بعض التفاصيل. فهو يقول إنّ «الهدايا العديدة» التي ملأت صدر عبد الرحمن بن معاوية حسداً، كانت مَهْدَاة من أتباع أرتطاش، وإنّ مصادرة أملاك أرتطاش أرغمته على اللجوء إلى أبناء أخويه. وهذا أكثر ترجيحاً مما ذكر بشأن أبناء أخوة عبد الرحمن فيما أورده هونس. فعبد الرحمن كان الأخير في سلالته، ما عدا

(1) النص العربي منقول نصاً من كتاب: «تاريخ افتتاح الأندلس»، ابن القوطيّة، تحقيق إبراهيم الإياري، ص 57 - 60. (م)

(2) ابن القوطيّة، ص 60.

بعض أبناء عمومته، إذ قتل العباسيون كل أفراد عائلته قبل فترة قصيرة⁽¹⁾.

ويقول شربونو إنَّ عبد الرَّحمن أعاد إلى أَرطباس عشرين «إقطاعية» بدلاً من عشرين «قرية» كما يورد پونس. والإقطاعية يمكن أن تضم عدة قرى، وهذا يشرح استعادة الأمير سريعاً لثروته ونفوذه.

ونجد في ترجمة وقائع زيارة الأشراف الشَّاميين بعض المقاطع الموحية التي اغفلها پونس وغايانغوس ووردت في رواية المقرئ الذي نقل كيف أن الصَّميل بن حاتم لام أَرطباس واعتبره غير جدير بعرش أبيه لأنه يفعل الخير في غير أهله⁽²⁾.

وفي روايته لتلك الواقعة، يقول ابن القُوطية في كتاب «افتتاح الأندلس»: «فشكر (ميمون) وقام، وعاد أَرطباس إلى مقعده [أو عرشه كما يبدو من الأصح أن نسمي كرسيّاً ملبّساً بالذهب والفضة]، فقال له الصَّميل: يا أَرطباس، ما يعجزك من سلطان أيبك إلا نفاد الطَّيبة، أدخل عليك وأنا سيد العرب بالأندلس، ويدخل أصحابي هؤلاء معي وهم سادات الموالى بالأندلس، فلا تُزِدنا من الكرامة على القعود على العيدان، ويدخل هذا السَّوَال فتصير من إكرامه إلى حيث صرت، فقال له أَرطباس: يا أبا جوشن، أهل ديارنك يخبروننا أنَّ أدبهم لم يأخذك، ولو أخذك لم تنكر عليّ برٍّ من بررت، وكان الصَّميل أُمياً لا يقرأ ولا يكتب⁽³⁾ - إنكم أكرمكم الله إنما تكرمون لديناكم وسلطانكم، وهذا الذي أكرمته إنما أكرمته لله عزَّ وجل، وقد رَوينا عن المسيح، صلَّى الله عليه وسلم، أنه قال: من أكرم الله من عباده وجبت كرامته على جميع خلقه».

ينبغي هنا الإشارة إلى أن الصَّميل كان جاهلاً لا يعرف القراءة ولا الكتابة. ويضيف

(1) ورد في النص الذي رواه ابن القُوطية، ص 57 - 58: «ومن أخبار أَرطباس: أنَّ عبد الرَّحمن بن معاوية أمر بقبض ضياعه التي كانت بيده، وأوجب ذلك أنه نظر إلى قَبته يوماً في بعض غزواته معه، وحولها من الهدايا غير قليل، إذا كانت الهدايا تتلقاه في كل محطة من ضياعه فنفس ذلك عليه، فقبضت منه وصار عند بني أخيه حتى ساءت حاله، فقصد قرطبة، وأتى إلى الحاجب ابن بُخت، فقال له (...)».

(2) Makkari, ii. 52 - 3.

(3) إن كون شريف عربي أُمياً في القرن الثامن أمر نادر حتى أشار إليه ابن القُوطية.

ابن القوطية أَنَّ وَقَعَ ما قاله أَرطباس على الصَّميل كان شديداً، فصمت، «فكأتما أَلَمَةُ حَجراً».

وهنا تدخل من جاؤوا مع الصَّميل «فقال له القوم: دع هذا، وانظر فيما قصدنا له، حاجتنا وحاجة الرَّجل الذي قصدك وأكرمته واحدة. فقال: أنتم ملوك، وليس يرضيكم إلا الكثير، ووهبهم مئة ضيعة، صار منها لكل واحد منهم عشر ضياع منها: طُرش لأبي عثمان، والقُتتين لعبد الله بن خالد، وعُقبة الزَّيتون بالمدوَر للصَّميل بن حاتم»⁽¹⁾ (2).

تشير هذه القصة إلى مدى اتساع أملاك أَرطباس، فرغم عدم قدرتنا على تحديد مكان القُتتين El – Fennetin وعُقبة الزَّيتون Okbet az – Zitun، فإنَّ نظرة سريعة إلى الخارطة تظهر المسافة الشَّاسعة بين طُرش والمدوَر وجيان ونهر وادي شوش.

وتجدر الإشارة إلى نقطتين أو ثلاث في رواية هذه الأحداث.

يتحدَّث أَرطباس خلال مقابلته مع عبد الرَّحمن بن معاوية عن «العهود» التي أبرمها أجداد عبد الرَّحمن معه. إنَّ استخدام الكتاب المسلمين لكلمة «العهود» بالطريقة نفسها للإشارة إلى إعادة أملاك غيطشة إلى أبنائه، يدعم حجتنا بشأن السَّبب الرَّئيسي وراء الغزو وموقف الأمراء في ذلك الوقت. ويؤكد ذلك أيضاً قول أَرطباس لعبد الرَّحمن «أم تأخذ منه ما أعطيتُك بنفسِي؟». ورغم فقره، لا بدَّ أن أَرطباس كان يشغل مكانة عليا بين بني قومه. فهو كما يقول پونس، «قال دون مداورة أو استطراد، كل ما كان النَّاس يأخذونه» على عبد الرَّحمن. لقد فعل كما يفعل شخص لديه الحق في أن يتحدَّث عن الأمر.

وأخيراً، فقد ولَّاه عبد الرَّحمن مرتبة القماسة، ليكون أول من يشغل منصب قومس Count في إسبانيا. وبالإضافة إلى ذلك يذكر ابن حَيَّان أن أَرطباس، «قُمس إسبانيا، وسيِّد النَّصارى، وجامع الجزية» هو الذي اقترح أن تقيم القوَّات العربية التي تمَّ استقدامها في حوالي العام 740 للمساعدة في إخماد ثورة البربر، على أراضي الدَّولة.

(1) ابن القوطية، ص 59 – 60. وردت القُتتين في كتاب ابن القوطية «القُتتين» وعُقبة الزَّيتون «عقدة الزَّيتون» ربما يكون ناجماً عن خطأ مطبعي. (م)

(2) Al – Kuttiyyah in J.A., pp. 468 – 72.

وهذا دليل آخر، ليس على أهميته في البلاد، وإنما على العلاقات الودية بينه وبين من يفترض أنهم غزوا بلاده⁽¹⁾.

ليس من السهل تصديق الرواية التي تقول إنَّ بطل هذه الأحداث قام بسلب ممتلكات أبناء أخيه اليتامى، ولكن إن كان ذلك ما حصل، فما من شك أن سارة وأخويها حرِّموا ظلماً من ميراثهم بعد وفاة أبيهم المُنْد. لقد عملت على استعادة تلك الأملاك من أبي الخطار، حاكم الأندلس، ولكن دون جدوى، وعندها قامت بإعداد سفينة في إشبيلية وركبتها مع أخويها وأبحرت إلى الشَّام قاصدة باب الخليفة نفسه لتطلب منه إنصافها وأخويها. يعتقد أن هذه الزيارة حصلت في حوالي العام 745، لأن أبا الخطار لم يحكم بالأندلس سوى في عامي 745 و746، وعليه فمن الواضح أن الأمراء القوط تولَّوا بأنفسهم إدارة أملاكهم لثلاثين عاماً على الأقل بعد الفتح الإسلامي⁽²⁾.

وصلت سارة وأخوها إلى دمشق بسلام، وأحسن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك استقبالهم. فأخبرته عن مصابها، وطلبت منه أن ينصفها لما حصل لها مع عمِّها، ويصدر أوامره إلى حاكم الأندلس لكي يعيد إليها وإلى أخويها كل الأراضي التي ورثوها عن أبيهم، كما ورد في عهد التنازل الذي عقده طارق بن زياد مع أبيها، وأكدّه سلفه، الخليفة الوليد.

«سُرَّ الخليفة بمقابلة سارة، وأعجبه جرأتها كثيراً، فأحسن معاملتها، واستقبلها في مجلسه، وعندما أبدت رغبتها في الزَّحِيل، أعطاهما كتاباً إلى والي شرق أفريقيا [كان يمانياً] وأمره بإصلاح ما أصابها من ضرر على أيدي عمِّها أرطباس». وكانت النتيجة

(1) Dozy, *Recherches*, i. 86.

(2) «فبسط أرطباس يده على ضياعهم وضمها إلى ضياعه، وذلك في خلافة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، فأنشأت سارة بن المند مركبا بإشبيلية حصيناً كامل العدة، وركبت فيه مع أخويها الصغيرين تريد الشَّام حتى نزلت بعسقلان من ساحلها ثم قصدت باب الخليفة هشام بداره بدمشق، فأنتهت خبرها، وشكت ظلامتها من عمِّها واستعدت عليه، واحتجت بالعهد المتعقد لأبيها وأخويه على الخليفة الوليد بن عبد الملك، فأوصلها هشام إلى نفسه، وأعجبه صورتها وحزمها، وكتب إلى حنظلة بن صفوان عامله بإفريقية بانصافها من عمِّها أرطباس وامضائها وأخويها على سُنَّة الميراث فيما كان في يد والده مما قاسم فيه أخويه، فأنفذ لها الكتاب بذلك إلى عامله بالأندلس أبي الخطار ابن عمِّه، فتم لها ذلك». المقرئ، «نفع الطيب»، ج 1، ص 266.

أن استعادت سارة وأخوها كامل أملاكهم وحقوقهم.

وعندما كانت سارة في مجلس الخليفة هشام، «رأت عنده حفيده عبد الرحمن بن معاوية الدّاخل بعدُ إلى الأندلس». وقبل مغادرتها الشّام، زوّجها الخليفة من عيسى بن مزاحم، الذي جاء معها إلى الأندلس حيث وقف إلى جانبها لكي تستعيد أملاكها من عمها أوطباس. وأنجبت سارة منه ولدين، هما إبراهيم وإسحاق، «فأدركا الشرف المؤثر والرّئاسة في إشبيلية» موطنهما، واشتهرا ونالا التقدير والاحترام لانتسابهما إلى أمتهما سارة القوطيّة ابنة آخر ملوك القوط في الأندلس⁽¹⁾.

توفي زوج سارة الأول عيسى «في السّنة التي مُلك فيها عبد الرحمن الأندلس» (756 م)، فتزوجت بعد فترة وجيزة من عُمر بن سعيد اللّخمي⁽²⁾. يقول المقرّي إن سارة لطالما لقيت التّكريم والحفاوة في بلاط عبد الرحمن الأول في الأندلس. ويعزو المقرّي ذلك إلى أنها التقت في بلاط الخليفة هشام عندما كان أصغر أحفاده، دون أن يتنبأ له أحد بأنه سيولّى المُلك. لكن الأرجح على ما يبدو أن إكرام عبد الرحمن لها

(1) Makkari, ii. 51.

(2) Ibid., ii. 52, 415; and Al - Kuttīyyah in J.A. p. 434.

تجدد الإشارة إلى أن النسخة العربية التي بين يديكم تعتمد اسم زوج سارة الثّاني كما أورده ابن القوطيّة والمقرّي وهو عُمر بن سعيد اللّخمي وليس عبد الرحمن بن عُمر بن سعيد اللّخمي كما ورد في النسخة الانكليزية. (م) وقد ورد الاسم لدى المؤلّفين على النّحو الثّالي: «وأنكحها الخليفة هشام من عيسى بن مُزاحم قدّم معها الأندلس وقبض ضياعها وهو جدُّ ابن القوطيّة، وولد له منها ولدان: إبراهيم وإسحاق، ثم توفي عنها في العام الذي دخل فيه عبد الرحمن بن معاوية الأندلس فتتافسها حيوة بن ملامس الملحجي وعُمر بن سعيد اللّخمي، فعنى ثعلبة بن عبيد الجندامي بعُمر عند عبد الرحمن ابن معاوية فانكحه إياها وولدت له: حبيب بن عُمر جدُّ بني سيّد وبني حتاج وبني مسلمة وبني حجاز الجبر، وهؤلاء أشراف ولد عُمر بإشبيلية، إذ كان له أولاد من غيرها ولم يشرفوا هؤلاء». (ابن القوطيّة، ص 32).

«وكانت أيام وفادتها على الخليفة هشام رأت عنده حفيده عبد الرحمن بن معاوية الدّاخل بعد إلى الأندلس، وعرفها، فتوسّلت بذلك إليه لئلا ملك الأندلس ووقدت إليه، فاعترف بذمامها وأكرمها، وأذن لها في الدّخول إلى قصره متى جاءت إلى قرطبة فيجدّد تكريمها ولا يحجب عياله منها، وتوفي زوجها عيسى في السّنة التي ملك فيها عبد الرحمن الأندلس، فزوّجها عبد الرحمن من عُمر بن سعيد». المقرّي، ج 1، ص 267

كان لأسباب سياسية. لقد كان عرشه قوي البنيان، ولا بدّ أنه كان يرى أن من مصلحته أن يضمن ولاء سارة وأبنائها وأتباعها لما لهم من نفوذ قوي، ولكونهم يجمعون بين عنصرين من عناصر الخصومة بالنسبة له - القوط والعرب اليمانيون. لقد كان العرب اليمانيون هم الذين يشكّلون خطورة عليه بشكل خاص، لأنّ العباسيين كانوا على اتصال بأبي الصّبّاح اليحصبي، شيخ اليمانية في غرب الأندلس الذي أعلن ولاءه لخلافتهم فأرسلوا له راية سوداء (لواء آل البيت) على رأس قناة رمع⁽¹⁾.

يقول المقرئ نقلاً عن أحد المراجع أنه «لما ملك [عبد الرحمن بن معاوية] الأندلس» [والحقيقة أنه لا هو ولا إي ممن خلفوه فعلوا ذلك حتى تولى عبد الرحمن الثالث] «وفدت إليه سارة فاعترف بذمامها وأكرمها، وأذن لها بالدخول إلى قصره متى جاءت إلى قرطبة فيجدد تكرمتها ولا يحجب عياله منها»⁽²⁾. ويقول المقرئ إن سارة كانت تفتد إلى عبد الرحمن بوصفها مسيحية تعيش في نطاق الأراضي الخاضعة لسيادته⁽³⁾. لكن هذه الرواية تتناقض على نحو ما مع ما أورده ابن القوطية بشأن التفاوض من أجل زواجها الثاني الذي استخدم عبد الرحمن نفوذه لاتمامه. فقد تنافس للزواج من سارة خصمان هما «حيوة بن ملاس الملحجي [الحضرمي] وعُمير بن سعيد اللّخمي، فعُني ثعلبة بن عبيد الجذامي [يماني] بعُمير بن سعيد عند عبد الرحمن بن معاوية فأنكحه إياها»⁽⁴⁾. فلو أن مكانة سارة غير ذات أهمية كبيرة بحيث تضيع نفسها في حمى عبد الرحمن فقط لكونها نصرانية، لما احتاج الراغب بالزواج منها أن يسعى لدى الجذامي حاكم الأندلس السابق وأحد كبار الأشراف لكي يتدخل لدى الأمير لكي يزوجه منها.

وفي الحقيقة، تشير المراجع إلى أن عبد الرحمن كان يعامل سارة طوال الوقت معاملة الصديق والتد. فقد منحها امتيازاً لا يحظى به سوى كبار القوم في الدخول إلى قصره في أي وقت تشاء. ويقول المقرئ إن عبد الرحمن كان يكرّم سارة ويستضيفها في كل مرة

(1) Akhbar Majmua, 95

(2) المقرئ، ج 1، ص 267.

(3) Makkari, ii, 51.

(4) ابن القوطية، ص 32.

تجىء فيها إلى قُرْبَة وإنه كان يأذن لها بزيارة حريمه ورؤية زوجاته وبناته غير محجبات. وتنم هذه المعاملة التي خص بها عبد الرحمن سارة عن ثقة عظيمة، فحتى يومنا هذا، لا تزال تحكم بيوت كبار العائلات السنية آداب سلوكية صارمة حيث يتطلب الأمر إرسال وصيف قبل ساعات لإعلان زيارة امرأة لأخرى، حتى وإن كانت تربطهما صلة قريى⁽¹⁾.

ما كان عبد الرحمن سيخص امرأة مسيحية بهذا التكريم لمجرد أنه تعرّف عليها في صغره. ولكن من السهل أن نرى أن الأمير المسلم الذي كانت المخاطر تحقيق بولايته، أدرك الأهمية الكبيرة التي سيؤمنها له قربه من أميرة تعامل كملكة تحديداً في ذلك الجزء من المجتمع المختلط المسيحي المسلم الذي يمتلك القدرة، في حال امتنهن، على قلب الحكم الذي كان يسعى إلى تثبيت نفسه عليه.

عندما سمع يوسف الفهري، والي الأندلس⁽²⁾، بقدوم الأمير الأموي إلى إسبانيا، وكان قرب طليطلة، «فأصبح وليس في عسكره سوى غلمانته وخاصته وقوم الصّميل قيس وأتباعه، فأقبل إلى طليطلة وقال للصّميل: ما الرّأي؟ فقال بادزّة السّاعة قبل أن يغلف أمره، فإنني لست آمن عليك هؤلاء اليمانية [أن يذهبوا إليه] لحقنهم علينا [نحن بني مُضَر]، فقال له يوسف: أنقول ذلك، ومع من نسير إليه وأنت ترى الناس قد ذهبوا عنا وقد انفضنا من المال، وأنضينا الظّهر، ونهكتنا المجاعة في سفرتنا هذه، ولكن نسير إلى قُرْبَة فنستأنف الاستعداد له، بعد أن ننظر في أمره ويتبين لنا خبره، فلعله دون ما كُتِبَ إلينا. فقال الصّميل: الرّأي ما أشرتُ به عليك، وليس غيره، وسوف تتبين غلطك فيما تنكبه، ومضوا إلى قُرْبَة»⁽³⁾⁽⁴⁾.

وهذا ما حدث، وسرعان ما ظهر أنه ليس بوسعهم الاعتماد على ذلك القدر البسيط

(1) Cf. *Le Jardin Fermé* by Marc Helys, p. 140

(2) كان يوسف الفهري مثل عبد الرحمن، من قبيلة قريش.

(3) الصّميل هو أحد الأشراف الشاميين الذين منحهم أربطاس قسما من أراضيه.

الكلمات الواردة داخل مزدوجين [] مضافة ليتطابق النص مع النسخة الإنكليزية والمصدر هو المقرئ ج 3، ص 32 - 33. (م)

(4) Makkari, ii. 67.

من التأييد نظراً للعداوة القبلية والدينية بين الجانيين.

وبدلاً من أن يأخذ يوسف الفهري بنصيحة الصميل، انتظر لمقاتلة عبد الرحمن بالقرب من قرطبة حيث حقق الأمير الأموي نصراً كبيراً⁽¹⁾.

وحارب العرب اليمانية إلى جانب عبد الرحمن، ولكن يبدو أن ولاءهم لم يكن خالصاً له، فبعد هزيمة يوسف، اقترح عليهم رئيسهم أبو الصباح يحيى البحصبي حاكم إشبيلية الانقلاب على عبد الرحمن، قائلاً «يا معشر يمن، هل لكم إلى فتحين في يوم؟ قد فرغنا من يوسف والصميل، فلنقتل هذا الفتى المقدامة ابن معاوية فيصير الأمر لنا، ونقدم علينا رجلاً منا، ونحل عنه هذه المضرية [بني مضر]، فلم يجبه أحد لذلك، وبلغ الخبر عبد الرحمن فأسرّها في نفسه إلى أن اغتاله بعد عام، فقتله»⁽²⁾.

وأياً كانت الرواية الحقيقية لطريقة استحواذ عبد الرحمن الداخل على السلطة في قرطبة، فما من شك أن العداوة كانت على أشدها حينها، كما كانت عليه قبل هجرة الرسول، بين العرب اليمانية ومختلف القبائل المضرية، ويبدو مع ذلك أن أشرف إشبيلية اليمانيين خضعوا لتأثير قوي لكي ينحازوا في أرض المعركة إلى عدوهم القبلي ابن قريش. الطرف الوحيد الذي كان في موقع التأثير على اليمانيين هي الأميرة القوطية التي يعود الفضل في كل ما تملكه إلى جد عبد الرحمن، الخليفة هشام بن عبد الملك. ويمكن بسهولة تفسير العلاقات المتينة التي كانت تربطها بعبد الرحمن بعد توليه الحكم واستقراره في قرطبة، لو أن عبد الرحمن كان مديناً لها وللرجل الذي خطب يدها لما قدموه له من دعم في الأيام الأولى لوصوله إلى الأندلس. ولا شك أن

(1) وفي ذلك كتب المقرئ أنه لما أقبل عبد الرحمن «إلى قرطبة خرج له يوسف (..) ثم انهزم أهل قرطبة وظفر عبد الرحمن الداخل ونصر نصراً لا كفاء له، وانهزم الصميل، وفر إلى شورد من كورة جيان، وفر يوسف إلى جهة ماردة». كان يعرف بعبد الرحمن الداخل، لأنه أول داخل من ملوك بني مروان إلى الأندلس، وكان أبو جعفر المنصور يسميه «صقر قريش». المقرئ، ج 1، ص 329. (م)

(2) Makkari, ii. 72

المقرئ، ج. 3، ص 34.

تقاليد الضيافة العربية كالها أثر عليها، فقد كانت ضيفة كريمة على عائلته، وأكلت من خبزهم وملحهم، مع زوجها الأول في الشام.

لقد أتينا على ذكر ابن ملامس الحضرمي بوصفه أحد الذين خطبوا يد سارة بعد أن ترملت في عام 756. ويبدو أن عبد الرحمن كان راغباً في ألا يفسد تدخله لصالح خصم الحضرمي الود بينهما، ففي حوالي العام 760، زار الأمير منزل أحد أفراد العائلة في إشبيلية والذي «قدمه هدية للأمير بكل ما فيه، وقبل الأمير عبد الرحمن عرضه السخي مخافة أن يهينه». ويضيف كونده أن ابن ملامس هذا توفي بعد ذلك بفترة قصيرة، وأن عبد الرحمن رثاه بأبيات شعرية رائعة أثنى فيها على ضيافته وشهامته وكرمه⁽¹⁾.

لا يوجد أي شك في أن مضيف عبد الرحمن بن معاوية في إشبيلية كان ابن ملامس الذي ذكر المقرئ أنه جاء مع موسى بن نصير إلى الأندلس في سنة 712، في حين أن طالب يد الأميرة سارة كان أخاه الأصغر أو أحد أبناء عائلته المقربين. فبعد وفاة الأب، ثار حيوة بن ملامس الحضرمي (يقول المقرئ سنة 772 م) في [أراضي] إشبيلية مع سوريين من حمص⁽²⁾ Emesa ممن استقروا فيها حديثاً، بدعم من عبد الغفار بن حميد اليحصبي رئيس لبلنة، الذي نعتقد أنه ابن أبي الصَّبَّاح الذي قتله الأمير عبد الرحمن.

ومن بين الذين خرجوا مع عبد الرحمن لقتالهم ثلاثة من يمانيين إشبيلية هم ملهب الكلبي، وابن الحجاج وابنه⁽³⁾. ولا بد أن بني حجاج كانوا على صلة قرابة بعمير بن سعيد اللخمي، الزوج الثاني لسارة، حيث أن فرعاً من أبنائها يحملون ذلك الاسم، وسيرد اسمهم كثيراً فيما بعد.

يورد المقرئ بين عامي 758 و779، ثمانين ثورات مختلفة ضد عبد الرحمن، شارك في معظمها يوسف الفهري أو أصحابه ومؤيدوه، وفي بعضها بشكل أو بآخر عرب يمانية. وبما أن الفهرين واليمانيين يتمون إلى قبائل مختلفة ومتعادية، يبدو من غير

(1) Conde, i. 178 – 9.

(2) ذكر أن عددهم كان قليلاً. (Akhbar Majmua, 92.)

(3) Akhbar Majmua, 100.

المقنع التفسير الذي يقترحه غايانغوس بأن معظم هذه الثورات كانت نتيجة العداوات المتأصلة بين القبائل المُضَرِّية واليمانية⁽¹⁾. فالأمويون والفهريون كانوا من قبائل مُضَرٍّ، وانضمام بعض اليمانيين إلى الفهريين ضد الأمير الأموي، يثبت أن تلك الثورات التي امتدت لسنوات طويلة كانت لأسباب سياسية وليس قبلية.

ونحن نرى أن أشراف إشبيلية الذين رحبوا بالأمير الأموي كانوا المسيحيين وكذلك اليمانيين الذين تأثروا بموقف سارة من خلال زواجها العربيين. لم نجد أي معلومات عن القبيلة التي كان ينتمي إليها عيسى بن مزاحم الذي زوجها به الخليفة هشام في دمشق. ويبدو من الصعب أن يكون شامياً حيث كان أبناؤه مندمجين تماماً باليمانيين من أهل إشبيلية على مدى أجيال متعاقبة، وهم إما اعتنقوا المذهب الشيعي أو بقوا على الديانة المسيحية لأجدادهم الملوك، كما فعل كثيرون منهم. ولكن ما من شك بالنسبة لعُمير بن سعيد اللّخمي الذي كان ينتمي إلى خصوم عبد الرحمن القبليين والدينيين، أنه كان يفترض في الأحوال الطبيعية أن يقاتل إلى جانب بني عشيرته.

ولكن، وكما رأينا في المقاطع التي أوردناها سابقاً، فقد انضم أفراد من عائلته إلى الأمير الأموي عندما خرج لإخماد ثورة قادها يمانيون. قد يقال إن الدافع وراء ولاء اللّخمين أسياذ إشبيلية هذا عائد إلى امتنانهم لما أبداه عبد الرحمن من كرم إزاء الأميرة القوطية. وما من شك في أن العلاقات الشخصية لعبت دوراً في تصرف ذلك الجيل. وكان ينبغي أن يمرّ 130 عاماً حتى نجد بعضاً من أحفاد سارة مشاركين في الفتن والثورات التي قامت ضد الحكم في قرطبة. فمنذ وصول عبد الرحمن الأول إلى الأندلس في عام 756 وحتى تولي الأمير عبد الله الحكم في عام 888، لم يرد بتاتاً ذكر هذه العائلات في الروايات المتعلقة بالاضطرابات المنفرقة - التي كانت سرعان ما يتم إخمادها - في إشبيلية بإيعاز من أشخاص يعتبرون عن استيائهم على درجات متفاوتة في الأهمية.

وإن كانت الأميرة سارة وزوجها وقعا، كما نعتقد، عهداً على الحياد مع عبد الرحمن

(1) Makkari, ii. 421.

الأول، في الوقت نفسه ووفق الشروط نفسها التي حصل عليها مسيحيو كشتالي (راجعة صفحة 67 طبعة الأصل)، فهي سياسة تُحسب لهم. وأياً كانت حقيقة الأمور، فإن النتيجة كانت مفيدة بشكل خاص لضمان ازدهار وتقدم الأراضي التي حكمها القوط - اليمانيون الذين قويت عزيمتهم بعد مئة عام من ذلك التاريخ.

كان عبد الرحمن يتبع سياسة التسامح مع من يعتبرون عن استيائهم منه، فما إن يظهروا رغبة للتوبة يقوم بتعيينهم في مناصب عليا في الدولة. وصحيح أنه ليس من السهل على الدوام نتيج الخدمات والامتيازات التي أغدقها على اليمانيين، حيث أن ابن حيان والمقري الذي خلفه في القرن السابع عشر وهما من الشئنة، كانا يتجنبان الإشارة إلى أسماء القبائل التي ينتمي إليها الفاعلون الذين ترد أسماءهم، إلا عندما يضطرون لذلك، عندما يتعلق الأمر بالامتيازات والألقاب التي أعطيت للشئنة. ولكن يمكننا العثور ضمن المراجع على إشارات إلى حقيقة ما حدث - على سبيل المثال، في سرد المقري للاضطرابات التي قام بها ابن ملامس وأصحابه. فرغم أنه يورد أنهم هُزموا شر هزيمة وتعرضوا للذبح وتُركت جثثهم في ميدان المعركة، فإنه يضيف، أن «عددًا ليس قليلاً من المؤرخين قالوا إنهم نجوا من القتل وأن عبد الرحمن عاد وعفا عنهم بعد مدة». ويروي المقري نقلاً عن «ابن حيان أن عبد الرحمن لما أذن له يوسف صاحب الأندلس واستقر ملكه استحضر الوفود إلى قرطبة، فأنشأوا عليه، ووالى القعود لهم في قصره عدة أيام في مجالس يكلم فيها رؤساءهم ووجوههم بكلام سرهم وطيب نفوسهم. مع أنه كساهم وأطعمهم ووصلهم، فانصرفوا عنه محبورين مغتربين، يتدارسون كلامه ويتهافتون بشكره ويتهائون بنعمة الله تعالى عليهم فيه»⁽¹⁾. كم كنا نتمنى لو أن ابن حيان أورد ولو بعض أسماء «الولاة والرؤساء» الذين، وقد جاؤوا يعلنون ولاءهم، يفترض أنهم من الفريق الآخر، كما كان سيفعل لو أنهم كانوا من فريقه هو. لكن مؤرخ بلاط الأمويين لم يفكر في أهمية تسجيل أسماء أعداء أميره، حتى عندما كان يشملهم بعفوه.

(1) Makkari, ii. 84 - 5, 88.

وهناك واقعة تم سردها عن الأمير عبد الرحمن تشير إلى مبلغ عدله وإنصافه وتصميمه على معاقبة أولئك الذين سلوكوا سلوكاً مشوباً، حتى وإن كانوا من أقرب المقربين له.

يبدو أنه عندما ثار أبو الصباح، شيخ العرب اليمانية على عبد الرحمن، كان بين الأسباب التي تعلل بها أن الأمير لم يف بعهد ضمنه له الوزير عبد الله بن خالد نيابة عن عبد الرحمن قبل وصوله إلى إسبانيا (وربما لم يكن عبد الرحمن عارفاً بذلك الأمر). وبعد مقتل أبي الصباح، عزل بعد الرحمن صهره عبد الله بن خالد «صاحبه الثاني في المؤازرة والقيام بالدولة»، عن منصبه، والذي لم يعد يرد ذكره في البلاط «وأقسم لا يشتغل بشغل سلطان حياته، فمات منفرداً عن السلطان»⁽¹⁾.

ويورد المقرئ هذه الواقعة ضمن وقائع أخرى دلالة على قلة وفاء عبد الرحمن لأولئك الذين ساعدوه في تولي حكم الأندلس وبناء الدولة. ولكن هذه الوقائع يمكن أن يُنظر إليها بوصفها دليلاً على تصميمه على معاقبة كل من يأتي عملاً شائناً.

ويسرد المقرئ عن ابن حبان قوله نقلاً عن مؤرخ من الغرب لم يذكر اسمه أن عبد الرحمن كان «راجع الحلم، فاسح العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئاً من العجز، سريع النهضة، متصل الحركة لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعاً مقداماً، بعيد الغور شديد الحدة قليل الظمأنينة بليغاً مفوهاً شاعراً محسناً سمحاً سخياً طلق اللسان، وكان يلبس البياض ويعتم به ويؤثره⁽²⁾، وكان قد أعطي هبة من وليه وعدوه، وكان يحضر الجنائز ويصلي عليها ويصلي بالناس إذا كان حاضراً الجمع والأعياد، ويخطب على المنبر،

(1) Makkari, ii, 90 - 1.

المقطع العربي عن: المقرئ ج 3، ص 44.

(2) كان الشنة يرتدون البياض، والشعبة السوداء دلالة على حداهم المستمر على مقتل علي بن أبي طالب.

قلت: وهذا خطأ من المؤلفين، فهم يلبسون الثواب حداً على مقتل الإمام الحسين، رضي الله عنه.

ويعود المرضى، ويكثر مباشرة الناس والمشى بينهم» وكان يخطب بعسكره ويرفع اللواء بساعده. ويضيف ابن حبان أنَّ الأمير عبد الرحمن أمر بأن يسمح بالدخول إليه لكل من لديه شكوى، فيقول عنه «كان الداخل يقعد للعامة ويسمع منهم وينظر بنفسه فيما بينهم، ويتوصل إليه من أراده من الناس، فيصل الضعيف منهم إلى رفع ظلامته إليه دون مشقة، وكان من عادته أن يأكل معه من أصحابه من أدرك وقت طعامه، ومن وافق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه»⁽¹⁾.

جُلّ ما يأخذه المقرئ على عبد الرحمن هو ما ذكرناه آنفاً من عدم وفائه لأولئك الذين ساعدوه في وصوله إلى العرش وبناء دولته. ولكنه يسرد في هذا الإطار واقعتين بالإضافة إلى ما حدث مع صهره عبد الله بن خالد، في حين أن هناك العديد من القصص التي تروى عن طيبة قلبه واستعداده للعفو والصفح. والحقيقة أنَّ استقباله لمن حملوا السلاح في وجهه، سواء من اليمانيين أو المُضريين، عندما راسلوه في طلب الصلح، يظهر مدى قدرته على كبت مشاعره الشخصية حتى لا تقف عثرة في وجه سياسة متسامحة ومنفتحة تجاه أعدائه وهو التهج الذي سار عليه طوال حياته.

وأياً كانت ميوله الشخصية، فمن الواضح أنَّ عبد الرحمن الأول ظل طوال حياته وفياً للعهد الذي قطعه الخليفة الوليد فيما يخص الأميرة سارة. أما بشأن أربطاس، فتبدو الرواية التي وردت عن مصادرة أملاكه منه غير مقنعة ومناقضة لكل ما نعرفه عن شخصية عبد الرحمن بحيث أننا نميل إلى التعامل معها بوصفها مُختلفة، وإن كانت رواية الوقائع المتعلقة بإعادة بعض أملاكه إليه تبدو حقيقية. وما كان يمكن أن يعتمد كاتب مسلم إلى اختلاق مثل هذه الرواية، أو لابن حبان على الأرجح أن يشير إلى العهد الذي قطعه طارق بن زياد لأبناء غيطشة، نظراً للعلاقة سارة مع اليمانيين، لو أنَّ الأمر لم يفتضح بحيث ما كان يمكن إغفاله. وربما كان الأمر برمته مكيدة حاكها بعض أعداء القوط، وما قام به عبد الرحمن لدى اكتشافه أنه تعرّض للتضليل كان

(1) Makkari, ii, 88 – 9, 93.

نتيجة الدوافع نفسها التي جعلته يعزل صهره الوزير ابن خالد.

يورد كوندِه فقرة توضيحية تتعلق بموضوع اليهود التي ابرمت في عهد عبد الرحمن الأول، فيقول:

«اغتبط الأمير عبد الرحمن كثيراً لأنباء انتصاره [على يوسف الفهري] آملاً في أن تضع وفاة هذا القائد نهاية لمحاولات فريقه الخائبة. وفي الوقت نفسه، اتفق الأمير عبد الرحمن مع مسيحي قشتالة⁽¹⁾ Castilla على الخراج أو الجزية التي سيؤدونها له، ونصّت رسالة الأمان والحماية التي منحها لهم على ما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

كتاب أمان ورحمة عقده الأمير الأكرم الملك المعظم عبد الرحمن للبطارقة والرهبان ومن تبعهم من سائر أهل قشتالة (Castela, sic) وأعمالها ما داموا على الطاعة في أداء ما تحمّلوه فأشهد على نفسه أنّ عهده لا يُنسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب وعشرة آلاف رطل من الفضة وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل ومثلها من البغال مع ذلك ألف درع وألف سيف ومن الرماح مثلها في كل عام على خمس سنين. حُرّر في مدينة قرطبة في اليوم الثالث من صفر من سنة 142هـ (يونيو، 758)⁽²⁾.

(1) ورد في النص الانكليزي اسم المدينة Castilla [وهي التهجئة الإسبانية لمدينة قشتالة - Cas-tile]؛ ويقول المؤلفان في ملاحظتهما على ما اعتبراه تهجئة خاطئة للاسم: لكن كوندِه ترك ملاحظة تقول إن هناك خطأ لأن المنطقة الواقعة على الضفة الأخرى من نهر وادي الرملة - Gua-darama لم يكن اسمها قشتالة وإنما جليقية. من الواضح أن كشتالي Castela هي المقصودة. لقد تحدث غيرون عن هذه المعاهدة التي قرأ ترجمتها لدى ميخائيل غزيري، ولاحظ الاستخدام التاريخي الخاطيء لاسم قشتالة. (Chapterli, ad fin)

(2) Conde, i. 173 - 4.

«كتاب أمان ورحمة وحقن دماء وعصمة عقده الأمير الأكرم الملك المعظم عبد الرحمن بن معاوية ذو الشرف الصميم والخير العميم للبطارقة والرهبان ومن تبعهم من سائر البلدان أهل قشتالة وأعمالها ما داموا على الطاعة في أداء ما تحمّلوه. فأشهد على نفسه أن عهده لا يُنسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب وعشرة آلاف رطل من الفضة وعشرة آلاف رأس من خيار

وتجدر الإشارة إلى أن كوندته، ورغم أنه كان مدركاً تماماً، كما تشير ملاحظته، للخلط الحاصل بين Castella و Castilla و Castulo، من جانب الكاتب الذي ترجم له، فقد قام بنقل المعاهدة كما هي. ونحن ممتنون للتقل الأمين الذي قام به هذا الكاتب الدقيق لوثيقة مهمة تشكل دليلاً على ثراء وقوة المسيحيين الذين حكمهم أبناء غيطشة في القرن الثامن. من الواضح أن الوثيقة لا تعني مسيحيي جيليقية إذ لا توجد سجلات تشير إلى أن فرويلة بن أذفونش ملك الجلالقة (بن الفونس) أدى الجزية لعبد الرحمن. على العكس من ذلك، فإن المرة الوحيدة التي أتى فيها المقرري على ذكر فرويلة أكد على انتصاراته على المسلمين واشتداد عزيمته واستفحال سلطانه⁽¹⁾. وبالمثل لا توجد أية إشارة إلى دفع الجزية في «الحواليات العامة» *Crónica general*. لكننا نعتقد مع ذلك أن كوندته، أو الكاتب الذي كان يترجم له، أخطأ عندما أرخ تلك المعاهدة في السنة التي قُتل فيها الفهري. فلم نعثر على أي سجلات تقول بأن مسيحيي كاثلونا (كشطالي) قدموا له الدعم، ويبدو الأكثر ترجيحاً أن المعاهدة وُقعت مباشرة بعد سيطرة الأمويين على عرش قرطبة.

قدم الغزيري (ii, 104) المعاهدة في ترجمتها اللاتينية حيث يستخدم اسم «Castella» للدلالة على مدينة كشطالي. وربما أخذ كوندته نسخته من المجموعة العربية الإسبانية *Bibliotheca Arabico – Hispana* التي أعدها هذا الكاتب.



الخيل ومثلها من البغال، مع ذلك ألف درع وألف بيضة من الزماح الدردار مثلها في كل عام. ومتى ثبت عليهم التكت بأسير بأسرونه أو مسلم يقدرونه أنكت ما عودوا عليه. وكتب لهم هذا الأمان بأيديهم إلى خمس سنين أولها صفر عام اثنين وأربعين ومئة. الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، «سير اعلام النبلاء»، الجزء الثامن، ترجمة عبد الرحمن الداخل.

(1) Conde ii. 85.

كتب المقرري: «عندما شغل المسلمون بعبد الرحمن وتمهيد أمره، قوي أمر الجلالقة واستفحل سلطانهم، وعمد فرويلة بن أذفونش ملكهم إلى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها وملكها من أيديهم، فملك مدينة لك وبرتقال وسمورة وشلمنقة وقشالة وشقوبية، وصارت للجلالقة حتى افتتحها المنصور بن أبي عامر آخر الدولة ثم استعادوها بعده فيما استعادوه من بلاد الاندلس». المقرري، ج1، ص 330.

الفصل الرابع الأندلس في القرن التاسع

واصل الخلفاء المباشرون لعبد الرحمن الأول على عرش قرطبة نهجه في توطيد علاقاتهم مع المسيحيين والعرب اليمانية على المستوى الشخصي. وتمتلىء كتابات المؤرخين بما يشير إلى تعيينهم في مناصب عليا، حتى أن عبد الرحمن الثاني عين أحد أبناء اللخمييين في منصب قاضي قرطبة، وكان أخصص المقرئين منه النصراني عبيد الله بن قرلمان ابن بدر الداخل. وكان على علاقة جيدة بأهل إشبيلية التي هب لنجدها وأمدّها بالعون عندما هاجمها أهل الشمال، وقام بإصلاح الأسوار والمسجد من الأضرار التي لحقت بها⁽¹⁾.

كانت سياسة المصالحة ناجحة بحيث بقيت إشبيلية حتى سنة 888 موالية لحكام قرطبة. ولكن مع وفاة الأمير المنذر⁽²⁾ في ذلك العام، حصل تغيير جذري في العلاقات بين الجانيين، على الرغم من أنه لا يوجد ما يشير إلى السبب الرئيسي وراء هذا التحوّل، عدا عن قيام خليفته الأمير عبد الله بعزل قاضي قرطبة اللخمي ما إن تولّى الحكم⁽³⁾.

(1) Conde, i. 268; Makkari, ii. 116.

جمع دوزي في كتابه *Recherches* كل الأدلة المتوفرة عن الغزوات المختلفة التي قام بها مسيحيو الشمال على شبه الجزيرة الإيبانية. وكانت الغزوة الوحيدة من بينها التي نجحوا خلالها في الوصول إلى إشبيلية في سنة 844 - 845، عندما قاموا بتدمير الأسوار وحاولوا إحراق المسجد لكنهم لم ينجحوا، وذلك وفق ما نقله ابن القوطية الذي جاء قبله. ونجح عبد الرحمن في دحر المهاجمين وردّهم على أعقابهم، ثم بنى مسجد إشبيلية الكبير.

(2) المنذر بن محمد سادس الحكام الأمويين منذ عبد الرحمن الداخل. (م)

(3) Makkari, ii. 459.

أورد ابن حبان الواقعة دونما تعليق. وورد بعدها أن «اضطربت عليه نواحي الأندلس بالثوار والمتغلبين»، ويبدأ أن البلاد دخلت في حرب أهلية بشكل مفاجيء، ومنذ ذلك العام وحتى وفاته في عام 912، ظل في حالة خلاف مستمرة مع العائلات اليمانية من المولدين الذين يتسبون بأصلهم إلى الأميرة سارة وزوجها المسلمين.

وكان كبير اليمانيين حينها عبد الله بن حجاج اللخمي، حاكم إشبيلية وقرمونة، الذي كان يحكم مثل ملك على إشبيلية⁽¹⁾. ويروي ابن حبان أنه في العام 888 كان ابن حجاج قد ضبط إشبيلية ومنعها وجعلها أشبه بإمارة، رغم أنه كان يعترف من الناحية الشكلية بولاية الأمير عبد الله بن محمد عليه. ويضيف ابن حبان أنه كان لدى بن حجاج جيش من الحرس يضم خمسمئة من الخيالة كانوا يرتدون أثواباً فاخرة موشاة تعرف بالطرز، وقد طُرزت أسماؤه وألقابه على حوافها، وهو امتياز كان مقتصراً على الملوك وذريتهم، وعين القضاة والموظفين العموميين في أنحاء البلاد التابعة له، وكان محباً للعلوم وبلاطه مفتوحاً أمام الشعراء الزائرين⁽²⁾.

ويتوسع دوزي في سرد ما أوجزه ابن حبان، اعتماداً على ما يبدو على ما كتبه ابن القوطية الذين تربطه بابن حجاج علاقة قريبة.

ويقول إنه منذ عهد القوط الغربيين، كانت إشبيلية مركز العلم والحضارة الرومانية، ولم يحدث دخول العرب أي تغيير يذكر على الوضع الاجتماعي للمدينة التي كانت موطناً لنبل القوط وكبرى عائلاتهم الثرية⁽³⁾. اتخذت الأميرة سارة من إشبيلية مقراً لها منذ عودتها من دمشق مع زوجها الأول عيسى بن مزاحم، وورث أولادها منه ومن زوجها الثاني حمير بن سعيد اللخمي أملاكها وألقابها، كما حازوا على احترام وتقدير أهل إشبيلية. وكان بنو حجاج في ذلك الوقت على رأس تلك العائلات المتحدة.

والقاضي هو أبو معاوية بن زياد اللخمي. (م)

(1) لقد دعا ابن حبان إبراهيم بن حجاج، لكن الأدلة المنطقية تشير إلى أنه أطلق عليه خطأ اسم أخيه الأصغر.

(2) Makkari, ii. 439.

(3) G. der M. i. 392.

كان عبد الله بن حجاج وأخوه إبراهيم من الجيل الثالث أو الرابع من أحفاد سارة من زوجها الثاني، في حين أن كاتب تاريخهم ابن القوطية كان ينتمي إلى جيل بعدهما من أحفادها من زوجها الأول. وسيكون من المنصف الافتراض بأن التطور والحضارة التي عرفت إشبيلية في نهاية القرن التاسع نجما عن التزاوج والمصاهرة بين نبلاء القوط والعرب اليمانية الذين عرفوا بدورهم قروناً من الازدهار والرفق في اليمن السعيد⁽¹⁾ قبل أن يحتل الفرس بلادهم ويرغموهم على الهجرة من بينهم الحبيب إلى «قفار» مصر كما كانوا يستمنونها⁽²⁾. وفي الواقع، وإلى أن تولّى عبد الرحمن الثالث الحكم، الذي كان يسيل في عروقه دم يمانى مسيحي، وبمعنى آخر من المولدين من ناحية الأم، كانت إشبيلية بلا شك متفوّقة على قرطبة في بعض المناحي ولا سيما في عهد بني حجاج والأمير عبد الله الذي عاصروه.

ويختلف ابن حيان وابن القوطية، كما نقل عنهما دوزي، في تحديد تواريخ حكم عبد الله بن حجاج وأخيه إبراهيم اللذين حكما إشبيلية بين تولّي عبد الله الأموي الحكم في قرطبة في عام 888 وتولّي حفيده عبد الرحمن الثالث⁽³⁾ وخلافته له على العرش في عام 912. يمكننا أن نفترض على أي حال أن عبد الله بن حجاج كان قد توفي في العام 895، حيث يشير العديد من المراجع إلى تولّي أخيه الأصغر إبراهيم كأمر أو ملك على إشبيلية في تلك السنة، والتي تم بعدها توقيع هدنة في الحرب الأهلية الضارية بين الشوام والبربر من جهة، واليمانيين والمولدين من جهة ثانية. وعليه سنعمد على وصف دوزي لبلاط إبراهيم في تلك الفترة والذي ينطبق على ولاية أخيه المتوفى حديثاً.

شهدت فرمونة حرباً شرسة (سترد تفاصيلها لاحقاً)، وقع خلالها عبد الله بن حجاج كما روى مؤرخو بلاط قرطبة، في الأسر وقام المطرف ابن الأمير عبد الله

(1) Arabia Felix

(2) Lenormant, Book VII. ; cf. Butler, *Arab Conquest*, pp. 147 – 8.

(3) عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله.

بخنقه بعد أن هزمه وأباد جيشه. ولكن ذلك لم يضعف مكانة خليفته الذي تولى في السنة ذاتها الحكم كأمر مستقل يدفع الخراج إلى سلطان قرطبة، ويمارس سلطات مطلقة داخل حدوده. كان لإبراهيم جيش يتفق عليه كما يتفق السلطان على جيشه، ويقوم بتعيين كل موظفي إمارته من القضاة والولاة وحتى أصغر العاملين لديه (كما روى ابن حيان عما كان يفعله أخوه في سنة 891).

كان حكم إبراهيم بن حجاج يحمل كل مزايا النظام الملكي المتوارث، بدءاً من الحرس الأميري الذي يعدّ خمسمئة خيال، إلى الأتواب الملكية الموشاة والمطرزة على حوافها أسماء الأمير وألقابه بخيوط ذهبية. لقد كان أميراً وتاجراً، واسع العلم محباً للعلوم وراعياً لها. وغالباً ما كانت تصله على متن السفينة الواحدة هدايا من حكام بلاد المشرق وأقمشة من مشاغل النسيج في مصر وعلماء من الجزيرة العربية وقيان بارعات في الغناء من بغداد. وقد اشتهرت من بينهن جارية تدعى قمر⁽¹⁾ وصلت أخبار جمالها الزائع وفصاحتها وبراعتها في تأليف الألحان إلى إبراهيم فدفن فيها مبلغاً طائلاً، وأحضرها إلى قصره. كما استقدم ابن حجاج أبا محمد الغذري البدوي أحد علماء اللغة بالحجاز. فكانا مفخرة بلاط إشبيلية في ذلك الزمان. واشتهر عن الغذري أنه كان يوبخ كل من يسمعه ينطق بجملته غير صحيحة أو كلمة في غير محلها، فيصرخ بهم قائلاً:

ماذا فعلتم باللغة يا أهل الحضر؟

كان أبو محمد الغذري ضليعاً بكل ما يتعلق بفصاحة اللغة وجمال التعبير.

أما قمر، فقد جمعت إلى جانب موهبتها بصوغ الألحان وفصاحتها في اللغة والتعبير والبيان، الأدب والظرف وعزة النفس. وقد قالت في أحد أشعارها المرتجلة

(1) «من بينهن» ومن النساء اللاتخلات إلى الاندلس من المشرق قمر جارية إبراهيم بن حجاج اللخمي صاحب إشبيلية، وكانت من أهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ الألحان وجلبت إليه من بغداد وجمعت أدباً وظرفاً ورواية وحفظاً مع فهم بارع وجمال رائع، وكانت تقول الشعر بفضل أدبها». المقرئ، ج 3، ص 140 - 141.

إنها تفضل أن تكون امرأة عالمة حتى لو كان مصيرها التار، على أن تكون امرأة جاهلة نصيبها الجنة⁽¹⁾. لقد ذاع في القرن العاشر صيت العشرات من الشاعرات والملحنات والعالمات في قُرطبة، لكن المؤرخين لم يذكروهن قبل حكم عبد الرحمن الثالث. ويمكن عليه أن نستنتج أن عادة توظيف نساء متعلّقات في البلاط ظهرت في قُرطبة بتأثير من أو اقتداءً بحكام إشبيلية اليمانيين⁽²⁾.

ويروى أن شاعراً ساخراً يدعى القلقاط⁽³⁾ كان عاجزاً عن الحصول على أجر كافٍ في قُرطبة لأنّ عبد الله بن محمّد لم يكن يغدق على مثله من الشعراء، فقصد إشبيلية وتلا على مسامع إبراهيم بن حجاج أبياتاً تسخر من وزراء وموظفي البلاط في قُرطبة. تركه ابن حجاج يكمل قصيدته ثم قال له:

أوتظن أن رجلاً مثلي يمكن أن يغتبط لسماع مثل هذا الكلام المُبتذل؟
فعاد القلقاط خالي اليدين إلى قُرطبة.

من السهل أن ندرك أنّ رجلاً مثل إبراهيم من حجاج، كما يرد وصفه هنا، مستعد لأن يكافح حتى لا تسقط بلاده تحت حكم سىء الإدارة متعطّش لسفك الدماء مثل حكم عبد الله بن أمّية أو حتى ابنه المُطَرّف الذي كان قائد جيش قُرطبة، والوجه الآخر الشرير لعبد الله، أو الشيطان النابغة، طوال فترة حكمه.

كانت المعتقدات الدّينية لأهل إشبيلية - من اليمانيين أو المولّدين - تنبذ سفك

(1) Dozy, G. *der M.* i. 444 - 5.

(2) يذكر كوندّه (i. 455, 482) العديد من هؤلاء النساء في بلاط عبد الرحمن الثالث والحكم المستنصر، كما أشار پونس إلى أسماء أخرى (p. 513) وكذلك المقرّي (i. 161, Makkari, 162). وتظهر أسماء الكثير ممن ورد ذكرهم أنهم من اليمانيين، أما الباقيون فكانوا بالضرورة من المستعربين. وحول مكانة المرأة في اليمن، يمكن مراجعة:

Cf. Lenormant, Bk. VI. 347.

(3) هذه رواية دوزي للواقعة، لكن كوندّه (i. 337) يسرد بعض الأعمال التي قام بها القلقاط [محمّد بن يحيى، أبو عبد الله] تجاه إبراهيم توحّي بأنه ذهب إلى إشبيلية بوصفه جاسوساً يعمل لصالح السلطان.

الذماء بلا تمييز، وبشكل خاص، تكيد غير المقاتلين ويلات الحروب. كان العرب اليمانية، مع بعض الاستثناءات، من أتباع عليّ، ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة، الذي أدى قتله على يد السفينيين⁽¹⁾ (الذين خرجت منهم سلالة الخلفاء الأمويين) في النهاية إلى انقسام الإسلام إلى مذهبين متعادين: الشّنة المؤيدين لمقتل عليّ والذين واطبوا على مدى أربعين سنة بعد مقتله على لعن اسمه في صلواتهم علناً، والشّبعة الذين اعتبروه شهيداً واتّشحوا في مناطق عدّة بالسّواد ورفعوا راية سوداء رمزاً على حدادهم المتواصل عليه، وواظبوا على إحياء ذكره في كل مكان بوصفه إمامهم ووليّهم.

ومن هنا يمكن فهم العداوة المتأصلة بين العائلات اليمانية التي أقامت في إشبيلية، والشّامين والبربر الذين دانوا بالولاء للأمويين في قرطبة. وكانت الخلافات بينهما كبيرة إلى درجة يصعب التوفيق بينها سواء في أسلوب عيشهم وتفكيرهم وفوق كل شيء، مبادئهم ومفاهيمهم المتعلقة بالحرب والقتال. كان الشّبعة يتبعون في هذا المضممار «وصايا» أبي بكر⁽²⁾، التي تبنّاها واقتدى بها عليّ بن أبي طالب الذي خلفه بعد ذلك في الخلافة قبل أن يتم اغتياله. من الطّبيعي ألا يذكر ابن حبان وأقرانه من المؤرّخين الشّنة أي شيء أو ربما القليل في رواياتهم عما كان يستمى «نهج علي بن أبي طالب»، ولكن كونه، الذي كتب هنا - ربما دون أن يدري - من وجهة نظر اليمانيين، يشير إلى ذلك التّهج مراراً بكلمات بسيطة. كما نجد صدى «نهج علي» في مقاطع من ابن سعيد وابن غالب وغيرهما من الشّبعة، ليس فقط في كتاب كونه وإنما في روايات

(1) نرد العبارة بالأصل: المروانيين، وهذا خطأ فمؤسّس الخلافة الأموية كان معاوية بن أبي سفيان (السلالة الأموية الشّيفيائية)، ثم انتزعها منهم مروان بن الحكم وتلاه بنوه (السلالة الأموية المروانية). وأمّا مقتل سيدنا عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه فلم يكن على أيدي بني أمية بل اغتاله الخارجي ابن ملجم، والمؤلفان يخلطان بين حادثة مقتل سيدنا عليّ ومقتل سيدنا الحسين. وبعد فمن الاقتات التعميم بأن أهل الشّنة كانوا مؤيدين لمقتل عليّ أو الحسين، والصّواب أن يُطلق ذلك على بعض السفينيين تحديداً. (أحمد)

(2) العبارة من المؤلفين تبدو هكذا غريبة للغاية لاستقيم. (أحمد)

نقلها كتاب آخرون، في حين بات واضحاً فيما بعد أن حكام آخر سلالة يمانية عريقة، سلالة بني نصر الذين حكموا غرناطة، بنوا مملكتهم على أساس تبني ذلك التهيج.

يورد كوندِه نسخة كاملة من «الوصايا» في القسم الأول من سرده التاريخي⁽¹⁾. ومن هنا يمكننا أن نطلع على أجزاء مدهشة من وصايا أبي بكر إلى قادته وعسكره عندما أرسلهم لمقاتلة الرُوم في الشَّام:

قال أبو بكر لقادته:

«إياكم وأتباع الهوى (..) واستعملوا العقل وابعدوا عنكم الظلم والجور واعدلوا مع الجميع، فإنه لا أفلح قوم ظلموا ولا نُصروا على عدوهم (..)»⁽²⁾.

وأوصى عسكره بقوله:

«ولا تخالفوا أمراءكم (..) وأذا لقيتم القوم فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفاً لقتال او متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله [وماواه جهنم وبئس المصير]، ولا تخافوا الذَّهاب للمعركة، ولا تدعوا كثرة أعداد أعدائكم تخيفكم. وإذا نُصركم الله على عدوكم فلا تعملوا سيوفكم في من خضعوا لكم ولا تمثلوا فيهم، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً أو شيخاً كبيراً ولا امرأة. وإذا ما سرتهم في أراضي أعدائكم، فلا تعفروا نخلًا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تفسدوا أو تحرقوا حقولهم أو مساكنهم، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة. ولا تهدموا شيئاً بلا طائل، واسكنوا المدن والقلاع، ولا تهدموا منها سوى ما يمكن أن يتخذة أعداؤكم حصوناً لهم. وارحموا المغلوبين والمقهورين، يرحمكم الله. ولا تتساهلوا مع كل فخور متجبر، ومن لا يُدعن لشروطكم. ولتكن عهودكم بيّنة وتجنبوا الزيف والخداع في

(1) i. 8 – 10.

(2) «واحدروا، والحذر ينفع (..) وإياكم وأتباع الهوى، فقد أفلح من حفظ من الهوى والطمع والغضب، وإياكم والفخر، وما فخر من خلق من تراب، ثم إلى التراب يعود (..) واستعملوا العقل وابعدوا عنكم الظلم والجور واعدلوا مع الجميع، فإنه لا أفلح قوم ظلموا ولا نُصروا على عدوهم (..)». فتوح الشَّام للواقدي، طبعة بيروت 1997، ج 1، ص 8. (م)

معاملة أعدائكم، ولا تخونوا ولا تغدروا إذا عاهدتم، ولا تنقضوا إذا صالحتم. وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصّوامع رهباناً فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له، ولا تهدموا صوامعهم. ولكن اقتلوا من أعدائكم من يشهرون السلاح في وجهكم غير مذعنين لشروطكم»^(١).

ومن ضمن الصّيف العديدة الأخرى لوصايا أبي بكر لقادته وجنده هناك فقرة أخرى بعد تلك التي تتحدّث عن الرّهبان، وهي تتحدّث عن رتبة أخرى من رجال الدّين يمكن التعرّف عليهم لأنهم «قد حلقوا أوساط رؤوسهم». هؤلاء يوصي أبو بكر بقتلهم دون أن يعرض عليهم الاستسلام. ويبدو أن هذه الفقرة تشير إلى رجال الدّين العلمانيين، لكننا نشك فيما إذا كان أبو بكر نفسه أصدر مثل هذا الأمر الذي يبدو وكأنه إضافة ذات طابع طائفي تمّت في زمن لاحق، كما أنه لا ينسجم مع مبادئ الرّأفة والرّحمة التي تقوم عليها «الوصايا» التي تدعو عموماً إلى التسامح والإنصاف.

يتّضح الموقف الذي كان يتّخذه السّنة من التّهج الذي اتّبعه الشّيعية والتزموا به من خلال توجيه المطرّف لابن أخيه عبد الرّحمن الثّالث، خلال خروجه لقتال ابن حفصون في عام 917، بأن يستأصل شأفة الثّائرين دون أن تأخذه بهم «رأفة أو شفقة» لأنّ المسامحة واللين في رأيه مبادئ يساء فهمها⁽²⁾، مشيراً كما يقول كوندّه في ملاحظته، إلى أقوال علي بن أبي طالب ووصاياه التي حرّمت «قتل الهاربين خارج ميدان القتال كما حرّمت محاصرة المدن حصاراً شديداً لأكثر من بضعة أيام»، وهو ما يوحي بأن عبد الرّحمن كان قد أمر بالتزام هذه المبادئ.

هذه الواقعة وحدها كافية لكي نبيّن لنا شدة الاختلاف بين أتباع المذهبين في المبادئ الأساسية التي يتّبعونها، ويساعد في فهم التّزاع المستديم بين حاكم كانت

(١) تبدأ هذه الخطبة بقول أبي بكر «فتجهّزوا عباد الله إلى غزو الرّوم بالشّام، فإنني مؤمّر عليكم أمراء، وعاقداً لهم عليكم، فأطيعوا ريكهم..» وقد ألّفها في جيش المسلمين بقيادة أسامة بن زيد قبل انطلاقه على رأس جيش المسلمين لغزو بلاد الشّام. انظر تاريخ الطّبري وتاريخ اليعقوبي.
(م)

(2) Conde, i. 367.

سياسته تقوم على «عدم إيلاء أي اعتبار لمبادئ الرأفة والشفقة التي يساء فهمها» وأولئك الذين كان مذهبهم يدعوهم إلى الالتزام الصارم بتلك الوصايا.

ويمكننا أن نلاحظ بصورة عرضية أن الخلاف المبدئي البارز بين المذهبين في طريقة خوضهما للقتال، يوضح بشكل كبير ما كان غير مفهوم في تاريخ الإسلام في إسبانيا، ويفسر الكثير من الروايات المتضاربة عن أعمال قتل وحشية وسفك دماء جنباً إلى جنب مع قصص تعبر عن سمات الشهامة والمروءة والسخاء جديرة بأرقى الحضارات.

لقد ورد الكثير من الروايات عن الصفح على المغلوبين والرأفة في معاملة غير المقاتلين وأهل الذمة من غير المسلمين، وعن مراعاة مصالح الزارعين والفلاحين في عهد عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم المستنصر وحفيده هشام الثاني ابن الحكم (أو بالأحرى حاجبه الشهير المنصور بن أبي عامر وهو من اليمانيين) والمُعتمد بن عباد ملك إشبيلية، والذين كانت تسيل في عروقهم جميع دماء يمانية. ولا شك أن آخر ثلاثة خلفاء على عرش قُرطبة عملوا بتلك المبادئ تيمناً بأجدادهم حكام إشبيلية، حيث لم يُظهر أي من الحكام الأمويين من قبل مشاعر التعاطف هذه وهذه السمات. وشكلت هذه المبادئ أساساً لأكثر أساليب الحكم نجاحاً في إسبانيا المسلمة والتي تجلّت فترات اعتمادها في تألّي الحكم، حيث لم تكن الأندلس في أي وقت من الأوقات في مثل تلك القوة والثراء والرخاء والرضا كما كانت في عهد هؤلاء الحكام الذين ساروا جميعهم بصورة أو بأخرى على نهج عليّ وامتدوا به.

بعد فترة قصيرة من تولي عبد الله بن محمد عرش قُرطبة في عام 888، كان ابنه محمد والياً على إشبيلية، رغم أنه من غير الواضح إن كان والده هو الذي عيّنه في هذا المنصب أم عمّه المنذر قبل وفاته. ولا يوجد أي تفسير لما يعنيه هذا المنصب على مدينة كان بني حجاج يحكمون فيها كالملوك كما يقول ابن حيان⁽¹⁾. ولكن قد يشير ذلك إلى أن الأمراء الذين غالباً ما كان يذكر أنهم عيّنوا حكاماً على هذه المدينة أو

(1) Dozy, G. *Der M.*, i. 398, Conde, i. 327; Gayangos in Makkari, ii. 460 – 1.

تلك والتي نعرف أنه يسكنها ويحكمها أشراف يتمون إلى الفريق الآخر في الدولة، كانوا في الحقيقة موظفين لا يفعلون سوى تمثيل أمير قُرْطبة فيما يتعلّق بجمع الجباية من الأمراء المولّدين. وكما شرحنا من قبل، فقد كانت معظم مناطق جنوب غرب الأندلس يحكمها أمراء يتسبون إلى الملك غيطشة، بصورة أو بأخرى، والذين كانت تربطهم علاقات مودة وصداقة بالعائلات الشيعية إن لم تكن علاقات مصاهرة. ومع ذلك، يسرد المؤرخون الكثير من الروايات التي تتحدّث عن الخلافات بين «الناس» والحكّام الذين عيّنتهم الأمير عبد الله، مع التّمييز عموماً، وإن لم يكن على الدّوام، بين كبار القوم، أو الأشراف والتّبلاء، الذين كانوا يؤيدون أولئك الحكّام، والسّكان الذين يعيشون في تلك المناطق. وبذلك نعني أنه وعلى الرّغم من أن الحاكم وحاشيته كان يمكن أن يكونوا موالين للأمويين، فإنّ عامة الناس كانوا بصورة عامة لا يحبّونهم وغالباً ما يعصونهم.

تبدو الروايات التي أوردها مختلف الكتاب عن الدّور الذي اضطلع به الأمير محمّد في الأحداث التي أعقبت تولي والده للعرش، وخصوصاً أعماله في إشبيلية، متناقضة إلى درجة كبيرة بحيث لا يمكن تكوين صورة منسجمة من أيّ من الكتاب، وعلى الأخص من ابن حيّان أو غايانثوس. ولكن من خلال تجميع الإشارات المتفرّقة إلى الأسماء والأماكن والتواريخ في فقرات أخذت من كتاب مختلفين، تمكّنا من استخلاص شرح مقنع للأسباب والنتائج التي أدت إلى النهاية المأساوية للأمير الشاب الذي يبدو أن ابن حيّان وغيره من المؤرّخين السّنة تعمّدوا عدم تسليط ضوء كافٍ عليه، بغضّ النظر عن الدّور الكبير الذي اضطلع به ابنه في تسطير تاريخ أمّتهم. وعلى الرّغم من أنّ محمّداً عُرف بسعة علمه وحلمه وشجاعته، فقد كانت علاقته متوتّرة بأبيه وبأفراد عائلته الباقين، وذلك على ما يبدو بسبب حبّه لفئة نصرانية تدعى ماريّا تزوّجها في الفترة ما بين 888 و890⁽¹⁾.

(1) Conde, i. 327, 358; Casiri, ii. 35.

يبدو أن محمّداً نفسه كان من المولّدين، حيث يورد مؤلف «السجلات العامة» *Crónica gene-*

من السهل أن نفهم أنه إن كان الأمير محمّد ابن امرأة مسيحية وأحب وتزوج امرأة مسيحية، فإن الأمر كان سيولّد حساسية ويخلق توتراً مع أفراد عائلته السّنة المتشدّدين. وما من شك في أنّ ماريّا زوجة محمّد كانت تنتمي إلى عائلة الأميرة سارة، لأنه وبعد نحو خمسين سنة من ذلك الوقت، عثرنا على رواية تتحدّث عن تعامل ابنه عبد الرّحمن الثالث مع «ابن خاله أحمد ابن إسحق» المتحدّر من عائلة مسيحية وأحد أحفاد الأميرة سارة من زوجها الأول. ونحن نميل إلى التفكير بأن ماريّا كانت ابنة أو ابنة أخي «الملك» عبد الله بن حجاج نفسه، نظراً لحرص المقرّي على حذف اسم أبيها، والإشارة إليها باسم مُزنة فقط⁽¹⁾.

عندما بلغ الأمير محمّد إشبيلية، كانت المدينة في حال اضطراب نتيجة خلاف بين المولّدين وأتباع عبد الله، لن نذكر تفاصيله. وكان الطّرفان المتخاصمان قد وجّها خطابات تشرح موقفيهما من القضية إلى سلطان قرطبة الذي كلّف محمّداً بتهدئتهما. وبعد أن استمع إلى الطّرفين، أرسل يطلب من السلطان تأجيل اتخاذ قرار حول

ral أنه وجد في «كتاب قديم جداً» في مكتبة سان إيسيدورو في ليون، وثيقة توجد نسخة منها في قصر الإسكوريال، لشجرة عائلة عبد الرّحمن الثالث الذي يتسب من ناحية أمه إلى ملك نافارو (أو الذوق) إنيغو أريستا Arista. كان للذوق إنيغو ابن يدعى غارثي إنييث Garcí Ifiiguez وكانت له ابنة تدعى إنيغا Ifiiga تزوجت الأمير عبد الله الذي كان زوجها الثاني، وأنجبت منه الأمير محمّد. ويقول المقرّي (Makkari, ii. 127) إنه في العام 861، غزا الأمير محمّد (والد عبد الله) أراضي پامبلونا وجلب معه فورتونيو، أحد أبناء غارثي إنييثيس ملك نافارو الذي بقي اسيراً لديه طوال عشرين عاماً في قرطبة. وحصل مؤلف «التّجلات العامة» على تأكيد لمعلوماته من مصدر مستقل هو كتاب رودريغو الطليبطلي «تاريخ العرب» History of Arabs وفي وثائق قديمة وهو يفترض بناء عليها أنه عندما اختطف فورتونيو، ذهبت أخته إنيغا معه. ويضيف أنه عندما قتل غارثي إنييث في سنة 885، بقي عرش مملكة نافارو خالياً إلى أن أفرج الأمير عبد الله عن نسيبه فورتونيو، بعد وفاة محمّد والمنذر. (Crónica general, viii. 102 – 4).

(1) Makkari, ii. 145.

قد يكون الباحثون العرب قادرين على معرفة أن كان اسم «مريم» يمكن أن يصبح «مُزنة» من خلال ارتكاب خطأ في نسخ الأسماء. ويبدو أن الأمر اقتصر على هذا التّغيير.

Cf. Pons, *Escrituras Mozarabes*, p. 67 note.

القضية، وبأنها مستضخ له مع وصول الرّسل الذين خرجوا إليه، نظراً لكونها قضية معقدة وتتطلب النظر فيها بتمعّن. لكن عبد الله، وتحت تأثير المطرّف، الذي كان دائماً يتبنّى موقفاً معادياً لأخيه، تجاهل آراء ابنه الأكبر لا بل تعامل معها بوصفها دليلاً على عدم إخلاصه، وقد قدّم له محمّد سبياً لذلك عندما سمح لابن غالب، أحد الأطراف المعنيين، بالعودة مؤقتاً إلى قلعته التي كان الأمويون يسعون إلى انتزاعها منه.

اغتبط المولّدون أمام سماحة الأمير الشاب ومعاملته الطيبة لصديقيهم والتي اعتبروها دليلاً على تعاطفه معهم. لكن عبد الله استشاط غيظاً وأمر باعتقال ابن غالب وقتله، كما أرسل فرداً آخر من العائلة المالكة، يدعى أميّة، ليحلّ محل محمّد في منصب حاكم إشبيلية. عندئذ قرّر الأمير محمّد ترك كل شيء والعيش بين المولّدين واليமானين الذين بقي معهم حتى مماته⁽¹⁾.

عندما سمع الأمير عبد الله أنّ أخويه القاسم والأصبنغ، وكذلك ابنه محمّد، انضموا إلى قادة التمرّد في ألبسنة وأستبة والبيرة ورية، ومرتفعات سيرانيا دي لا روندا، وأنّ عدداً من وزرائه وأفراد شعبه الذين كانوا يظهرون ولاءهم له رفضوا الإذعان لأوامره في شتّى الحرب على أهل جيان Jaen، اشتدّ به القلق من أن يرفع ابنه محمّد لواء التمرّد في إقليم شريش (خيريث) Jerez ومدينة صيدونيا (شدونة) أيضاً. فمحمّد كان دائماً المفضّل لدى أعمامه القاسم والأصبنغ حاكمي هاتين المدينتين. ولذلك أرسل المطرّف إلى إشبيلية أملاً في أن يستمع أخوه محمّد إلى نصيحته فيطّيب خاطره ويسترضي كبريائه، في حين توجّه هو لمحاصرة طليطلة معقل النصارى الذين كانوا لسنوات يرفضون الانصياع للحكم الإسلامي.

ولكن محمّداً، الذي كان صاحب مظلمة لا تتيح له الاستجابة لرغبة والده في

(1) ربما خاف محمّد على حياته إن هو عاد ووقع في يد أبيه. ويبدو أنه كان قد تزوّج حينها، وكان تركه لإشبيلية يعني إفراقه عن زوجته. لم يترك المؤرخون الشّنة الذين كتبوا تاريخ السلالة الأموية معلومات من أي نوع (استناداً إلى التراجم التي تمكّنا من الحصول عليها لأعمالهم) عن إجراءات ولاية العهد بعد أن عزل الأمير محمّد كحاكم على إشبيلية. ويقول غايانغوس إنه لم يعثر على تفاصيل إضافية غير ما ذكرناه هنا.

استرضائه، رفض عقد صلح مع المُطَرِّف أو حتى التفاوض معه. فكتب المُطَرِّف إلى عبد الله يقول له إنه لم يسمح له بدخول إشبيلية وإن محمداً رفض الإجابة على خطاباتة. وربما كانت تجربة محمداً كافية لتجعله يعرف أنه لا يمكنه الاعتماد على أخيه كوسيط.

وانضم الكثير من الثوار إليه وراحوا يحضونه على مهاجمة قُرطبة، وكان حلفاؤه قد ثاروا في كامل أقليم جيان، حيث أراضي أحفاد أرطباس. وفي الحقيقة، بدا الوضع خطيراً للمُطَرِّف الذي كان على ما يبدو جندياً كفوءاً فأشار على الأمير عبد الله أن يدع ضباطه يشرفون على حصار طليطلة ويعود فوراً إلى قُرطبة.

أسرع عبد الله في العودة وأعد خطة لشن حملة مع المُطَرِّف تتضمن شن الحرب على محمداً لإخراجه من إشبيلية وأسرره، والعمل في هذه الحين على تهدئة الثورات في البلاد من خلال معاقبة الثوار. ولم يكن عبد الله أو المُطَرِّف يتخيلان أن الأمر سيستغرق أكثر من ربع قرن ليتحقق لهما ما أراداه⁽¹⁾.

كان محمداً خلال السنوات الخمس التالية أحد قادة المولدين، إن لم يكن كبير قادتهم. وفي حين خاض ابن حفصون حرباً مستمرة في المناطق المحيطة بقلعته بستر، خاض محمداً وأمير إشبيلية عبد الله بن حجاج، حربهما على قُرطبة دون صعوبات في مناطق إشبيلية ولبلة وقرمونة. خاض المُطَرِّف معارك كثيرة ضد أخيه في شدونة وشريش وأستبة وقرمونة في حين كان ابن حجاج يدافع عن إشبيلية مع خياله الخمسمئة.

يمكن من خلال إلقاء نظرة سريعة على الخارطة أن نرى أن الحرب الأهلية الطويلة امتدت، وكانت مقتصرة بصورة خاصة على الأراضي التي ملكها الأمراء القوط في القرن الثامن، وحلفاؤهم اليمانيون، وهي حقيقة تدل، مهما رغب ابن حيان أن يسميها، على جهد مديد وتصميم على عزل سلالة قُرطبة لصالح حاكم من ذرية غبطشة.

(1) Conde, I. Chapters Ix. – Ixii. ; Gayangos in Makkari, ii. 460 – 1; Dozy, G. *der M.*, i. 398 ff.

ومن المستحيل معرفة إن كان المولدون حينها يرغبون في تولية محمد نفسه على العرش، نظراً لحق زوجته فيه، فمثل هذه الخطة، إن وجدت، وُثِدَت في المهد بسبب الوفاة المبكرة للأمير الشاب، بعد أن قاتل طوال خمس سنوات جنباً إلى جنب مع أصدقائه من أهل إشبيلية. وخلال هذه السنوات الخمس ولد ابنه الوحيد (يقول دوزي إن ذلك حصل في العام 891)، وهو الذي أصبح فيما بعد الخليفة عظيم الشأن عبد الرحمن الثالث⁽¹⁾. كان عبد الرحمن في الحادية والعشرين عندما تولى العرش في عام 912 بعد وفاة جده. أما أبوه فعاش في إشبيلية من 888 أو 889 وحتى 895⁽²⁾.

في عام 895، عندما عاد الأمير عبد الله إلى قرطبة من طليطلة، أرسل خياله لتعزيز الجيش الذي قاده المُطَرِّف لمطاردة المتمردين. ويقول كوند إن المُطَرِّف تمكن من السيطرة على إشبيلية وقرمونة، لكن رواية ابن حبان لا تتفق معه. يقول ابن حبان إن المُطَرِّف توقف في موقع يدعى طليبة، على ضفاف نهر وادي الرّحي⁽³⁾ Guadaira، على بعد نحو ثلاثة كيلومترات من إشبيلية، ومن هناك اتجه إلى قرمونة حيث، وإن كان لم يذكر ابن حبان ذلك، حصلت معركة أصيب خلالها محمد وعمّه القاسم ووقعا في الأسر⁽⁴⁾.

(1) هو عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله، الذي اشتهر باسم عبد الرحمن الثالث. (م)
(2) *G. der M.*, i. 449 note.

(3) Guadaira معناها بالإسبانية وادي الرّحي، وفق قواميس اللغة والجغرافيا. واكتسبها النهر لانتشار الطواحين وكانت تسمى الرّحي عند الأندلسيين على ضفافه. ولم يرد الاسم لدى الإدريسي ولا المقرئ. ولكن القلعة القائمة على هذا النهر تسمى قلعة جابر Alcala de Guadaira وورد في بعض المراجع قلعة الغديرة. (م)

(4) Conde, i. 338 - 9; Makkar, ii 454.

المنطقة التي أشار إليها ابن حبان باسم طريل لا بد أن تكون بلدة Tablada الواقعة على بعد كيلومترين من إشبيلية في السهل الواسع الذي يحيط بتلك المدينة، وفي زاوية يشكلها التقاء نهر وادي الرّحي بالوادي الكبير. باتت المنطقة اليوم منطقة للترمة حيث يتم تنظيم سباقات للخيل ولصيد الحمام، والبولو، والطيران، وغيرها من الرياضات. وصل أعداء إشبيلية على مدى التاريخ مرّات عدة حتى بلدة التي كانت دائماً منطقة مفتوحة للهجمات لكنهم قلما تمكنوا من الاقتراب أكثر. وصل مسيحيو الشمال إلى بلدة لكن من المشكوك فيه إن كانوا تمكنوا من

مُنبت قوات المولدين خلال هذه المعركة بهزيمة ساحقة بعد معارك ضارية. وخاض الأمير محمّد الحرب ببسالة كما فعل خيَّالته وجنده، ولكن حصانه قتل تحته، أما هو فحُمِل وقد «اثختته الجراح حتى شلّته عن الحركة» ألى حيث أخيه المُطرّف. كما اقتيد عمّه القاسم، وهو في حالة شبيهة بحالته، إلى المُطرّف الذي أمر بحراسة الأميرين الجريحين ومداواة جراحهما. تعافى القاسم وسمعت أخباره مجدداً في إشبيلية بعد بضع سنوات. أمّا محمّد فتوفي في السجن عن ثمانية وعشرين عاماً. ويقول البعض إنّه مات مسموماً بأمر من أخيه، ويقول آخرون بأمر من أبيه، ويقال أيضاً إنه مات متأثراً بجراحه ولشدة يأسه. والرأي السائد أنه قتل، والاسم الذي أعطي لابنه يشير إلى ذلك. كان يطلق على ابنه عبد الرحمن ابن الرابعة حينها في البلاط «ابن محمّد المقتول»⁽¹⁾.



الدخول إلى المدينة، كما أنّ فرناندو الثالث عسكر في تلك المنطقة مدة ثمانية عشر شهراً في عامي 1247 - 1248، قبل أن يتمكّن من دخول إشبيلية، رغم أنه كانت معه كل قوات مسيحي إسبانيا. ومن الممكن أن الكثير من الأحداث التي استخدم الكتاب في وصفها عبارة «الاستيلاء على إشبيلية» نظراً لعدم معرفتهم بتضاريس المنطقة، إنما المقصود منها احتلال تليدة. هذه الفرضية توضح الكثير من التناقضات في رواية الأحداث التاريخية.

(1) Conde, *loc. Cit.*; cf. Gayangos in Makkari, ii. 460 - 1, and Dozy, *G. der M.*, i. 449, quoting Ibn Adhari.

ورد في كتاب ابن القوطيّة مقطعان عن الأمير محمّد جاء أحدهما على الشكل التالي: «وتولى ابن أمية حرب ابن حفصون، فقام وقعد إلى أن قتله مُطرّف وابنه بإشبيلية، وصارت القيادة إلى أحمد بن محمّد بن أبي عبدة، وكان يومئذ وزيراً وصاحب المدينة. وكان سبب قتل مُطرّف له أنه كان قبيح الثبة في أبيه عبد الله، وكان ينوي خلعه وكان يقول إنه لا يمكنه ذلك مع ابن أمية من عبد الله، وقد كان عبد الله يحذر ذلك عليه، وقد كان قال لمُطرّف: قد سوغتك قتل أخيك محمّد إذ عاند وخالف، وبالله لئن أحدثت في ابن أمية حدثاً، لأقتلك به. (ابن القوطيّة، ص

(116). (م)

الفصل الخامس

الأندلس في القرن التاسع (تتمّة)

وقعت هذه الأحداث في العام 895. ويخبرنا ابن حيان أن المُطَرِّف عاد إلى إشبيلية بعد الحملة التي دار خلالها معركة قرمونة، و«أمر بإحضار القادة الأسرى، خلدون بن حجاج وخالد بن عثمان بن خلدون وعبد الملك أمير شذونة وأتباعهم إليه. وبعد ذلك بثلاثة أيام أمر بخنقهم جميعاً». غير أن كونه يعيد تاريخ إعدام إبراهيم بن حجاج إلى سنة 910 - (1) 911، بعد مناقشات لم يحدّد موقعها. ولو افترضنا أن ابن حيان (أو ناسخه) زلّ قلمه وكتب إبراهيم عوضاً عن عبد الله، ستكون الأحداث اللاحقة أكثر اتفاقاً مع المنطق.

لم يذكر ابن حيان شيئاً عن مصير الأمير عبد الرحمن بعد موت أبيه محمّد. ونعتقد أنه عاش على الأرجح في إشبيلية في حماية أقرباء والدته لعدة سنوات، وأنّ اسم «ابن المقتول» كان يُطلق عليه في بلاط إبراهيم بن حجاج الذي خلف أخاه عبد الله في عام 895، بناء على فرضيتنا. ما كان ليجرؤ أحد أن يطلق على الطفل مثل هذا اللقب على أسماع السلطان عبد الله أو ابنه المُطَرِّف الذي قتل محمّد على يديه، في حين أنه كان سيُعتبر لقباً مشرفاً في إشبيلية بما أنّ أباه كان يعتبر هناك شهيداً لدعوة المولّدين واليمانيّين الذين كان ابن حجاج «ملكهم». وبالطبع ما كان سيسجّل تلك القصة غير مؤرّخ ينتمي إلى ذاك الفريق.

(1) Conde, i. 350;

ولكن للاطلاع على التاريخ، انظر الملاحظة ص 88.

Ibn Hayyan in Makkari, ii. 454.

إن افترضنا أن كونده محق في تحديد تاريخ مقتل إبراهيم بن حجاج في وقت متأخر، بعد عدة سنوات من التاريخ الذي حدده ابن حيان، وكذلك أن ابن حجاج الذي قتله المطرّف لم يكن إبراهيم وإنما عبد الله، تصبح روايته للأحداث أقرب إلى الفهم، حيث لم يعط ابن حيان أو أي كاتب آخر سوى القليل من المعلومات التي تشير إلى نجاح فريق قُرطبة في السيطرة على إشبيلية فعلاً أو قمع الثورة فيها، في حين توجد أدلة قوية على أن بني حجاج استمروا يحكمونها.

يقول كونده إنه في العام 902، وبدلاً من أن يعمل السلطان عبد الله بمشورة «المتشددين» الذين حضّوه على الانتهاء من ابن حفصون وإعلان الحرب على التصاري، قام بإرسال قائده عبيد الله ابن الجمري للتفاوض مع ألفونسو الثالث⁽¹⁾ ملك جليقية وليون، وإن ابن الجمري نجح في عقد صلح معه والموافقة على أن يشن «حرباً لا هوادة فيها» على الثائرين الذين يقتربون من حدود مملكته⁽²⁾. يبدو أن البديل للاتفاق مع ألفونسو كان عقد صلح مع ابن حفصون. ويقول كونده استناداً إلى المراجع التي نقل عنها المعلومات الواردة في فصله هذا إن مفاوضات الصلح هذه أغضبت «الزاهدين الورعين من مسلمي الأندلس» إلى حد أنهم في بعض المدن باتوا يغفلون ذكر اسم الأمير عبد الله في خطبة الجمعة أو في صلواتهم اليومية، لأنه لم يعد في نظرهم مؤتمناً على حقوق المسلمين. لكن الإيحاء الوارد أنفاً بأن الخلاف كان دينياً وليس سياسياً يتناقض مع الجملة التالية. فاليمانيون لم يكونوا في أي وقت من الأوقات من «الزاهدين الورعين أو المعتزمين بفروض الدين» في نظر الشئنة، أو كما كان عليه رجال الدين الذين أغفلوا ذكر اسم عبد الله في الصلاة. على العكس من ذلك، فغالباً ما وصفهم الكتاب الشوام بأنهم لا يمتثلون أو يهملون اتباع تعاليم الإسلام المتشددة بحذافيرها. وهكذا عندما نعلم أن هذه «الجرأة التي ما بعدها جرأة» في إهانة حاكم قُرطبة علناً حدثت في إشبيلية، عاصمة اليمانيين والمولدين، وأن

(1) يسمى في الكتب العربية القديمة الأذقونش. (م)

(2) Conde, i. 344 – 5.

القاسم وهو أخو عبد الله شجع على التعبير عن هذه «الآراء الضيقة»، لأدركنا أن أسباب الاضطرابات سياسية وليست دينية.

ورد في فصل سابق أن عبد الله كان يرغب في إصلاح ذات البين مع القاسم وكسب ولائه من خلال تعيينه حاكماً على إشبيلية بعد معركة قرمونة التي هُزم فيها مع ابن أخيه محمد، ولكن المطرّف عارض رغبة أبيه، وهكذا «طوى التسيان القاسم كما لو أنه كان في السجن». يظهر أن القاسم نجح في الهرب أو أن عبد الله تحدّى ربما للمرة واحدة المطرّف وتصرّف خلافاً لمشورته، لأنه اعتباراً من العام 902 استعاد القاسم نفوذه بين أهل إشبيلية.

عندما تناهت أخبار إشبيلية إلى أسماع عبد الله أرسل أحد وزرائه، متنكراً على ما يبدو، لاستطلاع الأمور. وعاد الوزير، الذي كان شجاعاً حادّ الذكاء، ليؤكد للملك صحة ما نقل إليه، ويقول له إنه بدلاً من ذكر اسمه في الصلوات، كانوا يذكرون اسم «خليفة الشرق»⁽¹⁾ في حين أن القاسم كان يقول في العلن إنه لا ينبغي تأدية الزكاة *azaque* إلى عبد الله، لأنه لم يكن مسلماً تقياً ولا مؤمناً، وإنه كان يستخدم الخراج في غير صالح المسلمين⁽²⁾. وهكذا أمر عبد الله بسجنه ودمّ السّم له في السجن⁽³⁾.

الأرجح أن المعاهدة التي وقعها عبد الله مع ألفونسو الثالث ضد ابن حفصون

(1) كان الخليفة العباسي، الذي يعتنق المذهب الشيعي ويرجع بأصله إلى أبي العباس السفاح الذي قضى على الأمويين، عدواً لأمير قرطبة، مختلفاً معه في الدين والانتماء القبلي.

قلت: هذه أيضاً من أخطاء المؤلفين، فصحيح أن بني العباس اتخذوا منذ مبدأ قيام دولتهم على يد أبي العباس السفاح السواد شعاراً، ونادوا بثارات آل البيت من بني أمية، ولكنّ الخلفاء العباسيين كانوا من أهل الشّنة، لا مراء في ذلك ولا مُشاخة. (أحمد)

(2) *El Azaque* - الزكاة.

استخدم المؤلفان كلمة *tithe* للدلالة على الخراج وهي تعني العُشر وكان المسيحيون يدفعونها طواعية أو كضريبة للكنيسة. (م)

(3) Conde, i. 344 - 6.

من غير الواضح كيف أمكن للملك عبد الله اعتقال القاسم لا سيما وأنه كان حراً في إشبيلية. والأرجح أن وزير عبد الله دبّر مؤامرة للقبض عليه.

كانت السبب الحقيقي الذي أغضب أهل إشييلية اليمانيين والمولدين ودفعهم إلى إهانة حاكم قُرْبَة. لقد كان حليفهم ابن حفصون (مراجعة الفصل التالي) ورغم كونه مسيحياً على علاقة وطيدة مع الكثير من العائلات ذات الأصل اليماني.

ولكن بعد هذه الأزمة، دخلت العلاقات بين بني حجاج وعبد الله وبصورة مفاجئة مرحلة جديدة. يقول دوزي إن عبد الله أصبح صديقاً لابن حجاج، وبما أن إشييلية كانت موئل التمرد، ما إن أزاح العداوة التي كان يكنها له زعيم الثائرين عليه، سرعان ما انصاعت لبلة وكل بذور العصيان حتى الجزيرة لحاكم قُرْبَة. ويقدم دوزي شرحاً مستفيضاً لهذا التغير، لكننا سنكتفي اختصاراً بالقول إن عبد الله احتجز ابن بن حجاج أسيراً لديه، ودفع الأب إلى الإذعان من خلال إعادته إليه⁽¹⁾.

يخبرنا كوندِه أنه في العام 910 - 911، باغت المُطَرِّف جيش المولدين الذين وافقوا حقناً لدمائهم على تسليمه قائدهم إبراهيم بن حجاج الذي قام المُطَرِّف بقطع رأسه⁽²⁾.

في هذه السنة ذاتها، كما يقول كوندِه، يكتشف قائد الجيش عُبيد الله بن جمري الذي حقق العديد من الانتصارات على الثوار، أن المُطَرِّف يعمل على إقناع أبيه بتنحيته من منصبه كقائد للجيش ووالي مقاطعة ماردة متعللاً بتقدمه في السن مما يستدعي أن يرتاح بعد أن أنهكته الحرب الأخيرة التي خاضها. يرفض الأمير عبد الله الأخذ بطلب المُطَرِّف الذي يصرّ على ذلك والسبب أنه كان يريد أن يحصل على منصب ابن جمري لنفسه. عندما علم ابن جمري بذلك فضل أن يحفظ كرامته ويستقيل من منصبه لصالح المُطَرِّف بحجة أنه يرغب في أن يستأذن لفترة طويلة لأداء فريضة الحج في مكة. ولكن

(1) *G. der M.*, i. 441 - 7.

(2) *Conde*, i. 350.

من الواضح أن التاريخ الذي يورده كوندِه هنا (298 هـ و 910 - 911 م) خاطيء، لأننا قرأنا في مراجع أخرى أنه خلال السنوات التسع الأخيرة من حكم عبد الله كان في حالة سلام مع بني حجاج. ولكن إن غيرنا التاريخ إلى 289 هـ (902 م) بدلاً من 298 هـ نحصل على ما يشبه التسلسل الزمني للأحداث التي سجلها مختلف الكتاب، ولتحقيق ذلك نقوم بتعديل التاريخ الذي سجله كوندِه.

يبدو أن ابن جمري تخلى عن فكرة الحج، لأنه عندما عاد إلى قُرطبة عيّنه عبد الله رئيساً لحراسه الصقلية وهم من «الأجانب الشرقيين الذين كانوا يلقون كل احترام لكياستهم ويسالتهم وإخلاصهم اللامتناهي». كانوا يتولّون حراسة القصر من الداخل، ويحملون سيفاً يستخدم باليدين وترساً وذبوساً».

في غياب المُطرّف وانشغاله بقمع الثائرين على الحكم، وكان يقطع رؤوس كل من تقع يده عليهم أو يطعنهم برمح، فبربهه أصدقاؤه قبل أعدائه بسبب قسوته وشدة انضباطه العسكري، اغتنم ابن جمري الفرصة للانتقام من هذا الأمير وقدم إلى الملك عبد الله حفيده الذي يفترض أن يصبح بصورة طبيعية ولياً للعهد لو نال عطف عبد الله وحبّه. أعلن ابن جمري نفسه حامياً لعبد الرحمن الصغير ابن محمّد المقتول، وبذل ما في وسعه ليكسب قلب الملك وتعاطف الشيوخ والولاة والوزراء وغيرهم من الأعيان والأشراف التافذين لمصلحة الصّبي الصغير. حرص عبد الله على كبت كل ما يمكن أن يدلّ على حبّه للصّغير خشية إغضاب ابنه المُطرّف، ولكنه كان يستمع في مجلسه الخاص وبكثير من الرّضا لكلمات الثناء على حفيده الذي جعلت منه رفته ودمايته وطباعه المحبّة مصدراً للفرح والبهجة في بلاط قُرطبة⁽¹⁾.

يوضح المقطع التالي (المأخوذ عن كاتب شيعي بالطبع) كم كان عبد الله يهاب ابنه الذي كان يعتقد كثيرون أنه كان مصتماً على تولّي الحكم من بعده، كما يفترض أن تسير عليه طبيعة الأمور لو أن محمّداً وابنه توفيا. كما يشير إلى أنّ غيرة المُطرّف هي التي فرضت حتى ذلك الحين إبقاء عبد الرحمن الصغير بعيداً عن الأنظار.

لنعد الآن إلى قصة دوزي عن «ابن» بن حتاج في ضوء حرص عبد الله على إخفاء حبّه لحفيده المولّد «حتى لا يسبّب إي إزعاج» للمُطرّف. يسرد دوزي باستفاضة وقائع اخماد الاضطرابات في إشبيلية، وهو ما يمكن اختصاره فيما يلي:

في العام 899، أطلق إبراهيم بن حتاج على خطاب كتبه خالد بن خلدون للأمير

(1) Conde, i. 351 – 2.

عبد الله، وفهم من خلاله أن ابن خلدون يتآمر عليه. لام خالدًا وأخاه كُريب على خيانتهم له. هاجمه خالد وجرحه لكنه نجح في طلب المساعدة وقتلهم. اعتباراً من ذِيَاك الحين، أصبح إبراهيم بن حجاج وحده أميراً على أراضي إشبيلية، ولكن بما أنه شعر أن عليه أن يبرّر فعلته للأمير الذي كان لا يزال يحتجز ابنه⁽¹⁾، كتب إليه ليشرح له أنه ما كان بوسعُه أن يفعل غير ذلك وأن الأخوين كانا يحضّانه باستمرار على التمرد، وأنه لم يكن في طويته مؤيداً في يوم من الأيام لأرائهم وأنه في حال عيّنه السلطان والياً على إشبيلية فسيتحمّل كامل مصاريف الخدمات العمومية وسيؤدّي له إضافة إلى ذلك سبعة آلاف دوقية كل سنة. وافق السلطان على عرضه وأرسل «رجلاً يدعى قاسم» إلى إشبيلية ليقوم مقام مساعد له، لكن إبراهيم سرعان ما جعل قاسماً يفهم أنه في غنى عن خدماته.

يبدو بالطبع غريباً أن ابن حجاج، الذي أذل نفسه كما هو وارد لكسي يُنعم عليه عبد الله بعطاياه، لم يأتِ أبداً على ذكر استعادة ابنه من بينها، في الوقت الذي عرض شروطاً متهاونة من أجل تعيينه حاكماً على مقاطعة كان في الأصل يحكمها وحده كما رأينا سابقاً.

بعد ضمان تعيينه حاكماً لإشبيلية وتخلّصه من ذاك الرجل الذي يدعى «قاسم»، يخبرنا دوزي أن ابن حجاج طلب استعادة ابنه، لقد طلب ذلك عدة مرّات، لكن عبد الله أصرّ على رفض إعادته، رغم أن إبراهيم غامر للحصول على مراده بالتهديد بعدم دفع الخراج له، وبالتحالف مع حُمُر بن حفصون.

وجاء تهديد إبراهيم بنتيجة غريبة هي التوقيع على عهد صلح بين ابن حفصون والأمير عبد الله، وليس بين إبراهيم والأمير، أو إبراهيم وابن حفصون، كما كان يمكن لنا أن نتوقع.

لكن الهدنة لم تستمر طويلاً، إذ عقدت في عام 901 ونقضت في عام 902، عندما

(1) يبدو أنها المرة الأولى التي يذكر فيها ابن إبراهيم بن حجاج الذي عرفنا أنه كان يدعى عبد الرحمن.

هاجم ابن حفصون جند قُرطبة تحت قيادة ابن جمري وهزمهم. وما إن بلغت مسامع عبد الله أنباء هذه الانتكاسة، حتى أمر بقتل ثلاثة من رهائن ابن حفصون المحتجزين لديه، أما الرابع فأعفي عنه بعد أن أقسم الولاء للسلطان.

«ثم جاء دور عبد الرحمن ابن إبراهيم بن حجاج»، الأمر الذي يفترض أن ابن حجاج كان مؤيداً لابن حفصون في ذلك الحين، إلا إذا افترضنا أن تحالف ابن حجاج مع ابن حفصون - الذي عقده تحدياً للسلطان - جعله جزءاً من الصلح الذي عقد قبل سنة من ذلك بين عبد الله وابن حفصون. سنرى فيما بعد أنه يصعب أحياناً التوفيق بين روايات دوزي نفسها.

كان عبد الله قد أمر بإخراج عبد الرحمن وقتله عندما تدخل وصيفه بدر الذي كان على علاقة ودّية مع ابن حجاج، وقال للملك الغاضب كلاماً منطقياً هذا من ثورته.

ذكر بدر الملك بأن ابن حجاج تعهد بالإذعان له ما إن يعود إليه ابنه. فإن قُتل الصبي، سيتعين عليه ليس فقط مواجهة ابن حفصون الذي لن يغفر أبداً، لكونه إسبانياً، قتل رهائنه، وإنما عداوة حاكم إشبيلية إلى الأبد. لقد كان عربياً ولم تكن قد ضاعت تماماً فرصة استمالة إلى جانب الأمير إن بقي الوضع على ما هو عليه الآن، أما في حال قُتل الفتى عبد الرحمن، فسيُعقد بين ابن حفصون وابن حجاج حلف دائم على العدا المديد للسلطان.

تردّد عبد الله عندما عرض عليه وصيفه المسألة من هذا الجانب. فتابع بدر مؤكداً له أنه قادر على ضمان طاعة أشراف إشبيلية ما إن يطلق سراح ابن إبراهيم بن حجاج، وهكذا أعيد عبد الرحمن إلى والده بعد أن أمضى ست سنوات بعيداً عن إشبيلية⁽¹⁾.

لو أنّ هذه الأحداث وقعت فعلاً، كما يقول دوزي، في سنة 902، فهذا يعني أنّ الفتى وقع في يد عبد الله في حوالي سنة 895، وهي السنة التي هُزم فيها ابنه الأمير محمّد وتوفي.

(1) Dozy, G. *der. M.*, i. 438 - 44.

بعدها، يقول دوزي، إنه وخلال السنوات التسع الأخيرة من حكم عبد الله، هدأت أحوال إشبيلية وواظب ابن حجاج على توريد الجباية بانتظام دونما حاجة إلى إرسال الجند في طلبها. ولأن اصطلاح الحال بين إشبيلية وقرطبة كان نتيجة لحسن نصيحة بدر الصقلي، رفاه عبد الله إلى مرتبة الوزارة والشورى ووضع ثقته فيه حتى أصبح رئيساً للوزراء بالفعل، وإن لم يحمل ذلك اللقب⁽¹⁾.

لم يأت ذكر عبد الرحمن هذا بعدها حتى عام 913. وكان إبراهيم قد توفي خلال تلك الفترة، وخلفه كما يقول دوزي، ابنه عبد الرحمن على ما هو عملياً عرش إشبيلية. وفي السنة التي تولى فيها عبد الرحمن الثالث حكم قرطبة خلفاً لجده عبد الله، أو حوالها، توفي عبد الرحمن الآخر (ابن حجاج) وتولى مكانه أخوه محمد الذي أعلن الولاء للسلطان الجديد⁽²⁾.

وبدلاً من التوفيق بين مختلف الصيغ التي قدمها دوزي لتلك الأحداث، سنقوم بسرد تلك التي استتجناها من كتابات دوزي عن الرهينة عبد الرحمن، ومن رواية كوندّه عن فترة شباب عبد الرحمن الثالث، على أساس أننا نفترض أن عبد الرحمن بن حجاج وعبد الرحمن الثالث، هما الشخص نفسه - وتحديدًا ابن الأمير محمد وزوجته ماريّا، وأن الخلط الشديد التعقيد بين مختلف الروايات المتعلقة بالرهائن وبالإعدامات التي ذهب ضحيتها عدد من أفراد بني حجاج ناجم عن تكتم المؤرخين السنة عن الحقيقة، وهم الذين كانوا يعتبرون أن من واجبه السياسي إن لم يكن الدّيني، التّعقيم على تلك الفترة الطويلة بما شهدته من الهزائم والخزي والعار. نحن لا ندّعي بأن قصتنا هي الحقيقة، لكننا نعتقد أن بإمكاننا القول إنها أكثر قابلية للتصديق من أية رواية أخرى للأحداث نفسها.

عندما توفي الأمير محمد في عام 895، كان طفله مع أمّه في إشبيلية. كان السلطان عبد الله، الذي أحب ابنه البكر حبّاً جعاً، على الرغم من كل ما جرى بينهما، راغباً في

(1) *Ibid.*, i. 447.

(2) *Ibid.*, i. 456.

أن يحتضن حفيده الصغير اليتيم تحت جناحه، لكن المُطَرِّف الذي لم يكن يرغب في رؤية الوريث الطَّيِّعِي للعرش يربّي في رعاية جدّه، ردعه عن ذلك. لقد كان بنو حجاج في ذلك الوقت مفجوعين لا يموت قائدهم الشَّاب فحسب، وإنما كذلك بمقتل أميرهم عبد الله بن حجاج الذي أُسر مع الأمير محمّد في قرمونة، وكذلك الأمير القاسم وخالد ابن خلدون وغيرهما من قادة اليمانية والمولدين. كان المُطَرِّف يحتجز عبد الله بن حجاج رهينة لكنه سرعان ما قتله خنقاً، لأسباب لم يذكرها ابن حيان الذي نقل الواقعة.

ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يتعافى أهل إشبيلية من هزيمتهم، ففي العام نفسه عقد إبراهيم بن حجاج، أخو عبد الله ووريثه، صلحاً مع السلطان عبد الله مقابل ولايته وحده على أراضيه وممتلكاته؛ والوسيلة التي استخدمها للضّغط على الأمير عبد الله لتعيينه والياً على إشبيلية⁽¹⁾، هي وصايته على طفل الأمير محمّد. أمّا الشُّروط التي وضعها الملك عبد الله للاستجابة لطلبات إبراهيم والتي فرضت في السر لتجنّب اعتراض المُطَرِّف، وبالتالي، لم يطلع عليها الكتاب الثُّلثة الذين اعتمد عليهم ابن حيان، وإن كانت معروفة في تلك الفترة بالنسبة لأشراف إشبيلية ومؤرّخيهم، فنوردها في الفقرة التالية.

لقد اشترط عبد الله إيلاء عناية فائقة لتنشئة الأمير الصّغير منذ فطامه، وذلك تقريباً في الفترة التي توفي فيها والده. طلب إحضار أشهر المدرسين لتدريسه ما يتناسب مع سنّه ومكانته، وأن يُقرأ له القرآن وأن يحفظ تعاليمه عن ظهر قلب. وما إن بلغ الثامنة، طلب أن يُدرّس الثُّلثة والحديث، والنحو والشعر والأمثال العربية وسير الأمراء وعلوم إدارة الحكم، وكل ما هو متصل بالحكمة البشرية. كما طلب تعليمه الفروسية على يد أمهر الفرسان لتدريبه على التّحكّم بفروسه في أصعب المواقف، وعلى استخدام القوس والسهام والرّمح وجعله خبيراً بكل أنواع الأسلحة واستراتيجيات الحرب.

(1) يحدّد ابن حيان تاريخ ذلك في سنة 889 (Makkari, ii. 451) في حين يقول دوزي إنه حصل في سنة 899 (9 - 438 G. der. M.).

كان ينبغي باختصار تعليمه وتدريبه وإعداده ليصبح ملكاً⁽¹⁾.

وافق إبراهيم على تعليم الطفل عبد الرحمن وإعداده بمثل ما أراده جدّه فعقد الصلح بينه وبين السلطان، وبات ابن حجاج مستقلاً في مقاطعته يحكمها وكأنه ملك عليها، كما كان أخوه من قبله. وقد جاء التاريخ بعدها ليثبت أنّ بني حجاج نفذوا تلك الشروط بجدارة نظراً للتجّاح منقطع النظر الذي حقّقه تلميذهم عندما أصبح رجل دولة، تأسيساً على ما تعلّمه من علوم وفنون على أيدي أساتذته في إشبيلية.

استتبّت الأمور بين إشبيلية وقرطبة حتى 901 أو 902، عندما عُقد حلف بين السلطان ألفونسو الثالث ملك ليون في مواجهة ابن حفصون صديق عائلات المولّدين وكبيرهم إبراهيم بن حجاج. أثار هذا الحلف شعوراً بالاستياء لدى حلفاء ابن حفصون إلى حدّ أن اسم عبد الله لم يعد يُذكر في الخطب والصلوات، كما هو العرف لكونه إمامهم ووليهم. وأثناء المعركة التي تلت ذلك بين ابن حفصون وأهل إشبيلية من جهة في مواجهة جند عبد الله، فاجأت فرقة من طليعة جيش المطرّف مجموعة من المولّدين من أمراء بلاط إشبيلية، وعندما هدّدهم بقتلهم، قاموا بتسليمه، ليس إبراهيم، وإنما الطفل عبد الرحمن الذي كان في الثامنة من عمره، ليكون رهينة لديه فداء لهم⁽²⁾.

في تلك السّنة نفسها، عزل المطرّف ابن جمري بصورة تعسّفية عن منصبه كحاكم لمدينة ماردة وقائداً للجيش في تلك المقاطعة، رغم أنّه كان مخلصاً له حتى ذلك الحين وإن كان لا يوافق في أساليبه الدّامية في قمع التّمرد. ولكن المطرّف كان مستاءً منه على الأرجح بسبب تعاطفه مع ابن أخيه المتوفى محمّد. عاد ابن جمري عندئذٍ إلى قرطبة حيث عيّنه عبد الله، الذي لم يكن متفقاً بالطّبع مع ابنه بهذا الشأن، رئيساً لحرسه الخاص وكان نطاق صلاحيته داخل القصر الملكي.

(1) Conde, i. 355 – 6.

(2) Condem i. 350.

كما سيرد لاحقاً، تقوم بسرّد الزوايات عن مختلف الكتاب بتصرّف لتقديم قصة متماسكة.

عندها قدّم ابن جمري نفسه بوصفه حامياً للأمير الصغير عبد الرحمن، واستفاد من مكانته في القصر لكي يكسب ثقة السلطان فيستمع إليه. لقد استفاد من الظروف المحيطة به ونجح في أن يكسب تعاطف لا الملك عبد الله فحسب، وإنما الوزراء وكل أشرف البلاط مع الأمير الذي في حمايته. وسرعان ما أصبحت دماء عبد الرحمن وخصاله وطباعه الودودة مصدر فرح وبهجة في بلاط قُرطبة. لكن عبد الله لم يكن يظهر حبه في العلن مخافة إثارة استياء المُطرّف وإن كان في مجلسه الخاص يُطربُ لسماع كلمات الثناء على حفيده⁽¹⁾.

ولكن إبراهيم بن حجاج الذي أسعده بلا شك الرضا الذي حاز عليه الأمير الشاب لدى جدّه الذي كان من الطيّعي أن يكون وريثه إن سارت الأمور على ما يرام، لم يكن يشق بنوايا المُطرّف ووعوده، فهو لطالما أبدى عدم اكتراثه بحقوق السكان من غير المقاتلين والزّهائن. لذلك بذل جهوداً كثيرة لاستعادة عبد الرحمن الذي يبدو أنّه كان يعرف عنه بوصفه ابنه خشية أن يذهب ضحية لغيرة المُطرّف في حال الكشف عن هويّته الحقيقية. لكن عبد الله كان يرفض التّجاوب مع طلب ابن حجاج. ويوضح ما يسره كونه عن زيادة تعلّقه بالفتى سبب عدم تخلّيه عنه.

عندما اقترب موعد عودة المُطرّف من حملته على ماردة، انتقل إبراهيم من الطلب والالتماس إلى التهديد، نظراً لتزايد قلقه على مصير الفتى. فهتّد بالتحالف مع ابن حفصون ضد جيش قُرطبة، وبالتوقف عن دفع الخراج وقيّمته سبعة آلاف دوقية سنوياً والتي كانت ثمناً للحفاظ على حياة نسيبه الصغير عندما ارتهن، إن لم يعد عبد الرحمن سليماً معافى إلى إشبيلية.

في هذا الوقت الحرج، عاد المُطرّف إلى قُرطبة ليطلع على الفور ليس فقط على المفاوضات الجارية مع إشبيلية، وإنما كذلك على هويّة الفتى الذي كان ابن جمري حريصاً على حمايته ورعاية مصالحه.

يمكننا أن نكمل القصة من هنا كما كتبها دوزي، لأننا عندما نقرأ «الأمير عبد

(1) Conde, i. 352.

الرحمن» بدلاً من «عبد الرحمن بن حجاج»، و«المُطَرِّف» بدلاً من «عبد الله»، تنجلي أمامنا الدوافع الكثيرة وراء محاولة قتل الفتى.

يبدو أن ابن حفصون انتهك عقد الصلح، ولو أن الأمور سارت على هذا النحو، فربما كان قتل رهائنه مبرراً. ولكن أخذ رهينة ابن حجاج بجزيرة المجموعة، في حين أنه لم يفعل سوى التهديد بالتمرد إن لم يُعَد الفتى إليه، يفترض أن المرتهن شخص يرغب في قتله من أصدر الأمر بقتل الرهائن. فالأمر صدر بأن يُقتل عبد الرحمن على الفور، رغم أن ابن حجاج عرض الإذعان لحاكم قُرطبة ما إن يعود الفتى إلى وصايته. عندما بدا أن الأمر قد قُضي وكان عبد الرحمن على وشك أن يُقتل، تدخل الوصيف الصقلي بدر وطلب مقابلة الملك عبد الله، وتوسل إليه لكي يأمر بمنع قتله، وحثه أنه لو قتل عبد الرحمن فإن العداوة مع أهل إشبيلية ستمتد إلى ما لا نهاية، في حين أنهم مستعدون لإعلان الطاعة إن عاد الفتى إليهم.

لقد كان عبد الله على الأرجح غير مطلع على نوايا المُطَرِّف - فما من شك أنه كان في ذلك الحين على علم بأصل الفتى - وعليه، لم يكتف بأن يأخذ بمشورة بدر، وإنما كافأه وقَّده فأصبح وزيراً، ثم تعززت ثقته به حتى بات في مرتبة الحاجب أو رئيس الوزراء وإن لم يسبق عليه ذاك اللقب.

أعلن بنو حجاج على الإثر الطاعة للسلطان وعقدوا معه الصلح حتى مماته، لا شك في ذلك لأن الفتى عبد الرحمن عاش في بلاط قُرطبة حيث شكل صلة الوصل بين أقربائه من الجانيين، الذين برغم خلافاتهم السياسية، قد اتفقوا على حبهم له.

من الواضح أن عبد الله واثته الجراءة ليعلمن حبه لحفيده بعد أن كاد يفترقه عنه الموت، حيث يسرد المؤرخون أنه عندما كان عبد الرحمن في الحادية عشرة من عمره كان يلعب بحرية في حدائق القصر مع باقي الأولاد في مثل عمره، في حين كان جده يراقبه منتشياً من الغبطة. وفي إحدى هذه المرات هبط الليل دون أن يلحظ عبد الله ذلك، وعندما تبَّه وزيره ابن جمري إلى تأخر الوقت، ارتجل ألياً يشرح فيها انشغاله بعبد الرحمن الذي أسره بسحره واستحوذ على حواسه.

في العام 911، توفيت والددة الأمير عبد الله التي أحبتها وأجلها طوال حياته، فاعتمت وأعلن الحداد على وفاتها. ثم أصابته حالة اكتئاب ويات على قناعة بدمو أجله، فأمر بتشييد ضريح ثانٍ له بالقرب من الضريح الجميل الذي بناه لها داخل القصر في حديقة تسمى الرُصافة.

وفي مطلع العام 913، ومع شعوره باقتراب أجله، استدعى عبد الله وزراءه والولاة ليعلن أمامهم تعيين حفيده عبد الرحمن خليفة له على العرش، وأوصى المُطَرِّف برعايته وحمايته كما لو كان من صُلبه.

كان إبراهيم بن حجاج قد توفي خلال سنوات الهدنة التسع وخلفه ابنه محمّد. وكان محمّد هذا، حاكم إشبيلية، من بين أول الزعماء والأشراف اليمانيين والمولدين الذين أعلنوا الطّاعة لحاكم قُرطبة المولّد، بعد أن تمردوا في السابق على حكم جدّه عبد الله. توفي محمّد حاكم إشبيلية في عام 915 ولم يعد بنو حجاج يضطلمون بدور قيادي في تاريخ الأندلس⁽¹⁾ رغم أننا نجد أنّ واحدة من بنات تلك العائلة (سواء بالولادة أو التبني) تقاسم عرش إشبيلية، بعد مئة وخمسين سنة من هذا التاريخ.

هنا نحن قد عرضنا هذه الرواية عن تاريخ هؤلاء الأمراء والمبينة على الحدس بغض النظر عن قيمتها، ونترك للقراء أن يستخلصوا استنتاجاتهم. أما بشأن نظريتنا التي تقول بأنّ المعارك المستمرة التي ألقت ظلالاً كثيفة على فترة استمرّت اثنتين وعشرين عاماً من حكم عبد الله كانت نتيجة لسياسة المُطَرِّف وليس الأمير عبد الله، فقد وجدنا من يؤيدها وهو كاتب غير معروف الاسم نقل عنه كونه. فقد كتب هذا المؤلف في وصف عبد الله: «كان ملكاً صالحاً، احتفظ برباطة جأشه رغم الاضطرابات والقلق التي عمّت كل ناحية من نواحي إسبانيا، وقائداً مقداماً على رأس جنوده في المعارك، وسياسياً موثقاً في صيانتهم لعهوده، ولهذه عاداه الشيوخ السلفيون باعتباره مسلماً غير ورع، لأنه لم يواصل الحرب على التّصاري»⁽²⁾.

(1) Dozy, *G. der. M.*, i. 456, 460.

(2) Conde, i. 358.

إنَّ التَّصَارِي الْمَشَار إِلَيْهِمْ هُنَا لَا بَدَّ أَنْ يَكُونُوا الْمَوْلَدِينَ، لِأَنَّ حُرُوبَ عَبْدِ اللَّهِ مَعَ مَسِيحِيِّ الشَّامَل كَانَتْ قَلِيلَةً. وَيَبْدُو أَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ الْإِشَارَةُ إِلَى الصَّلَاحِ الْمَعْقُودِ مَعَ بَنِي حَبَّاجٍ خِلَالِ الْعَقْدِ الْآخِرِ مِنْ حَكْمِهِ، وَأَنَّ ابْنَهُ الْمُطَرِّفَ كَانَ عَلَى الْأَرْجَحِ بَيْنَ «السَّلَفِيِّينَ» الْمَتَزَمِّتِينَ الَّذِينَ وَجَّهُوا إِلَيْهِ اللَّوْمَ، لَا مَسِيماً وَأَنَّ الْمُطَرِّفَ كَانَ يَسْمَى إِلَى إِبَادَةِ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَمَوْا عَبْدِ الرَّحْمَنِ الصَّغِيرَ، الْمَقْدَّرَ لَهُ أَنْ يَخْلَفَ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى الْعَرْشِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ جَهْدٍ عَمَّهُ لِلتَّخْلِصِ مِنْهُ.

نَجِدُ فِي كِتَابِ «أَخْبَارِ مَجْمُوعَةٍ» بَعْضَ الْمَلَاخِظَاتِ الَّتِي لَمْ يُشْرَ إِلَيْهَا فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى تَتَعَلَّقُ بِحَكْمِ عَبْدِ اللَّهِ الْمَضْطَرَبِ. فَعِنْدَمَا تَوَلَّى الْعَرْشَ، انْتَفَضَ الْعَسَاكِرُ الَّذِينَ كَانُوا تَحْتَ إِمْرَةِ أَخِيهِ الْمَنْذَرِ فِي يُبُشْتَرِ وَتَفَرَّقُوا، وَذَهَبَتْ كُلُّ فِرْقَةٍ إِلَى الْمَنْطِقَةِ أَوْ الْقَبِيلَةِ الَّتِي تَنْتَمِي إِلَيْهَا مُتَجَاهِلَةً أَوْ أَمِيرَ الْبَقَاءِ فِي مَرَابِضِهِمْ، فَاضْطُرَّ إِلَى الْفِرَارِ خَشْيَةً أَنْ يَهَاجِمَهُ عَدُوُّهُ عُثْمَرُ بْنُ حَفْصُونَ. وَانْقَسَمَتْ صُفُوفُ الضَّبَّاطِ فِي قُرُطْبَةٍ، وَنَفَذَ الْمَالُ بَعْدَ أَنْ قُلَّ الْخَرَاغُ وَالْجَبَايَاتُ مَعَ اسْتِدَادِ الثَّرَوَاتِ فِي كُلِّ نَوَاحِي الْأَنْدَلُسِ. عَمِلَ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى الْاِقْتِصَادِ وَتَوْفِيرِ الْمَالِ فِي كُلِّ الْمَجَالَاتِ، وَحَتَّى فِي مَرْتَبَاتِ جُنُودِهِ، وَخَدَمِهِ. وَالتَزَمَ التَّقْوَى وَإِظْهَارَ التَّسَكُّ. لَيْسَ مَفَاجِئاً وَالْحَالَةَ هَذِهِ أَنْ تَعَمَّ الْاضْطِرَابَاتُ الْبِلَادِ⁽¹⁾.



قُلْتُ: وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ الَّذِي نَشَرْنَاهُ مِنْ تَارِيخِ كُونِيْدِهِ الشَّامَلِ عَنِ الْأَنْدَلُسِ بِعَنْوَانِ:
J. A. Conde: *Historia de la dominación de los Árabes en España*.
كَيْفَ أَنَّهُ قَدْ نَقَلَ الْكَثِيرَ مِنْ مَوْلاَفَاتٍ لِمُؤَرِّخِيْنِ أَنْدَلُسِيِّينَ ضَاعَتْ آثَارُهُمْ، وَكَانَ مَا نَقَلَهُ مُحْفُوظاً فِي خِزَانَةِ دَيْرِ الْإِسْكُورِيَالِ، ثُمَّ فَقِدَ. وَالْأَنْكَى مِنْ ذَلِكَ أَنَّ كُونِيْدَهُ نَفْسَهُ لَمْ يَكُنْ يَكْتَرِثُ بِالْإِشَارَةِ إِلَى عُمَّنْ كَانَ يَنْفِلُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ. إِلَّا أَنَّ كِتَابَهُ يَبْقَى بِرَغْمِ ذَلِكَ عَلَى جَانِبِ عَظِيمٍ مِنَ الْأَهْمِيَّةِ، وَفِيمَا يَخْصُ سَفُوطَ غِرْنَاطَةِ مَثَلًا، يَظَلُّ بِمِثَابَةِ الْمَصْدَرِ الْأَوَّلِ دُونَ مَنَازَعٍ. (أَحْمَدُ)

(1) Akhbar Majmua, 131.

جَاءَ فِي كِتَابِ «أَخْبَارِ مَجْمُوعَةٍ فِي فَتْحِ الْأَنْدَلُسِ»: «ثُمَّ إِنْ الْأُمُورُ تَفَاقَمَتْ فِي وَلايَتِهِ وَتَفَاوَتَتْ بَعْدَ قَرَبِ تَدَارُكِهَا فَتَفَرَّقَتْ أَجْنَادُهُ وَعَجَزَ عَنْ نَصْرِهِ قَوَادِمُهُ، وَالتَزَمَ التَّقْوَى وَإِظْهَارَ التَّسَكُّ وَتَوْفِيرَ مَا فِي يَدِهِ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ، حَيَاةً عَلَيْهَا وَنَظَرًا لَهُمْ فِيهَا، وَهَلَكَ الْجَبَايَاتُ، بِاسْتِدَادِ شُرُوكَةِ الثَّرَوَاتِ عَلَيْهِ بِكُلِّ نَاحِيَةٍ، فَوَقَّرَ أَعْطِيَاتِ الْأَجْنَادِ وَضَيَّقَ عَلَى مَنْ بَقِيَ مَعَهُ مِنْهُمْ وَاسْتَوْلَى الْفَسَادُ فِي كُلِّ وَجْهِ». أَخْبَارِ مَجْمُوعَةٍ، تَحْقِيقُ إِبْرَاهِيمَ الْإِسْيَارِيِّ، ص 133.

الفصل السادس

عُمَرُ ملك طُليطلة

عدا عن الأخبار الواردة عما كان بين أرطباس وعبد الرحمن الأول، وهو ما أوردناه سابقاً، لا نجد أي ذكر مباشر لأي من فروع سلالة ملوك القوط، باستثناء سلالة الأميرة سارة، حتى تولّى المنذر الحكم (886 - 888). ولكن على الرغم من عدم العثور على أي ذكر لهم في الحوليات الباقية من تلك الحقبة، يبدو أنهم تكاثروا بمرور الوقت وازدادوا عدداً وثراءً، لأننا عندما نلتقي بهم مجدداً سنجد كبيرهم وقد قويت شوكرته ووقف في وجه أمير قُرطبة بكل قوته، في حين كان يحكم مثل ملك على شعبه، كما كانت الحال مع قريه البعيد إبراهيم بن حجاج في إشبيلية في الوقت نفسه.

هذا الرجل القوي لم يكن سوى عُمَرُ بن حفصون الشهير الذي وضع نصب عينيه وكاد ينجح في تحقيق ذلك، استعادة مجد القوط وإعلاء شأنهم وضمّان غلبتهم في الاندلس، في حين كان الملوك النصارى في جليقية وناقارو يكافحون من أجل التخلّص من نير المسلمين في شمال شبه الجزيرة.

شكّل عُمَرُ بن حفصون وسلالته مادة للتّقاش والبحث، ولم يكن مفاجئاً أن يعتمد ابن حيّان وغيره ممّن يتمون إلى المدرسة نفسها إلى تدوين كل الأفعال والسلوكيات التي من شأنها الاستخفاف والانتقاص من كرامة الرجل الذي كاد أن يقوّض الحكم الإسلامي في إسبانيا. لقد ذهب أحد الكتاب بالفعل إلى حدّ القول إنه كان من برايرة المغرب.

لكن ابن خلدون وابن عذاري وابن الخطيب، يعيدون كلّهم أصله إلى رجل يدعى

ألفونس الذي يطلق عليه ابن حيان لقب «الكونت» أو «التبيل»، في حين يقول ابن القوطية إنه كان من ذرية رُملة Romulus: «وصار لوقلة ألف ضيعة بشرق الأندلس وكان أثر سكنى طليطلة ومن نسله: حفص بن ألب، قاضي العجم»⁽¹⁾.

يسرد دوزي تفاصيل مختلفة عن أسلاف عُمَر المباشرين. ويتضح من ذلك أنّ أسماء ابن وحفيد وابن حفيد ألفونس كانت قوطية أو لاتينية رغم أن التأسخين شوّهوها إلى حد كبير. كان اسم والد عُمَر حفص (وهو ابن ألب القاضي كما ورد لدى ابن القوطية)، لكنه كان «محبوباً جداً ويحظى بتقدير كبير لدى جيرانه بحيث أنهم بدلاً من أن يدعوه حفص، كانوا يسمّونه حفصون، وهي إضافة نوازي لقب التبال». ويقول كوند⁽²⁾ إنّ سم جدّه كان جعفر Giafar واسم جدّ أبيه أريوس Arius. ويحدّد دوزي موقع ممتلكات العائلة «التي كانت بحوزتهم منذ مئة سنة»، بجوار مالقة، ولكنّ هناك أسباباً تدفعنا إلى التشكيك في مدى دقة روايته حول ذياغ صيت عُمَر وشهرته.

لا يذكر ابن حيان سوى القليل عن نسب عُمَر لكنه لا يذكر في أيّ موضع أنه لم يكن مسيحياً، ويقول إنه في عام 893، حاول «الكلب الكافر» منع المُطَرّف من هدم كنيسة بناها أبوه بالقرب من قلعته بشت⁽³⁾. ويمكننا الافتراض بأن الكنيسة كانت مبنية فوق أراضي العائلة وأنّ الحادثة وحدها تكفي للدلالة على أنهم كانوا قوماً يتمتعون

(1) Dozy, *G. der M.*, i. 366 note; Al – Kuttīyah in *J.A.*, 432 – 3.

النص العربي منقول عن ابن القوطية، ص 31. وابن القوطية أورد الاسم وقلة بدلا من رُملة Romulo, Romulus وكذلك فعل المقرئ (ج 1، ص 266) أورده وقلة باعتباراه تعريب أكيلاً Aquila. (م)

يشرح غايانغوس معنى «العجمي» بأنه «نصراني غير خاضع» لحكم المسلمين. ويبدو لنا أنه من المناسب الافتراض أن «حفص ابن ألب» Hafs Ibn Al – Borkadi كما ورد اسمه عند ابن القوطية، هو والد عُمَر. وإلا لن تتمكن من فهم لماذا اختار ابن القوطية أن يخصّه بالذكر. يطلق دوزي على عُمَر صفة «المرتد» ويقول إنّ كلمة «المرتد» والمولد كانتا تستخدمان للدلالة على المعنى نفسه. (Ib. i. 278.)

(2) Dozy, *G. der M.*, i. 295.

(3) Makkari, ii. 453.

بمكانة عالية وسمعة عريقة، لكن ذلك يتناقض مع كل ما قيل من أن عُمر لم يكن يقدر أباه أو الأعمال التي جعلت والده يكسب احترام جيرانه.

يسرد دوزي باختصار وقائع السنوات الأولى لعُمر فيقول إنه كان فتى مشاكساً. فقد قتل أحد جيرانه خلال عراك معه، ولكي ينجيه من حبل المشنقة، هرب به والده من أراضي العائلة إلى مرتفعات سيزانيا دي لاروندا (رُنْدَة). هناك تحول الشاب عُمر إلى قاطع طريق، حتى أحيل إلى القضاء وكان جزاؤه الجلد بالسوط، وطرده والده له من المنزل. ترك عُمر إسبانيا وتوجه إلى تهرت (تيارت)، في شمال أفريقيا، لكنه عاد بعض بضعة أسابيع بعد أن تعرّف عليه شيخ لم يسبق أن التقى به وتنبأ له بأنه سيملك «ملكاً عظيماً»⁽¹⁾. استقرّ عُمر في بيشتر أو بيشتر التي يقول دوزي إنها قرية من أنتقيرة (انظر ص 106 طبعة الأصل)، وتمكّن من جمع شباب في مثل عمره وانبرى إلى السرقة وقطع الطرق في حوالي العام 880 أو 881. كانت عملياته ناجحة جداً حتى أنه تمكن خلال فترة قصيرة جداً من إزاحة حاكم المنطقة الذي كان قد هاجمه. لكنه اضطرّ بعدها بوقت قصير إلى الإذعان والتوجه مع كامل عصابته إلى قُرْبَة، حيث ألحقه السلطان بالحشم في خدمته، «بعد أن اعترف به كفائد متميّز، وبرجاله كجنود أكفيا».

بعدها بقليل، في سنة 883، خرج عُمر مع جيش السلطان في حملة على ليون، ولكن لدى عودته تشاجر مع والي قُرْبَة وعاد مع رجاله إلى بيشتر «ليعود إلى حياة المغامرة والحرية في الأحرار». هاجم قلعة بيشتر التي عززت تحصيناتها وكان يحرسها جنود الأمير عبد الله وأرغم الحامية على الهرب بسرعة كبيرة حتى أنهم تركوا وراءهم خليفة قائدهم التي تزوج بها عُمر (884).

يقول دوزي إنه «منذ تلك اللحظة، لم يعد زعيم عصابة من اللصوص، وإنما زعيم كل الإسبان في الجنوب»، والذين جمعهم من حوله بعد أن وعدهم بتحريرهم من

(1) «وأحد الشيخ النظر إليه، وكان ابن حفصون أقضم الثنية، فقال له: يا منحوس، تُحارب الفقر بالإبرة، ارجع إلى بلدك فأنت صاحبُ بني أمية، وسيلقون منك غيتاً وستملكُ ملكاً عظيماً». ابن القوطية، ص 103.

نير المسلمين. خلال مستتين، لم يتخذ محمّد، سلطان قُرطبة، أي خطوة جدية في مواجهته، ولكنه مُني في العام 886 بهزيمة نكراء وأصيب خلال حملة قادها المنذر ولي عهد قُرطبة. ولكن في ساعة النصر اضطرّ المنذر للعودة إلى قُرطبة إثر وفاة أخيه. دعا عُمر قادة العديد من القلاع للانضمام إليه «منذ ذلك الحين، أصبح فعلياً ملك الجنوب».

يعتمد دوزي في روايته للوقائع على ما رواه المؤرخ المغربي ابن عِذارى الذي كتب في القرن التاسع. تبدو الرواية في الظاهر غير قابلة للتصديق. فهي لا تقدّم شرحاً مقبولاً حول كيفية نجاح شاب خارج على القانون مع مجموعة صغيرة من اللصوص، خلال أربع سنوات في أن يصبح سيّد الإسبان في الجنوب، وبعدها بستين ملكاً عليهم عملياً. لا يشير دوزي إلى انتساب عُمر إلى رُملة الذي كان سيكون كافياً لكي يقبل إسبانيو الجنوب به قائداً عليهم، ولا يتوقع أن يكون لدى ابن عِذارى الذي كتب عن الوقائع بعد أربعمئة سنة من حدوثها، معلومات كافية عن مدى القرابة التي تجمع عُمر بأهل تلك النواحي.

تختلف رواية كوندّه لأحداث الفترة الأولى فهو يقول إنّ استيلاء «اللصّ» على قلعة بُيُشتر أو بَشتر، «هي واحدة من الروايات التي راجت في إسبانيا حول بداية تمرّده». ثم يكمل بقوله إنه عندما اضطرّ للفرار من الأندلس «مع أفراد عصابته» إلى حدود أفرنكة (فرنسا)، نزل في قلعة روضة اليهود (التي باتت تعرف اليوم باسم الرّوضة، بالقرب من سَرَقُسطة)، حيث انضمّ إليه حاكم لاردة ومسيحيو جبال أفرنكة. بعد معركة ظافرة، سيطر محمّد على الرّوضة وأخرجه منها فُلجاً إلى «جبال أريّه» the mountains of Arbe (سلسلة جبال سِيرّادي سوبراربه Sobrarbe، شمالي وشقة Huesca). وفي العام 876 - 877، بعد أن كان ابن حفصون قد احتّمى لدى مسيحيي أفرنكة (يبدو أنه لم يُسمع شيء من أخباره بين 864 وهذا التاريخ) «عرض عليهم الولاء ودفع الجباية، ثم قادهم إلى القلاع الحدودية واحتلّ بمساعدتهم القلاع المنتشرة على نهر شقر Segre (أحد روافد نهر إيريه) وأعلنوه ملكاً عليهم، ودفع لهم الخراج وباع المدن إلى

أعداء الإسلام». ولكن المنذر⁽¹⁾ هزمه في عام 882. وفي عام 883 نزل من جبال جافة (بالقرب من لاردة وإفراغة (Idrisi, p. 11)⁽²⁾) وغزاناحية بُرجة القريبة من لاردة، «فسمّوه ملكاً على تلك النواحي» وهزم قوة أرسلها المنذر لإخضاعه⁽³⁾.

مع موت محمّد في عام 886، خرج ابن حفصون «مجدّداً من معاقله الجبلية» وسيطر على سَرَقُسطة ووشقة وتقدّم باتجاه طُليطلة وقام بتحصين القلاع على نهر تاجة، بالإضافة إلى أفليس وويذة والأركن وقوينكة⁽⁴⁾ وتمكن بفضل خطة حربية محكمة من دخول طُليطلة⁽⁵⁾.

لا يقدّم المقرّي ما يساعد على فهم الوقائع. فهو يشير إلى المعركة التي قادها المنذر وهُزم فيها ابن حفصون في عام 881. ويقول غايانغوس إنّ الهدف من هذه الحملة كان في الأساس السير إلى سَرَقُسطة. وعاث جنود المنذر خراباً في نواحي تلك المدينة واجتاحوا حصن الرّوضة. ومن هناك اتجه الجيش إلى برجة ومن ثم إلى لاردة وفي النهاية وصلوا إلى منطقة تدعى برطانية (في محافظة وشقة حالياً، والتي كانت بريشر أقوى قلاعها: Makkari, ii. 25) ومنها اقتحموا قشتالة وألبّة⁽⁶⁾.

(1) يقول كونيّه إنه مات متأثراً بجروحه وإن ابنه واصل الحرب بعده، ولكنه خطأ واضح.

(2) يقابله في النصّ العربي للإدريسي، ص 339.

(3) يقول الشنيور كوديرا عن رواية كونيّه عن غزوات ابن حفصون في الشمال إنها «لا تستحق مجزّد الذّكر». لكنه يقول إنّ الكتاب العرب يذكرون، مع الكثير من التفاصيل الغامضة، حملة المنذر في عام 882، مع الإشارة إلى العديد من أماكن المواقع التي أشار إليها كونيّه. (Eslu- dios, 231 - 2).

(4) تقع كل هذه البلدات إلى الشرق من طُليطلة فيما يشكل اليوم محافظة فونكة.

(5) Conde, i. 295 - 321.

(6) Makkari, ii. 436, quoting An - Nuwairi.

يذكر المقرّي وغايانغوس أنّ اجتياح الرّوضة تم في عام 881، في حين يقول كونيّه إنّ ذلك تم في عام 870، لكن تواريخه خاطئة في الإجمال. والكلمة التي ترجمها غايانغوس بوصفها Cas-tile أي قشتالة، يرجح أن تكون the Castles أي القلاع. (اقتحموا ألبّة والقلاع). هناك شكوك حول إذا كانت قشتالة الحالية معروفة حينها بذلك الاسم لدى الكتاب العرب حتى فترة لاحقة. وقد ذكر المقرّي «القلاع» مرتين بعد ذكر ألبّة عندما ذكر حملات الأمير محمّد (ii. 127).

عظم شأن عُمر بن حفصون في عام 886 مع تولي المنذر الحكم في قُرْبَة. ولم تدم ولاية المنذر طويلاً، وقد قضى معظمها في الحرب مع ابن حفصون، وهو «من أصل نصراني، ثار في حياة محمد أبي المنذر، وعُرف عنه مكره وغدره كما بينت وقائع ذاك الزمان... خاض المنذر عدة معارك ضارية مع هذا الرجل، وبعد أن هزمه في عدة معارك جانبية، ذهب المنذر ضحية استبساله وشجاعته، وقُتل في مناوشة بالقرب من بيشتر في عام 888، بعد أن حكم بالكاد مستين»⁽¹⁾.

علينا قبل أن نكمل أن نتحدث قليلاً عن الوضع في بيشتر أو بيشتر، حيث كانت تلك القلعة الحصينة دائماً تقريباً مركزاً لعمليات ابن حفصون.

[وقاسى مع المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروباً، ثم كانت الدائرة له. وقصد إلى بلاد الحرب غازياً، وقصد ألبه والقلاع، فلقى العدو وظفر بهم، وفتح الله عليه سنة خمس وسبعين. وبعث العساكر إلى جليقية مع يوسف بن بُخت فلقى ملكها برمند، وهزمه وأثنى في العدو. وفي سنة ست وسبعين بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزاة العدو، فبلغ ألبه والقلاع، فأثنى في نواحيها،...]. (المقري، ج 1، ص 337) (م)

هاجم السنيور كوديرا في كتابه «اضمحلال دولة المرابطين» - *Decadencia de los Almoravides* كوندِه بقسوة شديدة بسبب روايته لمغامرات ابن حفصون في الشمال. ويقول كوديرا إن كوندِه خلط ما بين بيشتر أو بيشتر Bobaster or Bishter، معقل عمليات ابن حفصون، مع بربشتر Barbastro في أراغون، وهكذا نقل كل الأحداث إلى بربشتر، وقام بتغيير أسماء الأماكن المحيطة بها لتلائم معها. ويقر السنيور كوديرا بأن هذا يشكل اتهاماً متعمداً بالتزوير، ولكنه يصّر عليه، رغم إقراره باحتمال اعتماد كوندِه على مخطوطات عربية تروي تلك الحروب كما نقلها. ولو أن السنيور كوديرا قرأ كوندِه قبل أن يسوق اتهاماته هذه، لأدرك أن المرة الوحيدة التي ذكرت فيها بيشتر Yabaster، كما أورد كوندِه نهجته معقل ابن حفصون، ذكر كذلك بوضوح أنها في الأندلس. «لقد تحمّض هو وأتباعه في أطرية Adherwera في القلعة التي تعرف هنا باسم قلعة بيشتر.. وفي سنة 250، وبعد إرغامه على مغادرة الأندلس، توجه مع لصوصه إلى حدود أفرنكة» (6 - 295 د). المرة الوحيدة التي ورد فيها ذكر بربشتر في أراغون لدى كوندِه هي في الصفحة 297، خلال سرده لأعمال ابن حفصون في هذه التواحي، حيث يقول إن ابن حفصون عرض على الأمير محمد أن يشهر سلاحه في وجه أهل أفرنكة، وطلب منه تعيينه حاكماً على وشقة أو بربشتر. ولا يوجد تفسير للهجوم القاسي والظالم على كوندِه الذي شنه عليه مواطناه السنيور كوديرا وغايانغوس.

(1) Makkari, ii. 130 - 1.

يذكر الحميدي قلعة في إقليم رية اسمها يُبشتر Yobashter، وحصناً منيعاً بالقرب من ملقة باسم يُبشتر Bobashter، هما على الأرجح القلعة نفسها⁽¹⁾. ويذكر كل من كوندِه وابن حبان موقعاً بالاسم نفسه في إقليم رية، لكن كوندِه يذكر كذلك موقعاً باسم يُبشتر Yebaster تابع لبني إدريس أصحاب مالقة، يبدو أنه المكان الوارد ذكره في المقتطفات المأخوذة من الحميدي والتي نقلها عنه المقرئ. وغايانغوس على قناعة بأن هذه القلعة في إقليم رية وعاصمتها مالقة، هي قلعة بَشتر التي تحصن فيها ابن حفصون. ولكن لا يمكننا اليوم العثور على بَشتر ولا يُبشتر على الخارطة؛ غير أن غايانغوس يذكر اسم قرية تدعى «أبشتر» Abistar، في الشَّرقية التابعة لمالقة، يعتقد أنها بَشتر التي ذكرها العرب⁽²⁾.

لقد بحث كوندِه هذه المسألة باستفاضة في كتابه *Recherches*⁽³⁾، وخلص إلى أن بَشتر كانت في موقع قلعة رومانية، على بعد ميل غرب أنتقيرة اسمها Municipium Singiliense Barbastrense. ويذكر الإدريسي (p. 10) مدينة باسم يُبشتر (في الترجمة الإسبانية Bobastero) في إقليم رية، وهي منطقة يُعتقد أنها تضم الموقع الذي حدَّه دوزي. ويتطابق هذا الموقع بشكل أو بآخر مع سرد ابن حبان المقتضب لبعض الغزوات التي استهدفت ابن حفصون. وعليه، في سنة 891، حارب الأمير عبد الله ابن حفصون في حصن بلاي بالقرب من قبرة، وهزمه وطارده حتى أرشذونة وبَشتر⁽⁴⁾.

ولكن يقول كوندِه في ملاحظاته على كتاب الجغرافيا للإدريسي، إن بَشتر هي ما يعرف اليوم ببلدة بيلتشيس Vilches، بين غوادالين Guadalén وغواريثاث Guarizaz رافدي نهر الوادي الأحمر في شمال مقاطعة جيان. لكن غايانغوس يقول إنَّ هذا خطأ لأنَّ إقليم رية لم يكن في أي وقت يمتدُّ إلى أبعد مما يشكل اليوم محافظة مالقة⁽⁵⁾. لكن الموقع ينطبق على ما نقل من وقائع عن معركة أخرى، يجعلها موقع أنتقيرة غير

(1) تتشابه كتابة بَشتر، ويُبشتر ويُبشتر بالعربية.

(2) Conde, i. 295, ii. 16; makkari, ii. 456, 438, App. B., p. xviii.

(3) i. 323 – 7.

(4) Makkari, ii. 451 – 2.

(5) حيث نُقل عن كوندِه، Makkari, ii. 438.

مفهومة. يقول ابن حيان إنه في عام 897، خرج الجيش من قُرطبة لاختصاص «الثائر» على الحكم. وبعد تحديد الطريق الخارجي الذي سلكه الجند مروراً عبر طريفة والجزيرة، بالإضافة إلى أماكن عدة لا يمكننا تتبع أثرها، يتابع ابن حيان بقوله: «عندئذ عاد الجيش إلى قصر بنيرة Pineira وقادتهم المسيرة التالية إلى وادي بني عبد الرحمن.. قبالة بشت. بعد محاصرة الثائر في حصنه، وإلحاق الإذی وتخريب النواحي التي أذعن له، عاد الجيش عبر البشرات Alpujarras وجيان إلى قُرطبة⁽¹⁾».

يتطلب الأمر للذهاب من أنتقيرة أو نواحيها إلى قُرطبة عبر جيان القيام بدورة كبيرة، وهو ليس ضرورياً عندما يكون الجيش عائداً إلى قواعده بعد أن أنجز مهماته. أما جيان فبالكاد تبعد عن الطريق المباشر المؤدي من بيلتشس إلى قُرطبة، وربما كان من الضروري أن يمرّ الجيش بتلك المدينة لغرض عسكري، كالتموّن.

أما البشرات التي يتكرّر ذكرها خلال هذه الحروب، فيفترض أنها سلسلة الجبال التي تحمل ذاك الاسم على الخط الساحلي بين مالقة والمرية، ولكن الإدريسي يحدّد بوضوح أن البشرات إقليم وعاصمته جيان. غير أنه لا يحدّد كما هي القاعدة موقعه الدقيق على الخارطة واتجاهه، مكتفياً بالقول إن إقليم فرميرة الذي توجد فيه بئاسة، محاذٍ للبشرات الكثير الحصون.

وتقع بيلتشس بالقرب من بقايا كاثولونا Cazlona الأثرية التي كانت في أيام عُمر بن حفصون قلعة منيعة يملكها ابن الشعلة، نسيب ابن حفصون بالمصاهرة. وعليه كان الممرّ عبر جبال سيرا مورينا إلى طليطلة تحت السيطرة التامة لزعيم التصاري أهل الذمة والمولدين خلال الاضطرابات، طالما كان هو وصحبه يسيطرون على القلعتين.

ولا تزال بالقرب من بيلتشس بلدة صغيرة تسمى وادي الرّمان قد يكون اسمها في الواقع مأخوذ من وادي بني عبد الرحمن الذي ذكره ابن حيان، إن وافقنا على ما يقوله كوندّه بأن بيلتشس هي بشت التي كانت يتحصّن فيها ابن حفصون⁽²⁾.

(1) Makkari, ii. 455.

(2) يقول دوزي إن هذا الثّهر هو نفسه نهر وادي المقص (وادي الخورس) دونما سبب ظاهر، عدا

في حياة أرختيا Argentia، ابنة ابن حفصون (انظر فيما بعد)، تقول الأخبار التي في حوزتنا إنها ولدت داخل «مدينة» بستر. لكن من الصعب إطلاق صفة مدينة على القلعة المعلقة على رأس أكثر الصخور التي يصعب تسلقها لو عورتها - كما يصف دوزي بستر. صحيح أن الإدريسي يتحدث عن بلدة يشتر في محافظة رية، ولكن لم يبق من هذه البلدة أي أثر، إلا إذا كانت «أبشتر في الشرقية التابعة لمالقة» كما يقول غايانغوس، والتي لا يتفق وصف موقعها مع قول دوزي إن بستر هي منجل الرومانية Roman Singilis. والبديل هو ما اقترحه كونده بأنها بيلتشيس Vilches.

من غير الممكن التوفيق بين كل ما ورد عن بستر في أي من المواقع التي حددها دوزي وغايانغوس أو كونده، والحل الوحيد المرضي في هذه الحال هو أن نفترض وجود مكانين يحملان الاسم نفسه أو اسمين متشابهين، واحد في الموقع الحالي لبيلتشيس والثاني، كما يقول دوزي، بالقرب من أنتقيرة. في هذه الحال يمكننا الافتراض أن بيلتشيس بستر كانت «المدينة» التي ولدت فيها أرختيا والتي كان أبوها «ملكاً» عليها وأنتقيرة بستر هي القلعة الصخرية التي كان يلجأ إليها ويحتمي فيها عندما تشتد عليه الصعاب. عدا عن أن هذا الافتراض يجعلنا غير قادرين على حل مشكلة تحديد مكان بستر نفسها.

وبشأن حياة أرختيا ابنة ابن حفصون، تقول الروايات إنها ولدت من أصل نبيل في مدينة بيشتر. فقد كان أبوها صموئيل ملكاً وكانت أمها تدعى كولومبا Colomba. اختارت أرختيا أن تصبح راهبة وطلبت من أبيها أن يحول القلعة إلى دير لها⁽¹⁾. يقول

عن أنه يوجد نهر بهذا الاسم بالقرب من الموقع الذي يقول إن بستر قائمة فيه. (*Recherches*, loc. cit.)

وفيما يتعلق بتسمية Guarraman الواردة في هذا المقطع؛ لم يرد اسم نهر أو مكان باسم «وادي بني عبد الرحمن» لا عند الإدريسي ولا المقرئ ولكن الإدريسي أورد وادي الزمان بعد حصن المدور على الطريق إلى قرطبة (ص 266). (م)

(1) Vita b. Virginis Argenteae in *España sagrada*, x. 564 ff.

كاتب هذا الجزء عن حياة أرختيا غير معروف لكن المحرر يقول إن مختلف الأدلة تشير إلى أن التصوُّص كتبت في قرطبة في منتصف أو أواخر القرن العاشر.

دوزي وهو يسرد القصة إن ابن حفصون عُمد بعد تقدمه في السن باسم صموئيل وإن بشتربات مركزاً للترمت المتشدد كالذي استحوذ على رهبان قُرطبة قبل ذلك بستين عاماً⁽¹⁾. وتجدر الإشارة إلى أنه في فترة متأخرة مثل منتصف القرن العاشر كان المؤرخون المسيحيون وكذلك الكتاب المسلمون يستخدمون صفة الملك عندما يكتبون عن حاكم بشترب. ولكن كل الأخبار المنقولة عن ابن حفصون تؤكد أنه لم يكن مسلماً في أي وقت من الأوقات، سواء من خلال الاهتمام الذي أولاه للكنيسة التي بناها أبوه أو تقديمه لدى وفاته كزعيم للتصاري في الأندلس، في حين كانت قلعته ملجأ للمسيحيين طوال فترة الحرب الأهلية. ويمكننا أن نسوق مثلاً على ذلك القومس سرفاندوس أو شربيل ابن القومس حجاج، الذي ورد ذكره (في ص 24 من طبة الأصل). خشية على حياته في قُرطبة، هرب سرفاندوس في عام 889 والتجأ إلى عُمر الذي عيّنه قائداً على فرقة من جنده. ويورد دوزي مقاطع طويلة عن سرفاندوس هذا استقفاها بصورة أساسية من كتابات الأب الإسباني سامسون رئيس الرهبان، الذي لم يدخر أيّاً من المفردات التي يمكن أن تصف ألوان العذاب وسوء المعاملة التي عاناها مسيحيو قُرطبة على أيدي سرفاندوس في فترة نفسي الإقدام على الشهادة بين التصاري نُصرة للدين، والتي كان خلالها يتبوأ منصباً رسمياً عالياً بوصفه قومس المسيحيين. ولكن قد يكون من المشكوك فيه أن يكون سرفاندوس قومس المسيحيين، كما يقول لنا دوزي، الرجل الذي سيهرب بعد قرابة أربعين عاماً من ذلك التاريخ من قُرطبة ليحتمي بابن حفصون. فلو كان هو عينه، لا بد أنه كان شيخاً مستأً، وأن أباه، القومس حجاج الذي قيل إن الأمير عبد الله أعدمه معه، كان قد تجاوز مئة عام. وأياً كانت حقيقة الأمر، يبدو واضحاً أن هناك رجلاً مسيحياً يدعى سرفاندوس أو شربيل التجأ إلى ابن حفصون عندما هدده مسلمو قُرطبة بالقتل. وفي مقطع آخر، يقول ابن حيان إن الذخيل كان ابن القومس سرفاندوس، وهو أمر يبدو أكثر ترجيحاً⁽²⁾.

تلقي كتابات دوزي عن تلك الفترة ضوءاً جانبياً مهماً نقلاً عن ابن حيان بشأن ما

(1) G. der M., i. 452 - 3.

(2) Dozy, G. der M., i. 414 - 6. Makkari, ii, 451 - 2.

كان عليه الوضع في الأندلس عندما انضم سرفاندوس إلى عُمر بن حفصون. فهو يذكر بصورة عرضية أنَّ السلطان لم يكن يتمتع بأيَّة سلطة خارج قُرطبة وأنَّ ابن حفصون كان قد سيطر على كل القلاع المنيعة الواقعة إلى الجنوب من نهر الوادي الكبير⁽¹⁾، وأنَّ عبد الله لم يعد يعرض على أحد منصب حاكم للبيرة أو جيان الخاليين من أيَّة قيمة، وأنَّ كل الأندلس كان تخضع عملياً لنفوذ عُمر بن حفصون.

لم تهدأ الاضطرابات طوال السنوات الأربع والعشرين لحكم عبد الله، ولطالما وصف الكتاب الأندلس بأنها كانت حينها ممزقة تتنازعها مختلف الأطراف المتحاربة، بين عرب إسبانيا والشوام، واليமானين والمُضريين، والبربر والإسبان، وكل يقاتل لحسابه. ولكن على الرّغم من أنه ما من شك في أنَّ أحد الزّعماء الأقل أهمية قتل بأيدي أولئك الذين كانوا، أو كان يفترض أن يكونوا أصدقاءه، فذلك يثبت عموماً - عندما يكون ممكناً التّوصل إلى نتيجة واضحة حول سبب القتل من خلال مقارنة الاسماء والتواريخ - أنَّ الدّافع كان الغدر أو وجود شكوك بتدبير مكيدة مع العدو المشترك، وليس شجاراً سببه طموح شخصي أو تهجم شخصي. وفي الواقع فإنَّ مسار الأحداث يثبت أن المسيحيين والمولّدين واليமானين أدركوا أنَّ أبرز نقاط القوة تكمن في توحيد صفوفهم. حيث كان من الصّعب أن يصمد عدد من الأشراف التّبلاء الصّغار الذين يحارب كل منهم لحسابه في وجه حاكم قُرطبة القوي كل هذه السنوات.

ويلخص غايانغوس في ترجمته لتاريخ ابن حبان حول الحرب الأهلية، التصنيفات المختلفة للشخصيات التي ذكرها ذلك المؤرّخ والذين كانوا ينضوون تحت راية المولّدين.

هناك في البدء «أهل الذّمة»، ممّن يدفعون الجزية، وهناك «العجم»، وهم «المسيحيون الذين لم يعلنوا الطّاعة بتاتاً» للولاة المسلمين. لم يتم تسجيل أيّة حركة

(1) تؤكد هذه الرواية فرضيتنا القائلة بأنَّ ابن حفصون كان يسيطر على وسط الأندلس. فمحافظة رية يصعب وصفها باعتبارها تقع «إلى الجنوب من الوادي الكبير». ويذكر التّويري «جبل ابن حفصون» في نواحي قرطبة، في إقليم غني بالماء والبساتين (Makkari, ii, 494).

تدقّق للمسيحيين من الشمال إلى الأندلس بين عامي 711 و888، عندما تولى عبد الله الحكم. وعليه فإنّ هؤلاء هم أحفاد المسيحيين القوط الذين بقوا على ديانتهم لقراءة ميثي عام فيما تعودنا على اعتباره قلب البلاد المسلمة.

ثم هناك «المرتّدون»، وهم المسلمون الذين ارتدّوا عن دينهم، وهم فئة يثير وجودها الاستغراب، باعتبار أن الإسلام كان دين الفاتحين. وهناك أخيراً «المسالمة» وهم المسيحيون الذين اعتنقوا الإسلام والذين، إن صدق غايانغوس، ربما كان إخلاصهم لبني جلدتهم أقوى من تمسكهم بديانتهم⁽¹⁾. «كانت كل هذه الفرق المختلفة ترفع راية المولّدين»، بالرغم من أنّ المولّدين، طبقاً للدوزي وغايانغوس، كانوا مردولين ومحتقرين ويعاملون بوصفهم منبوذين من العرب المعترّين بأصلهم، لاختلاط نسبهم. يبدو الوضع غير قابل للتصور كما يصفه ابن حبان وغايانغوس. لا يحدّد الكاتبان عدد أو حجم مختلف المجموعات التي جاء ذكرها، ولكن يمكن أن نفترض بثقة أن المرتّدين عن الإسلام ما كان يمكن في أي وقت أن يكونوا كثيري العدد، إلا إذا كان المولّدون يتمتعون بقوة كبيرة بحيث يدفعون الناس العاديين إلى الانضواء في حماهم من خلال اعتناق المسيحية. أمّا المُسالمة، وإن كانوا بالفعل من المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام، فيبدو من المستحيل علينا أن نفهم لماذا التحقوا بفريق حيث ينظر قاداتهم إليهم بعين الشك بسبب تغيير ديانته في حين أنهم كانوا سيلقون كل ترحيب لدى قوات قُرطبة المترنّحة.

الأرجح أنّ القسم الأكبر من القوات المنضوية تحت راية المولّدين (وعليّنا ألا ننسى أن عبد الرحمن الثالث نفسه، وأباه محمّد في الظاهر كذلك، كانا من ضمن هذه الفئة) كان ينتمي إلى فتى أهل الدّمة والعجم. وأهل الدّمة هم المسيحيون الذين كانوا يدفعون الجزية منذ 711 بهدف الاحتفاظ بحقوقهم وامتيازاتهم، وبيديهم وأملاكهم، وفقاً للمعهد الذي عقده مع الخليفة الوليد؛ والعجم هم «المسيحيون غير المذعنين»⁽²⁾. كما لا يتوقّع

(1) Makkari, ii. 458.

(2) يجب أن نتذكر لاحقاً أن أبا عُمر ابن حفصون كان من العجم، كما ورد في كتاب ابن القوطيّة (p. 101).

أن يكون عدد المرتدين والمسالمة ذا أهمية، بما أنهم كانوا منبوزين، كل من أبناء دينه.

أما «المارقون» من المسلمين والذين ذكرهم مختلف الكتاب الشئنة، ولم يتم تصنيفهم ضمن أي من الفئات السابق ذكرها، فهم على الأرجح الشيعة أو اليمانيون المرتبطون عن طريق المصاهرة بالمولدين، إنما المخلصون لدينهم، والذين قاتل عدد كبير منهم تحت راية ابن حفصون وكذلك مع الأمير محمّد. وكما سنرى هنا، فإن هؤلاء «العرب الأشراف» كما يسميهم الكتاب غير الشئنة، كانوا يتميزون بتسامحهم وسعة أفقهم في تعاملهم مع المسيحيين. لقد عامل الأمويون مسيحيي قرطبة معاملته حسنة، مع بعض الاستثناءات، حتى أنهم كانوا يسادرون إلى الدفاع عنهم في وجه المتزمتين من بينهم كما حصل في فترة نفّسي حركة طالبي الشهادة كما أوردنا سابقاً. ولكن في حالة الأمويين، يبدو من المرجح أن الظروف غالباً، والضرورة أحياناً، كانت تفرض عليهم معاملة المسيحيين معاملة كريمة، في حين أنّ اليمانيين ملوك إشبيلية في القرن الحادي عشر كانوا أسبداً على مقاطعاتهم الواسعة وما كانوا بحاجة إلى مثل ذلك الدافع لإرغامهم على التعامل بكمياسة ولطف مع المسيحيين في بلاطهم. وكما سنرى، فإنّ سلوك المتمدّد، ملك إشبيلية اليماني في القرن الحادي عشر، والعلاقات بين فرناندو الثالث فاتح إشبيلية والملوك اليمانيين في غرناطة ولبلّة وبيّاسة في القرن الثالث عشر، تظهر أنّ اليمانيين كفئة كانوا رجالاً سمّت مقاصدهم ووسعت بصيرتهم فيما تعلق بمسؤولياتهم وواجباتهم إزاء رعاياهم ورعايا حلفائهم.

يبدو لنا أنه يستحيل بأيّ حال أن تكون صفة «المولدين» أطلقت في القرن التاسع على أحفاد الأميرة سارة وحدهم، والذين كانوا قد توالدوا وكثر عددهم في ذلك الوقت. ولم تتم الإشارة ولا لمرة على سبيل المثال إلى عمّار بن حفصون بوصفه من المولدين، تبعاً للوثائق التي عثرنا عليها، في حين كان يُطلق على مسيحيي طليطلة صفة «المستعربين»، وهي صفة يبدو أنها لم تستخدم بتاتاً للدلالة على سكان أراضي إشبيلية، سواء من القوط أو ممّن اختلط نسبهم. لقد وجدنا أنّ صفة «المولدين» استخدمت عدّة مرات للدلالة على أفراد عائلات تفرّعت من زواج سارة من عمير بن

سعيد، ليس فقط داخل وحول إشييلية ولكن أيضاً في لبله والغرب، والأسماء المشار إليها كان أصحابها دائماً من قادة الفريق المعارض لقرطبة، ومن أصحاب القلاع والحصون. فإن كانت هذه هي الحال، تكون الأميرة القوطية سارة مؤسسة لطبقة من الحكام، في حين أنّ أبناء النساء المسيحيات الأخريات اللواتي تزوجن من مسلمين سرعان ما يتم استيعابهم ضمن فريق أبيهم. يبدو لنا أنّ هذه المسألة تستحق عناية الباحثين العرب.

لا نعرف من كانت والدّة عُمر بن حفصون. ولكن يبدو مرجحاً أن آل حفص كانوا مرتبطين عن طريق المصاهرة ببعض العائلات اليمانية، وإلا كان سيكون من الصعب أن يبقى هؤلاء على ولائهم لعُمر بن حفصون بعد وفاة الأمير محمّد.

بين عام 886، عندما توفي السلطان محمّد و912 عندما تولى عبد الرحمن الثالث الحكم، كان ابن حفصون في قتال مستمرّ مع قرطبة، نتيجة لظروف وأسباب عديدة، مع انحيازه في الإجمال، طبقاً لما وصل من أخباره، إلى جانب المسيحيين. يقول ابن حيّان إنه في سنة 901، وُضعت أوزار الحرب لفترة قصيرة، عندما عرض ابن حفصون الصلح وأرسل رهائن إلى قرطبة. ويقول ابن حيّان إنه في السنة التي تلتها، نقض ابن حفصون الهدنة، وكانت النتيجة قتل ثلاثة من مرتهنيه⁽¹⁾. وفي سنة 905، سُجن شاعر يدعى سليمان لأنه كتب أبياتاً ساخرة من الأمير عبد الله. فلما عفا عنه السلطان وأمر بالإفراج عنه ارتدى على الأرض وأخبره ووجهه على قدمه أنّ ابن حفصون مختبئ في قرطبة. أُعيد الشاعر من فوره إلى السجن حتى لا يخبر أصحاب عُمر أنه أفشى سرّ وجوده، ولكن هؤلاء الذين خيروا الشاعر ومكائده، أخطروا عُمر ونصحوه بالاختفاء عن الأنظار. عاجل الوزراء بتوقيف العديد من المشكوك بإخلاصهم، ونعترض بعضهم للتعذيب. ولكن كل ما أمكن معرفته أن عُمر كان في قرطبة على وجه التأكيد، وأنه فرّ منها متنكراً في ثياب شحاذ، يتسوّل الصدقة من منزل لمتزل⁽²⁾.

(1) Makkari, ii. 456. See p. 91.

(2) Conde, i. 347.

لقد قويت شوكة ابن حفصون وامتد نفوذه لفترة طويلة حتى أنه تمكن من السيطرة على حصن بلاي (قلعة أغيلار Aguilar، جبل بولي Poley) رغم أنه على مسافة يوم واحد من قرطبة. كان خياله متشربين حول العاصمة وفي كل يوم، في الصباح والمساء، كانوا يتقدمون حتى بقايا شقنדה⁽¹⁾ وفجّ أو ممّر المائدة، دون أن يلقوا أية مقاومة. واستفحلت الأمور إلى درجة أن أحد خيالة ابن حفصون تقدّم حتى الفجّ المطل على قرطبة، وعبر الجسر «ودفع رمحه فأصاب الصورة [التمثال] التي على باب القنطرة ثم كرّ راجعاً إلى أصحابه»⁽²⁾. كان ينبغي الانتظار خمساً وعشرين سنة، وفق المصدر نفسه، لكي يتمكن قائد جيش قرطبة أبي عبدة (ابن جمري)⁽³⁾ من إخراج عمّار بن حفصون من حصن بلاي. وابن جمري هو الذي نصّب نفسه حامياً للأمير عبد الرحمن قبل أن تُعرف هويته في بلاط قرطبة⁽⁴⁾.

ويروي دوزي نهاية الفتن والثورات ونهاية ابن حفصون على الشكل التالي:

عقد عبد الرحمن الثالث فور تولّيه العرش العزم على مهاجمة الخارجين عليه في معاقلهم، في سيرانيا دي ريخيو أو رية، حيث حيث لم يعد للإسلام تقريباً وجود. وكان يتوقع أن يبدي كثير من التصاري ما يكفي من الثقة في عدالة حكمه فيختارون بمحض إرادتهم الدّخول في طاعته⁽⁵⁾. ولم تخب توقعاته، فقد تقدّم العديد من أمراء

(1) هي مدينة رومانية على ضفاف الوادي الكبير قبالة قرطبة كانت قد تحوّلت إلى قرية صغيرة إبان الفتح الإسلامي. يقال إن الأمراء القوط عسكروا في الموقع عندما استدعاهم رودريغو (لذريق) للانضمام إلى قواته ومحاربة طارق بن زياد، نظراً لأنهم ما كانوا يثقون به لكي يدخلوا إلى قرطبة. وفي عهد عبد الرحمن الثالث، استعادت أهميتها كإحدى ضواحي المدينة.

(2) أخبار مجموعة، ص 133. ذكر مؤلف أخبار مجموعة أن ابن حفصون كان يسيطر على حصن بلاي «وهو على مرحلة من قرطبة». (م)

(3) أبو العباس بن أحمد بن محمد بن أبي عبدة (ابن جمري). (م)

(4) Akhbar Majmua, 131 - 2.

وهناك سلسلة تلال تدعى سيرو دي أغيلار بالقرب من قرطبة.

(5) ينقل دوزي هذه القصة عن الخوشاني، وهو كاتب توفي في عام 971 في قرطبة، والتي تشكّل مثلاً على معاملة عبد الرحمن المنصف مع أحد المسيحيين، وهي جديرة بأن تروى، وإن لم تكن

القلاع في سيراتنيا بطلب العفو وحصلوا عليه، ما عدا من بينهم أمير طُلُش Tolox وكان في حماية ابن حفصون⁽¹⁾.

بعد ثلاثة أعوام من ذلك، في عام 917، توفي ابن حفصون دون أن يتمكن أحد من اقتحام حصنه، وخلف وراءه أربعة أبناء هم جعفر وسليمان وعبد الرحمن وحفص. ويبدو أنَّ أحدًا منهم لم يرث حنكة أبيهم أو شجاعته. دخل سليمان في طاعة الخليفة في السنة التي أعقبت وفاة والده، ولكن يبدو أنه ثار بعدها بوضع سنوات وقتل في عام 927. أمَّا عبد الرحمن الذي كان مولعاً بالأدب أكثر من ميله للحرب، فذهب إلى قرطبة ليعيش حياة طلبة العلم. ويقول دوزي إنَّ جعفر قُتل بأيدي جنده بعد أن أعلن رغبته في اعتناق الإسلام. وحوصر حفص في بُيُستر التي سقطت في عام 928، ثم دخل في خدمة عبد الرحمن.

وسرعان ما خمدت الثورات في البلاد. واستسلمت بعض المدن والقلاع النائرة على الفور، وغيرها بعد حصار قصير، ثم جعل سقوط طليطلة في عام 932 من عبد

لها أية علاقة بابن حفصون. يبدو أن شريفاً نصرانياً دخل في طاعة عبد الرحمن في السنة السابقة، كان يعيش مع خليفته المسلمة في قرطبة. اشكت المرأة إلى القاضي لكي يحجزها من هذا الوضع لكونها حرة النسب، وعلى اعتبار أنه من المخالف للشريعة أن تقيم مسلمة تلك العلاقة مع نصراني. عندما علم الحاجب بدر تلك الشكوى، أرسل إلى القاضي يذكره بأن المسيحي تنازل باستسلامه وأن كل حجة تساق ضده ينبغي أن تدرس بتمعن، وعليه فليس عليه أن يطلق المرأة حرة. ويتضح من خطاب القاضي أنه كان يعتزم أن يستجيب لطلب المرأة، فأجابه بدر بأنه لا يرغب في التدخل في عمل القضاء ولكن كل ما يطلبه أن تؤخذ في الاعتبار حقوق النصراني التي كفها له العهد المفقود له وأن يُحفظ حقه، لأنه، كما قال «أنت تعرف أنه لزام علينا أن نعامل النصراني بالإنصاف وبكثير من المراعاة». يضيف دوزي أنه في إحدى المرات رغب عبد الرحمن في تعيين «مرتد» من أب وأم مسيحين، في أعلى منصب قضائي، وهو منصب قاضي قرطبة، ولم يعدل عن ذلك إلا بصعوبة بعد تدخل الفقهاء. (G. der M., i. 458)

(1) يقتبس دوزي هنا عن عريب Arib (عريب بن سعيد القرطبي)، قوله إنَّ عبد الرحمن استولى في تلك الفترة على عدة سفن لابن حفصون كانت محملة بالموث من أفريقيا. وهذا يدعو للتساؤل أين كان ابن حفصون حتى يتمكن من بلوغ السفن، إلا إذا كان اسم طُلُش "Tolox" نهجته خاطئة لمدينة طُرُش "Торос" الساحلية إلى الشرق قليلا من مالقة. (Ib. P. 459.)

الرحمن حاكماً بلا منازع على عموم الأندلس⁽¹⁾.

يضيف كونه كعادته بعض التفاصيل. فلدى توليه العرش قرر عبد الرحمن الخروج بجنده إلى طليطلة. وخشية مواجهة الجيش الكثير العدد، انسحب ابن حفصون إلى شرق إسبانيا بغية جلب تعزيزات، تاركاً ابنه جعفر للدفاع عن طليطلة. لم يبق المُطَرِّف، الذي كان يقود الجيش، ليحاصر طليطلة وإنما سار للقاء ابن حفصون فهزم قواته في سهل واسع ليس بعيداً على ما يبدو من طليطلة. انسحب ابن حفصون إلى حصن قونكة (هل هي قونكة معقل اليمانيين؟)⁽²⁾ وحصون أخرى في المنطقة. صدم عبد الرحمن لمرأى ميدان المعركة، «فلما رأى حجم دماء المسلمين التي أريقَت، وكأنه لم يعد للإسلام أعداء في إسبانيا، وكأنه لم يعد على الحدود دماء تستدعي الثأر، أمر بإيلاء الجرحى من الجيشين العناية نفسها».

في العام 917، فتحت سَرَقُسطة، حيث كان لابن حفصون جمع من المؤيدين، أبوابها أمام عبد الرحمن، وأثناء وجوده فيها، خاطبه ابن حفصون طلباً للصّلاح. فأجابه الخليفة أنه لن يتعامل مع من يخرج عن طاعته، ومنح ابن حفصون مهلة شهر للخضوع بلا شروط، مضيفاً أنه لم يصلب الرّسل على الأعداء لأنهم رسل. وتبدو هذه الإجابة متناقضة إلى درجة كبيرة مع موقف عبد الرحمن المعهود من أعدائه الثّائبين، حتى أننا لا نتردّد إطلاقاً في أن ننسبها إلى عمه المُطَرِّف الذي رافقه في حملته وبقي في سَرَقُسطة ليواصل الحرب على الحدود.

في عام 918، استسلمت جيان وغيرها من المدن المنيعَة في البشّرات، ومات ابن حفصون، كما يقول كونه، في وشقة⁽³⁾.

(1) Dozy, G. *der M.*, i. 456, 460 – 3, 467, 469.

(2) ورد اسم الموقع في الإنكليزية "Hisn Conca" ويتساءل مؤلفا الكتاب إن كان المقصود مدينة قونكة "Cuenca" اليمنية. وهي مدينة قال الإدريسي إنها «مدينة صغيرة أزلية ولها سور» ص 258. (م)

(3) يقول دوزي نقلاً عن عريب، إن ابن حفصون توفي في عام 917، ولكنه لا يذكر مكان حدوث ذلك.

في عام 925 أو 926، صدر الأمر لبدء الهجوم على طليطلة، حيث كان جعفر بن عُمر بن حفصون متحصناً، وبعد ذلك بثلاث سنوات بدأ الحصار فعلياً. نصح جعفر الذي أدرك عقم المقاومة السّكان بالاستسلام، وتقرّر أن يحاول ما بين ثلاثة إلى أربعة آلاف من المدافعين عن المدينة كسر الحصار والخروج من المدينة، ثم تفتح الأبواب. تم ذلك، وهرب جعفر مع جنده، في حين استسلمت المدينة وعامل عبد الرحمن أهلها بالحسنى (927)⁽¹⁾.

استنجد جعفر بمسيحيي جليقية وامتدت رقعة المعارك حتى دار بعضها في جنوب طليطلة، حيث انتصرت جيوش عبد الرحمن في النهاية. لم يرد بعد ذلك ذكر لجعفر وعائلة بني حفصون⁽²⁾.

يجدر هنا أن نضيف تفصيلاً آخر حول حملة إخماد الثورات في الأندلس. فعلى إثر تولي عبد الرحمن الملك، أعلن عبيد الله بن الشّعلية الذي زوّج ابنته من جعفر بن حفصون وكان ملكاً على كاثلوننا، الطّاعة وعيّن والياً على جيان⁽³⁾.

كل ما نجده لدى المقرّي أنه في وقت ما بين سنة 924 و933، وفي مواجهة عبد الرحمن التّاصر لبعض الثّوار «استمدّ بالتّصاري»⁽⁴⁾. ويقول غايانغوس إنّ في ذلك على الأرجح إشارة إلى جعفر ابن حفصون الذي كان في تلك الفترة تقريباً متحصّناً في طليطلة⁽⁵⁾. ولكن المقرّي لا يذكر سوى القليل عموماً عن المقاومة العنيدة التي أبدّاها ابن حفصون والمولّدون في مواجهة حكم قرطبة.

مع سقوط طليطلة وإخماد الثورات في عموم البلاد، نفقد كل أثر لأبناء ابن حفصون، البطل الإسباني الذي هزّ عرش قرطبة وكان قاب قوسين من أن يزيع

(1) يحدّد دوزي سقوط طليطلة بعد ذلك التاريخ بخمس سنوات.

(2) Conde, i. 364 – 82.

(3) Conde, i. 364; cf. Ibn Hayyan in Makkari, ii. 439.

(4) المقرّي، ج 1، ص 363.

(5) Makkari, ii. 135m 462.

الفاحين ويعيد حكم السلالة القوطية إلى إسبانيا. لقد أعطى بنو سعيد وبنو مسلمة وبنو حجاج المتفرعون من المصاهرة ما بين القوط واليமானين، للعالم رجالاً محبين للآداب، كما أعطوا رجالاً أشداء في الحرب. اعتمد بنو حفصون في تفوقهم على كفاءتهم العسكرية وحدها، وعندما لم يعودوا قادرين على شنّ الحروب اختفى أثرهم من صفحات التاريخ. ولكن سيرتهم تظهر بوضوح، كما تظهر مسيرة أحفاد سارة، أنّ استسلام إسبانيا في عام 711 كان نتيجة أسباب أخرى غير اضمحلال الروح القتالية القديمة لدى القوط، فقد تبين لاحقاً أنّ أحفاد الرجال الذين استسلموا في بداية القرن الثامن دون مقاومة أمام الفاتحين، كانوا قادرين، رغم مضي عام أخرى من التأثيرات المفترضة لأجواء الأندلس والتي تضعف الروح القتالية، أن يبدوا مقاومة طويلة وعنيدة وكانوا على قاب قوسين من النصر في مواجهة حاكميهم.



الفصل السابع

تأثير الأقباط في إسبانيا

سبق أن ذكرنا أن الاندماج بين التقاليد الثقافية والحضارية الرومانية - القوطية واليمانية أسهمت في جعل إشبيلية في مكانة متقدمة على قرطبة قبل تولي عبد الرحمن الثالث الحكم. غير أن مصدراً ثالثاً لعب دوراً مؤثراً هنا، ولكن أغفله حتى الطلبة المدرسون تماماً لأهمية هذه الفئة في بلد آخر تحت الحكم الإسلامي. إنه التأثير المصري، وبمعنى آخر التأثير القبطي، الذي سيتبين أن انعكاسه على العلاقات بين الإسلام ومصر كان حتمياً في الأندلس في المناطق الخاضعة لحكم العرب اليمانية.

يقول غييون⁽¹⁾ إنه عندما فتح عمرو بن العاص، قائد الجيوش الإسلامية في عهد الخليفة عُمر بن الخطاب مصر، استقبل الأقباط المسلمين كمخلصين وليس كأعداء. لكن الدكتور (ألفرد) بتلر يقدم في «الفتح العربي لمصر» فكرة مخالفة حيث يظهر أن زعيم الأقباط المفترض، البطرك المقوقس كيرس، الحاكم البيزنطي لمصر إتان الفتح الإسلامي، خان الأقباط المسيحيين لمصلحة الفاتحين. ولكن بتلر، مثل غييون، يوضح أنه بعد استسلامهم لعمرو بن العاص، شُحح للأقباط بممارسة شعائرتهم الدينية بحرية وفق شروط حددها الفاتحون، ثم يقول لنا إنه «في ظل الأجواء الجديدة من الحرية الدينية، انتعشت الكنيسة القبطية وسرعان ما تمكنت من إثبات ادعائها بأنها كنيسة الأمة»⁽²⁾. وتصف الكتابات القبطية «زمناً من الأمان والطمأنينة بعد الاضطهادات

(1) المؤرخ الإنكليزي إدوارد غييون في كتاب تاريخ سقوط وأفول الدولة الرومانية. (م)
(2) Arab Conquest of Egypt, 439 - 40.

والمظالم التي قام بتمثيلها المارقون (اليونان)، ويقولون إنَّ الناس «كانوا فرحين مثل عجول حديثة الولادة حُلَّ وثاقها وأصبحت حرة لرضاعة حليب أمها»⁽¹⁾. وفي خطبته بمناسبة عيد الفصح في سنة 644 للميلاد، في المسجد الذي سيحمل اسمه، يقول عمرو بن العاص: «حدثني عُمَرُ أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم يقول: «إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقبطها خيراً فإنَّ لكم منهم صهراً وذمةً ورحماً، فكفوا أيديكم وعقوا فروجكم وغضوا أبصاركم»...»⁽²⁾.

وفي حديث آخر، أن الرسول (صَلَّى الله عليه وسلَّم) أوصى المسلمين عند وفاته بقوله ثلاث مرات: «انكم ستقدمون على قوم جُعدٌ رؤوسهم فاستوصوا بهم خيراً، فإنهم قوة لكم وإبلاغ إلى عدوكم، بإذن الله»، وشرح الرسول كلامه قائلاً: «الله الله، في قبط مصر إنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عذّة، وأعواناً في سبيل الله (...) لانهم في رباط إلى يوم القيامة»^{(3) (4)}.

لقد كان لدى الرسول نفسه جارية مصرية اشتهرت باسم مارية القبطية، تلقاها هدية من مصر مع أختها قبل الفتح⁽⁵⁾. ومعهما تم إرسال خادمتين وخصي وإناء من الألباستر وسييكة من الذهب الخالص، وزيت وعسل، وقماش من الكتان المصري الأبيض الناعم، بالإضافة إلى فرس وبغلة وحمار، وكلها من أجود الأصناف والأنواع. ويعلّق غييون بلهجة تنم عن التباس حول العلاقة بين الرسول ومارية القبطية التي كانت وراء نزول الملاك جبرائيل بالآية التي تحلّل دخوله بها⁽⁶⁾. وفي الرواية ملمس

(1) Arab Conquest of Egypt, 445.

(2) أخرجه ابن عساکر. (أحمد)

(3) Ib. 435 – 6 and note 2.

(4) تنقّه حديث رسول الله: «إذا فتح الله عليكم مصر، فاتخذوا منها جنداً كثيفاً، فذاك الجند خير أجناد أهل الارض»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: «ولم يارسول الله ؟» قال: «لانهم في رباط إلى يوم القيامة». (م)

(5) أرسلهما المقوقس إلى الرسول، وكانت مارية مع أختها سيرين. (م)

(6) «يا أيها النبي لِمَ تحرّم ما أحلّ الله لك تبغني مرضاة أزواجك» (الآية 1، سورة التحريم). انظر تفسير الواحدي وابن كثير والطبري والقرطبي وتفسير الجلالين. (م)

إنساني فقد باتت مارية محببة لدى الرسول لإنجابها ولذا ذكر أسماه إبراهيم والذي تركت وفاته مع إتمامه شهره الخامس عشر، الرسول دون وريث ذكر⁽¹⁾.

ما من شك في أن المسلمين عندما استقروا في مصر، سرعان ما اتبعوا خطى النبي فتزوجوا أو اتخذوا نساء قبطيات خليلات لهم. لقد فعل قادتهم ذلك بالتأكيد، حيث يذكر المقريزي أن أخا الخليفة هارون الرشيد عندما كان والياً على مصر في أواخر القرن الثامن، أعاد إلى الأقباط الامتيازات التي ضمنها لهم عمرو بن العاص، بفضل ما كان لخليته القبطية من تأثير على ذاك الأمير⁽²⁾.

أما فيما يتعلق بإراحتهم من مشاغل هذه الدنيا، وهو ما وعد به محمد أتباعه إن هم أحسنوا معاملة الأقباط، فيتضح معنى ذلك عندما نرى الدور الذي لعبه مسيحيو مصر في الاقتصاد الداخلي بالنسبة للدولة المسلمة ما إن استقرت الأمور بين الفريقين بعد الفتح. وتؤكد المعلومات المتعلقة بالنشاطات الصناعية والفنية التي ازدهرت في مصر في القرن السابع مدى أهمية المصريين للمقاتلين المسلمين، والذين - باستثناء العرب اليمانية - لم تكن لديهم خبرة بالفخامة والراحة المنزلية. لقد كشفت الأبحاث وأعمال التنقيب التي قام بها عالم الآثار الفرنسي ألبير غاييه A. Gayet وآخرون عن أدلة مادية تثبت أن المؤرخين لم يبالغوا في وصفهم لروعة حياكة الأقمشة والمشغولات اليدوية التي عُثر عليها في أضرحة الأقباط والمسلمين، والتي كانت جميعها تحمل ختم صانعيها المصريين رغم أن تصميمها قد يكون متأثراً بتصاميم فارس وبيزنطة.

ازدهرت صناعة النسيج على نطاق واسع مع تشكيلات واسعة من الأقمشة. صنع المصريون كتاناً أرق ربما من أي قماش حاكته أنوال مصر القديمة، وشاع استخدام الحرير، وغالباً ما زُينت الملابس الكتانية والحريرية بتطاريز جميلة. عثر ألبير غاييه في قبور العرب والمصريين، وفي دمياط في قبور للصليبيين تعود إلى القرن الثالث عشر، على مشغولات الدنتيل والتطريز بطريقة النسل والتشبيك والتخريم، وأغطية مخدات

(1) *Decline and Fall*, chapter i.

(2) *L'Art Arabe*, p. 47.

من الذنيتلا، وجوارب محاكة، وملابس صوفية ناعمة. لقد استرشد مصممو تلك الملابس بالأساليب الحرفية المميّزة للفنون القبطية بكل مؤثراتها. ويلاحظ الدكتور بتلر أنّ تطوّر صناعة الأقمشة المصرية ابتداءً من أواخر القرن الخامس وحتى بداية القرن العاشر، إنما «تعكس مثل مرآة التغيرات السياسية التي شهدتها البلاد». ويقيم أليير غاييه في كتابه «الملابس في مصر من القرن الثالث إلى الثالث عشر» *Costume en Égypte du 3me au 13me siècle* المقارنة نفسها امتداداً حتى فترة الحروب الصليبية. كانت منتجات الشاش والنسيج المقصب، والحرير المخطّط والمخمل والذمقس أو القماش الصّليل الدمشقي المطرز، والملابس المذهبة والقماش الموشى بخيوط الفضة، والبسط الجدارية المطرزة⁽¹⁾، والجلد المشغول والسجاد والبسط والتتائر كلها تحمل أسماء المناطق التي تصنع فيها في مصر، وإن لم تكن صناعة الأقمشة هي فقط ما تميّز به هذا البلد خلال القرون الوسطى. ففي مجال صياغة المجوهرات، وطلاء المينا، والخزف المطلي والمصقول، وصناعة الزجاج، والمعادن، والحفر في الخشب والعاج، والتطعيم بالخشب والعاج والصدف أو عرق اللؤلؤ والمعادن الثمينة، وفي التحت والرسم والعمارة - باختصار «في كل مجال من مجالات التصميم والبناء، كان الأقباط هم الذين حافظوا على التقاليد الفنية حيّة في البلاد»⁽²⁾.

كان العرب اليمانية معتادين على معظم، إن لم يكن جميع، مظاهر الراحة والفخامة هذه التي تشكّل جزءاً من تقاليدهم إن لم يكن من حياتهم؛ فلم يعرف اليمن في عهد مصر القديمة حضارة راقية فحسب، وإنما خلال الاحتلال الفارسي جلب ملوك كسرى

(1) كان أهل الأندلس يستعملون البسط الجدارية بالحُصر وعنها يقول المقرئ في حديثه عما اشتهرت به مُرسية من صناعات: «وهي للمرية ومالقة في صنعة الوشي ثالثة، وقد اختصت بالبسط التتلية التي تسفر لبلاد المشرق، وبالحُصر التي تغلف بها الحيطان المبهجة للبصر، إلى غير ذلك مما يطول ذكره»، (ج 3، ص 221). (م)

(2) Butler, *Arab Conquest*, chapter viii, passim; Gayet, *L'Art Arabe, L'Art Copte, and Costume en Égypte*, passim.

معهم أجود المنتجات الرّاقية والفاخرة وخصوصاً إلى العاصمة صنعاء، بحيث بلغت مستوى من الرّقي لم يصله أي مكان آخر في العالم في ذلك الوقت. كان اليمينيون الذين اعتنق عدد كبير منهم المسيحية قبل ظهور الإسلام، يؤمنون جميعهم تقريباً بالطبيعة الواحدة للمسيح (المونوفيزية) مثل الأقباط، ويوحى وصف الكاتدرائية التي بنيت من أجل إقامة الشعائر المسيحية في صنعاء بأنّ الكثير من معالمها توجد اليوم في الكنائس القبطية في مصر. بنيت الكنيسة في القرن السادس، ولكن مثل الكنائس المصرية اليوم، كان المذبح مفصلاً عن صحن الكنيسة بسائر خشبي، في حين بُنيت فوق الأبواب ألواح وصفائح من المعدن. كان السّائر واللوحات والصفائح في صنعاء من الأبنوس المطعم بالعاج والذهب والفضة والأحجار الكريمة، في حين حرم الفقر الكنائس القبطية من مثل هذا الثّرف. ولكن الخشب المطعم بالعاج، كما في كنيسة القديس سرجيوس وفي الكنيسة المعلقة⁽¹⁾، يظهر ما كان الحرفيون المصريون قادرين على فعله باستخدام مهاراتهم اليدوية فحسب، عندما كانوا عاجزين عن الحصول على الذهب أو الجواهر لتزيين أماكن عبادتهم.

في صنعاء، تم تثبيت صلبان بارزة من الذهب مزينة في الوسط بالياقوت الأحمر على ألواح الأبواب، وفي الكنيسة المعلقة تم تثبيت صلبان غائرة في الأعمدة التي حُفرت عليها صور بارزة للرّسل. وحلّ محل طبقات المينا الملونة في صنعاء، العاج المطعم داخل طبقات أخرى من العاج والملون بالأحمر أو الأسود لتشكيل رسوم رائعة متداخلة. وكانت كاتدرائية صنعاء بازيليكية الطراز، حيث تفصل أعمدة سامقة، صحن الكنيسة عن الأروقة. وبنيت الكنائس القبطية كذلك على الطراز البازيليكى، حيث تفصل أعمدة طويلة ليس من الرّخام وإنما من مواد البناء، صحن الكنيسة عن الجناحين الجانبيين. وفي الحقيقة فلإن الارتفاع الكبير هو أول ما يلاحظه المرء في الكنائس القبطية. كانت جدران كاتدرائية صنعاء مزينة بالرسوم ولوحات الفسيفساء الملونة بالذهب والألوان أخرى، وفي بعض الكنائس القبطية التي قام السيد غاييه بنبشها

(1) *L'Art Copte*, Plates I., III and IV.

في مصر، وجدت بقايا رسوم وغيرها من الزخارف التي تغطي الجدران من الأرض إلى السقف. باختصار، فإن كل ما يمكن أن نعرفه عن الكاتدرائية المسيحية للعرب اليمانية يبدو أنه وجد بشكل أو بآخر بدرجة أكثر تواضعاً نسبياً في الكنائس القبطية في مصر ابتداءً من القرن الرابع إلى القرن الحادي عشر، في حين يمكن مشاهدة بعض التشابه حتى في الكنائس القائمة اليوم.

بالإضافة إلى ذلك، حافظت المجتمعات العربية المسيحية على تماسكها بعد الفتح الإسلامي لفلسطين، وكان هناك مطران للعرب المسيحيين حتى القرن الثامن⁽¹⁾.

لقد كان الرسول يفكر على الأرجح في هذه الروابط الدينية عندما تحدث عن الأقباط بوصفهم «إخوة» للمسلمين. ومن غير المرجح أن يكون العرب اليمانية الذين كانوا حتى وقت قريب مسيحيين يؤمنون بالطبيعة الواحدة للمسيح مثل أقباط مصر، قد نسوا كل ما له علاقة بالأواصر الدينية خلال السنوات القليلة التي تبعت اعتناقهم للإسلام. وعليه، كان من الطبيعي جداً أن تتصادق هذه الفئة من الفاتحين المسلمين مع أمة كان يربطهم بها مثل هذا التعاطف القوي، وليس مفاجئاً أن نجد أن الأقباط سرعان ما شغلوا عدداً من المناصب الرسمية، وأنهم ظلوا لفترة طويلة يديرون كافة شؤون الدولة عملياً. لقد أخذ الرسول بلا شك كافة الظروف في الحسبان، وكان يرغب في استرضاء اليمانيين - الذين اعتنقوا الدين الجديد حديثاً وربما لم تكن قناعتهم راسخة بعد - عندما أوصى بمعاملة الأقباط بالحسنى، والذين كانت تربطهم بتلك القبائل العربية أواصر وثيقة من خلال التقاليد الدينية المشتركة.

(1) Butler, *Arab Conquest*, 147 - 8, 151, n. 3; Gayet, *L'Art Arabe, L'Art Copte, passim*.

لم تتلاش أمجاد صنعاء أبداً من تقاليد العرب اليمانية وكان شعراؤهم في الأندلس، كما في إشبيلية، يتحدثون عن عاصمتهم السابقة بوصفها تجسيدا للجمال والبهجة. ومن خلال لفته الانتباه إلى هذه الخاصية في كتابات ابن حمديس الصقلي على سبيل المثال، يتعامل شك Shack مع الحكايات التي تتحدث عن بذخ صنعاء بوصفها مبالغاً بها، لكن الدكتور بتلر وغيره كانوا واضحين في تأكيدهم أن هذه التقاليد كانت تستند إلى أساس واقعي متين. لقد تبع ابن حمديس الصقلي المعتمد بن عباد إلى مفاه في أغصان بعد أن نعم مثل ابن اللبانة بضيفته في إشبيلية.

لقد أعملنا التفكير قليلاً في العلاقات بين الأقباط والعرب اليمانية في مصر قبل الفتح الإسلامي لإسبانيا، لأننا نرى ضرورياً أن نشرح لماذا كان التأثير القبطي قوياً لهذه الدرجة في جنوب غرب الأندلس وغيرها من المناطق التي استقرّ فيها اليمانيون، منذ بداية القرن الثامن وامتداداً إلى نهاية القرن الحادي عشر، عندما خُلع آخر أمراء اليمانية في إشبيلية وتوفي في التجن في أفريقيا.

كان موسى بن نصير، الذي تتضارب روايات الكتاب المُضربين بشأن أصله، من قبيلة يمانية. حتى أعداؤه يعترفون بذلك وإن كانوا يعترفون عنه باعتباره كان عبداً أو رقيقاً كفله زعيم يمني. كان موسى بن نصير إبان الفتح الإسلامي لإسبانيا والياً على أفريقيا. وقد عيّنه في ذاك المنصب والي مصر عبد العزيز بن مروان، أخو الخليفة عبد الملك بن مروان. وكان موسى بن نصير قد لجأ إلى عبد العزيز بن مروان عندما نشأ خلاف بينه وبين الخليفة. كانت مهمة موسى بن نصير الأولى تتمثل في استكمال الحملة التي بدأها سلفه حسان (بن النعمان) لإخضاع أفريقيا. ويسدو أنّ القوات التي سارت إلى أفريقيا كانت تضمّ عدداً كبيراً من الجند المصريين. في سنة 702، عندما تم تكليف موسى بن نصير بمهمة إخضاع البربر، رافقه ابنه في «مقدمة الجيش المصري»، ورغم أنه لا حاجة بنا لأن نفترض أنّ الجيش المصري كان كله أو بمعظمه من الأقباط الذين لم يكونوا شعباً محارباً، فمن المؤكد عملياً أن يصطحب الجيش من مصر معه عدداً من الأقباط كخدم وأتباع للعسكر، وما إلى ذلك. هناك قصّة عن موسى في مخطوطة لم يُعرف كاتبها يعيدها غايانثوس إلى العقد الأول من القرن التاسع، و مترجمة في كتابه عن المقرّي. تقول القصّة إنه في سنة 703 أو حواليها، أبحرت «السفن المصرية» إلى سردينيا خلافاً لأوامر موسى، وفي حوالي سنة 708 وصل عبد الله بن مرّة Abdullah Ibn Marrah «مع مجموعة من الرجال من مصر» وعيّنه موسى بن نصير «قائداً للبحرية»⁽¹⁾.

لم تكن للمسلمين الأوئل خبرة بالبحر. وفي الحقيقة يقول ابن خلدون إن الخليفة

(1) Makkari, i. App. E. Ixvi. – Ixviii.

عُمرَ منهم من الخوض في البحر لأنه لم تكن لديهم خبرة به ولأنهم كانوا غير مؤهلين للبحار، وإن هذا المنع استمر إلى أن تولّى معاوية الخلافة (661 - 679) عندها بدأ المسلمون في استقطاب بخارة وقباطنة أجنبية حتى امتلكوا ما يكفي من الخبرة والمعرفة لبناء السفن والإبحار بها من تلقاء أنفسهم. بعد هذا حققوا تقدماً سريعاً، وخلال القرن الأول للهجرة لم يكونوا قد امتلكوا فحسب عدداً كبيراً من السفن في مرافئ الشام والإسكندرية، وإنما في تونس على الساحل الأفريقي الذي فتحوه للتو، وحيث قام موسى بإنشاء حوض للسفن وبنى أسطولاً كبيراً⁽¹⁾.

تبين الإشارات المتعددة إلى الأسطول المصري والبخارة المصريين أن موسى بن نصير اعتمد على مصر في تشكيل قوته البحرية. وبما أن عمرو بن العاص كان قد أباد فلول اليونان والرومان أو أرغمهم على الفرار، وبات الأقباط بأغليبتهم تحت حماية المسلمين، لا يسعنا سوى أن نستنتج أن الأقباط شكلوا بخارة هذا الأسطول المصري مع تنامي عدد العرب المؤهلين لقيادة سفنهم. عندما يتحدث الكتاب العرب عن المصريين، لا بد أنهم كانوا يشيرون إلى الأقباط الذين لم يكن يوجد حينها مصريون غيرهم: وعليه فإن تكرار ذكرهم مع ذكر موسى بن نصير يثبت على ما يبدو أن تلك الحملة ضمت عدداً كبيراً من أبناء تلك الملة، كان مفيداً، إن لم يكن ضرورياً، للمسلمين في شمال أفريقيا في ذلك الوقت، كما يمكن في الحقيقة أن نتوقع من خلال أعمال أسلاف موسى بن نصير.

يقول كوندّه إن الحامية التي وضعها موسى في طنجة تحت إمرة ابنه مروان بعد فتحه لتلك المدينة في عام 705، كانت تضم عشرة آلاف رجل، «جميعهم من العرب والمصريين»⁽²⁾. يتهم غايانغوس كوندّه بأنه كان يخلط ما بين «قبائل مصر» و«قبائل مُصَر»⁽³⁾، ولكن النص التالي المأخوذ من كتاب «أخبار مجموعة»، يشير بوضوح إلى

(1) Ibn Khaldun in Makkari, i. App. Xxxiv. Ff. And anon. In id. Ixvi.

(2) Conde, i. 23.

(3) Makkari, ii. 402.

مصر، رغم أن المحرّر الإسباني كتب في ملاحظته أنه يمكن قراءة الكلمة على أنها مُضَر.

من غير المرجح وفق النص الوارد أدناه أن يكون المُضَرّيون هم المقصودين؛ وعلى الرّغم من أنّ الفهرين قاتلوا عبد الرحمن الداخل بشراصة حتى النهاية، فقد أعلنت القبائل المُضَرّية عموماً الدّخول في طاعته⁽¹⁾. وعندما وصل لإقامة ملكه في إسبانيا، كان هناك، طبقاً لمؤلف «أخبار مجموعة»⁽²⁾ «جُند» من المصريين في باجة، ثاروا تحت قيادة أمير يمانى معارض لحكم الأمويين⁽³⁾. ولدى توزيع القبائل والأفواج والفرق في البلاد بعد اضطرابات 742، استقرّ الجند المصريون في أكشونة Ocsonoba وباجة وفي أراضي تدمير⁽⁴⁾.

لقد وجدنا تأثير المصريين في تصاميم النسيج وطريقة نسجه أقوى في الغرب وفي جوار باجة (حالياً في البرتغال) مقارنة مع معظم نواحي الأندلس الأخرى، ما عدا في إشبيلية. والتأثير كبير بالفعل إلى درجة أننا عرفنا مسافرين قادمين لتوهم من مصر قادرين على تمييز قطعة من الدّنتيلا القديمة من أكشونة بوصفها ذات تصميم «مصري خالص». كانت تدمير جزءاً مما أصبحت اليوم محافظة مرسية، وقد اشتهرت في ظلّ الحكم الإسلامي بصناعة الحرير الذي ذاع صيته في كل إسبانيا، وكانت المشغولات الحريرية من الجودة بحيث كانت تصدر بكميات كبيرة إلى مصر وبلاد الشرق.

وعليه نعتقد أنه ما من شك في أنّ الكتاب العرب الذين تحدّثوا عن أبناء «مصر» و«جند مصر» كانوا يعنون بذلك الأقباط الذين جاؤوا تحت راية موسى بن نصير وغيره

(1) كان الأمويون مُضَرّيين من قبيلة قريش، الفهريون مُضَرّيون ولكنهم حاربوا عبد الرحمن الداخل لأنه أزاح حاكم الأندلس يوسف الفهري.

(2) *Akhbar Majmua*, p 95.

(3) «فلما حال الحال ثار عليه العلاء بن مُغيث اليحصبي، ويقال: حضرمي، بباجة، وسوّد ودعا إلى طاعة [الخليفة العباسي] أبي جعفر، وكان قد بعث إليه بلواء أسود في سن قنّاء قد أدخله إهليلجة وطبع عليه، فأخرجه العلاء فجعله في رمح، وقام به في جند مصر» (أخبار مجموعة، ص 93).

(4) Dozy, G. *der M.*, i. 169; Conde, i. 112.

من القادة. ويتحدث كوند في مقاطع أخرى عن الخلافات بين القبائل والأحلاف من «اليمانية وأهل مصر والشّوام وبنو العبدري»⁽¹⁾، ونتيجة لذلك اختار «أشراف العرب القحطانيون وبعض المصريين» حاكماً بالاتفاق فيما بينهم. ويقول غايانغوس إنّ أشياخ العبدري⁽²⁾، كانوا قبيلة مُضَرّية، وهكذا يكون لدينا في هذه الفقرة يمانيون ومُضَرّيون وشوام إلى جانب المصريين⁽³⁾، ولا يوجد بديل غير القبول بأنّ المصريين كانوا جماعة مختلفة عن الثلاث الباقية.

بعد متي عام من الفتح الإسلامي، يذكر عبد الرحمن الثالث الأقباط بالاسم في خطاب كتبه لأحد أنسابه في إشييلية (انظر ص 148 طبعة الأصل). ولا يتضح من خلال الترجمة أنّ الخليفة أراد التلميح إلى أن عائلة قريبه تنتمي إلى الفئة المحترّقة، رغم أن ملاحظته بشأن والده أحمد بن إسحاق توحى بذلك. لكن الأبيات التي اقتبسها ما كان سيكون لها أي معنى لو لم يكن هناك أقباط يعيشون في البلاد في ذلك الوقت، في حين أنّ نعت والده أحمد بـ «حمدونة السّاحرة»⁽⁴⁾ ذو دلالة، نظراً لقوى السّحر التي زعم المصريون امتلاكها على مر التاريخ.

في رواية المقرئ لغزوة شانت ياقب⁽⁵⁾ (سانتياغو، Santiago) في سنة 997، في عهد المنصور، يقول نقلاً عن أبي حيّان، إن كنيسة كانت لدى النصارى «بمنزلة الكعبة عندنا، وللکعبة المثل الأعلى، فيها يحلفون وإليها يحجّون من أقصى بلاد رومة وما وراءها»، وفيها ضريح القديس يعقوب الذي «يقصد نسّاكهم له من أقاصي بلادهم

(1) i. 109, 121.

(2) In Makkari, ii. 402.

(3) الشّوام هنا هم الجند الشّوام الذين قدموا مع بلج بن بشر، وتفرّقوا في البلاد بعد ذلك بهدف إحلال السلام، حيث تم توزيع المجموعات المختلفة بحيث تفصل بينها مسافات واسعة نزولاً عند رأي أوطباس.

(4) انظر حول ذلك ما يلي أدناه في الفصل الثامن. ولتوضيح ما جاء في رسالة عبد الرحمن الثالث إلى أحمد بن إسحاق، انظر «أخبار مجموعة»، ص 138 - 139. (أحمد)

(5) وردت لدى المقرئ باسم شنت ياقب ولدى الإدريسي باسم كنيسة شنت ياقوب، ص 246.

(م)

ومن بلاد القبط والتوبة وغيرهما⁽¹⁾. ستذكر لاحقاً أنّ المسيحيين الأقباط سُمّوا باليعاقبة نسبة إلى يعقوب البرادعي، الذي قام بإنعاش أو إحياء الكنيسة بعد أن كادت تتلاشى بسبب الاضطهاد. ويقول غييون إنّ مسيرة هذا الرجل غامضة، وإنّ «اليعاقبة أنفسهم اشتقّوا بالأحرى اسمهم وأصلهم من القديس يعقوب الرّسول»⁽²⁾. وهكذا فإنّ الكنيسة المكرّسة للقديس يعقوب الرّسول لا بدّ أن تحلّ بمكانة مقدّسة لدى الأقباط. يبدو من الصّعب أن يحجّ أهل التوبة وأقباط مصر من بلادهم إلى شمال إسبانيا، ولكن ليس مستحيلاً أن يُسمح للأقباط المسيحيين المقيمين في الأندلس والعبيد المسيحيين أو المقاتلين الذين تم إحضارهم إلى إسبانيا من التوبة، بالحج إليها، حيث كان أبناء دينهم يحفظون في ذلك الوقت بتقدير عالٍ، وخصوصاً من قبل الحاجب المنصور، فاتح شنت ياقب (راجع ص 174 طبعة الأصل)⁽³⁾.

(1) Makkari, ii. 195.

المقري، ج 1، ص 413، 415.

(2) Chapter xlvii.

(3) قلّما يذكر أهل التوبة في إشبيلية بعد هذه الإشارة غير المباشرة إلى وجودهم في الأندلس حتى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، عندما يقال إنهم كانوا كثيري العدد. في عام 1475، كان لدى الملكين الكاثوليكين حاجب زنجي اسمه خوان دي فالادوليد، تم تعيينه عمدة Mayo-ral إشبيلية مع لقب الكونت الزنجي. ولا يزال يحمل شارع في المدينة اسم «إل كوندّه نغرو» El Conde Negro تخليداً له. ومن بين المؤسسات المختلفة التي دعمها الزّوج أخوة دينية تأسست في عام 1400 وكانت لا تزال موجودة سنة 1852، ولديها كنيسة الصغيرة داخل كنيسة الأبرشية في سان روك [قرطاجنة الجزيرة]. وفوق أحد مذابح الكنيسة كانت هناك لوحتان قديمتان، واحدة تمثل سان إلسبان San Elesban ملك الحبشة، والثانية القديسة إيفيغينيا Efi-genia. وتقول الأسطورة إن هذه القديسة تعمدت على يد القديس متى عندما كان يسرّ في الحبشة، وعندما أضرّم هيتاكو النار في الدّير الذي التجأت إليه مع متي بتول، ظهر القديس متى وأطفأ النيران. كانت لوحة القديسة إيفيغينيا تمثل هذا الحادث (*Glorias religiosas de Sevilla*, 381 - 99). ويوحى اختيار الشّخص في الصّورة وبقوّة بأنّ زّوج إشبيلية يعتبرون أنفسهم من أبناء التوبة، وإلا لكان من الصّعب أن يختاروا رسم ملك من الحبشة وقديسة شرقية تدعى إيفيغينيا. وهكذا فهم بذلك يشكّلون صلة الوصل مع أهل التوبة الذين كانوا يتعبدون في كنيسة سانتياغو في القرن العاشر. لا تزال هناك جالية من الزّوج في لبلّة في محافظة ولبة،

خلال عهد عبد الرحمن الثالث، أثرت الفتن في الشرق على التجارة في إسبانيا. وفي سنة 955 أو حواليها، أمر الخليفة ببناء سفينة كبيرة في إشبيلية لغرض التجارة مع مصر وصقلية. ولكن السفينة اشتبكت في أول رحلة لها مع سفينة أفريقية تنقل رسائل من معز الدولة والي بغداد إلى والي صقلية، بالقرب من الجزيرة. وخرج الأندلسيون منتصرين من المواجهة فاستولوا على سفينة معز الدولة بكل حمولتها، وواصلوا رحلتهم إلى الإسكندرية حيث باعوا بضائعهم، وحملوا سفيتهم بمنتجات مصرية، ثم استعدوا للبحار عائدين إلى إسبانيا. ولكن عندما بلغ معز الدولة ما حدث، أرسل سفناً حربية من مينائي مصر وصقلية استولت على سفينة إشبيلية في ميناء المرية وعلى حمولتها، وقامت بحرق بعض المراكب الصغيرة في الميناء، ثم فرت راضية بانتقامها وغنائمها. عرض الحاجب أحمد بن سعيد (ليس هناك ذكر لنسبه، لكن اسمه يوحي بأنه قوطي يمانى، راجع شجرة العائلة) على عبد الرحمن الانتقام وبدأ بشن حملة على التجار الذين يتاجرون في المغرب تحت حماية معز الدولة، فكانت النتيجة جمع ما يكفي من الغنائم لإرضاء الخليفة والجيش⁽¹⁾.

كان أحمد معز الدولة حديث نعمة استولى على حكم بغداد عن طريق المكائد، إن لم يكن بالقوة، وفرض نفسه والياً على العباسيين الذين وهنت خلافتهم وكانوا يحكمون العراق بالاسم ليس إلا، وحول سلطة أمير المؤمنين إلى مجرد طيف. حاول استبدال اسم الخليفة العباسي في خطبة الصلاة ليذكر بدلاً منه أبو تميم الفاطمي، ولم يمنعه سوى اعتراض أبناء فريقه أنفسهم. عيّن رجاله في مناصب الحكم في العراق،

يتميزون بشعرهم الجعد الأسود وعيونهم الواسعة الصافية والبراقة، وازرقاق الجلد تحت أظافرهم والذي تربطه بالعرق الزنجي، ولكن شفاههم ليست غليظة كشفاة الأفارقة السود. وليس لون جلد هؤلاء الزنوج داكناً أكثر من لون المصريين في المنطقة، لكنهم مميزون تماماً. يطلق عليهم جيرانهم اسم نغريتوس Negritos، وهو تصغير لكلمة «نغرو» التي تعني زنجي. خلال وجودنا في المدينة لبضع ساعات رأينا على الأقل عشرة من الأطفال الثريثو.

(1) Conde, i. 444 ff.

بحيث جعل الخلافة في الواقع، إن لم يكن بالاسم، مجردة من كل نقاط قوتها⁽¹⁾.

تكمُن أهمية الحادث بالنسبة لنا في أنه يكشف لنا أَنَّ عبد الرَّحمن كان يتاجر قبلها مع مصر بسلام، بما أَنَّ سفيفته تعرّضت لهجوم مباغت من قبل السفينة المرسلة من معز الدولة، والتي كانت تحمل رسائل إلى حكومة صقلية يعلن فيها تولّيه الحكم.

هناك في الإجمال كمّ كاف من الأدلة المباشرة وغير المباشرة بأنّ الأقباط أتوا إلى الأندلس بأعداد كافية لكي يضطلعوا وإلى حدّ كبير بالدور نفسه في الاقتصاد المحلي للدولة المسلمة كما فعلوا في مصر، في حين عُثر على أدلة لا تُدحض حول تأثير الأقباط في الفن والعمارة الأندلسية، حيثما ساد العرب اليمانية.

وتظهر أكثر الأدلة الملحوظة على هذا التأثير في الكنائس التي يقول كتاب القرنين السادس عشر والسابع عشر إنها كانت «في السابق مساجد». هناك عدد كبير من هذه الكنائس داخل إشبيلية وفي نواحيها، وفي محافظتي قادس وولبة وبعضها في مرسية وغيرها، والتي لم يُعد بناؤها بشكل كامل منذ تأسيسها في الظاهر. وليس هناك ما يفسّر كيف كانت هذه الكنائس مساجد في السابق، وهي بالطبع لم تُبنَ في الأصل من أجل تلك الغاية، حيث أنّ العديد منها يعود إلى ما قبل القرن الثامن. وفي هذه الكنائس - ومن بينها واحدة مكرّسة لقسيس قديم العهد لم يعد مدرجاً على التقويم الإسباني - يظهر أثر الفن والتقليد المصري جلياً أكثر من أيّ مكان آخر. فجميع هذه الكنائس بُنيت على الطراز البازيليكي، وبعضها ذات طراز قديم جداً، ولكن بالطريقة نفسها، تمّ إعلاء السقف في جميع تلك الكنائس تقريباً، وأحياناً إلى درجة كبيرة، من خلال إضافة عقود مدبّية إلى الأعمدة التي تفصل صحن الكنيسة عن الأجنحة. ويبدو حبّ الأقباط للمباني العالية جلياً في رسوم السيد غاييه في قسم «العمارة» في كتابه «الفن القبطي». وتُظهر الكنائس البازيكلية في إشبيلية أنّ من قاموا بإعادة بناء الكنائس القديمة اشتركوا في إيثارهم لهذا النمط المعماري. ويظهر تأثير العمارة العربية من جهة ثانية في الأسقف. فهي دائماً مغطاة بالبلاط القيشاني، على الطراز المستخدم

(1) Makrizi, *Hist. Egypt*, 80 - 1.

في هذا الجزء من إسبانيا منذ العصر الروماني إن لم يكن منذ ما قبل التاريخ. وهي ليست مسقوفة أو مقببة في الداخل، وإنما تُترك العوارض الخشبية ظاهرة. وهذه العوارض مزينة بزخارف وتشكيلات هندسية يتميز بها فن تبطين السقوف الخشبية العربي (أرتيسونادو) artesonado الذي يقوم على تقطيع الخشب وخرطه أو حفره وثقبه وتعشيقه وتطعيمه، فيعطي أشكالاً هندسية رائعة. ويمكن مشاهدة أمثلة رائعة على هذا الفن في بعض أقدم الكنائس في المناطق الريفية القريبة من إشبيلية.

وإلى النمط البازيليكي الأساسي، المتميز بال عقود أو الأقواس المستدقة الرؤوس التي تعلو الأعمدة القديمة المصنوعة من مواد البناء، والزخارف الخشبية العربية تحت الأسقف المغطاة بالبلاط القيشاني، تمت إضافة عنصر آخر في معظم الحالات. ويتمثل هذا العنصر بثلاثة أبواب في اتجاه الغرب والشمال والجنوب، مزخرفة بطريقة جميلة فيما يمكن أن يسمى في أماكن أخرى بالتحت اللومباردي، ويعقود مستدقة. بعض هذه الأقواس (على سبيل المثال في كلية سان ميغيل، التي تعتبر رمزاً أثرياً للكاتدرائية القوطية في مراحلها الأولى) وإن كانت مستدقة تقريباً مثل الأقواس القوطية، ينقصها التباعد المميز للفن القوطي، حيث أن الفتحة مقطوعة على شكل مربع في الجدار. وهناك أقواس أخرى متباعدة فوق أعمدة صغيرة يختلف عددها من واحد إلى سبعة، ولكنها تبدو بارزة من الجدار، وليست مبنية داخله كما في الفن القوطي الشمالي. ولوصل هذا البروز مع الجدار في الأعلى، يتم تركيب إفريز عميق، تدعمه كقاعدة، في حالة إشبيلية، رؤوس أسود، وفي الكنائس الريفية مجرد طنوف ناتئة، كلها مستوحاة من العمارة الشرقية بشكل أو بآخر⁽¹⁾.

إن لم يكن واضحاً من النظرة الأولى أن هذه الأروقة أضيفت في وقت متأخر للبناء الرئيسي، فيمكن إثبات ذلك من خلال المقارنة مع بوابات قرمونة وزُنْدَة وشذونة الضخمة حيث بنيت أقواس نضوية مع أفاريز وطنوف فوق البوابات الرومانية في أسوار المدينة. ويختلف تاريخ بناء الأروقة المقوسنة، وليس من الصعب في بعض

(1) الأسد والنسر كانا من الأصنام الوثنية في اليمن.

الحالات تخمين الوقت الممتد بين بناء أحدها والآخر. ولكن الإضافة الواضحة للبناء الأساسي هي نفسها في كل مكان، وهي ليست بصورة أساسية تلك العائدة إلى القرن الثالث عشر القوطي والتي نراها على سبيل المثال في كنيسة القديس جيل والقديسة آنا في إشبيلية، والتي نعرف أنها جرت في عهد ألفونسو العاشر، في عام 1261 و1282. فالتقدم في الأسلوب والتصميم واضح تماماً بحيث يشكّل بحد ذاته إثباتاً على أنّ العمل الذي قام به ألفونسو تم في وقت متأخر جداً، رغم أنّ الظروف التي سادت لسنوات عدّة بعد حرب الاسترداد تجعل من المؤكد عملياً أنّ الحرفيين كانوا مسلمين أو مستعربين من أبناء المنطقة.

نجد في الطرف الغربي من هذه الكنائس البازيليكية نوافذ حجرية محفورة على الطراز العربي الأكثر بدائية في بعض الأحيان. وتشبه المحاريب أو أماكن الصلاة الجانبية أضرحة أو مزارات الرجال العظام الملحقة بالمساجد التي بنيت في صدر الإسلام في مصر. وبمحض الصدفة، كشف حريق عرضي عن زخارف عربية لا تزال في حالة ممتازة تحت سقف مصنوع من الجصّ ومغطى بماء الكلس في كنيسة سانتا مارينا في إشبيلية. ويمكن تمييز المحاريب هذه من خلال القباب ذات الستة عشر عقداً والمرتكزة على شكل ثُماني الأضلاع يرتكز بدوره على مضلع رباعي الزوايا، وفي أعلى القبة منور يفيض بالضوء. هذه الخاصية المميّزة لا يمكن أن يكون منشؤها في مكان آخر غير مصر، بما أنّ الأمثلة الأقدم لمثل هذا الطراز المعماري موجودة في دير إخميم القبطي المبني في سنة 550 للميلاد⁽¹⁾. نجد هذه المحاريب ذات القباب المتعددة الأضلاع في إشبيلية دائماً في الطرف الشرقي لأروقة الكنيسة. وبني محراب، ويسمى كذلك «مشرقية»، في كل جانب من الزوايا بحيث يكونان متقابلين. وتم تصميم المناور العلوية بحيث ينير الضوء الداخل عبرها الصور التي تزيّن الآن هذه الصروح الإسلامية السابقة. نجد في الأقبية أو الحنايا نصف الدائرية في كل هذه الكنائس تقريباً أثر الفن القوطي الشمالي في التوافد الطويلة ذوات العقود المستدقة والأسقف المقتبة الرشيقة التي سادت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر هنا كما

(1) Gayet, *L'Art Copte*, p. 82.

في دول أوروبية أخرى. هنا نقف على أرض صلبة من اليقين، حيث نجد سجلات للإضافات الأخيرة في الكثير من الحالات. صحيح أن مدوّني الحوليات في القرن الرابع عشر غالباً ما كانوا يعطون لأنفسهم حرية القول، كما فعل أسلافهم المسلمون من قبلهم، إن هذا المبنى أو ذاك «أعيد بناؤه» من قبل هذا الشخص أو ذاك، ولكنهم في هذه الحالات كانوا يشيرون فقط إلى الحنية، لأنها وحدها تعود إلى الفترة المعيّنة. إنه لمن المثير للاستغراب أن نرى، على سبيل المثال في كنيسة سان أندريس في إشبيلية والتي تشتمل على كل الخصائص التي تم التطرق إليها أعلاه، تيجان عمدان عليها صورة رأس الإلهة الفرعونية حتحور ترتكز عليها قبة بنيت في القرن الرابع عشر، ونقوش تمثل أزهار لوتس تقليدية على طنف التوافد الطويلة الرشيقة في الحنية، وقد تم توسيع الحنية وتعديلها في القرن الرابع عشر، ولكن لم يُعد بناؤها. وعندما نرى ستاراً خلفياً مزخرفاً جميلاً، مطلياً بماء الذهب واللون الأحمر في وسط الحنية القوطية بحيث يحجب نصفها، في حين تشوّه الجدران البازيليكية القديمة لوحات رديئة من أواخر القرن الثامن عشر متنافرة مع المكان، عندها تكتمل حقاً قصّة الكنيسة في إسبانيا، ويمكننا أن نقول عن هذه المباني، كما يقول الدكتور بتلر عن الأقمشة المصرية: إنها «تعكس التغيرات السياسية التي عرفتها البلاد مثل المرأة».

لم يكن هناك خط فاصل بين المدرستين القبطية والعربية في مصر فيما يتعلق بالتصميم الهندسي والفني حتى سقوط الدولة الفاطمية⁽¹⁾. لم يفرّق الأقباط بين المساجد التي تعاقبوا لبنائها وبين كنائسهم، حيث وظفوا الأفكار نفسها في المساجد والكنائس على حدّ سواء. وعليه يمكننا أن نجد في الفن القبطي العربي والقبطي المسيحي في مصر، صليبيّاً في وسط تصميم هندسي، وميدالية كبيرة متعدّدة الأضلاع

(1) نشير هنا بالطبع إلى المدرسة التي اتبعت عن استخدام القادة المسلمين الأوائل للفنانين والمعماريين الأقباط، مثل عمرو بن العاص وعبد العزيز بن مروان، والخليفة الوليد بن عبد الملك، وابن طولون وهكذا حتى الفاطميين. وحتى في وقت متأخر مثل القرن الرابع عشر، استعان الحسن الأول [السلطان حسن بن التاصر محمّد بن قلاوون] بمعماري قبطي لتشييد مسجد ومدرسة السلطان حسن والذي يحمل توقيعه في القاهرة. (Gayet, *L'Art Arabe*, pp. 27, 39, 41 – 42, 49 – 50, 121.)

يحيط بها إطار يتضمن رسم الأرنب الغامض وهو الصورة الهيروغليفية للفظ «أون»⁽¹⁾ وهو رمز أوزيريس إله العالم الآخر عند الفراعنة، وهكذا دواليك⁽²⁾.

يتكرر هذا المزج بين الرموز والتصاميم الهندسية بصورة ملفتة في إشييلية وبعض المناطق المجاورة لها، وخصوصاً في ولبة (أكشونة التي ذكرت في أخبار مجموعة) حيث استقر جند *Jond* مصر في القرن الثامن. وبالإضافة إلى ذلك، نجد أن هذه التصاميم تستخدم هنا حتى في زمننا الحاضر على مشغولات مماثلة لتلك التي عددها المقريري بوصفها كانت رائجة في البلاط الفاطمي، مثل الكتان الناعم والشاش الموسلين الشفاف، والحرير الفاخر. كما أن طرق شغلها هي بالتحديد تلك التي استخدمت لتزيين وزخرفة الملابس التي عثر عليها السيد غاييه في القبور القبطية والعربية، والتي تعود إلى الفترة ما بين القرن الثالث والقرن الثالث عشر - أقمشة الحرير والكتان والموسلين المطرزة بطريقة نسل الخيط، والتطريز على الدنتيلا المشبكة، والتي كان يطلق عليها هنا سابقاً اسم «شبكة السمك» *red de pez* وباتت تعرف اليوم باسم «مأيا» *mallá*. ولا تزال هاتان الطريقتان تستخدمان اليوم في الأندلس لصنع مشغولات راقية وصعبة التنفيذ؛ وحتى في الأوقات الحاضرة يمكننا أن نجد رموزاً مثل الصليب المعقوف ورمز «خا»⁽³⁾ وغيرها من التصاميم الهندسية ورسوم الحيوانات الرمزية، التي تقوم الفلاحات بتطريزها لغاياتهن الخاصة. لقد رأينا مثلاً على هذه المشغولات على الكتان المغزول والمنسوج منزلياً، وعلي رسومات تذكر برمز «خا»، الذي يتم تشكيله من خلال سحب الخيوط ليظهر رسم امرأة تنتهي أطراف يديها بدلاً من الأصابع بصليب⁽⁴⁾ تحديداً كما في صورة «خا» على مصباح في المتحف المصري في القاهرة. لقد جاء هذا الرسم من قرية نائية في جبال ولبة

(1) أون Oun وتعني «أن تكون» أو «تعيش». (م)

(2) *L'Art Arabe*, p30.; *Costume en Égypte*, passim.

(3) خا Kha رمز فرعوني معقد، من بين معانيه أنه مصدر قوة الحياة التي تهبها الآلهة، والزوج التي تعيش داخل كل إنسان. (م)

(4) عنخ 𓆎 هو مفتاح الحياة عند المصريين القدماء وهو على شكل مفتاح بذراعين ممدودتين تتعامدان وتتصالبان مع الجزء الطولي. (م)

(سييرا دي ويلبا Sierra de Huelva) حيث لم يكن أحد يعرف شيئاً عن المصريين أو الرموز القبطية قبل مئة عام. ولكن الرسوم التقليدية تحفظ بعناية وننتقل من جيل لآخر حتى في القرن العشرين بحيث يمكننا أن نفهم سبب بقاء مثل هذه الأفكار في مناطق نائية لم تتعرض بعد ذلك لتأثير فني آخر من شأنه أن يغيرها⁽¹⁾.

سنتناول لاحقاً صناعة الخزف والخشب والعاج والحفر والحلي والذروع والمفروشات القبطية القوطية أو القبطية العربية، لأننا ابتعدنا كثيراً عن تاريخ الأندلس في ظل الحكم الإسلامي. ولكن نأمل أن نكون قد بينّا أنّ إشيبية كانت أكثر تقدماً من قرطبة قبل تولي عبد الرحمن الثالث، وذلك بفضل الفن والثقافة التي عرفتها نتيجة التفاعل والاختلاط بين العناصر الثلاثة التي اجتمعت فيها. هناك في البدء، التقاليد الرومانية التي حافظ عليها الأمراء القوط الذين كانت إشبيلية عاصمتهم ومركزهم. وثانياً، التقاليد وثقافة الترف والفخامة التي حافظ عليها العرب اليمانية الذين اتخذوا إشبيلية عاصمة لهم تقريباً طوال فترة الحكم الإسلامي في إسبانيا. وثالثاً، التقاليد والفنون والحرف والصناعات المصرية التي رعاها العرب اليمانيون هنا كما في مصر، والتي لم يعن تطورها حفظ تصوير المشاهد الحياتية كما فعل الشئ في قرطبة.

وفي حين لا تذكر المصادر المتوافرة حالياً أنه تم استخدام فنانيين يونانيين في إشبيلية (كما تفيد الحوليات أنهم استُخدموا في قرطبة، في مناسبتين على الأقل)، فمما لا ريب فيه أنّ هناك تأثيراً مسيحياً ماثلاً بقوة في كافة الفنون في إشبيلية في الفترة الأولى من الحكم الإسلامي. ومن المستحيل أن يكون الفضل في ذلك للقوط الذين عاشوا، على أي حال بسلام وود، إلى جانب المسلمين في جنوب إسبانيا، لأنهم لو كانوا تركوا تأثيراً

(1) الرموز والتصاميم التي تمثل الشمس، والتي لا تزال على الأرجح تسمى "el sol" أو "dibujo de soles" (تصاميم الشمس) تنتشر على نطاق واسع في المناطق المشار إليها. ستناقش هذه الموز وغيرها من الرموز التي بقيت على مر الزمن باستفاضة في كتاب آخر مستقبلاً. علينا، على أي حال، أن نشير إلى مقبض باب برونزي في حوزتنا يمثل رأساً مصرياً يخرج منه ثعبانان. إنه من صنع إشبيلية في القرن الخامس عشر، لكن الزوار يقولون عندما يرونه لأول مرة إنه لا بد أن يكون مصرياً، ويسألون لماذا هو بين مجموعة من المشغولات الأندلسية.

دائماً على الفن الأندلسي خلال خمسة قرون لم يكن ممكناً أن يدخل خلالها أي تأثير مسيحي إلى هنا من الخارج، لاستمرّ الفن والعمارة في إشبيلية في ظل الحكم الإسلامي على الطراز الروماني كما كان لدى وصولهم. ويمكن أن نلمس مدى قوة التقاليد الرومانية حينها واستمرارها في مدينة صيدونيا (شدونة)، حيث لا تزال توجد صومعة على الطراز القوطي الغربي⁽¹⁾. هذا المبنى الصغير بأعمدته الضخمة غير المتناسبة مع حجمه، وسقفه المنخفض الأسطواني الشكل، يختلف كل الاختلاف عن كنائس إشبيلية البازيلية. وليس هذا الدّير الوحيد من نوعه في هذه الناحية من إسبانيا، ففي پويرتو دي سانتا مارتا، يوجد تحت القلعة التي قام آل غوثمان⁽²⁾ Guzmán بترميمها في القرن الرابع عشر، كنيسة أخرى مماثلة، تميّز بأعمدتها الرومانية، من الواضح أنها أخذت عن مبنى في الجوار. الأعمدة هنا تغوص عميقاً في الأرض، دون قواعد ولا تيجان، أما الأقواس أو العقود فتبدو خارجة من صبة غير متقنة. وبالإضافة إلى أنه لا توجد للعمدان تيجان، فليس لها طليّة. يفترض بيلابو كيتيرو إي أتوري في المقال المشار إليه في الصفحة 385 (طبعة الأصل) أن المستعربين بنوا الكنيسة قبل احتلال الموحدين للمدينة، ونحن نتفق معه، ففي حين يعكس البناء الأولي التأثير الروماني، هناك عقود على الطراز القبطي وأقواس نفوثة تفترض بوضوح أنها إضافات على البناء الأصلي. وفي الكنيسة الصغيرة مسحة مثيرة للفضول تدّكر بمسجد قرطبة الكبير. فهي ليست بازيلكية في الشكل، وهو أمر صعب لو أنها من الأساس صمّمت لتكون أساساً للقلعة التي بنيت فوقها. يفتح المدخل على أقواس مستعرضة من يمين ويسار صحن الكنيسة، في حين يتساوى ارتفاع السقف المقبب المنخفض جداً في أنحاء المبنى، فهو ليس مرتفعاً كما هي العادة فوق الصحن المحوري. وإذا تخيلنا مسجد قرطبة كما كان عندما كان المسلمون يتقاسمون في البدء مع

(1) لا يزال صحن الكنيسة على حالته الأولى، مع كتابة قوطية غربية تعود إلى القرن السابع على واحد من الأعمدة الضخمة. لا يبدو أنه تم إدخال تعديلات على هذا المبنى حتى القرن السادس عشر، عندما قام دوقات شدونة (مدينة صيدونيا) من آل غوزمان، بتجديد الجدران عبر تغطيتها بالخزف القيشاني من تلك الفترة، وتوسيع خزنة المقدّسات.

(2) يسمّيه المؤرّخون العرب: آل ابن قزمان. (أحمد)

المسيحيين، قبل إضافة صفّ علوي من الأقواس في عهد عبد الرّحمن الثّاني لتوسيع المكان مع قدوم أعداد كبيرة من النّاس إلى قُرْبَة في عهده، يمكننا أن نرى أنّ المخطّط الأساسي لهذه الكنيسة المسيحية الصّغيرة هو نفس مخطط المسجد ولكن مصغراً. وتعرّز الأقواس النّضوية في أجنحة الكنيسة هذا الانطباع. وفي وسط المساحة أمام المذبح المرتفع الذي يحاط عادة في الكنائس بضوء خافت قاتم لإشاعة جو ديني، يسقط ضوء الشّمس ساطعاً من المنور المفضّل لدى الموحّدين، على الأعمدة الرّومانية والرّخارف العائدة إلى القرن السّابع عشر على هيكل المذبح المهذّم (لا توجد مقاعد للرّهبان والشّمامسة والكورس) مشيراً إلى حقيقة الأسطورة المحليّة القائلة بأنّ المسيحيين خبأوا صورة العذراء مريم التي عثر عليها ألفونسو العاشر في خندق الحصن، لأن المغاربة استولوا على كنيستهم. لا شك أنّهم هم الذين قاموا ببناء الأجنحة، للحصول على شكل مربع أو مستطيل يتلاءم مع إقامة الشّعائر، وهذا ما أضفى على الكنيسة الصّغيرة لمسة من مسجد قُرْبَة الكبير.

يكشف المزيد من البحث في القرى الثّانية عن آثار أخرى مماثلة من العهد القوطي الغربي لم يكن معظم علماء الآثار يتوقعون وجودها.

من الواضح أنّ معظم الكنائس المسيحية في الأندلس ظلّت بعيدة عن أي تدخل، سواء كان إيجابياً أو سلبياً، طوال فترة الحكم الإسلامي، وحتى الوقت الذي انتصر فيه سان فرناندو على الموحّدين وأعاد كل الكنائس التي استخدمت لأغراض أخرى إلى العبادة المسيحية. من جهة أخرى، يبدو واضحاً أنّه حيث جرت أعمال إصلاح أو ترميم أو إعادة بناء، قبل غزو الموحّدين، استُخدِم فنانون أقباط أو تلامذتهم في الكنائس المسيحية، كما استعان المسلمون الشّيعية في مصر بالمعماريين الأقباط لإصلاح أو بناء المباني التي كيفوها لتناسب أغراضهم. ويثبت استخدام القوس المستدق أنّ تأثيراً غير التأثير البيزنطي ساد في هذه المنطقة كما في كل مكان ساد فيه العرب اليمانية. ولا يقتصر الطّراز القبطي على المباني في الأعمال العربية الأولى في جنوب غرب الأندلس، إذ يمكن العثور عليه كذلك في أعمال القصارّة والرّخرفة بالجصّ وكذلك

في حواجز الشرفات ذات الفتحات *almenas* المنسوخة، باستخدام البلاط المقطع، عن أسوار الحصون العربية. أما الأسوار التي بنيت في عهد الموحدين، فكانت ذات شكل مختلف. ومن الملفت أن نلاحظ كيف شكلت الشراقة (الجدار الحجري بين فتحتين) ذات الرأس المستدق في الفترة الأولى نمط الزخرفة الذي أُطلق عليه خطأ تسمية المدجن في هذه المنطقة، في حين أنّ الأعمال التي قام بها الأفارقة المغاربة في فترة لاحقة دائماً ما تكون أقلّ ابداعاً.

لم يتبقّ للأسف حالياً سوى القليل من الأقمشة، والحليّ والمصاغ والزجاج أو الخزف الذي يقول ابن سعيد إنه بلغ مستويات راقية من الكمال في إشبيلية ومُرسية وغيرها في عهد اليمانيين خلال القرن الحادي عشر عندما اكتسبت المدرسة الفنية القبطية شهرة واسعة سواء في إسبانيا أو مصر. من المؤكد أنّ العرب اليمانية اكتسبوا بحلول ذلك الوقت ما يكفي من الخبرة والمهارات في مجالات الإنتاج تلك تضاهي معلميهم المصريين، ويبدو أن المهارة الحرفية الزاكية لم تكن تقتصر على طبقة الصناعيين، حيث أنّ أحد الأمثلة الأكثر شهرة هي قطعة مصاغ من القرن الحادي عشر عليها كتابة تؤكد أنها صُنعت من قِبَل أمير يمانِي لجَدِّه المُعْتَمِد أمير إشبيلية⁽¹⁾.

ساعد المستشارون اليمانيون في حكم إشبيلية حتى في فترة حكم الموحدين، ويمكن أن نعزو إلى تأثيرهم على الحكّام الموحدين الطابع العربي الذي تغلّب على الطابع المغربي في برج الخبر الدا الشهير في إشبيلية. فالتشابه بين تصاميم الزخارف في البرج وتلك الموجودة على القسم الأسفل من واجهة قصر إشبيلية (والذي يرجّح أن يكون من بقايا القصر الذي بناه المُعْتَمِد بن عَبَّاد)، لا بدّ أن يثير انتباه المهتمين بدراسة الموضوع، حيث أن التناقض جليّ تماماً بين هذا العمل المتميّز والجزء

(1) انظر خارطة الأنساب. تقول الكتابة التي ترجمها إلى الإسبانية الأكاديمي فرنانديث إي غونثالث إن «عمل محمّد بن السراج لا يضاهيه عمل أيّ من الصّناع، ولن يكون حتى في جنة عَدْن مَنْ يفوق في عمله عمل أبي حسان (عندما يعمل) بأمر من الأمير. رغب الأمير محمّد في أن أصنعه لزوجته الثانية، بدر، بشرى السلام في عَدْن». (المتحف الإسباني للأثار، i. 67).

وعلة الجواهر محفوظة في متحف مدريد.

المغربي في واجهة القصر. لقد تعرّضت الزخارف العربية على الواجهة لتشويه كبير من خلال إضافة دروع ملوك قشتالة وليون الأولين (السابقين لـدرو الأول، باني القصر المفترض)، ولكن الخطوط العريضة تنتمي إلى المدرسة ذاتها.

إن التشويه الذي أحدثه الفنانون معدّو شارات النبالة لدى الملوك المسيحيين على هذه الزخرفة البديعة يعطينا فكرة عن اختفاء معظم الأعمال الفنية القبطية اليمانية والقبطية القوطية التي عُثر عليها في إشبيلية وغيرها عندما أُخرج منها الموحّدون. ويمكن الحكم على مدى رقي وروعة وغنى وأناقَة الزجاج والمفروشات والمفارش وغيرها من المشغولات التي نسبها القشتاليون لأنفسهم، من خلال الإضاءات التي سلّطت على أعمال ألفونسو العاشر، حيث نقلت وقائع الحياة المنزلية في تلك الفترة بأمانة ومع إعطاء الكثير من الانتباه إلى التفاصيل التي لم تتجاوزها حصر بايو الجدارية⁽¹⁾. ويظهر من رداء دفن سان فرناندو الذي حفظت قطعة منه في متحف مدريد، أنّ سكان قشتالة كانوا يفضلون الأقمشة عربية الصنع والتصميم. تم تصميم الرداء على شكل مربعات رقعة الشطرنج بالأحمر والأبيض وقد حيكت عليه بمهارة حصون وقلاع صغيرة وأسود قبطية المعالم تذكرنا بتلك المحفورة في المشغولات الخشبية في جامع الأزهر، وكذلك بالأسد الذي على رَنك (شارة) بييرس البُنْدُقاري⁽²⁾، كما أشار لنا السيد ألبير غاييه في رسالة خاصة تتعلّق بالأسود «القبطية» في إشبيلية. ويوجد في كتاب ألفونسو «كتاب الشطرنج» صورة للملك نفسه يرتدي رداءً آخر مماثلاً، كما توجد كتابات عربية على قطع من أثواب أبنائه المحفوظة في متحف مدريد، حيكت في القماش مع أسمائهم - وهو مثال قد يكون فريداً في استخدام الطرز لزخرفة الأثواب الملكية المسيحية.

لا شك في أنّ مسيحيي قشتالة كانوا يقدّرون تماماً مظاهر الفخامة والجمال التي

(1) Bayeux Tapestries (في منطقة نورماندي في فرنسا).

(2) في الأصل: البُخاري، وهذا خطأ مضحك، فمن يجهل لقب الملك الظاهر رُكن الدين بييرس البُنْدُقاري، المؤسس الفعلي لدولة سلاطين المماليك؟ وكذلك فمما شاع لدى المؤرخين أنّ رنكه كان الأسد، بينما الواقع أنّه الفهد، وهو معنى اسمه بالتركية. (أحمد)

طُبعت حياة المسلمين في إشبيلية في القرن الثالث عشر، وكان ولعهم بها كبيراً جداً، بحيث أن ملوكهم بدأوا بعد وقت غير طويل في إصدار تشريعات تمنعهم من الانغماس بإسراف في هذه الأمور. ولكن، وكما هي الحال دائماً، فإن الألفة تولد الاحتقار، ولم يخطر ببال أحد أن قطع الزجاج والفضة والخزف والمشغولات المطرزة والمحاكاة التي كانت تزين المساجد والقصور في المناطق التي تمت السيطرة عليها كانت تستحق من الغزاة أن يحتفظوا بها بعناية مثلها مثل الحجارة الجميلة المفرغة والمنقوشة والزخرفة بالجص، في واجهة قصر إشبيلية. خلال تسع سنوات من البحث والتقصي تمكنا، مع ذلك، من العثور على ما نعتقد أنه أفضل مثال تقريباً على السجاد المستخدم في إشبيلية قبل حرب الاسترداد، ولم نفقد الأمل في أنه لا يزال ممكناً العثور على بعض بقايا الحرير والدمقس والذبياج في كنائس القرى النائية حيث لا يتم التعامل معها بوصفها أكثر من مجرد خرق بالية.

هناك استثناء وحيد يتمثل في القطعة الرائعة المعروفة باسم سجادة الصيد *Paño de la Monteria* في كاتدرائية إشبيلية. ورغم أن ثلثها تقريباً انتزع منها، بالإضافة إلى الإطار الذي كان يمكن أن يكون حجمه كبيراً وربما يتضمن كتابة، فإن ما بقي منها ثقيل جداً بحيث لا يقدر رجل واحد على حمله. ونفترض أن هذا هو السبب الذي جعل القائمين على الكاتدرائية يرفضون تماماً عرض السجادة على الدارسين. لقد قيل لنا إننا كنا الأجانب الوحيدين الذين سمح لهم حتى الآن بدراستها، ونحن ندين بذلك للطف رئيس الكاتدرائية وكبير الشماسة وتعاطفهما واهتمامهما بدراستنا للفن الأندلسي.

صنعت السجادة من المخمل الأحمر ذي الوبر القصير القاسي، وليس فيها بوصة واحدة خالية، فقد تم تطريزها بخيوط متقاربة جداً لتشكيل لوحة صيد خيالية حيث تُطارِد حيوانات غريبة غير واقعية أو تطارِدُها حيوانات أخرى ذات شكل وهيئة غير طبيعية. صوّرت الحيوانات دائماً في أزواج، ويبدو العديد منها راكباً على ظهر الآخر لتنهش بشراسة متفاوتة أعضاء بعضها. هذه الفكرة الفريدة التي تشتهر بها الأقمشة الساسانية، تتكرر بنسبة كبيرة في القطع القليلة الأثرية المتبقية من المشغولات الفنية

العائدة إلى تلك الفترة. فهي موجودة على نافورة المنصور المصنوعة في إشبيلية سنة 988 م، ولكن في هذه الحالة على شكل نسور ممسكة بثعالب بمخالبها: في تابوت عبد الملك بن المنصور الذي يعود إلى عام 1005.

وكما ذكرنا سابقاً بالنسبة لسجادة الصّيد، تبدو أجنحة الحيوانات في الحالة الأخيرة فريدة، شبيهة كثيراً بأسد يزا المجتّح، وهو أسلوب يقول السيد غاييه إنّه ينتمي إلى الفن الفاطمي العائد للقرن العاشر⁽¹⁾. يقول المقرئ في إنّ تصوير الحيوانات في الفن الفاطمي كان قريباً جداً من الحقيقة بحيث أن الناظر إليها عن بعد قد يظنّ أنها حقيقية، ولكن لا أحد ممّن رأوا تلك المخلوقات الخيالية، ذوات الأجنحة التي قد تكون على شكل ثعابين، أو الذبول الشّبيهة بأوراق نبات أو أزهار، يمكن أن يوافقه الرّأي. أما بالنسبة لأصل رسم الحيوانات الزّركب أحدهما على الآخر، فيمكننا أن نجد ذلك أيضاً في مصر. يورد السيد غاييه صورة لمجموعة قبطية رمزية في المتحف المصري بالقاهرة. يبدو في الصّورة طير، يفترض أنّه يمامة، واقفاً وقد أنشبت برائته في ثعلب، وفرد وغزال وأسدان في الأسفل، وكلّها بين ذراعي صليب وحولها كمية كبيرة من أوراق الشّجر. لقد حُفرت هذه الصّورة قبل قرون عدة من تاريخ تشييد نافورة المنصور، ورغم أنّ العمل الأخير أكثر اتقاناً، فإنّ الرّسم نفسه لا يختلف كثيراً، عدا عن أنّ الطّير في نافورة إشبيلية نسر - الرّمز الوثني السّابق في اليمن - وأنّ الأسود تحمل رؤوس نسور كما في يزا، ولها أجنحة مثل أجنحة الثّنائين في سجادة الصّيد في إشبيلية. نعتقد أنّ هذه الرّسوم مستوحاة من بلاد الفُرس عبر اليمن، قبل الإسلام. وتبدو الأسود في المجموعة القبطية شبيهة إلى حدّ كبير بالأسود المحاكاة على رداء دفن سان فرناندو. وكما لإثبات مدى تكرار هذه الفكرة، نجد سجادة رائعة نُسجت في القرن الخامس عشر، أيضاً في كاتدرائية إشبيلية، تحمل الحرفين الأوّلين لإسمي الملكين

(1) *L'Art Arabe*, p. 189.

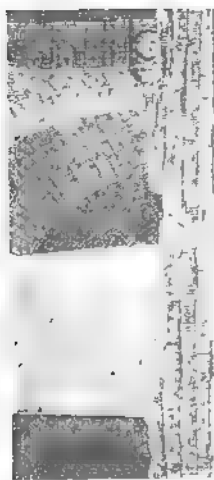
الكاثوليكيين إيزابيل⁽¹⁾ وفرناندو⁽²⁾، والتي تعتبر تقليداً للمجموعات الساسانية لكنها نسخة محدثة ذات ملامح تقليدية، بالطريقة نفسها التي تم تقليدها في سجادة الصيد وتابوت عبد الملك، ولكنها محاطة بزواج من الثيران المتصارعة كذلك التي نراها اليوم على صور بطاقات إشبيلية البريدية. لقد وجدنا الفكرة نفسها في مشغولات عربية أخرى تعود لفترة سابقة على القرن الثاني عشر، لكن المساحة لا تتيح سرد المزيد من التفاصيل هنا. لقد بينا، كما نأمل، الصلات الوثيقة في الرمزية والأسلوب بين مختلف تلك الأعمال الفنية، المتباعدة بشكل كبير عن بعضها في الزمن وعن المدرسة القبطية العربية في القُسطاط، والتي ائبثقت منها مدرسة إشبيلية.

نقترح في المستقبل أن نورد رسوماً لتلك التصاميم وغيرها لكي نبيّن استمرار التأثير الفارسي المصري على الفن في الأندلس. لقد قيل ما يكفي حتى الآن كما نأمل، لإثبات أن هذا التأثير كان موجوداً وترك علامة راسخة لا تمحى في الأفكار الفنية في المناطق التي تفوق فيها الأقباط بفضل مهاراتهم وخبرتهم في فن الزخرفة والعمارة لدى اليمانيين والقوط والمولدين الذين اتخذوا من إشبيلية عاصمة لهم.

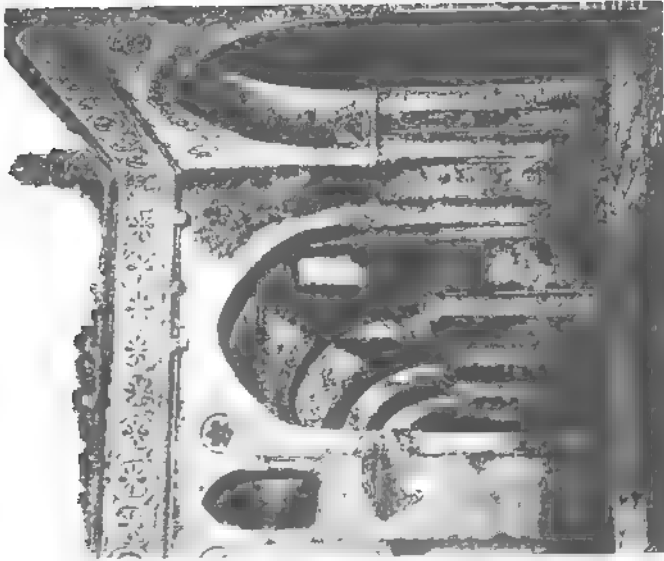


(1) نضطرّ لكتابة اسم ملكة قشتالة كما هو شائع بالعربية هكذا، رغم أن الصواب في نطقه بالإسبانية القشتالية: «إيسابيل». وذلك أن حرف S يلفظ في الإسبانية سيناً بالمُطلق، ولا يُلفظ زائاً أبداً مهما أتى بعده من حروف علة. لا بل حتى قد يأتي مشوباً بشين إن تلاه حرف ساكن أو بآخر الكلمة. (أحمد)

(2) الحرفان F و Y.



أ - كنيسة القديس جرجس القبطية، مصر، القرن الرابع.



ب - مسجد ابن طولون، مصر، القرن الرابع.

عمارة مستقلة قديمة في مصر.



كونفتو دي لالوث (الرقم 1). العقود القبطية العربية في الباحة الوسطى، وفي الأعلى رواق من
القناطر يعود إلى القرن الخامس عشر.

الفصل الثامن

المسيحيون والمولدون في عهد عبد الرحمن الثالث

لم يكن عبد الرحمن قد أتمّ الثانية والعشرين عندما تولّى الحكم. كان أشقر وعينه زرقاوان، كما هو متوقع لكون أجداده من القوط، ووسيماً مثل الأمراء. ولكن جاذبيته كانت تكمن، أكثر من حسنه الجسدي، في طيبة قلبه وعفة خلقه. كان ذكياً ومتعلماً، ومتعللاً وحصيفاً إلى أقصى حد. لقد كانت خصاله الحميدة معروفة للجميع، ولذلك عمّ الفرح بين الناس لدى تولّيه العرش، وقرئت الخطبة باسمه في المساجد الرئيسية. كان عمّه المُطرّف، الذي بات يظهر له عطفاً أبوياً، أول من أعلن له الطاعة، وتلقّى عبد الرحمن قسمه بكثير من الحب والتقدير، ما جعل أعين الحاضرين تدمع⁽¹⁾. ربما تذكر هؤلاء الذين دمعت أعينهم كيف تسبّب المُطرّف نفسه بموت والد الملك الشاب قبل نحو ثمانية عشر عاماً. ولكن أياً كانت الأمور، يمكننا أن نفترض أنّ المُطرّف كان مخلصاً للعهد الذي قطعه ذاك اليوم، لأننا سنرى لاحقاً كيف خرج للقتال إلى جانب ابن أخيه في أكثر من مناسبة.

من أهم ما يميّز حكم أعظم الخلفاء الأمويين أنّ العداوة التي امتدت لسنوات طويلة بين إشبيلية وقرطبة تراجعت على الفور. ويعزو دوزي ذلك إلى ضعف الثوار المولدين واليمانيين بسبب التقدّم في العمر أو الوفاة، والواقع أن أهل إشبيلية الذين توفي كبيرهم إبراهيم بن حجاج وخلفه ابنه محمّد قبل تولّي عبد الرحمن الثالث العرش، قبلوا بالحاكم الجديد دونما اعتراض، كما أننا لا نجد ما يشير إلى

(1) Conde, i. 359.

تجدد الاضطرابات هنا خلال فترة حكمه المديدة. ولكن لا يبدو أنَّ الضَّعف أصاب المولَّدين والمسيحيين خلال خمسة وعشرين عاماً من المَعارك والاضطرابات، لأننا نجد أنَّ عُمَر بن حفصون، الذي بات زعيمهم المعترف به، أكثر إصراراً من ذي قبل على بناء مملكة لشعبه. كانت الهدنة مع إشييلية تكتسي طابعاً شخصياً بالنسبة لعبد الرحمن.

فور وفاة الأمير عبد الله، أعلن محمَّد بن حتاج الطَّاعة للأمير الجديد، وسرعان ما حذا حذوه الزَّعماء اليمانيون. لا شك أنَّ عبد الرحمن بذل قصارى جهده لتسهيل إعلان عهود الولاء هذه لمن ابتعدوا عن جدِّه. فهو لم يَدخر وسيلة لمدَاواة العداوات القديمة والخلافات، وإنهاء حالات الشَّاربين بعض العائلات، فكسب بفضل طيبته وحصافته قلوب الكثيرين من أصحاب المِظالم: لقد عمل على تحسين سُبل عيش رعاياه كافة عبر إلغَاء العديد من المغارم أو الضَّرائب التي فرضها سلفه، وبفضل حرصه على عدالة القضاء ونزاهته، وعلى تشجيع الزراعة والتجارة، أرسى الأسس التي حقَّقت الازدهار لبلاده ووضعت قبل وفاته قُرْبَةً في صدارة الأمم المتحضِّرة في ذلك الوقت⁽¹⁾.

كيف كان من الممكن القيام بهذا كل وإنجازه كما يبدو تقريباً فور تولِّي عبد الرحمن الحكم لولا علاقة القرابة والدَّم التي تربط الأمير الشاب برعاياه اليمانيين والمولَّدين؟⁽²⁾ ولكن لا يمكن أن يطرأ على الفور تغيير جذري على الموقف الفكري لقبيلة أو فرقة لأنَّ شاباً ومسيماً ولطيفاً تولَّى الحكم خلفاً لرجل عجوز، مهما تدنَّت شعبية الأخير. لا بدَّ أن والدته عبد الرحمن المسيحية ماريَّامي التي سعت وراء تحقيق هذه المعجزة. ولكن الحوليات لا تذكر إن كانت حية أم متوفاة عندما تولَّى الحكم. وربما كانت لا تزال حية، لأنَّ اسم والدته الخليفة - التي تحظى دائماً بأعلى مراتب

(1) Dozy, G. *der M.*, i. 456 - 7; Conde, i. 359; Makkari, ii. 134.

(2) ينبغي ألا تغيب عن ذهننا العداوة التي لا تنطفئ جذوتها بين اليمانيين والمُضَرِّين. يسمي الأمويون إلى قبيلة قريش وهي من قبائل مُضَر.

التقدير والإجلال - ورد لدى إعلان توليه. والعادة أن يشار إلى وفاة الوالدة لو أنها توفيت قبل تنصيبه. ولكن كونه⁽¹⁾ هو الكاتب الوحيد الذي يذكر مارتيا، ولا يقول لنا أكثر مما سبق أن أوردنا. فلو كانت لا تزال حية، يمكننا أن نتخيل كيف وظفت نفوذها لدى ابنها وكذلك لدى أقربائها في إشبيلية لتحقيق سلام دائم. وتؤكد الكثير من الأحداث أن عبد الرحمن أحسن معاملة عائلتها كرمى لها، إن لم يكن تقديراً لهم، طوال سنوات حكمه.

فمن بين أول ما قام به إعادة تعيين يمانى قاضياً على قرطبة، بعد أن جرّده جدّه من لقبه، وإعادة تعيين ابن جمري وهو في سنّ متقدمة قائداً للجيش، بعد أن عزله عبد الله من هذا المنصب⁽²⁾. لقد حرص عبد الرحمن طوال فترة حكمه على فتح ذراعيه لاستقبال أيّ ثائر يبدي رغبة في إعلان الولاء، ثم عرض منصب عليه تحت إمرته. وعلى هذا الأساس من التعاطف تعامل مع أتباع ديانة أمه، فلم يكتف بإصدار أوامر بمراعاة المسيحيين ومعاملتهم بالحسنى، بل أنه أبدى ذات مرة رغبة في تعيين رجل والداه نصرانيان في منصب قاضي قرطبة، ولم يثنه عن ذلك سوى معارضة الفقهاء⁽³⁾.

كانت علاقاته مع بني إسحاق⁽⁴⁾ حميمة إلى درجة الوقوع على ما يبدو تحت تأثير أقرانه من تلك العائلة، وبهذا الصدد يروي دوزي قصة مثيرة للفضول. لكن دوزي أغفل النسب القوطي لبني إسحاق الذين ورد أنهم من أصل مسيحي، ولأنه من المحتمل أن عبد الرحمن اعترف به كأحد أبناء أخواله، فقد وُصف أحمد بن إسحاق، بطل القصة، بأنه «سليل الأمراء»

(1) إن صمت الكتاب الثثة وخصوصاً منهم ابن حبان بشأن مولد ونشأة أعظم خلفاء الأمويين في إسبانيا ملفت جداً إلى الدرجة التي لا يمكن معها اعتباره عرضياً.

(2) Conde, i. 359 - 60.

(3) Dozy, G. der M., i. 458 - 9.

يضيف دوزي أنه في هذا الوقت كان الإسلام قد انحسر تقريباً في سلسلة الجبال التي كان يسيطر عليها ابن حفصون، وهناك دلائل أخرى على أن المسيحية كانت أقوى انتشاراً مما يُعتقد عموماً في كل جنوب غرب الأندلس.

(4) من ذرية إسحاق ابن الأميرة سارة من زوجها الأول.

مفترضاً أنه لكونه أحد أقرباء الخليفة فلا بد أن يكون فرداً من العائلة الأموية الحاكمة. لقد كانت صلة القرابة بالطّبع من جهة والدّة عبد الرحمن المسيحية مارتياً، واستحق أحمد بن إسحاق نسبه الملكي من ناحية أجداده القوط وليس من بني أميّة. ويبدو عليه أنه حتى سنة 937، وهو تاريخ حصول الواقعة التي استرد لاحقاً، كان لا يزال معترفاً بالنسب الملكي لذريّة سارة، لأننا لا يمكن أن نفترض أن يطلق دوزي لقب «سليل الأمراء» على أحد إن لم يجد أساساً لذلك لدى الكاتب الذي نقل عنه.

ففي عام 915 أو 916، عيّن عبد الرحمن كبير بني إسحاق وزيراً، ثم نجد أحمد بن إسحاق، ابن الوزير (المتوفى عندما حصلت الواقعة) قائداً للخيالة في الحملة على القبائل المسيحية في الشمال، وحاكماً للمناطق الحدودية الشمالية، ومكلفاً بمحاصرة سرّقسطة (كان واليها [محمّد بن هاشم] التجيبي قد ثار وتعامل مع ملك ليون)، في حين عيّن أخوه أميّة حاكماً على شترين. يقول لنا دوزي إنه في عام 937 بلغت الجراة من أحمد بن إسحاق مبلغاً دفعه إلى أن يطلب من الخليفة أمير المؤمنين تعيينه ولياً للعهد، ثم نجد أنه أعدم بعد وقت قصير، بعد انكشاف أمره في تدبير المكائد بهدف تحقيق مطامعه. يورد دوزي ترجمة طويلة لخطاب كتبه عبد الرحمن إلى أحمد رداً على طلبه تعيينه ولياً للعهد، وهو يكتسب أهميّة كونه يلقي الضوء على عادات تلك الأيام.

يبدو أن أحمد أثار غضب عبد الرحمن قبل ذلك بفترة قصيرة من خلال رغبته في استخدام القوة في الحصار على سرّقسطة.

وجاء في الخطاب الذي كتبه عبد الرحمن:

«أما بعد فإننا كنا نرى الاستحمام إليك استصلاحاً لك، فأبى الطّبع الغريزي إلا ما استحکم منه فيك.. إلا أن استحوذ عليك الفقر يصلحك، والغنى يُطغيك، إذ لم تكن عرفته ولا تعودته، أوليس كان أبوك فارساً من فرسان ابن حجاج، أحسهم حالاً عنده، وأنت يومئذ نخاس الحمير بإشيلية، فأقبلتم إلينا، فأويناكم ونصرناكم، وشرّفناك ومولناك، واستوزرنا أباك، وقلدناك أعنة الخيل أجمع، وفوضنا إليك أمر ثغرنا الأعظم، فتهاونت بالتّنفيد لنا وقلة المبالاة بنا، ثم مع هذا: التّرشّح للخلافة، فبأيّ حسّب أو أيّ نسب!

وفيكُم قال القائل:

أنتم عُشَّار الخُشَّار وليس عُشْرُ كَخَيْشِ
إن كنتم من قُرَيْشِ تزوجوا في قُرَيْشِ
أو كنتم قبْطَ مِصرِ فلما التَّمَطَّطِي لا يَشِ

أليست كانت أمك حمدونة الساحرة، وأبوك المجذوم، وجدك بواب حوثة بن عباس، يفتلُ الجبال في أسطوانة، ويخيط الخلفاء على باب داره، فلعنك الله ولعن من أنشبا في الاستخدام بك، فيا مأبون ويا مجذوم، ويا ابن الكلب والكلبة، أقبل صاغراً⁽¹⁾.

بعد هذه الرسالة شديدة اللهجة، بدأ أحمد وأخوه أمية بتدبير مكيدة غرضها التحالف مع رُذَير (راميرو) ملك ليون، بهدف الإطاحة بعبد الرحمن وتسليم إسبانيا إلى الخلفاء الفاطميين الحاكمين على مصر. ما إن اكتشف عبد الرحمن المكيدة، حتى نفى أحمد من بلاطه، ثم سُجن لأنه واصل التآمر عليه، وحوكم وأدين لكونه من الشيعة، أو استناداً إلى رواية أخرى لارتكابه «جرماً» ضد الحق العام⁽²⁾.

أيا كانت حقيقة الأمر، فقد اختفى أحمد الآن من التاريخ، وعلينا أن نتبع مصير تلك العائلة فيما حدث لأخيه أمية.

«ما إن سمع أمية بن إسحاق بما وقع من أمر أخيه حتى غادر شترين⁽³⁾ وهرب مع ثلثة من أتباعه إلى بلاط رُذَير الثاني، ملك الجلائفة، وانضمَّ إليه ودلَّ جيشه على عورات المسلمين على حدودهم، وممراتهم، وطرق العبور التي يمكن من خلالها مهاجمة أرض الإسلام. مع ذلك، وفي يوم كان أمية، الذي كان محكماً سيطرته طوال الوقت على شترين، يمارس هواية الصيد، انتفض أحد أجرائه الذي كان قد كلَّفه بحماية الحصن، واستحكم بالموقع، وأغلق البوابات دون أمية، وأرسل رسولاً إلى

(1) النص العربي مقتبس من «أخبار مجموعة»، ص 138 - 139. ويورد كاتب أخبار مجموعة أن اسم أحمد هو: أحمد بن إسحاق القرشي. (م)

(2) Dozy, G. *der M.*, ii. 34 - 6; Makkari, ii. 136.

(3) شترين Santarém (تُلفظ: سانتارين) مدينة ومحافظة في غربي البرتغال (أحمد).

عبد الرحمن يطلعه على ما كان منه، بينما فرّ أمية مجدداً إلى حليفه ملك جليقية الذي استقبله أحسن استقبال وعيَّته وزيراً. وكان هذا سبب غزوة عبد الرحمن⁽¹⁾.

يبدو أنّ هناك خطأ ما، فأمية ما كان بوسعه أن يتحرك جيئة وذهاباً بين شتريين وبلاط رُذمير في ليون، كما توحى الرواية. وربما لم يذهب إلى هناك على الإطلاق إلى أن تمكن فريق عبد الرحمن، من خلال تدبير خطة عسكرية محكمة، من إغلاق المدينة دونه.

الحدث الثاني في الرواية يتعلق بمعركة سمورة⁽²⁾. ويقول المقرئ «إن عبد الرحمن غزا في أزيد من مئة ألف من الناس، فنزل على دار مملكة الجلالقة، وهي مدينة سمورة». وعندما حاصر عبد الرحمن سمورة هب رُذمير (راميرو الثاني) لنجدها وعسكر في الجوار. «وكانت الواقعة بينه وبين رُذمير ملك الجلالقة في شوال سنة 327 (يوليو أو أغسطس، 939 م) بعد الكسوف الذي كان في هذا الشهر بثلاثة أيام، فكانت للمسلمين عليهم، ثم ثابوا بعد أن حوصروا وأُلجئوا إلى المدينة»، ونفذت حامية سمورة هجوماً مباغتاً، لكن المحاصرين لاحقوهم بسيوفهم، وعبروا الخندق وصاروا داخل أسوار المدينة. وفي حين كان المسلمون يستعدّون للتقدّم، فاجأهم التّصاري «فقتلوا من المسلمين بعد أن عبروا الخندق خمسين ألفاً»⁽³⁾.

كان على مدينة سمورة «سبعة أسوار من أعجب البنيان قد أحكمه الملوك السالفة، وبين الأسوار فصيلان وخنادق ومياه واسعة»⁽⁴⁾، وافتتح (المسلمون) منها سورين» وعندما

(1) Makkari, ii. 136.

(2) يشير إليها المقرئ باسم غزوة الخندق، ج 1، ص 353 - 354. (م)

(3) النص العربي المقتبس من «نفع الطيّب»، المقرئ، ج 1، ص 354 - 355. (م)
يقول غايانغوس إن هذه المعركة جرت في سيمانكاس، في 19 يوليو 939 م. (Makkari, ii.).
463. كما ورد في السجلات العامة (Crónica general, viii. 220) أنها جرت في سيمانكاس في سنة 938 م.

(4) يضيف غايانغوس كلمة «الجلالقة» بعد كلمة «الملوك السالفة» في النص، لكن هذا يفترض أنه من تخمينه.

كان ألفونسو الثالث ملك ليون قد احتل سمورة قبل ذلك بعدة سنوات، وفي عام 893 قام وفقاً لابن حيان، بإعادة بنائها وأسكانها وإصلاح تحصيناتها، وكان المهندسون الذين استعان بهم من طلبلة.

وصلوا إلى الثالث، هاجمهم النصاري من كل جنب بكل عزم، «فقتلوا ممن أدركهم الإحصاء ومن عُرف أربعين ألفاً، وقيل خمسين ألفاً»، ثم إغراقهم في الخنادق. «كانت تلك شر هزيمة مني بها أخواننا في الأندلس، سواء من الجلالة أو الباسك، وكان النصر سيكون أكمل لو أنَّ الملك رُدْمِير طارد ما تبقى من جيش عبد الرحمن، الذين ما كان سيواجه صعوبة في القضاء عليهم، لما استحوذ عليهم من دعر».

«وقيل: إنَّ الذي منع رُدْمِير من طلب من نجا من المسلمين أُمَيَّةُ بن إسحاق، وخوَّفه الكمين، ورغَّبه فيما كان في عسكر المسلمين من الأموال والعدة والخزائن، ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين...»⁽¹⁾.

يورد كوندِه، الذي يحدّد تاريخ الحصار في سنة 938، متفقاً بذلك مع «الحواليات العامة» *Crónica general*، سرداً مطوّلاً للمعارك يتفق في جوهره مع رواية المقرّي⁽²⁾. والوقائع الوحيدة المهمة الإضافية في روايته تفيد بأنَّ المُطَرِّف قاد طلائع قوات المسلمين، وأنَّ أُمَيَّة بن إسحاق وأتباعه كانوا يرتدون دروعاً مصفحة مثل النصاري⁽³⁾.

قد يكون العنصر الأهم في هذه القضية الأثر الضئيل الذي تركته على مشاعر عبد

كانت طليطلة في ذلك الوقت، بصورة متكررة، إن لم يكن مستمرة، تحت سيطرة عُمر بن حفصون، وهذا ما يجعل ألفونسو قادراً على إحضار مهندسين من مدينة يفترض أن تكون خاضعة بالاسم لقرطبة. (Makkari, ii. 453; Conde, i. 319, 342) لقد رأينا حصناً قديماً في الأندلس إعيد بناؤه في القرن الرابع عشر وتم ترميمه مؤخراً على المخطوط القديمة، مع خندقين جافين، الواحد فوق الآخر، وتوجد في قلعة بطليوس ثلاثة من هذه الخنادق، لا يزال الأدنى بينها يحتوي على منافذ للمياه التي كانت تساق إليه متابات اليوم خزان المدينة. نعتقد أنَّ نظام التحصينات هذا وجد قبل الفتح الإسلامي. فلو كانت سمورة محصنة بستة من هذه الخنادق الجافة، التي يعلو الواحد منها فوق الآخر، والتي تحميها المياه في الخندق الأدنى من بينها، يسهل علينا أن نفهم أنَّ المسلمين وجدوا أنفسهم تحت رحمة المسيحيين عندما تجاوزوا التحصينات الخارجية فاستقبلهم المحاصرون برميهم من استحكاماتهم العلوية خلف شرفات الخنادق المتعاقبة الجافة.

(1) Makkari, ii, 136 – 7.

(2) Conde, i. 419 – 24.

(3) نقل المقرّي وكوندِه روايتهما للحصار عن المسعودي الذي كتب في مصر وتوفي في حوالي عام 946 أو 947.

الرحمن وعطفه تجاه أقربائه من بني إسحاق. هناك اتفاق عموماً على أنّ مهارات أُمّية بن إسحاق العسكرية وحدها هي التي مكّنت رُذمير من الصمود أمام الخليفة: ولكن «أُمّية استأمن بعد ذلك إلى عبد الرحمن»، وترك بلاط رُذمير، وتوجّه بكل ثقة إلى قُرطبة حيث «قبله عبد الرحمن أحسن قبول»⁽¹⁾.

ويضيف كوندّه بعض التفاصيل، بقوله إنّ عودة أُمّية إلى طاعة الأمير حصل بعد ذلك بسنة، أي في عام 940، بعد غزوة أخرى انتهت بسقوط سمورة وحصن شنت استيبين (سان إستيبان دي غورماث San Esteban de Gormaz)⁽²⁾ بأيدي المسلمين. اختلف أُمّية بن إسحاق مع رُذمير الذي فقد الثقة به (وهو ربما ليس مفاجئاً)، فخطب عبد الرحمن طالباً منه أن يعيده إلى خدمته، معتذراً عن سلوكه السابق قائلاً إنه انقاد وراء الدّفاع عن شرفه ثاراً لمقتل أخيه.

وكتب كوندّه يقول إنّ أُمّية «بات الآن مقتنعاً بأن أحمد لم يُقتل ظُلماً، وتوسّل أن يُتاح له تقديم خدماته ليثبت ولاءه ويبرهن على أنه مسلم صالح. ولم يقبل عبد الرحمن اعتذاره فحسب، بل أعاده إلى خدمته وأعاد له مكانته كوزير وقائد للجيش على الثّغور»⁽³⁾.

كان فرد آخر من بني إسحاق، هو يحيى بن إسحاق، أحد أطباء عبد الرحمن. كان ماهراً وضياعاً في علوم العقاقير، عينه عبد الرحمن وزيراً وحكّمه على بطليوس. ويضيف ابن أبي أصيبعة الذي أورد هذه التفاصيل أنّ أباه كان نصرانياً⁽⁴⁾.

ومن سلالة الأميرة سارة متّن أبدى عبد الرحمن تجاههم عطفاً خاصاً إسماعيل بن بدر بن سعيد المكنى أبا بكر والذي جعله والياً على إشبيلية في حوالي سنة 940. كانت عائلة أبي بكر من المولّدين، وأول من برز منهم زدلف الذي كان أبوه نصرانياً. كان ذلك

(1) Makkari, ii. 137.

(2) يبرز هذا الحصن بقلعته وأبراجه العربية رائعاً بين المناظر الطّبيعية على طريق السّكة الحديدية بين فالادوليد Valladolid (بلد الوليد) وأريثا Ariza.

(3) Conde, i. 429 – 30.

(4) Makkari, i. 187, 464.

يحيى بن زدلف الذي بنى حصناً منيعاً ذا بوابات حديدية في شتيرية الغرب، في إقليم أكشونية. وفوض إلى ابنه بكر حُكم مدينة شلب في الغرب، ولكنه واصل مع ذلك مساندة المسيحيين والمولدين حتى وفاته في بداية حكم عبد الرحمن الثالث⁽¹⁾. كان بنو سعيد الأحفاد المباشرين لابن سارة الأوحد من زوجها الثاني، جلاب أو حبيب بن عُمير بن سعيد، مثلهم مثل بني حجاج وبني مسلمة وبني جُرج. ولا بد أن تسري دماء ملوك القوط في دماء قریش Karis بن عباد بن سعيد اللخمي إمام جامع إشبيلية الكبير، والجد الأكبر لسلالة بني عباد أصحاب إشبيلية ذاتي الصيت، رغم أن أياً من الكتاب الشنة لم يلمح إلى ذلك.

ويبدو أنه لا مجال للشك في أن انتساب هذه العائلة للملوك القوط هو أحد الأسباب التي جعلت هذه السلالة ذات النسب المختلط تحتل مكانة عالية في نظر عبد الرحمن، بصرف النظر عن الصلة التي تربط أمه بهم. وقد يكون بوسعنا أن نؤكد دون تردد أن العلاقة الشخصية التي ربطتهم بابن أمير بني أمية الذي توفي وهو يقود جيش إشبيلية وزوجته القوطية المسيحية التي تزوجها في إشبيلية، كانت السبب الحقيقي وراء تلاشي العداء التي كان يكتنها اليمانيون والمولدون تجاه الحكم في قرطبة، عندما اعتلى ابن محمد وماريًا، حفيد النصراني إنيقا، عرش أعداء بني جلدتهم⁽²⁾.



(1) كان ما يسمى «تفويض» منصب الحاكم في العديد من الحالات التعبير الملطف لأمراء قرطبة الشنة للاستحواذ على الحكم بالوراثة أو بقوة السلاح من جانب خصومهم اليمانيين أو المولدين. ولقد كان الأمر كذلك على وجه التأكيد في حالة بني سعيد، لأننا نجدهم هناك جيلاً بعد جيل، وباستمرار في معارضة الحكام الشنة.

(2) Conde, i. 425; Makkari, ii. 250, 440, 503; Al - Kuttiyyah in j.A.



الباب الغربي لكنيسة سان خوان دي لا پالما. بناؤه مُستعربي في الأصل : يقول نقش لا يزال موجوداً إن السيدة الكبرى اعتماد زوجة المُعتمد بن عباد أضافته في عام 1086 من أجل ابنها الرّشيد قاضي إشبيلية الذي يقع ديوان قصره قبالة مع طابق علوي أضيف في القرن السابع عشر.

الفصل التاسع

الأمراء الذين خلفوا عبد الرحمن الثالث

يلخص المقرئ طباع عبد الرحمن بقوله:

«قال مؤرخو ذلك الزمان إنه ما عرفت الدنيا نموذجاً من الحكام يماثله أو يشابهه في رقة طبعه وسعة علمه. ضُرب المثل بدمائته ولين عريكته وكرمه وحبّه للإصلاح والعدل. فاق كل أسلافه في شجاعته في المنازلة، وفي خشوعه وخشية الله، وغيرها من الفضائل التي جعلت منه حاكماً كفوءاً محبوباً من رعاياه. كان محباً للعلم وراعياً مكرماً للعلماء، فكان يحب أن يحادثهم ويجالسهم، ويصرف تلك الساعات التي يختلسها من شاق عمله في إدارة ملكه في المجالس الأدبية التي كان يحضرها كل من برّ من الشعراء والعلماء في بلاطه. وتحفل تلك الفترة بقصص عن حبّه للعدل وتقديره لأهل العلم»⁽¹⁾.

من الواضح أن عبد الرحمن كان حاكماً اجتمعت فيه أنبل صفات المسيحيين والمسلمين. وهذا وحده كافٍ لكي يفتن حكمه بأروع آيات المجد، ولكي ينجح في

(1) Makkari, ii. 147.

نقل المقرئ عن القاضي منذر بن سعيد البلوطي، قوله في عبد الرحمن الثالث: «رفض الدعة وهي محبوبة، وترك الزكون إلى الراحة وهي مطلوبة، بطوية صحيحة وعزيمة صريحة وبصيرة ثابتة نافذة ناقبة وريح هابّة غالبية ونصرة من الله واجبة، وسلطان قاهر وجَدّ ظاهر، وسيف منصور تحت عدل مشهور، متحملاً للتصّب، مستقلاً لما ناله في جانب الله من التعب، حتى لانت الأحوال بعد شدتها وانكسرت شوكة الفتنة عند حدثها، ولم يبق لها غارب إلا جبة، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات...» ج 1، ص 368. (م)

إحلال السلام داخل حدود بلد تنازعه الفتن بين أتباع الديانات المتعارضة. ليس ضرورياً البحث عن تفسير لاضمحلال روح القتال، وتراجع العداوة التاجمة عن العصبية القبلية. فالوحدة التي حققها هذا الحاكم العظيم عائدة لأسباب شخصية. ولقد استمرت طوال فترة ولاية ابنه على العرش وإدارته لشؤون الحكم على خطى أبيه مسترشداً بسياسة أساسها العدل والسخاء، وفي ظل حاجب قوي حكم باسم حفيده. ولكن العداوة القديمة المتعذر إخمادها اشتعلت مجدداً عندما انزاحت تلك اليد الضابطة، واضطربت بضراوة أكبر من أي وقت مضى بعد ذلك بخمسين عاماً، ولم تهدأ حتى عندما قُطعت أوصال الأمبراطورية التي بناها عبد الرحمن فوق ما بدا أنه أساس متين.

كان ابنه الحَكَم المستنصر بالله، الذي تولى الحكم بعده شبيهاً به، أميراً حكيماً وعاقلاً ومتنوراً، عادلاً وكرماً ومتبصراً. جعله التزامه الصارم بفروض الدين وتطبيقه لتعاليم الشريعة يحظى بتأييد الفقهاء المتشددین، في حين أسهمت سعة معرفته وولعه بالأدب، بالإضافة إلى نسبه، في اكتسابه تقدير أهل العلم اليمانيين الذين ازدهرت العلوم الأدبية بين كبرى عائلاتهم منذ فترة طويلة. لقد تفرق الحَكَم على كل من سبقه من الحكام الأندلسيين في حبه للعلم وتكريمه للعلماء، ويقال إنه «جمع من الكتب ما لا يحصى ولا يوصف كثرة ونفاسة» وإنه «أقام للعلماء سوقاً نافقة» وكان يرسل تجاراً لشراء الكتب من كل الأقطار المسلمة وبيعها فيها، فاجتمعت في الأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا بعده. لقد ركز المؤرخون العرب في الحقيقة كثيراً على هذا الجانب من حكمه بحيث أننا كان يمكن أن نشكك في وجود رغبة لصرف الانتباه عن صفات أخرى أقل استحفاً للثناء، لو أننا لم ننتبه أنه نجح في تسيير شؤون البلاد وإشاعة الطمأنينة والازدهار، فاقصرت حملاته العسكرية على صد هجمات مسيحيي الشمال.

لا بل إنه نجح في إبرام عقود صلح مع هؤلاء المسيحيين استمرت فترات طويلة من حكمه، فكان يستقبل الوفود والسفراء من ملوك جليقية وقشتالة ونافار وبرشلونة وطركونة، ويُرهن في كل عمل يأتيه أنه، مثل أبيه، يفضل التفاوض على القوة.

ويظهر حسه التسليم في موقفه من شرب الخمر الذي كان قد أصبح شائعاً في

الأندلس، بسبب تسامح أو تفاضي الأمراء السابقين، كما يقول المقرئ. وربما كان الهدف من هذه الملاحظة الإشارة إلى تعاطف عبد الرحمن الثالث مع اليمانيين الذين لم يتظاهروا قط بالتزامهم بتعاليم الشئنة في هذا الأمر، ولا في مجال تحريم تصوير أو نحت الحيوانات والأشخاص.

والأمر على هذه الحال، رغب الحكم في إبطال التبيذ في مملكته ووقف انتشاره ومضاره، ولهذا أمر باستئصال شجر العنب من كل أنحاء المملكة. ولكن المقرئ قال إن واحداً من أعقل مستشاريه شرح له أن مثل هذه العمل سيضر بمصالح زارعي الكرمة، وكانوا من الفقراء. وقال له أيضاً إن من اعتادوا على شرب الخمر يمكن أن يشتروها من بلاد التصاري - حيث لا يوجد تحريم لشرب الخمرة والإدمان عليها - أو يقوموا بصنعها من التين أو غيرها من الفاكهة التي يمكن استخراج الكحول منها. وبعد أن اقتنع الحكم منطقياً وبعد تفكير بأن تصرفه لن يكون ظالماً فحسب وإنما غير عملي، قرر إلغاء الأمر، وسمح بزراعة ما يكفي من دوالي العنب لتأمين احتياجات البلاد سواء من العنب المقطوف الطازج أو الزبيب، وصنع عصير العنب وغيرها من المشروبات المفيدة التي يجيزها الشرع⁽¹⁾.

يورد كوندية تفاصيل أخرى لشرح أسباب هذا القرار. «بسبب العادات السيئة والانحراف عن المقبول التي حملها إلى إسبانيا أهل العراق وغيرهم من الداخلين عليها، بات شرب الخمرة حراً ويعتبر مشروعاً بحيث أن عامة الناس وحتى الفقهاء كانوا يشربونها، وكان مسموحاً شربها في الأعراس وغيرها من المناسبات بحرية فاضحة. جمع الخليفة الحكم الذي كان ورعاً وعفيفاً وعالماً بتفسير القرآن، العلماء والفقهاء وسألهم عن سبب انتشار «المفاسد» في إسبانيا حيث لم تكن تنتشر فقط الخمرة الحمراء الكمينيت *ghamat* وإنما البيضاء أو الصهباء *sabha* كذلك، والتبيذ *nebid* المصنوع من التمر والتين وغيرها من المشروبات القوية المسكرة. فأجابه الفقهاء والعلماء أنه منذ عهد الأمير محمد بات مقبولا الرأي القائل بأن مسلمي إسبانيا

(1) Makkari, ii. 171.

يمكنهم شرب الخمر طالما أنهم في حرب دائمة مع أعداء الإسلام، لأن الخمر يقوي بأس الجند ويشد من عزيمتهم في ميدان المعركة، وهكذا بات استخدامه على الحدود والثغور مشروعاً بهدف تعزيز الروح القتالية. رفض الأمير هذه الآراء، ويسبب بغضه للخمر أمر باقتلاع كل دوالي العنب في إسبانيا، ما عدا الثلث الذي سمح ببقائه للأسباب الواردة آنفاً⁽¹⁾.

كان من الطبيعي في عهد حاكم يمثل معرفته وسعة علمه أن يرعى الحكم المستنصر بالله كتاباً ذاعت شهرتهم ومن بينهم العديد من اليمانيين والمولدين. يسرد كوندّه نوادر تلقي بعض الضوء على العادات والتقاليد السائدة في ذلك الوقت، والتي لم يعرف عنها الكثير.

ومن تلك النوادر أن «عالمأ يدعى ابن سفران الشيباني⁽²⁾ كان يعيش في قرطبة على ضفة النهر قرب التبع، وفي يوم فوجيء القاضي الذي كان ماراً بجانب بيته على فرسه بعاصفة ممطرة، فتوقف واقتاد حصانه الى فناء⁽³⁾ منزل الشيباني الذي خرج وألح على القاضي كي يترجل عن حصانه ويدخل. وبعد أن جلس الضيف على مقعد أكارم الضيوف وتبادل الرجلان المجاملات، قال الشيباني:

لديّ في بيتي فتاة من هذه المدينة، لديها أجمل صوت سمعته أذن إنسان. إن كان يسرك يمكن أن تنشّد آيات من كتاب الله، أو بعض الأبيات.

(1) Conde, i. 465 - 6.

(2) لم تتمكن من العثور على أي ذكر آخر لهذا الرجل في أي مكان آخر، وليس لدينا سوى اسمه كما نقله كوندّه (Ibn Safaran El Xeibani). قلت: وما أكثر ما ينقل كوندّه عن مخطوطات بادت ونبتى في حيرة مما ينقله ويترجمه عنها، وخاصة أن أهم كتبه قد طبعت بعد وفاته عام 1820، وزاد محرّرها في أغلاطها ومعتمياتها. (أحمد)

(3) الفناء patio هو الباحة المفتوحة التي كانت تبني حولها المنازل في الأندلس. الأرجح أن القاضي لم يدخل إلى الفناء وإنما إلى مدخل البيت الذي يطلق عليه اليوم اسم الأسطوان za-guan، ويكون مفتوحاً على الشارع خلال النهار، وحيث يمكن للعابرين أن يحتموا. ويكون مدخل الفناء عادة مغلقاً ببوابة حديدية.

أجابه القاضي: «لا بدّ آتي جثت في ساعة سعد».

«ظهرت الفتاة، فكانت أجمل من وقعت عليه عينا بشر. طلب منها الشّيباني أن تقرأ، ثم غنّت عدّة أبيات. فسّر القاضي سروراً عظيماً، ودون أن يراه أحد، أخرج كيساً ووضعته تحت مقعده. عندما توقف المطر، شكر الشّيباني وغادر. رافقه الشّيباني لوداعه، وعندما عاد وجد الكيس وبه عشرون قطعة ذهب تحت مجلس أكارم الضّيوف»⁽¹⁾.

ويحكى عن أحمد بن سعيد الأنصاري الطّليطلي⁽²⁾، وهو فقيه واسع العلم من طّليطلة، واسع الثّراء جليل، أنه «كان يجمع في منزله ما يربو على أربعين من أصحابه المولعين بالآداب، ليس من طّليطلة وحدها، ولكن كذلك من قلعة رباح⁽³⁾ Calatrava وغيرها. ففي أشهر نوفمبر وديسمبر ويناير كانوا يلتقون في قاعة فسيحة أرضها مفروشة بالسّجاد والوسائد المصنوعة من الحرير والصّوف، وجدرانها مكسوّة بالخضر المشغولة والمزخرفة والسّتائر المطرّزة. وفي وسط الغرفة كانون واسع مستدير بارتفاع رجل مُلئ بالفحم المشتعل، يجلس الجميع حوله على مسافة تريحهم. وفي حين كانوا يقرأون آيات من القرآن أو ينشدون أبياتاً ويناقشونها، كانوا يطّيبون بالمسك وغيره

(1) نقلت هذه القصة عن «القاضي خوناس Kadi Jonás» الذي يبدو من اسمه أنه كان نصرانياً. قلت: ليس بالضرورة، فمن الممكن أن يكون كونه قد قوبل الاسم عند ترجمته إلى الإسبانية من يونس إلى خوناس. وهذا بالضبط كما جرى للاسم العبري الأصلي (يونا) عندما تمّت قوليته إلى اليونانية (يونا)، على اعتبار أنّ الاسم المذكّر المفرد المرفوع بهذه اللغة ينتهي بسين حكماً. (أحمد)

(2) كان الأنصار يمانيين استقروا في القرن الثامن في مختلف أنحاء الأندلس وكان عددهم كبيراً في طّليطلة ونواحيها (Makkari, ii. 25). ومن هذه القبيلة تفرّعت سلالة بني نصر الشهيرة التي حكمت غرناطة في القرن الثالث عشر.

قلت: لكنّ المعروف والمشتهر أنّ نسب بني نصر يعود إلى قبيلة الخزرج، وليس إلى الأنصار. لكنّ في تاريخ كونه بالإسبانية ترد كتي بني الأحمر حكّام غرناطة: El Ansari ولعلّه ترجمها هكذا بالغلط بدلاً من: النّصري؟ انظر الجزء الثالث من تاريخ كونه الذي نشرناه مؤخراً. (أحمد)

(3) ناحية أخرى معظم سكانها من العائلات العربية من اليمن وقبيلة جُذام.

من الرّوائح الزّكية، ويُرشّ عليهم ماء الورد. ثم تقدّم إليهم مائدة عامرة بلحم الجديان أو الخراف النّدي، ومختلف الأطباق المطبوخة بزيت الزّيتون، ثم يتبعها اللّبن الرّائب وقشدة الحليب، والزّبد وأصناف الحلويات والتمر وغيرها من الفاكهة. وخلال أيام الشّتاء القصيرة كانوا يمضون معظم اليوم قرب المائدة. وكانت هذه اللقاءات تستمرّ حتى نهاية يناير وتكرّر كل سنة. لم يكن في المدينة من هو أحسن ضيافة من هذا الفقيه وإن كان فيها أثرياء غيره. عيّنه الملك كبير قضاة المدينة، فنسب قاضي النّاحية نفسها بقتله حسداً وغيره. دخل القاتل إلى منزله حيث كان معروفاً ووجد ابن سعيد يقرأ المصحف. قال له ابن سعيد:

«أعرف لماذا أتيت. افعل ما أمرت به. سبحانه الله الذي في السّماوات، لا يخفى عليه شيء، يرى ويبصر كل شيء وهو بكل شيء عليم».

فخنقه القاتل وزعم أنه مات ميتة طبيعية⁽¹⁾.

ظلت العداوة خامدة بين اليمانيين والشّوام خلال ولاية الحَكَم المستنصر بالله، ويبدو أنّ الحَكَم بذل كل ما في وسعه لكي يظهر المقدار نفسه من التعاطف مع أبناء السّلاطين، فرغم أنّ العرب المُضَرّيّة كانوا كثيرين في قُرطبة، فمن أبرز العلماء الذين استقدمهم لتعليم ابنه الوحيد، الذي عُرف لاحقاً باسم هشام الثّاني، أبو بكر محمّد بن الحسن الزّبيدي، وهو من عائلة يمانية معروفة في إشبيلية. كان علامة عصره في النّحو واللغة، وقد كلفه الخليفة بتدريس الأمير الصّغير اللغة العربية وعلومها. عيّنه الحَكَم «صاحباً للشرطة» في قُرطبة، وعندما تولّى هشام الثّاني الحَكَم قام بنفسه، أو كلف حاجبه (رئيس الوزراء) بتعيين الزّبيدي قاضياً على إشبيلية، ومنحه ألقاباً رفيعة أخرى⁽²⁾.

كان الحَكَم يحب السّلام، فلم يترك حيلة أو وسيلة لعقد السّلم والحفاظ عليه مع النّصارى خلال القسم الأكبر من ولايته، على الرّغم من استعداد بعض الولاة له في

(1) Conde, i. 483 – 5.

(2) Conde, i. 485 – 6; Pons, p. 90.

المدن الحدودية، على الثغور. يقال إن الدروس التي أعطاه لابنه هشام كانت دائماً تختتم بهذه الكلمات:

«لا تخرج للغزو بغير ضرورة، واحفظ السلم فيه هناؤك وهناء شعبك، ولا تستل سيفك إلا في وجه الظالم. فأية متعة في غزو المدن وهدمها، وتخريب الدول ونشر الخراب والموت في حدود الأرض؟ احفظ رعيك في سلم وفي عدل ولا يغرّنك قول زائف مغرور، وليكن عدلك مثل بحيرة صافية نقياً على الدوام، واعتدل فيما يصبو إليه خيالك، واكتم شهواتك، وليكن اتكالك على الله العليّ القدير، فتصفو سريرتك وتلقى ربك راضياً متى حان أجلك»⁽¹⁾.

تميّزت هذه الفترة من تاريخ إسبانيا المسلمة بازدهار وثراء طائل، ورغم أن جزءاً من هذه الثروة كان مصدره مناجم الذهب والفضة⁽²⁾، وإلى حد ما الحجارة الكريمة، فإن المنتجات الزراعية كانت المصدر الرئيسي لازدهار البلاد وثرواتها. وجرى خلال عهد الحكم تطوير أنظمة الري الرائعة التي لا تزال نرى آثارها إلى اليوم، في تلال غرناطة ومرسية وبلنسية وآراغون، حيث تم بناء خزانات للمياه لهذا الغرض، وزُرعت كل أنواع الفاكهة والخضار الملائمة لمناخ المنطقة. وأنفق الحكم أموالاً طائلة على بناء المساجد والمساكن للفقراء والمستشفيات والمدارس كما أضاف الحمامات والتزل والتوافير والأسواق في الكثير من المدن التابعة له⁽³⁾.

قبل سنتين من وفاته، رقى الحكم المستنصر بالله قاضي قرطبة اليماني محمد بن أبي عامر واستوزره، ممّا أثار كما يتضح استياء المؤرخين الشّنة الذين كرس بعضهم - ابن حيان على سبيل المثال - حيزاً كبيراً لما قالوا إنها مكائد دبّرها الوزير «للاستبداد» بالسلطة، بحيث كانوا بالكاد قادرين على تقديره كرجل دولة متميّز.

كان محمد بن أبي عامر «من رجال اليمينية من قبيلة معافر، دخل جده عبد الملك

(1) Conde, i. 486.

(2) ربما كان الذهب يُجمع من بعض الأنهر، فلا وجود لمناجم ذهب معروفة في إسبانيا.

(3) Makkari, ii. 172; Conde i. 487.

إلى الأندلس مع طارق بن زياد، وكان عظيماً في قومه، وكان له في الفتح أثر، واشتهر ابن أبي عامر لاحقاً باسم «المنصور» في العالم قاطبة.

يؤكد المقرئ أن محمد بن أبي عامر، أو المنصور وهو الاسم الذي اشتهر به، حصل على ألقابه وارتقى إلى مقامه في بلاط قُرطبة بفضل خدمة أداها إلى السيدة صُبح أم الأمير هشام المؤيد التي «استحسنته وبتت عليه الحكم ورغبت في تشريفه بالخدمة، فولاه قضاء بعض المواضع فظهرت منه نجابة، فترقى إلى الزكاة والموارث بإشيلية وتمكن في قلب السيدة بما استمالها به من التحف والخدمة ما لم يتمكن لغيره»⁽¹⁾. إن ضعف احتمال أن يهدي رجل شرقي غيور عطقاً على شاب وسيم جمعته بزوجه صلة حميمة غير مقبولة، واضح جداً بحيث أنه لا يستوجب التعليق. كما أنه ليست هناك حاجة لإضاعة الوقت على فرضية الكاتب نفسه بأن موهبة المنصور في التنجيم وقراءة الطالع كانت من الأسباب الرئيسية التي جعلته يكتسب حظوة لدى الخليفة. فالحكم، وهو رجل ذكي وحاذق، كان قادراً من تلقاء نفسه على أن يتوسم قدرات الشاب اليمني الاستثنائية الواعدة، ويمكن أن نفترض بأمان أنه رآه تدريجاً إلى مراتب رفيعة لأنه لم يجد شخصاً آخر أفضل منه للقيام بذلك.

كان هشام الثاني مجرد طفل عندما توفي والده، ولا شك أن الحكم قدر أنه لن يكتب لابنه الاحتفاظ بالخلافة ما لم يكن بجانبه رجل كفوء يتولى إدارة الحكم من بعده. ويقال في الواقع إن الموالين للخليفة وجدوا من الضروري التخلص من المُغيرة أخي المستنصر بالله، قبل مبايعة هشام لوجود فريق قوي في قُرطبة كانوا يفضلونه على الوريث الشرعي نظراً لسته وخبرته، وعلى الأرجح لأنه لم يكن يحابي اليمينين. ويُتهم المنصور بأنه قتل المُغيرة بيديه الاثنتين بعد يومين من وفاة الحكم، وبأنه من بعدها «سما لابن أبي عامر في التغلب على هشام لمكانه في السن، وثاب له برأي في الاستبداد، فمكر بأهل الدولة، وضرب بين رجالها، وقتل بعضاً ببعض»⁽²⁾. ويذكر المقرئ العديد من الأمثلة - التي تعجز عن توفير إدانة - عن مكره ووحشيته ليس

(1) Makkari, ii, 178.

والاقتباس العربي منقول عن المقرئ ج 1، ص 399. (م)

(2) المقرئ، ج 1، ص 396. (م)

إزاء الأفراد فحسب، وإنما عائلات بكاملها كان يشك في سعيها للتيل من «تسلطه» على هشام. ولكن يبدو واضحاً أنه كان على المنصور أن يواجه لبعض الوقت كل المعارضين لولاية هشام في البلاط، ولو أننا عرفنا وجهي القصة لوجدنا على الأرجح أنه كان لديه سبب وجيه بوصفه خادماً مخلصاً للعرش، لاتخاذ تدابير قاسية ضد من وصفهم ابن حيان بأنهم ضحايا أبرياء لما يعتمر في صدره من ضغينة لا أساس لها⁽¹⁾.

وبعد أن تخلص، كما يقول المقرئ، من كل من وقف في طريق خططه الطموحة، استبد المنصور بالحكم، «فتغلب على هشام وحجره، واستولى على الدولة (...)» وقعد على سرير الملك، وأمر أن يُحيّا بتحية الملوك، وتسمى بالحاجب المنصور، ونفذت الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة». ومحا المنصور رسوم وشارات الخلافة بالجملة، ولم يبق لهشام المؤيد سوى اسمه المسكوك على القطع النقدية والمشغول على حوافي الطرز، أو الملابس الملكية. ولكن الكاتب يقول كذلك إن المنصور ذهب إلى حد التنعم بهذه الميزات مع هشام لأنه أمر بكتابة اسمه «في الشبكة والطرز»⁽²⁾.

وأنهم المنصور ووالدة الخليفة الشاب أصبح⁽³⁾ بحجر هشام وحجبه داخل جناح

(1) Makkari, ii. 175 – 6, 183.

(2) *Ib*, 187.

يقول غايانغوس إنه رأى قطعاً معدنية نقش عليها اسم المنصور، وبعضها تحمل إضافة «الحاجب»، وبعضها دون تلك الإضافة. (المصدر نفسه ص. 477). قد تكون الطرز مجرد هدية من هشام لأنه لم يكن غير معتاد أن يهدي الخلفاء ملابس للاحتفالات الرسمية من خزائهم إلى من يرغبون في تزيينهم. وكان يمكن بسهولة أن يتم تضخيم الأمر من قبل أشخاص يكتنون العداء للحاجب وتصويره بوصفه تعدياً على الصلاحيات الملكية. ولكن بعد فترة غير طويلة، بات استخدام الطرز شائعاً بين النبلاء، إن لم يكن في الأصل رائجاً حينها.

(3) يُقال إن والدة هشام أصبح كانت أخت الخصي الصقلي فاتق رئيس حرس قصر الخليفة الذي شكّله عبد الرحمن الثالث، لكن يبدو الأمر موضع شك. (Makkari, ii. 175, 186, 477). تجدر الإشارة إلى أن المقرئ أورد في مكان آخر أن السيدة أصبح كانت من البشكنس، من مملكة نافار (نبرة) من بلاد الباسك. ج 1، ص 603. (م)

الحريم لأغراضهم الميَّنة، ومعاملته بوصفه ضعيف العقل، حتى بات أقرب إلى الغباء. ولكن عندما تذكّر الطفل الذي كان عليه عندما توفي والده في سنة 976 (يقول المقرئ إنه كان في التاسعة من عمره فقط) وعندما تأخذ في الاعتبار العديد من الإشارات إلى المكائد التي حيكت ضد توليه الحكم، نرى أن الحاجب وأمه الملكة كانت لديهما كل الأسباب التي تجعلهما يحرصان على إحاطته بحراسة دقيقة.

وينقل المقرئ عن ابن بتمام (الذي يتبع دوزي كذلك على ما يبدو روايته للأحداث التي أعقبت وفاة الحكم على الفور)⁽¹⁾ أن فائق وخصياً آخر من الصقالية تأمرا لإزاحة الطفل هشام وتولية عمّه المُغيرة على العرش. وزعم المصحفي، حاجب الخليفة المتوفى، أنه جزء من المؤامرة ثم أرسل على الفور المنصور مع عدد من الجند لقتل المُغيرة، وإحباط الخطة⁽²⁾. ويفترض هذا، في حال كان دقيقاً، أن ما نقله المقرئ عن وجود علاقة قريى ما بين أم هشام وفائق، رئيس الخصيان، ليس صحيحاً لأنه من الصعب أن يتأمر فائق لصالح رجل بالغ لإزاحة ابن اخته الطفل الذي يمكن أن يتوقع أن يحافظ خلال توليه صورياً للعهد، على سلطانه ويعززها.

يقول المقرئ إن المنصور طرد الحرس الصقالية من القصر إثر وفاة الحكم، وعين خلال فترة المكائد الطويلة التي أعقبت ذلك، قائداً شيعياً مولوداً في الحيّ الأندلسي في مدينة فاس، وعليه يُعرف باسم «الأندلسي» لتنفيذ خططه وإسكات المعارضين لسلطته⁽³⁾.

يورد كوندّه تفسيراً طبيعياً وأكثر إنسانية يتعلّق بحجب هشام في هذه الفترة، وتجدر الإشارة إلى أنه يقتبس، في أكثر من مكان في سرده لحكم هشام، عن المؤرخ اليميني ابن أبي الفياض الذي لم يطلع المقرئ ولا غايانغوس أو دوزي على مؤلفه.

وجاء في روايته أنه عندما انتهت مراسم تشييع الحكم، بويع ولده هشام خليفة

(1) *G. der M.*, ii. 84 ff.

(2) *Makkari*, ii. 176 – 8.

(3) *Ibid.*, ii. 176, 475.

وعمره عشر سنوات وبضعة أشهر. كان الوليد الوحيد للحكم وكانت أمه السلطنة Sobeya. ويقول كوند في ملاحظته إن الاسم يعني بالإسبانية «الشَّفَق» أو «ضوء الفجر» Aurora، و«أورورا» هو الاسم الذي يطلقه عليها دوزي باستمرار.

لقد شغف الحُكم بالملكة الأم لتعقلها وحسن تقديرها وجمالها، فبانت أثيرة لديه، وعلى مدى عشر سنوات (واضح أن ذلك يتطابق مع انجابها ولداً ذكراً للخليفة الذي لم يكن لديه وريث) كان يأخذ برأيها في عظام الأمور وصغائرها، ويشركها في تدبير شؤون الخلافة سواء في القصر أو في البلاط والمدن والتواحي، فكانت حتى اقتراحاتها البسيطة مستجابة دون تأخير أو تبرير. كان محمد بن أبي عامر كاتب السلطنة، فاكسب بفضل كياسته ونجابته وشجاعته وشدة حصافته احترام وثقة الخليفة والملكة، وكذلك احترام وتقدير الولاة والوزراء والحكام.

ولم يكن قد مضى وقت طويل على وصوله إلى قرطبة عندما عيّنت الملكة صُبيح ابن أبي عامر كاتبها وكبير وصفائها، ونظراً لصغر سن ابنها، كلّفت المنصور لاحقاً بإدارة شؤون الملك، وعيّنته كبير الحجاب، ليكون الوصي على الخليفة والوزير الأول المكلف شؤون الحكم والجيش. لقد حاز هذا الاختيار على رضا الجميع ما عدا الحاجب السابق المصحفي الذي اعتبره تقيلاً من شأنه، وبيت مع أبنائه الضعيفة على المنصور.

في هذه الأثناء، لم يكن هشام، كما هو متوقع لطفل في مثل صغر سنه، يفكر سوى بالعبادة وملذّاته البريئة، فلم يخرج قط من قصوره أو جنائنه الغناء، أو سعى إلى أي نوع آخر من التسلية غير ما وجدته فيها، في حين كان أصحابه من صغار الوصفاء في مثل عمره وعاشوا معه بعيداً عن الأعين، ولم يسمح لهم التواصل مع أحد⁽¹⁾. لقد كانت مثل هذه التدابير الحذرة طبيعية في حال كانت هناك مكائد تحاك باستمرار لإزاحة الخليفة الصغير أو قتله، كما كانت عليه الحال على ما يبدو.

(1) Conde, i, 491 – 493.

ولكننا نعتقد أن التفسير الحقيقي لحجب هشام عن الأعين، والذي استمر حتى وفاة المنصور بعد ذلك بستة وعشرين عاماً، كان الرغبة، وربما الضرورة الموجبة لأخفاء كونه يعاني من ضعف ذهني. صحيح أن الوصايا التي كان والده يوصيه بها (كما ورد في الصفحة 160 طبعة الأصل) لا تشير إلى أن التلميذ كان يعاني من بلاءة، إلا إن كان القول بأن النصيحة كانت تردّد عليه باستمرار يعني أن ذاكرة هشام كانت ضعيفة. ولكن حتى وإن كان بإمكاننا أن نثق ضمنياً برواية مؤرخ واحد، لم يوثقها آخرون، فهذا لا يعني أن الأمير الذي بدا نموّه طبيعياً حتى سنّ العاشرة، واصل نموّه عندما بلغ سنّ المراهقة. ويقول كوند⁽¹⁾ إنه «لم تكن لديه رغبات تختلف عن رغبات خدمه» *que no tenia mas voluntad que la de sus siervos*، في إشارة إلى فترة الاضطرابات في سنة 1009.

بعد أكثر من عشر سنوات على مبايعته، عندما كان في سنّ العشرين على وجه التأكيد (تختلف المراجع بشأن عمره الدقيق عندما توفي والده) كانت الملكة الأم لا تزال تتصرّف كوصيّة عليه، إن كان يمكننا أن نحكم من خلال كتابة على خزّان في إستجة Écija، ظل قائماً حتى سنة 1820، تشير إلى أنه بني «بأمر من السيدة الكبرى والدة أمير المؤمنين، هشام المؤيّد بالله بن الحكم»، وتحمل تاريخ 377 هـ. (987م)⁽²⁾.

هناك دلائل تشير إلى الاحتفاء بالدة ولي العهد في أعمال أمّرت بإنجازها في مساجد سمّيت باسمها⁽³⁾. ولكننا نشكّ في أن تحمل أشغال عامة مهمة مثل القناة والخزان المشار إليهما هنا اسم الأم لو كان الخليفة قادراً على تولّي شؤون الملك بنفسه.

ينقل دوزي عن المقرّي قوله إن الزبيدي وصف هشام المؤيّد بأنه «كان في صباه في غاية الحُذوق والذكاء»، واستناداً إلى ذلك يقول إن أمّه والمنصور تعمّداً العمل على إضعاف عقله بعد أن أصبح الخليفة.

(1) Ibid., i. 558.

(2) Ibid., i. 496.

(3) على سبيل المثال، كنيسة سان خوان دي لا بالما San Juan de la Palma في إشبيلية.

كان يمكن أن يكون لشهادة الزبيدي وزن أكبر لو أننا وجدنا أدلة أخرى على صحة هشام الذهنية. ولكن رغم أنه كان يمكن أن يكون طفلاً سريع البديهة (وليست هناك حاجة لموهبة كبيرة لجعل ولي العهد يظهر ذكياً في عيون أفراد حاشية أبيه) فإنه يبدو بلا شك - بقدر ما يمكن الحكم من خلال المعلومات المتوفرة من الترجمات - أنه كان يعاني من قصور في شبابه وبلوغه. عندما نتذكر أن أباه كان يبلغ من العمر حوالي اثنين وخمسين عاماً عندما ولد هشام، وأنه لم يكن لديه أطفال آخرون سواء من زوجاته أو محظياته الأخريات، يصبح من الممكن أن نأخذ في الحسبان أن الطفل ربما كان يعاني من قصور ذهني. أما هشام نفسه، فلم ينبج على الإطلاق.

ولكن أياً كانت أسباب قصور الخليفة، فقد كان حكمه، بفضل هذا القصور ذاته، مزدهراً ومجيداً مثله مثل حكم جدّه عبد الرحمن الثالث، طالما تولّى الحاجب اليمني أمور الملك بفضل حكمة أمّه التي اختارته ليكون وزيره الأول عند وفاة والده.

ولا بد أن كل من قرأ الحكايات الشعبية التي تروى عن الأندلس أطلع على الغزوات التي قادها المنصور وانتصاراته الظافرة، ولن نكرر ما هو معروف على نطاق واسع، ولكن بدلاً من ذلك سنروي بعض القصص التي تلقي الضوء على جانب آخر من شخصيته.

يروى كونه نادرة ملفقة تشير إلى صرامته في تطبيق العدالة وتجاهله للروابط العائلية المؤثرة، والتي لم نجدها في كتابات غيره.

والقصة أن شاباً في السابعة عشرة من عمره يدعى مروان بن عبد الرحمن بن مروان وحفيد عبد الرحمن الثالث، كان يحب جارية يملكها والده. كان الاثنان قد نشأ معاً منذ الصغر ومع الوقت اشتدّ تعلقهما ببعضهما. ولكن والد مروان، الذي لم يكن على علم بالامر، فصل بين الاثنين عندما بدا له أن الوقت حان لذلك، لكن تفريقهما لم يفعل سوى أن زاد في شغفهما.

في إحدى الليالي، دخل الشاب المتهور الذي لم يعد قادراً على كبح جماح شوقه، سراً إلى الحديقة التي تتسلى فيها جوارى والده، وهناك، رأى الفتاة العذراء من خلف شجيرات الأس. فقال لها:

ليس هنا وقت للكلام، علينا أن نفعل بسرعة ما علينا فعله.

ومن لهفتها عليه وحرصها على إرضائه، تبعته الفتاة خارج الحديقة وهرباً معاً من المكان، ليلتقيا عند البوابات الخارجية بوالد مروان، عبد الرحمن.

لم يتعرف مروان، الذي أعماه شوقه وانفعاله، إلى أبيه، ولم يتوقف ليتذكر أن الرجل الذي حاول إيقافه في مثل هذا المكان وهذا الوقت لا يمكن إلا أن يكون والده، فاستل سيفه وطعنه به.

هرع الخدم عندما سمعوا صرخة عبد الرحمن، فلم يفلح مروان في اختراقهم. وسقطت الجارية بين ذراعيه مغماً عليها، وما إن استدار ليمسك بها، حتى تم تجريده من سيفه، واعتقاله.

في غياب المنصور، درس القضاة القضية بأمر من الملكة، وقرروا، آخذين في الاعتبار كون مروان لا يزال شاباً، الحكم عليه بالسجن بقدر سنوات عمره. وصدقت الملكة الأم والخليفة الحكم.

ثم تأتي التفاصيل التي تشير إلى أن الحاجب المنصور لم يكن يتعامل مع هشام بوصفه لا يتمتع بأية مسؤولية.

عندما عاد المنصور من الغزوة التي اضطرت له للتغيب عن قُرطبة، وسمع بما حدث، قال للخليفة إنه حكم في القضية من وجهة نظر الشاب العاشق، وليس من وجهة نظر الأب المسؤول عن عائلة. ومعنى هذه الملاحظة، إن كان لها معنى، أن الحاجب كان ينتظر من هشام أن يحكم بلا تحيز، حتى وإن كان المذنب شاباً من عائلته. ويصعب من خلال ذلك اعتبار أن المنصور كان ينظر إلى هشام باعتباره ضعيف العقل. من ناحية ثانية، تجدر الإشارة إلى أن الملكة الأم أمرت بإحالة القضية إلى القضاء وصدقت هي والخليفة على الحكم⁽¹⁾.

يبدو بصورة عامة أن هشاماً، إن لم يكن بالفعل ضعيف العقل، فقد كان يتأثر بسهولة

(1) Conde, i. 499 – 500.

بالأشخاص المقرّبين منه ولا يملك القدرة على اتخاذ القرار ولا الشّجاعة لمواجهة الأخطار والمصاعب. وإن كانت هذه هي الحال - وهو ما يشير إليه سلوكه العام بعد وفاة المنصور - تصبح رغبة أمّه وحاجبه في إبقائه محتجباً وإخفاء نواقصه عن أعين المتربّصين به من أعدائه في الدّولة، مبرّرة تماماً.

في محاولة لتكوين فكرة منسجمة عن الأشخاص والأحداث التي أورد المؤرّخون روايات شديدة التناقض عنهم، يصبح من المسموح الافتراض بأنه عندما تكون هناك روايتان عن سلوك شخص، فالأرجح أن تكون الرّواية الأكثر انسجاماً مع شخصيته عموماً هي الأصديق. وفيما يتعلّق بالمنصور، تشير كل الدلائل إلى أنه لم يكن رجل دولة فحسب، وإنما حاكماً عادلاً جواداً، ويمكننا بناءً عليه أن نخلص إلى القول إنه ما كان ليعامل ابن الرّجل الذي يدين له بكل شيء، بالوحشية التي أسبغها عليه أعداء سلالته.





مدخل إلى أحد أجنحة قصر إشبيلية المعروف تقليدياً باسم جناح نوم الملك والملكة المسلمين، وهو يفضي إلى باحة جناح الحريم. الزخرفة المعتمدة هنا هي على الطراز السائد في القصور الإسلامية في مصر في أواخر القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر. ولا يزال قسم من البلاط القديم على حاله. وأحد الأجنحة أعدّه السلطان الموحدي يوسف أبو يعقوب في أعوام 1171 - 1175 لاستقبال عروسه اليمنية، الأميرة دانية (راجع الصّفحة 275 طبعة الأصل).

الفصل العاشر

المنصور والتصارى

تعامل المنصور بتسامح وانفتاح مع المسيحيين، كأفراد ومجتمع، على الرغم من أنه كان يجتد الحملات في مواجهة التصارى الذين يغزون الثغور المسلمة وكان يقود هذه الحملات بنفسه تكراراً.

يعترف الكتاب المسيحيون أنفسهم بذلك، وقبل سرد بعض الأمثلة من المؤرخين العرب، سننقل بعض الأمثلة التي تبيّن مدى الاحترام والتقدير الذي خصّ به هذا اليميني عظيم الشأن المسيحيين كما رووها هم أنفسهم.

في سرد لقصة حصار ليون في عام 984، يقال إن «كياسة المنصور وحسن معاملته للجميع، والعروض السخية التي قدّمها لهم، دفعت العديد من «المسيحيين الضالين» إلى التخلّي عن قضيتهم ذاتها والالتحاق بصفوفه دون أن يشعرهم ذلك بالخزي»⁽¹⁾.

يقول المقرئ في سرده لوقائع هذه الغزوة إن المنصور احتلّ ليون وأعمل السيف في سكانها وحاول هدم تحصيناتها لكنه تراجع بسبب سماكة الجدران والوقت الذي يمكن أن يستغرقه ذلك⁽²⁾.

عندما يختلف المؤرخون المسيحيون والمسلمون كل هذا الاختلاف بشأن معاملة

(1) *España sagrada*, xxxiv. 303.

(2) Makkari, ii. 189.

يقال إن عبد الملك بن المنصور هدم ليون وسوّاها بالأرض (المصدر نفسه، ص 222، 486). أما بشأن هدم المدينة فيكفي القول إن الأسوار الرومانية لا تزال قائمة.

المسلمين للمسيحيين، نعتقد أن بالامكان الاعتماد بلا تردد على ما يرويه المسيحيون طالما، وكما في هذه الحالة، يشهدون على حسن المعاملة التي لقيها أبناء دينهم. ولا يحتاج أحد ممن قرأوا الحوليات الإسبانية عن الاحتلال المسلم لإسبانيا لأن نذكره بأنها لم تكن متساهلة مع الفاتحين. يرسم أحد كتاب «إسبانيا المقدسة» صورة ملفتة عن السذاجة السائدة في عصره (سنة 1753) راينا من الجدير بنا ترجمتها.

فخلال إحدى غزواته الظافرة، رغب المنصور في أن يدخل على صهوة جواده كنيسة الشهداء القديسين، القديس كلاوديو وغيره، في ليون. كانت من الكنائس المفضلة لإقامة الأعراس وفي اليوم الذي كان فيه المنصور على وشك ارتكاب فعلته وانتهاك حرمة الكنيسة، كان ما لا يقل عن اثني عشر نبيلاً مسيحياً مع اثني عشرة عروساً، قد ذهبوا إليها لعقد قرانهم. عندما أبلغ المنصور بالأمر، توجه إلى باب الكنيسة وقد سؤلت له همجيته أن ينهب الكنيسة ويأسر العرسان والعرائس الجدد. ولكن معجزة حالت دون ارتكابه خطئته الأثمة. فعلى عتبة مدخل *atrio* الكنيسة هوى حصانه فجأة ميتاً. دفع ذلك المنصور إلى السؤال عما يحدث داخل الكنيسة (مع أن المنصور، تبعاً للكاتب، جاء إلى هناك لأنه كان يعرف بمقد قران اثني عشر من الأزواج) وبهرته تقوى أهل ليون وبدلاً من أن يمضي في تنفيذ نواياه الشريرة، قدم العطايا إلى القديسين الذين كُرسَت الكنيسة لهم.

يبدو أن المنصور قدم بالفعل العطايا إلى تلك الكنيسة، لأن الكاتب يقول إنه رأى السجل في كتاب سجلات الكنيسة القديم *Leccionario antiguo*، وكانت هديته عبارة عن حصيرة جدارية مشغولة تحمل شارته، وعشرة أثواب للكهنة من أرقى الأقمشة، «لا تزال إلى اليوم محفوظة في برج كنيسة سان كلاوديو»⁽¹⁾.

أما الروايات المتعلقة باحتلال المنصور لشنّت ياقب فمتناقضة كالعادة. إذ يخبرنا ابن حيان أنه «كان التزول بعده على مدينة شنّت ياقب البائسة، وذلك يوم الأربعاء، لليلتين خلّتا من شعبان، فوجدها المسلمون خالية من أهلها، فحاز المسلمون غنائمها،

(1) *España sagrada*, xxxiv. 360.

وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها، وعمرها، ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه، وكانت مصانعها بديهة كمة فغودرت هشيماً، كأن لم تَغْنِ بالأمس»⁽¹⁾.

لكن رواية ماريانا تختلف كثيراً عن رواية ابن حبان، إذ يذكر أنه يصف جريمة: «كانت الأوضاع بائسة، والمهانة التي لحقت بالديانة المسيحية خلية. لقد عانت غاليليا (جلبقية) الأمرين من هجمات وأسلحة الهمجيين: لقد ذهبوا إلى حد احتلال مدينة كومبوستيلا وهدم أحد جدران كنيسة سانتياغو وتسويته بالأرض. لم يلمسوا ضريح الرسول: وسبب ذلك غير معروف.. حتى أن المنصور نفسه.. عندما قال له رجل إن أحد تلامذة عيسى بن مريم مدفون هناك، أمر بالكف عن تلك الأفعال»، (ويعني بذلك على ما يبدو، الكف عن غزو المكان)⁽²⁾. وهذا لا يعني بتاتا أن شنت ياقب هدمت عن آخرها ولم يبق فيها حجر على حجر.

حتى ابن حبان نفسه عندما قال «ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه»، أقر بأن ابن أبي عامر كان حريصاً على التعامل باحترام مع الضريح الذي جرت التقاليد على أن رُفَات القديس يعقوب مدفونة فيه. وقالوا كذلك إن «المسلمين وجدوا شنت ياقب خالية من أهلها إلا شيخاً من الرهبان جالساً على القبر، فسأله المنصور عن مقامه وعما يفعله في ذلك المكان، فقال: أوتس يعقوب. فأمر بالكف عنه وعدم إيذاؤه»⁽³⁾.

وبالعودة إلى ما ورد في «إسبانيا المقدسة» من أن المنصور استمال إلى صفوفه العديد من «المسيحيين الضالين» الذين قاتلوا تحت راياته ضد أبناء دينهم، من المفيد أن نشير إلى المعلومات التالية التي يوردها ابن حبان فيقول:

(1) Makkari, ii. 195

المقري، ج 1، ص 415 - 416. (م)

(2) Mariana, Book VIII., Chap. VIII.

(3) Makkari, ii. 195 - 6.

«فلما وصل إلى مدينة غليسية وافاه عددٌ عظيم من القوامس المتمسكين بالطاعة في رجالهم، وعلى أتم احتفالهم، فصاروا في عسكر المسلمين، وركبوا في المغاورة سبلهم»، واجتازوا جميعهم حدود بلاد المسيحيين⁽¹⁾. كما يتطرق دوزي إلى «الوطنيين الفاسدين، المحتاجين، محتي المال» بين المسيحيين الإسبان، الذين فزوا من جيوش قشتالة وليون ونافار طمعاً في الذهب الذي عرضه المنصور عليهم⁽²⁾.

يخبرنا ابن حبان أنه في طريق عودته «انكفا المنصور عن باب شنت ياقيب وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله، فجعل في طريقه القصد (...) حتى وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين في عسكره، فأمر بالكف عنها، ومزّ مجتازاً [مناطقهم] حتى خرج إلى حصن بليقية» الذي كان قد هدم تحصيناته في وقت سابق. ويقترح غايانغوس أن بليقية هذه هي «فاتييكوس» Valleclos القريبة من مدينة رودريغو Ciudad Rodrigo، بالتالي فهي لا تبعد كثيراً عن قورية، من حيث دخل المنصور أرض أعدائه في مستهل حملته. جمع المنصور القوامس المسيحيين الذين شاركوا في الحملة، و«أجازهم بجمالهم على أقدارهم [تبعاً لأهمية ومكانة كل منهم]، وكساهم وكسارجالهم وصرفهم إلى بلادهم، وكتب بالفتح من بليقية، وكان مبلغ ما كساه في غزاته هذه لملوك الروم ولمن حَسُنَ غناؤه من المسلمين [الأمراء التصاري وغيرهم ممن ناصرُوا المسلمين] ألفين وميتين وخمساً وثمانين شقة من صنوف الخزّ [الحرير] الطّرازي، وواحدًا وعشرين كساءً من صوف البحر [جلد الفقمّة]، وكساءين عنبرين، وأحد عشر سقلاطوناً [قماش من الصّوف الناعم القرمزي الذي كان التّلاء قادرين على الحصول عليه]، وخمس عشرة مربّشاً [وهي كلمة لم يتمكن غايانغوس من ترجمتها]، وسبعة أنماط ديباج [كسوة خيل من الحرير المطرز]، وثوبي ديباج رومي [ثوبان من النّوع نفسه مصنوعان في اليونان]، وفروي فنك [فراء ثعلب الصّحراء]، ووافي جميع العسكر قُرْطبة غانماً، وعظمت التّعمة والمّنة على المسلمين»⁽³⁾.

(1) Makkari, ii. 194.

(2) G. der M., ii. 115.

(3) Makkari, ii. 194 – 6, 480 – 1.

لم نتمكن من العثور في أي مكان على معلومات تفيدنا في معرفة من يكون هؤلاء التّلاء والأمرء المسيحيون. ويبدو أنّ مناطقهم التي اجتازها جيش المنصور في سلام، تمتدّ إلى الجنوب من ليون أو إلى الشّمال من إسترى مادورا. ومن الممكن أن يكون هؤلاء من أحفاد المسيحيين الذين استقروا، في عهد رُملة ابن غيطشة، في نواحي طليطلة وعاشوا هناك مستقلّين عملياً لحوالي مئتي عام، حتى دخلوا في طاعة عبد الرّحمن الثّالث، قبل حوالي خمسين عاماً من غزوة المنصور. وستذكر أنه عندما فتحت طليطلة بواباتها لجيش عبد الرّحمن، فرّ جعفر [بن عُمر بن] حفصون مع آلاف من أتباعه، دون أن تُعرف وجهته. فإن كان بين هؤلاء التّلاء أحفاد رُملة أو بني حفصون، فمن الممكن أنهم فضّلوا التحالف مع المسلمين على الدّويان ضمن قوات الشّمال المتنامية، والتي كانت لا تزال تسير على نهج رودريك (لُذريق). ولكن الأمر لا يبدو كونه مجرّد تخمين.

في سنة 995 أو 996، أسر المنصور غرسية بن شانجة (غارثيا ابن سانجو، Sancho) «ملك نصاريّ الجبال»⁽¹⁾ الذي كانت مصاباً بجروح خطيرة وتوفي بعد ذلك ببضعة أيام على الرّغم من كل العناية التي أولاه إياها المنصور. أمر المنصور بإعداد تابوت مزين بالتّقوش والزّخارف سُجّي جثمان الملك بداخله وغطّي بقماش رائع باللونين الأحمر القرمزي والذهبي، وطُيّب بأجود أنواع العطور، لإرساله إلى أهله. وعندما وصل عدد من فرسان جيش غرسية لافتداء جثمان ملكهم بالهدايا، سلّمه المنصور لهم رافضاً هداياهم⁽²⁾.

الكلمات الواردة ضمن أقواس هي الشّرح الوارد بالإنكليزية لما أورده المقرّي بالعربية، وملاحظات المؤلّفين. باقي النصّ العربي مقتبس عن المقرّي، ج 1، ص 416، بما يتفق مع النصّ الإنكليزي. (م)
 (1) ورد لدى المقرّي أنّ غرسية هو ابن شانجة ملك البشكنس، ويقصد بها بلاد الباسك. المقرّي، ج 1، ص 363. (م)

(2) Conde, i. 532 - 5.

يقول كوندّه في ملاحظة دونهّا على هذا المقطع إنّ المتوفى هو الكونت غارثيا فرنانديث ملك قشتالة الذي توفي مع ذلك، تبعاً لماريانا، بعد ذلك بعشر سنوات، في عام 1006. (Lib, VIII.)

وفي سنة 997، عندما كتب عبد الملك، ابن المنصور، إلى أبيه يخبره عن نجاحه في غزوته في المغرب، حيث فتح مدينة فاس، لم يقف جود المنصور عند التصديق على المتسولين وتخفيف ديون الكثير من الفقراء الأمناء، بل أفرج عن خمسمئة أسير وثلاثمئة من الجواري التصاري، تعبيراً عن امتنانه وشكره لله على نعمته ورحمته⁽¹⁾.

يقول دوزي استناداً إلى «راهب دير سيلوس»⁽²⁾ the Monk of Silos إنَّ المنصور كان يتحيز دائماً للمسيحي عندما ينشأ خلاف بين مسيحي ومسلم. ويخبرنا المقرئ، نقلاً عن تاريخ لم يسمه للمنصور، أنَّ يوم الأحد كان يوم راحة في بيت المنصور حيث كان ينعم أهل البيت في ذلك اليوم ببعض الراحة ويُعفون من بعض أعمالهم، والسبب في ذلك، كما يقول غايانغوس، أنَّ العاملين في منزله كانوا من العبيد والجواري المسيحيين⁽³⁾.

إنَّ اعتراف الجميع بحسن معاملة المنصور للمسيحيين، يلقي الكثير من الشك على القصة المتكررة التي تقول إنه أرغم الأسرى المسيحيين في شنت ياقب على أن يحملوا أجراس كنيستهم من تلك المدينة إلى قُرْبَة على ظهورهم. وتراجع مصداقية تلك القصة كذلك من خلال قول ابن حيان إن جميع سكان شنت ياقب أدخلوها قبل وصول المنصور. (راجع ما ورد أعلاه ص 171 طبعة الأصل) ومن غير المحتمل أن يكون ذلك الرجل المتميز بتسامحه وسعة إدراكه إلى درجة احترام ضريح قديس مسيحي، وتقدير احتياجات خدمه المسيحيين للراحة وللتعبّد، أن يكون قد أعمل الشيف بالنساء والأطفال التصاري، ونهب بيوتهم وهدم كنائسهم كما يروي ابن حيان عن المنصور. والتفسير الأكثر قابلية للتصديق بشأن تلك القصة، أنَّ ابن حيان ينسب

Chapter x). يقول واتس (Spain, p. 308) إن غارثيا فرنانديس توفي في عام 995، ويتفق ذلك مع التاريخ الذي حدّده كوندّه.

(1) Conde, i. 539.

(2) مخطوطات كتبها رهبان يعتقد أنهم كانوا يعيشون في دير سان دومينغو دي سيلوس في قشتالة وتقول مصادر أخرى إنَّ الدير كان في ليون. (م)

(3) Dozy, G. *Der M.*, ii. 115; Makkari, ii. 215, 485.

للمنصور الشيعي الأفعال التي كان سيقوم بها هو نفسه لو كان في مكانه.

ويروي المؤرخون الكثير من التوارد والقصص التي تدلّ على مدى سخاء المنصور وجوده وذكائه وحسه للدعابة. وستترك الكثير منها لأنها خارجة عن موضوعنا. ولكن لا يسعنا مع ذلك أن نقاوم الإغراء لإظهار الجانب المرح في حياة الحاجب العظيم، من خلال ترجمة مقاطع من كونه لنادرة غير معروفة كثيراً عن المنصور.

كان هناك رجل من أهل الأدب واللغة يدعى أبا العلاء⁽¹⁾، قدم إلى الأندلس من بغداد وقصد قرطبة ودخل على المنصور فأجزل له العطاء، لأن الحاجب بن أبي عامر كان مولعاً بالأدب وواسع العلم كما كان الخليفة الحكم المستنصر بالله. أكرمه المنصور ومنحه من المال الذي يدره لرعاية العلم والأدب، ولكن أبا العلاء كان مسرفاً في معيشته، ولم يكن المال الذي يحصل عليه من الحاجب كافياً لسد حاجاته. في يوم، دخل أبو العلاء على المنصور وهو يلبس قميصاً مخزماً رثاً⁽²⁾ *deshilado* بان لشدة رفته ثوبه الداخلي من تحته. لاحظ المنصور ذلك فسأله:

ما هذا يا أبا العلاء؟

فأجابه بصوت متواضع مثير للشفقة:

كان هذا هدية من سيّدنا، حفظه الله وأنعم عليه. ما عندي بقميص أحسن منه، ولهذا لبسته اليوم.

فأجابه المنصور:

حسناً فعلت، ولكي لا تبقى متمسكاً به، سنرسل لك في الغد قميصاً أخرى تستبدلها به، فنصلح الأمر كما ينبغي.

وفي يوم آخر، دخل صاعد أبو العلاء على الحاجب فوجد المنصور يقرأ في كتاب

(1) Cf. Makkari, i. 461.

(2) أورد المقرئ أن الثوب كان مرقعاً، وأن خادم أبي العلاء هو الذي كان يلبسه، وفي رواية أخرى أن أبا العلاء لبس القميص تحت ثوبه ثم خلع الثوب وبان. ج 3، ص 83.

وصله من عامل له (حاكم) في بعض الجهات يتحدث فيه عن قلب الأرض وتزييلها قبل زراعتها، فنأدى المنصور على أبي العلاء وسأله:

هل رأيت أو وصل إليك من الكتب القوالب والزوالب لمبرمان ابن يزيد؟

إي والله ببغداد في نسخة لأبي بكر ابن دريد⁽¹⁾ بخط ككراع التمل، في جوانبها [علامات الوضع].

فأجابه المنصور:

أما تستحي أبا العلاء من هذا الكذب؟ هذا كتاب عاملي ببلد كذا واسمه كذا يذكر فيه كذا⁽²⁾.

فجعل صاعد يحلف له أنه ما كذب، ولكنه أمر وافق.

لا شك أن المنصور، وبعيداً عن شعوره بالمهانة، كان يحب تدبير المقالب للأدب النَّصَّاب.

ونحن مدينون كذلك لكونه في وصف ضيافة قائد مُرسية لأبي المنصور خلال إحدى حملاته، نقلاً عن ابن حبان.

فعلى مدى ثلاثة عشر يوماً تكفل القائد السخي بتلبية احتياجات الوزير ومرافقيه وخدمه. لم يستقبلهم في منزله، ولكنه كان يرسل لهم كل يوم إلى التزل⁽³⁾ كميات وافرة من الخبز واللحم والفاكهة من ماله، أما المنصور نفسه ورجاله، فكان يقدم لهم كل يوم أصنافاً من أطايب الطعام والحلوى المحفوظة والفاكهة من أجود الأصناف.

عندما علم المنصور أن القائد قدّم كل تلك العطايا دون مقابل، شكره باسم

(1) Abu Bakri Ibn Daweid (في الانكليزية)

(2) Conde, i. 525 - 6.

(3) لا تزال في إسبانيا إلى اليوم ثلاثة أنواع من الفنادق التي استخدمها المسلمون، وهي الفنادق Fonda الاعتيادية التي تقدّم الطعام والخدمة، والتزل Posada التي تقدّم الغرف دون الطعام، والخانات Parada التي هي عبارة عن مكان يستريح فيه المسافر مع دابته.

الخليفة، وعندما عاد إلى قُرطبة اقترح على هشام أن يعفي القائد وعائلته من كل المغارم والضرائب اعتباراً من ذلك التاريخ، وكان له ذلك.

وفي رواية أخرى لتلك القصة ينقلها كوندك، يقال إن القائد أضاف على كل الطّييات وأسباب الرّاحة، حقّامات يومية بماء الورد، وأسرة مغطاة بمفارش جميلة من الحرير الموشى بالذهب⁽¹⁾.

كما وصلتنا تفاصيل قصة ملفّقة عن الاحتفال بزواج ابن المنصور البكر عبد الملك في ربيع سنة 986 من حبيبة، ابنة عبد الله ابن أبي عامر (من عائلة المنصور) وزوجته بُريهة Boriha ابنة المنصور نفسه. لم يكن زواج رجل بابنة أخته امرأ غير مألوف بين مسلمي إسبانيا في ذلك الوقت⁽²⁾، وفي الواقع في مجتمع حيث كان يمكن أن يكون لرجل واحد - أو لرجل في مصاف الملك - مئة طفل من زيجات مختلفة، ربما لم يكن من السهل دائماً العثور على عروس لا تربطها بزوجها صلة قرابة. لقد كان تحریم زواج القرّبي في مجتمع تشابك العلاقات بين أفراد بصورة معقدة في القرن السادس عشر، واعتباره سفاحاً والأطفال المولودين منه غير شرعيين، واحداً من الفصول الكثيرة القاسية للاضطهاد الذي عاناه الموريسكيون على أيدي محاكم التفتيش.

أقيم العرس في جنائن المَرّة القريبة من قصر الزّاهرة بعد أن أذن الخليفة هشام لحاجبه بإقامة العرس في حدائق القصر. وحضر الاحتفالات والولائم كافّة أشرف وأعيان قُرطبة على شرف العروسين، وتخلّلت العرس احتفالات عارمة عمّ خلالها المرح الصّاخب الشّوارع.

«سارت العروس الجميلة في موكب مظفر عبر الشّوارع الرئيسيّة تحيط بها كل العذارى المقربات من العائلة، وفي مقدّمة الموكب وخلفه سار القاضي والشّهود وكبار رجال الدّولة والشيوخ وأشرف المدينة. ووقفت الفتيات العذراوات يحرسن

(1) Conde, i. 511 - 3.

(2) كلام غريب ومستهجن. وكانت أم المنصور تسمّى أيضاً بُريهة، وهي بُريهة بنت يحيى بن زكرياء التيمي من أهل بيت من أشرف قرطبة يسمّون ببني برطال. (أحمد)

مدخل جناح العروس طوال النهار مسلّحات بعصي من العاج والذهب، حتى تمكن العريس مع هبوط الليل برفقة صحبه من أبناء أشراف عائلته، وفي حماية حراهم المذهبة، من دخول الجناح عنوة بالرّغم من مقاومة العذارى المستميتة.

«ازدانت الجنائن بالأنوار، ومن كل المداخل والتوافير والمراكب الطافية فوق مياه بحيرات الصافية، صدحت موسيقى عذبة، وأنشد المغنون أغاني تمتدح خصال العروس والعريس. استمرّ العزف والغناء حتى مطلع الفجر، واستمرّ المرح والاحتفالات طوال اليوم التالي.

«أجزل المنصور العطاء بهذه المناسبة فأهدى حرّاسه قطعاً من السلاح وكسوة، ووزّع الحسنات إلى فقراء الزوايا⁽¹⁾، ودفع مهر فتيات فقيرات من دور الأيتام في المسجد والحي *Aljama*⁽²⁾ الذي يرعاه وزوجهن، وكان كريماً في مكافأة كل من أثنى على ابنه وحفيده. فلم تشهد قرطبة أياماً في مثل روعة تلك الأيام، أو عرساً بمثل عظمة عرس عبد الملك بن المنصور»⁽³⁾.

وفي الختام سندع المقرّي يلخص خصال المنصور وأفضاله، فيجري قلمه بحريّة متناسياً أنه شيعي وأدرك في النهاية أنه يستحق التمجيد والثناء.

ومن أخبار المنصور، «أنه خطّ بيده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره يدرس فيه، ويتبرّك به. ومن قوّة رجائه أنه اعتنى بجمع ما علق بوجهه وملابسه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده في بلاد المشركين، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازلهم، حتى اجتمع له منه صرة ضخمة، عهد بتصييرها في حنوطه⁽⁴⁾، وكان

(1) كانت الزوايا *Zawiya* مأوى لمن امتنوا التسوّل. وكان لكل مسكن كبير خدم يقوم على راحة وانضباط المقيمين فيه.

(2) يبدو أنها المدارس في الحي التابع للمسجد الذي كان يرعاه المنصور.

Aljama كلمة إسبانية أصلها عربي من «الجامع» وكذلك «الجماعة» وتعني بالإسبانية الحي. (م)
(3) Conde, i. 519 – 20.

(4) سيرد شرح لهذه العادة الملفتة في كتاب لاحق.

يحملها حيث سار مع أكفانه، توقّعاً لحلول منيته، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته، وكان يسأل الله تعالى أن يتوفاه في طريق الجهاد، فكان كذلك. وكان متسماً بصحة باطنه، واعترافه بذنبه، وخوفه من ربه، وكثرة جهاده،... وأعماله المجيدة وأخباره - رحمه الله تعالى - تحتل مجلدات، فلنمسك العنان.. (وكان) إذا ذُكر بالله ذكر، وإذا خُوف من عقاره ازدجر، ولم يزل متنزّهاً عن كل ما يفتتن به الملوك سوى الخمر، لكنّه أقلع عنها قبل موته بستين. وكان عدله في الخاصة والعامة ويسطّ الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته أمراً مضروباً به المثل⁽¹⁾.



(1) Makkari, ii. 220.

النص العربي من المقرئ، ج 1، ص 409، بشيء من الضبط ليتناسب مع الترجمة.

الفصل الحادي عشر

قصة هشام الثاني

سرعان ما اشتعلت العدواة القبلية بين المُضَرِّين من جهة واليمانيين والنصارى من جهة ثانية، بعد أن ظَلَّت خامدة لحوالي مئة عام في عهد الخليفة الناصر عبد الرحمن الثالث، ومن خلفوه في الحكم، بعد وقت قصير من وفاة المنصور، الحاجب اليماني الذي عظم شأنه، وارتفاع يده الضابطة عن عرش الأندلس.

وهكذا انقلبت الظروف التي سادت في البدء رأساً على عقب.

انتفض اليمانيون والمولّدون في العام 886 على حكم الأمويين الذين تفصلهم عنهم عداوة قبلية ومذهبية. فالأمويون مُضَرِّيون من السُّنّة. واستمرّت ثورة اليمانيين حتى اعتلى العرش أمير يتسبب إلى القبيلتين، فأذعنوا له على الفور. ولكن في سنة 1009، كان المُضَرِّيون هم من ثاروا على حاكم من سلالتهم، هو آخر أمراء قُرطبة من سلالة بني قريش، وهبّ اليمانيون وأحفاد المولّدين في المقابل لحمايته وتأييده. ويُذكر بوضوح أن العرب المُضَرِّين هم من أزاخوا حفيد عبد الرحمن الثالث عن العرش، بسبب غيرتهم من اليمانيين. وهكذا نحن أمام مشهد فريد نجد فيه القبائل التي توارثت العداء تحافظ على ولائها لحاكم تجمعهم بها صلة قُربى تعود إلى ثلاثة أجيال مضت، لأنّ أباه وجدّه أحسنا معاملتها، في حين أنكره أهله وفعلوا كل ما في وسعهم لقتله.

توفي المنصور في أغسطس 1002، وعندما بلغ الأمر إلى الخليفة استدعى عدداً من عامليه لينعي إليهم التّبأ، لكن حزنه عليه كان عظيماً فعجز عن أن ينبس بكلمة واحدة،

ووقف صامتاً، يحاول جاهداً أن ينتقل إلى أهل قصره ووزرائه المصاب الحزين.

كان عبد الملك، أكبر أبناء المنصور في قرطبة عندما بلغه أمر وفاة أبيه، فعاد إلى مدينة سالم ليجد أن المنصور قد دُفن في قصره هناك. وبعد بضعة أيام، عاد إلى قرطبة، وارتدت القيان، أو الجواري المغنيات، في حريم المنصور الأكياس الخشنة المنسوجة من شعر الخيل أو الجمال، بعد أن كن يرتدين الملابس المصنوعة من الحرير والدياج⁽¹⁾ التي نعمن بها في عهده.

وعامل الخليفة هشام عبد الملك المظفر «على عادة أبيه، وخلع عليه، وكتب له السجل بولاية الحجابة». ولكن خصيان القصر الصقالبة ثاروا على الأمر و«اضطربوا، فقوم (عبد الملك) المائل وأصلح الفاسد، وجرت الأمور على التسداد، وانشرحت الصدور بما شرع فيه من عمارة البلاد، فكان أسعد مولود ولد في الأندلس»⁽²⁾. وجرى عبد الملك المظفر أبو مروان «على سُنن أبيه في السياسة والغزو، وكانت أيامه أعياداً دامت مدة سبع سنين وكانت تسمى بالسابع، تشبيهاً بسابع العروس، ولم يزل مثل اسمه مظفراً إلى أن مات سنة تسع وتسعين وثلاثمئة في المحرم، وقيل: سنة ثمان وتسعين»⁽³⁾.

لسوء حظ هشام والأندلس، توفي عبد الملك شاباً، بعد واحدة من غزواته الظافرة التي خاضها في مواجهة النصاري، وتولى أخوه الأصغر عبد الرحمن، الحجابة بعده.

(1) حداداً على المنصور، لبست الجواري «المسوح والأكسية بعد الوشي والحبر والخز»، كما جاء في المقرئ (ج 3، ص 94). (م)

(2) يقول التويري إن المعارضة لم تأت فقط من فتیان القصر، وإنما من أهل قرطبة عموماً، وإن الثورة لم تهدأ إلا عندما خرج عبد الملك بنفسه على رأس حرسه وأنزل سيفه في المعترضين فذبح منهم أعداداً كبيرة. وعلينا أن نقرأ هذا في ضوء العداوة التي كان التويري يكنها لبني أبي عامر ولكل ما يفعلونه.

(3) Makkari, ii. 221 – 2.

بما أن المقرئ يقول إن المنصور توفي في عام 1002 وعبد الملك في عام 1008 أو 1007، فلا شك أن مدة السبع سنين هذه خاطئة. (المؤلفان)

النص العربي مقتبس من المقرئ، ج 1، ص 423. (م)

لكن عبد الرحمن لم يكن قادراً على مواجهة العداوة المتنامية التي يكتنها المُضَرِّيون
السُّنة لسلالة بني عامر.

لقد كان السَّبب المباشر للعصيان الذي أدى إلى سقوط الخلافة في قُرْطُبة، أنَّ
هشاماً الذي لم يُرزق بولد سُمِّي عبد الرحمن الشَّاب ولياً للعهد. ولنا أن نتخيل مدى
ما أثاره هذا الإعلان من نقمة لدى معارضي حكم بني عامر. لقد ظلَّ الحكم في قُرْطُبة
لمتئين وخمسين عاماً في أيدي بني أُمِّية القرشيين من أبناء مُضَر. أما الآن فالحكم يكاد
أن يؤول بالوراثة إلى يماني من آل قحطان، وليس ذلك فحسب، وإنما إلى رجل ليس
سليل نسب عربي أصيل⁽¹⁾.

ويورد المقرئ نقلاً عن أحد كتاب تلك الأيام نصَّ العهد الذي ولى به هشام المؤيَّد
عبد الرحمن شنجول - لقد كان لقبه شنجول وهو تصغير لاسم شانجة (سانجو)، اسم
جدِّه لأمه. وبعد تعداد صفاته وحميد خصاله التي تؤهله لتولي الخلافة من بعده، يقول
الخليفة في العهد الذي سُمِّي فيه «المأمون أبي المُطَرِّف عبد الرحمن بن المنصور»
وليّاً لعهد، «ومن كان المنصور أباه، والمظفر أخاه، فلا غرو أن يبلغ من سبيل البرِّ
مداه، ويحوي من خلال الخير ما حواه؛ مع أنَّ أمير المؤمنين - أيده الله - بما طالع
من مكنون العلم، ووعاه من مخزون الأثر، يرى أن يكون وليَّ عهده القحطاني الذي
حدَّث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة أنَّ النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم قال:
«لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق النَّاسَ بعصاه»⁽²⁾.

(1) كانت والدَة عبد الرحمن نصرانية بنت ملك يدعى شانجة. وقد نقل دوزي عن ابن الخطيب أنَّ
«ملك الروم كان يخشى المنصور إلى درجة أنه رغب في أن يتأسبه فأهداه ابنته. ولقد أصبحت
الزوجة الأثيرة لدى المنصور وتفوقت على كل الأخريات في التقوى والصَّلاح». (Dozy, Re-
cherches, i. 209 - 10). يعتقد دوزي أنها كانت بنت سانجو غارثيا Sancho Garcia ملك
قشتالة، الذي كان المنصور قد عاهده على الصَّلاح عندما تزوج بابنته، في حوالي سنة 985، كما
يقول دوزي. [سمَّاه الكتاب العرب شانجة بن غارثيا. (م)]

(2) Makkari, ii. 222 - 4

النص العربي مقتبس من المقرئ، ج 1، ص 425.

يقول دوزي إن نصّ العهد ورد في كتابات المقرّي وابن بسام وابن خلدون والتويري، ولكن المثير للتساؤل أنّ الحديث الذي أورده عن الرسول يختلف عما أورده المقرّي، حيث جاء على الشكل التالي:

«ولا تقوم الساعة حتى يحمل رجل من قحطان صولجاناً الملك»⁽¹⁾.

ويتفق دوزي والمقرّي في أنّ تسمية عبد الرحمن شنجول ولياً للعهد هو الذي قاد إلى انهيار دولة العامين، لكن المؤرخين يوردان أفكاراً مختلفة عن أسباب الكراهية التي ووجه بها وليّ العهد الجديد.

يقول المقرّي إنه عندما سمي عبد الرحمن ولياً للعهد، «نقم عليه أهل الدولة (...) وكان أسرع الناس كراهةً لذلك الأمويون والقرشيون، فغصوا بأمره، وأسفوا من تحويل الأمر جملة من المضّرية إلى اليمينية، فاجتمعوا لشأنهم، وتمشّت من بعض إلى بعض رجالاتهم، وأجمعوا أمرهم في غيبة من المذكور ببلاد الجلالة في غزاة من صوائفه، ووثبوا بصاحب الشرطة فقتلوه بمقعده من باب قصر الخلافة بقُرطبة سنة تسع وتسعين وثلاثمئة، وخلعوا هشاماً المؤيّد وبايعوا» أحد أحفاد عبد الرحمن الثالث⁽²⁾. أمّا دوزي فيعزو انهيار دولة العامين بصورة رئيسية إلى أنّ شنجول لم يكن يقدر رجال الدين بسبب أصله، ولأنه كان يكثر من شرب الخمر وقيل إنه لم يكن ملتزماً بأمور الدين⁽³⁾. أمّا كوندّه فيقول إنّ المضّرين ناروا عليه قبل الإعلان عن تسميته ولياً للعهد.

«لم يكن لدى الملك هشام ابن يتولى الخلافة من بعده في ملكه، مع أنه لم يكن في سن متقدمة نجعله يفقد الأمل في إنجاب ولد»⁽⁴⁾. بادر الحاجب عبد الرحمن من دون أن يضع في اعتباره هذا الأمر أو يحسب حساب أقرباء الملك، متدفعاً وراء غروره الأحمق

(1) *G. der M.*, ii. 166.

(2) *Makkari*, ii. 224 – 5

المقرّي، ج 1، 425. يكمل المقرّي بأنهم بايعوا «محمّد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله من أعقاب الخلفاء، ولقبوه المهدي بالله». (م)

(3) *G. der M.*, ii. 164.

(4) كان هشام حينها في حوالي الثالثة والأربعين من العمر.

فحسب، وواضحاً ثقته في تأييد سواد الناس الذين أحبّوه وباركوه لإخلاصهم الأعمى لذكرى أبيه، واقترح وأقنع الملك بتسميته ولياً للعهد، على أن يبقى هذا الإعلان طيّ الكتمان إلى ما بعد عودته من أولى غزواته على النصارى التي كان يأمل أن يعود منها ظافراً. ومع أنّ الحديث عن هذه الأمور كان يجري في السر في قاعات القصر، فقد انكشف الأمر وأثار استياء وحقد عموم بني مروان، ولا سيما أحد أبناء عمومة الملك هشام واسمه محمّد بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، وهو شاب في مقتبل العمر، حميد الخصال، كان ينتظر أن تزول إليه الخلافة طالما لم يكن للملك هشام أبناء⁽¹⁾. خرج شنجول في غزوته، ولم يمض وقت على مغادرته قرطبة حتى بلغه أن أعداءه استولوا على القصر، واحتجزوا الخليفة هشام وخلعوه، وأزاحوه هو عن رتبة الحجابة. فأسرع عائداً أملاً في أن يؤدّي ظهوره إلى إنهاء العصيان لكنه وجد أنّ الأمور كانت قد خرجت تماماً عن سيطرته. ووقعت معركة شرسة ووقع، وقد أصيب إصابة بالغة، في أيدي خصمه محمّد، الذي أمر بصلبه.

«تم الأمر في الحال، وانتهى عبد الرحمن ابن المنصور المعظم، وأخو عبد الملك المظفر، مصلوباً على خشبة. ومع ذلك، لا يزال من يثق في سواد الناس الجاحدين المتقلّبين... وهو الذي كان إلى أيام قليلة، محبوباً مباركاً من الناس، بات في لحظة ملعوناً، فصودرت أملاكه ولم يعد اسمه يذكر إلا بعبارات الاحتقار، ولم يجرؤ صحبه على الظهور في العلن خشية من حالة الاضطراب العامة»⁽²⁾.

هناك روايات أخرى عن مقتل شنجول لا نرى ضرورة لنقلها. ويقول التويري إنّ نصرانياً يدعى الكونت ابن عومس⁽³⁾ Ibn Aumas كان يرافقه في خروجه للحرب، وإن هذا الكونت أشار على شنجول عندما بلغته أخبار الثورة عليه أن يحتمي لديه،

(1) Conde, i. 559 – 60.

(2) Conde, i. 561 – 2.

(3) يفترض غايانغوس أنّ التاسخ ارتكب خطأ في نقل الاسم وأنّ الصحيح هو ابن قومس (Ibn Kumis). ويقول دوزي نقلاً عن ساندوفال Sandoval إنه الكونت كاريون Carrion من أسرة غومث Gomez، أحد حلفائه من ناحية ليون. (G. der M., ii. 171) غومث ورد في بعض المصادر العربية اسمه «ابن غومش». (م)

في مقاطعته، حتى تهدأ العاصفة. لكن شنجول رفض ذلك لثقتة بحب أهل قُرْطبة له، فرافقه الكونت حتى دير يسمى دير شوس، حيث أسرهما رجال محمّد وقتلوهما. حُمل جثمان شنجول الى قُرْطبة حيث عُرض وصُلب على خشبة وبالقرب منه رئيس حرسه الذي أمر بأن يصيح في الناس قائلاً:

«هذا شنجول المأبون، لعنة الله عليه وعليّ!»⁽¹⁾.

يقول المقرئ إنّ الخليفة محمّد الذي تلقّب بالمهدي بالله، بعد أن استتب له الأمر وأصبحت مقاليد الأمور في يديه، حجز هشام في قصره وأسبغ على نفسه لقب الخليفة والإمام. وكان أوّل ما فعله أن أسر وقتل كل من وقع تحت يده من القادة الموالين للعامريين. وأضاف التويري أنه أحرق قصر الزاهرة الذي بناه المنصور خارج قُرْطبة، وأمر بنهب وهدم منازل أنصار بني عامر الأثرياء وسلبهم فجمع منهم غنائم كبيرة⁽²⁾.

وهكذا وبعد حوالي ثلاثة وثلاثين عاماً من العزلة الهادئة في ظلّ حكم حاجبيه اليمينين المنصور وعبد الملك، وجد هشام تعميس الحظ نفسه فجأة في خطر، ليس بأن يفقد ملكه فحسب، وإنما كذلك حياته.

يخبرنا كوندّه أنّ واحداً من الحجاب القائمين على خدمة هشام، ويدعى واضح العامري، هو الذي أنقذ حياته. فعندما صتم المهدي على قتله، ثناه واضح عن ذلك بحجة أنّ قتل الخليفة لن يجدي نفعاً، وأنّه لكونه يعيش منعزلاً وفي حراسة شديدة، فلا خوف أن يؤذي مصالح من اغتصب منه الخلافة. وأقنع واضح المهدي بأنّ هشاماً يمكن أن يعيش بأمان ووعدّه بأن يوكله لعناية من هو جدير بالثقة⁽³⁾.

(1) Makkari, ii. 489 – 90.

وقيل إنه طيف برأسه ونودي عليه «هذا شنشول المأبون المخذول»، الذمّي، «تاريخ الإسلام»، الجزء السابع والعشرون، ص 389. (م)

(2) Makkari, ii. 225, 488.

(3) يقول التويري إنّ واضحاً كان عبداً أعتقه المنصور وكان في ذلك الوقت حاكماً لمدينة سالم. ويبدو من المستحيل التوفيق بين مختلف الروايات، ولكن التقاط الأساسية أنّ حياة هشام كانت مصانة في تلك الفترة، وأن واضحاً، وإن كان يظهر للمهدي بعض التأييد في العلن، فقد

جاء عندها برجل يشبه هشام في هيئته، وفي مثل عمره وطوله، فُخِّقَ ووُضِعَ في سرير الملك، وقيل للنَّاسِ إِنَّ هشاماً أصيب بمرض عُضال، وإنه أمر بأن يولَّى محمد المهدي بالله ولياً لعهد. ثم دُفِنَ هشام المزعوم في احتفال مهيب في الباحة الأولى للقصر، واستتبَّ المُلكُ للمهدي بالله وحده⁽¹⁾.

ويورد دوزي الوقائع عينها، لكنه يقول إنَّ من قام باستبدال هشام ليس واضحاً أو أصدقاء هشام، وإنما المهدي الذي خشي أن يحتشد حوله المؤيِّدون، ولذلك صتم ليس على قتله وإنما على أن يُزعم أنه مات. لم يكن بديل هشام إنساناً بائساً ضُرب على رأسه لهذا الغرض، وإنما كان نصرانياً يشبهه وقد مات للتو؛ أما هشام الحقيقي فبقي سجين قصر أحد وزراء المهدي⁽²⁾.

عمت الفوضى مدينة قُربُبة، وظهر في الميدان طامع آخر لتولي الخلافة هو سليمان أحد أحفاد عبد الرَّحمن الثالث. ونهب سليمان والمهدي والبربر قُربُبة، وأعملوا سيوفهم في أهلها، واجتاحوا القرى والتواحي المحيطة بها. ولم يمضِ وقت طويل حتى قُتِلَ المهدي، وبعد ذلك بثلاث سنوات لقي سليمان المصير نفسه على أيدي أحد قادته الذي قُتل بدوره بأيدي وصفاء صقالبة ممن خدموا سابقاً في بلاط بني أمية.

واستمرت حالة الفوضى سنوات عدة تعرّضت خلالها قُربُبة للنهب أكثر من مرة، بما يستتبع ذلك من قتل واغتصاب وسي وتدمير، وكان الشيعة على الدوام أول ضحايا ثورات العنف هذه. ودُمِّرت مدينة الزَّهراء، الحاضرة البديعة التي بناها عبد الرَّحمن الثالث بالقرب من قُربُبة، ولقيت مدينة الزَّاهرة القريبة منها المصير نفسه، وهي التي بنى فيها المنصور وأنصاره الأثرياء قصوراً وبيوتاً ريفية. ويذكر المقرئ شاعراً شهيراً

كان مخلصاً لهشام ويعرف مكان اختبائه، وقد اغتتم أول فرصة مناسبة لإخراجه (النوري في المقرئ: 491، 494، ii. Makkari).

(1) Conde, i. 563 – 4.

(2) G. der M., ii. 176.

صادف وجوده في قُرْطُبة عندما تعرّضت للتهب: لقد قتله البربر، وبعد أن ظلّ جثمانه لثلاثة أيام ملقى في الباحة المفتوحة لمنزله، ووري الثرى في السر دون إقامة مراسم الدفن. ويضيف كوندّه أنّ الجثة أُلقيت في القبر دون أن تُغسل أو تُلفّ في كفن أبيض، وهي أكبر إهانة يمكن أن تُلحق بالميت في أعين المسلمين.

ظلّ هشام طوال هذه الفترة سالماً على ما يبدو في حجزه. وفي إحدى المرات، في سنة 1010، أخرجه واضح وأجلسه على العرش وألبسه الشارات الملكية، فما إن علم المهدي بما يجري حتى أسرع إلى غرفة العرش وحاول أن يجلس بجوار الخليفة، لكنه سُحب خارجاً وقُتل. وبدا أنّ واضحاً كان قادراً لبعض الوقت على إبقاء هشام ممسكاً بزمام الأمور، ولكن في سنة 1013، دخل سليمان وحلفاؤه البربر على قُرْطُبة، وكما يقول المقرّي «واستبج ذلك سفكٌ للدماء، وسلب لمنازل الناس وهتك لحرمانها، ولحق بيوت قُرْطُبة معرّة في نسائهم وأبنائهم، وانقلبت حال أثريائهم من الغنى إلى الفقر، وهدمت مبانيهم وسوّيت بالأرض».

لا نجد في كل سجلات تاريخ إسبانيا المسلمة أية حقبة سلك فيها اليمانيون سلوكاً يقترب من هذه الوحشية التي تعامل بها العسكر الذين يقودهم هؤلاء الأمراء والأعيان المُضْربون. كما لم تظهر وحشتهم هذه في مناسبة واحدة فحسب، فقُرْطُبة تعرّضت للتهب والسلب على أيدي كل طامع في العرش، كل بدوره، وكان يرافق ذلك على الدوام أعمال الاغتصاب والتبني والقتل، مع تجاهل تام لكل ما يمتّ بصلة لقواعد السلوك العسكرية⁽¹⁾.

ولم يُعرف ما آل إليه مصير هشام المؤيّد. ففي سنة 1016 هُزم سليمان المستعين بالله على يد علي بن حمود الذي أسره. وعندما سأله علي عما فعله بهشام، أجاب أنّ المؤيّد مات، وعندما أمر علي بنبش القبر وفحص الجثة. فكان ذلك ولم يجد على جسده آثار عنف⁽²⁾. وما من شك في أن الجثة التي فُحصت كانت للبديل الذي دُفن

(1) See Dozy, *G. der M.*, ii. 174 ff. ; Makkari, ii. 225 ff. ; and An – Nuwairi's account, *ib.* pp. 491 ff.

(2) An – Nuwairi in Makkari, ii. 497.

على أنه هشام في سنة 1009. وبما أنه كان قد مرّ على دفنه سبع سنوات، فلم يكن من الممكن التعرف على صاحبها الحقيقي.

ويورد كوندِه رواية مختلفة قليلاً عن هذه الحادثة، فيقول إنّ عليّاً بن حمود سأل والد سليمان عما فعله بهشام، وإن الأخير أنكر معرفته بما حلّ به. فقتل علي سليمان وأباه وأخاه، وأمر بالبحث عن هشام في كل أنحاء قُرطبة، «فلم تبقَ غرفة أو قبة في قصور المدينة وبيوتها إلا وقُتشت»، ولكن لم يُعثر لهشام على أثر، فأعلنت وفاته على الناس، «فراح العامة يتناقلون الحكايات والأقاويل»⁽¹⁾.

ويروي دوزي قصة مصير هشام المؤيد على النحو التالي:

هرب المؤيد من قُرطبة بعد أن دخلها سليمان وهام في بلاد الشرق ووصل إلى القدس وتعلّم صنعة الحُصر وأقام فيها سنين، ولم يرجع إلى الأندلس إلا في سنة 1033، فشاهد في مالقة والمريّة، وفي سنة 1035 ذهب إلى قلعة رباح، وبقي فيها⁽²⁾.

يقول دوزي إن عامة الناس صدّقوا هذه القصة، وإن لم يكن لها (في رأيه) أساس. والحقيقة، كما يقول، أنه كان في قلعة رباح في ذلك الوقت صانع للحُصر يدعى خَلَف، شديد الشّبه بهشام. ومن كثرة ما سمع الرّجل عن شدّة الشّبه بينهما، صار يقول للناس إنه الخليفة، فصدّقه أبناء مدينته لا بل ثاروا على واليهم إسماعيل بن ذي النّون تأييداً له. ويجدر القول إنّ خَلَفاً هذا لم يكن من أهل قلعة رباح، وهو ما أسهم كما يقول دوزي، في أن يتقبّله أهل المدينة على أنه هشام الغائب، الذي اختفى أثره. ولم يُذكر كم من الوقت عاش في المدينة، ولا من أين أتى.

يمكننا أن نتعامل مع قصة هيمان هشام في بلاد الشرق، في آسيا، دون تردّد على أنها خرافة، ولكن قصة هروبه من قُرطبة خلال فترة القلاقل والاضطرابات التي استمرّت لفترة طويلة ولجوئه إلى قلعة رباح، ليست بعيدة الاحتمال. ففي هذه المدينة ونواحيها

(1) Conde, i. 592, 593.

لكن دوزي يروي القصة بطريقة مختلفة نقلاً عن ابن حيان (G. der M., ii. 197).

(2) G. der M., ii. 197, 242 – 5.

استقرّ قوم من العرب من قبيلة جُذام الذين كانوا حلفاء مقرّبين من جهة التّسب من قبيلة مَعافر التي كانت يتسب إليها المنصور بن أبي عامر. وبالتالي فقد كانوا راغبين في تقديم الملجأ للحاكم الذي كان سبب سقوطه المباشر حبّه لبني عامر وتفويض أمر ملكه لهم. ويتفق جميع المؤرّخين الذين تمكّنوا من مراجعة أعمالهم، على نقل روايات تقول إنه كان مختبئاً في قلعة رياح.

وتبدو قصّة صانع الحُصُر في الظّاهر غير قابلة للتّصديق. ويجدر بنا أن نتذكّر أنّ هشاماً عاش منذ صغره في عزلة تامّة، فلم يظهر في العلن إلا نادراً، وأنّ السّواد الأعظم من سكّان قُرطبة أنفسهم ما كانوا يعرفون هيئته أو سماته⁽¹⁾. فكيف إذن يمكن لسكّان حضرة قلعة رياح وفلاحها أن يتعرّفوا على الخليفة الذي لم يروه في حياتهم من قبل، بعد وصوله غير المتوقّع إلى مدينتهم؟ ولا يوجد ما يشير إلى المكان الذي جاء منه صانع الحُصُر الغريب هذا، أو من كان أول من انتبه إلى الشّبه الكبير بينه وبين الخليفة الذي لم تكن قسّمات وجهه معروفة خارج قُرطبة. ولا يقدّم دوزي تفسيراً يشرح السّبب الذي جعل مواطنيه في قلعة رياح يصدّقون أنه هشام، فيما عدا أنه لم يكن من سكّانها. وكيف يمكن لصانع حُصُر متواضع، أن يستميل سكّان مدينة بأكملها، بمجرد الاعتماد على قوة الإصرار والتّوكيد، بحيث يثرون على واليهم من أجل نصرته؟ وحده الانطلاق من فرضية أنّ صانع الحُصُر في قلعة رياح كان حقاً الخليفة المفقود، من شأنه أن يجعل القصّة قابلة للتّصديق في الحدّ الأدنى.

ولكن قبل أن نكمل هذه القصّة، علينا أن نخوض في تاريخ العائلة التي قدّمت له الملجأ بعد طرده من قلعة رياح عندما حاصر الوالي ابن ذِي النُّون المدينة، أو عندما اختار ربما، أن يغادر لكي يجتنب أنصاره ويلات حصار نهايته محتومة.

لقد كان لبني عُبّاد صلة وثيقة بالسّنوات الأخيرة من حياة هشام الثّاني سيّ الحظ، وقد أصبحوا أسياداً على أكثر من نصف أراضي إسبانيا المسلمة بعد سقوط الخلافة في قُرطبة، وجعلوا من عاصمتهم إشبيلية مركزاً حضارياً في القرن الحادي عشر، في مثل عظمة قُرطبة في القرن العاشر.

(1) Makkari, ii. 27.

إنَّ أول من وصلت إلينا أخباره من تلك العائلة - باستثناء جدِّهم الأكبر عَطَاف الذي دخل إلى الأندلس في سنة 741 - هو قريش⁽¹⁾ الذي، كما يقول ابن الخطيب، كان قائد الفرقة الوسطى في حرس هشام قبل أن يُعيَّنه الخليفة إماماً على مسجد إشبيلية الكبير. ثم أصبح ابنه إسماعيل في عهد هشام قاضي إشبيلية وإمامها⁽²⁾.

كان بنو عَباد يفتخرون بانتسابهم إلى حَمِير، مثل باقي الأسر المتنسبة إلى قبيلة لَحْم. وإلى جانب نَسَبه العريق، كان إسماعيل يتمتع بمزايا عديدة رفعت من شأنه ومقامه مقارنة مع أقرانه. فقد كان واسع الثراء واستطاع الحفاظ على مكانته وسلطانه في الأندلس قبل وبعد الاضطرابات والفتن التي أعقبت خلع هشام عن الإمامة في سنة 1009، وعاش حياة ترف وأبهة شبيهة بحياة الملوك. لم يكن بين الخاصة في إسبانيا رجل في مثل مكانته هذه. كان يملك قطعاناً كبيرة من الماشية من كل نوع، ولديه حاشية كبيرة من الخدم، وكان سمحاً واسع البصيرة جواداً. كان منزله ملتجأ للبارزين من الفرسان المنفيين من قُرْبَة خلال الفتن⁽³⁾، وجعلته صراحته وتسامحه، بالإضافة إلى حكمته ودهائه، وما ظهر من صفاء سريرته، يتملِّك قلوب الجميع ممَّا أعانه على تحقيق مطامحه في تقوية منزلته وإعلاء مكانته⁽⁴⁾.

عندما توفي إسماعيل خلفه ابنه محمَّد (أبو القاسم) الذي سار على خطى أبيه فأبقى منزله مفتوحاً لمن واجهوا صعوبات في قُرْبَة، ومن بين من وفرَّ لهم الرِّعاية اللغوي أبو بكر الزُّبيدي، الذي عيَّنه الحَكَم أستاذاً لهشام عندما كان صغيراً. وعيَّن القاسم بن حمود، وهو أخو علي بن حمود الذي قتل سليمان انتقاماً منه على قتله المزعوم

(1) الاسم هو قريش Karis, Qarais. فالاسم الكامل لأبي القاسم محمَّد بن عَباد قاضي إشبيلية الذي يتسبب إليه هو محمَّد بن إسماعيل بن قريش بن عَباد بن حَمَر بن أسلم بن عمرو بن عَطَاف بن نعيم اللّخمي (1023 - 1042 م) كما يرد في تاريخ ابن خلدون الجزء الثاني. (م)

(2) Makkari, ii. 250, 503; cf. Ibn Khaldun in Makkari, i. App. xxxii. Dozy, G. der M., ii 237 - 8.

(3) يشار هنا إلى الفتن التي اندلعت مع خلع الخليفة هشام في سنة 1009.

(4) يبدو أنَّ الكاتب الذي نقل عنه كونده (Conde, ii. 7). وهو سُني كما هو واضح، وجد صعوبة في التوفيق بين إعجابه بخصال إسماعيل ومزايده، وعصيته التي تجعله يكره الإشادة بيمينه.

لهشام، محمّد بن عبّاد قاضياً على إشبيلية، وعُرفاناً له على صنيعه هذا، استقبل محمّد بن عبّاد القاسم في قصره عندما اضطر للهرب من قرطبة. وخلال حكم يحيى بن علي بن حمّود، ابن أخي القاسم في قرطبة، بقي القاسم في إشبيلية إلى حيث لحق به عبيده السود، وكذلك كل القادة البربر والأندلسيين المعارضين لابن أخيه. كان ذلك في سنة 1019، وبقي القاسم في إشبيلية حتى سنة 1023 عندما اضطرّ يحيى إلى مغادرة قرطبة، فعاد إليها عمّه⁽¹⁾.

استمرّ القتال بين القاسم وابن أخيه بعد ذلك للظفر بقرطبة، ثم ظهر طامح آخر في إعادة الخلافة للأمويين. لكن مساعيه لم تنجح وأمر القاسم بإجراء بحث دقيق في كل الأنحاء التي يملكها عن أيّ من أفراد سلالة بني أمية الذين اضطرّوا خوفاً من بطشه إلى الهروب إلى الزيف والاحتفاء في مزارع وبيوت ريفيّة وتخفّوا تحت أسماء مستعارة⁽²⁾.

بوسعنا الآن أن نعود لاستكمال قصّة هشام الثاني كما رواها ابن حبان.

«من أكثر القصص شيوعاً عن أبي القاسم (محمّد بن عبّاد) أنه التفت إلى أتباع بني مروان ممّن بقوا على قيد الحياة، ثم بلغته رسالة عن ذاك الرّجل الذي يُقال إنه يشبه هشام بن الحَكَم في هيئته، والذي لم يعد يخفي قصة هربه وإفلاته من سليمان الذي طغا عليه، واختبائه سنيّاً طويلة في الشرق، وإنه قد عاد الآن إلى إسبانيا. ووجدت هذه القصة طريقها إلى قلوب النّاس، فقد جرى الحديث عن هذا الرّجل (هشام) من قبل وأحاطت بوفاته الشكوك، لأنّ قاتله سليمان لم يُخرج جثمانه على النّاس، كما جرت العادة بين أتباع الملوك، عندما يخلعونهم عن العرش. وتفسير هذا إمّا أنّ سليمان كان ينظر بازدراء إلى أولئك الذين كان قد سيطر على أشرفهم بالقوة، أو أنّ خطأ حصل بمشيئة الله (أيّ أن شخصاً آخر قُتل بدلاً من هشام، وأنه هرب، كما كتب دوزي في ملاحظته).. أعلن بعض من أتباعه أنّ هشاماً قد مات، ولكن سرّت في الوقت نفسه

(1) يحوي متحف إشبيلية مريّة أحد ضباط القاسم.

(2) Makkari, ii. 238 – 9. Dozy, *Abbadites*, ii. 32, *G. der M.*, ii. 200; Conde, ii. 7.

أقوايل عن هذه الواقعة بعيدة كل البعد عن الحقيقة، تداولتها النساء والخصيان في قصر قُرطبة. لقد أقنعت هذه (الحكايات) بعض كبار الوصفاء القائمين على خدمة المروانيين والذين أكدوا أنه هرب سالماً وقرروا أنه لا يزال حياً....

وواصلت قصة شبيه هشام انتشارها في قلوب الناس كما تنتشر النار في الهشيم؛ تفكر ابن عباد في هذه الأمور التي قيلت عن هذا الرجل، وبناء عليه دبر خطة: فأقل ما يمكن أن يحصل له أنه سيتمكن من التخلص من حُكم ابن حمود البغيض وحض الرجال على إعلان الثورة عليه. وهكذا أعلن أنّ هشاماً جاء؛ وجمع كل النساء الباقيات في إشبيلية ممن كن في القصر أو ضمن الحريم، واللواتي تعرفن على ذاك الرجل وشهدن بأنه كان هشاماً ذاته؛ فقد ألمح ابن عباد لمن هن محل ثقة عنده بما ينبغي عليهن قوله عنه (هشام)؛ وهكذا تم الأمر، ولم تكن بهن رغبة لمعارضته، لا بل على العكس كنّ راغبات في إرضائه. وهكذا أوجد ابن عباد سبباً للحرب التي كان يسعى إلى تأجيجها على ابن حمود. وأخفى هشاماً ذاك عن أعين الناس لكنه بعث خطابات إلى الأشراف وكبار الأمراء يخبرهم بوجوده ويحضهم على بذل كل غالٍ ونفيس من أجل الخليفة المخفي عن الأنظار، من خلال تحرير العبيد وإطعام اليتامى والاعداد في السر لخوض الحرب باسمه. هبّ كثيرون في إسبانيا بلا تردد من أجل تحقيق هذه الغاية: لقد رغب أهل قُرطبة في تعيينه إماماً على كل أهالي (إسبانيا) وأرسلوا رسلاً للتأكد ما إذا كان ذاك الرجل حقاً هشام؛ ثم أصدرت شهادات ثقة بشأنه، فنشر ابن جهّور وآخرون شهادات في هذه المسألة مع أنهم كانوا يعرفون الحقيقة حق معرفة... ولكن ابن جهّور سرعان ما تراجع واعترف بأنه أدلى بشهادة زور، وهو ما ظلّ عليه لما تبقى من عمره⁽¹⁾.

يقول دوزي الذي ينقل هذه القصة عن ابن حبان وابن بسام وابن الأثير والتويري، إنّ ابن حبان والمؤرخ ابن خزم، لطالما عارضا هذه الرواية بوصفها خدعة باطلة شكلاً ومضموناً، «مع أنه كان سيكون من مصلحتهم الاعتراف بذلك المسمى هشاماً».

(1) Dozy, *Abbadites*, i. 229 – 32; iii. 82 – 3.

ويضيف بأن أبا الحزم ابن جهور (والد الكاتب) الذي كان حينها «رئيس جمهورية قرطبة»⁽¹⁾ لم تنطلي عليه الخدعة لكنه «رأى استحالة معارضة رغبة الأهالي؛ فقد كان مدركاً لأهمية توحيد صفوف العرب والصقالبة تحت راية حاكم واحد، وخشي دخول البربر إلى قرطبة، فلم يعارض رغبة أهل مدينته ووافق على إسباغ مظاهر الخلافة على هشام الثاني من جديد»⁽²⁾.

أما رواية المقرئ فجاءت على الشكل التالي:

«عندما لم يعد هناك [في سنة 1031] أحد من بني أمية يصلح لأن يتولّى الملك، اجتمع العلماء وعلية القوم من أهل قرطبة واتفقوا على أن يولّوا الأمر لأبي الحزم جهور بن محمد الذي اشتهر بالحنكة ورجاحة العقل، وكان قد تولّى الوزارة في عهد بني أمية في عهد بني عامر [المنصور وابنه]. لم يتخذ ابن جهور في البداية لقباً آخر غير لقب وزير بني أمية. لا بل إنه ذهب إلى أن يزعم أن هشاماً المؤيد بالله كان لا يزال حياً، وذلك على ما يبدو من أجل كسب طاعة ملوك الطوائف في الأندلس؛ وأمر بأن تقام الصلاة باسمه على جميع منابر المساجد، وكتب إلى القاضي ابن عباد ملك إشبيلية، وإلى المنذر ملك سرقسطة، وابن ذي التون ملك طليطلة، يدعوهم إلى مبايعة هشام، والاعتراف بقرطبة عاصمة للأندلس؛ فلم يستجب لطلبه أيّ منهم، وعليه، ولما أدرك أن خطته لم تسفر عن النتيجة المرجوة، أعلن أن هشاماً مات، واستولى على سلطان الملك»⁽³⁾.

وعن مزايا الحكم في عهد ابن جهور، يقول الحميدي⁽⁴⁾ الذي كتب في حوالي سنة 1068، إن ما يجدر ذكره أن «ابن جهور، وإن تولّى أمر الحكم وأسدل الأمان والستر

(1) وتسمى «طائفة قرطبة» وتعرف كذلك بـ «الدولة الجهورية» نسبة إلى بني جهور. (م)

(2) *Ger. der M.*, ii, 242 – 5.

الجزء الثاني من مجموعة المقطوعات التي جمعها دوزي عن بني عباد والتي تتضمن مقاطع من الأثير والتويري وغيرهما، غير مترجم.

(3) Makkari, ii, 249.

(4) جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، للحميدي، 1: 9 – 10. (م)

على العاصمة [قُربَة]، ومع أنه كان يدير الحكم بتدبير السلطان الحاكم بأمره، فلم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهراً، ولم يسبغ على نفسه مظاهر الخلافة، بل دبرها تدبيراً لم يُسبق إليه، وجعل نفسه ممسكاً للموضع إلى أن يجيء مستحقٌ يُتفق عليه فيسلم إليه كل أمور الحكم والسلطة. وهكذا أمر بأن تبقى قصور بني أمية على حالها كما كانت في عهد حكامها السابقين، ورتب البوابين والحشم على أبواب تلك القصور على ما كانت عليه أيام الدولة، ولم يتحول من داره إليها.

وبعد الحديث عن حكمة ابن جهور وبراغمته في إدارة شؤون الحكم، يضيف الحميدي هذه الفقرة، التي تقول:

«في هذه الأثناء، تمكن هشام المعتد بالله [يُسمى كذلك هشام الثالث] الذي كان معتقلاً، من الهرب ولحق بابن هود في لاردة، فأقام هنالك إلى أن مات سنة سبع وعشرين وأربعمئة (1035 م)، ولا عقب له، وانقطعت دولة بني مروان جملة، إلا أن أهل إشبيلية ومن كان على رأيهم من أهل تلك البلاد، لما ضيق عليهم يحيى بن علي الحسني الحصار، وخافوا أمره، أظهروا أن هشاماً ابن الحكم المؤيد حي، وأنهم ظفروا به فبايعوه، وأظهروا دعوتهم، وتبعهم أكثر أهل الأندلس. ولكن ذلك كله كان من تدبير ابن عباد ملك إشبيلية، كما يتنا في موضع آخر. وبقي الأمر كذلك إلى حدود الخمسين وأربع مئة (1058 م)، فإن أهل [إشبيلية] أنفسهم الذين بايعوا هشام، أظهروا موت المؤيد الذي ذكروا أنه وصل إليهم، وحصل عندهم، وانقطعت الخطبة لبني أمية على منابر المساجد من جميع أقطار الأندلس من حينئذ وإلى الآن»⁽¹⁾.

لقد نقلنا الروايات المختلفة التي تتحدث عن ظهور هشام بعد اختفائه، وربما بالتفصيل الممل، لأننا أردنا أن نضع أمام القارئ كل المواد التي يمكن بالاستناد إليها تكوين رأي.

النقطة الأولى الجديرة بالملاحظة أن ابن عباد الذي أظهر هشاماً للناس، كان يمينياً، وأن ابن جهور، الذي كان - كما يقول ابن حبان - أول من اعترف به ثم سحب اعترافه،

(1) Makkari, ii. App. pp. xvi. - xvii.

كان وزيراً في خدمة الحاجب المنصور؛ في حين أنّ كل المؤرخين الذين تم الاستناد إليهم يتمون إلى المُضَرِّين أو الشُّنَّة. كان هشام بالكاد يعدّ أمورياً في نظرهم، فقد كان حضور حاجبه العظيم طاغياً عليه، وكان ارتباطه بسلالة حاجبه ارتباطاً وثيقاً إلى درجة أن سقوط دولة بني عامر كان من نتيجته أن خُلِعَ عن الخلافة بلا انتظار.

يشدّد دوزي على واقع أنّ ابن حَيَّان والمؤرخ ابن خَزَم رفضا الاعتراف بهشام المزعوم، مع أنهما كانا معنيين أن يفعلوا. ونحن لا نرى كيف يمكن لذلك أن يكون من مصلحتهما، كما أنه بالتأكيد سيكون مخالفاً لمبادئهما أن يقرّا بإمامة رجل وهو، وإن كان من العائلة الحاكمة، كان على ارتباط وثيق باليمينين خلال فترة حكمه، كما يعود الفضل في ظهوره مجدداً إلى تلك السلالة الممقوتة. عندما نتذكّر أنّ المُضَرِّين تعمّدوا إغراق البلاد في الفوضى بسبب بُغْضهم لحُكْم اليمينين الذين بلغت إسبانيا المسلمة في عهدهم أعلى مراتب المجد، سندرك كم كان الشُّعُور بالوحدة ضعيفاً، وكم كانت الغيرة الوطنية ضئيلة مقارنة مع العصبيّة القبليّة، وبالتالي كم كان يستحيل على الكتاب الشُّنَّة مثل ابن حَيَّان والحميدي والمقري أن يوردوا روايات خالية من التحيز وخصوصاً لأحداثٍ عاصروها.

يُعتَبَر ابن حَيَّان الذي عاصر كل الفتن والاضطرابات في القرن الحادي عشر (وُلِدَ في عام 987 أو 988، وتوفي في عام 1076)، مرجعاً موثقاً وصاحب الكلمة الأخيرة بالنسبة لأحداث عصره؛ ولكن فيما يتعلق بمضمون ما كتبه، فلا شك أنه اعتمد على معلومات حصل عليها بطريقة غير مباشرة من مصادر أخرى بالنسبة لكل ما كتبه عن بني عُبَّاد وهشام بعد اختفاء الأخير في سنة 1013، وهناك بعض الشك في أنه لم يكن شديد الدقة في التحقق من صحة التقارير التي كانت تصله، نظراً لأنها تتضمن تشويهاً لصورة الرّجال والأسر التي كان يشعر بكرهية تجاهها. أمّا بالنسبة للحميدي، فإنّ ما نقله بشأن إعلان ابن جهور عن وفاة هشام بعد أن أعلن مبايعته له إثر رفض باقي ملوك الطوائف مجاراته في الدّعوة له، يتناقض ليس مع الوقائع فحسب (لأننا وكما سنرى، فقد لقيت دعوته لمبايعة هشام قبولاً واسعاً) ولكن مع ما نقله الحميدي نفسه من أنّ

الصلاة ظلت تقام باسم هشام في المساجد حتى سنة 1058. وقد توفي ابن جهور نفسه في سنة 1043، وخلفه ابنه ابو الوليد، «وتولى الأمر بعده على هذا التدبير في شؤون الحكم، إلى إن مات»⁽¹⁾.

أما المؤرخ الآخر الذي يعتبر دوزي رفضه للاعتراف بهشام نهائياً فهو ابن خزم. ويقول عنه السنيور پونس: «لو أن رجلاً في مثل وقار ابن خزم اعترف بالمدعي، لكن هذا حذوه العديد من مؤيدي الخلفاء الشرعيين، وكان يمكن لذلك الفريق أن يعزز قوته من خلال التحالف مع ابن عباد؛ ولكن ابن خزم كان على قدر كبير من النزاهة لكي يربط اسمه بتلك الخديعة، حتى وإن كانت ستعود عليه وعلى قومه بالفائدة».

ولكن بني خزم، وكما يقول الكاتب نفسه، كانوا من عمال بني أمية، وهذا الرجل نفسه كان وزيراً في عهد عبد الرحمن الخامس، سادس المطالبين بعرش قرطبة والذي ظهر بين سنتي 1009 و1024. لقد كانت عائلة بني خزم تلك قوطية النسب وكان جدّ المؤرخ أول من اعتنق الإسلام فيهم. كان والده أبو الخزم بن جهور كما ذكرنا سابقاً وزيراً للمنصور وابنه عبد الملك المظفر، وبالتالي كانت مصلحته، إن لم يكن نسبه، تفترض به أن يكون حليفاً لليمنيين. ولكن ابن خزم نفسه لم يكن يقبل مثل هذا الانتماء، بعد أن تبرأ من عائلته، ويوصفه عاملاً لدى بني أمية ووزيراً لدى أحد الطامحين إلى الخلافة، فمن الصعب أن يكون لديه استعداد للاعتراف بالخليفة الذي كان ظهوره سيخدم إلى حد كبير ويرجع كفة ملك إشبيلية اليمني. أما بشأن مكانته وتبجيله الذي يعول عليه السنيور پونس، فربما يكفي القول إن أهل قرطبة خلعوا سيده عبد الرحمن الخامس (المستظهر بالله) لأنه «أنشغل عن أمور الحكم وكان يقضي وقته مع العلماء والشعراء، مندفعاً وراء أهوائه الوضيعة». وأبو محمد ابن خزم متّين خُصوا بالذكر من بين هؤلاء الشعراء والأدباء، و«لقد اشتهر بالرد على العلماء» من مختلف المذاهب الدينية بطريقة ساخرة مثيرة للجدل دون أن يتردد في تسفيه آرائهم. ولقد أكسبته آراؤه

(1) Al - Homaidi in Makkari, ii. App. pp. xvi. - xvii.

الجدلية في نهاية الأمر عداوة الفقهاء المتزمتين ما اضطره إلى الهرب للتجاة بحياته⁽¹⁾.

وهكذا نرى أنّ شهادات ابن حبان وابن حزم، الرّجلين الوحيدين اللذان ذكر اسمهما بوصفهما اعترضا على اعتبار الرّجل الذي احتفى بقلعة رباح هو هشام المفقود، ليست جديدة بالثقة في قضية تتعلق بحسن تية أعدائهما، أي اليمينيّين. من جهة ثانية، لدينا «الشهادة الثابتة» لرّسل قُرطبة التي نقلها ابن حبان، ونساء حريمه اللواتي تعرّفن عليه، واعتراف حكام كافة الدّول اليمينية في إسبانيا به إماماً عليهم.

ويُضعف ابن حبان شهادة النّساء من خلال تأكيده أنّ ابن عباد أخبرهن بما ينبغي لهنّ قوله، ولكن كيف يمكن تفسير وجود هؤلاء النّساء في إشبيلية بعد عشرين عاماً من اختفاء الهشام من قُرطبة؟ ولا يشير ابن حبان إلى أنهن دجالات، أحضرهن ابن عباد لتأدية دور محدد: لا بل على العكس فهو يقول إن ابن عباد «جمع كل النّساء الباقيات في إشبيلية ممن كن في القصر أو ضمن الحريم». التفسير الوحيد لذلك أن هؤلاء النّساء، عندما قرّهن هشام من قُرطبة، هربن كذلك - بلا شك في حماية بعض من الموالين لبني عامر - ولجأن إلى المدينة في كنف الرّجل المعروف بولائه لمسعى الخليفة.

وقد تكون هناك علاقة أخرى أو ثقب صلة بين بني عباد أصحاب إشبيلية وحفيد الخليفة عبد الرّحمن الثالث المولّد. فبنو عباد من قبيلة لَحْم، ويبدو (راجع الصّفحة 158 طبعة الأصل) أنّ جدّهم الأول كان بدرجة أو بأخرى على صلة قرابة باليميني الرّوج الثّاني للأميرة سارة. لقد كان عبد الرّحمن الثّالث، كما نعرف، على صلة قرابة ببني إسحاق الذين كان أبوهم النصراني سليل إسحاق ابن سارة، وبالتالي قد تكون هناك صلات قرى ونسب حقيقية بين هشام من خلال أم جدته النّصرانية ومحمّد بن عباد⁽²⁾. وكان الانتساب للأميرة سارة، وكما أشرنا في السّابق، ذا قيمة كبيرة، سواء من

(1) على الرّغم من أنه نبذ عائلة أبيه وأنكر أي علاقة بهم، فقد التجأ عندما وجد نفسه في حال الخطر واحتفى في جبل مونتيليكوم Momelixam في لبلّة Niebla، حيث عاش أجداده النصارى (Makkari, ii, 242).

(2) إنّ عدد الأجيال ما بين الأسلاف والفرد المعني لم يكن ذات أهمية بالنسبة للعرب الذين اعتادوا على تتبّع النّسب إلى أصل العائلة في اليمن.

زوجها المسلم الأول أو الثاني، بحيث أن ابن القوطية حمل الاسم مثل وسام شرف خلال القرن الذي سبق القرن الذي نكتب عنه.

فإن كانت هناك صلة قرابة فعلية، مهما كانت بعيدة، بين هشام وبني عباد، فإن ذلك سيشكل سبباً قوياً لحمايته إن كان حقاً الرّجل المقصود، في حين يضعف ذلك احتمال أن يهينوا عائلتهم واليمينين بصورة عامة بأن يطلبوا منهم تأييد دجال لم يكن حتى شريف النسب.

واصل بنو عباد حماية هشام المسكين المغلوب على أمره بعد تقدّمه في السن ولسنوات عديدة، وواصلوا الاعتراف به خليفة لهم وإمامهم، وظلّوا يخطبون باسمه من على منابر المساجد. ولم يكونوا وحدهم من أخلص له.

يقول ابن حبان إنه «ومع أنه كان محتجباً في الظل عن أعين الجميع ولم يكن يظهر لا على الحاشية ولا على الناس، فقد كان أمراء شرق إسبانيا يعترفون بسلطانه» (كانت كل المناطق الغربية الجنوبية تحت حكم بني عباد).

لو كان ذلك الرّجل هشاماً الحقيقي، فليس مستغرباً أن يخشى ضوء النهار وألا يرغب غير أن يعيش في عزلة هادئة، بعد أن اعتاد منذ طفولته على حياة العزلة التامة، وصدمته وروّعته الأحداث التي سبقت هروبه من قرطبة. ولكنه لو كان دجالاً أظهره بنو عباد لغاية في أنفسهم، كما يقول ابن حبان، فلماذا سيتخذ هو أو هم نمط حياة مثيراً للشكوك بكل تأكيد؟ فلم يكن لديهم دافع لحجب رجل شديد الشبه بهشام قبله الناس بوصفه هشاماً، وليس نساء قصره فحسب وإنما الرّسل الذين جاؤوا من قرطبة. لا بل على العكس من ذلك، فكّلما ظهر الدّجال أكثر على الناس، كلما كان ذلك سيبدو أفضل، لأنّ ذلك سيخدم خططهم، وإن كان ذلك لمجرد جعل الناس يعتادون على فكرة وجوده بينهم ليس إلا. لقد كان قلّة في قرطبة معتادين في الأصل على ظهوره⁽¹⁾.

(1) يخبرنا كوندّه أنه حتى عندما كان يحضر الصّلاة في المسجد في شبابه بالجامع الكبير في أيام الأعياد، لم يكن هشام يترك مقصوره *maksurah* وهي المنبر المرتفع المحاط بقضبان مذهبة المخصص للخلفاء خلال إقامة الشعائر إلى أن يكون الجميع قد غادروا المسجد، فكان يخرج

أنا في إشييلية، فلم يشاهده أحد على وجه التأكيد في تلك المدينة إلى حين هروبه من قلعة رباح خوفاً على حياته.

إن ما نُقل عن نمط الحياة التي اتبعها هشام، حتى في قمة مجده كخليفة على بلاد عرفت كل أسباب العظمة في عهد المنصور، يفترض أنه كان يعاني من مرض عصبي مزمن كان يدفعه إلى أن يتأذى بنفسه عن عيون الناس. وربما حصلت أول محاولة (غير مسجلة) لاغتياله عندما كان لا يزال طفلاً صغيراً. ويقول دوزي إن محاولات التخلص منه كثرت لدى وفاة أبيه الحكيم. فلو أن المتأمرين عليه - وعلينا أن نتذكر أن رئيسهم وأولهم كان عمّه الذي كان من الطبيعي أن يكون لديه إذن بدخول القصر - ذهبوا إلى حدّ ترويع الأمير الصغير بأي شكل من أشكال العنف الجسدي، فمن المحتمل أن يكون ذلك قد سبّب له أذى مستديماً. لقد قيل لنا إن واضحاً كان عليه أن يخرج من عزله في إحدى المناسبات ويجلسه على عرشه (راجع الصفحة 187 طبعة الأصل) في حين أن أي رجل طبيعي كان سيشتق طريقه خارجاً في اللحظة التي ترفع فيه القيود المفروضة على تحرّكاته. قيل لنا إنه كان مبتعداً عن أعين الناس في حياة والده. ويعود تاريخ عزلة الأمير - الخليفة الصّارمة داخل جدران قصره، حيث لم يكن أحد يدخل عليه ليراه إلا بناءً على إذن خاص من أمه أو حاجبه، إلى المؤامرة المخيفة التي كلّفت كبير المتأمرين عليه عمّه المُغيرة حياته.

ولو افترضنا أن هشام الطفل تعرّض للتخويف إلى درجة إصابته بحالة من الحياء العصبي المزمن، والتي كان من شأن العزلة التي عاش فيها أن تفاقمها بدلاً من أن تخففها، فسيسهل أن نتخيّل الحالة التي انتهى إليها بسبب أحداث السنوات العشرين التي أعقبت قتل شنجول. إن الأحوال التاجمة عن تعرّض قُرْبَة بصورة متلاحقة للتهب والسلب، والتي لا شك أنه عايشها، والتهديدات التي تلقاها من سجنائه المتعاقبين، واحتجازه المتكرّر، وهروبه إلى قلعة رباح واختبائه فيها مدّة طويلة، وأخيراً قيام ملك

حينها محاطاً بحاشيته وحراسه ويعود إلى القصر القريب منه وبالكاد يتسنّى للناس أن يروه.

(i. 509 - 10.)

طليطلة بمهاجمة مخبئه، كانت كافية لتسحق آخر ما تبقى من جرأة كان يمكن أن يملكها، والأرجح أنه ما كان يمكن لبني عباد مهما بذلوا وحاولوا أن يجعلوه يخرج من عزلته داخل القصر، ما إن وجد نفسه داخل أسواره الواقية.

مثل هذا التصرف، لو كان الرجل هشاماً، يتفق تماماً مع ما نعرفه عن حياته السابقة. ولكن لا يوجد ما هو أقل احتمالاً من أن يرفض دجال ادعى أنه الخليفة بدافع من الغرور والمطمح وعن طيب خاطر كل أسباب الأبهة والمظاهر البراقة التي كان يمكنه أن يستحوذ عليها وينعم بها ما إن تنطلي حيلته على الناس، من أجل أن يعزل في قصر بني عباد وبالتالي يزيد من صعوبة اقناع المتشككين بأنه حقاً هشام.

لقد بقي «الدجال» كما يسميه ابن حبان ودوزي، في إشبيلية حتى سنة 1059، عندما، وطبقاً لما يقوله ابن حبان، «جاءنا الرسل عدة مرات، نحن أهل قرطبة، يبلغوننا أنه لا ينبغي بعد اليوم أن تتلى الصلاة باسم الإمام هشام بن الحكم في المساجد في أي من ممتلكاته، فقد توفي من كان اسمه يذكر على الدوام في الخطبة منذ أن تولى محمد بن عباد شؤون المملكة وحتى نهاية هذه السنة». ويضيف أن المعتضد (ابن وخليفة محمد بن عباد) جمع شيوخ إشبيلية وأشرفها وأعلن عليهم أن هشاماً توفي قبل وقت نتيجة شلل أصابه، ولكن، وبما أنه كان حينها في إحدى غزواته، فقد أشار عليه «أمراء إسبانيا» (أي أولئك الذين اعترفوا بهشام خليفة) ألا يعلن موته وألا يقيم مراسم دفن عامة. والآن، وقد حلّ السلام، فقد اقتضى الأمر إعلان الحقيقة على الناس⁽¹⁾.

يقول ابن حبان هنا إن الصلاة كانت تتلى باسم هشام في المساجد «منذ أن تولى محمد بن عباد المملكة». وإن كان يمكن الاعتماد على ابن حبان في سرد هذه الواقعة، وإن كان يعني بتولية المملكة عندما خلف محمد أباه إسماعيل، فإن ذكر اسم هشام في الخطبة سابق لظهوره بنحو اثنتي عشرة سنة، لأنّ محمداً خلف أباه في سنة 1023. ومن شأن هذا أن يقوّي نظريتنا القائلة بأن بني عباد لم يغفلوا أبداً عنه وإنما انتظروا الوقت المناسب لإعلان وجوده على الناس.

(1) *Abbadites*, i. 277 – 8.

أياً كان الأمر، فنحن نعرف من ابن حيان والحيمدي أنّ الصلاة ظلت تتلى باسم هشام حتى سنة 1058 أو 1059. لقد خلف المعتضد أباه محمّد بن عبّاد في سنة 1042، والمؤكد أنه عندما اعتلى العرش، إن لم يكن قبل ذلك، كانت سلطة بني عبّاد شديدة الرّسوخ والقوة وما كانوا بحاجة إلى هبة أو دعم يمكن أن يحصلوا عليه من أن يصبحوا وزراء لدى خليفة في الظل، محتجب عن العيون داخل جدران قصرهم. وحتى وإن كان محمّد قد أظهر على الناس خدمة لأغراضه الخاصة خليفة مزيفاً، ولم يفكر فيما بعد أنه من المناسب التملّص منه، فلم يكن هناك من سبب حتى وإن جعل المعتضد يواصل تلك الخديعة. كان يمكنه وبكل سهولة تدبير قتل الرّجل أو حجزه وإعلان موته. فلماذا تحمّل مشقة الاحتفاظ بصانع الحُصر هذا المتنكر في هيئة ملك في أحضان عائلته عندما لم يعد ينفعه؟ ويعيداً عن انكار الدّجال المزعوم أو التخلّص منه، خلف المعتضد أباه بعد وفاته واتّخذ لنفسه «لقب حاجب» أو رئيس وزراء هشام⁽¹⁾، وعندما نعى وفاته إلى أشراف إشبيلية، «قيل إنه خطب في الوقت نفسه إلى أمراء إسبانيا الذين بايعوا هشاماً هذا الذي كان محتجزاً مثل رهينة، ليعلن لهم وفاته ويدعوهم إلى اختيار إمام آخر مكانه»⁽²⁾.

لقد تعامل المعتضد إلى النهاية باحترام وتقدير مع الرّجل المسنّ المسكين الضّعيف الذي اعترف بإمامته عليه. ودفن هشاماً في مراسم تليق بملك، وتبع بنفسه موكب الجنازة سائراً على قدميه خلف النعش وقد خلع طيلسانه⁽³⁾ *tailesan* «سيراً على عادة حجاب الخلفاء»⁽⁴⁾.

ينبغي أن نحسم مسألة ما إذا كان «صانع الحُصر من قلعة رياح» الخليفة المفقود أم دجّالاً سوقياً، إن كان الحسم ممكناً، على أساس الموازنة بين الاحتمالات. ويمكننا أن نلخص القضية باختصار لمصلحته.

(1) Dozy, *Ger. der M.*, ii. 273.

(2) Ibn Hayyan, in *Abbadites*, i. 278.

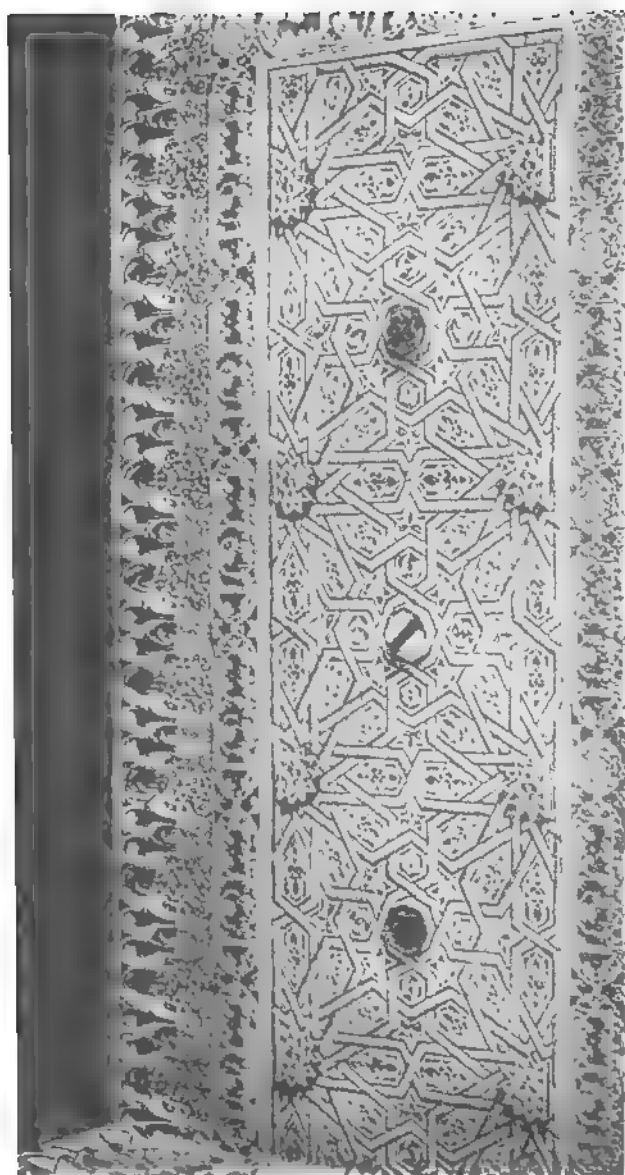
(3) الطّيلسان، أو التّيلسان، كلمة فارسية الأصل ومعناها العبادة التّوداء التي توضع على الكتف. (م)

(4) Dozy, *Ger. der M.*, ii. 294; and *Dictionnaires des vêtements*, p. 280.

من المؤكد أنّ أهل قُرْبَة لم يعرفوا ما حلّ به، فقد قيل هناك إنه قتل وبعث مراراً⁽¹⁾. السؤال هو في معرفة إن كان اليمينيون أصدقاء بني عامر عرفوا أم لم يعرفوا منذ البداية أنه كان لا يزال حياً. لقد أعلن ابن جهور، العامل السابق لدى المنصور، منذ توليه الحكم في قُرْبَة أنه يحكم بوصفه نائباً لحاكم أعلى مرتبة منه، وهو ما فعله ابنه من بعده وهو الذي أعلن بنفسه مبايعة هشام، كما يقول المقرئ. وعندما أخرج ابن عباد هشاماً المزعوم على الناس، تعرّف عليه رُسل جاؤوا من قُرْبَة لهذا الغرض، والنساء اللواتي بقين من حريمه، في حين استمرّ بنو عباد، الأب ومن بعده ابنه، يحكمون باسمه إلى مماته، حتى عندما لم تكن مكانتهم ستعزز عندما يحكمون أو يزعمون أنهم يحكمون باسمه. وليس لدينا ما يعارض هذا سوى تأكيدات ابن حبان وغيره من الكتاب الثثة الذين قادهم تحيزهم العصبي بصورة دائمة إلى تشويه صورة اليمينيين بكل وسيلة ممكنة. فلو كان الرجل دجّالاً لاستعصى فهم سلوك ابن عباد وابن جهور وغيرهم من الأمراء الذين اعترفوا به خليفة لهم. أمّا إذا كان من ناحية ثانية الرجل الحقيقي، فإنّ اعترافهم به واحترامهم له حتى يوم وفاته، كان طبيعياً تماماً، بالنظر إلى إخلاص اليمينيين وحبّهم لسلالته منذ أن اعتلى جده عبد الرحمن الثالث المولّد عرش قُرْبَة⁽²⁾.



- (1) يورد ابن بشام نقلاً عن ابن حبان الروايات التالية التي شاعت في وقت أو آخر عنه: لقد قتله المهدي ودفن في احتفال عام كما لو أنه مات ميتة طبيعية. ثم أعاده إلى الحياة واضح الضلّبي الذي أعلن أن ذلك كان خطة دبرها من منصب السلطنة ذلك، وأنّ هشاماً لا يزال حياً. لقد أمر سليمان بخنقه عندما استولى على قُرْبَة، ودفنه في السر، ولكن بعد سنوات وبعد خلع الممّنّد بالله (هشام الثالث) في سنة 420 (1029 - 1030)، ادّعى الوزير جهور أنه كان لا يزال حياً وأمر بأن يخطب باسمه في كل مساجد قُرْبَة... وأخيراً، أعلن أبو القاسم قاضي إشبيلية الطامع إلى توسيع مملكته ويسط سلطته على المزيد من أراضي إسبانيا، أنه عثر على هشام في زنزانه في قلعة رباح (Makkari, ii, 503).
- (2) ينقل ابن الأثير عن ابن أبي الفياض قوله إنّ أهل قلعة رباح اعترفوا بإمامة هشام عندما وصل إلى بلدهم، لكنهم اضطروا لإخراجه منها خوفاً من ابن ذي التّون. وفي معرض الإشارة إلى قصة موته المفترض وزعم ابن عباد بظهوره، يلاحظ ابن الأثير بتهكم سخف الافتراض بأنّ دجّالاً بوسع كخليفة وتسبب بحروب دامية بعد عشرين سنة من وفاة هشام الحقيقي. (Ibn Al - Athir, 438 - 40). ويبدو أن دوزي قلّل من أهمية هذا المقطع.



تفاصيل سقف من عهد الموحدين في قصر إشبيلية وقد رُكبت فوقه وبطريقة مختلفة وأقل اتقاناً وابداعاً شارتا قسنالة وليون اللتان كان يحملهما فرناندو الثالث في عام 1248. وبينهما الدرع الذي منحه إلى صديقه وحليفه ابن الأحمر ملك غرناطة (الصفحة 346 طبعة الأصل) على شكل شريط يخرج من أفواه الثنايين والثمايين، وقد أصبح فيما بعد شعار رتبة فرسان لا باندا (الفرقة).

الفصل الثاني عشر

بنو عباد في مملكتهم

إنَّ الفكرة الشائعة عن ابن عباد الملقب بالمعتضد بالله، الثاني في سلالة بني عباد حكام إشبيلية، في العالم هي أنه همجي متوحش كان يحتفظ برؤوس قتلاه ويتلذذ بتزيين حديقة قصره بجماجم أعدائه التي كان يعلّقها على أعواد على شكل نباتات أو أزهار. ولم نتمكن من معرفة مصدر هذه القصة التي يرويها كل مؤرخ سُني، وإن لم تتفق أي من رواياتهم مع الأخرى. فيقول أحدهم إنَّ الجماجم حُوّلت إلى أصص جميلة موشاة بالذهب ومرصعة بالياقوت والزُّمُرد والعقيق. ويقول آخر إنها كانت تملأ حديقة أو خزانة واسعة مستيعة كبيرة أمام بوابات القصر⁽¹⁾. ويقول ثالث إنها كانت محفوظة في خزائن في جرار محكمة الإغلاق. وهناك من ينسب هذه الهواية الفريدة في إقامة حديقة مملوءة بالجماجم المرفوعة على أعواد إلى مغتصب عرش قُرطبة محمّد المهدي الذي توفي في سنة 1010 قبل أن يولد حاكم إشبيلية المعتضد.

ما من شك في أنَّ بني عباد، مثلهم مثل كل أسلافهم ومعاصريهم ومن خلفهم، تلقوا أحياناً رؤوس أعدائهم بعد تحنيطها بالكافور على شكل تذكارات للتصنير. كانت

(1) «ولنذكر كلام ابن اللبّانة وغيره في حقهم فنقول: وصف المعتضد رحمه الله تعالى بما صورته: المعتضد أبو عمرو عباد رحمه الله تعالى، لم تخل أيامه في أعدائه من تقييد قدم، ولا عطل سيفه من قبض روح وسفك دم، حتى لقد كانت في باب داره حديقة لا تثمر إلا رؤوساً، ولا تنبت إلا رئيساً ومرؤوساً، فكان نظره إليها أشهى مقترحاته، وفي التلّفت إليها استعمل جلّ بكره وروحاته، فبكى وأرق، وشتت وفرق، ولقد حكى عنه من أوصاف التّجبر ما ينبغي أن تصان عنه الأسماع، ولا يتعرّض له بتصريح ولا إلماع»، المقرّي، ج4، ص 242. (م)

هذه الهدايا تُقدّم باستمرار إلى الأمراء الظافرين. وهكذا أهدي رأس عبد العزيز المحتط بالكافور في حضور أبيه موسى إلى الخليفة سليمان في بداية القرن الثامن، وأهدى يدرو ملك قشتالة صديقه ملك غرناطة الشرعي رأس معتصب العرش المعروف باسم الملك الأحمر محتطاً في الكافور في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، وبين هاتين الهديتين كثير غيرهما خلال الفترة الفاصلة بينهما والممتدة على 650 عاماً. وهكذا فلو قبل المعتضد ملك إشبيلية الذي حكم من سنة 1042 إلى 1069 رؤوساً محتطة من أصدقائه، فلا ينبغي وصفه بالمتوحش الهمجى لأنه كان يتصرف بما تمليه عادات عصره.

وعدا عن هذه القصة، لم نعر على أي شيء يدل على أنّ أيّاً من أشرف بني عبّاد، سواء من الولاة أو الحجاب أو الملوك الذين حكموا إشبيلية لحوالي ثلاثة أرباع القرن، كانوا يتصرفون بطريقة مختلفة عن أبناء ملّتهم ودينهم في معاملتهم الإنسانية والطّية لمن خضعوا لسلطانهم.

لقد أشرنا فيما سبق إلى التهجّج أو الوصايا التي كانت تشكّل أساساً لشخصية وسلوك النّسبة (راجع الصفحة 75 طبعة الأصل)؛ وبيننا الخصال التي اشتهر بها مؤسس سلالة بني عبّاد، وكيف حافظ ابنه وحفيده محمّد المُعتمد وعبّاد المعتضد اللذان خلفاه في الحكم بانتظام على التقاليد العائلية والقبلية في الضيافة والإخلاص في معاملتهما لهشام الثاني عندما التجأ إليهم واحتمى بهم.

لم يُكتب سوى القليل عن الحياة الخاصّة للمعتضد. فالكتاب الشّنة يؤكّدون أنه كان متوحّشاً متعطّشاً للدماء، لكنهم لم يقدّموا أيّ دليل على ذلك، فيما عدا قصّة الرّؤوس. لقد علمنا أنه كان شديد التعلّق بعائلته، وكان مولعاً بقراءة الطّالع. كما يقول لنا ابن حبان إنه كانت لديه حتى في حياة أبيه سبعون جارية في حريمه، وأنّ عددهن ازداد إلى ثمانمئة بموت أبيه محمّد. لقد اعتبر الكاتب ذلك دليلاً على شهوانية مبالغ بها، لكن امتلاك سبعين جارية كان امرأ شائعاً في ذلك العصر حتى لدى رجال أقلّ مكانة من المعتضد. أمّا زيادة العدد إلى ثمانمئة عند توليه الملك فهو على الأرجح من صنع

خيال ابن حَيَّان الذي لم تطأ قدمه يوماً قصر بني عَبَّاد، هذا لو أنه زار إشبيلية أصلاً، وهو إنما لم يفعل على الأرجح سوى ترديد الشائعات التي كان يروّجها أصدقاؤه في قُرْبَة والذين كانوا يعملون على تشويه كل أفعال أمراء إشبيلية بهدف الإساءة إلى سمعتهم. وأياً كان عدد نساء قصر إشبيلية خلال حكم المعتضد، فيمكننا أن نحذف منه عدداً كبيراً من نساء الخليفة هشام الذي عاش فيه وكأنه في قصره.

وعلى الرغم من تصوير حريمه بهذه الضخامة، فقد وُصف المعتضد بأنه كان متعلقاً بشغف بزوجه الأميرة دانية ابنة مجاهد العامري، ومع أنّ الكتاب الشَّنة قالوا إنه تزوّجها فقط لأسباب سياسية، فإنه لم يتخذ غيرها زوجة لها. وعندما وُلد ابنه المُعْتَمِد، جعل أبوه محمّد المنجمين يقرأون طالعه، فأنبأوه أنه سيعيش في عظمة ورخاء ولكن نهايته ستكون بائسة - وهي نبوءة قلّما غابت عن ذهنه عندما صار رجلاً⁽¹⁾.

اشتهر المعتضد بسعة علمه، مثل أبناء سلالته، ونظمه للشعر وإن كان ابنه قد تفوّق عليه في ذلك. ويصف المقرئ الأبهة والعظمة التي أحاط بها ملوك إشبيلية هؤلاء بلاطهم وسخاءهم اللامحدود في إكرام الأدباء والشعراء وحبّهم وشغفهم بالعلم⁽²⁾.

وكان من عظم حبّ المعتضد لأولاده أنّ ما عَجَلَ بموته وأدنى أجله، كما يقول كوندّه، حزنه على موت إحدى بناته.

«حدث [في سنة 1068] أنّ ابنة لملك إشبيلية⁽³⁾، وكانت فائقة الحسن والجمال، أصابتها حتّى فماتت في ريعان صباها بين ذراعي والدها الذي كان مولعاً بها، وكانت أثيرة لديه. لقد بلغ الألم والحزن من المعتضد مبلغاً حتّى أصابته الحتّى وأعيته، وأصابه خمول فخشى أطباؤه على حياته، وأعطوه عقاقير منشطة فبدا عليه التحسن.

(1) Conde, ii. 24.

(2) Conde, ii. 250.

(3) يورد المؤلفان اسم ابنة المعتضد: Taira ومن الواضح أنّ هذا خطأ، مرّدّه النقل عن ابن الأثير في الحلة السَّيراء: «هلكت له بنتٌ أثيرة لديه»، فظنّا أنّ اسمها «أثيرة»، وتورد بعض المصادر أنّ اسمها ريحانة لكنّ هذا غير مؤكّد، وكان للمعتضد 20 ابناً من الذكور و20 من الإناث، ولا سبيل لحصر أسمائهم. (أحمد)

لكنه رغب في مشاهدة مراسم الدفن المهيبة التي أعدت لابنته الصغيرة: لقد حمل كبار وزراء القصر النعش وأمر المعتضد بأن تُدفن الأميرة عند مدخل القصر. كان الوقت نهاية شهر مارس وعلى الرغم من تحذير الأطباء، جلس المعتضد بالقرب من نافذة ليتابع الدفن، فازداد اعتلالاً. وسرعان ما تدهورت حالته، حتى لم يعد من أمل في شفائه، وبعد أسبوع من وفاة ابنته، قضى الله بتخليصه من آلامه، فاشتدت الحتمى عليه وفقد قدرته على النطق، وانتقل إلى رحمته تعالى في منتصف الليل. في تلك الساعة علا النواح من قصره، وتردد صدى نحيب عبيده وأهله في أرجاء المدينة.

ببيع ابنه المُعتَمِد في اليوم التالي، وأعلن ملكاً وطاف على ظهر حصانه عبر شوارع المدينة يرافقه كبار وزرائه وقادة جيشه الذين أسبغوا عليه ألقاباً تبشّر بحسن الطالع. ثم أمر بأن يُدفن أبوه في احتفال مهيب إلى جانب أخته، عند بوابة القصر، «في مساء ذلك اليوم بعد أن ترحموا على المعتضد طالبين من الله أن يغفر له الله ذنوبه وخطايا»⁽¹⁾.

يروي دوزي قصة المعتضد وسفكه لدماء أمراء رُنْدَة البربر⁽²⁾، ومثل قصة الجماجم والزُّؤوس، فقد عُذَّت دليلاً قاطعاً على وحشيته المطلقة. وهي كالتالي.

كان بربر الجنوب في سنة 1052 في حالة صلح مع المعتضد وقد اعترفوا بسلطانهم على تلك التواحي، «أو بالأحرى إمامة ذاك المسمى هشام الثاني». قرّر المعتضد أن يزورهم بشكل مفاجيء وفي نيته أن يخلعهم كلهم ويستولي على دويلاتهم. وهكذا، ذهب برفقة اثنين فقط من عامليه، لزيارة أبي نور ابن أبي قرة، صاحب رُنْدَة، ومحمد بن نوح صاحب مورور، دون أن يلمح إلى ما يضيره لهما. ويعلق دوزي على التصرف المتهوّر للمعتضد «الذي كان يعرف مدى كره البربر له»، ويشرح ذلك بقوله إنه على الرغم من عدم إخلاصه لأيّ كان، فإنه من جانبه كان يثق في استقامة الآخرين. وإن صح هذا التفسير، فإن جُلّ ما يسعنا قوله إنها المرة الأولى التي نسمع فيها عن رجل شيمته الغدر يأت من الآخرين إلى هذا الحد. لقد أحسن الأميران استقباله، ووجد في

(1) Conde, ii. 47 - 8.

(2) G. der M., ii. 286 ff.

المدينتين أَنَّ السَّكَّانَ العربَ تَوَاقُونَ لِلثَّوْرَةِ عَلَى حُكَّامِهِمُ الْبَرْبَرِ، وَنَجَحَ، كَمَا يَقُولُ دُوزِي، فِي تَأْلِيْبِ الْعَدِيدِ مِنْ قَادَةِ الْعَسْكَرِ الْبِرَابِرَةِ مِنْ دُونِ أَنْ يَشِيرَ شُكُوكُهُ أَسْيَادَهُمْ.

أَقَامَ حَاكِمُ رُنْدَةَ ابْنُ أَبِي قُرَّةٍ وَلِيْمَةً عَلَى شَرْفِ الْمَعْتَضِدِ الَّذِي أَبْدَى بَعْدَ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ رَغْبَةً فِي أَنْ يَسْتَرِيحَ. فَأَخَذُوهُ إِلَى أَرِيْكَةٍ فِي غُرْفَةِ الطَّعَامِ عَلَى مَا يَبْدُو، وَأَثْنَاءَ نَوْمِهِ (كَمَا خُيِّلَ لَهُمْ) رَاحَ مُضِيْفُوهُ يَتَشَاوَرُونَ فِي أَمْرِ قَتْلِهِ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّهُمْ لَوْ بَذَلُوا ذَهَبَ الْأَنْدَلُسِ كُلَّهُ مَا كَانُوا سَيَنْجِحُونَ فِي إِحْضَارِهِ إِلَى مَعْقَلِهِمْ رَغْمًا عَنْ إِرَادَتِهِ، وَالْآنَ وَقَدْ جَاءَ إِلَى هُنَا مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ، فَلَا أَجْدَى التَّخَلُّصِ مِنْهُ وَالْإِنْتِهَاءَ مِنْ أَمْرِهِ. وَقَالُوا «عِنْدَمَا يَمُوتُ هَذَا الشَّيْطَانُ، لَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مِنْ يَنَازِعُنَا الْمُلْكَ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادَةِ».

لَكِنْ صَوْتًا وَاحِدًا تَحَدَّثَ فِي صَالِحِ الْمَعْتَضِدِ. كَانَ ذَلِكَ مُعَاذُ بْنُ أَبِي قُرَّةٍ، وَهُوَ شَابٌّ مِنْ أَقْرَبَاءِ صَاحِبِ رُنْدَةَ، ذَكَرَهُمْ بِأَنْ وَاجِبُهُمْ إِكْرَامُ ضَيْفِهِمْ، وَأَنَّ الْعَارَ سَيُلْحِقُ بِهِمْ إِلَى أَبَدِ الْأَبْدِينَ بَيْنَ الْقَبَائِلِ إِنْ هُمْ قَتَلُوا ضَيْفًا نَزَلَ بِهِمْ مُسْتَأْمَنًا، وَوُثِقَ بِشَرَفِهِمْ. فَاقْتَنَعُوا بِكَلَامِهِ، وَغَادَرَ الْمَعْتَضِدُ فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ دُونَ أَنْ يَعْرِفُوا بِاكتشافه لِأَمْرِ الْمَكِيدَةِ الَّتِي كَانُوا يَدَبُّونَهَا، أَوْ شَعُورِهِ بِأَنَّهُ مَدِينٌ لِلشَّابِّ مُعَاذٍ.

وَلَكِنَّهُ انْتَقَمَ مِنْهُمْ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ. وَيُرْوَى دُوزِي أَنَّهُ دَعَا حَاكِمِي مُوَرُورٍ وَرُنْدَةَ لَزِيَارَتِهِ فِي إِشْبِيلِيَّةٍ لِيُرِدَّ لَهُمَا حَسَنَ ضِيَافَتِهِمَا، وَدَعَا كَذَلِكَ عَبْدُونَ بْنُ خَزْرُونَ الْبَرْبَرِي صَاحِبَ حَصْنِي أَرْكُشٍ وَشَرِيْشٍ. لَبَّى الثَّلَاثَةُ الدَّعْوَةَ وَلَدَى وَصُولِهِمْ مَعَ حَاشِيَتِهِمْ، عَرَضَ عَلَيْهِمُ الْمَعْتَضِدُ دُخُولَ الْحَمَامِ. دَخَلَ سِتُّونَ مِنْهُمْ بَعْنٍ فِيهِمْ أَمْرَاؤُهُمُ الْحَمَامُ، فَمَا أَنْ أَصْبَحُوا كُلُّهُمْ فِي دَاخِلِهِ وَقَدْ أَطْمَأَنَّنُوا إِلَيْهِ، أَمَرَ الْمَعْتَضِدُ بِإِبْصَادِ الْأَبْوَابِ وَإِغْلَاقِ مَمَرَاتِ التَّهْوِئَةِ، وَتَشْغِيلِ الْبَخَارِ. وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ سِوَى مُعَاذِ الَّذِي مَنَعَهُ الْمَعْتَضِدُ مِنْ دُخُولِ الْحَمَامِ مَعَ الْبَاقِينَ. وَأَخْبَرَهُ الْمَلِكُ بِمَا حَدَثَ فِي رُنْدَةَ وَعَنِ امْتِنَانِهِ لِمَا فَعَلَهُ. وَكَافَأَ الْمَعْتَضِدُ مُعَاذَ بْنَ وَهْبٍ قَصْرًا فِي إِشْبِيلِيَّةٍ وَالْعَدِيدَ مِنَ الْهَدَايَا الثَّمِينَةِ، وَعَيْنَهُ قَائِدًا فِي عَسْكَرِهِ وَجَعَلَ لَهُ أَجْرًا مُعْتَبَرًا، وَكَانَ يُجْلِسُهُ فِي مَجْلِسِ الشَّرَفِ كُلَّمَا اجْتَمَعَ بَوِزْرَاتُهُ لِمُنَاقَشَةِ شُؤْنِ الدَّوْلَةِ.

يَتَحَدَّثُ الْقُرْطُبِيُّ عَنْ «قَائِدِ عَسْكَرِي مُحَنَّاكٍ اسْمُهُ مُعَاذُ بْنُ أَبِي قُرَّةٍ» تَوَلَّى قِيَادَةَ

القوات التي أرسلها ابن عباد لمساعدة ابن هود في إحدى حروبه مع آراغون. ويبدو أن هذه الحملة تعود كما أَرخها كوندِه إلى سنة 1068، وإن كان هذا التاريخ صحيحاً، فقد يكون مُعَاذَ هذا هو الرَّجُل الذي ذكره دوزي في قصّته: من جهة ثانية، تُلمح رواية القرطبي ضمناً إلى أن الحملة جرت بُعيد سنة 1033.

لقد نقل دوزي القصّة (على ما يبدو) عن ابن بتمام والتويري، ولم يُشر إليها لا المقرّي ولا كوندِه، وطريقة سردها تطرح بعض التساؤلات.

فالبربر، وإن تكلموا العربية أصلاً، فقد كانوا يتحدثون بها بوصفها لغة مكتسبة. ولم يكن العرب يفهمون لغتهم، ولذلك فإنّه من غير المرجح أن يكون المعتضد، سليل النّسب العربي الأصيل، قد كَلّف نفسه عناء تعلّم لغة كان العرب ينظرون إليها بوصفها لغة همجية غير جذيرة بأن يأخذ بها رجل متعلّم. ومن غير المطروح الافتراض بأنّ البربر تحدّثوا بلغة أجنبية وهم يدبّرون مكيده فيما بينهم للغدر بالمعتضد. فكيف كان يمكن إذن للمعتضد أن يعلم بما كانوا يدبّرون؟ وإذا تركنا هذا جانباً، فإنّه من المستحيل تصديق أنّ عربياً يمينياً أغفل تماماً، كما قيل إنّ المعتضد فعل، كل تقاليده القبليّة المتعلقة بقداسة إكرام الضيف، وقبل بأن تلحقه معرّة الغدر بضيوفه، وهو أمرٌ أحجم حتى البربر عن تحمل وزره. صحيح أنه عندما قتلهم، كما تقول القصة، ما كانوا قد تناولوا خبزاً على مائدته بعد، ولكن حتى في هذه الحال، فإننا نتردّد منطقياً في تصديق تلك القصة، في غياب دليل أفضل ممّا تقدّم.

يورد دوزي وصفاً ملفتاً للحمام في دار المعتضد، لأنه يطابق بصورة مذهشة ما هو معروف في أيامنا هذه باسم «حمام ماريّا پاديّا Maria Padilla» في قصر إشبيلية. أمّا التفاصيل التي تختلف بينه وبين حمام المعتضد فتعود إلى القرن السادس عشر عندما، وكما يخبرنا رودريغو كارو، أدخلت عدة تغييرات جذرية إلى الحديقة في جانبي المبنى، بسقفها المقوّب والمناور، بحيث تمّ إعلاء مستوى الأرضية إلى مستوى أعلى السقف، وأزيل بستان البرتقال الذي كان إلى ذلك الحين تحت مستوى الأرض تقريباً خارج مبنى الحمام. ولكن حتى الآن، ورغم أنّ خزان الماء الكبير فارغ، وأنّ الأرضية

الاصطناعية المضافة فوقه تخفي المسكن التاريخي، يمكن للتأظر الفضولي أن يرى خلف سياج الحناء الأضواء أو فتحات التهوية على طول العقد، وفي حال تفتّح الممرّات التي تبدأ من هناك وتمرّ تحت القصر على ضوء مصباح، سيجد بقايا مواسير التدفئة التي استُخدمت، كما قال دوزي، لخنق مستين من البربر قبل ثمانمئة وخمسين سنة خلت.

وعلى الرغم من سفك دماء أمراء وقادة البربر، كان على المعتضد أن يخوض معارك شرسة قبل أن يستولي على رُنْدَة. ولكنه أصبح في النهاية سيد تلك الناحية وبنى لنفسه فيها قصراً بديعاً أسكن فيه قسماً من عائلته لكي يكون جاهزاً عندما يزوره. وعندما اسودّت الأيام فيما بعد في وجه سلالة، دافع حفيده الرّاضي أو الرّاضي بالله ببسالة عن رُنْدَة أمام جيش Kasur⁽¹⁾ أحد قادة المرابطين، و Kasur هذا هو الذي طعنه برمح بعد أن استسلم له، مستهيناً بالمدل، وناقضاً عهد الأمان الذي عقده معه مقابل استسلامه⁽²⁾.

لم يكن المُعْتَمِد، ابن المعتضد، قد تجاوز التاسعة والعشرين عندما خلف أباه على عرش إشبيلية. كان شجاعاً في غير تهوّر، ومتعلّقاً بعيش حياة رائعة في عزّ ورفاء ولكنه حلّيم سخي مع القائمين على خدمته المخلصين له، وهكذا أسر قلوب الجميع، وكان سلوكه واحداً معتدلاً ومنضبطاً في العزّ وفي ساعات التصرّ. لم يكن شديد التديّن، وكان يشرب الخمر ولا سيّما لدى خروجه للغزو، ويسمح لأتباعه أن يفعلوا الشّيء عينه أثناء القتال. كان شاعراً مُجيداً مبدعاً، وبزّ في ذلك صديقه مُعزّ الدولة،

(1) كذا يرد الاسم لدى ويشو، نقلاً عن كوندّه، الذي ذكرنا ملئاً ورود أخطاء لديه، والصّحيح أنّ القائد جرور اللّمتوني المرابط هو الذي قاد جيش المرابطين الثالث إلى رُنْدَة، بينما سار سير بن أبي بكر إلى إشبيلية، وأبو عبد الله بن الحاج إلى قرطبة، وأبو زكريا بن واسندوا إلى المرّة، وبقى يوسف بن تاشفين في سبتة على رأس جيش احتياطي. ويبدو أنّ كوندّه أشكل عليه في بعض المخطوطات القديمة اسم «جرور» فقرأه «كسور» Kasur. راجع: الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بتمام الشّتريني، الحلة السّيرة لابن الأبار، الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب، البيان المغرب لابن عذاري المراكشي. (أحمد)

(2) Dozy, G. der M., ii. 290; Conde, ii. 25, 167.

ملك المَرّة⁽¹⁾. يقول عنه عبد الجبار⁽²⁾ إنّ خصاله كانت من الكمال بحيث أنه لم يبق أحدٌ إلا مدح أوصافه، وذلك مع كثرة لا يفي بحق إنصافه⁽³⁾.

تزوَّج المُعتمد في المرة الأولى بعد قِصّة رومانسيّة. فقد كان سائراً ذات مساءً على ضفّة نهر الوادي الكبير Guadalquivir مع جمع من أهل المدينة والجميع مستمتع بالتسائم العليّة، ويرفقه ابن عمّار⁽⁴⁾ أقرب أصدقائه، وهو شاعر مثله، وراح كلاهما يرتجل أبياتاً عن مياه النهر المتموجة، وفجأة قالت جارية مازة بالمكان بيتاً مقفياً ينم عن شدة ذكائها، فأنارت دهشة الأمير وإعجابه. وإلى ذلك كانت الفتاة بارعة الجمال، وعندما سأل المُعتمد عنها (كما يقول ابن الخطيب) وعرف أنها جارية، اشتراها من سيدها وأعتقها وتزوَّجها وجعل اسمها اعتماد، المشتق من اسمه، والشبيه به⁽⁵⁾.

كانت اعتماد تُعرف باسم الرُّمكية نسبة إلى رُميك بن حجاج الإشبيلي الذي باعها للمُعتمد. يقول دوزي إنها كانت جارية تعمل في سوق الحمير، ولكن لا المقرّي ولا كونه المحا إلى ذلك، وبناءً على أنّ المُعتمد تزوّجها بدلاً من أن يتخذها محظية، نتوقع أنها كانت من أقربائه ولم تكن جارية لدى ابن حجاج الذي يظهر من اسمه أنه كان مولداً شريف النسب⁽⁶⁾. فأفراد عائلة بني حجاج الذين اشتهروا في القرن التاسع كانوا لا يزالون يعيشون في إشبيلية. ويذكر دوزي رجلاً من بني حجاج اصطفاه محمد بن عباد من بين آخرين ليكون صاحبه قبل سنة 1027 عندما «فوضه أشراف إشبيلية لتولي الملك» ورفض أن يتفرد به⁽⁷⁾.

(1) Conde ii. 47 – 9.

كونده مخطيء بشأن الاسم: فالكاتب الذي اقتبس عنه كان يشير سواء إلى ابن عم المعتمد علي ملك دانية، أو ربنا على الأرجح إلى المعتصم بن صمادح ملك المَرّة.

(2) هو الشاعر عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الصقلّي (447 – 527 هـ). (م)

(3) Makkari, ii. 252

(4) لقد أصبح لاحقاً من الذّ أعدائه.

(5) Makkari, ii. 512.

(6) Makkari, ii. 299; Conde, ii. 169.

(7) G. der M., ii. 238.

لبثت اعتماد أثيرة لدى ملك إشبيلية طوال حياته، فكان يعاملها بكل حب وشغف، وقد بادلت حبه ذلك ورافقته عندما خُلع عن ملكه ونُفي، ودُفنت إلى جواره. ومن الأخبار المأثورة عن هذا الوله أنه زرع لها أشجار اللوز على جبل في قرطبة لأنها رأت يوماً عاصفة ثلجية على جبل الشارات (سييرا مورينا) فاستحوذ على مخيلتها ورغبت أن تكرر التجربة. وبما أن الثلج لا يهطل كثيراً في جنوب غرب الأندلس، فقد فكر الملك الشاعر أن يزرع لها اللوز حتى إذا نور بدت أشجاره وكأنها محملة بندف الثلج.

ومن أعماله التي تشهد على حرص الملك على إرضاء محبوبته، والذي يبدو لنا أقل رومانسية من صنع عاصفة ثلجية من بتلات زهر اللوز، أنّ اعتماد رأت ذات يوم، في مكان غير بعيد من قصرها في إشبيلية، فلاحات يععن الحليب يمشين في الطين حتى كاحلهن. فقالت لزوجها لدى عودتها «أنتهي أن أفعل أنا وجواري مثل هؤلاء النساء».

عندها، أمر المُعتمد أن تغطى أرضية إحدى غرف القصر بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد، وصُيّر المزيج طيناً. ثم جعل لها قرياً وحبالاً من إبريسم، وهو أجود أنواع الحرير، وخرجت اعتماد وجواربها حاملات القرب على ذراعهن وخضن جذلات في ذلك الطين الروماني.

ويُروى أنّ الملك والملكة تبادلّا ذات يوم كلاماً قاسياً في ساعة غضب، جرح كبرياء الملكة اعتماد، فقالت له «والله ما رأيت منك خيراً»، فقال لها: «ولا يوم الطين؟»، تذكيراً لها بذلك اليوم الذي «أنفق فيه من الأموال ما لا يعلمه إلا الله تعالى»، من أجل إرضاء أبسط أهوائها، «فاستحييت وسكنت» اعتماد (التي كانت سليمة الفطرة، بلا شك) (1).

ويختتم المقرري أخبار المُعتمد على الشكل التالي (2):

«وأخبار الأندلس زاخرة بمدح هذا الملك. وقد قال ابن القطّاع في حق المُعتمد، إنه أندى ملوك الأندلس راحة، وأرحبهم ساحة، وأعظمهم ثماداً، وأرفعهم عماداً،

(1) Makkari, ii. 299; Dozy, G. *der M.*, ii. 318 – 9.

(2) Makkari, ii. 300 – 2.

ولذلك كانت حضرته ملقى الرّحال، وموسم الشعراء، وقبله الآمال، ومآلف الفضلاء، حتى أنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك من أعيان الشعراء، وأفاضل الأدباء، ما كان يجتمع ببابه، وتشتمل عليه حاشيتا جنباه⁽¹⁾.

«لقد كان هو نفسه شاعراً مبدعاً، كما يظهر من الأبيات العديدة الرائعة التي وردت في مؤلفات الفتح وابن الحجري وابن سعيد، وخصوصاً ابن اللبّانة. والكاتب الأخير، الذي كان أحد وزراء المُعتمد وزار ذاك الأمير في سجنه [في أفريقيا بعد خلعه سنة 1091] ألف ديواناً جمع فيه كل أبياته وكذلك تلك التي كتبها أبوه وجده...»

ويقول ابن بسّام، إنه «لم يكن مثله شاعر في رقة روحه، والمشاعر المتدفقة عبر أبياته: للمُعتمد شعر، كما انشق الكمام عن الزّهر، لو صار مثله ممتن جعل الشعر صناعة، واتخذ بضاعة، لكان رائقاً معجباً، ونادراً مُستغرباً، (...) وعزم المُعتمد على إرسال حظاياه من قُرطبة إلى إشبيلية، فخرج معهم يشيعهن فسايرهن من أول الليل إلى الصّبح، فودعهن ورجع، وهو يرتجل أبياتاً منها⁽²⁾»:

سايرتهم واللّيل صعد ثوبه حتى تبدّى للناظر معلما
فولفتُ ثم موّداً وسلّمتُ مني يدُ الإصباح تلك الأنجما

ويتابع المقرّي قوله إنّ من «الأمور الغريبة النادرة المرتبطة بالمُعتمد، أنه عندما تُوفّي في أغمات⁽³⁾ (...) نودي في الصّلاة على جنازته، الصّلاة على الغريب، كما لو أنه كان مجرد مغامر، دونما اعتبار لمراقبة نسبه، واتّسع ملكه، وانتظام سلّكه، وروعة وعظمة بلاطه؛ أو حكمه على إشبيلية وأنحائها، وقُرطبة وزهراتها، وهكذا شأن الدنيا في تدريسها نحو نديتها وإغرائها⁽⁴⁾».

(1) المقرّي، ج 4، ص 372.

(2) المقرّي، ج 4، ص 373. (م)

(3) أغمات قرية قريبة من مراكش، في المغرب. (م)

(4) المقرّي، ج 4، ص 224. (صُيِّط النص على النص الإنكليزي بالرجوع إلى النص العربي

الأصلي. (م)

«وأخبار المُعتمِد رحمه الله تعالى تحتل مجلدات.. ويكفي القول إن آثار ذاك السلطان اللامع، إلى الآن بالغرب مخلدات...، وإن قبره في أغمات معروف يقصده المسافرون.. وقد زرتُ أنا قبر المُعتمِد والزَمِيكية أم أولاده، حين كنت بمراكش المحروسة عام عشرة وألف (1601 م)، وعمِّي علي أمرُ القبر المذكور، وسألتُ عنه من تُظنُّ معرفته له، حتى هداني إليه شيخ طعن في السن، وقال لي: هذا قبر ملك من ملوك الأندلس، وقبر حظيته التي كان قلبه بحبها خفّاقاً غير مطمئن⁽¹⁾».

ومن الغريب القول إن نُصباً لتلك التي «كان قلبه بحبها خفّاقاً» لا يزال موجوداً إلى اليوم في إشبيلية، رغم أن حب المُعتمِد الدافق ونهايته المأسوية ليسا معروفين حتى لدى واحد من ألف مَن يعيشون اليوم في المدينة التي حكمها قبل نحو ثمانمئة عام. ويذكر كوندِه (ii. 169) كتابة تشير إلى «السيدة الكبرى» «Saida Cubra» (وهو من الأسماء التي عرفت بها اعتماد) على مسجد شيدته في سنة 1085. وظلّت الكتابة إلى ما يقرب من القرن الثامن عشر على ذاك المسجد الذي صار اليوم كنيسة سان خوان دي لا پالما، عندما نقلت إلى متحف إشبيلية بتيجة ترميم جزء من المبنى القديم. ومفاد ذلك أن «السيدة الكبرى»، أم الرّشيد بن المُعتمِد، طلبت إضافة هذه المثانة إلى مسجدها في سنة 1085⁽²⁾. وغالباً ما كان الكتاب القدماء والمعاصرون يشيرون إليها باعتبارها من الآثار «المغربية الأفريقية» الباقية في إشبيلية، بغضّ النظر عن واقع أنّ الملكة لم تكن مغربية أفريقية وإنما ملكة عربية، سُلبت عرشها وخُلعت عنه وأسرت في سجن مغربي إلى مماتها.

نُفيت اعتماد مع زوجها، لكنها سرعان ما أُصيّبت بالمرض. فأسرع الطّبيب ابن زُهر الإشبيلي الشهير، الذي كان طبيب قصر إشبيلية، وكانت له أملاك في المغرب، إلى أغمات تلبيةً لطلب المُعتمِد، لكن طبابته لم تُجدِ نفعاً وتوفيت اعتماد في السجن. وكانت بناتها يسرن حافيات القدمين ويؤدّين كل الأعمال المنزلية، ويغزلن الكتان

(1) المقرئ، ج 4، 224.

(2) *Inscripciones Arabes*, p. 106.

لكسب لقمة العيش لهنّ ولأبيهن. ومع هذا، كان الشاعر ابن اللبّانة قادراً على أن ينشد عندما زارهم⁽¹⁾:

انفض يديك من الدنيا وساكنها فالأرض قد أقضت والناس قد ماتواها
وقل لعالمها الأرضي قد كتمت سريرة العالم العلوي أغماث
طوت مظللتها لا بل مثلتها من لم نزل فوقه للعزّ رايث

فعلى الرغم من فقرهم وبؤسهم، كان احتمالهم بنيل لفاجعة لا يستحقونها، يشع من محبّي الأمراء الذين كان لحبّهم لبعضهم دورٌ كبير في حياتهم.

لم يمض وقت طويل قبل أن يلحق المُعتمد بزوجه إلى القبر. وقد مات أسيراً في عام 1095، بعد أربع سنوات فقط من مغادرته إشبيلية. وقد كتب ابن الأثير عنه بعد نحو مئة وخمسين عاماً من وفاته يقول⁽²⁾:

«ورُزق من الناس حُبّاً ورحمة فهم يكنونه إلى اليوم»⁽³⁾.

وتدلّل الأخبار التي نقلها عنه أعداؤه أو أصدقاؤه على حدّ سواء أنّ آخر ملوك بني عبّاد كان رجلاً موصوفاً بكرمه وسموّ مشاعره.

ومن تلك الأخبار أنّ الوزير ابن عمار الذي أودع السجن لخيانته المُعتمد، أرسل إلى سيده أبياتاً يخاطب فيها عزّته ورفعة شأنه وجلالته ويستعطفه أن يصفح عنه، فقال المُعتمد في ذلك:

«أما لئن سلبه الله المروءة والوفاء، لما أعدمه الفطنة والذكاء».

وحتى في اللحظة الأخيرة، كاد ابن عمار أن ينجح في استعطافه للمفو عنه، فالمُعتمد لم يكن قادراً على نسيان ما قدّمه له من صنائع، وعندما أدخلوه على المُعتمد

(1) خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصبهاني. وفيها يقول الأصبهاني إنّ ابن اللبّانة كتب هذه الأبيات بعد وفاة المعتمد وليس عندما زاره. (م)

(2) الحُلة الشّيرة لابن الأثير، 2: 55. (أحمد)

(3) Al - Marrakushi, 124; Conde, ii. 170; Dozy, G. der M., ii. 400, 404.

وارتمى الشاعر على رجليه وتعلق بركبته، قال له المُعْتَمِد «قولاً تضمن العفو تعريضاً لا تصريحاً». ومن سوء حظ الخائن، أنه كتب على الفور إلى الأمير الرّشيد⁽¹⁾ يخبره أنّ المُعْتَمِد عفا عنه. تسلّم الرّشيد الخطاب وفي حضرته رجال كانت بينهم وبين ابن عمار ضغينة قديمة، وأوصلوا إلى الملك أمر خطابه إلى الرّشيد. عندها سأل المُعْتَمِد ابن عمار إن كان قد أبلغ أحداً بما دار بينهما. فأكر ابن عمار أن يكون قد تحدث عن الأمر. فسأله الملك «من بين الورقتين اللتين استدعيتهما، كتبت في إحداهما القصيدة، فما فعلت بالأخرى؟».

فقال ابن عمار، «لقد كتبت عليها مسودة القصيدة».

فقال له المُعْتَمِد، «أرني إذن تلك المسودة».

فلم يجد عندها الخائن جواباً، فاستبدّ الغضب فجأة بالمُعْتَمِد، وأمسك بطبرزين (فأس) وضربه به فقتله.

ومع ذلك، وعلى الرّغم من اقتناعه بخيانة الشاعر، يبدو أنّ المُعْتَمِد ندم عندما عاد إلى رشده وأدرك ما فعله، فأمر بغسله وتكفينه وصلى عليه ودفنه في القصر المبارك، قصر المُعْتَمِد في إشبيلية⁽²⁾.

يمكننا أن نفهم أنّ رجلاً شقّ عليه أن يصدق أنّ صديقه أراد به شراً، وشقّ عليه أن يرفض الصفح عنه إلى أن تملك منه الغضب، تعرّض للخيانة مرة تلو الأخرى من رجال أقلّ مروءة منه؛ وبالفعل لم يكن ابن عمار الحالة الوحيدة.

يقول المراكشي عن أبي القاسم محمّد بن عبّاد المُعْتَمِد على الله: «وكان المُعْتَمِد هذا يشبه بهارون الواثق بالله من ملوك بني العبّاس ذكاء نفس وغزارة أدب، وكان شعره كأنّه الحلل المنتشرة، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس، وكان مقتصرّاً من العلوم على علم الأدب وما يتعلّق به وينضمّ

(1) ذكر المراكشي، وفق النسخة العربية التي لدينا، أن ابن عمار كتب إلى الأمير الرّاضي بالله ابن المعتمد، وليس إلى ابنه الرّشيد، ص 58. (م)

(2) Al - Marrakushi, 108 - 9.

إليه، وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية ما لا يُحصى كالشجاعة والسخاء والحياء والتزاهة إلى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة، وفي الجملة فلا أعلم خصلة تُحمد في رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم وضرب له فيها بأوفى سهم، وإذا عُدت حسنات الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت (سنة 1224 م) فالمُعتمد أحدها بل أكبرها⁽¹⁾.

يبدو أنَّ حصار المرابطين لإشبيلية بدأ بمكيدة دبرتها مجموعة من المتآبئين على حكم المُعتمد الذي لما بلغه ما يعدّون له من أفعال وما يتغونّه، وثبت له ما يضررونه من شرٍّ، أشار عليه البعض بأن «يكشف عورتهم ويسفك دهمهم وينال من عرض نسائهم، ويكشف وجوه بناتهم، غير أنَّ نسبة التَّيْل، وحكمته وسموّ خصاله منعت من الأخذ بذلك الرّأي، بمثل ما منعت عنه حنكته وصدق إيمانه الذي أكرم عليه الله به». فلم ينتقم منهم وهربوا من المدينة. وبعد مدّة قصيرة ثاروا عليه «بنصرة بعض البؤساء ممّن ضلّوا عن الله سواء السبيل»⁽²⁾.

يتابع المَرّاكشي ويروي ما فعله المُعتمد بقوله: «فبرز هو من قصره وسيفه بيده وغلّالته ترفّ على جسده ولا درقة له ولا درع عليه، فلقي على باب من أبواب المدينة يسمّى باب الفرج فارساً من الدّاخلين مشهور التّجدة شاكي السّلاح، فرماه الفارس

(1) Al - Marrakushi, 86 - 7.

(2) قال ابن اللّبّانة في كتاب نظم السّلوک في مواظب الملوك في أخبار الدّولة العبّاسية: إنّ طائفة من أصحاب المعتمد خامرت عليه، فأعلم باعتقادها، وكُشف له عن مرادها، وحُضّ على هتك حرّما، وأغري بسفك دمها، فأبى ذلك مجده الأئيل، ومذهبه الجميل، وما خصّه الله تعالى به من حسن البقين، وصحة الذّين، إلى أن أمكتهم الغرّة فانتصروا ببغاث مستنصر، وقاموا بجمع غير مستنصر، (المقرّي، ج 4، ص 216).

وكتب المَرّاكشي (ص 64) عمّا حدث قائلا: «وأجمعت على الثّورة بحضرة إشبيلية طائفة، فأعلم المعتمد بما اعتقدته الطّائفة المذكورة وكُشف له عن مرادها وأثبت عنده سوء اعتقادها وأغريّ بتمزيق أديمها وسفك دمها، وحُضّ على هتك حرّيمها وكشف حرّما، فأبى له ذلك مجده الأئيل ورأيه الأصيل ومذهبه الجميل، وما حباه الله به من حسن اليقين وصحة العقل والذّين، إلى أن أمكتهم الغرّة يوم الثّلاثاء متصفّ رجب من السّنة المذكورة فقاموا بجيش غير مستنصر واستنصروا ببغاثا غير مستنصر». (م)

برمح قصير أنابيب القناة، طويل شفرة السنان فالتوى الرمح بغلاته وخرج تحت إبطه وعصمه الله منه ودفعه بفضلته عنه، وصَبَّ هو سيفه على عاتق الفارس فشَقَّه إلى أضلاعه فخرَّ صريعاً⁽¹⁾.

تلك كانت على ما يبدو بداية الهجوم الأخير على إشبيلية، إذ يتابع المراكشي سرد الواقعة بقوله:

«وانهزمت تلك الجموع ونزل المتسّمون للأسوار عنها وظنّ أهل إشبيلية أنّ الخناق قد تنفس. فلمّا كان عصر ذلك اليوم عاودهم القوم فظهر على البلد من واديه ويش من سكنى نادية وبلغ فيه الأمل حاسده [أي حاسد المَعْتَمِد] وشانية، وشبّت النار في شوانيه فانقطع عنها الأمل والقول وذهبت القوة من أيدي أهلها والحوّل»⁽²⁾.

لا بدّ أنّ الثورة داخل المدينة جرت بالاتفاق مع الثرابطين، فالمراكشي يورد الآن أسماء قوّاد يوسف بن تاشفين الذين اقتحموا المدينة من البرّ ومن ناحية النهر تبعاً⁽³⁾. ومع ذلك يتابع شارحاً أنّ الغموض والفوضى سادت لبضعة أيام، فيقول: «والتوت الحال أياماً يسيرة إلى أن ورد الأمير سير بن أبي بكر بن تاشفين وهو ابن أخي أمير المسلمين بعساكر متظاهرة وحشود من الرّعية وافرة، والنّاس في خلال هذه الأيام قد خامرهم الجزع وخالط قلوبهم الهلع يقطعون السبل سياحة ويعبرون النهر سباحة ويتولّجون مجاري الأقدار ويترامون من شرفات الأسوار حرصاً على الحياة، والموفون [للمعتمد] بالعهد المقيمون على صريح الودّة ثابتون، إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة خلت من رجب من السنة المذكورة [1091 م] وهذا يوم الكائنة

(1) المراكشي، ص 64.

(2) لا شك أنّ المقصود «بشوانيه» galleys جسر المراكب ما بين إشبيلية وطريانة، الذي كان المعتمد قد أعاد للتوّ بناء ما تهدّم منه. (ii, 163).

(3) يقول المراكشي عندما يورد ذكر قادة المرابطيين الذين هاجموا إشبيلية: «وكان الذي ظهر عليها من جهة البرّ رجل من أصحاب يوسف أمير المسلمين يعرف بجدير بن واسنو ومن الوادي رجل يعرف بالقائد أبي حمامة مولى بني سحوت». (ص 64). (م)

العظمى والطامة الكبرى، فيه حُجْمُ الأمر الواقع واتسع الخرق على الرّاقع، ودُخِلَ البلد من واديه وأصيب حاضره وياديه بعد أن جدَّ الفريقان في القتال واجتهدت الفتان في التّزال، وظهر من دفاع المُعْتَمِد - رحمه الله - وبأسه وتراميه على الموت بنفسه ما لا مزيد عليه ولا تناءٍ لخلق إليه، وفي ذلك يقول المُعْتَمِد بعد ما نزل بالعدوة أسيراً حسيراً في سجنه في مراكش بأفريقيا:

لَتَا تَمَاسَكَتِ الْقَمُوعُ	وَنَنَبَّهَ الْقَلْبُ الصَّدِيعُ
قَالُوا الْخُضُوعُ سِيَاةٌ	فَلْيَبْذُ مِنْكَ لَهُمْ خُضُوعُ
وَالَّذُ مِنْ طَعْمِ الْخُضُوعِ	عِ عَلَى فَمِي الثُّمُّ النَّجِيعُ
إِنْ تَسْلُبْ عَنِّي الدُّنَا	مُلْكِي وَتُسَلِّمْنِي الْجَمُوعُ
فَالْقَلْبُ بَيْنَ ضُلُوعِهِ	لَمْ تُسَلِّمِ الْقَلْبَ الضُّلُوعُ
لَمْ أَسْأَلْ شَرَفَ الطَّبَا	عِ أَيْسَلُ الثَّرَفُ الزَّيْبُ؟
قَدْرُمْتُ يَوْمَ نَزَلْهُمْ	أَلَا تَحْصَنُنِي السُّدُوعُ
وَيَسْرُتُ لَيْسَ سِوَى الْقَمِيرِ	مِنْ عَنِ شَيْءٍ ذَلُوعُ
وَبَذَلْتُ نَفْسِي كَيْ نَسِبِ	لَ إِذَا يَسِيلُ بِهَا النُّجِيعُ
أَجَلِّي نَاخِرَ لَمْ يَكُنْ	بِهَوَايَ ذُلِّي وَالْخُشُوعُ
مَا سِرْتُ قَطُّ إِلَى الْعَنَا	لِ وَكَانَ مِنْ أَمَلِي الرُّجُوعُ
شَيْمُ الْأَكْسَى أَنَا مِنْهُمْ	وَالْأَصْلُ نَتَبُّهُ الْفُرُوعُ

ويتابع المراكشي في وصف ما حلَّ بأهل إشبيلية قائلاً: «وَشُنَّتِ الْغَارَةُ فِي الْبَلَدِ وَلَمْ يَتْرَكَ الْبَرَبِرَ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِهَا سَبْدًا وَلَا لِبَدًا. وَانْتَهَيْتِ قُصُورُ الْمُعْتَمِدِ نَهْبًا قَبِيحًا وَأُخِذَ هُوَ قَبْضًا بِالْيَدِ وَجَبَرَ عَلَى مَخَاطَبَةِ ابْنِهِ الْمُعْتَدِّ بِاللَّهِ وَالرَّضَايِ بِاللَّهِ وَكَانَا بِمَعْقِلَيْنِ مِنْ مَعَاقِلِ الْأَنْدَلُسِ الْمَشْهُورَةِ لَوْ شَاءَ أَنْ يَمْتَنِعَا بِهِمَا لَمْ يَصِلْ أَحَدُ إِلَيْهِمَا، أَحَدُ الْحَصْنَيْنِ يُسَمَّى رُنْدَةً وَالْآخَرُ مَارْتَلَةَ فَكُتِبَ إِلَيْهِمَا - رحمه الله - وَكُتِبَتْ إِلَيْهِمَا السَّيِّدَةُ الْكُبْرَى أَمَهُمَا، مُسْتَعِظَتَيْنِ مُسْتَرْحِمَيْنِ مُعْلِمَتَيْنِ أَنَّ دَمَ الْكُلِّ مِنْهُنَّ مُسْتَرْهَنٌ بِشَوْتَهُمَا، فَأَنفَا مِنْ

الذَّلَّ وأبياً وضع أيديهما في يد أحد من الناس بعد أبيهما، ثم عطفتهما عواطف الرّحمة ونظرا في حقوق أبيهما المقترنة بحق الله عز وجل، فتمسك كلُّ منهما بدينه ونبذ دنياء ونزلا عن الحصنين بعد عهود مبرمة ومواثيق محكمة. فاما المعتد بالله فإنَّ القائد الواصل إليه قبض عند نزوله على كل ما كان يملكه، وأما الرّاضي بالله فعند خروجه من قصره قُتِلَ غيلةً وأُخْفِيَ جسده⁽¹⁾.

لم يتخلَّ المُعتمد حتى آخر لحظة في حياته عن عزّة نفسه وشيم قومه، فنظم أبياتاً يتحدث فيها عن بعض الشعراء الذين تعرّضوا له متوسّلين الحصول على عطاياه في أغمات، يقول فيها⁽²⁾:

شعراء طنجة كلهم والمغرب	ذهبوا من الإغراب أبعد مذهب
سألوا العسير من الأسير وإنه	بسؤالهم لأحق فاعجب واعجب
لولا الحياء وإبرة لخميّة	طَيَّ الحشا ساوهم في المطلب
قد كان إن سُئِلَ اللّدى يُجزل وإن	نادى الصّريح ببابه لركب يركب

لا عجب في أن أتباع المُعتمد وحاشيته، انتحبوا ولبسوا الحداد وهم يتابعون مليكهم وعائلته يرحلون. ويصف ابن اللّبّانة هذا المشهد في مرثية كتبها بعد وفاة المُعتمد، تقول:

نسبتُ إلا غداة النهر كونهم	في المنشآت كأموات بالحداد
والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا	من لؤلؤ طافبات فوق أزياد
حطّ القناع فلم تُستز مخدرة	ومُرّقّت أوجه تمزيق إبراد ⁽³⁾

(1) Al - Marrakushi, 119 - 22; cf. Makkari, ii. 298.

النص العربي مقتبس من المراكشي، ص 65 - 66. (م)

(2) Al - Marrakushi, 123.

المراكشي، ص 66. (م)

(3) لا يمكننا تفسير ما فعلته النساء وقد نزعن نقابهن ورحن يمزقن وجوههن كما يمكن أن يفعلن بثوب ملون، إلا بأن نساء الشيعة كن يرتدين الأسود عموماً.

تفرّقوا جيرة من بعد ما نشأوا
حان السوداع فضجّت كل صارخة
سارت سفائنهم والنّوح يبتئها
كم سال في الماء من دمع وكم حملت
ويقول كذلك:

عريسة دخلتها النّائبات على
وكعبة كانت الآمال تعمّرها
تلك الرّمّاح رماح الخط ثقفاها
أساود لهم فيها وآساد⁽¹⁾
فالיום لا عاكف فيها ولا باد
خطب الزّمان ثقافاً غير معاد

.....

نور ونور فهذا بعد نعمته
يا ضيف أفقر بيت المكرمات فخذ
ويا مؤمل وادبهم ليسكنه
ضلت سبيل التّدى بابن المسير فيز
ذوى وذاك غبا من بعد إيقاد
في ضمّ رحلك واجمع فضلة الزّاد
خفّ القطين وجفّ التّزرع بالوادي
بغير قصيد فما يهنيك من هادي⁽²⁾

إنّ ملكاً مبدعاً في تعبيره عن مشاعره وملهماً للآخرين، كما جاء في أخبار المُعتمد

(1) كان للأسد في إشبيلية معنى مزدوج. فهو رمز للقوة وقد جعل الفاطميون في مصر النّحاتين ينحتونه لهم «كرمز لقوتهم» على أبواب قصورهم (cf. *L'Art Arabe*, 279). لقد كان الأسد والباز كذلك من الحيوانات المقدّسة في اليمن قديماً (ib., 186). ولذلك فإن وجود رؤوس الأسود المنحوتة، والتي تمثل نمط الفن المصري في الكنائس المستعربة التي بُنيت أو أضيفت في ظل الحكم الإسلامي في إشبيلية، يفسر ذلك. أما بالنسبة للأفاعي التي يشير إليها ابن اللّبانة، فعلينا أن نتذكر أنّ الأفعى هي الرّمز الهيروغليفي للملكية في مصر القديمة، لكي نفهم لماذا وضع فنّانو الأندلس العرب الأقباط رسوماً تمثل الأفعى على مداخل القصور التي بنوها. ولا تزال الفكرة باقية أينما استقرّ الأقباط واليمنيون في هذه المنطقة، على الرّغم من أنها تحوّلت منذ مدّة طويلة إلى ما هو أكثر شبهاً بحرف S منه بالأفعى.

(2) Marrakushi, 125

بن عَبَّاد، لا بدَّ أنه كان يتحلَّى بطباع جعلته قريباً من قلوب الناس بقدر ما كانت تسمو مكانته. ولا يقال إلا في عدد قليل من الملوك، بعد أن رقدوا لمئة وخمسين سنة في قبر حقير مهمل، إنَّ «الناس لا يزالون يذكرونه إلى اليوم»⁽¹⁾.



(1) ليس العرب وحدهم وإنما مسيحيو إشبيلية كذلك، بكوا وحزنوا على المعتمد لأنه حماهم طوال فترة حكمه وترك لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية. وخلال القرن الحادي عشر بُني عددٌ من الكنائس المستعربة ورُمم بعضها الآخر في كل نواحي الجنوب الغربي، حتى أنَّ المعتمد وظف مسيحيين ضمن حاشيته، ومن بينهم ابن المرغري، أحد الأثريين لديه، وكان نصرانياً من إشبيلية وشاعراً متميزاً. (Simonet, 660).



تفصيل من رداء دفن فرناندو الثالث (سنة 1252) محفوظ في متحف الآثار في مدريد. وقد
حيكت عليه أسود وقلاع مثل دروع قصر إشبيلية. وفي كتاب الشطرنج لألفونسو العاشر يظهر
الملك مرتدياً رداءً مماثلاً.

الفصل الثالث عشر

المرابطون

أصل المرابطين هو من أكثر ما تختلف الآراء بشأنه من بين عدد من المسائل المرتبطة بتاريخ الإسلام في إسبانيا. يقول بعض الكتاب إنهم في الأصل من الأفارقة الهمج المتوحشين أو من البربر الطامحين بصورة رئيسية إلى التّيل من «أشراف العرب» الذين كانوا على احتكاك بهم: ويقول آخرون إنهم من أصول عربية. ويؤكد البعض أنهم كانوا من المتزمتين وأن الهدف من غزواتهم كان نشر دينهم، في حين يخبرنا آخرون أنهم كانوا قوماً طيبين اتسموا بالرفق وانصب اهتمامهم على تطوير ثقافتهم أكثر من التدّخل في شؤون جيرانهم.

تبرز من بين كل هذه الآراء المتناقضة بعض الوقائع، ومنها أن المرابطين كقوم كانوا ينتمون إلى المذهب الشيعي من الإسلام، وكانوا يخطبون باسم الخلفاء العباسيين الحاكمين في الشرق على منابر المساجد في المناطق التي يحكمونها، ويلبسون الأسود كما يفعل أشد أتباع الإمام علي بن إبي طالب إخلاصاً⁽¹⁾. وأياً كان أصل القبائل الكثيرة التي اتحدت في نهاية المطاف تحت راية يوسف بن تاشفين، فقد كان هو نفسه يتنسب إلى العرب اليمانية، وقد قال عنه الشاعر عبد الجليل في إحدى قصائده إنه «نمي في حمير». ويرد البيت في قصيدة كتبها الشاعر للسلطان المرابط ويقول فيها إن قبيلتي يوسف والمُعتمد على الله كانتا موحدتين مثل وشائج

(1) *Encyc. of Islam*, s. /v. "Almoravides"; Conde, ii. 57; Al - Marrakushi, 79, 232.

السيوف، وذلك لأن يوسف يتمي إلى حَمِير، والمُعْتَمِد إلى لَحْم⁽¹⁾.

وبذلك يؤكد الشاعر ما يورده كونه في تفصيله لتسلسل نسب المرابطين على الشكل التالي:

«يرجع أصلهم إلى قبيلة أخرى أكثر عراقية هي قبيلة لمتونة، نسبة إلى رجل يدعى لمتو⁽²⁾ تربطه صلة قرابة برجل يدعى جدالة، وثالث يدعى مصطفى⁽³⁾، وإليهم جميعهم تنتسب قبائل تحمل الأسماء نفسها. كان الثلاثة جميعهم يتفاخرون بانتسابهم إلى قبيلة أخرى أكثر عراقية ونبلاً هي قبيلة صنهاجة التي تنتسب بدورها إلى حَمِير أحد أقدم ملوك اليمن السعيد... غادر الصنهاءة اليمن وارتحلوا إلى البادية بعد حروب اضطرتهم للهرب حتى لا يختلطوا مع البرابرة والهاربين في أفريقيا. ولكونهم فقراء، فقد كانوا يستخدمون رداءً بسيطاً يتدثرون به كالعباءة، ومن هذا الرداء المسمى لمط يقول البعض إنهم اشتقوا اسمهم، مع أنه يظهر أنهم يدينون به إلى جدّهم الأول الذي اكتسبوه منه في زمن غير معروف⁽⁴⁾.

يقول المقرئ إنّ اسمهم مشتق من استخدامهم تروساً مغطاة بجلد اللمط الذي ترجمه غايانغوس على أنه فرس الثهر، ولكنه يقول في مكان آخر إنّ اللمط هو نوع من الظباء⁽⁵⁾.

(1) *Abbadites*, i. 116.

يقول الشاعر في قصيدته:

نمي في حَمِير ومنتك لَحْم
فبوسف يوسف إذ أنت منه
وتلك وشائج فيها التحام
كيامن، لا وهي لكما نظام
«الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، أبو الحسن علي بن بسام الشتريني، تحقيق إحسان عباس،
الذار العربية للكتاب، ليبيا - تونس. ج 3، ص 245.

(2) Lamtu قد يكون الاسم لمطة (م)

(3) ورد في النص الانكليزي اسم Mustafa كواحد من الرجال الذين انتسبت إليهم تلك القبائل،
ولكنني لم أجد أي ذكر لشيخ انتسب إليه أبناء صنهاجة أو قبيلة بهذا الاسم ضمن القبائل المتفرعة
عن صنهاجة في أي مرجع، وإنما هناك قبيلة: مسوفة. والأرجح أن مسوفة هو الأصح. (م)

(4) *Conde*, ii. 73 - 4.

(5) i. 408 note; ii. 273

ولا توجد أية إشارة إلى هذه التروس أو الذرق في أي مرجع آخر عن المرباطين⁽¹⁾.

يخبرنا لونورمان أنه عندما كتب في سنة 1869، كانت قبيلة بني لام الكبيرة لا تزال تسكن إحدى التواحي التي استوطنها بنو يقطان Joktan - وهو اسم تم تعريبه قبل زمن طويل إلى بني قحطان - والتي كانت لا تزال تحمل اسم ملكهم حمير الذي أسسها في القرن الأول قبل المسيح. نزل بنو لام فيما يسميه المؤلف «مهد بني قحطان» ويشمل بلاد مؤاب⁽²⁾ (التي حكمها الملك ميشع الوارد ذكره في الكتب القديمة)، والحجاز، وحضر موت، واليمن⁽³⁾. وعليه يبدو الأكثر ترجيحاً أنّ اللمتونيين الأفارقة اشتقوا اسمهم من أجدادهم في اليمن السعيد وليس من تروسهم المصنوعة من جلد فرس التهر أو الظباء. ولا يوجد في الموسوعة الإسلامية *Encyclopedia of Islam* ما يشير إلى تقاليد المرباطين وعاداتهم، فلا تطرق سوى إلى ديانتهم وغزواتهم. ولذلك سنورد بعض التفاصيل المأخوذة عن كوندته.

أول الأخبار التي تصلنا عن المرباطين هي تلك المرتبطة بيهي بن إبراهيم زعيم قبيلة صنهاجة الذي نجح، بعد الحج إلى مكة في مطلع القرن الحادي عشر، في إقناع أحد الأدباء بالعودة معه لتعليم أبناء قبيلته أمور الدين وما يُدرس في المدارس. كان ذاك عبد الله بن ياسين الجزولي، الفقيه الذي درس لسبع سنوات في الأندلس والذي لم يُذكر أصله إلا في كتاب كوندته ولا في الموسوعة الإسلامية. أنشأ الجزولي رباطاً أو صومعة أو زاوية⁽⁴⁾

(1) ورد في رواية المقرئ لمعركة الزلاقة وخطاب يوسف بن تاشفين جواباً على طلب المساعدة من ملوك الأندلس أن «فلما فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه، فاستحسنه، وقرن به ما يصلح لهم من التحف ودرق اللط التي لا توجد إلا ببلاده، وأنفذ ذلك إليهم، فلما وصلهم ذلك قرأوا كتابه فرحوا به، وعظموه، وسرّوا بولايته، وتقوّت نفوسهم على دفع الفرنج عنهم، وأزمعوا إن رأوا من الفرنج ما يريهم أنهم يرسلون إلى يوسف بن تاشفين ليعبر إليهم، أو يمنّهم بإعانة منه». ج 4، ص 356. (م)

(2) Meshalik, Mesha.

ميشع ملك مؤاب لذلك كان الأقرب اسم بلاد مؤاب شرق نهر الأردن (م).

(3) Iii. 248, 251, 283.

(4) يقول كوندته (i. 619, note) إنّ بيوت الرّباط كانت صوامع دينية يتزل بها المقاتلون وتشبه إلى

على جزيرة في نهر النّيجر أو السنغال، بدعم من بعض الأتباع ومن بينهم اثنان من أشرف لمتونة هما يحيى بن عُمر وأخوه أبو بكر وهما، كما يقول كوندّه، من قبيلة تنسب إلى حَفِير؛ وسرعان ما جمع حوله عدداً كبيراً من المتسعين، لأنّ بني لمتونة «لم يكونوا على درجة كبيرة من الهمجية والشراسة، وإنما راغبين في تعلّم الآداب وأصول الدّين لأنهم كانوا بطبيعتهم طيّبين عطوفين، على الرّغم من بساطة تقاليدهم البدائية».

تختلف رواية كوندّه هنا عن تلك الواردة في الموسوعة لأنه يعطي وزناً أكبر لرغبة هؤلاء القوم في التّحضر، وبدرجة أقلّ للعامل الدّيني. لكن المصدرين يتفقان مع ذلك بشأن التّبحيل الذي كان يحظى به المدرّس والسلطة التي كان يتمتع بها لدى كبار القوم الذين «انضمّ سبعون منهم إلى مدرسته على الفور». جمع ابن ياسين نحو ألف من المقاتلين والقادة في رباطه وأطلق عليهم اسم المرابطين، وهي الكلمة التي تحوّلت في الإسبانية إلى *Almoravides*.

عندما مات يحيى بن عُمر أثناء القتال، عين ابن ياسين أخاه أبا بكر مكانه، لكن ياسين قتل هو الآخر بعد مدّة قصيرة في معركة مع قبيلة من البربر الذين أراد ضمّهم إلى عقيدته بقوة السيف. فتولّى أبو بكر الذي كان مجرد زعيم صوري بالنّسبة لقائد بارع مثل ياسين، القيادة بكلّ جدّية وعزم على تقوية البلاد وتطويرها في الدّاخل، وكذلك توسيع حدودها في الخارج.

ازداد عدد أتباع أبي بكر بصورة كبيرة مع وصول أناس من البادية، وبحلول سنة 1068 «كانت أعدادهم تزداد باطراد وبصورة كبيرة حتى صار المهاجرون يضغطون على السّكان

حدّ كبير أخويات الفرسان المسيحية the Military Orders of the Christians. ودير الرّابطة Monastery de la Rabida من حيث أبحر كولومبوس في رحلته الاستكشافية، هو ما تبقى من الرّباطات التي أنشأها المسلمون على تخوم مملكة لبلّة، والتي تفصل الحدود بينها وبين إمارة شلطيّش مدينة بالوس دي لا فرنثيرة (بلش). ويذكر الإدريسي (p. 14) [في كتاب الإدريسي العربي ص 248] صومعة تدعى رابطة روطة Rabida Rota قرب قادمس حيث كان يوجد مسجد ذو شأن كبير يؤمّه الثّامن من كلّ ناحية (Marrakushi, 270). ولا تزال المدينة التي يشير إليها تحمل اسم روطة لكن تم إسقاط «رابطة» من الاسم.

الأصليين ولم يكن في البلاد متسع لهم؛ ولم يكن السكان الأصليون يتفقون مع الغرباء». لهذا السبب، ونزولاً عند طلب قومه أئس أبو بكر مراكش. لقد حصل ذلك، كما يقول كوندِه في سنة 1070. ولكن أثناء انشغال أبي بكر في بناء عاصمته الجديدة، وصلته أنباء بأن أقرباءه من قبيلة لمتونة في وضع صعب ويخشون أن يقدم جيران يعادونهم على تدمير بلادهم إن لم يهتّب لتجديدهم. فعين أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين الذي كان مثله سليل «نسب حمير الأصيل» ليقوم بدور الوصي في غيابه، وأسرع لمساعدة عائلته.

عندما عاد بعد عام وجد أن يوسف يسيطر تماماً على الوضع وقد شهدت المملكة ازدهاراً واسعاً بفضلِه. ومن غير المعروف إن كان أبو بكر تخطى طواعية عن الملك، أم أن يوسف عزله. وواصل يوسف تسيير الأمور وعاد أبو بكر إلى مسكنه الأصلي في البادية ومات في السودان في حوالي سنة 1087 - 1088⁽¹⁾.

كان لدى يوسف بن تاشفين كل شغف اليمينيين بالبناء، وسرعان ما عظم شأن العاصمة الجديدة مراكش في رعايته. ولم يكن المرابطون قد وجدوا أول ما نزلوا فيها سوى وادٍ وسط غابة لا يعيش فيها غير الأسود والنمور والماعر البري والتعام وما إلى هناك، لكن طبيعة المكان كانت غنية بمواردها من المياه العذبة الباردة والمرعى الوفير والموقع الملائم. كان أبو بكر قد بدأ بتخطيط الطرق والتساحات والأماكن العامة قبل أن يستدعيه أهله، وعندما تولى يوسف بن تاشفين زمام الحكم، قام ببناء أسوار حول المدينة ومسجد وأضاف حصناً لتخزين السلاح والمال والكنوز. وعمل يوسف إلى جانب باقي العمال بيديه في بناء المسجد فكان «قدوة للجميع في حماسه وتواضعه. رحم الله من شيد هذا البنيان». ويختتم المؤلف الذي نقل عنه كوندِه القصة بقوله «هذه الآن حضرة مراكش الشريفة في موقع مبهج، وفير المروج والفاكهة والمياه، فأينما حُفرت بئرٌ على عمق قليل وُجدت مياه عذبة نقية»⁽²⁾.

جمع يوسف الذي انتهى إليه حكم بلاد الأندلس وكل نواحي غرب أفريقيا بين

(1) *Encyc. of Islam*, s. /v. "Almoravides"; Conde, ii. 73 - 81.

(2) Conde, ii. 84 - 5.

مزاياء كرم النفس وصحة البدن، وكان متعلّلاً في حكم قومه، ماهراً مقدّماً في الحرب، حريصاً على الدوام على تأمين وحماية مُلكه، شديد العناية بحدوده وثغوره، مُحبّاً للقتال، فكان يخوض الحرب بذكاء ثاقب وحسن طالع، وكان إلى ذلك متسامحاً، حازماً ومتقشفاً. ولم يكن يوسف بن تاشفين يهتم بملبسه وزينته وإنما شديد الاعتناء بنظافته، متعقفاً في طلب الملذّات معتدلاً، كيّساً في أسلوبه وحديثه؛ لقد أثبت بشتّى الطرق جدارته لتولّي المهمة العظيمة التي خلقه الله من أجلها وقدر له أن يتولاها، وهي أن يفتح ممتلكات واسعة من العالم من أجل نصرة الإسلام. كان لباسه من الصوف فلم يلبس شيئاً غيره؛ وأكله من الخبز المصنوع من الشعير ولحم الإبل وغيره من الشديّد من الحيوان، ولكن بكميات صغيرة، لم يسمعه أحد يشكو مرة من مذاق طعامه، أو كميته ولا نوعه؛ فكان في ذلك منتظماً. لم يُعرف في حياته علة ما عدا تلك التي أرسلها الله له عندما استدعاه لينال أجره وثوابه في الحياة الآخرة.

حكم ابن تاشفين بالعدل، ومع أنه حرص على أن يكون شديد العدل، فقد كان لطيفاً متسامحاً مع رعيّته. وقّع موائيق صلح مع الكفرة الذين استولوا على بلادهم، فكانت الجزية التي دفعوها بموجب تلك الموائيق كبيرة جداً حيث أنه بعد وفاته عثر في خزائنه على ثلاثمئة ألف ريع من الفضة، وخمسة آلاف وأربعين ربعاً من الذهب⁽¹⁾. لقد كان يوسف بن تاشفين حادّ الذكاء، طلق المحيّا وإنما متواضعاً خجولاً. ويقول كاتب سيرته الذي يُستشف من معرفته بتفاصيل حياة يوسف اليومية إنه كان معاصراً له: «لقد اجتمعت فيه كل الخصال الحميدة».

يقال إنّ يوسف اشترى عدداً كبيراً من العبيد الذين ابتاعهم من تجّار كانوا يتاجرون مع غينيا في مدينة تدعى غازا Gasza، في عمق الصحراء، وإن هؤلاء الزنوج كانوا فيما سبق مسيحيين ولكن من خلال احتكاكهم بالبربر أو بسبب ويلات الحرب وأهوالها، أو

(1) الرّبع arroba الإسباني يساوي اليوم حوالي 25 lbs، أي 25 رطلاً.

[الخمسة وعشرون رطلاً تساوي حوالي 11 كيلوغراماً. والرّبع المستخدم قديماً هو ربع قنطار،

والقنطار يساوي حوالي 45 كيلوغراماً. (م)]

لسبب آخر غير معروف؛ لم يحافظوا على ديارتهم⁽¹⁾. أرسل هؤلاء الزّوج إلى سواحل الأندلس حيث تمّت مبادلتهم مع أسرى نصرانيين قايضهم الأندلسيون. حرص يوسف على تعليم الشّبان الأندلسيين أصول الشريعة، وتزويدهم بالخيّل والسّلاح، وتدريبهم على فنون القتال وركوب الخيل، وجعل متين وخمسين من خيرة وأمهر الرّجال منهم في حرسه الخاص. وبالإضافة إلى هذا الجيش الأندلسي، كان لديه حرس يتألف من ألفين من الزّوج المدربين⁽²⁾.

سكّ بن تاشفين عملة من الذهب، وكانت خيوله مجلّلة بالذهب، ومقايض سيوفه من الذهب والفضّة. ولبس النّاس في بلاطه أثواباً من الكتّان وجلد الجديان الرّقيق، إلى جانب شالات أو بطانيات الصّوف النّاعم القرمزي والأبيض الذي يميّز قبيلة لمتونة. كما عرف قومه كيف يصنعون نوعاً من القماش النّاعم الواقى من الماء والمطر، واستخدموا خشب الصّندل ذا الرّائحة الحلوة الذّكية، والمسك والكافور والعنبر وقط الرّباد. وكانت كل هذه المواد ووسائل التّرف الرّاقية تلقى رواجاً في مراكش في مرحلة مبكرة من حكم المرابطين، فقد ذُكر العديد منها بين الهدايا التي تلقّاها أبو بكر عندما حُمل على التّنازل عن الملك لابن أخيه⁽³⁾. يصعب أن تتلاءم مظاهر التّرف والرّفاهية هذه مع رجل همجي، أو يدل الوصف العام لشخصية يوسف وأسلوب حياته ونمط تفكيره على أنه كان متديناً متزكياً. صحيح أنه قيل إنه ساعد في بناء مسجد بيديه، ولكن عبد الرّحمن الأول ملك قُرطبة، فعل الشّيء نفسه من قبل، ومن المؤكّد أن التزمّت الدّيني لم يكن من صفات ذلك الأمير البارزة.

امتدّت مملكة يوسف بن تاشفين قبل وفاته من الجزائر إلى طنجة في الشّمال، وشملت كل المغرب ومدينة فاس. ويلقي كونه فيما يورده عن تطويرة لمدينة فاس، ضوءاً مهماً على أسباب وسرعة تقدّم حضارة المرابطين.

(1) سيكون بوسع المطلعين على التاريخ القديم لغينيا أن يعرفوا إن كان لهذه الواقعة الغريبة أيّ أساس.

(2) Conde, ii. 82 – 6p cf. Codera, *Almoravides*, 30 note.

(3) *Ibid.*, ii. 88 – 90.

كان أول ما فعله يوسف هو هدم حائط كان يفصل «الحيّ الأندلسي» عن حي أهل
قيروان داخل المدينة، ثم قام بتوسيع فاس وتطويرها في كافة الاتجاهات، وجعل
أهلها يشاركون في العمل⁽⁴⁾. كان ذلك في سنة 1070.

كان هؤلاء الأندلسيون قد تركوا بصماتهم على المدينة قبل أن يحكمها يوسف بن
تاشفين بوقت طويل. ولا تزال توجد في فاس مبانٍ قديمة تحمل كتابات بالخط الكوفي
المميّز الذي شاع استخدامه في الأندلس في القرنين العاشر والحادي عشر. ويرجح
أن هذه الكتابات تعود إلى أيام المنصور، عندما كانت فاس تابعة لقرطبة، كما بنى عبد
الملك بن المنصور، بوصفه ممثلاً للخلافة، مسجداً فيها. ويوجد في كتاب كوندّه رسم
مطبوع لكتابة من هذا المسجد تحمل تاريخ 985 م. (375 هجرية)⁽⁵⁾. وهي مطابقة
لكتابات منقوشة بالطريقة نفسها على مبانٍ أندلسية تعود إلى القرنين العاشر والحادي
عشر وكتابات في قصر إشبيلية، وعلى قطع فنية وقطع منحوتة محفوظة في متاحف
عدّة تحمل تواريخ عائدة لتلك الحقبة. وعلى الرّغم من مرور سنوات طويلة على
تحرر فاس من السّيادة الإسبانية، فقد وجد يوسف جالية من الأندلسيين في المدينة في
سنة 1070، وكان عددهم كبيراً بما يكفي ليشكلوا حياً خاصاً بهم، ولديهم من مهارات
البناء ما يكفي بالنسبة إليه لكي يهدم الجدار الفاصل لكي يختلطوا مع باقي السّكان
ويشاركوا في العمل الذي بدأه من أجل تحسين المكان.

فكيف جاء الأندلسيون للإقامة في فاس بهذه الأعداد الكبيرة؟ لم تكن هناك حركة
استعمار في عهد المنصور الذي كان احتلاله للبلد لأسباب عسكرية محضة واستمرّ
مدّة قصيرة⁽⁶⁾.

ويأتينا الجواب من ابن غالب، الكاتب الذي عاش في القرن الحادي عشر والذي
ذكره واستشهد به كثيراً ابن سعيد الذي نقل عنه المقرئ بدوره مقاطع طويلة في فصوله
المتعلقة بالاقتصاد المحلي في إسبانيا تحت الحكم الإسلامي.

(4) *Ibid.*, ii, 93.

(5) *Conde*, i, 517.

(6) *Ibid.*, i, 514 ff., 521 – 2.

يقول ابن غالب، الذي توفي على ما يبدو في سنة (1044⁽¹⁾)، يمكن القول إنَّ الفضل في الشراء الذي نعرفه أفريقيا اليوم ومكانتها واتساع تجارتها، يعود إلى الأندلسيين الذين استقروا فيها. «فلما نفذ قضاء الله تعالى على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخيرة المُميرة [يعني بذلك الحرب التي بدأت بعزل هشام الثاني] لجأ آلاف من سكانها من كافة الطبقات والصناعات إلى تلك الشواطئ⁽²⁾، وتفرقوا ببلاد المغرب الأقصى من برّ العدو مع بلاد إفريقية، واستقروا حيثما وجدوا الراحة أو العمل. واتخذ العمال وأهل الزيف الأشغال التي اعتادوا عليها في الأندلس (...) أمّا أهل البادية فمالوا في البوادي إلى ما اعتادوه، وداخلوا أهلها وشاركوهم فيها فاستنبطوا المياه، وغرسوا الأشجار، وأحدثوا الأرحي الطاحنة بالماء وغير ذلك، وعلموا الفلاحين الأفارقة أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها، فشرفت بلادهم وصلاحت أمورهم وكثرت مستغلاتهم وعمتهم الخيرات.....

«وأمّا أهل الحواضر [من الأندلسيين] فمالوا إلى الحواضر واستوطنوها، ولكونهم على درجة من العلم وضييعين في كافة فروع العلم والأدب، فقد برزوا وعُرفوا في البلاط، أو في المدن الرئيسية حيث استقروا. أمّا أهل الأدب فكان منهم الوزراء والكتاب والعمال وجُباة الأموال والمستعملون في أمور المملكة، ولا يُستعمل بلدي ما وُجد أندلسي، فلم يعد في أفريقيا ناحية لا يكون فيها بعض من كبار العاملين من الأندلسيين.

«ولكن الفائدة الأكبر التي جنتها أفريقيا من تدفق من هجروا باتجاه شواطئها، كانت من العمال وأهل الصناعات في شتّى مجالاتهم. ومن المعروف أنه قبل وصول الأندلسيين كان الكثير من الحرف المزدهرة اليوم [يعني النصف الأول من القرن الحادي عشر] بالكاد تُعرف في أفريقيا، وأنَّ أهل الصناعات المهاجرين فاقوا أهل البلاد، في شغلهم وحذقهم. فعلى سبيل المثال، كانوا متى دخلوا في تشييد مبنى، عملوه في

(1) Makkari, i. 310, 332.

(2) كان هؤلاء شيعة الأندلس الذين تعرّضوا بشكل خاص للنهب والسلب والقتل على أيدي جيوش المغتصبين، سواء أكانوا من البربر أو العرب الشُّنّة؛ انظر المقرئ:

cf. Makkari, ii. 225 – 30; An – Nuweair in Makkari, ii. 448, 496, and passim.

أقرب مدة، وأفرغوا فيه من أنواع الحلق والتجويد ما يميلون به النفوس إليهم، ويصير الذكر لهم، قال: ولا يدفع هذا عنهم إلا جاهل أو مُبطل⁽¹⁾.

لم يقدر المرابطون ويستفيدوا فحسب من حضارة ومهارة المهاجرين الأندلسيين الذين لجأوا إلى أفريقيا هرباً من تجاوزات السُّنة وعساكر بربر إسبانيا، ولكن هناك أدلة على أنّ الحكّام المرابطين كانوا يقدرّون الثقافة اليمينية واستوزروا شعراء وأدباء يمينيين في مجلسهم وحضرتهم. ومن بين أعيان الكتاب الذين عملوا لدى يوسف بن تاشفين، أبو بكر المعروف بابن القصيرة كاتب المُعتمد على الله. كما عمل كاتباً لدى علي، ابن يوسف وخليفته، الوزير أبو محمّد عبد المجيد بن عبدون ابن مدينة يابرة، الشاعر ذائع الصيت وأحد أبناء المُعتمد كما يقول كوند⁽²⁾. من الواضح أنّ الحكّام المرابطين احتفظوا بما يكفي من غرائزهم القبلية وتقاليدهم لكي يتمكنوا ويرغبوا في الاستفادة من مكونات الحضارة اليمينية الأندلسية التي عرفوها في مدينة فاس وغيرها.

وقبل أن ننهي هذا الموضوع علينا أن نضيف أنّ العملة التي سكّها المرابطون كانت رائعة التصميم والتنفيذ ومتشعبة بكميات كبيرة قبل أن يغزو يوسف إسبانيا. ويشير السنيور كوديرا إلى ذلك بوصفه أمراً جديراً بالملاحظة ويشرحه من خلال افتراض أنّ فنّ النقش على الذهب كان في ذلك الوقت متقناً لدى جميع الأمم الكبيرة، وأنّ تحسين العملة لم يكن تطوراً عارضاً أو معزولاً وإنما متماشياً مع منهج ثابت صادر عن سلطة مركزية. ويحتمل أنّ السنيور كوديرا لم يطلع على ما قاله ابن غالب عن تأثير الأندلسيين الذي كان شديد القوة في تلك الفترة في أفريقيا، وإلا ما كان سيصعب عليه فهم كيف تعلّم المرابطون صنع القطع النقدية الجميلة. وهو يلفت الانتباه إلى الازدهار المادي الذي انعكسه تلك القطع النقدية الذهبية منها والفضية. والقطع النقدية الذهبية ملفتة بشكل خاص نظراً لتوحيد وزنها. ولم تكن قطع النقد الأندلسية الذهبية المسكوكة

(1) Makkari, i, 118 – 9.

نقل المقرئ النص عن ابن غالب كما نقله ابن سعيد. والنص العربي مقتبس من المقرئ، ج 3، ص 152، مع ضبطه مراعاة للنص الإنكليزي. (م)

(2) Marrakushi, 138 – 9; Conde, ii, 193.

بمثل هذه الجودة، ويبدو أنه تم في عهد ابن تاشفين اعتماد قوانين تفرض الالتزام بوزن موحد. أما بالنسبة للمعاملات التجارية الأقل أهمية، فقسم المرابطون الدرهم إلى أنصاف وأرباع وأثمان وجزء من ستة عشر، وهو أمر يبدو كذلك مستحدثاً، مع أن بني الأفطس آخر ملوك بطليوس سعوا إلى إصدار مثل هذه القطع النقدية الصغيرة.

وينسحب المستوى الفني الرفيع في سك العملة النقدية كذلك على نمط آخر من النقش، هو تحديداً النقش على الحجر. هنا لم تعد الكتابة الكوفية القديمة مستخدمة، ليحل محلها الخط الجميل المتصل، في حين كانت الكتابة نفسها محاطة بإطار من الزخرفة البديعة الرشيقة⁽¹⁾. ويمكن رؤية بعض من الخطوط الجميلة التي يشير إليها السنيور كوديرا في قصر إشبيلية، وعادة ما تكون داخل الإطار المنقوش للبوّابات الكبيرة، ما بين الخط الكوفي البسيط الضارم، والنمط المزخرف الأفريقي الذي كان أثيراً لدى الموحدين⁽²⁾.

هذا ما كان من أمر الملك والناس الذين دُعوا لتجدة مسلمي إسبانيا في سنة 1086 في مواجهة انتهاكات التّصارى لحصونهم. وسنبحث في فصل لاحق العلاقات الداخلية بين مسلمي إسبانيا والأسباب التي جعلتهم يقرّرون اتخاذ خطوة كانت نتيجتها النهائية أنهم فقدوا استقلالهم⁽³⁾.

(1) Codera, *Almoravides*, 218 ff.

(2) كان الخط الكوفي الإشبيلي هو المستخدم في سك العملة النقدية في القرن الحادي عشر، ولم يعد يستخدم بعد سقوط المعتمد.

(3) كان لا يزال الحيّ الأندلسي *Barrio de los Andaluces* موجوداً في فاس، ولا تزال إحدى حاراته تحمل اسم طريانة على اسم حي الخزّافين في إشبيلية. هنا يقوم جامع بني إدريس الذين حكموا شمال أفريقيا من فاس إلى بنزرت، بالقرن العاشر. في سنة 973 أذعن آخر ملوك بني إدريس لإمامة هشام الثاني وبني المنصور محراباً لتزيين هذا المسجد، وأهدى الحيّ *Aljama* من الأبنوس المحفور غني الزخرفة (6 - 514, 472, i. Conde).

عندما حاصرت القبائل الساخطة فاس الواقعة تحت الوصاية الفرنسية في مايو من سنة (1912)، كان أول ما فكروا فيه اقتحام الحيّ الأندلسي والاستيلاء على راية بني إدريس الشريفة المحفوظة في المسجد العتيق. ونجحوا في ذلك على الرغم من قصف المدفعية الفرنسية، وهدفهم إعلان «الجهاد» تحت الزاية القديمة لحكام مراكش الفاطميين.

Aljama كلمة إسبانية مأخوذة من كلمة الجامع أو «الجماعة» العربية وتعني الحي. (م)

الفصل الرابع عشر

الأندلس في القرن الحادي عشر

نورد فيما يلي لمحة موجزة عن الظروف السياسية السائدة في القرن الحادي عشر عندما توحدت الدول التي يحكمها رجال من أصل يمني أو عاميلوهم في إطار اتحاد فضفاض تحت إمامة الخليفة هشام الثاني حتى مماته في سنة 1058. واستمر هذا الاتحاد قائماً تحت حكم بني عباد ملوك إشبيلية.

بطليوس: تولى الحكم في بطليوس في سنة 1009 سابور الذي اعتنقه عائلة المنصور بن عامر، وسك العملة باسم الحاجب (حاجب هشام الثاني). عثر على شهادة قبره في سنة 1881 أثناء هدم منزل في شارع أبريل في بطليوس Badajoz. وتحمل الشهادة اسم سابور الحاجب وتاريخ وفاته سنة ⁽¹⁾1022. وخلفه في الحكم

(1) راجع مقالاً للكاتب أمادور دي لوس ريوس في مجلة "Revista de Archivos" لشهر فبراير 1909، الصفحة 48. يتحدث الكاتب عن سابور بوصفه «يحتمل أن يكون واحداً من بين العديد من ملوك الطوائف غير المعروفين في تلك الفترة». ويختلف المقرئ وغايفانغوس بشأن تاريخ وفاته، ولا يعطي أي منهما التاريخ المذكور على قبره.

قلت: كان يلقب بسابور العامري، وكان أحد صبيان فائق الخادم، فتى الخليفة الأموي المستنصر بالله الحَكَم الثاني (350 - 366 هـ)، وقت انحلال الدولة. وكان سابور قد استبد سنة 400هـ بالجزء الغربي من الدولة، الذي يشمل أرض الثغر الأدنى وحاضرتة بطليوس وأسفل وادي التاجه حيث مدينتا شترين والأشبونة (لشبونة اليوم). واتخذ سابور لنفسه لقب «حاجب»، كما اعتاد معاصروه من ملوك الطوائف أن يصنعوا، واعتمد في إدارة دولته على وزيره عبد الله بن محمد بن مسلمة بن الأفضس الذي اشتهر بأنه من أهل المعرفة والحكمة، وزوج ابنته أحد أبناء ابن الأفضس. وتوفي سنة 413 هـ. انظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بتمام

بنو الأفتس من قبيلة تُجيب، الذين سكّوا بدورهم العملة بوصفهم حُجّاب الخليفة هشام. كان بنو الأفتس من العلماء والأدباء وظلّوا على ما يبدو مخلصين حتى النهاية لتحالفهم مع المُعتمد واعترافهم برصايته عليهم بعد وفاة هشام.

انضمت دويلات صغيرة إلى بطليوس، أو الغرب كما كانت تسمى وهي لبله وشتيرية الغرب وشلطيش وولبة وجبل العيون وأكشوبنة وشلب والتي بقي العديد منها ولقرون تحت حكم عائلات نصرانية أو من المولّدين ممّن هم على صلة مع أحفاد الأميرة سارة. وكانت كل هذه الدويلات تدين بالطاعة للخليفة هشام ويعدّه للمُعتمد على الله الذي تزوّج ابنة أمير لبله. ويشير الكتاب المسيحيون والمسلمون على السواء إلى بقاء الكنائس والأديرة في هذه الناحية ولا يزال يمكن مشاهدة هذه المباني المستعربة في أنحاء البلاد.

سَرَقُسطة: حكمت عائلة من بني تُجيب هذه الدويلة - وهي أبعد ناحية استوطنها العرب إلى أقصى الشمال عندما حصل الغزو، وكانوا يمينين بصورة رئيسية - حتى 1044، وسكّوا المال باسم حُجّاب الخليفة هشام. وفي تلك السنة، تولّى بنو هود على تلك الدويلة، وهم من قبيلة جُذام. وسكّوا هم أيضاً العملة باسم حُجّاب هشام حتى سنة 1082. ولم نعثر على تفسير لماذا استمروا يفعلون ذلك لسنوات عديدة بعد وفاته، ولكنه أمرٌ لا خلاف فيه، حيث توجد نقود باسمهم تحمل ذلك التاريخ. وحكم أفراد من بني هود كذلك على دويلات أقلّ شأنًا مثل قلعة أيوب وتعليلة، حيث تم كذلك سكّ العملة باسم حُجّاب هشام. وكان سكان قلعة أيوب ودورقة، ووُشقة من اليمينين، وحكمها في الفترات الأولى بنو تُجيب الذين تحالفوا عموماً مع غيرهم من اليمينين أو مع المسيحيين القوط في مواجهة حُكّام قُرطبة المُتّنة خلال المُتّنة الأولى. هناك بعض أوجه التشابه المذهلة بين ما وصلنا من الفن العربي العائد إلى الفترات الأولى في سَرَقُسطة وذاك العائد إلى الفترة نفسها في إشبيلية⁽¹⁾.

الشتيرني، تحقيق إحسان عباس. (أحمد) سابور العامري أحد صبيان فاتق الخادم، فتى الخليفة الأموي المستنصر بالله الحُكّم الثاني (350 - 366 هـ) سابور العامري أحد صبيان فاتق الخادم، فتى الخليفة الأموي المستنصر بالله الحُكّم الثاني (350 - 366 هـ)
(1) كان في سَرَقُسطة أسقف من سنة 1040 إلى 1063.

دانية وجزر البليار: كانتا تحت حكم بني العامري، من أحفاد رجل أعتقه ابن المنصور الأصغر عبد الرحمن (شنجول). وظلوا يسكنون العملة حتى سنة 1075 بصفتهم حجاب هشام، ومن ثم بوصفهم حجاباً دون ذكر أي خليفة. تزوج المعتضد ملك إشبيلية إحدى بنات مجاهد العامري، مؤسس هذه السلالة. وتزوجت بنت أخرى له من عبد العزيز حاكم بلنسية، ابن عبد الرحمن (شنجول). وعليه كان ملك إشبيلية وأمير بلنسية في الجيل التالي أبناء خالات من الدرجة الأولى، وقد عاضدوا بعضهم بعضاً حتى النهاية. في سنة 1065، تمكن المأمون بن ذي التون حاكم طليطلة من إزاحة عبد الملك بن عبد العزيز والاستيلاء على أملاكه. ولكن بعد اثنتي عشرة سنة، ثار أهل بلنسية عليه وأعادوا توكيل بني عامر، فولّوا منهم عبد الملك بن أبي بكر. ولسوء حظه، تحالف أبو بكر مع يحيى بن المأمون بن ذي التون، وتزوج ابنته بهدف ترسيخ هذا التحالف. وعندما استسلمت طليطلة لألفونسو السادس في سنة 1085، ذهب يحيى إلى بلنسية وبمساعدة ألفونسو استولى على ملك صهره⁽¹⁾.

بلنسية: كانت تحت حكم بني أبي عامر، وهي سلالة أسسها حفيد المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول. وحملت العملة التي سكّوها اسم هشام بوصفه إماماً للمسلمين إلى مماته. وفي وقت لاحق، سكّ أحد أبناء تلك العائلة العملة باسم حاجب الخليفة العباسي عبد الله⁽²⁾.

حتى طرطوشة، الدولة الصغيرة غير ذات الأهمية، كانت لها عملتها الخاصة التي

(1) ارتبط بنو العامري بعلاقات صداقة مع التصاري في بلدنهم. وتوجد وثيقة جمل فيها علي بن مجاهد العامري أسقفية برشلونة مسؤولة عن جميع الكنائس في مملكته بما فيها أسقفيات جزر البليار ودانية وأوريولة، ويأمر فيها بأن يرسم أسقف برشلونة جميع الكهنة والقساوسة والشمامسة في تلك الأبرشيات وأن يخضعوا لسلطته وحده وليس لأحد غيره. ولقد اعترف بحق ملك دانية في القيام بذلك أسقف برشلونة وثلاثة أساقفة آخرين ممن حضروا حفل تكريس كاتدرائية سانت كروز وسانتا أولاليا في سنة 1058؛ وكذلك البابا وفقاً لبعض المراجع. ويمكن أن نستنتج من هذا أن علي بن مجاهد اتخذ لقب الملك عندما توفي هشام في تلك السنة.

(2) لقد حمى بنو أبي عامر التصاري كذلك ونقرأ عن وجود أسقف في بلنسية في سنة 1089.

الخليفة العباسي هو عبد الله القائم بأمر الله 1031 - 1075 م. (م)

حملت أسماء حكامها بوصفهم حجاب هشام الثاني.

وكانت لدى لاردة عملة تحمل اسم الخليفة هشام.

أما قُرطبة فحكمها بنو جهور من سنة 1031 بوصفهم حجاب هاشم الثاني إلى أن حاصر البربر المدينة سنة 1058 (سنة وفاة هشام)، فاستنجد ابن جهور بالمعتضد ملك إشبيلية وسلمه مقاليد الحكم في المدينة. فشكّلت قُرطبة منذ ذلك الوقت واحدة من دويلات الاتحاد تحت حكم اليمنيين. ولم يُعثر على عملة تعود إلى تلك الحقبة.

وحكمت مُرسية سلالة بني طاهر اليمنية من 1038 إلى 1069، بوصفهم حجاب هشام الثاني. ولم يُعثر على عملة مسكوكة باسمهم. وأطبح ببني طاهر من الحكم بمكيدة بين المُضري ابن رشيق ووزير المُعتمد وصديقه الخائن ابن عمار. كان المُعتمد قد أرسل ابن عمار لتفقد الوضع بعد فلاقل أنهم فيها بنو طاهر جوراً بمساندة بربر طليطلة على حساب اتحاد الدويلات، لكنه خطط مع ابن رشيق للاستيلاء على مُرسية لحسابهما. استدعى المُعتمد ابن عمار ليستطلع على ما آلت إليه الأمور، ورغم أنّ بني طاهر استسلموا له لدى عودته تحت انطباع أنه يتصرّف لحساب المُعتمد الذي كانوا له مخلصين، فقد كان ابن رشيق قد اتخذ في هذه الأثناء تدابير لخلع ابن عمار. وعندما اقتنع المُعتمد بخيانة ابن عمار أمر بسجنه وقلته، وسعى إلى إعادة بني طاهر إلى المُلك، بناءً على طلب بني أبي عامر حكام بلنسية. لكنّ ابن رشيق رفض إعادة الحكم المغتصب وبقي حاكماً على مُرسية حتى وقت قصير قبل احتلال المرابطين للاندلس، وشغل نفسه في هذه الأثناء في تديير المكائد للمُعتمد مع معتصم بن صمادح. يتساءل دوزي في الجدول الذي أعده لحكام الدويلات إن كان المُعتمد أو ابن رشيق حكما مُرسية في ذلك الوقت. ويقول كوندِه إنّ ابن رشيق حكم في الظاهر باسم المُعتمد، ولكن من دون أن يدفع الخراج أو يعترف بسلطته بأي حال. ويقول المراكشي إنّ المُعتمد نجح أخيراً في استمالة ابن رشيق بعد أول حملة (أو الحملة الثانية) للمرابطيين (راجع صفحة 251 - 252 طبعة الأصل). ويقول دوزي إنّ بني طاهر كانوا قد استعادوا مُلكهم في ذلك الوقت.

حكم المَرِيّة من 1010 إلى 1038 على التوالي رجلان أعتقتهما المنصور، وقُتل ثانيهما غيلة في معركة تحالف فيها مع معتصم بن صمادح الذي خانته. وتولّى حينها ابن صمادح، الذي يبدو أنه من البربر، الحكم، ورغم تحالفه في الظاهر مع المُعْتَمِد والاتحاد اليمني، فقد كان يتآمر مع ابن رشيق على حساب إشبيلية والدويلات الأخرى الموالية للمُعْتَمِد. ولم يُعثر على عملة تعود إلى تلك الفترة.

لم نعث في أيّ من المصادر التي راجعناها على معلومات تشير بوضوح إلى أصل بني صمادح حكام المَرِيّة، ولكن الإطراء الذي حظي به البربر في الشعر الذي قيل في مدح المعتصم، الثاني في السّلالة، يفترض أنهم من البربر. من المحتمل على أيّ حال أن يكونوا من السّنة، لأنّ المقرّي في ملخصه لأمرأ القرن الحادي عشر أسهب في وصف خصال المعتصم الحميدة، بوصفه «حاكماً عاقلاً ومتبصراً» في حين أهمل التعليق على الأمراء ذوي الأصل اليمني. تزوّج المعتصم من ابنة عبد العزيز حاكم بلنسية، وبذلك أصبح من أقرباء المُعْتَمِد بالمصاهرة. كان يبدي في الظاهر مودته لحاكم إشبيلية، ويعمل في السّرّ على خلعه، بعد أن بدأ يوغر صدر يوسف بن تاشفين على المُعْتَمِد ويحرّضه عليه حتى قبل زيارته الأولى للاندلس. ويقول المراكشي إنّ ابن صمادح كان قديم الحسد للمُعْتَمِد وهذا سبب خيائته له. ولكنّ المُعْتَمِد وحتى النهاية، إمّا لم تساوره شكوك أو اختار تجاهل غدر المعتصم به.

استولى المعتضد بن عباد على بعض الدويلات الصّغيرة التي لا تتعدّى كونها مدناً محصّنة أو حصوناً مع الأراضي المحيطة بها مباشرة، من حكامها البربر الذين اغتصبوا الحكم فيها أثناء الفتنة التي أعقبت خلع هشام الثاني في سنة 1009. وكان من أبرز هذه الحصون الجزيرة وقرمونة ومورور وأركش وزُنْدَة. وكان سكان هذه المدن في غالبيتهم من اليمنيين ويغضون حكم البربر. وبعد سنة 1058، بقوا على إخلاصهم لبني عباد. وبما أنه تم الاستيلاء على هذه المدن بعد قتال، فقد تم ضمها لتصبح من نواحي إشبيلية. أمّا باقي الدويلات المذكورة فلم تتبع في يوم من الأيام أو تخضع لحكم إشبيلية، وإنما ارتبط حكامها بالمُعْتَمِد بوصفه رأس اتحاد تلك الدويلات التي

انضوت تحت رايته كوسيلة للدفاع عن أنفسها في وجه قشتالة وآراغون. حكم البربر طليطلة وغرناطة ومالقة، وكانوا في حالة حرب دائمة مع الدويلات اليمينية ونجحوا من حين لآخر في الاستيلاء على إحدى الدويلات أو الأخرى لفترات تطول أو تقصر. ولكن في أول مناسبة، ثار الناس عليهم وقدموا على أنفسهم حكّاماً من بينهم.

ظلت طليطلة وغرناطة معزولتين ومستقلّتين حتى سنة 1085، فلم تجرِ أية محاولة لضمّ الدويلات البربرية للاتحاد. ثم أرغم مسيحيو طليطلة أهل المدينة المسلمين على الاستسلام لألفونسو السادس ولم تعد تلك المدينة تضطلع بأيّ دور في تاريخ الأندلس المسلمة. وبعد فترة قصيرة، اصطلحت الأمور بين غرناطة والمُعتمد على أساس إقامة حلف ودي، وبدأ أنّ آخر أمرائها البربر، عبد الله بن زهر، انضمّ إلى اتحاد الدويلات الذي يتزعمه المُعتمد وهو على قناعة بأنّ إعلان الولاء لبني عبّاد هو أفضل خياراته السياسية. وقبل سنوات عدّة من ذلك، كان اختفى البربر الذين حكموا الدويلات الأقلّ شأنًا. وكان غالبيّة سكان غرناطة من أصل يمني أو نصراني.

يبدو أنّ مالقة كانت تضمّ عدداً أكبر من البربر والثّنة بين سكّانها من أيّ من الدويلات الأخرى الصّغيرة التي ضمتها بنو عبّاد أو انضوت تحت لواء الاتحاد؛ وحتى في وقت متأخر سنة 1273، نجد هذه المدينة وقد ثارت على ملك غرناطة اليميني محمّد بن نصر. ولا توجد أدلة مباشرة مع ذلك على أنّ أهل غرناطة شاركوا بأيّ شكل في مؤامرات المعتصم وابن رشيق في بلاط يوسف بن تاشفين.

ويذكر دوزي وآخرون دولة أخرى حكمها البربر، لكن يبدو أنه لم يكن لها أيّ دور مهمّ في أيّ وقت. تلك كانت السّهلة التي حكمها بنو رزين من 1011 إلى 1090. كانت أراضيهم ممتدة بين حدود مُرسية وبلنسية حينها. واليوم تعرف عاصمتها، شتمرية بني رزين، باسم ألبرائين. تكمن الأهمية الرّئيسية لهذه الدّولة الصّغيرة في اسم عاصمتها الذي يبيّن أن المسيحيين كان عددهم كبيراً بما يكفي للحفاظ على اسمها القوطي، شتمرية Santa Maria. ويسمّيها السّنيور پونس سانتا ماريّا دل ليفانته، أي سانتا ماريّا المشرق⁽¹⁾.

(1) وردت لدى المقرّي شتمرية الشّرق وشتمرية الغرب. (م)

وعليه، فإن ما نكتشفه من خلال تراجم الكتاب العرب المتوفرة لدينا، أن ربيعة يوسف بن تاشفين إزاء المُعتمد والتي قادت المرابطين إلى احتلال كل الأندلس، كانت من صنع حاكم مرسية الشّتي وأمير المَرّة البربري وحدهما، أما سائر الدّويلات في ذلك الوقت، فهي إما كانت على ولائها للاتحاد اليميني أو خاضعة أصلاً لحكم النّصارى. والاتهامات التي كثيراً ما يتم ترديدها بحق المُعتمد، في أنّه استولى على هذه الدّويلات بالقوة، إنما تفتدها، في اعتقادنا، علاقاته الشّخصية والقبلية معها، عدا عن عدم وجود أية سجلات عن تنظيم غزوات خلال فترة حكمه أفضت إلى مثل هذه الفتوحات.

وسيكون من الإطالة والإسهاب المملّ سرد وقائع تفصيلية تؤيّد ما أوردناه للتّوّ. وقد توصلنا إلى القسم الأكبر من المعلومات من خلال مقارنة جداول الأنساب في نهاية ترجمة غايانغوس للمقرّي وفي كتاب دوزي «تاريخ المور»⁽¹⁾ *Geschichte der Mauren* مع إفادات لهؤلاء الكتاب ضمن النّص ولدى كوند، وكتاب «بنو عبّاد» لدوزي، و«دراسات» *Estudios* لكوديرا، و«مؤرّخون وجغرافيون» *Historiadores y geografos* للشّنيور پونس، و«تاريخ الموحدّين» *Histoire des Almohades* للمراكشي، و«تاريخ المستعربين» *Historia de los Mozarabes* لسيمونه، والجغرافيا للإدريسي⁽²⁾. وحصلنا على المعلومات حول سكّ العملة، كما ورد في مقدّمة العمل، من «قطع العملة والمجموعات الآسيوية» *Numismatic and Asiatic Societies* للشّيد لونغورث دايمز Longworth – Dames.



(1) Mauren بالألمانية تعني Moors بالانكليزية وهي تعني سكان شمال أفريقيا أو المغرب. (م)

(2) نزّهة المشتاق في اختراق الآفاق. (م)



دير النّور (كونفتو دي لالوث) (رقم 2). العقود القبطية العربية المستندقة للباحة الداخلية الكبيرة.

الفصل الخامس عشر

إسبانيا والمرابطون

شكل الزحف السريع لأهل قشتالة في نهاية سنة 1085، خطراً جسيماً وداهماً على كل نواحي إسبانيا المسلمة (الأندلس). فقد ضرب ألفونسو السادس حصاراً فعلياً على مدينة طليطلة في مطلع تلك السنة بعد أن شنّ لبعض الوقت هجمات على النواحي المحيطة بها، وبمساعدة من المسيحيين القوط (المستعربين) داخل الأسوار⁽¹⁾، دخلها ظافراً في نهاية شهر مايو. لم تطل مقاومة يحيى البربري آخر حكام بني ذي النون الذي كان قد استولى على المدينة بعد سقوط الخلافة [في قرطبة] وبقي في الحكم حتى ذلك الوقت، وإنما اشترط لاستسلامه أن يساعده ألفونسو للاستيلاء على مملكة بلنسية التي كانت وعلى مدى عشرين عاماً موضع خلاف بين بني ذي النون وبني أبي عامر. وافق ألفونسو على هذا الشرط بلا تردد وأرسل ألفار فانيث Alvar Fañez بجمع كاف من العساكر ليفرض يحيى بالقوة على أهل بلنسية غير الزاغبين به. ولأن يحيى كان عاجزاً عن دفع أتباعهم، أعطاهم أرضاً في المقابل، فاستقروا عليها واغتنوا من خلال الإغارة على النواحي المحيطة. وفي الوقت نفسه، كانت سرّ قسطة تحت الحصار وتحصّنت فرقة من عساكر قشتالة في قلعة أليط Aledo، القريبة من لورقة، وراحوا يغيرون على المرّة⁽²⁾. وهكذا، في نهاية 1085 لم

(1) ورد في السجلات (Chronicle, xi. 220) عن كاهن كان يعيش في طليطلة في ذلك الوقت أنه في عام 1082، أرسل التصاري وفداً إلى ألفونسو يتوسّلونه مواصلة الحصار، وأرسل يحيى وفداً آخر (من المسيحيين أيضاً) ليطلب منه الكفّ عن ذلك.

(2) Crónica general, xi. 226 – 8; Makkari, ii. 257, 505, Dozy, G. der M., ii. 352 – 3.

بالإضافة إلى جداول الأنساب.

يكن ألفونسو قد استقر في طليطلة فحسب وإنما في موقع يؤمله لأن يضم بلنسية وربما سرقسطة، في أي وقت يشاء.

وبالإضافة إلى تقدمه باتجاه الشرق، كان ألفونسو يدفع قواته كذلك باتجاه الجنوب والغرب. ويقول المقرئ إنه ما إن أصبحت طليطلة في يده حتى راح يتوغل ويغير على أراضي ملوك إشبيلية وبطليوس، «وأخذ يجوس من خلال الديار، ويستفتح المعقل والحصون»، ومع اشتداد وطأة ملك الفرنج على المسلمين اتفق هؤلاء الملوك وعدد من الأمراء الصغار أن يدفعوا له «شيئاً معلوماً كل سنة»، بدلاً من أن تبقى أراضيهم وممتلكاتهم تحت رحمة نغمته المدمرة⁽¹⁾.

لم يكن لدى مسلمي إسبانيا من القوة التي تتيح لهم التصدي لتقدم التصاري الثابت والمخيف. حتى إشبيلية، أقوى ممالك الأندلس، كانت أضعف من أن تقاوم ألفونسو بمفردها، وقد باءت جهود المتمد المستمرة للتم شمل كل الإمارات الصغيرة من أجل الدفاع عن النفس بالفشل بسبب الحسد المتأصل بين حكامها. ولم يعد لدى مسلمي إسبانيا بعد أن صاروا وحدهم سوى خيارين ليس إلا، كما يقول دوزي: الاستسلام لألفونسو أو النفي. ورأى كثيرون منهم بالفعل أن عليهم مغادرة البلاد، ويقتبس دوزي سطرًا من قصيدة لشاعر ينصح أهل الأندلس بالرحيل، لأن البقاء ليس سوى ضرب من الحماقة⁽²⁾.

وهكذا وعلى ما كانوا منه من الضيق وقلة الحيلة، لم يعد لدى أهل الأندلس من خيار سوى الاستغاثة بمسلمي أفريقيا؛ ولكن هذا الخيار كان محفوفًا بمخاطر جسام.

(1) Makkari, ii. 270.

كما ورد في التجلات (Chronicle, xi. 294) أن ألفونسو شن الحرب على المعتمد بعد استيلائه على طليطلة.

(2) G. der M., ii. 353.

الآيات للشاعر عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال (المقرئ، ج 4، ص 351) (م):
يا أهل أندلس حثوا مطيكم فما المقام بها إلا من الغلظ
الشوب يُنسل من أطرافه ولرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات في سَفَطِ

فيوسف بن تاشفين قد يكون قادراً بالفعل على كبح جماح ألفونسو أو تدميره، لكنه قادر كذلك على أخذ الأندلس، كما أخذ القسم الأعظم من شمال أفريقيا. لقد كان المُعتمد وأمرأه الممالك الأقل شأنًا جميعهم واعين تماماً لهذا الخطر، ولكن بدا لهم أنه أهون الشرور، وفعلوا ما بوسعهم لضمان حريتهم عندما أخذوا على يوسف تعهداً بأنه لن يجزّدهم من ممتلكاتهم وأراضيهم⁽¹⁾.

بالإضافة إلى الخطر العام المهدق بكل إسبانيا المسلمة، بدا أنّ حياة المُعتمد نفسه في خطر من ألفونسو بسبب بعض الصّعوبات في دفع الجزية له. ويورد المقرّي روايات مسهبة تتعلّق بهذا الحادث، استناداً إلى كتاب عاشوا في القرن الثالث عشر (وربما) الرابع عشر تبعاً، ويلاحظ «وتختلف رواية ابن اللبّانة عما تقدّم». ومن المؤسف أنه لم يورد رواية ابن اللبّانة الذي كان معاصراً للمُعتمد وصديقه. والحقيقة الأخيرة قد تكون السبب الذي جعل المقرّي يحجم عن نقلها. والتفاصيل التي يوردها غير دقيقة على الأرجح، وهي على أيّ حال ليست لها عواقب مهمّة؛ عدا عن أنها تظهر وجود اختلاف نوعاً ما، وأنّ ذلك كان أحد الأسباب التي أثّرت على المُعتمد عندما اتخذ قراره للاستنجاد بالمرايطين.

وتفيد كافة الروايات بأنّ المُعتمد كان وراء فكرة طلب المساعدة من يوسف بن تاشفين؛ وأخبر بذلك أمرأه غرناطة ويطليوس الذين بعثوا برسلم لحضور اجتماع دعاهم إليه في إشبيلية وحضره كذلك قاضي قرطبة وابن زقوت Ibn Zagut حاكم مالقة الذي عينه المُعتمد، ووزير المُعتمد نفسه، ابن زيدون. وتقرّر في هذا الاجتماع طلب المساعدة من يوسف، والوحيد الذي خرج عن الاجماع هو حاكم مالقة الذي أشار إلى مدى خطورة مثل هذه الخطوة على استقلالية البلاد، وأشار عليهم أن الأحرى بهم أن يتناسوا خلافاتهم ويتحدوا كمسلمين صالحين في مواجهة ألفونسو، عندها تصبح قوتهم لا تقهر. لكن هذا التّحكير الحكيم، كما يقول الكاتب الذي نقل عنه دوزي وقائع الأحداث، قوبل باستهجان، واعتبر الآخرون ابن زقوت مسلماً مارقاً،

(1) Makkari, ii. 277.

يستحق القتل. وتقول بعض المصادر إنَّ المُعتمِد حمل بنفسه خطاب الدَّعوة إلى ابن تاشفين⁽¹⁾.

نزل يوسف بالجزيرة في يونيو 1086، وتنازل حاكم تلك المدينة الرّاضي بالله، ابن المُعتمِد، عنها لابن تاشفين، فأصلح تحصيناتها، ثم توجه إلى إشبيلية حيث انضمَّ إليه أمراء الأندلس وعساكرهم، ثم انتقل إلى ساحة المعركة الكبرى. ويقول كوندِه إنَّ المُعتمِد تولّى قيادة كل قوات الأندلس. (ii. 130).

كوندِه هو المصدر الوحيد الذي وجدنا لديه معلومات تشير إلى موقع المعركة. ويقول إنَّ الجيشين عسكرا على الضّفتين المتقابلتين لنهر «هاجر» Nahr – Hagir (قد يكون نهر Guadajra أحد روافد نهر يانة) «في الأيكة والسهول التي تسمى الرّلاقة، على بعد أربعة فراسخ من بطليوس» (ii. 134).⁽²⁾

جرت المعركة في 23 أكتوبر من عام 1086، وكانت نتيجتها هزيمة ساحقة لألفونسو (الأذفونش). ولكن نتيجة المعركة بدت في البدء غير محسومة لأنَّ أمراء الأندلس، كما يقول كوندِه، لم يثبتوا أو يبلوا بلاء حسنا، ولأنَّ المُعتمِد وأهل إشبيلية هم وحدهم الذين قاتلوا ببسالة؛ وهذا ما يؤكده المراكشي بقوله إنَّ يوسف فوجيء بهجوم جيش النّصارى، وإنَّ المُعتمِد الذي كان في مؤخرة الجيش مع أصحابه «أغنى ذلك اليوم غناءً لم يُشهد لأحد قبله»⁽³⁾.

وبعد انتصار يوسف بن تاشفين والمُعتمِد في معركة الرّلاقة، توجهوا معاً إلى إشبيلية

(1) Conde, ii. 72, 97 – 8; Dozy, G. der M., ii. 354; Makkari, ii. 274.

(2) يحدّد السيد زيولد في كُراسه بعنوان «الموقع الجغرافي للرّلاقة» Die Geographische Lage von Zallaka – Sacralias الصّادرة في باريس عام 1906، موقع الرّلاقة على نهر غيريرو على بعد نحو 15 كلم شمال شرق بطليوس Badajoz.

(3) Conde, ii. 146; Marrakushi, 114; Dozy, G. der M., ii. 358, 416.

حيث يقول دوزي إنه لا توجد روايات معاصرة لهذه المعركة، وإنَّ أقدم ما كتب عنها يعود إلى القرن الثاني عشر.

الاقْتباس العربي من المراكشي، ص 61. (م)

التي بقي فيها يوسف مدةً في ضيافته. ويروي المقرئ نقلًا عن الحميري ما جرى خلال تلك الزيارة بقوله:

«فلما انتهى ابن تاشفين إلى إشبيلية مدينة المُعْتَمِد - وهي من أحسن المدن وأجلها منظرًا - أمعن يوسف النظر فيها وفي محلها، وهي على نهر عظيم مستبحر تجري فيه السفن بالبضائع جالبة من برّ المغرب وحاملة إليه، وفي غربيها رُستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخاً يشتمل على آلاف من الضياع كلها تين وعنب وزيتون، وهذا هو المسمى بِشَرْفِ إشبيلية... وفي جانب المدينة قصور المُعْتَمِد وأبيه المعتضد في غاية الحسن والبهاء، وفيها أنواع ما يُحتاج إليه من الطعام والمشروب والملبوس والمشروف وغير ذلك، فأنزل المُعْتَمِد يوسف بن تاشفين في أحدها، وتولّى من إكرامه وخدمته ما أوسع شكر ابن تاشفين له»⁽¹⁾.

لقد بدا يوسف وتاشفين والمُعْتَمِد حتى تلك اللحظة على أحسن حال وفي وئام تام، ويقول المراكشي إنّ ابن تاشفين جال في الأندلس كما رغب وكان «في خلال ذلك كله يظهر إعظام المُعْتَمِد وإجلاله ويقول مصرّحاً إنّما نحن في ضيافة هذا الرّجل ونحت أمره وواقفون عند ما يحده»، وإنه لن يبقى في إسبانيا أطول ممّا يرغب له مضيفه.⁽²⁾

ولكن في هذا الوقت، كان هناك من يوغر صدر بن تاشفين على المُعْتَمِد وهو أبو يحيى محمّد بن معن بن صمّادح المعتصم، صاحب المَرّة، والذي كان «قديم الحسد للمُعْتَمِد كثير التفاسة عليه، ولم يكن في ملوك الجزيرة من يناوئه غيره.. [وكان] أكبر أسباب تقريب أمير المسلمين [يوسف بن تاشفين] إياه ثناء المُعْتَمِد عليه عند أمير المسلمين ووصفه إياه عنده بكل فضل.... ولما اشتدّ تمكّن المعتصم من أمير المسلمين بدا له أن يسعى في تغيير قلبه على المُعْتَمِد وإفساد ما بينهما... فشرع

(1) Makkari, ii. 289.

المقرئ، ج 4، ص 375.
(2) المراكشي، 62، بما يتفق مع النص الإنكليزي.

المعتصم فيما أَراده من ذلك ولم يدرك أنه ساقط في البئر التي حفر، وقتيلٌ بالسَّلاح الذي شَهره⁽¹⁾.

وقيل ليوسف بن تاشفين إنَّ المُعتمدَ يعيش عيشة إسراف وترف، ولا يفكر سوى في نعيمه، وإنه أخذ أموالاً طائلة من رعيته بالظلم لينفقه على ملذاته المحرمة وتساليه التافهة، وإنه بدلاً من أن يولي اهتمامه لضبط بلاده وحفظها وصون رعيته، لم يكن يفكر سوى في إشباع رغباته الخالصة. وقيل له كذلك إن أصحابه وأنصاره وكبار وزرائه والعاملين في بلاطه، وبدلاً من أن يحذوا حذوه في حماقته، كانوا غير راضين عن سلوكه وغير مسرورين بما يفعله؛ وباختصار، لم تُترك حجة إلا وسيقت للحط من قدر ملك إشبيلية في نظر القائد المرباط الصَّارم والمتشَّف، الذي كان معروفاً باقتصاده وبساطة عاداته وانكاره لذاته. يقول الحِمْيَري إنَّ يوسف نفسه وجَّه طواعية انتقادات لسلوك المُعتمد بهذه العبارات على مسامح حاشيته، ولكن هذا القول يتناقض مع جملة في الفقرة نفسها تقول إنَّ «العديد من أصحاب يوسف كانوا يتبهون به كل يوم إلى هذه الأمور».

من ناحية ثانية، كان هناك من تَبَّه المُعتمد إلى ضرورة عدم الوثوق بضيفه، الذي قيل له إنه كان «طامعاً في ملكك» وإنه يؤدُّ «الحلول لما أنت فيه من خصب الجنباب». ونصح هؤلاء المُعتمد بقولهم إنَّ «[عليك] أن تجمع أمرك على قبض ضيفك هذا واعتقاله في قصرِكَ، وتجزم أنك لا تطلقه حتى يأمر كل من بجزيرة الأندلس من عسكره [من الأفارقة] أن يرجع من حيث جاء»⁽²⁾ إلى البادية.

ليس غريباً أن يعتري الشك والتَّيُّب صدر أي من الرِّجلين أو كليهما بشأن حقيقة ما نُقل اليهما ممَّن يحيطون بهما من أهل الغدر الساعين إلى تأليب كل منهما على الآخر؛

(1) Marrakushi, 115 – 7; *Abbadites*, i. 118.

المراكشي، 62 – 63. (م)

(2) Makkari, ii. 289 – 91

الاقْتباس العربي من المقرئ، ج 4، ص 375 – 376. (م)

حيث لم يتوقف أصحاب المكائد عن إساءة التصح، وإنما قاموا بتكرار ما قيل على مسامع من كان ضحية للافتراء، وكان تلك الكلمات صدرت على لسان هذا الملك أو ذاك. وفيما يلي مثال على ما كان يفعله أصحاب المكائد:

«ذات يوم والمُعتمد غارق في تفكيره، تشاجر أحد ندمائه مع رجل غريب كان يسدي إليه نصائح توغر قلبه، فقال:

«ما كان [لأمير] مثل المُعتمد على الله - وهو إمام أهل المكرمات - ممن يعامل بالحييف، ويغدر بالضييف».

«فقال الرجل [الذي لم يرد اسمه]: «لا بأس، إنما الغدر أخذ الحق من يد صاحبه، لا دفع الرجل عن نفسه المحذور إذا ضاق به».

«فقال ذلك التديم: «ضيم مع وفاء، خير من حزم مع جفاء».

وصرف المُعتمد النصائح الزائفة بعد أن شكره على نصحه و«وصله بصلة». ولكن يبدو أن هذه الأخبار بلغت يوسف بن تاشفين «فأصبح غادياً، فقدم له المُعتمد الهدايا السنية والتحف الفاخرة، فقبلها ثم رحل» في اليوم نفسه بعد أن استأذنه⁽¹⁾.

لقد كان سلوك الأمراء السنية والبربر ثابتاً على الدوام؛ كان هدفهم الأوحد هو بوار المُعتمد بأي ثمن. فقد عارضوا استدعاء يوسف، آمليين بلا شك في أن يؤدي ترك المُعتمد وحيداً بلا سند إلى سقوطه سريعاً أمام ألفونسو. قد يكون تصرفهم في الزلاقة نابعاً من جبنهم، وبالمثل فإن سعيهم إلى إنزال الهزيمة بالمُعتمد ويوسف كان يتسم بالغدر على أقل تقدير. ولكنهم وبعد فشل محاولاتهم، عقدوا العزم على تقويض العلاقة الجيدة التي نشأت في البدء بين يوسف والمُعتمد، وقد نجحوا في ذلك أيما نجاح. والمثير للدهشة أنهم أعموا عيونهم عن واقع بديهي وهو أن سقوط المُعتمد لا بد أن يجلب معه سقوطهم هم أنفسهم، وكما رأينا فقد أثار ذلك استغراب المراكشي.

(1) Makkari, ii. 292; cf. Abbadites, ii. 252 note.

عاد يوسف إلى المغرب بعد فترة وجيزة من معركة الزلاقة⁽¹⁾، ولكنه استدعي بعد ذلك بعامين.

والتسبب في استدعائه للمرة الثانية أن الدويلات الشرقية كانت تعاني من ضعف كبير، وكانت حامية الفونسو المتمركزة في حصن أليط Aledo، مصدراً للقلق لكل تلك النواحي وتشكل خطراً جاثماً على صدر المَرّة ومُرسية ولورقة. كان يحكم مُرسية ابن رشيق، وهو من عائلة عربية مُصّرية استقرت في تلك الناحية قبل نحو أربعمئة وخمسين سنة واستولت عن طريق المكائد على تلك الدويلة ولا زالت. ولم يكن مضي وقت طويل على تقديم حاكم لورقة التي يقع حصن أليط في نواحيها نفسه عاملاً لدى المُعتمد يدفعه إلى ذلك طمعه في مساندته له في مواجهة النصارى المتمركزين في أليط. وكانت المَرّة تحت حكم المعتصم البربري. سافر المُعتمد بنفسه إلى المغرب ليشرح الوضع ليوسف الذي عبر البحر في عام 1088 واجتمع بملوك الاندلس بالقرب من أليط. وإلى هذا اللقاء، جاء المعتصم، الصديق المخلص للمُعتمد في الظاهر وعدوّه في السر، وهو يرتدي بُرنساً أسود كذاك الذي يرتديه يوسف. وما كان من المُعتمد إلا أن سخر من تغييره لطريقة لبسه فقال إنه كان يبدو كغراب بين الحمام، لأن أصحابه في المَرّة اعتادوا أن يلبسوا الأبيض. لقد كان لهذه الحادثة البسيطة أثرٌ على الوضع، لأن الشيعة عادة ما يلبسون السواد والسنة البيضاء. كان من الواضح أنّ المعتصم ويوسف يتميّان إلى مذهبين متعارضين، ولكن ذلك كان مؤشراً إلى أن المعتصم مستعد للتخلي عن وسم مذهبه لكي يفوز برضا السلطان الشيعي⁽²⁾.

وسرعان ما برز الخلاف ما بين المُعتمد وابن رشيق. كان يوسف والمُعتمد وابن

(1) تقول بعض المراجع إنه عاد على الفور نتيجة وفاة ابنه، ولكن هذا الأمر غير ذي أهمية بالنسبة لنا هنا. للمراجعة الاطلاع على: Codera, *Almoravides*, p.2.

(2) Dozy, G. *der M.*, ii. 360 – 3; Conde, ii. 157.

يؤرخ دوزي مجيء يوسف بن تاشفين في المرة الثانية إلى الاندلس في سنة 1090؛ أما كوديرا (Almoravides, 226 – 7) فيقول إنه حصل في عام 1088، وإنه جاء للمرة الثالثة في عام 1090.

زيري Ibn Zeyr حاكم غرناطة متفقيين على أنه من الأفضل للمسلمين أن يهاجموا
التصاري على حدودهم لأن حصن أليط كان منيعاً وحصاره سيكون مضيعة للوقت.
لكن ابن رشيق عارض هذه الفكرة ورغب في محاصرة الحصن. واحتدم النقاش حول
هذه المسألة حتى أن ابن رشيق شعر سيفه في وجه المُعتمد الذي اتهمه بأنه يتصر
لفكرة محاصرة الحصن لما فيه مصلحة التصاري وبأنه عقد اتفاقاً مع ألفونسو⁽¹⁾،
فاعتقل ابن رشيق وأودع السجن. ويسدو أن ذات الين أصلحت بين المتخاصمين،
ويقول المراكشي إنه وبفضل مساعي يوسف الحميدة، وافق ابن رشيق بعدها على
إعادة مُرسية إلى بني طاهر، وهم أحق بحكمها، في مقابل مبلغ من المال وتعيينه
حاكماً على ناحية من نواحي إشبيلية⁽²⁾.

ولكن وفي هذه الأثناء، نجمت عن الخلاف مع ابن رشيق اضطرابات جسيمة.
فلدى رؤية قائدهم يودع السجن انسحب قادة قوات مُرسية من الميدان بعسكرهم،
ولم يكتفوا بذلك وحسب وإنما عسكروا على الطريق المؤدية إلى حصن أليط وراحوا
يعترضون مرور الامدادات إلى المعسكر ويسلبون التجار كل ما يحملونه. وتسببوا
بذلك بمجاعة بين المحاصرين، وعندما بلغ الأمر ألفونسو توجه برتل من قواته إلى
أليط، مستغراً حلفاءه في كل ناحية طلباً للعون.

يقول كوندّه إن يوسف لم يغامر بانتظار وصول ألفونسو بسبب الانقسامات في
صفوفه وانسحب باتجاه لورقة يرافق المُعتمد وقواته أوتبعه. ويقول المراكشي كذلك
إن يوسف ذهب إلى لورقة، ومع أنه لا يذكر سوى تفقده للعسكر هناك، فإنه لا يقدم أية

(1) Conde, ii, 158 – 9.

هناك أدلة إغترابية على أن بعض أعداء المعتمد كانوا في هذا الوقت يتعاملون مع السيد (السيد
القنييطور أو القمييطور) El Cid ومن بينهم رجل يدعى ابن لبون هو ابن أو أخو رجل يدعى ابن
لبون يقول كوندّه إن المعتمد عيّنه حاكماً على لورقة وتوفي في عام 1087 وخلفه أبو الحسن بن
اليسع. (Dozy, *Recherches*, ii. chap. iii.; Abbadites, i. 100; Conde, ii. 60, 151) لكن
تاريخ تلك الفترة متشابك وغامض للغاية.

(2) P. 112; cf. Dozy, *G. der M.*, Chron. tables.

معلومات حول ما حصل في حصن أليط Aledo، وجُل ما يذكره عن تلك الفترة يؤكد في خطوطه العريضة ما يرويه لنا كوندّه. بلغ ألفونسو أليط وحرّر المدافعين التّصاري، لكنه لم يسعَ إلى السيطرة على الموقع الذي كان في قلب بلاد المسلمين⁽¹⁾.

قبل أن نواصل سرد قصّة بن يوسف والمُعتمِد التي انتهت بنفيه وسجنه، علينا أن نلقي بعض الضّوء على حقبة مهمّة من حكم المعتمد والتي لا يوجد عنها سوى القليل جداً من المعلومات، ولكنها كانت، إن صحّ حدسنا، ذات تأثير كبير على مصيره. إنها فترة تحالفه مع ألفونسو. لم يذكر المؤرّخون العرب شيئاً عن ذلك، والزّوايات المنقولة في الحواريّات العامة *Crónica general* مرتبكة إلى حدّ كبير في سردها لتسلسل الأحداث، ومن الصّعب التوفيق بينها وبين الأحداث التي نقلها المؤرّخون العرب والمتصلة بحياة المُعتمِد. ولكن، في خضمّ الالتباس والارتباك، تبرز واقعة أو اثنتان، ينبغي أخذهما في الاعتبار.

في الحواريّات الخاصة بألفونسو السادس، نعرّ على المقاطع التّالية:

«كانت تربط الملك ألفونسو صداقة عميقة بابن عبّاد ملك إشبيلية الذي كان حماه وجَدّ الأمير دون سانجو ابن الملك ألفونسو، وقد اتفقا معاً على أن يصبحا ملكين على كل مسلمي إسبانيا.. الذين كانوا يكتّون حقداً أعمى على المُعتمِد ملك إشبيلية بقولهم إنه وإن كان مسلماً في العلن، فإنّه كان في السّر نصرانياً وعدواً للتّبي محمّد»⁽²⁾.

(1) Conde, ii, 159 – 60.

ينقل المزاكشي أحداث أليط وكأنها حصلت في أول زيارة ليوسف إلى الأندلس قبل معركة الزّلاقة؛ لكنّ هذا خاطيء بلا شك، لذلك نقلناها إلى مجيئه في المرة الثّانية في عام 1088. يقول الشّنيور كوديرا إنّ يوسف جاء إلى إسبانيا خمس مرات بين عامي 1086 و1102 (*Almoravides*, 226) ولكن بناء على روايته هناك اختلافات كبيرة في الآراء بشأن ما حصل خلال المرة الثّالثة لمجيئه، حيث يقول بعض المؤلّفين إنه في تلك المناسبة استولى على غرناطة ومالقة، ويقول آخرون إنّ ذلك حصل في زيارته السّابقة، ويقول آخرون إنه كان في المرة الثّالثة مصتماً على أن يصبح حاكم الأندلس. لا حاجة لنا للوقوف ومناقشة مختلف الزّوايات، فهللنا الوحيد من لفت الانتباه إليها هو تسجيل الاختلافات الكبيرة في مختلف الزّوايات التي ينقلها الكتاب المختطفون عن الاحداث عينها.

(2) هناك أدلة على أنّ العلاقات بين بني عبّاد والمستعربين الذين يعيشون في الأراضي التابعة لهم كانت تحكمها المودة على الدّوام.

ويتبع هذا المقطع سرد لكيف أوصى المُعتمد ألفونسو بالتحالف مع المرابطين، ووصف لتفاصيل مجيئهم. وتقول الرواية إنّ ملك المغرب كان مسروراً بصداقة ألفونسو وإنه أرسل إليه أحد قادة جيشه الذي ثار وأعلن استقلاله. وعندها ثار مسلمو إسبانيا رافضين دفع الجزية والخضوع لألفونسو⁽¹⁾. سعى ملك إشبيلية لإعادتهم إلى رشدهم، وعندها تشاجروا معه وقتلوه باعتباره نصرانياً في السر⁽²⁾.

يستحيل التوفيق ما بين الرواية الإسبانية والروايات العربية، على قدر ما نعرفه حتى الآن منها، وبالطبع فإنّ القول بأنّ الأمراء قتلوا المُعتمد ليس صحيحاً على الإطلاق. ولكن هناك قدراً من الصّحة في المزاعم التي تحدّثت عن وجود علاقات من نوع ما بين المُعتمد وألفونسو على شكل «عهد سرّي» تم التفاوض عليها بينهما بواسطة ابن عمّار، يرويها كوندّه (ii. 62)، وإن كان يبدو أنّ ما نقله يعود إلى سنة سابقة. كما تؤيّد هذه الرواية ما نقله كتاب آخرون بشأن الموقف العدائي الذي اتخذه أمراء الأندلس منه.

لكن الواقعة التي لا تُدحض وبالغة الأهمية المذكورة في الحوليات هي أن ألفونسو تزوج ابنة المُعتمد زائدة. وهذا ما لم يذكره أيّ من المؤرّخين العرب الذين أطلعنا على كتاباتهم، ما عدا إشارة مبهمّة وردت لدى كوندّه⁽³⁾، وعلينا أن نزوّر الحوليات لكي نحصل على هذه المعلومة.

يناقش ساندوفال، كاتب سجلات ألفونسو السادس، تاريخ الزّواج ويميل إلى اعتماد سنة 1097 لأنه يقال إنّ ولي العهد سانجو المولود من ذلك الزّواج، كان في

(1) يقول المقرّي إنّ كل أمراء الأندلس، بمن فيهم المعتمد نفسه، كانوا يدفعون الجزية إلى ألفونسو (ii, 270; cf. Marrakushi, 113).

(2) *Crónica general*, xi. 316 ff.

(3) في المقطع المتعلّق بالمفاوضات التي كان يجريها ابن عمّار، والمذكورة أعلاه، يقول: "sacrificaba Aben Abed á su ambicion pueblos de Muzlimes, y su propia familia" ومعناه أنّ ابن عمّاد خلال تعامله مع ألفونسو، «ضخّى من أجل طموحه بشعوب المسلمين وحتى بعائلته نفسها»، وهو ما يشير على ما يبدو إلى الزّواج والمهر.

الحادية عشرة من عمره عندما قتل في معركة أقليمش. ونحن نعرف أن هذا خطأ لأن المُعتمد كان قد جُرد من ملكه ونفي في عام 1091. ولكن يستحيل بناءً على المعلومات الواردة في الحوليات الوصول بصورة أكيدة إلى التاريخ الصحيح للزواج. فقد تزوج ألفونسو ست مرات، وينبغي الحصول على تواريخ زيجاته من تواريخ زوجاته العرضية على الهدايا والامتيازات التي منحها لهن. وما يزيد من الارتباك أن زائدة عمت عندما تزوجت منه باسم إيزابيل والتي تقول شاهدة قبرها إنها توفيت في سنة 1107 وكانت ابنة لويس، ملك فرنسا⁽¹⁾. ولكن كاتباً سابقاً اقتبس عنه ماريانا حلّ تلك المشكلة العويصة بقوله إن زائدة لم تكن زوجته على الإطلاق وإنما خليلته؛ غير أن هذا القول يدحضه ليس فقط الاحتمال المستبعد تماماً بأن يكون المُعتمد قبل لابنته مثل هذه المكانة⁽²⁾، والمهر الذي منحها إياه، ولكن كذلك الشاهدة الموضوعة على قبرها والتي تذكر بوضوح أنها كانت زوجة ألفونسو⁽³⁾. وللأسف لم يُذكر على تلك الشاهدة تاريخ وفاتها. ولكن الكاتب يورد وصفاً تفصيلياً دقيقاً للقبر الموجود في الكنيسة الملكية في سان إيسيدورو في ليونة.

وقعت معركة أقليمش في سنة 1108؛ كان سانجو في ذلك الحين، كما ورد في الحوليات الملكية، في الحادية عشرة «على أبعد تقدير». لكن توقيع وليّ العهد مُرفق بمنحة وهبها له والده في سنة 1103 عندما كان بالكاد في السادسة، وفق الحوليات عينها⁽⁴⁾.

(1) *Crónica general*, xi. 314.

وهذا يزيد من الإرباك، لأن لويس السادس لم يعتلّ العرش إلا بعد سنة من تاريخ وفاة ابنته المزعوم.

(2) مراجعة بيانات Kadi المتعلق بما ورد في الشريعة الإسلامية عن النساء المحررات، ص 115.

(3) *H.R. Regina Elisabeth, uxor regis Adefonsi, filia Benabet Regis Sevilleae, quae prius Zayda, fuit vocata.* (*Crónica general*, xi. 296; Mariana, Book IX. Chap. Xx.)

الترجمة العربية لتلك الكتابة هي: «الملكة إليزابيث، زوجة الملك ألفونسو، ابنة بن عباد، ملك إشبيلية، والتي كانت تسمى سابقاً زائدة».

(4) *Crónica general*, xi. 306, 317 – 8.

كانت زوجة ألفونسو الثانية كونستانس ابنة دوق بورغونيا Constance of Burgundy التي تزوجها على ما يبدو في سنة 1077 لأنّ توقيعها كملكة مرفق بوثيقة تعود الى نهاية تلك السنة، وكانت حيّة في أبريل 1087 عندما ورد اسمها إلى جانب اسم زوجها على منحة من الامتيازات الى رجال الدين في أستورقة. لم يرد اسمها بعد ذلك في الحوليات. ويقول ساندوفال الذي قام بجمعها إنها توفيت في سنة 1092 لكنه لا يورد ما يؤيد ذلك؛ في تلك السنة تزوج ألفونسو من بيرتا Bertha، التي قيل إنها فرنسية الأصل⁽¹⁾. توفيت كونستانس على الأرجح في سنة 1087، وتزوج ألفونسو عندها زائدة. وبناءً عليه يكون عمر ابنها سانجو تسعة عشر أو عشرين عاماً عندما حصلت واقعة أفلش، أو أربعة عشر أو خمسة عشر عاماً عندما وقع على منحة والده، وذلك أكثر احتمالاً من الأعمار الواردة في الحوليات؛ وفي حين أنّ هذه التواريخ تتفق مع ما ورد في الحوليات بأنّ المفاوضات لإتمام الزواج بدأت «بعد الاستيلاء على طليطلة» (p. 294). ولا يورد الكاتب وصفاً لأحداث سنة 1097، التاريخ الذي يحدّده لحصول الزواج، بوصفه حصل «بعد الاستيلاء على طليطلة» في عام 1085.

وعليه تخبرنا الحوليات، أنه بعد الاستيلاء على طليطلة، شنّ ألفونسو الحرب على المُعتمد وغزا أراضيه. ولكن المُعتمد كان راغباً في مصادقته، و«أكثر منه كذلك ابنته» التي تعلّقت به عاطفياً بناءً على الأخبار المنقولة عن صيته الذائع ومفاته. وبموافقة والدها، أرسلت كلمة إلى ألفونسو تبلغه أنها تودّ رؤيته، وأنها راغبة في الزواج منه بعد وفاة زوجته، وأنها راغبة في أن تمنحه البلدات والحصون التي تملكها. وتم ترتيب لقاء في أوكانية؛ ووقع الإثنان في الحب منذ أن وقعت عينا كل منهما على الآخر، وتم ترتيب الزواج. عُمدت زائدة وجلبت معها مهراً ببلدات وحصون قونكة وويذة وأوكانيا وأفلش ومورة وفاليرا وكونسويقرا والأرك وكركويل، «والعديد من المواقع الأخرى ذات الأهمية الكبيرة بالنسبة للفتوحات التي كان الملك يعتزم القيام بها». ويقع معظم هذه البلدات والحصون حالياً فيما يعرف اليوم بمحافظة قونكة Cuenca إلى الشرق

(1) *Crónica general*, 166, 242, 275.

من محافظة طليطلة وأسهمت في تقوية التواحي التي يسيطر عليها ألفونسو ومدّها باتجاه حدود آراغون وبلنسية⁽¹⁾.

يبدو أنّ طفلاً واحداً ولد من هذا الزواج، لكنه كان ذكراً ولم يكن لدى ألفونسو سوى بنات. ولا شك أنّ الرغبة في إنجاب ولي للعهد كان وراء زيجات ألفونسو المتعدّدة.

ويقول كوندّه (ii. 62) إنّ المُعتمد عقد عهداً سرياً مع ألفونسو قبل وقت قصير من سقوط طليطلة كانت نتيجته المباشرة أن هاجم ألفونسو الأراضي التابعة لتلك المدينة، «بهدف الماضي قُدماً في تحقيق خطط ابن عباد». وفيما بعد، «ولمّا رأى ابن عباد أن ألفونسو لم يكتفِ بفتح مدينة طليطلة وإنما.. كان يستولي على المدن والحصون من دون مقاومة، فكّر في أنّ عليه أن يضع حداً لهذه الفتوحات خشية من اتساع سلطانه. فكتب إليه يطلب منه أن يعزف عن احتلال المدن التابعة لمملكة طليطلة وأن يكتفي بتلك المدينة، وأن ينفذ ما عرضه عندما عقدا التحالف بينهما. أجاب الملك ألفونسو بأنه مستعدّ لمساعدته في الأندلس بإرسال نخبة من قوات الخيالة ولكي يثبت له أنه يقيم وزناً لاتفاقهما أرسل له خمسمئة من الخيالة ليغزو بهم أراضي غرناطة»، وشرح له أن البلدات التي احتلها هي مُلك له ولصديقه وحليفه ملك بلنسية⁽²⁾. يروي كوندّه أن هذه الواقعة حدثت مباشرة قبل روايته (أو إحدى رواياته، وهما اثنتان) المتعلقة باللقاء الذي عقده الأمراء والولاة ونتج عنه دعوة يوسف بن تاشفين.

وتكمن أهمية روايات كوندّه هذه في أنها تؤكد الإشارات المترتبة الواردة في الحوليات بشأن قيام حلف بين ألفونسو والمُعتمد، وإن كان من غير الأكيد متى حصل ذلك.

ويبدو أنّه ليس مستبعداً، مع ذلك، أنّ هذا الحلف قام بعد معركة الزلاقة. ويتفق ذلك مع التاريخ الذي افترضناه لزواج ملك قشتالة من زائدة، ويبدو أنّ هناك سبباً جيداً له يتمثل في الخوف الذي أثارته تلك المعركة في صفوف الطرفين. فالمُعتمد

(1) *Ibid*, xi. 294 – 6.

(2) *Conde*, ii. 71.

الذي كان يخشى على نفسه من تدخل الأفاقة، ربما زادت مخاوفه تلك بسبب النتيجة المباشرة لاستنجاهه بالمرابطين: فالفونسو خرج مهزوماً من معركة الزلاقة في الوقت الحالي، ولم يكن هناك ما يردع يوسف من الاستيلاء على كل إسبانيا المسلمة لو شاء. أما ألفونسو فكان يبحث من جانبه عن أي دعم، وتفيد الحوليات أنه طلب مساعدة دوق بورغونيا وأمراء فرنسا، وقال لهم إن لم يقدموا له العون فقد يتوصل إلى اتفاق مع يوسف ويعطيه ممراً عبر أراضيهِ إلى فرنسا⁽¹⁾.

ولا شك أن العلاقات الوثيقة بين المُعتمد وألفونسو ساهمت في توسيع شقة الخلاف بين يوسف وملك إشبيلية والتي كانت قد بدأت تظهر نتيجةً للمكائد التي دبّرها المعتصم وغيره من أعداء المُعتمد. وعاد يوسف للمرة الثالثة في عام 1090، دون أن ينتظر استدعائه هذه المرة. جاء بمبادرة منه «بغية شنّ الحرب على الكفار». وبهذه المناسبة يقول المقرئ إنه «لم ينضمّ إليه أي من أمراء الأندلس على الرغم من أنه طلب منهم ذلك، الأمر الذي أغضب يوسف كثيراً فقرر معاقبتهم على قلة اكتراثهم وتجريدهم مما يملكونه». استولى يوسف على غرناطة ثم عاد إلى أفريقيا تاركاً أحد قوّاده سير بن أبي بكر ليواصل الحرب. أبلغه سير أنه لا يلقى العون من ملوك الأندلس فكتب إليه يوسف يبلغه بالآتي:

«أصدر إليهم الأمر بمرافقتك إلى بلاد العدو (أراضي التصاري) فإن أطاعوا، كان ذلك الأمر حسناً، وإن رفضوا، حاصر مدنتهم وهاجمهم واحداً بعد الآخر ودمرهم بلا رحمة. عليك أن تبدأ بأولئك الأمراء الذين تقع ممالكهم على الثغور مع العدو، ولكن لا تهاجم المُعتمد حتى تصبح سائر بلاد الأندلس طوعاً لك»⁽²⁾.

(1) *Crónica general*, xi. 241.

تضيف السجلات بأن القوّات باشرت سيرها من فرنسا، وأن يوسف خاف انتظارها وغادر المملكة.

(2) *Makkari*, ii. 294 – 6.

«فكتب إليه أن يأمرهم بالثقل والزحيل إلى أرض العدو، فمن فعل فذاك، ومن أبي فحاصره وقاتله، ولا تنفس عليه، ولتبدأ بمن وإلى الثغور، ولا تعرّض للمُعتمد بن عباد، إلا بعد استيلائك على البلاد».

لا يقدّم الكاتب سبباً للتغير الذي طرأ على موقف يوسف بن تاشفين من المُعتمِد على الله الذي كانت تربطه به علاقة مودة إلى قبل عامين، ولكن لو أنه كان على علم بأن المُعتمِد قد عقد عهداً مع ألفونسو، فقد كان ذلك بلا شك سبباً كافياً لإزاحته عن ملكه. ولكن من الممكن كذلك أن يكون سير قد أفرط أو استبق أو امره، لأننا نجد الرواية التالية لدى القرطبي كما ترجمها عنه غايانغوس:

«أرسل الأمير (يوسف) عندها سير إلى إشبيلية وقد أمره بأن يتزعزع المُلك من أيدي المُعتمِد على أن يضمن سلامته إن استطاع، وبأن يقتل كل من يعارضه سواء من أهل المدينة أو العساكر. ويزعم بعض الكتاب أنّ الأمير لم يصدر مثل هذه الأوامر حيث أنه كان قد أقسم للمُعتمِد علانية في إحدى المناسبات بأنه لن يتزعزع ملكه إلا إذا رغب العلماء والقضاة وقادة العسكر وكبار أهل المدينة أن يفعل ذلك»⁽¹⁾.

يبدو أنه لا مجال للشك في أنه عندما أيقن المُعتمِد أن يوسف انقلب عليه وأن الهجوم بات وشيكاً على إشبيلية، استنجد بألفونسو، وأن ألفونسو أرسل إليه العسكر. لكن القائد سير التقى بالقشتاليين وأوقفهم فلم يتمكنوا من التقدّم أكثر من حصن المدور (المودوفار دل ريو) بالقرب من قرطبة. يقول المراكشي إنّ إشبيلية تعرّضت للهجوم من البرّ ومن وادي التهر وشبّت النار في «شوانيتها»⁽²⁾، ولم يعد الثبات فيها

المقرّي، ج 4، ص 370. (م)

(1) In Makkari, ii. app. xli.

(2) P. 120.

يبدو من المرجح أن «الشواني» galleys التي دمرت هي جسر القوارب الذي كان يصل إشبيلية بناحية طريانة والشرف على الضفة المقابلة. لم نعث في أي مكان على أية معلومات بشأن وجود مثل هذا الجسر، ولكننا نعرف من تاريخ حصار فرناندو الثالث لإشبيلية أن معظم المؤن كانت تجلب من الضفة الأخرى للنهر وأنه لمن المستبعد أن يستخدم ملوك بني عباد الذين اسسوا حضارة متقدمة العبّارات النهرية لتأمين نقل المؤن الضرورية بهذه الطريقة. كان هناك قصر واحد على الأقل من قصور بني عباد على الضفة اليمنى للنهر، وتفيد السجلات المكتوبة أنه في إحدى المناسبات (في سنة 1063) عندما كان المعتضد مقيماً في هذا القصر، ثار أحد أبنائه واستولى على بعض النقّاش من قصر أبيه، وقام «بإغراق المراكب المستخدمة لعبور

ممكناً. ومع ذلك «التوت الحال أياماً يسيرة إلى أن ورد الأمير سير بن أبي بكر بن تاشفين وهو ابن اخي أمير المسلمين بعساكر متظاهرة وحشود من الرعية وافرة»⁽¹⁾، فاشتد الحصار على المدينة. لا شك أن حالة الغموض المؤقتة تلك كانت ناجمة عن التساؤل عما إذا كانت قوات ألفونسو مستمكن من فك الحصار عن المدينة. يتحدث كوندّه عن كرم ألفونسو «المثير للاستغراب» في هبته لنجدة المعتد، ولكن تحالفه مع ابن عباد وعلاقة المصاهرة بينهما يشكّلان سبباً كافياً لذلك، هذا عدا عن مصلحته الشخصية التي تدفعه لاغتنام أية وسيلة ممكنة لمواجهة تقدّم المرابطين السريع ومقاتلتهم⁽²⁾.



النهر والتي كانت مصطفة في النهر أمام القصر «*quae ante palatium in flumine dispositae*» *erant* وهرب. (5 - 291, i. *Abbadites*) يخبرنا ثونيغا أنه كانت هناك سلسلة كبيرة من الجذوع الخشبية الموصولة بحلقات حديدية ممتدة من برج مراقبة تورّه دل أورو (برج الذهب) إلى جدار في الجهة الأخرى، ولا تزال أساساتها قائمة إلى هذا اليوم. (22, i.). قد تكون سلسلة الألواح الخشبية هذه هي ما تبقى من جسر القوارب الذي بناه المعتمد ويتفق موقعها مع موقع «المراكب» التي أغرقها الأمير الثائر، حيث كان برج الذهب برجاً للمراقبة خارج القصر.

(1) المراكشي، ص 65. (م)

(2) Conde, ii. 168; Makkari, ii. 297; Al - Marrakushi, 120.

الفصل السادس عشر

بنو هود وابن مردنيش

في سنة 1106، كان يوسف بن تاشفين يحتضر وقد بلغ المئة عام، وكانت وصيته الأخيرة لابنه أن يتخذ من إشبيلية مقراً لبلاطه وليس قرطبة، وأن عليه ألا يتعرّض لقبيلة مصمودة والقبائل الأخرى في جنوب المغرب، وأن يعقد صلحاً مع بني هود، سلاطين سرقسطة⁽¹⁾.

ويتفق مع ذلك مع ما يورده كوندّه في الجواهر عن وصية يوسف وهو على فراش الموت، ويضيف أنه أوصى ابنه أن لا يخوض الحرب بغير ضرورة (راجع نهج علي، الصفحة 75). ويضيف أن والده علي بن يوسف كانت نصرانية تدعى كومايكا Comaica أما كاتبه فهو أبو محمّد، أحد أبناء المُعتمد ملك إشبيلية⁽²⁾.

غالباً ما يوصف يوسف بن تاشفين بالمتزمت الذي كان جلّ تفكيره ينصبّ على إعلاء شأن عقيدته وترسيخها، ولكن وصيته لابنه علي فراش الموت قلّما تؤكّد هذه الرؤية عن شخصيته. لقد كان اختيار إشبيلية عاصمة، على ما نظن، عائداً لقيمتها كميناء نهري داخل البلاد وأهميتها لأنها كانت بحكم الأمر الواقع عاصمة الأندلس على مدى قرن تقريباً، ولحقيقة أن سكّانها كانوا من الشيعة، من أبناء المذهب نفسه

(1) Makkari, ii. 302.

(2) Conde, ii. 192 – 3.

يقول كوديرا إنّ أمّه كانت جارية نصرانية. (Almoravides, 230.)

الذي يتبعه المرابطون⁽¹⁾. وسرعان ما وجدت مخاوف يوسف من قبائل مصمودة وسائر القبائل الأخرى في الجنوب تبريراً لها، عندما تمكن هؤلاء البربر الأفارقة الذين كانوا شديدي التزمت مقارنة مع المرابطين، من انتزاع كل ممتلكاتهم في أفريقيا وإسبانيا على السواء.

أما بنو هود، فمن الواضح أنّ وصيّة يوسف لعقد السلم معهم كانت نابعة من معرفته بمدى القوة التي تتمتع بها السلالة اليمينية الوحيدة الباقية في الأندلس والتي كانت على الأرجح قادرة، في حال معاداتها للمرابطين، أن تجمع تحت رايتها كل جموع السكان المتعلقين بانتمائهم القبلي وبالمذهب الشيعي. ورغم أنّ المُعتمد كان قد توفي وانتهى أمره، فإنّ ذكراه ظلّت حيّة في أذهان شعبه. ورغم أنّ بني أبي عامر، وبني العامري وبني طاهر وبني الأفطس وسائر الأشراف اليمينيين هُزموا وجردوا من ممتلكاتهم فقد كان الناس لا يزالون مخلصين لهم، وكل ما كانوا يحتاجونه وجود قائد ليهتّوا في وجه القادمين الجدد الا في حال تولّى هؤلاء المُلك بصورة سلمية من خلال التحالف مع أصحابه الأصليين. كانت سرّ قسطة حالة متميّزة وحافظ بنو هود على علاقات جيدة مع بني تاشفين حتى سنة 1126.

في تلك السنة، كان عبد الملك بن هود مهتّداً بهجوم يشنه عليه المرابطون على أساس عجزه عن الدفاع عن عاصمته سرّ قسطة بعد أن استولى عليها نصارى الشمال في سنة 1118، بعد حصار طويل⁽²⁾.

ويبدو أن السبب الحقيقي وراء إغارة المرابطين على حليفهم السابق هو خشيتهم من أن يؤدّي خضوع ابن هود لألفونسو الأول ملك أراغون إلى الإضرار بقضيّة المسلمين في إسبانيا. ويبدو أنّ علي بن يوسف نسى تحذير والده من عدم إعطاء أية

(1) كلام عجيب من المؤلفين فيه خلط فادح، فالمرابطون لم يكونوا من الشيعة، بل كانوا يستندون إلى قوتهم المتشعبة بروح إسلامية إصلاحية مبنية على المذهب المالكي باعتقاد أشعري سُني، وأطلقوا على دولتهم تسمية معبّرة هي «دولة الزباط والإصلاح». (أحمد)

(2) Makkari, ii. 303.

ذريعة لبني هود للشعور بالتهديد لأن قوتهم تكمن في كونهم على علاقات جيدة مع النصارى. احتفظ ابن هود بعد سقوط عاصمته بالقسم الأكبر من أراضيه من خلال التخلي عن عدد من الحصون الحدودية بفضل التوقيع على عهد صلح مع المحتلين. عندما بلغه ما يدبر له علي بن يوسف، كتب له خطاباً مطوّلاً يذكره فيه بالعهد الذي وقّعه أبوه يوسف مع أبيه المستعين، والذي نصّ على أن يحتفظ الأخير بمملكته، ويلمح إلى أن ما وصل واليه في المغرب بشأن تعامله مع النصارى قد تم تحريفه:

«معاذ الله أن نفصّ ما اتصل بيننا من مودة وأن نجلب على أنفسنا الأذى فندع أعداءنا يشمتون بنا؛ وكما حافظنا حتى الآن في العلن وفي السرّ على الصداقة التي تجمع بين طليعة قومنا، فلا تدع نوايا المستشارين المغرضة أو جهلهم سبباً لقطع ما اتصل بيننا من وثام...»

إنّ الله هو الحكم وهو المنتقم من كل من ابتغى بنا شرّاً وزرع الشقاق والخلاف فيما بيننا؛ وأعود وأقول إنّ الله هو الحكم العدل وإليه الحكم».

وبناء عليه، غيّر علي بن يوسف رأيه وأمر قائده بعدم التعرّض لممتلكات ملك سَرْقُسطة⁽¹⁾.

لا يأتي المقرري على ذكر هذه الحقبة، ولكن عدم قيامه بذلك ليس مستغرباً لأن ما نقله عن بني هود مختصر وقد خصّص له أقلّ حيز ممكن، كما هي في الحقيقة الحال بالنسبة للجزء الذي خصّصه من عمله للحديث عن المرابطين. يبدو وكأن هؤلاء القوم، سواء كانوا من «قطعان المتوحّشين القادمين من صحارى أفريقيا»، أو من النخبة المتعلّمة ذات الأصول اليمانية، ومن المذهب الشيعي على وجه التأكيد، ما كانوا يحظون سوى بقليل من الاهتمام لدى مؤرّخ أهل الأندلس السّنة في القرن السابع عشر. وهو لم يكن بالطّبع ليجد صعوبة في الكشف عن أصولهم أو أية تفاصيل تتعلق بصعود نجمهم أو أفوله سواء في أفريقيا أو إسبانيا.

(1) Conde, ii. 241 – 3.

يفترض المؤرخون أن أثر بني هود زال من التاريخ سنة 1146 بوفاة أحمد بن عبد الملك الذي أخذت منه مدينة سرقسطة. ويقال إنه بعد ثلاث سنوات من وفاة أبيه تخلّى للتصاري عن جميع الحصون التي كانت لا تزال معه على الحدود الشرقية للأندلس، كما أن غايانغوس لم يذهب في شجرة العائلة التي رسمها لسلالة بني هود أبعد من سنة (1) 1146. لكن تلك لم تكن نهاية بني هود لأنهم اعتلوا السلطة مجدداً بعد تسعين سنة من ذلك التاريخ، وفي فترة متقدمة حتى 1255 نجد محمد بن محمد بن هود، ملك مرسية، يشهد على منحة باعتباره من عمال ألفونسو العاشر (2).

وستجاوز انقلاب الموحدين على المرابطين واستحواذهم على ملكهم في أفريقيا كونه لا يمتّ بصلة إلى موضوعنا، وكذلك الثورات المتعددة التي قام بها أمراء أقل أهمية في الأندلس، ونخوض في أحوال اليمانيين لدى هزيمة ألفونسو الأول ووفاته في سنة 1134 والتي أدت بصورة مفاجئة إلى بروز أحد اليمانيين وذئوع شهرته ليصبح خلال وقت قصير حاكماً على جميع الممالك تقريباً في شرق الأندلس والتي كانت ضمن الاتحاد الموالي لهشام الثاني والمُعتمد.

إنه محمد بن سعد الجذامي، المعروف باسم ابن مردنيش.

يسدو من المؤكد أن بعض الدماء النصرانية كانت تسري في عروق ابن مردنيش. كان نصاري الشمال يطلقون عليه اسم الملك لوبه Lope أو لوبو (3) Lobo، وجرت محاولات عدة لإثبات أنه كان هو نفسه مسيحياً، ولكننا لم نعثر على شيء في تاريخه يمكن أن يشرح لماذا قام البابا بعد مئة سنة من وفاته بتسميته «الملك لوبه الممجد» ذكراه (4). يقول دوزي إن اسم مردنيش مشتق من اسم مارتينيث. لكن السنيور كوديرا يقول إنه لا يقبل بهذا التفسير لأسباب تتعلق بالكتابة الإملائية في اللغة العربية. وهو

(1) Conde, ii. 267; Makkari, ii. lxxxvii.

(2) Rodriguez, *Memorias para la Vida de Fernando III.*, p. 397.

(3) ومعنى هذا الاسم بالإسبانية: الذئب. (أحمد)

(4) Codera, *Almoravides*, 115.

يتفق مع دوزي بأن اسم مَرْدَنِيْش ليس اسماً عربياً لكنه يقترح اسم مردونيوس كأصل له بدلاً من مارتينيث. ويقترح السنيور كوديرا إن مَرْدَنِيْش قد يكون من أحفاد البيزنطيين القادمين من قرطاجة، ويورد لتأييد وجهة نظره ما قيل عن أن بناته كان شعرهن أشقر وعيونهن زرق⁽¹⁾. لكن السنيور كوديرا لا يؤكد ما هو متقول عن الصفات الجسمانية لبنات أسرة مَرْدَنِيْش، ولكننا نفترض أنهن ورثنها كذلك من أصلهن القوطي، والذي هو أقرب من الأصول البيزنطية البعيدة. وأياً كانت عليه الحال، فإن المؤرخ ابن الخطيب يقول بوضوح إن ابن مَرْدَنِيْش كان جذامياً، في حين يقول المقرئ إنه نصراني الأصل⁽²⁾. يبدو من الصعب أن يرتكب ابن الخطيب، اليماني هو نفسه، خطأ في تحديد أصل نسب حاكم يمثل هذه الشهرة، الأمر الذي يرجح أن يكون ارتكبه المقرئ الذي كتب بعده بثلاثة قرون ولم يكن على اطلاع على المصادر اليمانية. وعليه سنعتمد على أن ابن مَرْدَنِيْش الذي أصبح ملك كل ممالك الشرق اليمانية، يتنسب إلى قبيلة جُذام مثل جاره ابن هود ملك سَرْقُسطة. أما علاقاته الشخصية مع القوط المسيحيين، فسيفي ذلك سؤالاً مفتوحاً إلى أن نحصل على المزيد من المعلومات عن تلك الفترة والتي لم تكشف بعد للعالم.

كان سعد⁽³⁾، والد ابن مَرْدَنِيْش قائداً اشتهر ببسالته وحنكته، وكان العنصر الرئيسي في هزيمة ألفونسو الأول ملك أراغون ووفاته في عام 1133. عندما ضرب ألفونسو حصاراً حول أفرغة، قاوم سعد، حاكمها في ذلك الوقت، مقاومة شديدة فكسب الوقت إلى حين وصول القائد المرابط ابن غانية⁽⁴⁾ لنجده والاشتباك مع قوات ألفونسو. لقد تدرب ابن سعد، الذي نعرفه باسم ابن سعد بن مَرْدَنِيْش، على استخدام السلاح منذ صغره، فلما بلغ الثامنة عشرة كان قد أصبح قائداً فذاً. صاهر ابن سعد بن

(1) *Ibid.* 113, 310 – 1.

(2) Makkari, ii. 314; Al – Khattib, in *id.* li. 519.

(3) Sad كان يجب أن نكتبها Sa'd، لكننا أغفلنا في الكتاب هذا التمييز في الأسماء العربية. (المؤلفان).

(4) يحيى بن علي بن يوسف المسوفي. (م)

مردنیش أمير مرسية ابن عياض⁽¹⁾ الذي عيّنه حاكماً على بلنسية؛ ولما توفي ابن عياض خلفه ابن مردنیش ليصبح أميراً أو ملكاً على مرسية⁽²⁾.

يقول المراكشي إن ابن عياض فضل القائد الشاب محمد بن سعد بن مردنیش على ابنه عندما طُلب منه أن يعين خليفة من بعده على ملكه. ويوضح المراكشي «فلما حضرته الوفاة اجتمع إليه الجند وأعيان البلاد فقالوا له إلى من تسند أمورنا وبمن تشير علينا؟ وكان له ولد فأشاروا به عليه، فقال: إنه لا يصلح لأنني سمعت أنه يشرب الخمر ويغفل عن الصلاة، فإن كان ولا بدّ فقدموا عليكم هذا - وأشار إلى محمد بن سعد - فإنه ظاهر التجدة كثير الغناء ولعلّ الله أن ينفع به المسلمين!»⁽³⁾.

«فاستمرت ولاية ابن سعد على البلاد إلى أن مات في شهور سنة 568 الموافقة 1172 ميلادية، كما يضيف المراكشي»⁽⁴⁾.

لم يمض وقت طويل حتى أصبح ابن مردنیش حاكماً على جيان وبيتاسة، وبسطة، ووادي آش، وقرمونة، أي كل المدن التي كانت تسعى إلى نيل استقلالها، وكلها أو معظمها، كما تفيد المعلومات المتوفرة، ثارت خلف قادة من أصل يمانى⁽⁵⁾. وخلال وقت قصير صار ابن مردنیش ملكاً على القسم الأكبر من شرق الأندلس وضرب حصاراً على إشبيلية وقرطبة، وكاد ينجح في إخضاعهما إن لم ينجح فعلاً في ذلك⁽⁶⁾.

(1) عبد الرحمن بن عياض. (م)

(2) Al - Khattib in Makkari, ii. 519.

يقول المقرئ (Makkari, ii. 334). إن أحد أبناء أبي عامر حكم مرسية قبل ابن عياض.

(3) المراكشي، ص 98. (م)

(4) Al - Marrakushi, 180 - 1.

نستمد رواية المراكشي لتاريخ تلك الفترة قيمتها وروعها من كونه معاصراً للأحداث، وقد حصل على رواية تعين ابن عياض لخليفته من أشخاص عرفوا ابن عياض شخصياً.

(5) يورد كوديرا في كتابه «المرايطون» *Almoravides* أسماء على ارتباط بهذه الثورات تشير إلى أصل يمني أو من المولدين، وإن كان يبدو أن السنيور كوديرا لا يقدّر أهمية هذه الحقيقة. وتؤكد روايات كوندّه عن هذه الثورات ما يورده السنيور كوديرا في الإجمال.

(6) Makkari, ii. 519 - 20.

ومن خلال ما ذكره ثونيغا عن ملوك يتاسة ومُرسية وغيرهما، خلال روايته لاستيلاء فرناندو الثالث على الأندلس، نعلم أن ابن مَرْدِيش لم يجرّد حكام تلك الدُوليات المختلفة من ألقابهم وأملاكهم، وإنما واصل التهج الذي درج عليه اليمانيون في توحيدهم تحت رايته، وهو ما يفسر تقدّمه الشريع في توسيع سلطاته وممتلكاته.

وكانت إحدى زوجات ابن مَرْدِيش ابنة إبراهيم بن مفرّج، الذي اشتهر باسم ابن هَمْشَك، وكان من أصل نصراني والتحق جدّه لأبيه ببني هود في سَرْقُسطة. فقد ابن مفرّج إحدى أذنيه خلال القتال، وعندما التقاه النصارى في الميدان أطلقوا عليه من باب السخرية اسم هَمْشَك *Ha Meshak* أو صاحب الأذن الواحدة. وهكذا بات إبراهيم معروفاً لدى العرب باسم هَمْشَك، لأنه وكما يقول ابن الخطيب، فإن كلمة *al mushk* (المشك) تعني «بلسان النصارى» الرّجل الذي قُطعت إحدى أذنيه؛ وانتقل الاسم منه إلى ذريته⁽¹⁾.

باغت ابن هَمْشَك خلال فترة تحالفه مع صهره ابن مَرْدِيش غرناطة وانتزعتها من الموحّدين في سنة 1162، بالتّواطؤ مع النصارى واليهود الذين يعيشون داخل المدينة. فقد دخل ابن هَمْشَك سراً من بوابة فتحها له أنصاره واستولى على غرناطة دون صعوبة إلى حين وصول تعزيزات كبيرة من الأفارقة من المغرب. لم يربك ظهور الجيش كثير العدد ابن هَمْشَك الذي اندفع خارج أسوار غرناطة وهزم الموحّدين وذبح منهم أعداداً كبيرة بعد أن علقوا بين الخنادق والأقنية المنتشرة في السهل *vega* الممتد أمام المدينة، ممّا أعاق هروبهم. واستغرق الأمر بضعة أشهر قبل أن يتمكن حكام الأندلس الاسميون من إخراج حليف ابن مَرْدِيش القوي من غرناطة. وأرسل جيش كبير بقيادة أبناء السلطان الموحّد وبعد معركة لا يختلف بشأنها أحد تقريباً، جرت في السهل بين

(1) يفيد ما كتبه ابن الخطيب عن أصول الأعلام في "the Christian language" (لغة النصارى) في فهم التحوير الغريب لكثير من الأسماء القوطية.

ويعطي التنبور كوديرا التفسير الصحيح بلا شك، بما معناه أن ما قاله الإسبان هو: *He mo-* *chico* (أي موتشيكو) ومعناه *He aquí el mocho pequeño* أو «ها هو ذا الموتشو الصّغير». وكلمة *mocho* تعني ما ينقص منه طرفه أو نهايته، مثل بقرة تُزَع قرناها أو شجرة قُلّمت أغصانها.

جحافل الأفاقة وقوات ابن مردنيس وابن هُمُشك، كان القدر إلى جانب الموحدين، وهرب ابن مردنيس إلى مُرسية.

بعد فترة من تلك المعركة، طلق ابن مردنيس زوجته، وفي النهاية، وإن لم يحدث ذلك على الفور، تشاجر ابن هُمُشك معه وانضم إلى الموحدين. وخدم لديهم ضد صهره لبضع سنوات، ولكن في سنة 1175 طلب أن ينسحب إلى أفريقيا مع عائلته وتوفي فيها بعد فترة قصيرة⁽¹⁾.

يكتب كوندِه في هذه الفترة بصورة متكررة عن قوات ابن مردنيس والمرابطين وكأنها تشكل كلاً واحداً؛ والحقيقة أنهما كانتا كذلك على ما يبدو في فترة غزو الموحدين. يمكننا أن نأخذ على سبيل المثال استيلاء ابن هُمُشك على غرناطة، حيث يقول كوندِه: «استولى المرابطون على مدينة غرناطة.. وولى ابن مردنيس نفسه على المدينة بمساعدة قريبه ابن هُمُشك ملك شقورة وحاكم مُرسية، المتحالف مع النصارى»⁽²⁾.

أما بالنسبة لإشبيلية، فلم ننجح في الحصول على أية معلومات محدّدة بشأن ما اشتهر عن استيلاء ابن مردنيس على المدينة، لكن المراكشي يقول إنه بقي مخلصاً للمرابطين (p. 181)، موحياً إلى أنه كان متعاطفاً، كما هو على الدوام، مع الحُكام الشيعة؛ ويورد المقرئ أنّ ابن مردنيس نجح تقريباً في احتلال إشبيلية وقُرطبة اللتين أخذهما على حين غرة، وكذلك غرناطة، وهذا يعني أنّ المرابطين⁽³⁾ والشيعة العرب كانوا يقاتلون جنباً إلى جنب مع ابن مردنيس في المدن الثلاث. ويقول كوديرا وكوندِه إنّ هذه الأحداث دارت بين عامي 1162 و1163، لو أنها، كما نفترض، شكّلت جزءاً من حملة واحدة⁽⁴⁾.

(1) Codera, *Almoravides*, 133 – 44, 147 – 8. Al – Khatib in Makkari, ii. 315 – 6 and 520 – 1.

(2) Conde, ii. 346.

(3) يظنّ المؤلفان أنّ المرابطين كانوا من الشيعة، وهذا بالطبع خطأ جليّ، إذ كانوا على المذهب السني المالكي باعتقاد أشعري. (أحمد)

(4) Conde, ii. 362 – 4; Codera, *Almoravides*, 142 – 4, 316 – 8.

ويورد المقرري وكونده وكوديرا على سبيل المثال المدن التالية بوصفها أهم المراكز التي خسرها الموحدون الظفّافرون في القرن الثاني عشر: بلنسية، مُرسية (لم يعد يشار إلى تدمير بوصفها حكومة منفصلة، وعليه يفترض أنها باتت الآن أخيراً ملحقة بمُرسية)، وسَرْقُسطة، والمَريّة، ودانية، وغرناطة، وجيان، وبيّاسة، وبسطة، ووادي آش، ومارتلة، وقرمونة، والغرب، وشلب، ولبلّة، والرّابطة، وشلطيش، وبالطبع إشبيلية. وهي أسماء معروفة بالنسبة لقراءتنا لأنه لا يوجد من بينها واحدة لم يرد ذكرها خلال الحروب الأهلية سواء في القرن التاسع أو الحادي عشر، أو كليهما، وبوصفها كانت موالية لقضية اليمانيين أو المولّدين في مواجهة الفريق الشّني أو البربر.

ومن بين القادة والأمراء اليمانيين، برز أولئك الذين يتمون إلى قبيلتي جُذام ولُخْم. فهاتان القبيلتين وفقاً لأصول السّلالات الذي يورده المقرري، تفرّعت عن أخوين، ورغم أنّ العلاقة المتينة بينهما تعود إلى التاريخ الغابر، فقد نشبت أبنائهما بعلاقاتهم الوثيقة حتى النهاية كما فعلوا منذ البداية. وعليه، اعترف بنو جُذام بولاية المُعتمد اللُخمي عندما كان حاكماً على القسم الأكبر من إسبانيا المسلمة. وعندما نجح ابن مَرَدْنِش، الجُذامي، في بسط سلطانه على الدّويلات الشّرقية وتأسيس مملكة لها من القوة ما كان لمملكة المُعتمد في الغرب، أظهر اللُخميون في إشبيلية ونواحيها ولاءهم له.

كانت سياسة ابن مَرَدْنِش تقوم في خطوطها العريضة على تلك التي اعتمدها كل رجال الدّولة اليمانيين العظام من قبله. كان هدفه إقامة دولة موحّدة (فدرالية) ضمن حدود البلاد المسلمة وعقد عهود حياد أو التحالف مع التّصارى في الشّمال. وكانت كل ثورة من الثّورات المتعاقبة تجعل الأمر بالنسبة للشّعبة التّواقين للتّسلم أكثر وضوحاً بأنّ تجارتهم ومبادلاتهم التجاريّة وصناعاتهم وزراعتهم ستعرّض للتدمير بلا طائل إن لم يتوصّلوا إلى حلّ وسط مع التّصارى. كان الموحدون لا يزالون قلة وقدرتهم على الوصول إلى إسبانيا فقط عبر البحر ربما جعلت المقاومة المشتركة من جانب الاندلسيين ممكنة. ولكن التّصارى كانت لديهم، إذا جاز التعبير، كل أوروبا خلفهم،

وكما نعرف فإنَّ شَنَّ الحرب على المسلمين الإسبان بات يعتبر بمثابة حرب مقدّسة تكاد ترقى إلى مصاف الحروب الصليبية في الشرق، قبل وقت طويل من استيلاء فرناندو الثالث على إشبيلية.

وهكذا عقد ابن مَرْدِيش عهداً مع كلّ النَّصارى على حدوده، لا بل إنه أرسل هدايا من الحرير المصنوع في مَرُسية والذهب والخيول والجمال إلى هنري الثاني ملك إنكلترا الذي تلقى منه هدايا في المقابل. ووقع كل من كونت برشلونة وملك قشتالة وجمهوريتي بيزا وجنوة معاهدات معه. ونصّ اتفاق وقع مع الجمهوريتين في سنة 1149 على ألا يتدخل أهل جنوة بأمور رعايا ابن مَرْدِيش في طرطوشة والمَرّة، ومقابل ذلك يتعهد ابن مَرْدِيش بدفع عشرة آلاف دينار مرابطي خلال سنتين. لقد كانت تلك العهود بالطبع محض تجارية الطابع، حيث أنّ ابن مَرْدِيش بالإضافة إلى ذلك «قدّم لأهل جنوة المقيمين في بلنسية ودانية فندقاً أو نزلاً للتجارة ومنع غيرهم من الإقامة فيه». ويبدو أنه رغب في غرس فضيلة النظافة التي اشتهر بها المسلمون، والتي لم تكن في ذلك الوقت متشرة بين النَّصارى، لأنه رتب لتجار جنوة زيارة للحمام مرة في الأسبوع مجاناً⁽¹⁾.

وابتداءً من سنة 1148 كان ابن مَرْدِيش يدفع الجزية لسياده ملوك قشتالة وبرشلونة عن أملاكه في مَرُسية وبلنسية وحتى سنة 1168 عندما جدّد ألفونسو الثاني ملك أراغون العهد لمدة سنتين عندما خلف [أباه الأمير] بيرنغر كونت برشلونة. وكانت الجزية مئة ألف مثقال من الذهب، من الذهب الخالص، كما يلاحظ السنيور كوديرا، والتي يمكن رؤية نماذج منها ضمن العديد من مجموعات العملة. ولكنه لا يوضح ما إن دفع ابن مَرْدِيش هذا المبلغ لكل واحد من الملكيين النصرانيين، أم نصف المبلغ لكل منهما. وفي سنة 1154، توجه ابن مَرْدِيش مع ألفونسو الثامن ملك قشتالة لنجدة المَرّة عندما

(1) Codera, *Almoravides*, 115, 123.

لقد ترجم السنيور كوديرا كلمة «فندق» بكلمة «mesón» ومعناها نزل. وفي قاموس بلو Belot ترجمت كلمة «فندق» *fondak* بمعنى «سجل الإيرادات والتفقات». يمكن أن نفترض أنّ ما قدّمه ابن مَرْدِيش لتجار جنوة لم يكن نزلاً يبيتون فيه وإنما مكاناً للتجارة والمبادلات.

حاصرها الموحدون. وخرج ألفونسو ومعه 12 ألف رجل وابن مردنيش ستة آلاف، ولكنهما عجزا عن فك الحصار. وكانت تلك آخر حملة مشتركة لهما، لأن ألفونسو مات بعدها بثلاث سنوات⁽¹⁾.

لن نمضي في سرد السجل الطويل للمعارك والأعمال البطولية التي قام بها ابن مردنيش. ومن الواضح أنه مُني بالكثير من الهزائم، وبعضها كان خطيراً، وما كان يمكن أن يكون الأمر في الحقيقة مختلفاً عن ذلك، نظراً لما كان يحيط به من أعداء. ولكننا نقرأ باستمرار بأن هذه المدينة أو تلك وغيرهما من المدن التابعة له، كانت تتعرض للحصار بلا طائل، بحيث أنه يصعب علينا أن نقبل تقدير السنيور كوديرا بشأن تضاؤل قوته عندما خطفه الموت مبكراً وهو في التاسعة والأربعين، في أو حوالي سنة 1172.

ويختلف المؤرخون بشأن سبب وفاته؛ إذ يقول بعضهم إن معنوياته انهارت عندما أيقن استحالة الاحتفاظ بملكه في وجه الموحدين بعد أن تحالف حموه مع العدو؛ ويقول آخرون إن ابن مردنيش، مثل أبي جبان رعيد، أصيب بالسقم ومات خوفاً عندما سمع بقدوم سلطان موحد جديد إلى إسبانيا. ويقول آخرون كذلك إن أمه قتله لأنها خشيت من تصرفه العنيف وأعطته السم لأنه شجب بقسوة سلوكها إزاء خدمها وأسرتها وكبار أعيان الدولة⁽²⁾. غير أن المراكشي يقول إنه مات ميتة طبيعية، وإن كان مات في شبابه. لقد مُني بهزيمة قاسية في الجلاب، على بعد أربعة أميال من مرسية، وانسحب إلى عاصمته وقاوم فيها الحصار حتى وافته الميته وحالت دون إتمام عمله. وبقيت وفاته طي الكتمان إلى حين وصول أخيه أبي الحجاج الذي أسرع قادماً من دويلة بلنسية التي كان والياً عليها باسم ابن مردنيش⁽³⁾. يقول السنيور كوديرا إن أبا الحجاج ثار على أخيه وأعلن نفسه والياً على بلنسية، لكن ما يرويه المراكشي يتناقض مع ذلك. وينبغي في هذه الأثناء، أن يكون رُفع الحصار عن مرسية، إذ يبدو أن أبا الحجاج لم يواجه صعوبة في الوصول إلى عائلته داخل المدينة.

(1) Codera, *Almoravides*, 120 – 2, 136 – 7.

(2) Makkari, ii. 318; Codera, *Almoravides*, 151 – 2.

(3) Al – Marrakushi, 215 – 6.

كانت مُرسية وبلنسية والمَرّية موالية لابن مَرْدَنِيش طوال الوقت، وامتدّ حكمه إلى الشّمال حتى طرطوشة ولاردة وأفراغة، وكلها مدن قوية غاية في الأهمية كمواقع أمامية على حدود إسبانيا المسلمة. وكانت تتبع لسلطاته في الغرب العديد من المدن فيما كان في وقت من الأوقات ضمن أملاك الأمير أَرطَباس، وامتدّت حدوده في بعض الأحيان إلى قُرْبَة وإشبيلية، إن لم تكن المدينتان مشمولتين بسلطانه. أمّا في الجنوب الغربي، فلم تكن لدى مدينتي الغرب ولبلة وغيرهما من الدّويلات والمدن الأقل أهمية التي يسكنها اليمانيون وأحفاد المولّدين، سوى فرصة قليلة لإعلان تأييده في بسط سلطاته، حيث كانت إشبيلية مركز حكم الموحّدين خلال معظم الفترة التي كانت فيها الأندلس خاضعة لسلطانهم؛ لكن ورود ذكر مقاومة الثّورات بصورة متقطعة في ذلك الجزء من البلاد، يبيّن أنّ قوّة قاهرة هي التي كانت تمنعهم من الانضواء تحت راية ابن مَرْدَنِيش وليس رغبتهم في ذلك.

هناك العديد من الإشارات إلى تحالفاته مع النّصارى. فقد هبّ ملك قشتالة لنجدة لدى حصار المَرّية، وأرسل «حاكم برشلونة» له العون في عام 1151. وفي معركته الأخيرة مع الموحّدين في الجلاب، كان النّصارى يشكلون القسم الأكبر من جيشه⁽¹⁾.

يقول القرطبي إنّ آخر ملوك بني هود، ويدافع من بُغضه للموحّدين، قبل شروط ألفونسو الثّامن ملك قشتالة والتي تضمّنت التّخلّي عن حصن الرّوضة أو روضة اليهود في آراغون وكل المدن الحدودية التابعة لبني هود مقابل الحصول على «أراضٍ أوسع وأفضل في قشتالة»، وكان هدف ألفونسو من المقايضة أن ييسط سلطانه على المدن الحدودية. ويتطابق ذلك مع ما ذكره مؤلف «روض القرطاس» *Kartas* والذي يقول وفقاً للسنينور كوديرا⁽²⁾ إنه في سنة 1149 استولى النّصارى على المَرّية وطرطوشة ولاردة وأفراغة وشترين، وشتمرية (يفترض أنها شتمرية بني رزين، أو البراثين). كما يتفق مع ما قاله كوندّه بأنّ آخر ملوك بني هود تحالف مع ألفونسو وتنازل له عن

(1) Makkari, ii. 313; Marrakushi, 215.

(2) Almoravides, 126 note.

كل حصونه على الحدود الشرقية للأندلس، أو إسبانيا المسلمة.

لكن كل هذه المعلومات لا توضح كيف تمكن ابن مردنيش من بسط سلطانه على معظم إن لم يكن كل هذه المدن خلال فترة حكمه، بموافقة من، أو بوصفه ممثلاً للتصاري الذين تنازل لهم بنو هود عنها. أما المَريّة، فإنّ صحّ أن الموحّدين نجحوا في السيطرة عليها في وقت من الأوقات، فلا بدّ أن ابن مردنيش استعادها بعد فترة وجيزة، إذ أنّ ابن عمّه محمّد بن سعد كان يحكمها باسمه في سنة 1168⁽¹⁾. يقتبس السنيور كوديرا معلومات تشير إلى أن بلنسية كانت كذلك تابعة له في سنة 1169. ويقول ابن خلدون إنّ أبا الحجاج يوسف بن سعد حاصر بلنسية، ولدى استيلائه على المدينة قرأ اسم الخليفة العبّاسي في الخطبة. لم يكن هذا على أيّ حال بجديد، لأنّه يبدو أنّ ابن مردنيش درج على الاعتراف بالسلطة العليا للعبّاسيين على العملة التي سكّها⁽²⁾.

يتفق جميع المؤرّخين على أنّ أبناء محمّد بن سعد بن مردنيش أسلموا الأمر إلى الموحّدين بوصفهم حلفاءهم أو أولياءهم، في أو حوالي سنة 1172، لكنهم اختلفوا في الطريقة التي أعلنوا بها الطاعة لهم. وسنعمد هنا رواية المراكشي باعتباره كان معاصراً لتلك الأحداث.

ويقول المراكشي «قيل إنّ أبا عبد الله محمّد بن سعد حين حضرته الوفاة جمع بنيه (...) فكان فيما أوصاهم به أن قال: يا بنيّ إنّني أرى أمر هؤلاء القوم قد انتشر وأتباعهم قد كثروا ودخلت البلاد في طاعتهم وإنّي أظنّ أنّه لا طاقة لكم بمقاومتهم فسلّموا إليهم الأمر اختياراً منكم تحظوا بذلك عندهم قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم، وقد سمعتم ما فعلوا بالبلاد التي دخلوها عنوة، ففعلوا ما أمرهم به فالله أعلم أيّ الأمرين كان»⁽³⁾.

(1) Codera, *Almoravides*, 129.

نقبل ما نقله السنيور كوديرا من وقائع أكدها المقرّي، ولكننا نشير إلى أنّ ابن مردنيش نفسه كان يدعى محمّد بن سعد بن مردنيش.

(2) *Ibid.*, 128, 130, 395.

(3) P. 216.

تبدو هذه الرواية لنا معقولة، إذ أنه وبغض النظر عن عظمة قوتهم المتزايدة باضطراب، فمن المؤكد أن الموحدين كانوا قادرين قبل وفاة ابن مردنيس على انتزاع ملكه منه. لكن لا بد أن أولاده كانوا لا يزالون فتياناً، وربما خاف ألا يكون لديهم ما يكفي من القوة لخوض المعركة.

ويؤيد كوندّه ما رواه المراكشي ويؤكد عليه بقوله إنه بعد وفاة ابن مردنيس «ملك شرق إسبانيا، وبلنسية ومُرسية والعديد غيرها من المدن، التجأ أبناؤه إلى الملك يوسف أبي يعقوب، ملك أفريقيا، وسلموه كل أراضيهم خشية ألا يكونوا قادرين على الاحتفاظ بها، لأنهم كانوا يواجهون حرباً ضروس شتتها عليهم التصاري من جهة⁽¹⁾، وكان الموحّدون الأفارقة يناكفونهم من الجهة الأخرى. وقد أعطاه القدر (ليوسف أبي يعقوب) بالمعجّان ما لم يكن يأمل أن يحصل عليه بالقوة؛ فأعطى أبناء سعد بن مردنيس ألقاباً ومدناً جديدة وتزوج واحدة من أخوات هؤلاء الأمراء». وبعد صفحتين من ذلك يضيف كوندّه فقرة مأخوذة عن كاتب آخر تقول:

«في سنة 570 (1174 - 1175)، ورغبة منه في إحلال السلام والطمأنينة لدى مسلمي إسبانيا، تزوّج الأمير يوسف أبي يعقوب ابنة سعد بن مردنيس الجميلة، اخت ملك دانية وشاطبة وقسم كبير من شرق إسبانيا؛ ولاستقبالها وتشريفها أمر ببناء «المهر گانه» *miherghana* (المهرجانة)⁽²⁾، وهو منزل يعجز أي لسان عن وصف جماله وعظمته»⁽³⁾.

وهكذا وبعد أن سلّموا، وفقاً لمصدر آخر، «كل ممتلكاتهم» إلى يوسف، كان أخو العروس لا يزال «ملك دانية وشاطبة وقسم كبير من شرق إسبانيا». من الواضح هنا أن بني مردنيس لم يُجرّدوا من ممتلكاتهم على الإطلاق، وإنما أعلنوا ولاءهم ومبايعتهم لصهرهم وفق شروطهم عملاً بوصية أبيهم.

(1) لقد رأينا أن الأمر لم يكن على هذا المنوال لأن ابن مردنيس كان متحالفاً مع كل من قشتالة وأراغون، ولكن الأب المحتضر كان يخشى ألا يتم تجديد العهد لصالح أبنائه.

(2) *miherghana*

(3) Conde, ii. 380 - 2.

يشكل المبنى جزءاً من قصر إشبيلية.

إنّ زواج ابنة ابن مردنیش من أبي يعقوب الذي يورده كونه يؤكده غيره من الكتاب. فالمرّاكشي يذكر اثنتين من بناته تزوّج إحداهما يوسف أبو يعقوب، وتزوّج الأخرى خليفته «أمير المؤمنين أبو يوسف يعقوب بن يوسف»⁽¹⁾. ويخبرنا السنيور كوديرا أنّ الأمير يوسف ولّى يوسف عمّ العروس على بلنسية، «التي كان لسنوات طويلة من قبل والياً عليها نيابة عن أخيه الملك لويو»⁽²⁾.

ونجد أنه في سنة 1224، كان أحد أبناء سلالة بني مردنیش يدافع عن بلنسية في مواجهة الموحّدين إلى أن استسلمت المدينة للتّصاري في سنة 1238. وبما أننا لن نجد ذكراً لبني مردنیش فيما بعد هذا التاريخ، يمكن أن نفترض أنه كان استسلاماً غير مشروط، وإلا لكنا توقّعنا العثور على ابن مردنیش هذا من بين الأمراء التابعين لسان فرناندو مثل جاره ابن هود.

وأصبح الابن الثاني من بين أبناء ابن مردنیش الثمانية أميراً في أسطول الموحّدين وقاد حملة على لشبونة في سنة 1179⁽³⁾.

ومع أنّ المعلومات المتوفرة هنا تبقى ناقصة وغير مترابطة من النّاحية الشّردية، فإننا نعتقد أنها تثبت أنّ اليمانيين والقوط المسيحيين في إسبانيا المسلمة اضطلعوا بدور مهم في القرن الثاني عشر كما فعلوا في القرون السابقة بوصفهم في الواقع الطّرف الذي كان يتمتع في الأندلس بما يكفي من القوة والحكمة السياسية لكي يدركوا أنّ التّحالف مع التّصاري كان الطّريق الآمن الوحيد لكي يتفادوا الإبادة على أيديهم. ولو أنّ ابن مردنیش عاش لفترة أطول لبقيت لا مملكة غرناطة وحدها وإنما كافة دويلات الشّرق إن لم يكن كذلك تلك الواقعة في الجنوب والجنوب الغربي، لمتين وخمسين سنة أخرى؛ فسياسته هي بالتحديد تلك التي أتاحت لابن الأحمر بن نصر أن يبني

(1) P. 216.

المرّاكشي، ص 120.

(2) *Almoravides*, 153.

(3) Makkari, ii. 334 – 5; Ibn Khaldun, in *id.* App. Ixxvi. – vii.; Codera, *Almoravides*, 153.

لنفسه مملكة حصينة بما يكفي لكي تبقى مستقلة بمفردها حتى سنة 1492.

لم يُنشر سوى القليل عن مصائر اليمانيين خلال الربع الأخير من القرن الثاني عشر. ولكن من الواضح أنهم لم يؤيدوا طوعاً أو حراً الحملات التي شنها الموحدون في أي اتجاه. ومن بين الأسماء التي يوردها كونداه على صلة بمعركة حصن الأرك في عام 1195، والتي هزم فيها ألفونسو التاسع ملك قشتالة هزيمة نكراء، لا يوجد اسم واحد يشير إلى كونه من نسب يمانى⁽¹⁾. كما أنه ينسب من جهة أخرى الهزيمة النكراء التي مني بها الموحدون الأفارقة في معركة العقاب Las Navas إلى هروب الأندلسيين الذين كانوا في ذلك الوقت كلهم تقريباً من الشيعة، إذ يبدو أنّ العرب المضّرين، الذين لم يكونوا كثيري العدد في أي وقت من الأوقات، كانوا قد اختفوا في ذلك الوقت من إسبانيا واختلط المرابطون الذين لم يفروا إلى بلادهم الأصلية مع اليمانيين في شبه الجزيرة الإسبانية.

أما العُذر المقدم لهربهم في خضم المعركة فهي المعاملة الوحشية التي تلقاها أحد أصحابهم، وهو أبو الحجاج يوسف بن قادس الذي أرغم بعد أن دافع بشهامة عن حصن قلعة رباح من أجل أوليائه الموحدين، على الاستسلام للتصاري. وكان قد أرسل إلى «أمير المؤمنين» (أبي عبد الله التاهر) الكثير من نداءات التجدة للحصول على تعزيزات، لكن وبدبير من وزير ذاك السلطان⁽²⁾، لم تصل خطاباته إلى مقصدها. وعندما وصل أبو الحجاج المهزوم إلى معسكر الموحدين مع حميه، صدر أمر باعتقال القائدين؛ ثم بعد أن ذاقا أنواع العذاب في سجنهما، أخرجوا وتم طعنهما بالرماح من دون أن يُسمح لهما بأن يتكلما ليدفعا عن نفسيهما تهمة الخيانة في استسلام قلعة رباح.

وكانت النتيجة أن احتجّ أمراء الأندلس علانية، وبعد أن لقياً معاملة غير لائقة مستهجنة من جانب وزير أبي عبد الله، الذي كان على ما يبدو راغباً في تأجيج العصيان،

(1) Conde, ii. 401.

(2) الوزير ابن جامع (م)

قرر القادة الأندلسيون وعساكرهم من النخبة المختارة، أن يحولوا سير خيلهم ويغادروا الميدان مسرعين في خضمّ المعركة التي حمي وطيسها مع التصاري⁽¹⁾.

يبدو أنّ أبا عبد الله هذا كان تعيس الحظ منذ ولادته، فعلى الرغم من تحذيره من أنّ البلاد على شفا الثورة، واصل في تأجيج غضب مسلمي إسبانيا ضده.

«لقد استبدّ الغضب بالملك التاصر وألقى باللائمة في تلك الهزيمة، لا على براعة التصاري وقوتهم، وإنما على انهزام القادة الأندلسيين، وعليه عندما بلغ إشبيلية، انتقم منهم شر انتقام، فقطع رؤوس بعض كبار القادة وجرد آخرين من ألقابهم ومناصبهم. ومن خلال إشباعه الجائر لرغبته في الثأر منهم، أشاع شعوراً كبيراً بالمهانة بين أمراء الأندلس وأعيانها، فكان من الطّبيعي أن يرغبوا في الانتقام. وهكذا، عندما حانت الفرصة، كان هؤلاء الأشراف كثيرو العدد مستعدين أحسن استعداد ليظهروا قوة تأثير سخطهم المبرّر»⁽²⁾.

ويعزو المراكشي هزيمة وقعة العقاب إلى انهزام قوات الموحّدين أنفسهم، وليس إلى انسحاب القادة الأندلسيين من ميدان المعركة. ويقول إنهم منذ عهد أبي يوسف يعقوب كانوا يتسلّمون عطاءاتهم بصورة منتظمة كل أربعة أشهر في حين أنهم كانوا يتأخرون في قبض أجرهم في عهد خليفته أبي عبد الله، وخصوصاً خلال هذه الحملة، وقد حملوا الوزراء مسؤولية ذلك وخرجوا إلى المعركة «وهم كارهون، فبلغني عن جماعة منهم أنهم لم يسلموا سيفاً ولا شرعوا رمحاً ولا أخذوا في شيء من أهبة القتال بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم قاصدين لذلك»⁽³⁾.

ويتفق ما يرويه المراكشي مع ما رواه كونه بشأن عودة الأمير إلى إشبيلية بعد معركة العقاب وبقائه فيها لفترة قصيرة، وإن كان لا يذكر ما حصل بشأن قتل أشرافها⁽⁴⁾.

(1) Conde, ii. 420; cf. Al – Marrakushi, 279; and Makkari, ii. app. lxvii.

(2) Conde, iii. 1.

(3) المراكشي، ص 159. (م)

(4) Al – Marrakushi, 280.

وعليه نجد أن قوات الموحدين كانت تشعر بالسخط مثل أمراء الأندلس وإن اختلفت أسبابها. ويورد المراكشي بعض المعلومات المهمة بشأن قوات الموحدين هذه لما لها من أثر على المقاومة الطويلة التي أبدتها فيما بعد أمام قوات سان فرناندو في إشبيلية وحواليها، عندما تراجعت سلطة الموحدين في سائر الأنحاء الأخرى. وسيتم إيراد تفاصيل ذلك في الفصل التالي.

يبدو أن الموحدين لم يكن من قومهم في إسبانيا غير القوات التي كانت تعسكر في حاميات مختلف المدن، والذين كان جموع الناس ينظرون إليهم طوال فترة احتلالهم للبلاد باعتبارهم أعداء لهم. لقد كانت معتقداتهم الدينية وحدها كفيلة بإثارة هذا الموقف العدائي لهم، فعلى الرغم من أنهم كانوا يتبعون نوعاً خاصاً من «الإصلاح» ويشكلون مدرسة خاصة بهم، فقد كانوا يتبعون مذهب أهل السنة والجماعة، وآتى حكموا كانوا يحذفون اسم الخليفة العباسي من الخطبة⁽¹⁾.

عندما غدر العساكر بحكامهم، باتت النهاية تلوح في الأفق؛ وما كان يمكن لحاكم يمني أن يفوت الفرصة المتاحة لكي يثور على الأفارقة المتوحشين والمستبدين.

وعلى الرغم من أن بني هود كانوا قد أصبحوا تابعين للتصاري في عام 1145 - 1146، ثم باتت أملاكهم تابعة لإدارة بني مردينش فيما بعد، لم تكن تلك السلالة قد زالت، وكتيجة لمعركة العقاب، «عندما أتيحت الفرصة لفارس شريف النسب من سلالة ملوك سرقسطة للانتقام من الموحدين واستعادة حقوق سلالته الغابرة، وبفضل بلاغته وسخائه ومثابرة أتباعه وأنصاره، جمع عدداً كبيراً من الأشراف البواسل الذين بايعوه وعلنوا استعدادهم للتضحية بأنفسهم في سبيله»⁽²⁾.

ويؤكد المقرري رواية كونده مضيفاً قصة طويلة ومضجرة عن تنبو أحد المنجمين بصعود ابن هود⁽³⁾ وتوليّه للسلطة، وهو ما لسننا بحاجة إلى التوقف عنده ومناقشته. الجزء

(1) *Encyc. Of Islam*, art. "Abd Al Mumin," p. 51.

(2) Conde, iii. 4.

(3) هو المتوكل على الله محمد بن يوسف بن هود. (م)

المهم في رواية المقرئ هو قائمة المدن التي بايعت القائد الجذامي على الفور. هذه المدن هي - وسيعرف قراؤنا ما حلّ بعد ذلك - مُرسية ودانية وشاطبة وغرناطة ومالقة والمَرّة، اللواتي تبعنها بعد فترة قصيرة قُرطبة وجيان وغيرها من المدن التي لم يذكرها المقرئ⁽¹⁾.

ثم يرد مقطع غاية في الأهمية لأنه يظهر كيف ثار أهل الأندلس على العقيدة التي فرضها الموحدون على البلاد.

جاء في كتاب المقرئ أنه «عندما رأى ابن هود أنّ أمره استفحل في الأندلس، لم يتردد في أن يتخذ لقب أمير المؤمنين وفي أن يبعث رسولاً إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله صاحب بغداد، يطلب منه مرسوماً بولايته على الأندلس لجهته، وبأن يخطب باسمه من على منابر المساجد. ويقول ابن الخطيب إنّ الرّسل عادوا إلى الأندلس سنة 631 (1233 - 1234) ومعهم ردٌّ من الخليفة الذي أجاب طلبه، وخطابٌ يولّي ابن هود على كل الولايات والبلاد التي يحكمها، ويسوّغه كل ما يفتحه من ممالك. وكان ابن هود حينها في حاضرة غرناطة فأمر بأن تُقرأ خطابات الخليفة على الناس، فكان ذلك في المسجد الكبير. وحضر ابن هود نفسه الاحتفال ووقف وهو يرتدي الخلعة السوداء [رداء العباسيين] ويمسك بيده راية سوداء⁽²⁾. وفي اتصال مع هذه الواقعة، من الجدير بالذكر أنه وقبل سنوات من ذلك فكّر ابن هود بضرورة «تطهير» مساجد الموحدين وطلّى الأسلحة والرايات بالأسود⁽³⁾.

لم يكن للعباسيين نفوذٌ سياسي في الأندلس في تلك الفترة وما كان يمكنهم أن يقدّموا لابن هود مساعدات مادية من أيّ نوع كان. وبناءً عليه، فمن الواضح أنّ الإعلان عن مبايعته للخليفة الشيعي كان فعلاً ديني الطابع فحسب الهدف منه الاحتجاج بصورة علنية على العقيدة التي فرضها الأفارقة بقوة السيف على الأندلس فكانوا يخطبون باسم الإمام المهدي في المساجد، من أول الإمبراطورية إلى آخرها.

(1) ii. 327.

(2) Makkari, ii. 327 - 8.

(3) *Primera Crónica*, p. 721.

واستعادة العباسيين للمكانة التي كانوا يشغلونها لأجيال عدة في الصلاة من على منابر المساجد في المناطق التي حكمها اليمانيون كان بمثابة نداء التغير لقوات أهل العقيدة الشيعية في إسبانيا، وربما كان على الأرجح السبب في تحقيق ابن هود النجاح الفوري في فرض سلطاته على الممالك اليمانية آنفة الذكر.

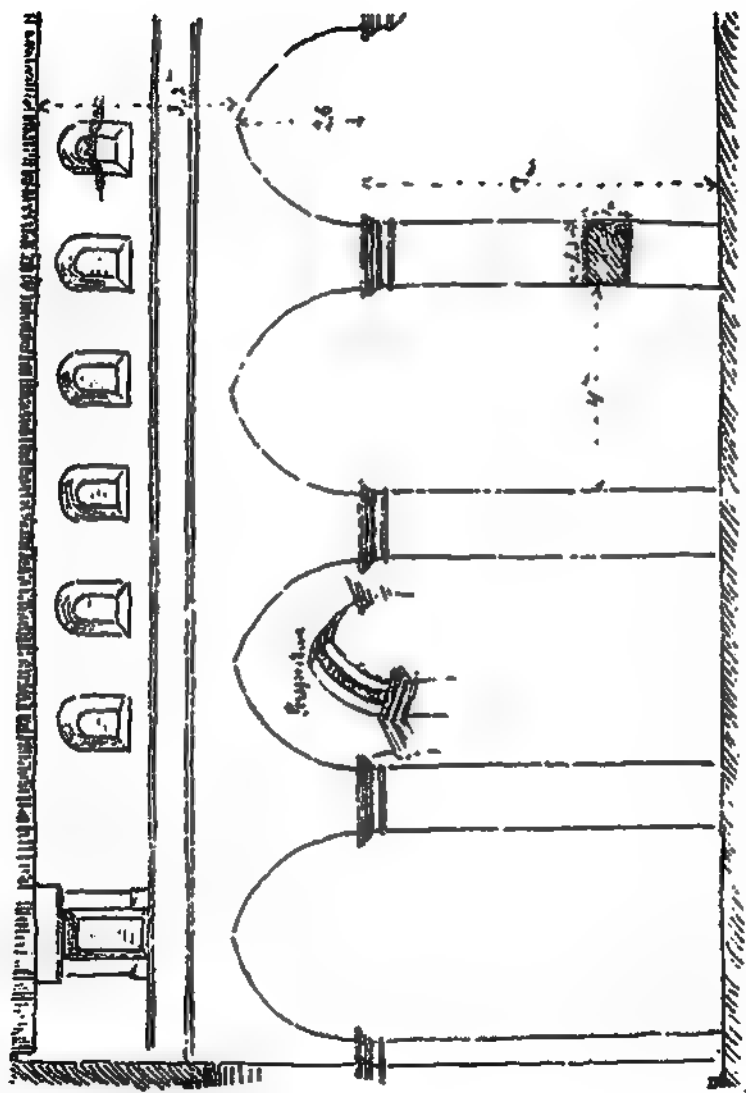
وبدا لفترة من الزمن وكأنه قادر على ترسيخ حكم ملكي يماني قوي، ولو أنه كان يتمتع بمزيد من الحنكة السياسية ويقدر أقل من الميول الحربية، فلربما تمكن من توحيد أتباع عقيدته تحت لوائه. ولكنه كان مقاتلاً، لا أكثر ولا أقل، وليس رجل دولة على شاكلة ابن مردنيش والمُعتمد بن عباد اللذين كانا أقرب إلى النجاح في ظل ظروف أكثر صعوبة بكثير. انفرطت قوة الموخدين بعد هزيمة وقعة العقاب ولم يعد أهل المدن المعزولة يشعرون بالأمان، والتي كان أمراء وولاة الموخدين يحكمونها بالقوة رغماً عن إرادة أهلها. والأرجح أن الملك فرناندو النصراني ملك قشتالة كان على استعداد كافٍ للتحالف مع الملك اليماني بهدف تحقيق مبتغاه في إخراج المغاربة من البلاد، كما فعل فيما بعد مع ابن الأحمر في غرناطة. وحتى في إشبيلية حاضرة الموخدين، كان أهل المدينة يكرهونهم إلى حد أنهم ثاروا عليهم من تلقاء أنفسهم وقدموا على أنفسهم أحد بني هود لتولي الحكم⁽¹⁾.

كان كل شيء في صالحه، لكنه فشل في أن يكون بمستوى التحديات، وفي سنة 1237 قتله أحد قواده في حين أرغم ابنه على القبول بولاية ابن الأحمر ملك غرناطة. وسعى أفراد آخرون من بني هود لبعض الوقت للضمود في مرسية والمرة، ولكن في عام 1242 - 1243 استسلموا إلى فرناندو ملك قشتالة؛ وزار ابنه ألفونسو الأرض وكأنها مُلك له دون أن يتعرض لساكنيها، وكان يوم دخوله إلى مرسية يوماً سادت فيه بهجة عظيمة. ومن خلال تعامله بالحُسنى تمكن من تهدئة وإخضاع العديد من التواحي الأخرى التي لم تكن في البداية راغبة في إعلان خضوعها⁽²⁾.



(1) Conde, ii. 9; Makkari, ii. App. Ixxix., and p. 530 note 26.

(2) Makkari, ii. 337 - 8 and 530; Conde, iii. 24 - 5.



نموذج للعمارة المستندقة في إيشيلية. كنيسة سان رومان. نمط مُستعربي، الفصحى لم يتغير منذ حرب

الاسترداد سنة 1248.

الفصل السابع عشر

سان فرناندو وابن الأحمر

تورد الأدلة السياحية روايات مختلفة حول صعود وأول سلالة بني نصر (النصريون) في غرناطة، وحول علاقة ابن الأحمر، مؤسس هذه الأسرة الحاكمة، بسان فرناندو ملك قشتالة، ولكننا نعتقد أن الكتاب الذين يستند إليهم السياح للحصول على معلوماتهم التاريخية حول قصر الحمراء لا يذكرون أن ابن الأحمر لم يكن «أفريقياً» وإنما عربياً يمينياً يتسبب إلى قبيلتي الأنصار والخزرج⁽¹⁾.

في عام 1232 م، وفيما كانت الأندلس تعاني الأمرين بسبب هجمات المسيحيين من ناحية والصراعات الداخلية التاجمة عن بغض السكان للموحدّين، برز محمّد بن نصر الأنصاري المعروف بالأحمر كالتّجّم الساطع في أفق مظلم، وقُدّر لهذا الرّجل أن يؤسّس مملكة استمرّت مئتين وخمسين عاماً بعدما خضعت سائر أنحاء الأندلس للهيمنة المسيحية.

أغار ابن الأحمر على مدينة جيان واستولى عليها في السنة ذاتها (1232م)، بعد أن ارتأى أداء عمل متميّز بالتيابة عن عمّه يحيى الذي انشأه ليكون مفخرة في حمل السلاح. أصيب عمّه أثناء حصار المدينة إصابة خطيرة وقبل وفاته بعدها بفترة قصيرة متأثراً بجروحه، جعل ابن أخيه وريثاً لكل ممتلكاته ومناصبه.

أخفى ابن الأحمر خبر ممات عمّه عن أنصاره إلى أن ضمن سيطرته باسم عمّه على

(1) Makkari, ii, 341

مدينتي وادي آش وبسطة، فلما استتب له الأمر ووجد قبولا من سكانها، أعلن وفاة يحيى وبويص ملكاً على أرجونة وجيان ووادي آش وبسطة، وكما يورد المقرئ على شريش أيضاً⁽¹⁾.

يعيد ابن الخطيب ولادة ابن الأحمر إلى عام 1195 م في أرجونة من إقليم قرطبة حيث ورث أراضي شاسعة تولى زراعتها بنفسه على ما يعرف من عادات اليمنيين في هذا المجال. كان ابن الأحمر قائداً مقداماً ماهراً، يتميز عن أقرانه من الشباب الأندلسيين بشجاعته وكياسته، ولكم هو ملفت كيف تتكرر الإشارة إلى هذه الصفة الأخيرة لدى الحديث عن أشرف اليمنيين.

بويص ابن الأحمر ملكاً في أرجونة مباشرة بعد سيطرته على جيان، ولكن يختلف المؤرخون حول السبب الذي دفعه إلى القيام بذلك، فيقول بعضهم إن السبب يعود إلى ظلم تعرض له من قبل حاكم تلك المنطقة دفعه إلى الثورة على سلطته.

بعد أن ضمن ابن الأحمر مبايعة سكان جيان له سيطر على غرناطة، ودخل بعدها إلى إشبيلية وبقي فيها شهراً. والأرجح على ما يبدو استناداً إلى الروايات المختلفة التي نقلها مختلف الكتاب أن العامة من سكان إشبيلية دعوه لنصرتهم في سعيهم للتخلص من نير الموخدين.

كما أنه ليس من السهل فهم العلاقة بين ابن الأحمر وابن هود الذي كان سيداً على جزء كبير من الأندلس عندما برز نجم ابن نصر، أو لماذا كان الرجلان على خصومة دائمة برغم كونهما يمينيين، لكن ما هو أكيد أن قرطبة وإشبيلية عادتوا وأعلننا الطاعة لابن هود بعد أن خضعتا لحكم ابن الأحمر. ويذكر ابن الخطيب أن ابن الأحمر استولى على قرطبة وإشبيلية بين عامي 1231 م و1232 م وأنه ألحق بابن هود هزيمة ساحقة في إقليم البيرة قرب غرناطة بعد ذلك بخمس سنوات، وهذا يوصلنا إلى خضوع ابن

(1) نعتقد بأن المقرئ أخطأ هنا، لأن جند الموخدين كانوا يحتلون شريش، وهم مقاتلون أشداء على عداء مع شيعة الأندلس (40 - 339، ii، Makkari، 11 - 12، iii، Conde). (See Conde, iii, 11 - 12; Makkari, ii, 339 - 40).

هود عقب ذلك لألفونسو أمير قشتالة الذي أصبح فيما بعد الملك ألفونسو العاشر⁽¹⁾. يقول ابن خلدون إن ابن الأحمر نصب نفسه سلطاناً على الأندلس عام 1231 م، وخضعت له جيان وشرش (٩) في العام التالي. بيد أن ابن الخطيب يذكر بوضوح أنه لم يُبايع ملكاً على غرناطة قبل عام 1238 م، وهي المدينة التي دخلها كملك في مايو من ذلك العام.

ويقول الكاتب «وصل ابن الأحمر إلى غرناطة في المساء وعسكر خارج أسوارها. ودخل المدينة في الصباح التالي مع بزوغ الفجر وسار إلى القلعة وقت المغيب. يروي أبو محمد البسطي (من بسطة) الذي رأى ابن الأحمر يجول في المدينة أن الأخير كان يرتدي رداءً tunic مقلماً من النوع المسمى «ملحف»⁽²⁾ أكمامه مفتوحة من الجانبين. وبوصوله إلى بوابة «القصب» تعالى صوت المؤذن في الأنحاء داعياً الناس إلى صلاة المغرب، فأوقف ابن الأحمر مسيره ودخل مباشرة إلى المحراب وقرأ السورة الأولى من القرآن ومن ثم ذهب إلى قلعة باديس يتقدمه رجال يحملون المشاعل»⁽³⁾.

أرسل ابن الأحمر إلى الخليفة العباسي معلناً مبايعته له، تماماً كما فعل ابن هود في اليوم الذي نُصّب بدوره سلطاناً على الأندلس وغرناطة. «في بداية حكمه أمر ابن الأحمر بأن يُخطب للمستنصر العباسي خليفة بغداد في مناطق سلطانه»⁽⁴⁾.

بعد أن ثبت موقعه على عرش غرناطة، عمل ابن الأحمر على تحصين حدوده وإصلاح أسوار قلاعه. وشيد الأبنية الجميلة في غرناطة بما في ذلك المستشفيات

(1) Makkari, ii. 341 – 3, and app. lxxix.

(2) إن ترجمة "tunic" تعني «الشاية» وبالإسبانية «سايا» saya أي ثترة. لا يعطي غايانثوس ترجمة لكلمة "milaf" التي أورد دوزي كتابتها على شكل "milhaf" و "milaffah" وقال إنها كانت في إسبانيا ترمز إلى حجاب المرأة وأحياناً رداء الخيل، وهي جزء من غطاء الرأس للمرأة (قاموس الألبسة، 3 – 401. Dict. des vêtements).

(3) ابن الخطيب كما يرد لدى المقرئ، الجزء الثاني، 344. وكان باديس واحداً من أمراء البربر في غرناطة وحكمها بين عامي 1038 و 1073 م.

(4) ابن الخطيب كما يرد لدى المقرئ، الجزء الثاني، 532.

للمرضى والدّور للعجزة وللزوّار، والمعاهد والمدارس والأفران والحمامات والمسالخ والمحال التجارية والأهراءات أو مخازن الحبوب جيدة البنيان لتخزين المؤن.

واضطّر من أجل تنفيذ هذه المشاريع إلى فرض ضرائب مختلفة بصورة مؤقتة وإنما أزيد من تلك المنصوص عليها في الإسلام، لكن عندما رأى الناس حسن تدبير وإدارة مؤسسات حكمه وكيف أنه وظّف كل الأموال التي جمعها منهم لأجل المنفعة العامة، لم يعترضوا على دفع هذه الرسوم الجديدة.

وابتنى نوافير عامة جميلة تتغذى من مياه الأنهار التي تنبع من الجبل وتعبّر المدينة، كما عمل على تطوير وتوسعة أقيّة الرّي الموجودة في السهل. وحرص على توفير كل أساسيات الحياة بكثرة وبأسعار رخيصة. وبناءً عليه، من غير المستغرب أن تصبغ زيادة الضرائب أمراً ضرورياً.

كانت حياته الشخصية نموذجاً للحاكم القدوة. ودأب على حضور مجالس شيوخه وقضااته، وكان يفتح مجلسه لاستقبال الفقراء والأغنياء مرتين أسبوعياً، ويזור المدارس والمستشفيات والمعاهد مستعلماً بنفسه عن الخدمات التي يقدمها الأطباء، وسائلاً المرضى أنفسهم كيف يتم الاعتناء بهم. ولم تكن إدارته لداره الخاصة أقل إثارة للإعجاب، حيث كان لديه عدد قليل من النساء في حريمه وكان قلماً يزورهن، غير أنه كان حريصاً على أن يوفر لهن كل ما يحتجن إليه.

وكانت هؤلاء النساء من بنات أشرف القوم، وكان يحنو عليهن ويحرص على رضاهن وعلى إشاعة الود فيما بينهن موظفاً لذلك لبقته وحسن خصاله.

تقرّب ابن الأحمر من أمراء أفريقيا وبنى علاقات صداقة معهم، كما بعث الرّسل إلى ملك تونس [أبي زكريا] الحفصي وإلى نصراني ذكر كوندّه أنّ اسمه كان «يوغو مارسان»⁽¹⁾ Yugomarsan (فهل كان أوغو دي لوزينيان كونت لا مارتشيه؟

(1) غمض هذا الاسم على الكثير من باحثي الغرب، أولهم خوسيه كوندّه وآخرهم هنا برنهارد

Hugo of Lusignan, Count of La Marche) وكذلك إلى بني مَرين الذين كانوا في صراع مع الموحّدين⁽¹⁾.



نصل الآن إلى ما نعتقد أنها واحدة من أهم الفترات التاريخية وأكثرها غنى بالأحداث في مجمل تاريخ إسبانيا، وهي العلاقات بين ملك غرناطة الحكيم والمحبوب وفرناندو الثالث ملك قشتالة، الذي ستعرفه الأجيال اللاحقة بالاسم الذي استحقّه نظراً للحب الذي كان شعبه يكنه له، وهو «سان فرناندو».

إذا ما وضعنا جانباً المديح المبالغ الذي أغدق به المؤرّخون الكهنوتيون على هذا العاهل، وخففنا قدر المستطاع من الأوصاف الوردية للمؤرّخين الكنسيين، فإنه لا يبقى مع ذلك مجال للشك بأن فرناندو الثالث ملك قشتالة كان بصدق واحداً من أولئك البشر الأقرب إلى الملائكة والذين يظهرون على الأرض في فترات زمنية متباعدة ويتركون العالم أفضل حالاً ممّا كان عليه. لم تطوّبه الكنيسة قديساً إلا بعد أربعمئة عام من مماته، ولكن في الذكرى الأولى لوفاته بعد عام واحد من رحيله، أطلق رعاياه من المسيحيين والمسلمين على حدّ سواء عليه الاسم الذي لا زال يكتنّى به في إسبانيا حتى يومنا هذا وهو «الملك المقدّس»، وباتوا يقدّسونه ويتلون آيات الخشوع عند ضريحه.

يصوّر الكتاب المشهورون خضوع ابن الأحمر لسان فرناندو عموماً باعتباره دليلاً

والن ویشو. والواقع أنّه يغمراسن بن زيان، سلطان إقليم تلمسان في عهد الخليفة الموحدي عبد الواحد الرشيد بن المأمون الذي كتب له بالعهد على ولاية المغرب الأوسط (الجزائر) بعد وفاة أخيه أبي عزة زيدان بن زيان. ويعدّ يغمراسن المؤسس الحقيقي للدولة الزيانية وعاصمتها تلمسان، واسمه كما هو واضح أمازيغي. (أحمد)

(1) يقدّم كوندّه وصفاً مختصراً لحكم بن الأحمر (iii. 26 - 7. Cf. Makkari ii. 340, and gayangos, ib. 352) الرواية المشكوك في صحتها التي نقلها ابن خلدون عن أنّ ابن الأحمر أمر بأن يخطب للحفصي سلطان شرق أفريقيا، وكذلك للخليفة العباسي في الصلوات العامة، قد تكون نتيجة لبعض التسجيلات غير الصحيحة بشأن البعثة.

على أقول سلطة «المسلمين»، لكن في هذه المرحلة، كما هي الحال في كل مرحلة من تاريخ حكم اليمنيين، هناك رواية أخرى.

عمد المؤرخون الثثة كما هو متوقع إلى إدانة تحالف ابن الأحمر مع الملك النصراني، وتعمدوا أن يشيروا إليه بأقل قدر ممكن. وبالفعل، يختصر المقرئ كل فترة حكم وازدهار سلالة بني نصر في صفحتين، مجملًا ذكر ملك غرناطة مع مختلف الثوار الذين فشلوا في مواجهة هيمنة الموحدين، كما لو أن ابن الأحمر لم يكن أعلى منهم شأنًا.

وكذلك فقد حاول المؤرخون المسيحيون تجنب ذكر التحالف بين ابن الأحمر وسان فرناندو قدر المستطاع، لا اعتقادهم بأنه يحط من شأن العاهل المسيحي.

ولكن لحسن الحظ، يتفق المؤرخ المعتمد كمرجع لتاريخ إشبيلية أورتيث دي ثونيغا Ortiz de Zúñiga فيما يسرده عن الأوضاع السياسية في الأندلس خلال حكم سان فرناندو، مع كوندته فيما يورده في مجلده عن «ملوك غرناطة»، في إيلاء أهمية أكبر للصداقة التي نشأت بين ابن الأحمر وفرناندو عما كتبه الكتاب الآخرون من خارج إسبانيا.

ويمكننا من خلال ما كتبه الاثنان معاً أن نستخلص سرداً مقنعاً ومنصفاً للسياسة التي اتبعها الملكان المسيحي واليميني في مساهما المشترك لإحلال السلام والازدهار في المناطق التابعة لهما.

وكما أسلفنا، انصب اهتمام ابن الأحمر على تحقيق الازدهار المادي لشعبه من خلال ترشيده الحكم في بلاده أكثر من توسيع مملكته عن طريق القوة، وحافظ بالتالي على المبادئ التقليدية لقومه. كان يتحلى بما يكفي من البصيرة ليدرك أن مقاومة إسبانيا المسيحية بكل ما لديها من قوة لا يمكن أن تؤدي سوى إلى نتيجة واحدة، وبالتالي سعى إلى تجنب الصدام مع فرناندو قدر المستطاع.

ولكن الرجلين لم يكونا غير متكافئين كما يبدو للوهلة الأولى. صحيح أن

القشتاليين كانوا يوسعون نطاق سيطرتهم بشكل تدريجي عبر إخضاع مناطق جديدة، ولكن يستحيل عملياً على ملك في توسع مستمر أن يحقق أكثر من الاحتلال العسكري للمدن التي يخضعها جنده. ولم يكن بوسع فرناندو أن يوطن المسيحيين في الدول التي يغزوها، لأن القشتاليين لم يكن لديهم أعداد كافية من السكان لذلك، ويشير تباكي المؤرخين المعاصرين على البلديات والقرى الأندلسية المهجورة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بوضوح إلى أنه لم يكن هناك من يحل محل المسلمين في حال طردهم منها.

أدرك سان فرناندو الذي كان يجمع بين صفات رجل الدولة والمنتدين الورع تماماً هذا الوضع، لأنه رأى من جهة أنه السبيل الأمثل ومن جهة ثانية لأن نبه ما كان يسمع له بارتكاب أعمال وحشية بلا طائل. كان مستعداً على الدوام لأن يعقد مع العدو موائيق استسلام يتبعها إبرام حلف بدلا من أن يسيطر على الدويلات والمدن المسلمة بالقوة وحدها.

ويقال إن ابنه ألفونسو العاشر «كان لديه طموح نبيل لأن يجعل الملوك أتباعاً له» ومن المؤكد أن عدداً من الأمراء المسلمين أقسموا الولاء له، بيد أن ما ليس معروفاً بصورة عامة أن هذه السياسة اتبعتها والده من قبله وبصورة منهجية عندما كانت الطرق السائدة أقل انفتاحاً بكثير مقارنة مع ما أصبحت عليه الأمور بعد سقوط إشبيلية الذي أدى إلى تجريد المقاتلين الأفارقة المسلمين من آخر معاقلهم الحصينة.

كان من السهل على ألفونسو الذي ورث الممالك الشاسعة التي افتتحها سان فرناندو أن يفرض شروطه على ما تبقى من أمراء المسلمين، ولكن الأمر كان مختلفاً بالنسبة لأبيه.

عندما تولى فرناندو العرش وهو في الثامنة عشرة عام 1216 م، كانت قشتالة وليون منقسمتين وفي حالة حرب مستمرة، ولم يكن بإمكانه الاعتماد على صداقة ملك أراغون، خاصة وأن معظم الأندلس كان بشكل أو بآخر خاضعاً لحكم ابن هود الذي زعزع إلى حد كبير الحكم الاسمي الذي كان الموحدون لا يزالون يدعون ملكه، وكان

مستعداً للتحالف في أي وقت مع آراغون ضد قشتالة أو ليون أو كليهما معاً.

عندما توفي فرناندو عام 1252 م، أي بعد 36 عاماً على توليه الحكم، كانت قشتالة وليون موحدتين ولم تنقسم بعد ذلك أبداً. كانت ابنة ملك آراغون زوجة ولي عهد فرناندو، وكانت كل الأندلس باستثناء مملكة غرناطة وبعض المدن المتناثرة التي كانت بيد قادة الموحدين، قد خضعت له.

واحتفظ أمراء بيتاسة وشرق الأندلس بممالكهم بوصفهم عمالاً لدى ملك قشتالة، ولم يكن ابن الأحمر ملك غرناطة تابعاً لفرناندو فحسب، بل كان حليفه الوفي وصديقه الحميم.

في عام 1248 م، أصبح التوسع المستمر لملك قشتالة مصدر قلق لابن الأحمر، مع أن الأخير لم يكن قد واجه حتى ذلك التاريخ أية هزيمة على يد فرناندو. وحتى في ذلك الحين، بدا أنه لم يكن راغباً في استخدام القوة في مواجهة التعديّات على حدوده، ولكنه قام في تلك السنة بتعزيز جميع حاميات حصونه الحدودية، مولياً إياها عناية خاصة، لأنه تنبأ بأن اختبار القوة كان أمراً حتمياً.

في أحد الأيام، صادرت قافلة من غرناطة تضم 1500 دابة نقل محملة بالأسلحة والطعام يرافقها 500 من الخيالة باتجاه جيان التي كانت من ضمن المدن التي شملتها تعزيزات ابن الأحمر.

عرف المسيحيون بأمر القافلة فكمنوا على الطريق الذي كان عليها أن تسلكه بعدد كبير من العسكر. واكتشف بعض المقاتلين الكمين الذي نُصب لهم، وبعد أن أخبروا قادتهم بالأمر تمكنوا من الانسحاب بنجاح عائدين إلى حاضرتهم. إلا أن صوابية هذا القرار بقيت مثار جدل بين أعضاء القافلة لفترة، لأن بعض التواقين للمغامرة اعتبروا أن واجبهم يقتضي مواصلة الطريق مهما كان الثمن، وأنه لمن العار ألا يخاطروا بخوض معركة من أجل الملك.

غير أن ابن الأحمر بارك القرار المتعقل بالعودة إلى غرناطة، والذي تغلب في

النهاية وأثنى في الوقت نفسه على بسالة الشبان الذين كانوا على استعداد للقتال من أجل الوصول إلى وجهتهم.

لم تعد القرارات المتأينة ذات فائدة بعدها، لأن ما كان يخشاه ابن الأحمر وقع، حيث فرض المسيحيون حصاراً على جيان بعد خيبة الأمل التي تعرّضوا لها لعدم تمكّنتهم من الاستيلاء على القافلة. لكنهم أدركوا صعوبة مهمتهم لأن واليها كان مقاتلاً مقداماً، وبدا أن الحصار سيطول.

ولكن القوات القشتالية كثيرة العدد اجتاحت الإقليم ودمّرت المزارع وكروم العنب ويساتين الزيتون، وسرقت قطعان الماشية ونهبت القرى، وقتلت وأسرت الرجال والنساء والأطفال.

بعد أن احتلّ المسيحيون قلعة بني سعيد⁽¹⁾ ودمروا وأحرقوا بلدة يورا (إيورا) Illora، أدرك ابن الأحمر أن الوقت قد حان للمعركة مع أنه لم يكن راغباً بها، لأنّ جيشه كان يتألف في الأساس من متطوّعين تم تجنيدهم على عجل ويتمون إلى طبقات المزارعين والصّناع والحرفيين التي كانت تمثّل أغلبية السّكان في المناطق التي سيطر عليها اليمينيون حديثاً، وجُلّهم لم يكن معتاداً على هول الحروب واستخدام السّلاح⁽²⁾.

وقعت معركة حامية الوطيس في حصن مرية بلش على بعد اثني عشر ميلاً عن غرناطة، وهي النّقطة التي وصل إليها سان فرناندو، واضطرّ ابن الأحمر إلى الانسحاب من المعركة بعد أن ارتبك رجاله الذين كانوا يفتقدون إلى النّظام والتّدريب وهربوا من الميدان، وهو ما أحدث حالة من الفوضى وأثر على القلّة من المقاتلين الأكفاء. وخسر الجيش العديد من الرّجال أثناء انسحابه⁽³⁾.

(1) تعرف اليوم بالقلعة الملكية.

(2) هذه الفقرة تدعم قولنا بأن السياسة الأساسية التي اعتمدها ابن الأحمر قامت على تطوير مملكته بالطّرق السلمية عوضاً عن شنّ الهجمات أو مقاومة العدوان.

(3) Conde, iii. 28 - 9.

وتبع هذا الحظ العائر هطول أمطار غزيرة وعواصف هوجاء. وحدهم من يعيشون في الأندلس يمكنهم أن يقدروا تأثير الطقس العاصف حتى على أبسط أمور الحياة في ذلك الجزء من إسبانيا. كانت تمضي شهور عدة كل عام دون نقطة مطر واحدة، لدرجة أن قسماً كبيراً من الناس لا يملكون ملابس تقيهم المطر الخفيف. وفي غضون ساعات امتلأت الطرقات بالسيول الموحلة التي تصل حتى الرّكبة، وتحولت الأبنية الجافة إلى تيارات جارفة. هذا ما كانت عليه الحال في السهول المسطحة المحيطة بإشبيلية، ومثل ذلك وأكثر في منطقة غرناطة الجبلية. ولا تزال ماثلة في ذاكرة الأندلسيين العاصفة المفاجئة التي ضربت في العاشر من أكتوبر 1906 م وأدت إلى فيضان نهر وادي المقص الذي غمرت مياهه في غضون ساعات أجزاء كبيرة من مالقة حتى ارتفاع 12 إلى 13 قدماً. من هنا، يمكننا أن نتخيل الأثر الذي تركه الطقس السيئ الذي استمرّ مدة على الحملة العسكرية في سهول غرناطة في سنة 1243 مع جيش من المزارعين الأندلسيين غير المعتادين على الحرب، الذين وجدوا أنفسهم فجأة يعيشون حياة العسكر التّعبة في بلد تغمره السيول.

ولم يكن من الضروري إطلاقاً أوصاف الضّعف والدّعة على المسلمين، كما يفعل الكتاب المعاصرون في شرحهم للخاتمة المهيئة التي آلت إليها المعركة.

إنّ الانطباع بأنّ كلّ أمة غزت جنوب إسبانيا فقدت عزيمتها بسبب الطقس السيئ ورفاهية الحياة في الأندلس، يعود منشؤه على الأرجح إلى إشارة الكتاب المسلمين والمسيحيين بشكل مستمرّ إلى تأجيل أو إلغاء الحملات العسكرية بسبب رداءة الطقس. لماذا عرف المشرقيون أو أهل شمال أفريقيا الذين ولد أسلافهم في ظروف مناخية تؤدّي في الحد الأدنى إلى الخمول كما هي الحال في جنوب إسبانيا، تغييراً جذرياً بعد جيل أو جيلين لمجرد أنهم عبروا المتوسط؟ إنّ الشعوب التي تسكن القسم الشمالي من الكرة الأرضية المعتادة والمهيئة لمواجهة الأمطار والبرد والرياح، ليس لديها تصوّر عما يعنيه ذلك بالنسبة لبلد شبه استوائي حيث يندر نسبياً أن تجتمع هذه الظروف.

لا شك أنّ الظروف المناخية التي نشهدها اليوم كانت سائدة على نطاق أوسع في العصور الوسطى؛ ويغضّ النظر عن الافتراض غير المباشر، كما ورد آنفاً، بأنّ

الأندلسيين كانوا سريعى التأثير بالمناخ السىء، لا يوجد دليل ملموس على أنهم كانوا أقل رجولة فى فترة دون سواها، ولا نجد كذلك ما يؤيد القول بأن الثورات التى حصلت فى المناسبات المذكورة ونقلت السلطة الاسمية للأمة من قوم لآخر، كانت بأى حال من الأحوال نتيجة للضعف الجسدى للطرف المهزوم.

وفى حالة جيش غرناطة بقيادة ابن الأحمر، فإن العكس هو الصحيح لأنهم، وعلى الرغم من حالة الفوضى التى سادت صفوفهم وأرغمتهم على الانسحاب من المواجهة الأولى مع سان فرناندو، فقد كانت هذه السلالة اليمنية قوية بما يكفى لكى تحافظ على استقلاليتها لعشرة أو اثنى عشر جيلاً قادماً.

يبدو أن العاصفة التى ضربت عام 1244 م وأدت الى ضعفة مقاومة جيش غرناطة ذى الملابس الهشة، لم تلحق ضرراً بجيش قشتالة المدجج بالدرع والذى واصل حصار جيان بعزم لا ينقطع، ولم تعرف حامية المدينة المحاصرة الراحة ليل نهار.

ومع طول مدة الحصار، كان ابن الأحمر يتألم لمعاناة أفراد شعبه المحاصر والذين كان أغلبهم من المزارعين والتجار الخائفين من قرع طبول الحرب، فقرّر أن يتنازل عن كبريائه كجندي وملك وأن يذل نفسه أمام المسيحيين من أجل خلاص أولئك الذى أقسم أن يحميهم ويدافع عنهم. وعلينا ان نأخذ بعين الاعتبار، أنه كمسلم ملتزم بتعاليم دينه أن يحمي النساء والأطفال والعجزة وكل العزل من غير المقاتلين، لأنهم أكثر من يعاني من غارات القوات القشتالية. من جهة ثانية، لا بدّ أنه كانت لدى ابن الأحمر قناعة بأن فرناندو يشاركه القناعات نفسها بشأن هذه المسائل، وإلا لما تصرف على هذا النحو. وبالفعل فإن المؤرخ الذى استقى منه كوندّه معلوماته عن اللقاء الأول بين الملكين وإن كان سرده له موجزاً، يشير إلى أن ابن الأحمر كان لديه أساس يستند إليه ليراهن على أنه سيحظى باستقبال لائق لدى فرناندو الذى كان معروفاً عنه أنه لم يكن يتعامل معاملة العدو الدنىء مع الأمراء الخاضعين لسلطته.

يذكر كوندّه أن «ابن الأحمر الذى كان مدركاً قرار وتصميم الملك فردلند الذى أقسم أنه لن يفك الحصار حتى يُخضع المدينة، حمل معه حلاً غريباً، وذهب وكلّه ثقة

إلى معسكر ملك التصاري واستجار بشره طالباً الأمان⁽¹⁾، وعرفه عن نفسه وقال له إنه يضع نفسه مع كل ما يملك تحت تصرفه، وقبل يده دليلاً على الطاعة.

أثبت فرناندو أنه أهل للثقة ولم يرتض أن يتفوق عليه ابن الأحمر في الأمانة والسخاء، فاحتضنه وناداه صديقه، وقال إنه لن يقبل بأن يأخذ منه ما هو له، ورضي أن يقبل به كتابع له فحسب على أن يبقى سيداً على كل أراضيه ومدنه⁽²⁾.

الغريب في الأمر أن هذه الحقبة الدرامية لم تسترِع انتباه الكتاب الإنكليز، لأن المتوقع أن يستضيفها الذوق الشعبي في التاريخ الإسباني. وربما أطلعوا عليها واعتبروها لا تستحق الذكر لأن كوندو هو من نقلها، بيد أن هناك ما يؤكد صحتها في أكثر من مناسبة، ليس فقط فيما رواه ثونيغا عن الحدث حيث يقول إن «سان فرناندو تلقى عوناً من السماء»، بل من خلال العديد من الأحداث التي تلتها خلال حصار إشبيلية والتي ذكرها العديد من المؤرخين الإشبيليين والمسيحيين.

تضمنت بنود المعاهدة التي تم الاتفاق عليها دفع «كمية معينة» من الذهب قيست بالمثقال كل سنة وتوفير «عدد معين» من الخيالة لأداء مهمة يتم تحديدها، وأخيراً نصت المعاهدة على أن يحضر ابن الأحمر مجالس فرناندو عندما يُدعى إليها. ولم يكن الهدف من هذا البند في الميثاق الانتقاص من شأن ابن الأحمر بل على العكس، كانت أعظم مجاملة يمكن تقديمها في تلك الأيام، لأن هذه المجالس كانت تتألف من كبار النبلاء وكبار الأشراف الأغنياء «Ricos Omes»⁽³⁾ ليس هذا فحسب، بل إن دعوة

(1) Se puso bajo y su fe y amparo

(2) Conde, iii. 29 – 30; cf. Zúñiga, i. 139.

يضيف المجلد الأول في السجلات العامة *The primera Crónica General* أنه ترتب على ابن الأحمر دفع جزية سنوية بقيمة 150,000 دينار مرابطي (ص 746).

(3) يشار إلى رتبة النبلاء هذه بصورة مستمرة في وثائق إشبيلية Archives of Seville كما لو أن لقب Rico Ome كان مرادفاً للقب النبالة.

اللقب هو Ricos Hombres ومعناه كبار الرجال الأثرياء وهي أعلى طبقة في النبالة وكان يحق لأحد الأبناء أن يرثه. *A History of Aragon and Catalonia* (م)

فرناندو لابن الأحمر لحضور مداوالات المجلس دليل على أنه اعتبر رأي المسلمين في الحكم مهماً بالنسبة للمملكة التي غدا عدد المسلمين فيها بقدر عدد المسيحيين. لأنه، وكما سنرى لاحقاً، كان ملك قشتالة مدركاً لصعوبة المهمة التي تنتظره قبل أن يتمكن من إخضاع ما تبقى من الأندلس لسيطرته.

ويبدو أن أحد شروط الاستسلام كان تعهد فرناندو بأن يعيد جيان لابن الأحمر عندما يطلب ذلك، وذكر فرناندو وهو على فراش الموت هذا الوعد لابنه ألفونسو مشدداً عليه أن يحفظه⁽¹⁾.

من الغريب كيف أن المؤرخين لم يدركوا أهمية التحالف بين الرجلين القويين حينها كما أغفل الروائيون روعة اللقاء في الخيمة الملكية في جيان. ومن المحتمل أن تكون الوثائق المتعلقة به مدفونة في أرشيف المدينة ولكننا لم نتمكن من العثور على أي منشور حول المسألة حتى الآن.

ما إن أبرم الحلف حتى عُيِّنت حامية مسيحية على جيان وأصبحت المدينة خاضعة لحكم قادة فرناندو كضمانة على صدق نوايا ابن الأحمر.

تم التوقيع على المعاهدة في المعسكر القائم قبالة جيان في أبريل من العام 1246 وفقاً لثونيغا⁽²⁾. وعاد ابن الأحمر إلى غرناطة وقد واطب فرناندو على معاملته بكل تقدير حتى رحيله. اصطحب ابن الأحمر حاكم جيان معه، وكافأه على صموده ودفاعه عن المدينة بتعيينه قائداً لخيالته.

بعد فترة قصيرة من استسلام جيان، أبدى فرناندو رغبة قوية في مواصلة التقدّم فوراً نحو إشبيلية، لكن مستشاريه لم يجمعوا على تأييد اقتراحه. صحيح أن البعض كان من

(1) Pineda, *Memorial para la canonizacion del Rey Fernando III.*, Seville, 1637, p. 118,

بيندا، (نصب تطويب الملك فرناندو الثالث)، نقلا عن مخطوطة *las antigüedades de España* (آثار إسبانيا القديمة). يخبرنا السنيور باليستروس أنه وجد تأكيداً مستقلاً لهذه الرواية.

(2) i. 1, 138; cf. Conde, iii. 30, and Makkari, ii. 344.

رأيه أن يهاجم الجيش معقل الموحدين فوراً، في حين رأى آخرون ضرورة إخضاع كل التواحي المجاورة لها أولاً، وبالأخص المرافق التي كانت تصلها المؤن والذخيرة من أفريقيا لنقلها إلى إشبيلية. واعتبر أصحاب هذا الرأي أنه بمجرد قطع الإمدادات الخارجية عن إشبيلية سترغم المدينة عاجلاً أم آجلاً على الاستسلام، إما من دون مقاومة أو في أسوأ الحالات بعد حصار قصير، لأن عدد السكان الكبير الموجود فيها سيستهلك المؤن المتوافرة بداخلها بسرعة عندما تنقطع الإمدادات الخارجية⁽¹⁾.

ولكم بدا أصحاب الرأي الثاني أكثر حكمة من أولئك الفرسان الذين حاولوا إرضاء الملك عبر اتباع رغبته بالهجوم على المدينة، عندما اضطر جيش المسيحيين للاستحباب أمام بسالة المقاومين وصمود المحاصرين. ولكن وقبل سرد تفاصيل الهجوم على إشبيلية، لا بد من العودة بضع سنوات إلى الوراء لنعرف لماذا قاومت هذه المدينة التي كانت لعصور قلعة منيعة للبيمين، لثمانية عشرة شهراً ملكاً مسيحياً يدعمه حاكم ذو نسب يمني مثل العديد من سكانها.

كانت مدن بلنسية ومرسية وبياسة وبسطة ووادي اش وجيان وغرناطة وسواها من المدن القوية التي يحكمها رجال من أصول يمنية قد اخضعت لسلطة فرناندو الثالث، باستثناء إشبيلية.

ظلت إشبيلية حاضرة وبلاط الموحدين لسنوات طوال لكن قوتهم فيها تزعزعت، كما في كل التواحي الأخرى في الربع الأول من القرن الثالث عشر حيث أزيح عاملوهم وموالوهم واحداً بعد الآخر وأرغموا على الذهاب إلى مكان آخر. فما الذي مكّن إشبيلية من أن تستعصي على جيش المسيحيين عندما هاجمها؟

الجواب على ذلك نجده فيما ذكره المراكشي بصورة عرضية⁽²⁾ بأن الحاكم الأول

(1) Zúñiga, i. 4..

(2) كان (عبد الواحد) المراكشي قادر على التجرد وعدم تبني وجهة نظر أي طرف بما يكفي لينقل لنا صورة غير منحازة عن سلالة الموحدين الذين كتب في عهدهم عام 1224 م، دون إغفال كونه (على ما يبدو) شيعياً يعيش بين السنة. وتعتبر آراؤه الموضوعية عن الأشخاص والاحداث في حقبة ذات أهمية كبيرة للطلاب الذين يعتمدون على الترجمة للاطلاع على الوقائع.

للموحدين أنشأ ميليشيا [جنداً] من الفرسان في ضواحي إشبيلية.

عن أول مرة عبر فيها سلطان الموحدين عبد المؤمن بن علي إلى إسبانيا كتب المراكشي: «وقد كان حين أراد العبور إلى جزيرة الأندلس استنفر أهل المغرب عامة، فكان فيمن استنفره العرب الذين كانوا ببلاد يحيى بن العزيز وهم قبائل من هلال بن عامر خرجوا إلى البلاد حين خلى بنو عبيد بينهم وبين الطريق إلى المغرب فعاثوا في القيروان عيثاً شديداً أوجب خرابها إلى اليوم ودوخوا مملكة بني زيري بن مناد». وكانت هذه القبائل العربية اعتادت على أن تدفع جزية مقدارها «نصف غلة البلاد من ثمرها» وقمحها، ولكن عندما «ملك البلاد أبو محمد عبد المؤمن - رحمه الله - أزال ذلك من أيديهم وصيرهم جنداً له وأقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد» بوصفهم تابعين له.

وعندما أراد أن يعبر بجيشه إلى شبه جزيرة الأندلس في إسبانيا «كتب إليهم رسالة يستنفرهم إلى الغزو بجزيرة الأندلس فاستجاب له منهم جمع ضخم، فلما أراد الانفصال عن الجزيرة» والعودة إلى أفريقيا «رتبهم فيها فجعل بعضهم في نواحي قرطبة وبعضهم في نواحي إشبيلية مما يلي مدينة شريش وأعمالها فهم بها باقون إلى وقتنا هذا - وهو سنة 621 (1224 م) وقد انتشر من نسلهم بتلك المواضع خلق كثير وزاد فيهم أبو يعقوب وأبو يوسف [خليفة عبد المؤمن وابنه من بعده] حتى كثروا هنالك. فبالجزيرة اليوم من العرب من زغبة ورياح وجششم بن بكر وغيرهم نحو من خمسة آلاف فارس سوى الرّجال» في خدمة الولاة الموحدين لإشبيلية وشريش وغيرهما من الحصون المنيعّة التي يمكن أن يصلوها على عجل⁽¹⁾.

ويلقي ابن خلدون الضوء على موقع كل طرف في المدينة في ذلك الوقت.

(1) Al - Marrakushi, 192 - 193. Cf. article "Amir", *Dict. Islam*, p. 329.

نأمل أن نبين في مجلد لاحق العلامة المشيرة للاهتمام التي تركها هؤلاء العرب الأفارقة على الطراز اليميني الفني من خلال الآثار الفنية في شريش وجوارها.
النص المقتبس بالعربية من المراكشي، ص 106 - 107. (م)

كان في حوالي العام 1233 م رجلاً (يمانيان) صاحباً نفوذ من مواطني إشبيلية، أحدهما يدعى أبا مروان الباجي⁽¹⁾، والثاني أبا عمرو بن الجذ، سليل الراوي الشهير أبي بكر بن الجذ. ورث الرجلان اللذان كان لأسلافهما خطوة لدى الخلفاء، الكثير من الأراضي ونفوذاً لا يستهان بهما. وكانا وقورين يحظيان بتقدير عظيم من أهل إشبيلية الذين كانوا غالباً ما يستشيرونهما ويسألون رأيهما في كل أمر طارىء. ولم يقتصر الاحترام والتقدير على العامة من الناس، بل كان الحكام الموحدون يجلبونهم، حيث أن كل الأمراء والسادة من بني عبد المؤمن الذين تعاقبوا على حكم الأندلس عيّنوهم (أسلاف الباجي وابن الجذ اللذين نتحدث عنهما) في مناصب هامة، وحفظوا لهم مكاناً في مجالسهم.

بعد وفاة الخليفة الموحد المستنصر، دبّت الفوضى في البلاد عندما استقلّ أمراء سلالة الموحدين كل في ناحية. ثم رفع ابن مَرْدِيش وابن هود راية الثورة في الإقليم الشرقية (صفحة 275 و 279 طبعة الأصل) في حين برز ابن الأحمر غرباً.

في نوفمبر من العام 1228 م، أحكم ابن هود الذي تغلب على الموحدين المنقسمين فيما بينهم في كل مكان نازلهم فيه، سيطرته على إشبيلية لكن أهل المدينة طردوا أخاه الذي عيّن والياً عليها بعد ثلاث سنوات وانتفضوا عليه. وعقب ذلك قدم أهل إشبيلية وجاراتها قرمونة المنيرة الشريف اليمني الباجي والياً عليهم. وتحالف الباجي بدوره مع ابن الأحمر ملك غرناطة.

زوّج ابن الأحمر إحدى بناته للباجي ووعدته بمدة يد العون له في مواجهة ابن هود إن أعلن ولاءه له، وهو ما وافق الباجي على فعله، ودخل ابن الأحمر إشبيلية بوصفه سيداً عليها عام 1234 م⁽²⁾.

لا يتضح ما حصل في إشبيلية بعد ذلك، فالكتاب على اختلافهم ينقلون روايات متناقضة ومبهمّة وليس من الممكن استخلاص رواية منسجمة منها.

(1) من قبيلة تجيب (Cf. Gayangos in Makkari, i. 508).

(2) Makkari, ii. 340, lxxviii. – lxxix

يقول ابن خلدون على سبيل المثال إنّ ابن الأحمر هاجم الباجي من دون سبب ظاهر وقتله خارج أسوار المدينة. لا بدّ أن مثل هذا التصرف، في حال كان الباجي صهره⁽¹⁾، كان وراءه حكماً دافع قوي، ولكن لم يرد ذكر لأيّ دافع باستثناء الإشارة إلى طموح ابن الأحمر في التوسع.

ووفقاً لهذه الرواية، كلّف ابن الأحمر علي بن أشقيلولة Escaliola للقضاء على الباجي. وابن أشقيلولة يمني من قبيلة تُجيب تماماً مثل ابن الجّد صديق الباجي في حكومة إشبيلية. كما أنّ ابن أشقيلولة هذا كان صهر ابن الأحمر ويستدلّ على ذلك من الكتابة على شاهد قبر ابن أشقيلولة في غرناطة من أنّ أمّه كانت أختاً لأحد أبناء ابن الأحمر. وعليه، وفي حال صحت رواية ابن خلدون، لا شك أنّ هذا الفعل أغضب العائلة كما سائر أقرباء ابن الأحمر اليمينيين.

أغلب الظنّ أنّ ابن خلدون الذي عاش في القرن الرابع عشر، خلط ما بين حدثين في تلك الفترة المضطربة، فنسب إلى ابن الأحمر فعلاً ارتكبه الموحّدون أو ابن هود الذي بذل على ما يبدو جهوداً كبيرة لاستعادة إشبيلية⁽²⁾.

وعلى الرّغم من الاضطرابات التي شابت السّنوات التالية، يبدو أنّ ابن الجّد كان يمسك بزمام الأمور عملياً إن لم يكن اسمياً في إشبيلية بعد موت رفيقه الباجي، حيث أننا نجد أنه عيّن في سنة 1238 محمّد بن السيد أبي عمران، وهو شاب من أسرة الموحّدين الحاكمة، في منصب هام في الحكومة وأبقى على هذا الشاب على عرشه المهترّ حتى عام 1242 م. ويظهر ابن الجّد مجدداً في العام 1245 بوصفه الحاكم المطلق على إشبيلية.

بعد ذلك، ووفقاً لابن خلدون، تصالح ابن الجّد مع سان فرناندو وعقد حلفاً معه، ولكي يسترضي الملك المسيحي، سرح من عسكره أفضل المغاورين⁽³⁾

(1) كما قال ابن خلدون نفسه انه كان (quoted in Makkari, loc. cit).

(2) Makkari, ii. 340, 532.

(3) Makkari, ii. App. Ixxxix. – ixxx.

almogavares. يعرف غايانغوس المغاور Al - mughawar بأنه «جندي يُعَيَّن على الجبهة الحدودية»، ومما لا شك فيه أنهم كانوا الجند أو الميليشيا التي أنشأها عبد المؤمن في ضواحي إشبيلية. لم يعد بإمكان الموحدين إبقاء فرق مكرسة لحماية حدودهم المتبدلة والأخذة بالتراجع، مع أن الجند حصلوا على الأرجح على تسمية «المغاورين» لأنهم كانوا متشربين على الثغور في شريش دي لا فرنتيرة وجوارها⁽¹⁾.

كان المغاورون لا يزالون يشكلون قوة كبيرة عندما أعلن ابن الجند حاكماً على إشبيلية عام 1245. ومن الصعب لنا أن نفهم كيف «سرحهم من صفوف جيشه» إذا كانوا رجالاً يمكنه الاعتماد عليهم، لأننا لا نستطيع أن نتخيل أنه عمد بملء إرادته إلى تجريد دولته الضعيفة من أية عناصر دفاعية. ولذلك نعتبر أنه على الرغم من كونهم من أصول عربية، كانت الميليشيات الأفريقية تعتنق مذهباً يتعارض مع مذهبه، ونتيجة لذلك رفضت أن توضع تحت إمرة حاكم يعني. لا شك أن أسباباً وجيهة دفعت ابن الجند ليعتمد المسار الذي انتهجه ولكن الأمر لم يكن في صالح السلام في المدينة؛ كانت تلك الميليشيا أقوى بكثير من ابن الجند، فثاروا عليه وقتلوه بتحريض من قائدهم السَّقاف - Axataf لدى مدّوني الحوليات المسيحية - وهكذا كان على إشبيلية أن تخوض مجدداً الحرب مع المسيحيين. ولكن المدينة خضعت هذه المرة لأمرة مجلس مؤلف من ستة أفراد أغلبهم من أصول أفريقية، وكان العربي الوحيد بينهم على ما يبدو يحيى ابن خلدون جدّ المؤرّخ الذي نقلت عنه هذه الرواية⁽²⁾، وكان واحد

(1) هناك عدد من البلدات في هذا الإقليم لا تزال تسمى دي لا فرنتيرة de la Frontera أي الحدودية، شريش هي الرئيسية بينها. البلدات الأخرى هي تشيكلانا [الاسم الأقرب لفظاً هي بنشكلة وهو حصن منيع على ضفة البحر، الإدريسي، ص 256] وأركش ومورور. ويبدو أنها كانت جميعها بلدات حدودية ترسم حدود مملكة غرناطة في القرن الثالث عشر وكانت القوات المسيحية تعسكر فيها بموجب الحلف الذي عقده ابن الأحمر مع سان فرناندو. مع ذلك، وقبل سقوط إشبيلية يبدو أن المغاورين أو جند الموحدين هم الذين كانوا يتركزون فيها، وإن صح ذلك يصبح من المفهوم تعبير «دي لا فرنتيرة» أو «عساكر الحدود» الذي كان يستخدم للإشارة إليهم أو إلى الموحدين المدافعين عن الحصون الحدودية.

(2) يعتبره غايانغوس سليل بني خلدون الذين تأمروا على إبراهيم بن حجاج بهدف تشويه صورته

آخر منهم يمثل السلالة الأفريقية الجديدة لبني حفص والتي وضعت حداً لهيمنة الموحدّين في تلك القارّة، وكان بينهم كذلك القائد الموحدّي السّقاف نفسه.

الطرف الوحيد الذي لم يكن ممثلاً في هذا المجلس ذي الخليط المتنوع كان أهل المدينة أنفسهم، وهم اليعنيون الذين يشكلون الأكثرية العظمى من السّكان. ولكن لم يكن بوسعهم أن يفعلوا شيئاً بعد مقتل الأميرين اللذين اختاروهما لتولّي زمام أمرهم ولم يكن على ما يبدو من بديل يحلّ مكانهما.

مع أنّ علاقة القريبى المباشرة للمؤرّخ بأحد أعضاء المجلس من شأنها أن تعطي وزناً كبيراً لروايته لأحداث تلك الفترة، فإنّ تفسيرنا للتناقضات والاختلافات التي تشوبها هو كونه ولد بعد تسعين عاماً من سقوط إشبيلية وأنه على ما يبدو لم يزر إسبانيا قط.

وهناك ملاحظة مثيرة للاهتمام لدى ابن خلدون قد تكون أو لا تكون مستندة إلى وقائع، ولكننا لم نجد بعد ما يعرّزها في الكتابات المسيحية. فهو يقول إنّ سان فرناندو شنّ هجومه ثاراً لمقتل حليفه ابن الجذّ على يد السّقاف واتخذ من ذلك ذريعة ليعلن الحرب على الموحدّين، واحتلّ قرمونة ومرشانة ومن ثم فرض حصاراً على إشبيلية. بعث إليه أهلها يعرضون السّلم، لكنه «استعلى عليهم وأبى» وكانت تلك بداية الحصار الذي استمرّ زهاء عامين.

لنا أن نستدلّ مع ازدياد معرفتنا بتلك الحقبة أنّ هذه الرواية تنطوي على قدر من الحقيقة، غير أنه من الواضح أنّ المؤرّخ اعتمد فقط على الروايات المنقولة شفاهاً في هذا الجزء من عمله، لأنه لا يشير ولا مرّة واحدة إلى أي مرجع سابق. ومن المرجّح أنه ربط الأحداث مستنداً إلى التسرد الذي نقله جدّه لأفراد عائلته. كما أنه من المستحيل أن يكون قد حصل عليها من جدّه مباشرة لأنّ يحيى بن خلدون كان سيكون عمره على الأقلّ مئة عام عندما ولد حفيده عام 1332. ولذلك فالأرجح أنّ العديد من

لدى الأمير عبد الله في نهاية القرن التاسع. راجع الصّفحة 90 طبعة الأصل. (Gayangos in Makkari, i. 311 - 2).

الأخطاء تشوب السرد الزمني، فجميعنا نذكر كم هو صعب إعادة سرد القصة نفسها مرتين باستخدام الكلمات عينها؛ كما أنّ فصول ابن خلدون عن سقوط إشبيلية زاخرة بالأسماء والتواريخ⁽¹⁾.

ويروي المؤرخ نفسه أنّ حاكم إشبيلية الموخدي أرغم البياسي (أمير بيتاسة) و«حليفه ملك التصاري» على الانسحاب بعد مهاجمتهما لتلك المدينة. كان أمير بيتاسة قد أقسم ولاء الطاعة لسان فرناندو قبل العام 1227 م⁽²⁾. كما يذكر المؤرخ أنّ ابن الأحمر دخل إشبيلية كسيد لها في عام 1233 أو 1234 وكان معه كتيبة من التصاري تحت إمرته⁽³⁾ ومن الممكن أن يكون هؤلاء من أحفاد القوط المسيحيين في غرناطة، والذين سمعنا سابقاً عنهم، أو قد يكونون من العسكر الذين أرسلهم فرناندو لمؤازرة حلفائه اليمينيين في إشبيلية ضدّ الموخدين الذين يدعمهم المغاورون أو الميليشيا. وفي حال كانت تربط سان فرناندو علاقات صداقة مع أمراء اليمينيين الذين كانوا يسعون جاهدين لطرد الموخدين من الأندلس قبل عشرة أعوام أو اثني عشر عاماً من حصار إشبيلية الأخير - كما يمكن أن نستنتج ممّا تشير إليه هذه التلميحات المجتزأة - يمكننا أن نفهم لماذا كان ابن الأحمر يضع ثقته في ملك التصاري ليقبل مساعدته عندما دارت الحرب في بلاده ذاتها.

لم يُبدل سوى جهد ضئيل حتى يومنا هذا لإزالة التناقضات والغموض والتوفيق ما بين الروايات المتعلقة بالحملة المسيحية للسيطرة على الأندلس كما نقلها المؤرخون الذين ينتمون إلى القبائل المعارضة لليمنيين، ولذلك فقد أُسيء تماماً فهم الحلف الذي قام ما بين ابن الأحمر وسان فرناندو. وعلى الرغم من معرفتنا المحدودة بتفاصيل الأحداث، فهناك أمرٌ واحد على الأقل نراه واضحاً عبر الضباب المخيم عليها على مدى قرون عدة، وهو أنّ العهود الموقعة بين حكام غرناطة اليمينيين وملوك

(1) عملياً، النص أعلاه بكامله من الجزء المأخوذ عن ابن خلدون والمترجم عن المقرئ (ii. app. D) وهو السجل الزمني الوحيد المفضل لتلك الحقبة الذي استطعنا الحصول عليه.

(2) Op. cit. Makkari, ii. lxxiv / Zúñiga, i. 109, 110.

(3) Makkari, ii. 340 - I, app. lxxix.

قشتالة المسيحيين لم يكن مبنياً فحسب على الاحترام المتبادل بل على المصلحة المشتركة أيضاً، لأنّ الموحّدين الذين أقسم ابن الأحمر على مقاتلتهم عندما استدعاه سان فرناندو لذلك، كانوا يمثلون عدواً مشتركاً لكليهما^(١).



(١) يقول ماريانو غاسبار راميرو Mariano Gaspar Ramiro في كتابه مُرسية المسلمة *Murcia musulmana* (سَرْقِسطة، 1905، ص 272) إنه عندمل غادر المأمون، آخر خلفاء الموحّدين إسبانيا عائداً إلى المغرب عام 1228 م، انتفض مسلمو إسبانيا جميعاً وقاموا بطرد الموحّدين، أو ذبحهم أينما وجدوهم.

الفصل الثامن عشر

اليமானون والموحدون في إشبيلية

في عام 1245، وبعد مرور ثمانية أشهر على اجتماع الملكين في جيان Jaén، كتب سان فرناندو إلى ابن الأحمر ليعلمه برغبته ببدء الحملة على إشبيلية وعبر عن أمله في أن يرافقه ابن الأحمر في هذه الحملة العسكرية ضد «أعدائهما المشتركين».

كان ملك غرناطة، استناداً إلى كوندّه، والفرسان الخمسمئة الذين أخذهم معه راغبين تماماً (todos dispuestos) في الاشتراك في الحملة، وفي وقت مُبكر من خريف عام 1245 اجتمع الحليفان على الطريق الممتدة من قُرطبة إلى قلعة جابر، وهي قلعة عربية عظيمة ترتفع أطلالها فوق نهر وادي الرّحى وتبعد حوالي تسعة أميال عن إشبيلية.

شهدت القلعة الكثير من المعارك خلال الحروب الأهلية في القرن التاسع. وأطلق عليها لقب «مفتاح إشبيلية» وكانت بالتأكيد ذات أهمية إستراتيجية عظيمة في القرون الوسطى. لا يحتاج المرء سوى أن يرى القلعة ليدرك مدى أهميتها. فهي تجثم عالياً فوق الطريق الرومانية الممتدة من قُرطبة إلى إشبيلية بانحدار عمودي من ارتفاع يبلغ حوالي 200 قدم باتجاه النهر من جهتين، ولها بوابتان تؤديان إلى الحصن، إحداهما محمية بخندق مائي عميق، ويمكن الوصول إلى الأخرى عبر ممر ضيق يمتد مسافة ربع ميل أسفل الأسوار، بينما تشرف البوابة بالذات على منعطف مباغت ومنحدر حاد قبلها مباشرة بحيث يستطيع أن يصدّ رجلاً يقفان في الممر المؤدي إلى البرج هجوماً ينطلق من تلك الجهة.

من الصعب تصوّر حصول أية محاولة هجوم من هذه الجهة، لأنه بعد البوابة يمتدّ سور بصورة عمودية تقريباً باتجاه الأسفل إلى النهر وبذلك لا تتوفر إمكانية الفرار لعدو مهزوم. يحمي سور ثانٍ بمنحدر حادّ مماثل الممرّ المؤدي إلى الحصن الخارجي الموجود على الضفة الأخرى من منعطف النهر. وبين الاثنين تقع على ضفة النهر المطحنة الرومانية التي تؤدّي أدراجها وممرّاتها تحت الأرضية إلى أهراءات اكتُشفت تحت الحصن الداخلي، والتي مكّنت المدافعين من السيطرة على إمداد غير محدود من الماء. ويمكن أن تضاف إلى هذه المزايا الأسوار الخارجية القوية الضخمة التي لا تزال بقايا عديدة منها ماثلة، وموقعها المشرف من فوق ربوة يرى منها إلى الغرب سهل إشبيلية مع المدينة التي تظهر في البعيد من خلال فتحة في التلال يقطعها النهر والطرق المؤدية إلى المدن المجاورة، أطريرة وأشونة وقرمونة، على بعد أميال إلى الجنوب والشرق. يمكن لهذه القلعة لو حُصّنت بطريقة ملائمة أن تكتسب حتى في زمننا الحاضر قيمة إستراتيجية، ولا بدّ أنها كانت قلعة يستعصي إخضاعها في القرن الثالث عشر لو أخلص حراسها في الدفاع عنها. ولقد أمر الخليفة الموحد أبو يعقوب، استناداً إلى ابن خلدون، بإصلاح القلعة التي بقيت مهتمة منذ الحروب الأهلية التي اندلعت في القرن التاسع⁽¹⁾.

على مدى ألفي عام أو ما يقرب من ذلك، ظلّت الطريق العريضة الممتدة عبر الممرّ الأسفل من التلال ونجد الكورس الغني - منطقة زراعة الدّرة وتشتهر بإنتاجيتها المتفوقة بحيث لم يتمّ تسميدها بتاتاً منذ الحقبة الإيبيرية - لإرسال الخبز من القلعة إلى إشبيلية بشكل يومي. شيء ما في المكونات الكيميائية للمياه المتدفّقة من المغاور والممرات تحت الأرضية لتملأ قناة جر الماء الرومانية المعروفة باسم قناة قرامونة يضفي نكهة مستساغة على الخبز المصنوع في القلعة. وتستخدم هذه الينابيع التي لا تنضب كذلك لتشغيل العديد من طواحين المياه التي كانت تطحن القمح لصنع الخبز. وهكذا تعيش القلعة من خبزها كما تعيش إشبيلية عليه؛ وعندما توقف إمداد الخبز إلى

(1) In Makkari, ii. app. ix. (نعتقد أن ما ورد هنا خاطئ)

المدينة عام 1245 عجل ذلك بدرجة كبيرة في استسلام إشبيلية.

على الرغم من الأهمية الهائلة للقلعة بالنسبة لحكام إشبيلية وواقع ان المدافعين عنها «كان بإمكانهم أن يقاوموا لمدة طويلة بفضل مهارتهم وطبيعة المكان» فإنهم لم يبذلوا جهداً حاسماً للضمود في وجه الجيش الموحد لسان فرناندو وابن الأحمر. يتفق كوندِه وثونيغا حول هذا الأمر، حتى أن ثونيغا يعتبر عن حيرته إزاء استسلامهم السريع. لكن يبدو الأمر طبيعياً بالنسبة لنا. كان هؤلاء الناس من اليمانيين وكانت تلك فرصة سانحة للإطاحة بقائدهم أو حاكمهم الموحد ليصالح نصراني متحالف مع واحد من أبناء قومهم. فقبلوا بنصيحة ابن الأحمر بعد مقاومة بسيطة أو من دون خوض معارك بالخضوع لسان فرناندو والحصول على كافة مزايا التبعية بدلاً من معاناة بؤس الحصار. واستسلموا فوراً إلى ملك غرناطة الذي أعطى القلعة إلى فرناندو⁽¹⁾.

قسم سان فرناندو جيشه عندئذ إلى فرقتين، وفي حين أنه بقي في القلعة يعزز التحصينات ويزود المكان بالمؤن، أرسل فرقة بقيادة ابن ملك مولينا والرئيس الأعلى لرتبة سانتياغو العسكرية لاستنزاف إقليم الشرف، وأرسل الفرقة الأخرى بقيادة الرئيس الأعلى لرتبة قلعة رباح وملك غرناطة لاحتلال التواحي المحيطة بمدينة شريش. وكان جند الموحدين، أو الميليشيا المشار إليها في الفصل السابق، يتولون كما يبدو حماية الإقليمين كليهما. ومع أن وقف إمدادات الخبز من القلعة شكّل خسارة جسيمة، لم يشكّل ذلك ضغطاً على إشبيلية على الإطلاق طالما بقيت تملك منفذاً حراً إلى السهل العظيم الممتد من حصن الفرج (سان خوان دي حصن الفرج Niebla) إلى لبله (San Juan de Aznalfarache) على نهر الوادي الكبير المؤدي إلى لبله Niebla، وهي

(1) Los moros de Alcala de Guadera, quando lo sopieron que el rey de Granada yua y, salieron et dieronse a el, et el dio luego el castiello a su sennor el rey don Fernando. Primera Crunica General, p. 748; cf. Zúñiga, i. 5, and Rodrigo Caro Antigüedades de Sevilla, fo. 151, v.; who repeat this.

أوردت مختلف المصادر المذكورة هنا هذا النص الذي يفيد بأن الأفارقة غادروا قلعة جابر وأن ملك غرناطة سلمها إلى سان فرناندو. (م)

مدينة مسورة كانت في ذلك الوقت في مثل منعة قلعة جابر بالذات. كان الموحدون لا يزالون يسيطرون على هذا الجزء من البلاد متخذين من لبله قاعدة لهم في جهة، وشريش في الجهة الأخرى. لم تكن توجد (ولا تزال) أية جسور فوق نهر الوادي الكبير أقرب من قرطبة باستثناء جسر المراكب في إشبيلية، كما لا يوجد أي مجرى مائي منخفض أسفل المدينة، لذلك كانت الشرف في ذلك الوقت آمنة كما لو كانت القلعة غير محتلة.

في هذه الأثناء كان الموحدون يحشدون قواتهم في إشبيلية. رفض أهل قرمونة وقسطنطينة اللتين تركتا تحت إمرة ضباط ثانويين إطاعتهم وأرغموا قادتهم على بحث رُسل إلى سان فرناندو عارضين أن يصبحوا أتباعاً له شرط أن يصون مزارعهم ويبقى عليهم ممتلكاتهم. أقنع ابن الأحمر سكان لورة وغليناة Guillena بأن تحذوا حذو سكان قرمونة وقسطنطينة ولكن لم يتم ذلك إلا بعد أن ألحقت هزيمة كبيرة بالمسيحيين في قطنيانة تبعثها على الفور حملة انتقام وحشية.

قطنيانة مدينة جبلية في موقع مشرف فوق سد روماني على نهر الوادي الكبير Guadalquivir على بعد عشرة أميال أو ما يقارب ذلك صعدواً من إشبيلية، وكانت هذه المدينة في ذلك الوقت شديدة الحصانة. حفر النهر لنفسه هنا قناة عميقة وضيقة بين ضفتي طينية عالية من جهة ونبوء صخري ترتفع فوقه قطنيانة من الجهة الأخرى. لكن يوجد على بعد مسافة قصيرة أسفل السد (لا تزال آثاره ظاهرة إلى اليوم) منعطف عظيم في النهر حيث تفيض المياه خلال فصل الشتاء مشكّلة سبخات ومستنقعات على امتداد عدّة فدادين تتخللها أبنية وحفر عميقة بما يكفي لإغراق حصان. وقع المسيحيون هنا في شرك بسبب جهلهم للمنطقة وعدم وجود مرشدين. انقضت عليهم حامية قطنيانة عندما لاحظ أفرادها أن المسيحيين في محنة وعاملوهم بقسوة لأن الفرسان المدججين بالدرع والسلاح كانوا عاجزين عن الخروج من المستنقع. هرعت قوات المشاة لإنقاذهم فكان على سكان مدينة قطنيانة التراجع إلى قلعتهم. حاصر المسيحيون عندئذ المدينة وقد تملكهم الغضب إزاء المحنة السخيفة والمأساوية

التي وقعوا فيها ثم اقتحموها وذهب سكانها التّعساء ضحية مذبحة مريعة⁽¹⁾.

حزن ابن الأحمر كثيراً عندما علم بما حصل نظراً لشعوره بأنه كان في مقدوره لو كان مع المسيحيين أن يتفادى كل هذه الخسائر البشرية، فذهب فوراً للتشاور مع فرناندو كي يمنع هدر الدماء بلا طائل في المستقبل. وافق الملكان اللذان كانا دائماً متفقين في الرأي عندما يتعلق الأمر بصالح السكان غير المقاتلين، على وجوب إصدار الأوامر إلى أفراد القوات بأن يلجأوا إلى الإقناع والمسايرة في بادئ الأمر مع كل مدينة وقلعة يصلون إليها، وأمر باستخدام القوة فقط عندما لا يوافق المسلمون على الاستسلام أو يرفضون إعمال المنطق. واتفقا كذلك على عدم التعرض للمسيّين والنساء والأطفال تحت أي ظرف من الظروف أو أي شخص آخر يستسلم دون سلاح خلال عمليات الانتقام العنيفة. عند ذلك كتب ابن الأحمر رسائل حملها فرسانه إلى مختلف المدن الواقعة في نطاق المعارك ليخبر أهلها بالشروط المقترحة ويوصيهم بالاستسلام من دون مقاومة. نجحت هذه الطريقة في حقن الكثير من الدماء وهي تشهد مجدداً كم كان اليمانيون قوماً مسالمين بالفعل وكم كانوا على استعداد لقبول التّبعة بدلاً من الحرب.

كانت غليانة التي تقع على نهر ولبة إلى الجنوب الغربي من قطنيانة وإلى الشمال من إشبيلية أول مدينة تستجيب لتوصية ابن الأحمر، وقاد فرناندو بنفسه قواته إلى داخل المدينة، ومن هناك توجه إلى جرينة وهي مدينة أخرى من المدن العديدة المتناثرة حول سفح جبل ولبة، حيث لا زالت بقايا أسوار قوية شاهدة على منعة تحصيناتها في القرون الوسطى. هنا بدا أنّ الموحدين حشدوا قوة كبيرة نظراً لأنهم أبدوا مقاومة عنيفة على الرّغم من أنّ الموقع كان ذا أهمية ضئيلة، ولم يوافقوا على شروط الاستسلام إلى أن أصبحت الحامية بأكملها مهددة بالهلاك. لم تُجدِ المساعي الحميدة التي بذلها ابن الأحمر نفعاً في جرينة مع أنها كانت فعالة بدرجة مؤثرة في غليانة التي تبعد مسافة فرسخ واحد عن جرينة.

(1) Zúñiga, i. 5, 9; Conde, iii. 31 - 2.

من الواضح أنه بدا من غير المستحسن مواصلة الزحف في ذلك الاتجاه لأنّ سان فرناندو رجع إلى غليانة حيث أصيب بمرض شديد أرغمه على البقاء في المدينة لفترة زمنية. لقد كان من دون شك قد بدأ يعاني من المرض الباطني الذي أدى إلى وفاته بعد بضع سنين؛ ومن الجائز أنّ معرفته بأنّ أجله قد اقترب أسهمت في استجابته باندفاع لرغبات ابن الأحمر في اعتماد الرأفة خلال الحملة. لم يكن من الأمور الاعتيادية في ذلك الزّمن أن يقبل فاتح مسيحي نصيحة رجل يعتنق ديناً آخر كما تظهر الحوليات الواردة حول هذه الأحداث أنّ فرناندو فعل، سواء كتبها مسيحيون أو مسلمون. كما لم يبدِ فرناندو أو يسمح لمستشاريه بإبداء أدنى شك في حسن نوايا ابن الأحمر. قامت صداقتهما على الإعجاب والاحترام المتبادلين ومن الواضح أن فرناندو، ذلك الرجل الحكيم بين أفراد جيله، قدّر المزية الهائلة المتمثلة بالنسبة له فيما يتمتع به الملك اليماني من نفوذ يبين أبناء قومه ودينه طوال الستين اللتين قاتلا خلالهما جنباً إلى جنب.

يتضح لنا من خلال قراءتنا بين السطور أنه لم يُطلب بتأقاً من ابن الأحمر أن يشارك في معارك فعلية ضد مناطق يعيش فيها سكان مسالمون من قومه. نسمع عنه في قلعة جابر وقرمونة وغليانة وغيرها من المدن التي استسلمت من دون قتال - ولكن لم يرد اسمه في الأخبار الواردة عن حصار جرينة ولا يبدو أنه كان موجوداً في قطينانة. ولكنه أرسل إلى شريش التي كان يتمركز فيها أعداؤه، ثم جاء ذكره في معركة قلعة التهر التي جاءها القائد الموحد السقاف من إشبيلية لقيادة القوات المدافعة نظراً لكون هذه المدينة الواقعة على ضفة النهر كانت البوابة التي تدخل عبرها الإمدادات الغذائية القادمة من الجبل لاستهلاكها في العاصمة إلى حيث كانت تُرسل على متن المراكب الشراعية.

كان السقاف يلحق الهزائم بالمسيحيين هنا خارج الأسوار حين وصل الغرناطيون في الوقت المناسب. ويفضل مناورة سريعة نشر ابن الأحمر سلاح الفرسان بين الموحدين والقلعة، ثم هاجمهم بثبات بحيث أجبرهم على الالتفاف والفرار إلى

إشبيلية. بعد ذلك أقنع ابن الأحمر من دون صعوبة سكان المدينة بالاستسلام إلى سان فرناندو مؤكداً لهم أنّ الملك المسيحي سوف يحميهم ويحرسهم. وبذلك ظفرت قشتالة بهذه القلعة بفضل تدخل الملك اليماني.

عندما كان فرناندو في قلعة التهر بعد الاستسلام، وصلته أنباء تفيد بأنّ الأدميرال رامون بونيفاث Ramon Bonifaz كان قد وصل إلى مصبّ نهر الوادي الكبير مع أسطول له المكوّن من ثلاث عشرة سفينة كبيرة وعدد من السفن الأصغر حجماً، وأنه اشتبك مع العدو هناك وأصبح الآن مسيطراً على مشارف إشبيلية من جهة البحر. تمكنت قوة أرسلت من قلعة جابر من التغلب على قوة من الموحّدين أرسلت لمساعدة سفنهم بين مستنقعات لبريخا، وشجّع هذا النجاح المزدوج سان فرناندو فقرّر غزو إشبيلية دون مزيد من التأخير.

في 20 أغسطس من سنة 1247، نصبت القوات المسيحية خيمها خارج المدينة وقريباً جداً منها، بحيث كانت الخيام الملكية موجودة على ما يعرف في اليوم الحاضر باسم مرج سان سيباستيان الذي كان يقام عليه معرض إشبيلية الكبير. يقول ثونيغا إنّ الجيش كان محدود العدد إلى حدّ كبير وإن كان تدريبه متقناً. لكن الثقة المبالغ بها التي كان يبديها الملك ومستشاروه كانت السبب في حصول «علل يستحيل مداواتها». ويضيف ثونيغا أنه من الصعب اكتشاف الحقائق الدقيقة لأنّ المؤرّخين التزموا الصمت حيالها، ولكن من المعروف أنه سرعان ما تكشف أنه لا بدّ من الانسحاب من مرج سان سيباستيان إلى تَبْلَدَة، الزاوية التي يشكلها التقاء نهر وادي الرّحى بالوادي الكبير حيث كان يجري وقت كتابة هذا الكتاب حفر قناة جديدة عظيمة لتجنّب عبور المنعطف الضّحل للتهر عند سان خوان دي حصن الفرج San Juan de Aznalfarache والسّماح للبواخر العابرة للمحيط بالدّخول إلى ميناء إشبيلية عندما يرتفع المدّ.

احتلّ سلاح البحرية بقيادة بونيفاث في ذلك الوقت ضفّتي التهر حتى سان خوان، ومن المحتمل أن السفن الحربية تمركزت بالقرب من تَبْلَدَة. بات المسيحيون الآن يسيطرون على الطّريق الممتدّة من إشبيلية إلى دوس إرماناس Dos Hermanas

(حصن الأختين) وأطريرة كما على الطريق الممتدة من قلعة جابر وقرمونة وعلى الطريق المتجهة إلى الجبل في الشمال وبمحاذاة النهر صعوداً من إشبيلية حتى مدينة قرطبة. وهكذا أصبحت المدينة تعتمد بالكامل على إمداداتها الغذائية من الشرف حيث كانت قوات الميليشيا تحرس قوافل الإمدادات القادمة يومياً إلى المدينة دون صعوبة عبر جسر الزوارق. كانت تحرس الجسر قلعة طريانة القوية التي بُنيت داخل جدرانها السلاسل التي تربط الزوارق سوياً. صحيح أن غالبية المزارعين والفلاحين كانوا يعارضون الموحدين، ولكنهم كانوا هم الحاكمين ولم يكن هؤلاء القوم المسالمون يجرؤون على رفض مطالباتهم.

كانت المنطقة الزرفية بكاملها الممتدة من إشبيلية حتى لبلة ولا تزال غنية بالمزروعات، كما كانت لبلة ولا تزال بأيدي الموحدين تحت حكم محمد الذي نعتقد أنه كان محمد بن عمران الذي نصبه ابن الجذ والياً على إشبيلية وأطيح به بعد أن اغتال السقف ابن الجذ⁽¹⁾. لم تذكر الحوليات أن محمد ابن السيد أبي عمران قُتل مع حاميه ابن الجذ في إشبيلية، أما محمد ملك لبلة فكان على وجه التأكيد من الموحدين، ولقد فرّ كما نعتقد خلال ثورة عام 1242 مع والدته التي كانت على ما يبدو امرأة قديرة وأرسي حكمه في لبلة. لم يذكر ابن خلدون أن محمداً هاجم المغاوير، ولذلك يمكن القول إنهم دعموه بعد وفاة الملك اليماني من أجل تأمين قاعدة لعملياتهم على رأس الشرف نظراً للأهمية الهائلة بالنسبة لإشبيلية في إبقاء تلك الطريق مفتوحة للوصول إلى المدينة⁽²⁾.

تقع مدينة لبلة مثل قلعة جابر على تلة شديدة الانحدار تعلو منعطفاً حاداً من النهر الأحمر - وهو جدول هادئ مياهه بلون غريب برونزي مائل إلى الخضرة تنبع من مناجم النحاس. تشرف المدينة المسورة على الطريق الممتدة عبر السهل إلى إشبيلية من جهة وتشرف من الجهة الأخرى على ممر صخري يتعرج النهر عبره حتى الوصول

(1) راجع الصفحة 298 طبعة الأصل. يسميه كوند «محمد سيد لبلة» (i. 33)، وثونيغا (i. 27, 402) يسميه «Aben Amafion» و «Aben Mahfot».

(2) Ibn Khaldun in Makkari, ii. app. lxxix - lxxx.

إلى البحر أسفل ميناء ولبة. ليس وضعها قوياً من الوجهة الحربية كما هي الحال بالنسبة للقلعة، ولكن من الواضح أنها أبدت مقاومة شرسة في القرون الوسطى نظراً لأن سور المدينة الذي لا يزال كاملاً تقريباً يمتد نحو الأسفل حتى طرف النهر بحيث أنه كان من الصعوبة بمكان لعدو أن يقطع المياه عنها عداً من خلال تحويل مجرى الجدول؛ وهو فعل لم نقرأ أنه مورس إلا نادراً أو على الإطلاق في الأندلس.

يبدو أن سان فرناندو ترك الموقع وشأنه، إذ لا يوجد ما يشير إلى تنفيذ هجوم على لبلبة في عهده، وعندما حاصر الملك ألفونسو العاشر المدينة بمساعدة ابن الأحمر بعد تسع سنوات من سقوط إشبيلية لم يتمكن الحليفان من إخضاعها إلا بعد انقضاء عشرة أشهر.

كانت مدن جبل العيون وسربا ومورة وفارو وعدة مدن أخرى وكامل إقليم الغرب تقريباً لا تزال تحت سيطرة الموحدين وأميرهم محمد، واستسلمت جميعها إلى المسيحيين سوية مع مدينة لبلبة عام 1257⁽¹⁾.

في بداية الحصار، حتى قبل أن يعسكر فرناندو أمام مدينة إشبيلية على ما يبدو، عبر سيد إقليش إلى الضفة الغربية من النهر مع 280 فارساً «من بين رهبان وعلمانيين» ونصب خيمة أمام حصن الفرج حيث صمد بصعوبة في موقعه إلى أن أرسل إليه فرناندو بتعزيزات. بقيت هذه القوات على الضفة الغربية طوال فترة الحصار تشتبك مع حامية حصن الفرج وقلعة طريانة⁽²⁾. ولم يتمكن المحاصرون من إحداث أي تأثير على قلعة طريانة التي صمدت حتى بعد تحطيم جسر الزوارق ولم تستسلم إلا مع استسلام المدينة.

في هذا الوقت تقريباً، جاء رئيس كهنة سانتياغو، مقتدياً بغيره من رجال الدين المحاربين، للمساعدة في الحصار على رأس فرقة من فرسان جليقية. خيّم الفرقة

(1) Conde, iii, 41 ff. ; Zúñiga, i, 221 ff.

كان السواد الأعظم من سكانها من المستعربين واليமானين.

(2) *Primera Crónica*, 750 – 1. Zúñiga, i, 11,

يقول ثونيغا إن سيد أو حاكم سانتياغو (شنت ياقب) هو الذي قاد القوة وليس حاكم إقليش.

بالقرب من تغرت، وهو جدول مياه راكدة يتعرّج خارج الأسوار الشرقية للمدينة ويصبّ في نهر الوادي الكبير Guadalquivir أسفل ما يعرف الآن برصيف «موئه مينرال»⁽¹⁾ *Muelle Mineral*، لكن الرائحة البغيضة المنبعثة من مياه الجدول الأسنة سقمت رئيس الكهنة وكافة رجاله. عندما أدرك المسلمون الداء الذي ألمّ بهم خرجوا من معقلهم وهاجموهم. وانتقاماً لما أصابهم دبر عدد من الفرسان فتحاً بأن أطلقوا قطعاً من الأغنام دون راع وعندما حاول الموحّدون الإمساك بالأغنام قتلت فرقة رئيس الكهنة خمسمئة رجل منهم؛ على الأقل هذا ما يقوله ثونيغا، لكن من دون أن يسند قصته إلى مرجع موثوق. ويمكن تصديق أنّ الرائحة المنبعثة من مياه جدول تغرت الأسن أدت إلى اعتلال فرسان جليقية، فإلى اليوم لا يزال كل من يخيم على ضفة هذا الجدول معزّضاً للتسمم. ولكننا نشكك في قوله إنّ المسلمين خاطروا بحياة خمسمئة رجل من حاميتهم لالتقاط بضعة خراف؛ لأنه ونظراً لندرة المؤن لدى الفريقين لا بدّ أنهم أدركوا أنّه من غير الممكن ترك قطع أغنام يرعى دون حراسة إن لم يكن وراء ذلك غرض معيّن. لم يتعاف رئيس الكهنة من مرضه، وعندما ساءت حالته الصحية تماماً أعاده سان فرناندو إلى الشمال⁽²⁾.

يقول ثونيغا، كما ورد آنفاً، إنّ فرناندو نصب خيامه في مرج سان سيباستيان خارج أسوار المدينة مباشرة. لكن كتاب «الحواليات الأولى» *Primera Crónica* لا يشير إلى ذلك بل يخبرنا بأنه ذهب إلى تبليدة حيث عزّز تحصيناته إلى أقصى حدّ ممكن، نظراً لقلة عدد فرقته. من المحتمل أن فرناندو عسكر لفترة قصيرة خارج الأسوار ولكن لا يوجد أدنى شك بأنه خيم هناك أولاً. يقول كتاب الحواليات إن فرناندو انتقل إلى تبليدة «بعد أن أنهكته مناوشات المسلمين حيث كان». حرص الملك ألفونسو العاشر الذي أشرف على كتابة «الحواليات الأولى العامة» على التقليل قدر الإمكان من أهمية الانتكاسات التي مُني بها والده انطلاقاً من واجبه النبوي تجاهه.

(1) معنى الاسم في الإسبانية: التبع المعدني. (أحمد)

(2) Zúñiga, i. 20. 2 p. 751.

كان على سان فرناندو أن يستدعي ابنه من آراغون التي قصد لها لعقد قرانه على الأميرة فيولانتة ابنة خايمه الأول، ملك آراغون. ومع أن الأمير عاد على غير رغبة منه فقد اصطحب معه جيشاً من مُرسية التي كان أميرها ابن هود تابعاً لفرناندو، وعدداً كبيراً من جنود آراغون الذين أرسلهم حموه.

كانت التعزيزات ضرورية من دون شك، لأننا من خلال قراءتنا ما بين السطور يمكننا أن نلاحظ أن الأمور لم تكن تسير بشكل جيد بالنسبة للمحاصرين، وإن كان المؤرخون المسيحيون يحاولون أن يؤكدوا عكس ذلك. كان عمل المكلفين بتأمين الطعام والمؤن للجيش محفوفاً بالمخاطر، ولكنه بالتأكيد عمل لا يمكن إهماله حتى ليوم واحد، برزت شهرة الفارس غارسي پيريث دي فارغاس Garci Perez de Vargas للمرة الأولى عندما كان يرافق إحدى فرق البحث عن الطعام ونجح في التغلب بمفرده على «سبعة من الأفارقة» بسيفه العظيم المحفوظ الآن في مكتبة كولومبوس في إشبيلية، وقد نقش عليه بفخر «بهذا السيف وبفضل غارسي پيريث تمت السيطرة على إشبيلية». لكن ثونيغا وكتاب الحوليات يوضحان وإن عن غير قصد، أنه لا غارسي پيريث ولا رفاقه خرجوا على الدوام ظافرين من مثل هذه المواجهات لأنه في أكثر من مناسبة قُتل كامل أفراد فرقة الحراسة.

نفذ الموحدون هجمات متكررة من البر والتهر، حتى أنهم حاولوا إحراق سفن مسيحية بواسطة «طوف مشتعل مهول»، وتطلب لإحباط محاولتهم أن يستخدم الأميرال بونيفات كامل مهارته وشجاعته. يبدو أن بونيفات أرسى أسطوله عند أعلى النهر قريباً من سان خوان دي حصن الفرج San Juan de Aznalfarache، كما يبدو أيضاً أنه إثر محاولة حرق سفنه، ثبت فرناندو زوجاً قوياً من جذوع الأشجار أو وتدين كبيرين في عرض النهر لمنع العبور.

الأمر الوحيد المؤكد هو أن المسيحيين لم يظفروا أو يسيطروا على النهر دون قتال عنيف للغاية. وفي نهاية الأمر استولى بونيفات بالقوة على بعض السفن الحربية التي عرفت باسم «السمرة» ⁽¹⁾ Zambras وبعد ذلك لا يُذكر شيء عن المواجهات التي

(1) Zúñiga, i. 17.

دارت على نهر الوادي الكبير حتى تحطيم جسر الزوارق الذي أذن بيده الفصل الأخير من ملحمة المقاومة المديدة.

حصلت معظم المواجهات البرية على ضفتي نهر وادي الرّحي. خرج المسلمون عبر بوابة القصر واجتازوا الجسر المقام فوق نهر الوادي على بعد ميلين من إشبيلية. في زمن ثونيغا كانت بقايا التحصينات⁽¹⁾ التي أقيمت على هذا الجسر واضحة للعيان ويبدو أنه كان بالإمكان اجتياز النهر فقط من هذه النقطة، إذ من خلال ترك الموحّدين لحارس واحداً عند مشارف الجسر كانوا يستطيعون دائماً العودة إلى المدينة بسلام بعد قيامهم بهجوم على معسكر المسيحيين.

علينا ألا ننسى أنّ المؤرّخين في بلاط غرناطة الذين اعتمد كونه عليهم في سرد أحداث الحصار (لا توجد تفاصيل عن الحصار لدى المقرئ) كانوا مهتمّين بقدر اهتمام مؤلف كتاب الحوليات المتعلقة بعهد ألفونسو بالتقليل من شأن الهزائم التي لحقت بملكهم ابن الأحمر، وعليه لم نحصل على مساعدة من الكتاب المسلمين هناك تمكّنا من التّثبت من الحقائق.

تؤكد الحوليات بصورة عامّة أنّ المسيحيين تعقبوا المسلمين حتى بوابات أسوار إشبيلية بعد أن أجبروهم على الفرار إثر هجماتهم المتكرّرة. وفي أحد الأيام رغب غارسي پيريث ولورنثو سواريث Lorenzo Suarez في أن يجعلوا من «الكافرين» المتجاسرين عليهم عبدة، فكّنا في مكان سرّي وأنذر لورنثو رجاله بأنه عندما يفرّ المسلمون «كالعادة» عليهم عدم تعقبهم فوق الجسر لما يمكن أن يترتب عن هذا العمل من أخطار. وقع المسلمون في الفخ وفرّوا بصورة عشوائية تاركين الميدان مغطى بقتلاهم.

تبعاً للأوامر، توقف المسيحيون عن ملاحقتهم عند طرف الجسر ولكن غارسي پيريث لم يفعل ذلك. متناسياً ما تم الاتفاق عليه مع لورنثو، اندفع عبر الجسر وحيداً. عند ذلك قال لورنثو لرجاله:

(1) اختفت هذه التحصينات الآن لكن الجسر لا يزال قائماً.

«أيها السادة لقد خدعنا غارسي پيريث دي فارغاس، انظروا كيف يخوض بين المسلمين. سوف يدخلنا إلى موضع حيث يتوجب علينا ان نستخدم كل ما أوتينا من قوة».

انطلق الجميع لمساعدة المغامر الجسور وبعد ان قتلوا «أكثر من ثلاثة آلاف»⁽¹⁾ تعقبوا المسلمين المنهزمين حتى بوابات القصر.

يورد في كتاب الحوليات أنه في «ذلك اليوم اعترف لورنثو سواريث بأن غارسي پيريث كان أكثر جسارة منه» وكانت النتيجة أن تراجعت وتيرة الهجمات التي تقوم بها حامية القصر⁽²⁾.

لكن لم يوافق سان فرناندو على هذه الاستعراضات الطائشة من جانب فرسانه، وفي إحدى المرات أمر بإلقاء القبض على غارسي پيريث ولورنثو سواريث لأنهما كادا أن يتسببا بكارثة خطيرة عندما ركبا بمفردهما ليطرقا على بوابات إشبيلية بعقب حربتيهما، العمل الذي أدى إلى خروج قوة كبيرة للاصطدام بهما، مما اضطر الجيش بأكمله عملياً للتحرك لنجدة المغامرين. صفح فرناندو عنهما ولكنه جعلهما أضحوكة من خلال طرح السؤال حول من منهما قدم دليلاً أعظم من الآخر على استبساله؛ هل هو من خاطر أولاً بحياته، أو من بقي لمدة أطول عند البوابة، أم ذاك الذي تمالك نفسه وبقي هادئاً بدلاً من استفزاز الطرف الآخر للهجوم. طرح الأمر للتصويت ولكننا لا نعلم من من الاثنين حصل على أعلى تقدير، كما أن كتاب الحوليات لا يشير إلى اسم الفارس الذي تمالك نفسه وكبح جماح حماسه العسكرية بدلاً من استثارة العدو للهجوم على المخيم. يخبرنا ثونيغا اسمه بالاستناد إلى مصدر آخر. تشكل هذه القصة مؤشراً إلى أن سان فرناندو وُلد قبل زمانه لأن ثونيغا نفسه يقدم شبه اعتذار عن وجهة نظر الملك فيما كان يُعتبر استبسالاً آنذاك.

(1) لم يكن مؤرخو القرون الوسطى في إسبانيا، سواء من المسيحيين أو المسلمين، يرضون بأقل من «آلاف» القتلى في صفوف الأعداء في مناسبات كهذه. وهذه التهمة ليست غائبة تماماً عن بعض الصحافيين الإسبان حتى في أيامنا هذه.

(2) Zúñiga, i. 21.

على الرّغم من ذلك - وربما في الحقيقة نتيجة - لهذه المفازات العسكرية، لم يحقّق المحاصرون أيّ تقدّم، وبدأ على المدى البعيد أنّ إشبيلية كانت وستبقى منيعة طالما كان أهلها قادرين على الوصول إلى المناطق الزراعيّة الخصبة في الشّرف. ولكن كان من الصّعوبة بمكان قطع الإمدادات عنها من تلك النّاحية لأنّ قلعة طريانة كانت محصّنة ضدّ أيّ هجوم كما أنّ حاميتها نفّذت هجمات عدّة وواصلت الدّفاع عن كل جزء منها بعزيمة لا تكلّ.

مع طول مدّة الحصار، بعد حوالي تسعة أشهر على تطويق المدينة، اقترح ابن الأحمر على فرناندو أنّه سيكون من الأفضل تدمير جسر الزّوارق لحرمان الحامية من وسيلتها الوحيدة للوصول إلى الشّرف الذي تعتمد عليه بالكامل لتأمين إمداداتها الغذائيّة. كانت خطّته تقوم على إعداد سفن مشتعلة لحرق الزّوارق وسفيتين كبيرتين لكسر السّلاسل التي تربط الزّوارق سوياً وترك النّهر يجرفها عندما تكون الرّيح والتيار موافقين⁽¹⁾.

لا يذكر كتاب الحوليات ولا ثونيغا السفن المشتعلة، ومن المحتمل أن يكون الكاتب الذي استند إليه كوندّه قد خلط بين تحطيم الجسر والهجوم السّابق بواسطة سفن مشتعلة على أسطول فرناندو، مع أنّه من المحتمل جداً أن يكون ابن الأحمر قد اقترح استعمالها لأنّ من الواضح أنّ هذه الخدعة الحرّية كانت مألوفة لدى مسلمي الأندلس في ذلك الوقت. يقول ثونيغا إنّ الملك اقترح الخطّة على بونيفاث وعلى خبراء آخرين في قيادة البحريّة، ولكنه لا يذكر شيئاً حول استعمال سفن مشتعلة. لم يكن لأهل قشتالة خبرة في فنون الحرب البحريّة، وبالفعل لم يكن موقع بلادهم يتيح لهم اتقانها، وكانت أول إشارة إلى أسطول قشتالي قصّة السفن الثلاث عشرة التي أمر فرناندو بصنعها في سانتاندير Santander لمحاصرة إشبيلية. أمّا المسلمون، فكانوا في المقابل على دراية باستخدام النّار الإغريقية التي أشار إليها كتاب الحوليات باعتبارها مصدر رعب للمسيحيين مضيفاً أنّ هذه النّار تسمّى باللغة العربيّة «نار القطران»⁽²⁾.

(1) Conde, iii. 33 - 4.

(2) Et dicenle en arauigo fuego de alquitran. (Primera Crónica, pp. 754, 756.)

من المحتمل جداً أنه لم يؤخذ بنصيحة ابن الأحمر، نظراً لعدم توفر سفن لدى المحاصرين يستطيعون الاستغناء عنها، كما لم يكن سان فرناندو في ذلك الوقت يسيطر على أي ميناء في الجنوب، وكما رأينا كان على بونيفاث أن يذهب إلى الشمال لشراء السفن.

كان جسر الزوارق الذي بناه الموخدون في مكان أعلى على النهر من موقع الجسر الذي دمره المرابطون عندما حاصروا إشبيلية وأطاحوا بحكم المُعتمد في العام 1091. كانت لا تزال بقايا السلاسل المستعملة في الجسر السابق ماثلة عندما كتب ثونيغا مؤلفه، وكانت مثبتة في أساسات الأسوار العظيمة قريباً من برج الذهب وقبالته.

نُفذت المحاولة في 3 مايو من العام 1249. تم إعداد سفيتين كبيرتين عُزّزت عوارضهما بصفائح حديدية ونقلتا لمسافة أسفل مجرى النهر مع طواقمهما على متنها وتحت إمرة بونيفاث نفسه. تحركت السفيتان صعوداً مع ارتفاع المدّ تدفعهما ريح قوية عبر عاصفة من المقذوفات المنطلقة من ضفتي النهر كليهما. هزّت السفينة الأولى الجسر بقوة ووجهت السفينة الثانية التي كان على متنها بونيفاث «ضربة عيفة جعلتها تعبره إلى الجانب الآخر» وسط صيحات التصر الصادرة عن المسيحيين والعويل المرير للعرب⁽¹⁾.

كان يفترض أن يصبح انتهاء الحصار وشيكاً بعد هذا النجاح، ولكننا نشك في أن الجسر دُمر تماماً كما يوحي لنا كتاب الحوليات، نظراً لأن المدينة صمدت لأكثر من ستة أشهر بعدها.

على كل حال لم يكن لدى ثونيغا أدنى شك في النتيجة المرضية للمحاولة، ويقول في كتابه إن السفيتين الشهيرتين «كانتا أكثر استحقاقاً بتخليد ذكراهما من سفينة آرغو الإغريقية»⁽²⁾. ويخبرنا أنّ مدينة سانتاندير «نقشت رسم السفينة على شعارها

(1) *Primera Crónica*, 761.

(2) سفينة آرغو Argos ومعناها «التريعة» مرتبطة بأسطورة يونانية تتعلق بمغامرة البطل الإغريقي ياسون لجلب جرة الصوف الذهبي واستعادة عرشه في حماية آلهة الإغريق. (م)

لأنها كانت فخورة لكونها صنعت في مينائها. ونقشت كاتدرائية إشبيلية رسم السفينة عينها على أول ختم للمجمع الكنسي مع صورة السيدة مريم في الكوثل [أي مؤخرة السفينة]، والصليب المقدس على الشراع». هذا القول صحيح بلا شك لأنه يورد نقشاً خشبياً للمختم يعود إلى العام 1256 محفوظاً في أرشيف مدينة إشبيلية. ولكن ثونيغا لا يشرح لماذا اعتُبرت سفينة واحدة جديرة بتخليد ذكرها في حين يذكر لنا بوضوح أنّ سفيتين استعملتا في تدمير الجسر.



الفصل التاسع عشر

سقوط إشبيلية

كان تدمير جسر الزوارق أول تقدّم ملموس يحرزه المسيحيون، ولكنهم كانوا ما يزالون بعيدين جداً عن النصر النهائي.

يقول ثونيغا إنّ الجنود كانوا مُرهقين بسبب نقص المأوى وقساوة الطقس وبدأوا يتململون بصورة تنذر بالأسوأ مع تأخر دفع رواتبهم بسبب النقص في التمويل، رغم أنه جرى تخفيض قيمة النقود تحت وعد بدفع فارق القيمة المخفضة من حساب الخزانة بعد أن يتم التغلب على الصعوبات المالية. حزن الملك من هذا التذمّر العام ولكنه عزّز وضعه الروحي بتخصيص وقت أكبر للصلوات التي رافقها بالصيام، والانضباط وارتداء قمصان من الوبر الخشن⁽¹⁾.

وكان تحقيق انتصارات ثانوية يرفع معنويات المحاصرين بين الفينة والأخرى. يقول كوندّه إنهم «دخلوا إلى غولس Gules وأحرقوا حيّ بن الفوفار ونهبوا حيّ باب ماكارينا»⁽²⁾.

(1) i. 27 - 8.

(2) (iii. 35.) كانت غولس في القرن السادس عشر لا تزال مجموعة من البساتين خارج أسوار المدينة بين البوابة التي سميت آنذاك بهذا الاسم والتهر. كان يملكها في زمن ثونيغا ورثة عائلة كولومبوس. أصبحت الآن ضاحية صناعية على طريق التكة الحديدية المتوجهة إلى مدريد. أمّا حيّ بن الفوفار Ben Alfofar الذي يسميه كتاب السجلات بن اليوفار Benaliofar ويسمّيه ثونيغا بيناوار Venahoar ويعرف الآن باسم سان برناردو كما يقول، فيقع بين مرج سان سيباستيان وبوابة ماكارينا (19. i. Zúñiga; 758. p. Primera Crónica).

فور تدمير جسر المراكب، هاجم سان فرناندو قلعة طريانة من البر والبحر. حاول المحاصرون أولاً اقتحامها بهجوم عاصف، ولكنهم فشلوا لعدم توفر عدد كافٍ من السلالم والمعاول. ثم حاولوا تفجيرها لكنهم لم ينجحوا. بعد ذلك فرض سان فرناندو الحصار عليها مستخدماً آلات صُنعت على عجل، لكن ذلك لم يؤدِّ إلا إلى تكبيد المحاصرين خسائر شديدة من آلات المنجنيق القوية أو أقواس النشاب *ballestas* التي استعملتها الحامية؛ ويقال إن السهام ذات الرؤوس المربعة *cuadrillos*⁽¹⁾ التي كانوا يطلقونها كانت تخترق الفارس المدرع وتنفخ في الأرض، ولا يبدو أنه تم تحقيق أي تقدّم قبل قدوم تعزيزات إضافية من قرطبة نصبت خيامها قريباً من الأسوار. يقول كتاب الحوليات إن المسلمين باتوا عندها محاصرين ولم يعد بإمكانهم الخروج من المدينة والدخول إليها إلا عبر النهر، على متن زورق أو سباحة معرّضين أنفسهم لخطر جسيم. مع ذلك وعلى الرغم من كافة الجهود التي بذلها المحاصرون لم يتمكنوا من منع عبور المحاصرين إلى طريانة أو إدخال مؤن إلى المدينة⁽²⁾.

لم يدوّن كتاب الحوليات تفاصيل معجزتين حصلتا أثناء الحصار بل رواهما پيرازا Peraza وخوان دي بينيدا وقد أوردهما ثونيغا. سوف نكرّر سردهما هنا لأنه حتى هذا اليوم لا تزال توجد نصب تذكارية لهما في إشبيلية.

فبعد أن سيطر رئيس رتبة سانتياغو⁽³⁾ على مدينة جلبال الصغيرة الواقعة على الضفة اليمنى من النهر هاجم عدة مرات قلعة طريانة التي كانت قوية بحيث أنها ظلت مستعصية حتى نهاية الحصار. «من هنا»⁽⁴⁾ هاجم مسلمي سييرا مورينا من أجل تحطيم كبريائهم. في أحد الأيام عندما بدأ ضوء النهار يتضاءل وينحسر عن أرض المعركة

(1) مقذوف يشبه السهم، هو السهم ذو الرأس المربع المستخدم في القوس العائد للقرون الوسطى.

(2) *Primera Crónica*, pp. 761 – 5.

يذكر كوندّه أيضاً الصّواريخ القوية التي استعملها جنود الحامية (iii. 35).

(3) يقول كتاب السجلات *Primera Crónica* إنه كان سيد أقلش (صفحة 753)

(4) يفترض أن المقصود من جلبال؛ إذ لم يتم الاستيلاء على قلعة طريانة أبداً؛ مراجعة ما ورد أدناه.

مع إسدال الليل ظلاله بسرعة مسهلاً فرار العدو، وكما فعل يوشع⁽¹⁾، جعل الشمس تستوي في السماء متوسلاً العذراء بكلماته المشهورة: «يا قديسة مريم أوقفي نهارك!» فأجابت الرحمة الإلهية طلبه وبقي ضوء النهار يشع بصورة عجائية إلى أن حقق انتصاره، بينما ساعده سان فرناندو بصلواته بالتضرع إلى السماء فكان فعل ذلك أقوى من أكثر الجيوش استبسالاً. إنها معجزة تؤكد صحتها كنيسة سانتا ماريّا دي تينتوديا Tentudia التي شيدها هذا الرئيس نفسه فيما بعد⁽²⁾.

كان للمعجزة الثانية أساس واقعي، ونظراً لأنّ لها تأثيراً مباشراً على تاريخ إشبيلية تحت حكم اليمانيين، فهي تستحق مناقشتها مع بعض الإطالة.

لقد بيّنا سابقاً كيف أنّ أحفاد الأميرة سارة، الأشراف والتبلاء ذوو النسب المختلط، القوطي واليماني، حكموا إشبيلية لأجيال عديدة، وكم كانت واسعة الحرية الممنوحة لذرية المسيحيين القوط الذين شكلوا جزءاً كبيراً من سكان أرض إشبيلية في القرن الثامن وما بعده. استمرت هذه الحرية قائمة على ما يبدو نظراً لعدم وجود أي دليل يؤكد أنّ المرابطين اضطهدوا مسيحيي إشبيلية أو أنّ الموحدين تدخلوا بحزم في شؤونهم. يكفي أن كنيسة سانلوكار لا مايور San Lucar la Mayor بنيت عام 1214 (انظر الصفحة 18 طبعة الأصل) وأنّ دير التور المبني على الطراز المستعربي في قرية المغر لم يعكّر وجوده شيء حتى حرب الاسترداد التي خاضها المسيحيون (انظر الملحق)، وهذا بعد ذاته كدليل يؤكد أنّ الموحدين لم يعاملوا المسيحيين في هذا الإقليم بتعصب مفرط.

(1) هو النبي يوشع بن نون الذي خرج ببني إسرائيل من التيه ودخل بهم أورشليم (بيت المقدس) وأثناء القتال دخل عليهم المغيب يوم التبت فنظر إلى الشمس ودعا ربه ألا تغيب، فاستجاب لدعائه وكان له ذلك. (م)

(2) ثونيغا (2 - 11، i.)، مع أنّ الكنيسة لم تعد موجودة فلا زال موقعها معلماً بشارع صغير يسمى تندوديا يقع في خراج مدينة إشبيلية بجوار مرج برادو دي سان سياستيان. قال رئيس رتبة سانتياغو مبتهلاً إلى السيدة مريم:

Santa Maria, deten tu dia (أيها العذراء أوقفي نهارك!) ومن هذه العبارة اسم كنيسة سيده تندوديا.

صحيح أنه لم يرد ذكر واضح في كتاب الحوليات للكنائس التي كانت موجودة في إشبيلية عندما احتلها سان فرناندو؛ لكن يشير سيمونه (انظر الملحق) إلى أنه كان يوجد ما لا يقل عن ست كنائس في القرن الثاني عشر ولا تزال جميعها قائمة في إشبيلية مع أبرشياتها. كما توجد أساطير عديدة حول الحماية العجائية لصور القديسين والأيقونات التي يوجد بلا شك أساس واقعي لها. نشأت هذه الأساطير على وجه الخصوص حول بعض اللوحات الجدارية التي كان لا بد لها أن تثير قبل وقت طويل اهتمام الطلاب الأجانب الدارسين للفن المسيحي في المراحل المبكرة، لو كان وجودها في إشبيلية معروفاً بصورة عامة.

اللوحة الجدارية التي تُشكّل بعد ذاتها موضوع الأسطورة التي سنسردها، رغم تخريبها بفعل عمليات التجديد وإعادة الطلاء العديدة، يمكن فوراً أن يعرف أيّ طالب يفحصها بأنها قديمة العهد. لكن بما أن الكنيسة التي تحتويها مغلقة ولا تشير الأدلة السياحية بتاتاً إلى أهميتها، يبدى عدد قليل من هواة فن العصور الوسطى اهتماماً بالنظر إليها.

بعد هذه المقدمة تقدّم سرد ثونيغا للحدث المعني:

«كان منذ زمن القوط في الجامع الكبير صورة زيتية لسيدتنا العذراء أكبر من الحجم الطبيعي، عادة اتبعتها الكنيسة البدائية للتأكيد على أنّ للشخص المائل في الصورة قدرات تفوق قدرات البشر. حالت العناية الإلهية دون المسلمين وإزالتها رغم أنهم حاولوا تنفيذ ذلك؛ فقد بقيت هذه الصورة رغماً عنهم أكثر جمالاً ورونقاً؛ لذلك ولعدم قدرتهم على تدميرها أخفوها عن الأنظار ببناء جدار آخر أمامها⁽¹⁾ لكن المؤمنين القاطنين في إشبيلية لم ينسوها أبداً وكانوا يقدمونها حتى من دون رؤيتها إلى أن أصبحت قبل بضع سنوات من فتح إشبيلية مرئية يشع منها الثور وهو أمر رأى فيه الأفارقة نذيراً لهلاكهم، ولم يعد بوسعهم إخفاؤها، وفي كل مرة خاطروا بالنظر إليها كانت تجبرهم على الركوع أمامها تلبية لدافع يعجزون عن مقاومته.

(1) يُظهر هذا القول أنّ الأمر يتعلق بلوحة جدارية وهو أمر لم يذكره ثونيغا في السابق.

«سمع سان فرناندو عن هذه الصورة العظيمة، ومدفوعاً برغبة قوية في الخشوع أمامها دخل إلى إشبيلية في إحدى الليالي للبحث عنها، وبعد أن غمرته النشوة فقد الوعي وهو غارق في تأملها؛ وبعد أن صلى وخشع أمامها عاد ترافقه حراسة إلهية ليغادر من بوابة شريش⁽¹⁾ حين سقط سيفه وتعثّر به، عندئذ استعاد وعيه وأدرك أين هو والنعمة الإلهية التي أغدقت عليه. استغفده في هذه اللحظة دون رودريغو غونثالث خيرون Don Rodrigo Gonzalez Giron الذي كان أحد أقرب مساعديه، وفرنان يانيث Fernan Yañez وخوان فرنانديث دي مندونا Juan Fernandez de Mendoza شقيقاً أخلص أصدقائه الذين أصابهم القلق وانطلقوا للبحث عنه. ... دخل هؤلاء السادة مع آخرين إلى إشبيلية للبحث عنه واشتبكوا في قتال عنيف قرب الجامع مع المسلمين ثم غادروا المدينة بعد أن حالفهم حظ يوازي جسارتهم. «نحن نعرف»، يقول ثونيغا «أنه عند احتلال غرناطة أقدم فرناندو دِل بولغار على فعل جسور مماثل. ويختتم ثونيغا مستتجاً «الصورة هي تلك التي لا تزال موجودة في الكنيسة المقدسة [كاندراية إشبيلية] تحت عنوان لا أنتيغوا [القديمة]»⁽²⁾.

إن قصة هذا الدّخول «العجائبي» لسان فرناندو إلى المدينة المحاصرة تحت جنح الظلام وحادث تعثره بسيفه والمعركة بجوار المسجد هي بالتأكيد قصة عملية تسلّل سرّية سَهّلها اليمانيون أو المسيحيون المولّدون داخل الأسوار والذين كان يمكنهم الوصول إلى الصورة المخفية التي عرضوا على الملك المسيحي مشاهدتها كمربون لحسن نواياهم بهدف التعجيل باستسلام الحاضرة. يمكن للمرء أن يفهم أهمية مشاهدة هذه الصورة القديمة بالنسبة للملك الوريث، في حين أنّ وصول فرسانه في الوقت المناسب لحظة سقط سيفه على الأرض وتبّعت صلصلته الحامية قد يكون جزءاً من الخطة المتفق عليها سلفاً. وتفصل بين بوابة شريش (التي لا تزال تسمّى كذلك مع أنّ جدرانها هدمت قبل مدّة طويلة ويني في موقع البوابة قصر نبيل إشبيلي)

(1) كانت هذه البوابة الأقرب للمدينة إلى بوابة القصر التي كانت الحامية بصورة عامة تخرج منها لمهاجمة المعسكر المسيحي.

(2) i. 28 - 9.

والكاتدرائية (التي كانت قد حوّلت إلى مسجد قبل وقت غير طويل) مسافة قصيرة، وإذا كانت فرقة حراسة فرناندو قوية بالفعل فقد كان من السهل عليهم التسلّل إلى هذه المسافة بعد أن فتح البوابة أصدقاؤه المسيحيون في الدّاخل قبل أن تُنذر الحامية⁽¹⁾.

يقول ثونيغا إنه في فترة سابقة من الحصار اتصل عدد من سكان المدينة بالأمير ألفونسو من خلال فقيه أو عالم أسماه ثونيغا «أرياس» Orias كان قد وصل حديثاً من أفريقيا لتفقد مساجد الأندلس - «التي يعدّونها مقدّسة حسب مفهومهم»، يقول ثونيغا - حمل اقتراحاً وصفه المؤرّخ بأنّه شرك صُتم لقتل ابن الملك أو أسره رهينة. عرض «أرياس المسلم» على ألفونسو نيابة عن عدد من «قادة المسلمين» أن يسلموه برجين يستطيع بعد أن يصبحا تحت سيطرته أن يحتلّ المدينة بسرعة. «خشي الأمير الحكيم من هذا الاقتراح الغادر ورغم أنهم توسلوا إليه بأن يذهب بنفسه، أرسل دون پدرو دي غوسمان⁽²⁾... الذي نجا من الفخ ولم يقتل من مرافقيه سوى فارس واحد»⁽³⁾.

من غير الممكن استناداً إلى المواد المتوفرة لدينا معرفة حقيقة هذه «المؤامرة» ولم يكن بالطّبع لدى ثونيغا أيّة فكرة بأنه يوجد فرق بين المغاربة الأفارقة أي الموحّدين والعرب والمولّدين في المدينة المحاصرة. ولكن من المحتمل ان الحذر الشّديد الذي أبداه ألفونسو حيال المسألة لم يكن في محله، ولو أنه ذهب بنفسه بدلاً من إقلاق العالم وفريقه بإرسال رجل لا يعرفونه لربما حصل على برجيّه وأكثر.

ولد في سبّتمبر عام 1260 كاتب أصبح فيما بعد إماماً وخطيباً في الجامع الكبير في غرناطة وكان يفترض أنه من سلالة يمانية ويعتق المذهب الشّيعي. عُرف هذا الكاتب باسم ابن رُشيد تصغيراً لاسم رُشد التي ترجمها پونس (ص 317) على أنها تعني

(1) من الممكن أنهم كانوا يعتزمون إدخال عدد كافٍ من الرّجال للتّغلب على حراس بوابة شريش وفتحها أمام المحاصرين ولكن الخطة فشلت.

(2) مؤسس سلالة غوسمان العريقة التي يتفرّع منها دوقات مدينة صيدونيا وعائلات نبيلة أخرى.

(3) Zúñiga, i. 26 - 7.

«الرُّشد». فإذا كان والده رُشد كما يوحي الاسم بذلك خطيئاً كذلك، فمن المحتمل أن يكون هو نفسه الفقيه العالم «أرياس» Orias - Ar - Roshd أو Ar - Rosh الذي أشار إليه ثونيغا، وفي هذه الحالة يصبح الاتصال محتملاً بين شيعة إشبيلية والشيعة من أتباع ابن الأحمر في المعسكر المسيحي. كان «ابن رُشد» بالتأكيد رجلاً ذا شأن في إشبيلية لأنه «مع عدد آخر من كبار مسلمي إشبيلية» قام بدور رئيسي في المحادثات التي سبقت استسلام المدينة⁽¹⁾.

نسمع عن أرياس مرة أخرى من ثونيغا الذي يقول «نقلًا عن مذكرة قديمة» إنه بعد الاستسلام رحل السَّفَّاف من إشبيلية إلى أفريقيّا، «حيث كان اسمه مكروهاً طوال حياته وأصبح مكروهاً أكثر بسبب لعنات الفقيه أرياس»⁽²⁾. لو كان أرياس أو ابن رُشد قادراً على إبرام اتفاق صلح مع فرناندو على أساس إقامة حلف مع اليمانيين بدلاً من الاستسلام الكامل للمدينة لأمكننا أن نتصوّر أن يلعبن الموحّدي أبناء قومه بعد أن أدّى تصميمه العنيد على القتال حتى النهاية إلى خسارة المسلمين لإشبيلية.

يمكن أن نستوحي أنّ سان فرناندو لم يكن لديه شعور كبير بالثقة في فرص الظفر بالمدينة في النهاية من استعداده للموافقة على شروط الاستسلام التي اقترحها المحاصرون، وكانت بالتأكيد متساهلة إلى حدّ كبير بالنسبة إلى مدينة هُزمت بعد مقاومة دامت سنة وربع السنة. بالتأكيد يختلف المسار الكامل لحصار واستسلام إشبيلية بصورة كبيرة عن سقوط مدن أخرى بيد المسيحيين في تلك الفترة، حيث كان يتم التعامل بحزم وبطش مع كل من يبدي مقاومة فاعلة ومديدة. كما لا نستطيع أن نعزو تصرف سان فرناندو في هذه القضية بالكامل إلى تأثير ابن الأحمر، مع أن من الواضح أنّ الملك المسيحي كان يقدر نصائحه. من المحتمل أنّ الاستسلام النهائي فُرض على الموحّدين في الحماية بواسطة اليمانيين المحيّنين للسلام والعمليين الذين يشكّلون غالبية السّكان. فلو كان قائدهم المختار ابن الجذّ على قيد الحياة لكان من

(1) *Primera Crónica*, p. 766.

(2) i. 42

المحتمل أنَّ الحصار لم يُفرض من الأصل، فمن الأسلم الافتراض بأنه لو عاد الأمر إلى اليمانيين وحدهم، لكانوا تحالفوا مع سان فرناندو كما فعل ابن الأحمر، ولكانت إشبيلية مع الشرف والغرب قبلت أن تدفع الجزية كما فعلت غرناطة إلى ملوك قشتالة، بصفتهم سادتها لسنوات عديدة قبل أن يصبحوا حاكميها الفعليين.

نتقل الآن إلى وصف المشهد الأخير للحصار الطويل حسب ما أورده كتاب الحوليات:

«استبدَّ الغضب بالملك لأنه لم ينجح لا بواسطة الآلات الحربية ولا المعارك ولا بأية طريقة أخرى في احتلال قلعة طريانة أو منع عبور المسلمين إليها ومنها. حاول أن يركز بعضاً من العسكر في أرنال⁽¹⁾ بغية منع المرور عبر النهر ولكنه طُرد من الموقع. في أحد الأيام عندما عبر أرياس وعدد من قادة الحامية النهر إلى طريانة، حرك بونيفات عدداً من السفن وتمكن من قطع الطريق عليهم. وجدت حامية طريانة، بعد أن حوصرت من الجهتين من دون أمل في الحصول على مساعدة، نفسها مضطرة إلى التفاوض وطلب اللقاء مع فرناندو. وبعد أن قابل أفراد الحامية فرناندو ذهبوا إلى إشبيلية، حيث عرض السَّقاف شروطه⁽²⁾.

نصّت الاقتراحات الأولى التي قدّمتها الحامية على تسليم قصر إشبيلية إلى سان فرناندو، ودفع كامل الجزية التي كانت المدينة تدفعها إلى «أمير المؤمنين عندما كان والياً عليها». رفض فرناندو هذه الاقتراحات فعرض السَّقاف عليه ثلث المدينة مع قصر إشبيلية وكافة حقوق الملكية. رفض فرناندو أيضاً هذا العرض ثم اقترحوا إعطاء نصف المدينة بعد تقسيمها إلى قسمين يفصل جدار بين منطقة المسلمين ومنطقة المسيحيين؛ نصّح بعض أفراد حاشية سان فرناندو الملك بقبول العرض ولكنه امتنع، ثم وبعد طول تفاوض وافق السَّقاف على إخلاء المدينة على أن يعطي

(1) قسم رملي من ضفة النهر خارج الأسوار في جانب المدينة يعرف الآن باسم باسيو دي كولون (Paseo de Colon).

(2) *Primera Crónica*, p. 766.

الملك له وللرئيس «ابن شعيب» الإذن لهما بعد دفع الجزية بالذهاب إلى لبلة، أو حصن الفرج أو سانلوكار⁽¹⁾.

وضع المسلمون شروطاً لتسليم أسلحتهم وممتلكاتهم وافق عليها سان فرناندو الذي استولى على قصر إشبيلية في 23 نوفمبر 1248. ولكنه لم يدخل إلى المدينة بصورة رسمية لأن المسلمين طلبوا إعطاءهم مهلة شهر واحد لبيع ممتلكاتهم التي لا يستطيعون حملها معهم. في النهاية دخل سان فرناندو المدينة في 22 ديسمبر 1248 يوم الاحتفال بذكرى نقل رُفات القديس سان إيسيدورو [من إشبيلية إلى ليون].

يورد كتاب الحوليات أنَّ الملك قدّم لأولئك السكان الذين رغبوا في الرحيل بحراً، خمس سفن وثمانية قواديس⁽²⁾ وقدّم إلى الذين وصلوا عن طريق البر حيوانات ركوب وحرّاساً. وذهب العديد منهم إلى شريش (التي كانت في أيدي الموحّدين) يرافقهم سيد قلعة رباح⁽³⁾.

يذكر كتاب الحوليات بصورة خاصة معاناة المحاصرين من مرض أودى بحياة كثيرين منهم، ومن ربح، «ساخنة وكأنها قادمة من جهنم»؛ ويقول إنَّ «جميع الرجال

(1) *Primera Crónica*, 766 – 7; Zúñiga, i. 29 – 30.

يضيف ثونيغا أن السّقّاف أراد أن يدمر الخير الدا ولكنّ ألفونسو ردّ بانه لو نُزعت طوية واحدة منها فسوف يذبّحهم جميعاً. ومن الواضح أنَّ الاقتراح وشروط الرّفّض كلها مفبركة في فترة لاحقة.

لا شك أن «Aben Xueb» هو ابن شعيب وهو أحد أعضاء مجلس إدارة الموحّدين الذي تمّ تعيينه بعد اغتيال ابن الجذّ (مراجعة ابن خلدون في المقرئ، Makkari, ii. App. lxxx). ليس من الواضح ما إذا كان سان لوكار هو سان لوكار لا مايور في الشّرف أو سان لوكار دي باراميدا Barrameda قرب منبع التهر، لأن ثونيغا يستبدل «سان لوكار» باسم Tejada. لم يذكر متى سقط حصن الفرج ولكن لبلة لم تفتح إلا في عام 1257، بعد خمس سنوات من وفاة سان فرناندو.

(2) سفن شراعية كبيرة. (م)

(3) *Primera Crónica*, 761 – 767; Conde, iii. 36 – 7.

يقول كتاب السّجلات إنَّ 120 ألفاً ذهبوا إلى سبتة (في خمس سفن وثمانية قواديس) وإنَّ 300 ألف ذهبوا إلى شريش. ولا تحتاج مثل هذه الإحصائيات إلى تعليق.

كانوا يقطرون ماء طوال اليوم، في الظل وخارجة، كما لو أنهم كانوا في الحمام⁽¹⁾. لا بد أن ذلك كان ما نعرفه اليوم باسم صبا الريح الشرقية.

كان معسكر الجيش المحاصر، كما يورد كتاب الحوليات، أشبه بمدينة عظيمة نبيلة تتخللها شوارع وساحات. خصص فيه شارع لتجار الملابس والصرافين وآخر لتجار التوابل والعطارين لبيع الأدوية التي يحتاج إليها المرضى والجرحى؛ وشارع آخر للجزّارين وبائعي السمك وإلى ما هنالك. كانت توجد وفرة عظيمة في الطعام والسلع وكان الرجال يجلسون أمام مسلّهم مع زوجاتهم وأولادهم، كما لو كانوا سيقون هناك إلى الأبد، نظراً لأن الملك وعد بعدم رفع الحصار إلا بعد أن يستولي على المدينة، وهذا التأكيد على احتلال المدينة جعل كثيرين يتدفقون من كل صوب⁽²⁾.

يصف كتاب الحوليات منعة وعظمة أسوار إشبيلية وجمال وكلفة برج الذهب، وذلك الذي يعرف اليوم باسم الخير الدا. «هل يوجد من يستطيع أن يقول كم كلف بناء هذا البرج الملك الذي أمر بإنشائه؟» يواصل الكاتب فيقول إنّ «السفن كانت تأتي عبر النهر كل يوم إلى داخل الأسوار حاملة البضائع من كافة أنحاء العالم: من طنجة، ومسبة، وتونس، وبوجيا Bugia، والإسكندرية، وجنوة، والبرتغال، وإنكلترا، وبيزا، ولومباردي، وبورديل (هل كانت بوردو؟) وبايون، وصقلية، وغسقونيا، وقطالونيا، وآراغون وحتى من فرنسا والعديد من الأماكن الأخرى عبر البحر من بلاد المسيحيين والمسلمين».

كان في الشرف مئة ألف مزرعة أو ضيعة أو قرية *alquerias* ويضيف كتاب الحوليات أنّ «المدينة كانت من العظمة بحيث أنّ الاستيلاء عليها ما كان سيتم خلال تلك الفترة القصيرة لولا العناية الإلهية»⁽³⁾.

(1) P. 767 – 8.

(2) P. 768.

(3) صفحة 769. الأماكن المذكورة التي تنهي سرد عملية فتح إشبيلية هي بالتأكيد المدن التي كانت تتاجر معها خلال الحكم المسلم. استمرت العلاقات التجارية بين إشبيلية والعديد إن لم يكن كافة هذه البلدان حتى نهاية حكم هنري الرابع، شقيق إيزابيل الكاثوليكية الذي سبقها

يضيف كوندِه تفصيلاً واحداً أو تفصيلين. فيقول: «سَلَم الوالي أبو الحسن⁽¹⁾ مفاتيح المدينة في 12 شعبان، 646 (نوفمبر 1248) وفي اليوم ذاته ركب سفينة وتوجه عبر البحر إلى أفريقيا. «احتلّ الملك فرناندو قصر إشبيلية واحتلّ ضباطه حصون المدينة والجوار. بدأ المسلمون فوراً بمغادرة هذه المدينة المكتظة بالسكان وقبّل الكثيرون حماية الملك ابن الأحمر وذهبوا إلى نواحي غرناطة، وذهب آخرون إلى

في حكم البلاد. حمى هنري الرابع وحافظ على علاقات ودية مع المسلمين والموريسكيين في أراضيه، ورغم أنه كان حاكماً سيئاً من نواحي عدّة، فلا يوجد أدنى شك بأنّ التجارة ازدهرت خلال حكمه، وعلى وجه الخصوص تجارة الأقمشة الحريرية الجميلة التي نشرت صورها تحت عنوان «الشرقيون» في الكتاب العظيم الذي وضعه الزاحل فريدريك فيشباخ Fre-derick Fischbach حول زخارف الأقمشة. لا تزال توجد آثار من الفن العربي في القرون الوسطى، نقشت عليها أسماء أو تواريخ أو كلاهما تؤكد أنها على صلة بإشبيلية. والعلاقة بين هذه الزخارف وعدّة أشكال أخرى من التصاميم كما وردت في قسم «الشرقيون» من كتاب «زخارف الأقمشة» *Textile Ornaments* لا تترك أدنى شك بأنّ إشبيلية هي مصدرها. ومنذ أن بدأ فرناندو وإيزابيل حربيهما التي لا هوادة فيها على المسلمين الذين كانوا العمال الرئيسيين في كافة مصانع النسيج في ذلك الوقت، تراجعت بسرعة صناعات الأقمشة الحريرية وتلك المصنوعة من خيوط الذهب والفضة. شعرت إشبيلية التي كان معظم سكانها من الموريسكيين بوطأة تغيير أنظمة الحكم. وعلى الرغم من الازدهار الواضح الذي نتج عن تجارتها المتميّزة مع العالم الجديد خلال القرن السادس عشر، بدأت مصانعها ومعها الازدهار الحقيقي تتراجع تحت حكم الملكين الكاثوليكين، واستمرّ هذا التراجع في الواقع وإن لم يكن في الظاهر إلى أن طرد الملك فيليپ الثالث الموريسكيين وتابع الدمار الذي بدأته الملكة إيزابيل بحجة حماية الدّين. من المهم أن نؤيّد أنّ ثوبنا الذي ألف كتابه عند حوالي أواخر القرن السابع عشر يشتكي من أنّ حائكي الأقمشة الحريرية في إشبيلية يخسرون أعمالهم شيئاً فشيئاً مع الميل إلى استيراد أقمشة أرخص ثمناً ومن نوعية متدنّية من إيطاليا لا تقدر مصانع إشبيلية على منافستها. (iv. 1 - 120)، والحقيقة أنّ الصّناع المهرة أصبحوا قلّة بسبب غياب العمال الموريسكيين المنفيين، إذ أصبح من غير المربح إنتاج المشغولات بالمواصفات التقليدية المميّزة لمنتجات إشبيلية. لا تزال حتى وقتنا الحاضر تحاك مشغولات على أنوال يدوية في إشبيلية وغرناطة وفي بعض المناطق الريفية ويتم إنتاج أقمشة رائعة، من الأشرطة الحريرية وكتّان الدّمقس بحرفية رائعة ولكن بكميات ضئيلة جداً بسبب تفضيل المواطنين شراء ملابس أرخص ثمناً مصنّعة بآلات أكثر تطوّراً.

(1) ربما يكون أبو فارس، رئيس مجلس إدارة الموحّدين (Makkari, ii. app. lxxx).

شريس ومدن أخرى وإلى الغرب، وعبر عدد قليل منهم إلى سبته مع الموحدين⁽¹⁾. وهكذا انتهت إمبراطورية هؤلاء الأمراء (الموحدين) في إشبيلية وخسر المسلمون تلك المدينة الرائعة وامتلات أبراجها وجوامعها بالصلبان والتماثيل وجرى انتهاك حرمة قبور المسلمين المؤمنين⁽²⁾. القبور المشار إليها هنا ليست قبور اليمانيين الذين كانوا يدفنون بصورة عامة أمام أبواب قصورهم، أو إذا كانوا من الفقراء في المقبرة العامة خارج الأسوار. والإشارة هي إلى تقليد أدخل منذ حوالي القرن الثاني عشر من مصر ويقوم على إنشاء ضريح لصيق الجامع ليكون بمثابة قبر ومسجد خاص للرجل المهم الذي أنشأه. كان لمعظم الكنائس في إشبيلية التي ذكرت على أنها كانت مساجد في السابق في القرن الثالث عشر أضرحة إلى الشمال وإلى الجنوب من صحن الكنيسة باتجاه ما يعرف الآن بالمذبح وغالباً على الجانبين.

كانت تلك دون شك القبور التي قيل إن المسيحيين دنسوها عندما حولوا المساجد إلى أماكن عبادة مسيحية عام 1248. ولا يوجد أي دليل يؤكد أن المسيحيين انتهكوا حرمة مقابر المسلمين لعدم وجود أي سبب يدفعهم إلى ارتكاب أعمال التدنيس هذه، بل على العكس توجد إشارات تدل على أنهم استخدموا هذه المقابر واستمروا في استعمالها لقرون طويلة بعد الاسترداد.

دخل فرناندو متصراً إلى إشبيلية في 22 ديسمبر يوم ذكرى نقل رفات سان إيسيدورو إلى ليون (انظر الصفحة 27 طبعة الأصل). ويقول ثونيغا إن الاعتقاد الشائد هو أن هذا القديس بشر سان فرناندو بانتصاره؛ وحول الملك الورع مسيرة النصر إلى موكب ديني. ويقول ثونيغا في وصف هذا الموكب: «سارت قطعات الجيش أولاً وفق نظام عسكري تلوح برايات المتصهرين وتمزق رايات المنهزمين»⁽³⁾. وعزز التعبير عن الفرح العام صوت آلاف الآلات الموسيقية العسكرية. سار في مقدمة الموكب القادة

(1) تثبت هذه القصة كم كان عدد السكان الموحدين قليلاً.

(2) Iii. 36 - 7.

(3) هكذا يقول ثونيغا، ولكن هذا العمل غير التيبيل غير محتمل على الأرجح نظراً للتقدير الذي خص به فرناندو المسلمين في إشبيلية.

الرئيسيون، والتبلاء *infanzones*، وكبار الأثرياء وقادة الجيش أصحاب الأوسمة العسكرية وعدد كبير من الكهنة، المدنيين العلمانيون والنظاميون، يرافقون مع رؤساء الكهنة والمطارنة عرشاً نقالاً وضعت عليه الصورة الطاهرة لسيدتنا مريم». ويواصل ثونيغا كلامه بالقول: «لن أخاطر في التأكيد ما إذا كانت هذه الصورة هي الصورة التي كان يملكها الملوك أم المطرانية *Sede*، لأن الاحتمالين كليهما متساويان، ولكن الاحتمال المقبول بشكل عام هو أنها كانت الصورة التي كانت لدى الملوك والتي يمكننا أن نشاهدها معروضة بشكل مهيب في الكنيسة الملكية. مع ذلك فإن الصورة التي كانت لدى المطارنة، صورة القديسة الراعية أو الحارسة لكاتدرائيتنا فكانت موضوعة على المذبح الرئيسي وظلت مقدسة لمدة طويلة بحيث كان يبدو أن من غير الممكن اعتبارها ذات أهمية من الدرجة الثانية.

«في آخر الموكب سار سان فرناندو، وزوجته⁽¹⁾ وأولاده، وشقيقه ومختلف رجال البلاط». مر الموكب بين برج الذهب والتهر إلى بوابة غولس *Goles* (التي تسمى اليوم *Puerta Real*)، أي البوابة الملكية ثم توقف في موقع أرينال *Arenal* لاستلام مفاتيح المدينة من الشّاف.

عندما وصل الملك إلى الجامع الكبير الذي كان قد جرى تطهيره «من رجس الكفار» تلا واحد أو أكثر من رؤساء الكهنة القداس و«بذلك عاد هذا الهيكل إلى العبادة المسيحية»⁽²⁾ وحمل اسم سانتا ماريّا دي لا سيّده *Santa Maria de la Sede*. ترك سان فرناندو في هذا المعبد الصورة المذكورة آنفاً المسماة دي لا سيّده، المصنوعة بالكامل من الفضة والموضوعة فوق المذبح الأكبر. ووضعت صورة عذراء الملوك فيما كان يُعرف في السابق بالكنيسة الملكية في القسم الشرقي من المسجد. وفي

(1) خوانا، كونتيسة أومال *Aumale* وپونتيو *Ponthieu* التي تزوجت ابنتها إليانور الملك إدوارد الأول ملك إنكلترا. قلت: واسمها الأصلي بالفرنسية: جانّ *Jeanne de Dammartin* لكنّها صارت تُدعى خوانا *Juana* لما صارت ملكة إسبانيا. (أحمد)

(2) انظر الصفحة 398 طبعة الأصل.

الوقت نفسه رُفعت الرّاية الملكية ذات الصليب على أعلى البرج المرتفع للجامع⁽¹⁾.

وصورة عذراء الملوك الموجودة في الكنيسة الملكية تعود دون شك وباتفاق كافة المراجع المسؤولة إلى الفترة التي حدّدت لها هنا، ويؤكد وجود الزّنابق الفرنسية كجزء من التصميم على الأحذية الفضية - الصّورة بالحجم الطّبيعي - على ما يبدو الاعتقاد المتداول بأنّها كانت هدية إلى سان فرناندو من ابن عمّه سان لويس ملك فرنسا.

فيما يخصّ هذا الحدث، أورد محرّر كتاب ثونيغا نبوءة مثيرة للفضول تقول إنّ «المغاربة» في إشبيلية عرفوا قبل مدّة بخسارتهم القرية المحتومة للمدينة. وقيل إنّ الملكين الكاثوليكين عثرا على تلك النبوءة في دار المحفوظات في غرناطة عندما فتحوها.

ومن تفاصيل هذه النبوءة أنّه عندما سيطر الموحدون على الأندلس، ثار فارس شاب يدعى ابن هود Abenhud كان أغنى وأقوى رجل في مملكة مُرسية وانتصر عليهم وأخضع كافة «العرب» Alarabes القاطنين في تلك المناطق⁽²⁾، و«بغية تعزيز دعائم مملكته قتل بالسيف كافة الموحدّين مدّعياً بأنهم يمارسون شعائر ويتبعون خرافات، وأنهم يزدرون الذات الإلهية بخطاياهم وذرّاتهم. أمر كهنته بتنظيف وغسل مساجدهم بالماء وبأن يصبغوا بالأسود الدّروع والزّيات التي تحمل شعارات الموحدّين. وبعد أن تم تنفيذ ذلك إذا بساحر مغربي (hechichero) كانوا يعتبرونه نبياً عظيماً ينوح [حرفياً يولول بشدّة] عندما رأى تلك الدّروع مصبوغة بالأسود، وبعد أن جمع أشراف المغاربة أخبرهم بأنّ مملكة المسلمين في إسبانيا أوشكت على نهايتها، وأنّه انتقاماً لمقتل الموحدّين سوف يموت الملك ابن هود شراً ميتة؛ وأنّه في يوم مماته ستسقط كافة هذه الدّروع والزّيات السوداء أرضاً ولن يظهر بعد ذلك أبداً ملك مُسلم في إشبيلية. بعد ذلك توفي ابن هود الذي أسكره صديق حميم له في حفلة أنس في

(1) Zúñiga, i. 39 - 49.

(2) المقصود بكلمة العرب هنا العرب الشّعبة الذين تبعوا ابن هود. ولا يميّز الكتاب الإسبان في غالب الأحيان بين العرب والمغاربة الأفارقة (المور) أيّ الموحدّين.

المَرَّة، وعندما فقد وعيه أغرقه في خزان مملوء بالماء. وفي اليوم نفسه سقطت إلى الأرض تلك الدروع والرايات في جامع إشبيلية، واعتبر المسلمون المغاربة (الأفارقة) أن خسارة المدينة باتت أكيدة؛ ولم يبرز أي ملك بعد ابن هود، نظراً لأنَّ السَّقَاف الذي كان في إشبيلية عندما فتحها الملك القديس لم يكن ملكاً بل قائداً⁽¹⁾.

وقصة قيام ابن هود بصبح الرايات بالأسود وموته التالي صحيحة في خطوطها العريضة، ولكن الأرجح أن القصة مأخوذة عن الرواية المسيحية للأحداث، لأنه من غير الممكن لأي مسلم أن يخلط ما بين مُرسية وإشبيلية (انظر الصفحة 280 طبعة الأصل).



(1) Zúñiga, i. 48 – 9.

الفصل العشرون

وفاة سان فرناندو

عاد ابن الأحمر إلى غرناطة بعد استسلام إشبيلية «حزيناً أكثر مما هو راضٍ» بسبب الانتصارات التي حققها المسيحيون لأنه لم يتوقف عن التكهن بأنه عاجلاً أم آجلاً سوف يؤدي توسع هذه الانتصارات إلى إنتهاء الحكم الإسلامي في إسبانيا؛ ولكن ذلك لم يقلل من محبته وإعجابه بملك المسيحيين.

كرّس جهوده خلال الفترة القصيرة الخالية من الممارك إلى تشجيع الصناعات والتجارة في مملكته ومنح إعفاءات من الضرائب، وقدم جوائز إلى أفضل المزارعين ومرابي الخيول وصانعي الدروع والحائكين وصانعي عدة الخيل. وهكذا ازدهرت هذه الفنون في مملكته وتضاعفت خصوبة الأرض الخصبة بطبيعتها بفضل الاعتناء بالزراعة. وأولى عناية خاصة لرعاية تربية دودة القز وصناعة الحرير حتى برزت صناعة الأقمشة الحريرية المنتجة في غرناطة مثيلاتها في الشام⁽¹⁾.

وحسن عملية سك النقود واستثمر في مناجم الذهب والفضة ومعادن أخرى وباشربناء قصر الحمراء - لأن القلعة كانت موجودة منذ قرون - وأشرف بنفسه على الأعمال، وكان يرافقه بصورة متكررة المهندسين المعماريين ويتواجد بين العمال. كانت هوايته الرئيسية مطالعة كتب التاريخ والبستنة.

كان معظم، إن لم يكن كافة وزرائه وقضاة، وغيرهم من اليمانيين وكان من

(1) Conde, iii. 37 - 8; cf. Williams, Arts and Crafts, iii. 49, and Gudíol *Arqueologia sagrada*, 408 note.

بينهم شخص من سلالة بني أبي عامر حكم لمدة طويلة في المقاطعات الشرقية من الأندلس⁽¹⁾.

وهكذا كرس الأحمر أوقاته، مثل كافة الحكّام اليمانيين العظام الذين سبقوه، لتعزيز مملكته، وذلك من خلال تشجيع وتطوير الفنون والصناعات المعروفة في تلك الأوقات داخل حدود بلاده بدلاً من محاولة توسيعها من خلال الحروب المتواصلة مع جيرانه⁽²⁾.

أنشاء ذلك كان فرناندو منهمكاً في تأمين استقرار إشبيلية وإخضاع النواحي المجاورة لها. يقول كتاب الحوليات إنه احتل شريش ومدينة (صيدونيا)، والقلعة (لا بد أن تكون هذه قلعة بني سعيد، التي عُرفت بعد ذلك باسم لا ريال نظراً لأن قلعة النهر وقلعة جابر كانتا تحت سيطرته)، وبيخير Bejer، وپويرتو دي سانتا ماريّا (بوابة شنتمرية) وقادس، و«سالوكار دالپيشين»⁽³⁾ Salucar d'Alpechyn، وأركش، ولبريخا، وروطة، وطريشانة. «سيطر على كل شيء من البحر هنا، تارة من خلال القتال وتارة من خلال الصلح»، باستثناء لبله وحصن الفرج التي استسلمت لاحقاً. ثم «عندما لم يبقَ أمامه أعداء للتغلب عليهم في إسبانيا» صنع عدداً من السفن لتنفيذ حملة على المسلمين Morisma في أفريقيا. «خطط مسيحية وبارعة (...) حالت وفاته دون قيامه بها»، كما يقول ثونيغا⁽⁴⁾.

(1) Conde, iii. 38 – 9.

(2) انظر وصية الحكم إلى ابنه، ص 160 طبعة الأصل.

(3) قسم من سان لوكار (دي بازاميدا ربما). انظر the Repartimiento في كتاب إسبنوثا - Espi noza «تاريخ إشبيلية» (Historia de Sevilla, pt. II. Fol. 2.)، توجد ثلاث مدن تحمل اسم سان لوكار في جنوب غرب الأندلس: سان لوكار دي بازاميدا، وسان لوكار لا مايور في مقاطعة إشبيلية وسان لوكار دي وادي يانة في إقليم ولبة. والاسم هو تحريف لاسم سولوكار Solucar وهو حسب اعتقادنا غير معروف الأصل.

(4) Zúñiga, i. 85; Primera Crónica, 770 – 1.

بعض الأماكن المشار إليها، في حال كانت أخضعت على يد سان فرناندو، ثارت مجدداً بعد وقت قصير لأنه جاء ذكرها لاحقاً على أن ابنه ألفونسو احتلها. وردت تفاصيل وقائع ضم

حلت سنة 1252 تصحيحها استعدادات عظيمة لتنفيذ حملة بحرية، ولكن قضى على هذه الحملة في مهدها وعمّ القلق نظراً لآصابة سان فرناندو بمرض الاستسقاء الخطير، وبات واضحاً للجميع أنّ نهايته باتت قريبة. أو هنت قوته أنواء الحروب وحياته المتقشفة ولم يُجدِ تملق رجال بلاطه نحوه في إخفاء خطورة مرضه. كان هو نفسه مدركاً لوضعه الصحي ومستعداً للموت وقدم مثلاً يحتذى في الصبر والإذعان لمشيئة الله.

القناطر أو پويرتو دي سانتا ماريّا (لم تذكر في كتاب السجلات) باسهاب في كتاب الأناشيد *Cántigas* الذي كتب في عهد ذلك الملك دون أن يتم التلميح إلى أنها كانت محتلة في الأصل. «لدى عودته من حملة إلى أفريقيا ضد مسلمي سبلا، احتل ألفونسو «الميناء الإسلامي» القناطر، ولشدة ما أبهجه المنظر الطبيعي والهواء المنعش، أبقي سفينة راسية لبضعة أيام هناك. أثناء وجوده هناك جاءه قاض مسلم (a Moslem Alguazil) من شريش وأخبره بأن المسلمين كانوا منزعين من شخص تجاسر وغير الاسم إلى پويرتو دي سانتا ماريّا، وأن من المحتمل أن يفرض ذلك إلى اندلاع اضطرابات خطيرة. أمر الملك بتوقيع عقوبات شديدة على الذين تجرأوا على تغيير الاسم العربي ولكن بلا طائل، لم يكن ممكناً إقناع المسيحيين بتسمية الميناء بغير اسم پويرتو دي سانتا ماريّا. في نهاية الأمر يقول ألفونسو في الأنشودة المتعلقة بالحدث، إنّ ملكة السماوات أقنعت القاضي المسلم بالمجيء ثانية إلى ملك قشتالة ليسلمه طواعية ليس الميناء بالذات وحسب بل كل ذلك الساحل المطل على المحيط من أجل إحلال السلام (Cantiga, cxcvii). هناك مؤشرات منطقية تفيد بأن المسيحيين كانت لهم كنيسة صغيرة هنا من أيام القوط، حيث لا تزال أجزاء من أعمدة رومانية بُنيت عليها الكنيسة قائمة وفوقها بناء عربي في محراب كنسي مهتم تحت القلعة المبنية حولها في أوائل القرن الرابع عشر (انظر الصفحة 137 بطبعة الأصل). كما توجد صورة قديمة للمعذراء مريم في كنيسة الأبرشية وجدت خلال حرب الاسترداد فيما يعرف اليوم بالقلعة. وتزخر الأناشيد بقصص المعجائب التي صنعتها «عذراء پويرتو دي سانتا ماريّا». ومن المحتمل أنّ الاسم المسيحي للقناطر لم يُنس أبداً وأن رغبة أحفاد المسيحيين القوط في التخلص من نير الموحددين في شريش لمصلحة ألفونسو كانت السبب في الخنوع «المعجائبي» للقاضي المسلم. يبدو هذا أكثر احتمالاً لأنه واستناداً إلى الأنشودة المتعلقة بالحدث لم يكن يوجد في ذلك الوقت مسيحيون قشتاليون هناك، ما عدا الذين جازوا مع ألفونسو على متن سفنه.

[عبارة a Moslem Alguazil تعني «قاض مسلم» لأن Guazil (غازيل) التي أضيفت إليها ال التعريف مشتقة من العربية وتعني بالبرتغالية الوزير أو القاضي، واستخدمت في الإسبانية كذلك Alguacil الغايل بمعنى القاضي أو الحاكم في الماضي. (م).]

كتب وصيته وترك مالا وفيراً لكاتدرائية إشبيلية، وحُفظت الوثيقة في أرشيف الكاتدرائية لسنوات عديدة إلى أن طلب الملك فيليپ الثاني من الكاتدرائية ان تطلعه على الوصية بحجة أنه نسي محتوياتها وأخذها معه إلى مدريد من حيث لم تعد أبداً. ولم يستطع ثونيغا إخفاء مسخطه لدى وصفه لهذه السرقة رغم إجلاله الشديد للملك.

عندما شعر فرناندو بدنو أجله، رغب في تلقي المسحة الأخيرة من الكنيسة. وعندما اقترب منه مطران شقوبية مع قربان المناولة يرافقه كافة أعضاء البلاط رمى الملك نفسه من سريره أمام جميع الحاضرين وطلب من مساعديه ان يضعوا حبل مشنقة حول عنقه رمزاً للمجرم شعر بأنه مائل أمام ربه واستعد لقبول سرة المسحة الأخيرة. ابتداءً من تلك اللحظة تخلى الملك عن كل شارات ورموز جلالته. ثم طلب حضور زوجته وأولاده لتوديعهم. أعطاهم مستندات تزيد إرثهم، وأوصى ابنه الأكبر برعاية أشقائه الصغار وألقى عليه درساً حكيماً لو اتبعه لنجح بالفعل في أن يكون حكيماً حقاً⁽¹⁾.

«والآن وقد شعر باقتراب اللحظة الأخيرة طلب الشمعة الموقدة، رمز الإيمان، ثم طلب بتواضع من أولئك الحاضرين أن يسامحوه نيابة عن رعاياه، عن الأخطاء التي ارتكبها خلال فترة حكمه لهم. فأجهش الحاضرون بالبكاء». غاب الملك عن الوعي كما لو كانت النهاية ولكنه عاد وتكلم من جديد طالباً من الحاضرين إنشاد الترتيلة تي ديوم وعندما كانوا ينشدونها أسلم روحه الراضية إلى الله⁽²⁾ (3).

توفي الملك في 30 مايو في سن الرابعة والخمسين، في السنة الخامسة والثلاثين من حكمه، ويقول ثونيغا إن الناس طويوه على الفور، على طريقتهم، بالهتاف علامة الموافقة وأطلقوا عليه لقب القديس وخشعوا له⁽⁴⁾.

(1) هذا تلميح إلى اللقب الذي أطلق على ألفونسو «إل سايو» *El Sabio* أي الحكيم أو المتعلم.
(2) Zúñiga, i. 85 ~ 8;

(3) ترتيلة تي ديوم لاوداموس *Te Deum Laudamus* «نسبحك أيها الإله الأعظم». (م)
(4) في سرد أحداث المشهد الأخير الذي ورد في كتاب التجليات الذي وضعه ابنه، ذكر اسم فرناندو للمرة الأولى بالقديس سان فرناندو، بعد أن كان الكتاب يشير إليه دائماً بلقب «دون فرناندو» (أي السيد).

توفي سان فرناندو في قصر إشبيلية، ولكن ثونيغا يقول إن «من غير المعروف..
الغرفة التي توفي فيها والتي كانت ستكرس بعد وفاته ككنيسة أو أنها كانت إحدى
الغرف التي دمرها بद्रو الطاغية [بطرس الطاغية] عند بناء قصره الجديد». نأمل أن
نبيّن بأن الافتراض الأخير كان واهياً لا أساس له من الصّحة نظراً لأن قصر المُعتمد بن
عَبّاد لا يزال قائماً كما تركه، وتشير الروايات المقبولة تقليدياً إلى موقع الغرفة حيث
توفي فرناندو^(١).

كان دم الثور مانديس يجري في عروق سان فرناندو، وكانت والدته بيرنغاريا
Berengaria ابنة ألفونسو التاسع ملك قشتالة وإليانور ابنة الملك هنري الثاني ملك
إنكلترا. تزوجت الأميرة بيرنغاريا ألفونسو التاسع ملك ليون وبذلك توحدت هاتان
الدولتان تحت مُلك ابنها فرناندو الثالث.

لم يتم اكتشاف مكان ولادته حتى نهاية القرن الثامن عشر؛ فمع أنه كان من
المعروف أنه لم يولد في عاصمة مملكة والده ليون، لم يذكر أي واحد من المؤرخين
المبكرين مكان ولادته، ولكن محرّر النسخة الثانية لكتاب ثونيغا «*Anales*» المنشورة
عام 1795 يسرد القصة التالية حول هذا الموضوع:

في عام 1755 صادف أن مرّ دون ديهغو أليخاندرود دي غالفيث Don Diego
Alejandro de Galvez الذي كان يسافر عبر إسبانيا وفرنسا وألمانيا والبلاد الواطئة
بدير للرهبان البيض المتقشفين Cistercian قرب سمورة يعرف باسم دير قال پارايسو
Val - Paraiso (دير وادي الجنّة)، في عمق الغابة. وبعد القدّاس دعي دون ديهغو
لتناول طعام الفطور مع رئيس الدّير وأثناء تناول الفطور ذكر رئيس الدّير، عندما علم
بأنّ ضيفه إشبيلي ينتمي إلى كاتدرائية تلك المدينة، أنه مع أنّ إشبيلية لها المجد في أن
تحتضن رُفات سان فرناندو فإنّ لديره مجداً مماثلاً لأنّه بُني في المكان الذي ولد فيه

(١) يوجد في قاعة الفن في إشبيلية لوحة رسمها السنيور ماتوني Señor Mattoni عن وفاة سان
فرناندو استناداً إلى دراسة معمقة للإضاءة وللمباني تلك الحقبة. ويعطي الرّسم فكرة ملفتة عن
المشهد المؤثر الذي نقله ثونيغا وكتاب السجلات.

سان فرناندو. وانطلق ليؤكد بأن الدير بناء في الأصل «الإمبراطور» ألفونسو (السادس) قريباً من مكان يسمى بيلياس دي آريبا Peleas de Arriba وأن سان فرناندو، رغبة منه في إفادة الدير وترك نصب تذكاري في مكان ولادته، بنى الدير حيث هو في الوقت الحاضر في المكان الذي ولد فيه وأوقف له عقارات مختلفة بالإضافة إلى الملكية التي ورثها من مؤسس الدير.

أضاف رئيس الدير أن كافة المستندات المتعلقة بهذين الديرين توجد في أرشيف الدير، وأعرب السنيور غالفيث عن عميق أسفه من عدم توفر وقت كاف له للاطلاع عليها. وفي السنة التالية كتب تقريراً شاملاً عن اكتشافه، ونزولاً عند طلب أمين المكتبة الملكية لفرناندو السادس الذي ألح عليه في ذلك، اضطر لإرساله إلى مدريد. لم يُنشر التقرير، وفي عام 1795 قال إسبينو ثا إنه من المستحيل العثور على هذه المخطوطة⁽¹⁾.

ويضيف بأن الروايات المقبولة تقليدياً لطالما أكدت أن سان فرناندو ولد في غابة، ولكن نظراً لعدم التحقق مطلقاً من صحة ذلك خلال القرون الخمسة التي مرت على وفاة سان فرناندو، لم يكن السنيور غالفيث أبداً يتوقع أن يتيح له توقفه العرضي خلال رحلته الأوروبية تحقيق مثل هذا الاكتشاف.

إن الطريقة التي تسلمت مدريد بموجبها مستندات تاريخية ذات أهمية مثل تقرير غالفيث هذا ووصية سان فرناندو ومن ثم إضاعتها، فهي نموذج على الأساليب التي اتبعها المسؤولون الإسبان في اعتماد المركزية وجلب كل شيء إلى العاصمة ومن ثم عدم الاكتراث والإهمال اللذين يتتج عنهما خسارة أو تدمير ما تسلمته من المستندات.

والمستغرب كذلك عدم العثور على أي سرد مفصل لجنازة سان فرناندو. أما ثونيغا، الذي فحص كافة الحوليات الموجودة بشكل شامل للغاية، فيخبرنا فقط بأنه جرى دفن جثمان الملك في الأول من يونيو في الكنيسة الملكية الصغيرة التابعة لكاتدرائية إشبيلية، وأن نعشه وضع عند أقدام صورة السيدة العائدة للملك تنفيذاً

(1) Zúñiga, i. 91 note.

لرغبته. ونُقشت على الضريح الضخم عبارات باللغات العبرية والعربية والإسبانية واللاتينية⁽¹⁾.

ويقول ثونيغا إن جثمان سان فرناندو حُفظ بصورة عجائبية من التعفن. ولا شك أنه جرى تحنيطه، نظراً لأنه لا يزال إلى اليوم يحتفظ بمعالم بشرية.

صُنِع الرداء الذي لُف فيه جثمان الملك بأيدي صناع مسلمين. وكان عبارة عن معطف من الحرير المنسوج على شكل مرتعات حمراء وبيضاء على شكل رقعة شطرنج من الأسود والفلّاح⁽²⁾. وقسم من هذا القماش محفوظ في متحف الآثار في مدريد إلى حيث أرسل بأمر من الملك كارلوس الثاني عندما فتح التابوت خلال إعادة بناء الكنيسة الملكية الصغيرة. ألبست الجثة رداءاً جديداً في القرن السابع عشر ولا يزال هذا الرداء عليها، ووضعت في تابوت فضي حيث ترقد حتى يومنا الحاضر. اختفى خاتم سُحب من يد المتوفي كما اختفت وأتلفت في المتاحف الملكية في العاصمة ذخائر أخرى أرسلت مع أجزاء الرداء مثلها مثل العديد من الكنوز الفنية الأخرى. لكن قبل بضع سنوات أنقذت الذخيرة الثمينة للنسيج المصنوع في القرن الثالث عشر من التسيان عندما وجدها السنيور خستوسو Señor Gestoso، وهو كاتب معروف متخصص بالفن الإسباني، في رزمة مرمية كنفاية في زاوية مظلمة. بددت الكتابة التي وجدت على غلاف الرزمة كل شك بأن هذه القطعة هي كل ما تبقى من المعطف الذي كان سان فرناندو يشتمل به عندما دُفن.

لم يدفن سان فرناندو فحسب في عباءة حريرية من صنع إسلامي، بل كان في حياته يرتدي بين الحين والآخر لباساً مسلماً. وجد السنيور خستوسو خلال جمعه المواد لكتابة رسالته حول فنون صناعة النسيج المسيحية في إشبيلية الزاوية القديمة لأخوية عُرفت باسم أخوية الخياطين *Sastres* تزعم بأن سان فرناندو هو الذي أتمسها، وأنها

(1) Zúñiga, i. 140.

(2) أعطى الملك ألفونسو العاشر مراراً أوصافاً للعباءات المصنوعة وفق هذا النمط في كتاب الأناشيد كما في كتاب «تاريخ لعبة الشطرنج» *History of Chess*.

تملك راية قَدَمها لها الملك نفسه. وجد السنيور خستوسو البقايا الممزقة من راية هذه الأخوية في القرن السادس عشر في «درج الخرق» في غرفة ملابس الكهنة في كنيسة سان ألدِفونسو، بين الملابس القديمة التي تم التخلّص منها من جيل إلى جيل. ووجد تحت رسم مطرّز للملك كارلوس الخامس وسط الرّاية صورة مطرزة أخرى لسان فرناندو. فحصدنا هذه الرّاية بدقة كبيرة عبر الغطاء الزجاجي الذي يحميها ولم يعد لدينا أيّ شك بأن الصورة التي غطتها في القرن السادس عشر الصورة التي تمثل الملك كارلوس الخامس هي الصورة الأصلية للملك سان فرناندو. يضع الملك في هذا الرّسم على رأسه عمامة إسلاميّة ويرتدي عباءة مدلّاة، ولكن قسّات الوجه بالية تماماً باستثناء لحيته المستدقة⁽¹⁾.

كانت الأخوية تُدعى في الأصل سان ماتيو دي لوس مينيسترالس (الحرفيين) دي سيفيّا، وتقول الروايات المتناقلة إنّ سان فرناندو منح هذه الأخوية شرف عضويته وقَدّم لها صورته. وإخلاصاً للذكرى علاقة الملك بها، احتفظت الأخوية طوال وجودها بشرف حراسة جثمان الملك لدى عرضه أمام الناس. كان حقها الثّابت واضحاً لدرجة أنه عندما حاولت أخويات أخرى أكثر ثراءً ونفوذاً إزاحة الخياطين والاستحواذ لنفسها على شرف حراسة التعش، رفعت أخوية الخياطين قضيتها أمام السلطات الكنسية وريحتها بموجب الوثائق التي تملكها والتي تُثبت أصل ادّعائها⁽²⁾.

يُفترض إذن أنّ الأخوية حرست التعش منذ البداية، وإذا كان الأمر كذلك فلا بدّ أنّ أعضاءها وقفوا جنباً إلى جنب مع مسلمي غرناطة الذين جاؤوا للإعراب عن إجلالهم للملك المتوفى لإسبانيا المسيحية.

أعلن ابن الأحمر حال تلقيه نبأ وفاة فرناندو الحداد العام في أنحاء مملكته، وبعث

(1) Gestoso, *Noticia historico – descriptiva de la bandera de la hermandad de los sastres*, Seville, 1891.

خستوسو، وصف تاريخي لراية أخوية الخياطين، إشبيلية، 1891.

(2) كتاب خستوسو السابق الذّكر، وZúñiga, i, 145.

برسل للتعبير عن حزنه إلى الملك ألفونسو مع رسائل يقترح فيها تجديد عهود الصلح والحلف المعقودة مع الملك الراحل والده وفق الشروط نفسها. «فوافق الملك ألفونسو على الاقتراح وشكر ابن الأحمر على مجاملته»⁽¹⁾.

قام ابن الأحمر بأكثر من التعبير عن إعجابه مما توحى به هذه الفقرة الصغيرة، لأننا نجد أنه بعد انقضاء ثماني سنوات كان ابن الأحمر لا يزال يرسل ممثلين عنه لتكريم صديقه الراحل في ذكرى وفاته.

في 30 مايو 1260، كان الملك ألفونسو في إشبيلية لحضور حفل تأبين في ذكرى وفاة والده سان فرناندو، ونظراً لإعلان قدامته، كان الاحتفال يقوم على تمجيد ذكراه أكثر منه احتفالاً تأبينياً بالصلاة لراحة نفسه... استمرت الاحتفالات بقداسته طوال النهار وامتدت إلى المساء حيث لم يفتح أي متجر أبوابه وتوقف الصنّاع والحرفيون عن العمل. أقيمت في الكاتدرائية منصة رائعة وُضع عليها التابوت. وحضرت وفود من مدن *comarca* المقاطعة حاملة راياتها بحيث بدأ حضور القُدّاس زيارة تبرُّك أكثر منه جنازة. حتى أنّ بعض الوفود جلبت معها شموعاً ضخمة ظلت مشتعلة طوال اليوم. وأرسل ابن الأحمر، ملك غرناطة، الذي ربطته صداقة حميمة بالملك القُدّيس عدداً من الأشراف المسلمين ومئة من العسكر الرّاجلين حاملين عدداً كبيراً من الشموع البيضاء وضعوها حول النار المشتعلة تكريماً لذكرى الملك الراحل.

يقول ثونيغا: «شهدت تلك الأيام أعظم الحشود وأجمل احتفالات الفرح التي عرفتها إشبيلية. احتفل فرسان إشبيلية بعرض مواكب عسكرية، والشعب بالرقصات والجميع يهتفون فرحين قديس! قديس! (Santo!) هو الذي أتى بفضل التقوى والعبادة بالمعجزات التي تلاشت تفاصيلها بمرور الوقت، ولكن المؤكد أن معجزات حصلت بالفعل»⁽²⁾.

عندما نتذكر أنّ معظم سكان إشبيلية كانوا لا يزالون من المسلمين في ذلك

(1) Conde, iii, 39; *Primera Crónica*, 774.

(2) Zúñiga, i, 233.

الوقت⁽¹⁾ في حين لم يكن في المدن المجاورة أي من سكان قشتالة على الإطلاق فيما عدا الجيوش التي كانت في خدمة الثري التيل (ريكو أوميه) الحاكم عليها، نجد أن هذا الوصف للاحتفالات العامة التي جرت في ذكرى وفاة الملك المسيحي الذي غزا البلاد يقدم صورة بليغة للأوضاع السياسية السائدة في ذلك الوقت. فبدلاً من اعتبار الملك الذي طرد الحكام الموحدين عدواً، أجله مسلمو إشبيلية وخشعوا لذكراه كقدّيس.

لو لم يصلنا سوى ما كتبه المؤرخون المسيحيون حول مشاعر حلفائه وأتباعه المسلمين، لكان بإمكاننا أن نعزو بعضاً من الحب الذي شاع بين الناس لسان فرناندو إلى المبالغة الطَّبِيعِيَّة للكاتب الوريثين. ولكن في كل مرة ورد ذكره لدى الكاتب العرب فيما أشار إليه كونه يؤكد الوقائع كما أوردتها الكتاب المسيحيون. ويستحيل النظر بعين من الشك إلى واقع أن السكان الذين انتصر عليهم سان فرناندو هم الذين طُوبوه قديساً بفضل المعاملة المنصفة والكرامة التي عامل بها أتباع دين مختلف عن دينه استسلموا دون إراقة دماء من خلال وساطة ابن الأحمر. كان هؤلاء، مع بعض الاستثناءات، كامل سكان ما يُعرف الآن بمقاطعة إشبيلية وجزءاً من قádiz، وهم أحفاد اليمانيين والقوط المسيحيين الذين اعترفوا طوال أجيال عديدة بسلطة ذرية غيطشة.

حتى تاريخ وفاة سان فرناندو، كانت كل المناطق التي حكمتها تبعاً الأميرة سارة وذريتها من سلالة بني حجاج وبني قومهم من بني عبّاد ملوك إشبيلية، قد رضيت بحكم أول ملك مسيحي يحكم إشبيلية منذ وفاة غيطشة. كانت المدن الوحيدة المهمة التي لا تزال غير خاضعة له هي شريش ولبله وتبخادا التي كان لا يزال الموحّدون يسيطرون عليها. ترك سان فرناندو أرض إشبيلية في سلام وازدهار؛ فلا عجب إذا متجد هؤلاء الفلاحون والعمال اسم الملك المسيحي الذي حرّرهم من ظلم طغاتهم

(1) تذكر وثيقة منحة مالية قُدمت إلى الكاتدرائية عام 1263 العبارات التالية: لأننا وجدنا أن المدينة التيلية إشبيلية أصبحت خالية تقريباً من السكان وباتت مبانيها متهالكة وهُدم العديد من منازلها بسبب أخطاء هؤلاء (المسيحيين) الذين أعطيت لهم وبسبب الرجال الذين تركوا هذه المنازل خاوية ودونما عناية». (Zúñiga, i, 260.)

المؤرخين، بعد أن أمضوا سنوات عديدة خاضعين لمسلمي أفريقيا، أعداؤهم في الدين والانتماء القبلي.

انقضت ستة قرون وتيف منذ أن لحق سان فرناندو بأجداده، ولكن في كل سنة يُفتح النعش الفضي الذي يحوي رُفاته وتزاح جانباً الستائر المطرزة بخيوط الذهب ويُعرض وجه قديسهم على شعبه كما عرض عليهم في ذكرى وفاته في كل سنة منذ أن مات.

ومع أن المملكة التي أقامها ابن الأحمر دُمُرت وتجرّع رعاياه الاضطهاد والتقي من البلاد قبل قرون عديدة ولم يعد هناك حراس شرف مسلمون على النعش، فالغريب أن غرناطة ما زالت ممثلة في الاحتفال من خلال فرقة المشاة التي تحمل اسمها وتحظى بشرف الحراسة في الكنيسة الملكية الصغيرة عندما يُفتح النعش ليمرّ أمامه الناس وينظروا إلى رُفات سان فرناندو. ومخافة أن يطوي النسيان علاقتهم بسقوط الإسلام في إسبانيا، يجري الاحتفال بذكرى احتلال غرناطة من خلال القفازات التي يرتديها العسكر، وهي خضراء بلون راية الرسول.

ولكن احتفالات مهرجان سان فرناندو المستمرة منذ ثلاثين جيلاً لا تتمحور حول الانتصار على إشبيلية ولا هزيمة «الكفار»؛ بل هو السلام الذي منح للفقراء والمحتاجين والعدالة غير المنحازة التي جعلت السلام ممكناً، الذي يعاد استذكاره في شعائر الصلاة في مزار القديس المحارب «الأكثر إخلاصاً والأجود كرماءً، هو الذي ما كان يخشى غير الله وإليه كرس ابتهالاته»، هو الذي أدخل الناس في ملكوت الله لا بالقوة وإنما بالقدوة الصالحة.



الفصل الحادي والعشرون

الإسلام تحت حكم المسيحيين

إن أكثر ما يميّز السياسة التي اتّبعها فرناندو بعد استسلام إشبيلية كانت إصراره على عدم ممارسة أيّ تمييز بين أتباع الديانتين. بالإضافة إلى ابن الأحمر ملك غرناطة الذي شكّلت قواته جزءاً من جيش فرناندو، كان ملوك مرسية وبياسة وبلنسية تابعين أو حلفاء له، ويبدو أنهم شاركوا في حصار إشبيلية⁽¹⁾ وورد اسم ابن الأحمر قبل اسم أيّ من الفرسان المسيحيين في سجل المكرمين لقاء خدماته؛ ومنذ تلك اللحظة حتى وفاة سان فرناندو بعد أربع سنوات يبدو أنّ الملك سعى بكل جهد للحكم بالعدل بين أتباعه الجدد، ليس كمكافأة للخدمات التي قدّموها في الميدان فحسب بل في كافة التفاصيل المشتركة للحياة اليومية.

منح سان فرناندو الملك ابن الأحمر رتبة فارس يوم دخوله إلى إشبيلية، ويقول

(1) تنصّر ملك بلنسية سيد أبو زيد (يدعوه ثونيغا: Seit Abuceit) وهو من بني حفص (see Gayangos in Makkari, ii. 528) فيما بعد واتخذ اسم فيسّته فليس Vicente Velbis وعُرف في التاريخ الإسباني على صلة بالظهور المعجاني للصليب الذي يُكرّم في كاراباكا. إنه صليب مزدوج بأربعة أذرع تسنده ملائكة مجنحة، ويشتهر حتى يومنا الحاضر بتحقيق تأثير عجائبي على الأمراض التي تصيب الماشية. تنصّر ملك بياسة بدوره واتخذ اسم فرناندو عبد المون Fernando Abdelmon ودفن جثمانه في كاتدرائية إشبيلية (Zúñiga, i. 50). يقول مؤلف كتاب «مذكرات حياة فرناندو الثالث» *Moemorias para la vida de Fernando III* الذي يشير إلى مرسوم بابوي صدر تأكيداً لذلك أنّ كلّاً من زيد بن زيد Zeyt Abenzeit وولده تلقيا المعمودية وأعلنا انتماءهما إلى سلك فرسان سانتياغو الذين منحهم الابن كافة أراضي مملكة سِلا التابعة له في أفريقيا التي بموجب حقّه في الخلافة (صفحة 562).

ثونيغا في هذا السياق إنّ الملك منحه شعاراً «وشاحاً بلون التّبالّة الأحمر وعلى أطرافه رؤوس تنانين أو رؤوس أفاع، مكافأة له على ولائه وخدماته». ينبثق الوشاح من أفواه تنانين أو أفاع، وتجدر الملاحظة هنا أنه في ترجمة إسبانية لماريانا (ii. 625) إشارة إلى رسم على الخشب يمثل سيفاً ضمن مستودع الأسلحة الملكي في مدريد يقال إنه كان مُلكاً لآخر ملوك بني نصر في غرناطة. ويتكوّن مقبض السيف من رأس تنين بلسانين متدلّين إلى الخارج⁽¹⁾.

يؤكد كوندّه الوصف الذي أعطاه ثونيغا لشعار التّبالّة الذي منحه الملك فرناندو إلى ابن الأحمر، لكن دون أن يذكر أن فرناندو منحه رتبة فارس كما هو متوقع فيما نقله عن كاتب عربي. يقول الكاتب:

«اتخذ (ابن الأحمر) شعار التّبالّة المكوّن من وشاح فضي مائل بلون أزرق كُتب عليه بأحرف ذهبية «لا غالب إلا الله» نظراً لأنّ رعيّة ابن الأحمر كانوا يحيونه بلقب «الغالب»، فكان يرد عليهم بقوله: «لا غالب إلاّ الله». وكان طرفا الوشاح يخرجان من أفواه تنانين. استعمل خلفاء ابن الأحمر هذا الشعار دائماً رغم أنهم غيروا ألوان الدّرع الذي كان في العادة أحمر أو أزرق أو أخضر، كما غيروا ألوان الوشاح، ولكن كافة التّغييرات حملت شعار ابن الأحمر»⁽²⁾.

لا شك في أنّ غالبية السّكان كانوا من المسلمين، أو على الأقل الطّبقة العاملة من بينهم، باستثناء المحاربين، وكبار أثرياء التّبالّة، والتّبالّة، والكنهه وأعضاء الأخويات والزّهانيات الدّينية الذين وُهبوا المنازل والأراضي التي بقيت خاوية بعد أن هجر أهلها غرناطة وشرش وغیرها من المدن، أو تلك التي تركها الموحّدون الذين رحلوا إلى أفريقيا. صحيح أنّ كتاب الحوليات يتحدّث عن أعداد أتباع المعسكرات، من التّجار وغيرهم ممّن كانوا موجودين مع الجيش المحاصر (راجع الصّفحة 328 طبعة الأصل)؛ لكن من الواضح أنّه لا يمكن لهؤلاء الذين كانوا يقومون على خدمة الجيش

(1) Zúñiga, i. 49 – 50; cf. Williams, *Arts and Crafts*, i. 230.

(2) Conde, iii. 38.

الذي لم يكن جيشاً جرّاراً بأيّ حال، أن يسهموا في إعمار وملء مدينة كبيرة، عدا عن الضواحي والسهول المزروعة بكثافة والمناطق الريفية المحيطة بها.

فكّر الملك في أوائل الخمسينيات من القرن الثالث عشر بالذهاب إلى قشتالة، ولكن ابنه وبعض أفراد حاشيته يبتوا له مخاطر مغادرة المدينة. ويبدو أن سان فرناندو لم يكن يرغب في التخلّي عن خطته ولكنه اقتنع في نهاية الأمر، حسب ما يؤكد ثونيغا، بتأثير من مهرج الملك. كان هذا المهرج، الذي عُرف باسم پاخا Paja (قشة) كتوماً ولكنه كان مرحاً بحيث كان الملك يُسرّ ويستأنسه بحديثه. وبينما كان سان فرناندو لا يزال متردداً حول السير إلى قشتالة، دعاه المهرج پاخا إلى حفلة سمر على قمة البرج (الخيرالدا). قبل سان فرناندو الدعوة وعندما وصلا إلى أعلى البرج أخبره المهرج أن الحفلة التي أراد أن يقدمها له كانت المنظر الرائع للمدينة التي احتلها الملك، والأسوار المهيبة المزينة برايات الأثرياء النبلاء المكلفين حراستها. ولكنه يّتن أيضاً للملك الجزء الكبير من الأحياء التي مُنحت إلى المسيحيين التي كانت خالية من السكان، وأشار إلى مدى اكتظاظ الأحياء التي يقطنها المسلمون. أكد المهرج انه في الموقعين كليهما تظل المخاطر التي لا يمكن تجنبها ماثلة في حال قرّر الملك مغادرة المدينة، كما يظل أيضاً قائماً حتى خطر خسارة المدينة مجدداً. استمع فرناندو إلى أقوال مهرجه ووافق. وأنهى ثونيغا روايته بالقول: «هذا ما ينبغي أن يكون عليه مهرجو الأمراء في كل زمن»⁽¹⁾.

تكمن أهمية القصة في أنها أشارت إلى العدد الضئيل من السكان المسيحيين بعد انقضاء سنة على استسلام إشبيلية، كما أنها أظهرت كم كانت حصيفة سياسة فرناندو في عدم التمييز ضد أتباعه من المسلمين أو وضع عراقل في وجههم.

في عام 1250، منح فرناندو إلى مدينة إشبيلية الامتيازات *Fueros* المعطاة لطليلة، ولكن في حين أن الامتيازات مُنحت في طليلة إلى «المستعربين والقشتاليين والرجال الأحرار *Francos*، مُنحت الامتيازات في إشبيلية إلى «كافة السكان» *Todos los*

(1) Zúñiga, i. 61.

vecinos. وكما يقول ثونيغا. «منحت المكّمة إلى كافة سكان إشبيلية من الأشراف والمواطنين والتّجار والبّحارة والعمّال بصورة مشتركة، كل الحقوق والإعفاءات والاستثناءات والسّلطات التي تتمتع بها طليطلة، دون أيّ تحفّظ من أيّ نوع وبإضافة امتيازات أخرى». شجّعت المكّمة تربية الخيل وأعطت امتيازات مهمّة إلى «من تربطهم علاقة بالبحر» الذين أعفوا من الخدمة العسكرية مقابل الانخراط في الخدمة البحرية، والذين تُخصّصت لهم محاكم خاصة وصدرت من أجلهم قوانين خاصة⁽¹⁾.

لم يحسن سان فرناندو وابنه معاملة المسلمين فحسب، بل عاملا اليهود بالمثل. فاستمرّ هؤلاء في العيش في الحي اليهودي الكبير الذي سكنوه في السّابق وأعطيت

(1) (Zúñiga, i. 62 - 7) توجد مجموعة كاملة من القوانين التي صدرت منذ عهد الملك هنري الثالث حتى بداية القرن التاسع عشر، والتي هدفت إلى تشجيع وتنظيم مهنة استيلاء وتأسيس الخيل (No-*vicimo Recopilacion*, Bk. Tit. 29). تملك الدّولة في اليوم الحاضر عدّة مزارع لخيول الاستيلاء وتحتفظ بمجموعة من الخبراء والمساعدين لرعاية هذه الخيول. وتم تطوير نظام مزرعة استيلاء الخيول في إسبانيا المسلمة في وقت مبكر من القرن التاسع. وخلال حكم الحكم الأول (822 - 852) كانت توجد مزرعة كبيرة للخيول ومدرسة لتدريب الفرسان على ضفاف نهر الوادي الكبير في قرطبة يملكها الأمير. «وكان له ألفا فرس مرتبطة على شاطئ النهر بإزاء القصر تجمعها داران على رأس كل دار عشرة عرفاء تحت يد كل عريف مئة فرس. فالعرفاء يشرفون عليها وتعلق بين أيديهم وينظرون في تعويض ما تعذّر منها لتكون معدّة قائمة لما عسى أن يفجأ من أمر يفرع إليه بها. فإذا كانت كانوا كنفس واحدة. لكن كان يسمح لمدرّب واحد فقط في الحضور أمام الأمير عند دعوته له. وفي إحدى المرات أتاه الخبر بحصول ثورة في جيان «فدعا بأحد أولئك العرفاء، فلما مثل بين يديه أسر إليه بالخروج إلى جيان إلى ابن لييد من وقته في عرفته، وأمره بالآ يعرف أحداً وجه طريقه (...) فلما مضت ساعة دعا بثان من عرفائه، فسّر إليه بمثله، ودعا عشرة فخرجوا متابعين لا يعلم أحد منهم بقصد صاحبه حتى تساقطوا على ابن لييد في اليوم الثاني...» (الاقنباس العربي من أخبار مجموعة، 117 - 118) (*Akhbar Majmua*, 116 - 7, and note). كما لم يكن أمر استيلاء وتربية الخيول محصوراً بالسّلطان وحده، فقد ذكر ابن حيان في تاريخه للحرب الأهلية التي استمرّت طوال فترة حكم الأمير عبد الله أنه في عام 889 قام قائد يمني كان قد بنى لنفسه قلعة قوية في مقاطعة إشبيلية غير بعيدة عن لبريخا بغزو جزيرة مجاورة (تقع لبريخا قريباً من نهر الوادي الكبير) التي كان المنذر، عم السّلطان يحتفظ فيها بمزرعة لاستيلاء الخيول، وبعد أن قتل عريف المزرعة نقل كافة الجياد والأفراس التي عثر عليها إلى قلعة قوية أخرى تبعد عشرة أميال عن إشبيلية (Makkari, ii.). (449).

لهم ثلاثة مساجد لتحويلها إلى معابد لهم (كُتُس). واستمروا في دفع الجزية التي كانوا يقدمونها إلى الملوك المسلمين، وكانوا يلقون معاملة جيدة من قبل أمناء الخزينة والمحاسبين اليهود، خدام الملك الذين رافقوه من قشتالة، «واستقروا في هذه المدينة لكونها الميناء العام للكون والسوق الأمثل لتجارتهم». سمح مرسوم ملكي آخر لسكان إشبيلية بشراء عقارات من المسلمين ولكنه منع القيام بأيّة محاولات لإجبارهم على البيع حيث بدأت تظهر دلائل تشير إلى مثل هذه الممارسات⁽¹⁾.

تتكرر الإشارة في مختلف مستندات المنح والامتيازات إلى ضريبة تسمى «الموشاريثاغو»⁽²⁾ *Almojarifazgo* التي كانت ضريبة استيراد وتصدير تفرض على السلع، وكان المسلمون في الأندلس فرضوها على السكان وأبقاها سان فرناندو سارية المفعول كما وجدها⁽³⁾. خصّص فرناندو للكاتدرائية عُشر إجمالي تلك الضريبة التي تُجمع من إشبيلية وحولها ألفونسو فيما بعد إلى دفعة سنوية بقيمة 5300 دينار مرابطي⁽⁴⁾. تطوّرت ضريبة الموشاريثاغو فيما بعد إلى رسوم جمركية. وكتب على أول دار للجمارك بنيت في إشبيلية عام 1587 نقش يقول: بنت إشبيلية دار الجمارك هذه لخدمة جلالتة بعد أن تولّت جمع ضرائب الموشاريثاغوس⁽⁵⁾.

في مقدّمة كتابه «ريپارتيمنتو» *Repartimiento* (سجلّ المنح والهبات من المنازل والأراضي التي منحها فرناندو وابنه بعد احتلال إشبيلية) يعلّق أرغوت دي مولينا Argote de Molina على قيمة السجلّ لكونه يحتوي «بيانات عن جميع الأمراء أبناء الملك، والأسياذ العظام، الكونتات، الأثرياء النبلاء، والسادة، ونبلاء *hijosdalgo* كافة ممالك قشتالة وليون والفرسان *caballeros* الفرنسيين، وفرسان أراغون، ونافارو، والبرتغال، وإيطاليا والفرسان المسلمين الذين كانوا موجودين

(1) Zúñiga, i. 194 – 6, 208.

(2) الكلمة عربية الأصل نسبة إلى المُشرف *Almojarife* على جباية الضريبة. (م)

(3) *Dict. Of the Academy*, s. /v.

(4) Zúñiga, i. 349 – 50.

(5) Zúñiga, iv. 120.

وقت احتلال إشبيلية، وأسماء المستوطنين والمنح المقدمة إليهم» وإلى آخره. يخبرنا ثونيغا أن هؤلاء الفرسان المسلمين الذين مُنحوا أملاكاً في إشبيلية كان قسم منهم أولئك الذين ظلّوا في المدينة، والقسم الآخر الذين كانوا يعيشون مع ملك غرناطة وسكنوا في الحيّ المعروف باسم أدواريوخو Aduarejo وموريريا Moreria حيث بقوا فيه حتى تمّ طردهم» (في القرن السابع عشر)⁽¹⁾.

مُنح ابن ملك بيتاسة (انظر أعلاه) منزلاً في أبرشية سانتياغو. وبعد سقوط لبلة عام 1257 حصل حاكم تلك الدولة الصغيرة (انظر الصفحة 310 طبعة الأصل) على مزرعة أو ضيعة في الرّيف (alqueria) سمّيت الغريبي Algarbejo تيمناً بممتلكاته السابقة في الغرب، وبستان huerta ابن الحفار⁽²⁾ Ben Alhoar الواقع قرب إشبيلية الذي أطلق عليه اسم بستان الملك سوية مع حقوق محدّدة في ضريبة الزيت من الشّرف وفي الجزية التي يدفعها اليهود⁽³⁾. وأصبحت هذه الأرض التي تقع مباشرة خارج خط أسوار المدينة القديمة جزءاً من أراضي قصر إشبيلية، ولا زالت تعرف باسم بستان الملك (أويرتا ديل ري huerta del rey).

حصل ملك غرناطة على ما يبدو على أحد أجمل منازل إشبيلية، لأننا نقرأ بأنه في حوالي عام 1251 أرسل سفير من المغرب لتهنئة فرناندو بانتصاراته، ويُغية تكريم السفير أقامه ضيفاً على ملك غرناطة الذي كان في إشبيلية في ذلك الوقت⁽⁴⁾. لا يذكر كوندّه هذا

(1) Zúñiga, i. 195.

لا توجد كلمة «أدواريوخو» في قاموس الأكاديمية Dictionary of the Academy، ولكن كلمة «Aduar» المشتقة من الكلمة العربية «الدّوّار» التي تعني مخيماً أو رفعة يخيم فيها البدو. فهل كان الأفارقة أو الموحّدون يطلقون تسمية البدو على اليمانيين؟ التمييز في الاسم يثير الفضول. قلت: هذا تعميم غير مبرّر من ويشو، فالدّوّار لا يختصّ بديرية أو مضارب البدو وحدهم، بل يمكن أن يعني منطقة مأهولة في ريف يتبع لمدينة. (أحمد)

(2) ورد في هذه الصفحة أن الاسم هو Ben Alhoar ثم يعود المؤلفان إليه لاحقاً ويرد باسم Ben Alhofar، والاسم الثاني هو الأصح والأقرب إليه ابن الحفار وهو من الأسماء الواردة لدى المقرئ بوصفه خطيباً من أصل يمني (ج 2، 694). (م)

(3) Zúñiga, i. 182, 222; Conde, iii. 42.

(4) Zúñiga, i. 85.

السفير ولا استضافة السفير من قبل ابن الأحمر ولكن المقرّي⁽¹⁾ يقول إنّ ابن الأحمر كان طوال حياته تربطه علاقات صداقة وعلى اتصال دائم مع بني مرّين الذين بعثوا الرسول للتهنئة. نفترض قصة ثونيغا المرتبكة أنّ السفير كان من الموحّدين، ولكن هل يُعقل أن يهني الموحّدون فرناندو على انتصاراته بعد أن طردهم من آخر أملاكهم الإسبانية؟

في ملخص سجل *"Repartimiento"* المنشور في كتاب ثونيغا⁽²⁾ وردت بعض الأسماء التي يبدو أنها من أصل عربي مثل Alarcon: الأركن، Aznar، Tafur، Torcat، Venavet: ابن عباد؟ والذي يفترض ثونيغا أنه كان واحداً من «أشهر الرجال العشرة» الذين جرى تعيينهم كقضاة وتكليفهم مهاماً محدّدة. ولا شك أنّ البحث المعمّق في كامل السجل قد يكشف عن المزيد من هذه الأسماء. ثونيغا يذكر فقط أصحاب الشأن والمكانة الرّفيعّة. ويذكر سجل *"Repartimiento"* أسماء أشخاص أدنى منزلة يحملون أسماء عربية مُنحوا قطعاً أصغر مساحة من الأراضي⁽³⁾.

توجد ملاحظة مثيرة للاهتمام لدى ثونيغا حول استعمال كلمة «تابع» في ذلك الوقت. والأثرياء التّلاء الذين كانوا يدفعون الأجر إلى رجال الحرس التّلاء *Infanzones* أطلقوا على هؤلاء اسم «تابعين» واعتبروا أنهم تابعون لقوّاتهم الخاصّة أو فريق حراستهم «المساندة» *mesnada* وأطلق أيضاً على أفراد مساندة الملك لقب تابعي الملك⁽⁴⁾. كان رجال الحرس التّلاء طبقة من التّلاء *Hijosdalgo* الذين يتمتعون بسلطات محدودة في مناطقهم. يفسّر ذلك واقع أنه على الأقل في حالة واحدة (في عام 1255) شهد فيكونتا بيارن وليموج على منحة وهبها ألفونسو بوصفهما «تابعي الملك»⁽⁵⁾.

(1) Zúñiga, ii. 344.

(2) Zúñiga, 162 – 88.

(3) Rspinoza, Pt. II. Fo. 14 r.

(4) i. 180.

(5) *Memoirias para la vida de Fernando III.*, P. 397.

يعطي ثونيغا تفاصيل وثيقة منحة أخرى شهد عليها هذان النبيلان ولكن ليس بصفتها تابعين⁽¹⁾. ونظراً لأنه تم توقيع هذه الوثيقة قبل أن يصبح ألفونسو إمبراطوراً، لم يوقعها بالتأكيد عليها كتابعين للإمبراطورية (في حال كانت منحة النبالة إمبراطورية) كما لم يكن هذان الفيكونتان الاثنان خاضعين أو تابعين وفق المفهوم الاعتيادي للكلمة. فالافتراض إذن هو أنهما شكلاً جزءاً من حرس الشرف التابع للإمبراطور. وملوك غرناطة ولبله وبيتاسة المسلمون الثلاثة الذين غالباً ما نجد توقيعاتهم كشهود على الوثائق الموقعة من قبل الملك ألفونسو، كانوا بلا شك تابعين له وفق المفهوم الاعتيادي للكلمة مع أن من المحتمل أنهم كانوا جزءاً من حرس الشرف أيضاً.

كان الإمداد الوفير للمياه، للرّي كما للاستعمال المنزلي، مسألة تحتل الأولوية بالنسبة للمسلمين كما نعلم. ولقد قدّر فرناندو الثالث وألفونسو العاشر وسانچو الرابع ملوك قشتالة الثلاثة الأوائل الذين حكموا إشبيلية فضيلة النظافة بطريقة لم يفعلها بعض خلفائهم، واتخذوا جميعاً إجراءات للمحافظة على إمداد المياه.

تلقّى مجلس مقاطعة إشبيلية منحة دائمة في ملكية المطاحن المقامة على نهر الرّحى مع كافة مبانيها، وحقوقها ومرافقها مقابل تزويد المياه من القناة الاصطناعية المعروفة باسم كانيوس *Caños* إلى «قصور الملك في قصر إشبيلية»، وبستان ابن الحفار *Huerta de Ben Alhofar* وإلى بركي مياه في إشبيلية. كان على مجلس مقاطعة إشبيلية أن يحافظ ويصون أقنية المياه وقساطل المدينة وكاتدرائية سانتا ماريّا وكذلك قساطل المياه المؤدية إلى قصر إشبيلية. وبالإضافة إلى ملكية المطاحن، التي كانت ذات قيمة عظيمة، استلم المجلس ألف دينار مرابطي سنوياً مقابل القيام بهذه المهمات⁽²⁾.

كان يتم جرّ المياه إلى إشبيلية من قلعة جابر عبر قناة اصطناعية رومانية لتزويد معظم المنازل الكبيرة القديمة في إشبيلية إما عبر منحة أصيلة من التاج أو عبر شرائها

(1) Zúñiga, i. 202.

(2) Zúñiga, i. 358 – 9.

لاحقاً، وهي باتت تُشكّل اليوم جزءاً من الملكية المطلقة للعقار. وهكذا جعلت حقوق المياه هذه، القديمة وشديدة التعقيد، من الصّعب بمكان على المجلس الإشراف على إمدادات المياه كاملة من قناة «كانيوس» لاستعمالها في المدينة كما كان يتم اقتراحه تكراراً بهدف جعل إمداد المياه إلى إشبيلية كافياً لسدّ الاحتياجات الزّاهنة.

لم يتفد المجلس، بقدر ما تتيح المعلومات المتوفرة المجال للحكم، في أيّ وقت من الأوقات المهمّات المطلوبة منه بموجب الاتفاق القاضي بإبقاء شبكة الأنابيب في حالة صالحة للاستعمال. والأنابيب الرّصاصية والفخارية التي تنقل الماء عبر المدينة تضرّرت إلى درجة كبيرة بسبب تراكم التّرسّبات على مدى قرون، فضاقت قطرها إلى نصف أو حتى ربع حجمه الأصلي. كما كانت توجد نقاط تسرّب عديدة على طول قناة جرّ الماء بالإضافة إلى ثقب كبير فيها بالقرب من إشبيلية تسرّب منه يومياً آلاف الغالونات التي تذهب هدرأ منذ مدّة لا يمكن لأيّ كان تحديدها. ونتيجة لهذا الإهمال الدائم تعاني إشبيلية من نقص المياه في الوقت الزّاهن على الرّغم من الإمداد اللاحق الذي أمّنته شركة المياه الإنكليزية. وللمقارنة كانت قناة جرّ المياه خلال العهود الإسلاميّة كافية لتلبية ليس الاحتياجات المنزلية لمدينة مكتظة بالسّكان فحسب، بل وأيضاً احتياجات حثّامات عديدة موزعة في المدينة لا شك أنها كانت كبيرة في الحجم والأهميّة نظراً لكونها موضوع منح خاصة كما ورد في سجلّ المنح «Repartimiento».

كان يملك ثلاثة من هذه الحثّامات، سويّة مع عدد كبير من الأملاك الأخرى، رجل واحد يسمى «دُون سُليما» Don Zulema. ورد اسم هذا الشّخص تكراراً في سجلّ المنح ولكنّه لم يُذكر لا في كتب ثونيغا ولا في كتاب الحوليات. وشغل هذا الرّجل منصب مفوض الملك. وثقّة رسالة من فرناندو إلى دون سُليما يتوجّه إليه فيها بقوله «مفوضي الخاص دُون سُليما»⁽¹⁾، ويبلغه أنّه منح كنيسة طليطلة ألف دينار مرابطي من الجزية السنوية التي يدفعها ملك غرناطة ويأمر دُون سُليما، الذي عليه أن يجمع الإيجارات، أن يدفع هذا

(1) بالإسبانية: «vos Don Zulema, mio mandadero». (أحمد)

المبلغ إلى سلطات طليطلة أو إلى ممثليهم⁽¹⁾. كان دون سُلَيْمًا يهودياً كما أخبرنا دُون أنطونيو باتيستيروس Don Antonio Ballesteros الذي يجري بحثاً خاصاً حول تلك الفترة، كما كان رجل الأعمال الرئيسي في بلاط سان فرناندو.

مُنحت الحمامات الملكية إلى خوانا دي پونتيو، أرملة سان فرناندو. لا يذكر ثونيغا عدد هذه الحمامات ولكنه يشير إلى أن حمامين منها كانا لا يزالان يحتفظان بشكلهما الأصلي ويُستعملان بصورة اعتيادية عندما أُلّف كتابه. كان أحد الحمامين في أبرشية سان خوان دي لا بالما (المبنى الذي أضافته الملكة اعتماد في عام 1086، انظر الصفحة 217 طبعة الأصل) وكان مبنياً كما تقول التقاليد في الشارع الذي لا يزال يسمى شارع القصور. ويوجد الحمام الآخر في أبرشية سان ألفونسو. وجرى تحويل الحمام الثالث في زمن ثونيغا إلى دير لراهبات رهبنة تدعى باسم يسوع. كان هذا الحمام في الحي المعروف باسم سان فيستيه وإلى فترة قرية كان الشارع الذي بُني فيه لا يزال يحمل اسم «شارع حمامات الملكة المسلمة»⁽²⁾ *calle de los baños de la reina mora*. وبالفعل حتى يومنا الحاضر، ومع أنه أعيد تسميته رسمياً باسم شارع المركز دي تابلاتيس، لا يزال يسميه عامة الشعب، أغنياء كانوا أم فقراء، شارع الحمامات *calle de los Baños*. كانت هناك حمامات ملكية أخرى ولكن هذه الحمامات الثلاثة هي الوحيدة التي وردت تفاصيل عنها⁽³⁾.

منح ألفونسو حماماً في سان سلفادور إلى أبرشية إشبيلية، وذكر أنه منح حماماً آخر إلى كاتدرائية مقاطعة ريانثويلا Rianzuela الترفيهية مع مرافق متنوعة والطاحونة «والتي كانت جميعها في السابق ملكاً للأمير دون فادريكه Don Fadrique» أحد أبناء الملك ألفونسو الحادي عشر⁽⁴⁾.

(1) *Memorias, etc.*, 537 – 8.

(2) بالإسبانية: كاتيه دي لوس باتيوس دي لا رينا مورا. (أحمد)

(3) Zúñiga, i. 162.

(4) *Ib.* i. 352 – 3.

كان المبنى الذي يعرف الآن باسم دير سانتا كلارا قصر هذا الأمير ولا يزال يوجد برج يحمل اسمه في حديقة الدير.

يذكر ألونسو مورغادو الذي ألف كتاباً في أواخر القرن السادس عشر بعض هذه الحمامات ويقول: «توجد في الغرف الواسعة حيث يستحم الناس أنابيب تجري فيها مياه ساخنة وباردة يستعملها المستحمون مع مرهم يُعطى لهم للانتعاش وتنظيف أبدانهم، وليس من المستغرب في إشبيلية أن تذهب سيدات إلى الحمام بصورة علنية، لأن هذه العادة سائدة هناك منذ الأزل»⁽¹⁾.

يقيم مجلس المدينة في كل صيف على ضفتي النهر حمامات عامة لاستعمال الفقراء، ويحدّد أوقات استعمالها من قبل الرجال والنساء على التوالي، كما كان يُتبع في الحمامات العامة التي وصفها مورغادو في القرن السادس عشر. تقول الروايات المتناقلة تقليدياً إنّ تاريخ إنشاء هذه الحمامات يعود إلى زمن غابر، وبالتأكيد لم تُبنَ حمامات منذ محاكم التفتيش ولا نشعر بأي تردّد في التأكيد بأنها إرث من عهد الحكم الإسلامي.

نأمل في المستقبل أن نشير إلى النظافة البدنية التي تميّز بها سكان الأندلس، وما يثير الدهشة فعلاً استمرار الحرص على النظافة الشخصية طوال قرون طويلة رغم معارضة الكنيسة والاضطهاد الذي مارسه محاكم التفتيش ضد المسلمين⁽²⁾.

لم ينظّم سان فرناندو توزيع مياه الشرب وحقوق الحمامات بدرجة دقيقة فحسب، بل إنه تبنى الأنظمة الإسلامية فيما يخصّ تنظيف أو جرف قاع نهر الوادي الكبير وغيره من جداول المياه، وشدّد على ذلك في حال قرّر المسيحيون استخدام هذه الأنهر للتجارة. فرضت ضريبة على المراكب «التي تقوم من إشبيلية برحلات بحرية من وإلى قرطبة» كما ورد ذكر الرسوم الملكية المفروضة على «التحميل» المتوجبة على المراكب المبحرة عبر نهر وادي لكّه إلى شريش. ومنذ قرون عديدة لبثت هذه الممرات المائية القيّمة مخلقة أمام الجميع باستثناء زوارق التجديف، وذلك بسبب

(1) ذكر في كتاب بالومو *Palomo, Riadas*، ص 144.

(2) في إحدى المرات تعرّض بستاني للتعذيب لأنه غسل جسمه في البستان الذي يعمل فيه؛ وفي عام 1566 حُرّم استعمال الحمامات تحت طائلة عقوبات شديدة (Lea, *Moriscos*, pp. 129).

تراكم الطّمي في مجاريها نتيجة الإهمال. وفي عهد الحكم الإسلامي كان يتم تأجير الطّواحين العاملة بالمياه المقامة في أعلى مجرى النهر فوق إشيلية بشرط إكراء الجداول المائية التي تزود المطاحن بالمياه؛ ومنح الملوك المسيحيون الأوائل عقود أيجار تخضع لهذا الشرط عينه⁽¹⁾.

يبدو أنّ سان فرناندو هدف من خلال كافة القوانين التي أصدرها إلى أن يقسط بالعدل بين كافة رعاياه بصورة متساوية من دون التمييز لجهة الدين، لأنّ المسلمين كانوا مُعفيين من دفع ضرائب معينة، ونصّت هذه القوانين على وجوب أن يدفع المسلمون فقط ما كانوا يدفعونه إلى «أمير المؤمنين» قبل الاستسلام.

وكان الملك ألفونسو العاشر، عند تجديد امتيازات عقد يعيد الشروط التي وضعها والده «النبيل الأكرم»، صاحب الحضرة السامية، والمقام الأشرف، الذي أعقد الله عليه بالتعم، الملك دون فرناندو، ويفرض على كل المعنيين بالأمر المحافظة على القانون:

«ولا يدعوا أيّاً كان أن يتجاسر على أن يمسّ امتيازاتي هذه أو ينتهك شروطها أو يقلّل من شأنها بأيّة طريقة كانت. فمن يأتي أو يرغب في أن يأتي بمثل هذا الفعل سوف يحلّ عليه غضب الله جلّ جلاله وسوف ينزل مع يهوذا الخائن إلى الدّرك الأسفل من الجحيم، وإلى ذلك سوف يحلّ عليه غضبي، ويدفع لي غرامة ألف ليرة ذهباً ويدفع لهم [للمتضرّرين] ضعف قيمة الأضرار التي لحقت بهم، ونظراً لأنني صاحب الامتياز في منحتي هذه، ولأنّ حقوقي هذه ينبغي أن تبقى أكثر حزمًا وإلزامًا وقائمة إلى الأبد، بناءً عليه أمر بأن يُختتم مستند المنحة بختمي الذهبي»⁽²⁾.

(1) Zúñiga, i. 200.

(2) Zúñiga, i. 201.

من الجدير بالملاحظة أنّ الاختام على مستند منحة قدّمها سان فرناندو كانت مثبتة بأشرطة باللونين الأحمر والأصفر، الأمر الذي يؤكّد أن ملوك قشتالة تبنوا هذين اللونين طوال أكثر من قرنين قبل اكتشاف أمريكا، ونتيجة للمعارك التي دارت في تلك القارة بات يطلق على العلم الإسباني اسم «نهر من الدماء بين جدولين من الذهب».

ثم يوقع الملك المستند ويطلب من ثلاثة أمراء من ذوي النسب الملكي، وثلاثة رؤساء كهنة وثلاثة ملوك مسلمين، واثنين من الفيكونتات الفرنسيين وعشرين أسقفاً متخيين، والسادة العظام لرتبتين عسكريتين وخمسة وثلاثين فارساً وثرياً نبيلاً من أرفع الشخصيات في الدولة أن يوقعوا كشهود على المستند.

وهكذا، كان واضحاً أنّ منزلة المسلمين المنهزمين من أرض إشبيلية كانت محفوظة مثلهم مثل مواطنيهم المسيحيين، طالما كان سان فرناندو والملك الحكيم ألفونسو يقسطان بالعدل بينهم. فلو واطب خلفاؤهما على التعامل بهذا القدر من السخاء والحنكة السياسية في تدبير شؤون الدولة مع هؤلاء القادمين على البلاد من أقوام غريبة، لكان من المحتمل أن تحتفظ إسبانيا طوال هذه القرون بمكانتها التي شغلتها حينها بوصفها أعظم دولة متوّرة والأكثر ازدهاراً في أوروبا.



الفصل الثاني والعشرون

مصر والكنيسة في إشبيلية

تابعنا في الفصل السابع تأثير الأقباط على الفنون والحرف في إشبيلية، وستناول في هذا الفصل بعض الأمور المتعلقة بعقيدة خاصة بالكنيسة الكاثوليكية التي تطبع وتتصل بصورة وثيقة بالحياة اليومية لسكان إشبيلية، والتي، ونأمل أن نكون على صواب، تحمل معالم معينة يمكن إرجاع أصولها بصورة مباشرة بنحو أو آخر، إلى التأثير القبطي. إنها عقيدة الحبل بلا دنس للعدراء مريم مع رمزها الملفت الطأفي في الفن المحلي المتعلق بصناعة «شارات التبال» للعدراء مريم.

يقول السيد تشامبرلين في كتابه «أسس القرن التاسع عشر» ما يلي:

«إنها فكرة قديمة تلك التي تقول بأن الله عندما تجسّد بشراً وُلد من عدراء، ولكن عبادة «والدة الإله»⁽¹⁾ نُقلت من مصر... لا يوجد في تاريخ العقائد الأسطورية إثبات أوضح من الصلة العضوية المباشرة بين عبادة المسيحيين لـ «والدة الإله» وعبادة إيزيس. ففي الأزمان السابقة نقيّد الدين السائد في زمن الفوضى الذي استوطن في مصر بدرجة متزايدة بعبادة «ابن الله» - حورس وأمه إيزيس. كتب عالم المصريات الشهير فلنדרز بترري Flinders Petrie في هذا الموضوع يقول: «ترك هذا التقليد الديني تأثيراً عميقاً على تطور الدين المسيحي. حتى أنه يمكننا أن نقول بأنه لو لم توجد مصر لكان من غير الممكن ظهور مادونا (السيدة العذراء). ملكت إيزيس سلطة

(1) نترجم هذه العبارة كمصطلح لغوي في أنطولوجيا الأديان، دون أن نفرّ ما جاء فيها، ونعتبرها لا تسمي اسم الجلالة سبحانه وتعالى ولا تتعلّق به. (أحمد)

عظيمة على الرومان إتيان حكم الأباطرة الأوائل. كانت عبادة إيزيس سائدة ومنتشرة، وعندما وجدت لها مكاناً في الحركة العظيمة الأخرى للجيليتين، حيث كان يمكن لروح العصر والقناعة الأخلاقية أن يسيرا جنباً إلى جنب، عندها بات انتصارها أكيداً وأصبحت بوصفها «والدة الإله» الشخصية المسيطرة في إيطاليا منذ ذلك الحين»⁽¹⁾.

أنكر الأقباط العقيدة الأرثوذكسية في تجسد المسيح، وكلفهم هذا الإنكار عقوداً من الاضطهاد من جانب الكنيسة البيزنطية، لأنه بالنظر إلى الطبيعة الروحانية للمصريين، كان إسباغ صفات بشرية ضعيفة على الإله يمثل احتقاراً للالهوية. كان «ابن الله»⁽²⁾ بالنسبة إليهم هو حورس ورمزه الشمس الشارقة وابن الإله أوزيريس كلي القدرة، شمس منتصف النهار ومصدر كل حياة؛ وإيزيس الأم الأزلية التي سكب فيها خيم، الروح القدس، سائل أوزيريس الإلهي لكي تخلق حياة جديدة. تمحورت كامل الرمزية المصرية، مهما اختلفت الأسماء المعبرة عنها، حول هذه الشخصيات الأربع التي كان كل واحد منها مستقلاً بالكامل في عمله ولكنه يشكل جزءاً لا يتجزأ من الثلاث الأخرى. وهكذا كان من السهل أن يقبل المصريون العقيدة المسيحية المتمحورة حول فكرة «الثالوث» و«والدة الإله» لأن الأمر لم يتعد بالنسبة لهم أكثر من إطلاق أسماء جديدة على آلهتهم. ثم برز الانقسام حول طبيعة المسيح، وكما يقول غيرون: لقد حول الاضطهاد طائفة إلى أمة.

لم يصور الأقباط مطلقاً المسيح الميت؛ وكما يقول الدكتور بتلر كان الحديث عن صورة الصليب لدى الأقباط مثل الحديث عن شيء لم يُعثر عليه أبداً. في الوقت نفسه، لا يمكن إثبات أن الأقباط التزموا بدقة بعقيدة تحريم «الصور المنقوشة» نظراً لوجود صور طيور وحيوانات وأشخاص منقوشة على العديد من شواهد القبور القبطية وعلى ألواح خشب الأرز في الكنيسة المعلقة في القاهرة (محفوطة الآن في المتحف البريطاني)، وتصاميم لا حصر لها تمثل رجالاً ونساءً وحيوانات على أقمشة محاكة ومطرزة عُثر عليها في مقابر الأقباط.

(1) بالفعل، ففي الثقافة الإيطالية يكثر استعمال عبارة: Madre di Dio بشكل لافت. (أحمد)

(2) ينطبق على هذه العبارة ما قلناه في الحاشية قبل السابقة. (أحمد)

تجدر ملاحظة خاصية واحدة تثير الدهشة وجدت في كافة أعمال الفن المرتبط بعقيدة الطبيعة الواحدة للمسيح. ومهما كانت هذه الخاصية بدائية في مراحل وجودها المبكر، فقد مثلت بدرجة لا تتغير فكرة السعادة والرضا وليس فكرة العذاب والحزن على الإطلاق. لقد تعتمد القبطي أن يغض البصر عن كل ما يوحى بالعذاب في العقيدة المسيحية وركز تفكيره على ما هو جميل وإلهي.

نادرة للغاية هي الصور والرسوم التي تُظهر المسيح بشراً من بين العديد من الصور واللوحات التي تفيد الروايات المتناقلة وكذلك الأسلوب الفني أننا يمكن أن نزوها إلى المسيحيين الذين حافظوا على دينهم في إشبيلية قبل أن يستعيدها الملك المسيحي. يتعين علينا الذهاب إلى شمال إسبانيا للعثور على صلبان ورسوم زيتية أو منحوتات من القرون الوسطى تمثل المسيح الميت. وما تبقى من الأعمال الفنية المبكرة في إشبيلية (وهي على ندرتها، أكبر عدداً مما يعتقد عموماً) يمثل الأم والطفل وحيدين؛ فهناك حرص شديد على تجنب أي تلميح إلى العذاب أو الحزن، وتغيب تماماً مثل هذه التلميحات من التماثيل التي عُثر عليها في الكنائس والأديرة القبطية التي يرجع تاريخ إنشائها إلى القرن الثالث امتداداً حتى نهاية القرن الثالث عشر.

أوردنا في السابق قصة الرؤية الأسطورية العجائية لسان فرناندو للوحة الجدارية التي عرفت باسم «عذراء دي لا أنتيغوا» أي القديمة. وتوجد كذلك صور أخرى قديمة العهد في إشبيلية نأمل مناقشتها والتحدث عنها بشكل شامل في كتاب لاحق. أما بالنسبة للكتاب الحالي فلا يسعنا القول سوى إنه على الرغم من تكرار إعادة طلاء لوحة عذراء أنتيغوا بحيث فقدت الكثير من سماتها الأصلية، تحمل صورة أخرى للعذراء تعرف باسم عذراء دل كورال لا شك أنها رُسمت قبل مدة لا تقل عن مئة عام من رسم صورة عذراء أنتيغوا، بصمة مصرية من دون شك. فالعينان مصريتان وغطاء الرأس مصري والفم هو الفم الذي يمكن للمرء أن يلاحظه لدى النساء القبطيات في يومنا الحاضر - فم لا يمكن لأي شخص حاول أن يرسم خطوط الشفاه المكتنزة أن يخطئ فيظن أنه فم يوناني أو لاتيني. طول الصورة التي هي أكبر بكثير من الواقع

ووضعية الطفل الملصق بقوة بصدر والدته قد يذكران بخصائص الفن البيزنطي، ولكن الأقمشة كغطاء الرأس لا تشبه بأي شيء الأقمشة اليونانية. تغطي روح مصر القديمة على لوحة عذراء دل كورال كما تشع الأمومة الأبدية لإيزيس من تلك العينين البيضاءيتين المصريتين.

إنَّ العُشور على لوحة عذراء دل كورال (التي يستحيل الحصول على نسخة منها) في كنيسة قيل إنه تم تحويلها إلى جامع قبل وقت غير طويل من استرداد إشبيلية، يُعدّ حدثاً «عجائيباً». تشابه الروايات التقليدية المتعلقة بكافة الصُور المماثلة، وتحمل كل الصُور التي قيل إنه عُثِر عليها خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر إشارات تدلّ إلى تاريخ أبكر من تاريخ إعادة فتح إشبيلية. وفي حال كان هناك أيّ شك حول هذه النقطة، فإنه سرعان ما يزول عند مقارنة الصُور القبطية - القُوطية للعذراء مع صورتين قديمتيها سان فرناندو إلى كاتدرائية إشبيلية بين عامي 1248 و1254 ولا يمكن التشكيك في أصالتهما.

يشكّل رسم العينين مزيجاً أخرى مهمة يصعب أن تفشل في إقناع المشاهد بالأصل المصري لهذه المدرسة الفنية. وسواء أكان الرّسم على الخشب أو الحجر أو بالزيت أو التطريز، فقد رسمت العينان كاملتين من الجهة الأمامية أياً كان وضع الرأس. ولا يمكن فعلياً قبل القرن الثالث عشر رؤية عينين مرسومتين بشكل جانبي، ونلاحظ بالتأكيد هذا التذكير بمصر القديمة على حجر ضريح قديم نُحت بشكل نافر قليلاً ثم طُلي عثر عليه في إقليم سرقُسطة التي كانت معقلاً للعرب اليمانيين والقوط لقرون عديدة. وتظهر استدارة غطاء الرأس أن تاريخ نُحت هذا الحجر لا يعود إلى ما قبل الفتح الإسلامي⁽¹⁾.

لو استمرّت الكنيسة القُوطية في إشبيلية تمارس شعائرها دون انقطاع في وقت أبكر، لكان من غير الممكن الشك في مصدر هذه اللوحات. والخلاف المرير الذي استمرّ

(1) يملك دون فرانثيسكو آنايا Don Francisco Anaya ابن إشبيلية هذا التمثال المنحوت ويمكن مشاهدته في منزله، 9 شارع ليبانتو Calle Lepanto. نعتقد أن النقش الحجري لعذراء كارمن، الموجود أيضاً في إشبيلية، يحمل ملامح تدلّ على أنه منتج محسن من المدرسة الفنية عينها يفصل بينهما ثلاثة قرون من التطور.

خلال الثلاثين أو الأربعين سنة الماضية بين «المدجنين» و«التقليديين» في إشبيلية حول هذه النقطة نتج من جهل الفريقين كليهما للقصة الحقيقية للفتح الإسلامي. كان لدى التقليديين كامل الحق في تصنيف الصور على أنها تعود إلى الكنيسة القوطية في إشبيلية في حين كان المدجنون على حق تماماً وبصورة متساوية في تأكيد أنه من غير الممكن على الإطلاق عزو مثل هذا العمل إلى الكنيسة القوطية في القرن السابع⁽¹⁾.

لا يوجد في أي مكان آخر في إسبانيا مثل هذا العدد من صور العذراء المرسومة أو المنحوتة من القرون الوسطى كما هي الحال في إشبيلية، بالمقارنة مع العدد الإجمالي لصور كافة القديسين الآخرين. لكن مهما اختلف الخبراء في الفن حول مرجعية هذه الرسوم الزينية والتماثيل، فإن واقع أنها سبب كل هذا الجدل يثبت إلى حد بعيد أنها لا تعود إلى تاريخ حرب الاسترداد أو ما بعده كما يؤكد المدجنون. ولا يوجد بالطبع أي وزن ولو حتى صغير لما يقوله التقليديون بأن تاريخ صنع مثل هذا العدد الكبير والملحوظ من صور العذراء، التي يتضرع إليها سكان إشبيلية بتقوى فوق العادة مرّ دون أن يستجل في أرشيف المدينة وأرشيفات الكنائس لو أنها لم تكن موجودة

(1) شكّلت صورة قديمة أخرى موضوع نقاش أكثر حدة مما حصل حول أئة صورة أخرى. كانت صورة عذراء إنيستا *Hiniesta* (جنيستا أو الزتم) التي سميت كذلك لأن فارساً يدعى برنار دي لاتو عثر عليها داخل غابة من نباتات الزتم في كتالونيا عام 1380. لا تتردد أبداً في التأكيد بأن هذه الرواية تستند إلى الواقع وأن الصورة رسمها قوطي مسيحي عاش في إحدى القرى التي بقيت تقاليد الفن الروماني - القوطي حيث فيها طوال فترة الاحتلال الإسلامي، كما بقيت هذه التقاليد حيث حتى يومنا الحاضر في صناعات محلية معينة. والقماش المرسوم روماني الطراز كما فردة الخف الوحيدة المرئية. إمالة الجسم قليلاً إلى الورا لموازنة ثقل الطفل على الذراع اليسرى كلاسيكية بالكامل، وقد تكون نسخت عن تمثال روماني، في حين أن الحواف المستديرة للرأس والوجه، وبساطة تعابير العذراء وطريقة ترتيب شعرها توحي بشكل غريب إلى واقعية وصرامة اشتهر بهما التوتونيون [الألمان]. والصورة مصنوعة من قطعة خشب وقطع منها الذراع الأيمن (أ) في تاريخ غير معروف لتسهيل كسوة الصورة بالحرائر والقماش المقصّب وتزيينها كما كانت السيدات الورعات في إشبيلية في السابق ولا زلن حتى اليوم يقمن بتزيين صور القديسين الذين يتنهالن إليهم. يوجد الرسم في كنيسة سان خوليان البازيليكية، ويمكن رؤيتها منزوعة الغطاء فقط بترخيص من كهنة الرعية.

قبل تاريخ الاسترداد. ومما يجدر ذكره هو أن تاريخ أقدم رسم زيتي إشبيلي معروف للمسيح المصلوب يعود إلى القرن الرابع عشر، وهناك رسم وحيد يعود إلى ذلك التاريخ وهو موجود في كتاب الصلوات العائد لمجلس الكاتدرائية⁽¹⁾.

ظل سان فرناندو متعبداً متحمساً للعدراء طوال حياته وكما يخبرنا ابنه في إحدى الأناشيد (كانتيغاس) التي كتبها، وضع سان فرناندو صورة العدراء في المسجد وفوق بوابة كل مدينة استولى عليها من المسلمين⁽²⁾. كانت كنيسة إشبيلية متفوقة دائماً في عبادتها. وسُميت المنطقة المحتلة حديثاً ولا تزال تعرف باسم «أرض الأم المباركة» (La tierra de Maria santísima) وأصبح «السّرّ العذب للخبّ بلادنس» أو كما يسميه عامة الناس «السّرّ»، موضوع عبادة متقدمة لدرجة أنه دفع في سنوات لاحقة أناساً للقيام بأعمال غريبة تعبيراً عن تكران الذات. وهكذا في عام 1618، عرض زنجيان يدعيان دومينغو دي مولينا وبيدرو دي مورينو على التوّالي وآخر مجهول الاسم في عام 1653 بيع نفسيهما في المزاد العلني بغية تسديد رسوم إقامة القداديس خلال احتفالات الخبّ بلا دنس. وأياً يكن الحكم على هذا الدافع فمن الصّعوبة بمكان تصوّر تضحية أكمل من التضحية بالذات على مذبح العقيدة⁽³⁾.

كانت الاحتفالات بعيد الخبّ بلا دنس دائماً الأكثر شعبية بين الاحتفالات الدّينية المتعدّدة التي تقيمها الكنيسة في إشبيلية. ولا توجد أية كنيسة في المدينة لا تحتوي على مذبح بمجد «السّرّ». كانت إشبيلية أول مدينة تطلب من البابا أن يعلن عقيدة الخبّ بلا دنس، واشتركت بحماس في الجدل المطول الذي قام بين الفرنسيّكان الذين يؤكّدون الولادة العجائية للعدراء نفسها وبين الدّومينيكان الذين ينكرون ذلك؛ وذلك بدرجة دفعت مؤرّخي كنيسة إشبيلية إلى الادّعاء بأنّ الإعلان النهائي الذي أصدره البابا صدر بسبب إصرار هذه المدينة. وفي عام 1613 ألقى كاهن دومينيكي

(1) *Glorias Sevillanas*, (أمجاد إشبيلية)، pp. 45 – 6.

(2) Zúñiga, i. 303.

(3) *Glorias Sevillanas*, 501 – 2, 531.

في إشبيلية عظة يطعن فيها بالاعتقاد الشعبي مما اثار الغضب الشديد لدى كل سكان المدينة الذين قاموا بمظاهرات ترأسها كاهن فرنسيسكاني يرفع الرّاية المعروفة باسم «بلا دنس»⁽¹⁾. كانت المظاهرات تنطلق كل يوم وتضم آلاف الأشخاص، وكان هدفهم طلب الغفران من العذراء على «الإهانات» التي وُجّهت إليها من قبل أولئك الذين يرفضون الإيمان بعقيدة «السرّ».

لا زالت توضّحات التعويض *desagravio* للعذراء عن الإهانات التي وُجّهت إليها تحصل من وقت لآخر. وقبل فترة غير بعيدة في مارس 1911، نُظّمت مسيرات عبر كافة البلاد لمتعبدتي العذراء هي بمثابة عمليات احتجاج على عبارات غير موقّرة تلفظها نائب في البرلمان في هجومه على الرّهبانيات الدّينية. حُمِلت صورة العذراء بالحجم الكامل التي وهبها سان فرناندو إلى الكاتدرائية والمعروفة باسم عذراء الملوك في موكب سار من الكنيسة الملكية الصّغيرة إلى المذبح العالي، وسط صلوات حشد كبير من الرّجال والنّساء من كافة طبقات المجتمع.

في عام 1615 كتب رجل من إشبيلية يدعى ميغيل دِل سيد أبياتاً لحنها كاهن يدعى برناردو دِل تورو لقصيدة لازمتها كالتالي:

«فليهتف العالم كله عالياً:

أيتها الملكة المختارة

لقد حُبِل بك دون خطيئة أصلية».

“Todo el mundo en general,

‘A voces Reina escogida

Diga que sois concebida

Sin pecado original.’”

(1) «بلا دنس». العنوان الكامل هو «راية مريم العذراء كَلِيّة الطّهارة المولودة بلا وصمة الخطيئة الأصلية». وترفع راية «بلا دنس» في إشبيلية خلال مسيرات الأسبوع المقدّس. الأسبوع المقدّس هو أسبوع الفصح المقدّس أو أسبوع الآلام. (م)

لقيت الترتيلة وعلى وجه الخصوص لازمتها شعبية هائلة فور صدورها في إشبيلية، ولم تراجع هذه الشعبية منذ ذلك التاريخ وحتى يومنا الحاضر. لكن يبدو أن الأجواء التي سادت وقت انتشار القصيدة لم تعش طويلاً في ذاكرة الناس، إذ جرى تكيف اللازمة مع عدد لا يحصى من التراتيل المختلفة المقدمة للعذراء خلال السنوات الثلاثمئة التي استمر أداء الترتيلة بها. ويمكن أن نلاحظ أن المواهب الشعرية للمؤلف المحترم ميغيل لم تكن متكافئة مع تقواه.

كانت قد جرت العادة في ذلك الوقت في إشبيلية أن يضع مناصرو الولادة العجائية للعذراء الحرفين الأولين من اسمها⁽¹⁾ A.M. على واجهات منازلهم وتم تبني هذين الحرفين كشعار للحزب الفرنسيكاني في الجدل القائم، وأدخل في كافة أنواع التصاميم الفنية في القرنين السادس عشر والسابع عشر بدرجة أنه يؤرخ بالفعل لتطورات معيّنة، وعلى وجه الخصوص فيما نسميه الآن «شغل الإبرة» (التطريز) وصناعة الخزف.

وأصبح الحراس الليليون في إشبيلية الذين كانوا يعلنون حتى وقت قريب ساعات الليل يستشهدون بمريم العذراء التي حُبل بها بلا دنس بالصياح:

"Ave Maria Purissima, la una ha dado y sereno"

«السلام عليك يا مريم يا أطهر النساء. لقد دقت الساعة الواحدة واللييلة هادئة». ومن هذا الصياح استمدّ الحراس الليليون لقبهم الشعبي «سيرينو» *Sereno*.

يتم تعليم كل طفل حالما يبدأ بالكلام بأن يذكر سرّ الحبل بلا دنس في صلواته ويقول «مبارك الحبل بلا دنس بمريم العذراء» *Bendita sea la immaculada Concepcion de la Virgen Maria*. وتحمل الغالبية العظمى من نساء إشبيلية أسماء تدل على إحدى صفات مريم العذراء، مثل مرسيليس (مريم الرحمة)، ودولوريس (مريم الآلام)، وأمبارو (مريم المغيثة)، وروزاريو (مريم الوردية، الشُّبحة) وبيلا

(1) آفِه ماريّا Ave Maria وهي عبارة تمجيد السيدة مريم ومعناها «السلام عليك يا مريم» وهي الكلمات التي تبدأ بها الصلوات المخصصة للسيدة مريم في الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية. (م)

(مريم الوطيدة) وهكذا. وربما كان الأكثر إثارة للفضول من بين العديد من التقاليد المحلية التابعة من عبارة «الستر» هو التشمّع بطهارة مريم عند تبديل الملابس الداخلية. ويقوم بذلك الرجال والنساء حيث كان ارتداء ملابس داخلية نظيفة يرمز إلى البياض الصافي للروح المستغرقة في تأمل ولادة مريم بلا خطيئة أصلية.

يفوق في إشبيلية عدد المذابح المقامة في الكنائس تكريماً للعدراء مريم ما هو موجود في أية مدينة أخرى في مثل حجمها. ويحمل ما بين ثلاثين وأربعين كاهناً صور العدراء خلال الأسبوع المقدس ويطوفون بها في مواكب حاشدة، بينما يبقى عدد كبير من صور العدراء ثابتاً داخل الكنائس الصغيرة المكرّسة لعبادتها في كنائس الأبرشيات وكنائس الأديرة.

ونلفت الانتباه الآن إلى الخاصية المميزة في التاريخ الفني لهذه العقيدة الإشبيلية التي تبدو وثيقة الصلة بمصر.

منذ البدايات الأولى للمسيحية، نجد هنا التصميم المعروف باسم «شعار نبالة العدراء» الذي يظهر على شكل جرة أو إناء تبرز منه نبتة تحمل زهرة موضوعة بصورة متناسقة على الجانبين كليهما. في مناطق أخرى، في الفن الإيطالي على سبيل المثال، يمسك الملاك جبرائيل بالزنبقة أو توضع هذه الزنبقة في إناء بجانب مريم. لقد تم التعامل مع ذلك باعتباره وبساطة تعبيراً شاعرياً عن طهارة العدراء التي بشرها الملاك بولادة المخلص [يسوع].

ولكن في إشبيلية تعتبر هذه الرمزية عن طهارة الحمل بالعدراء نفسها، وتأكيداً لذلك يوجد في كنيسة دير سانتا كلارا نقش قليل البروز يشكّل جزءاً من اللوحة التي تزين المذبح العالي وفيها رسم القديسة حنة (آنا) والقديس يواكيم⁽¹⁾ وقد انبثق من صدر كل منهما ساق نبتة يتحد طرفاهما على شكل زهرة تشبه زنبقة الماء وبداخلها تجلس العدراء مريم. ولقد جدنا تصميماتاً مشابهة في أكثر من كنيسة في المناطق الريفية من ولاية إشبيلية.

(1) القديسة حنة هي أم مريم العدراء والقديس يواكيم أبوها. (م)

نعثر باستمرار منذ فترة حكم فرناندو وإيزابيل⁽¹⁾ وما بعدها على التصميم المعروف باسم جرّة العذراء Jarra، لكن تاريخ هذا التصميم يعود إلى وقت أبكر، ويؤكد ذلك واقع أنه بحلول نهاية القرن الخامس عشر باتت الأزهار تشكّل رمزاً عرفياً لدرجة أنها لم تعد تشبه أي نوع نباتي معروف. كما أنّ هناك إثباتاً تاريخياً يؤكد بأنّ تاريخ الرّمز يعود إلى فترة أقدم بكثير من فترة حكم فرناندو وإيزابيل. تذكر كتب التاريخ أنه في عام 1403 أنشأ فرناندو ملك أنتيقيرة الذي أصبح فيما بعد ملك آراغون رتبة من الفرسان تكريماً لعذراء دي لا أنتيغوا من مدينة إشبيلية عُرف فيما بعد باسم أخوية جرّة التسوسن أو الزنبق La Orden de la Jarra de Azucenas or de los Lirlos وتبنت رهبان إشبيلية شعار الأخوية تكريماً لصورة عذراء أنتيغوا⁽²⁾.

تُشاهد جرّة الزنبق في أمكنة عديدة من كاتدرائية إشبيلية؛ في رسوم نافرة كبيرة في الأرضية الرخامية لجناح الكنيسة مباشرة أسفل المذبح العالي، وفي صورة مصنوعة من الحديد المطاوع فوق بوابة كنيسة «العذارى» (دي لاس دونتيلاس doncellas) التي بُنيت في أوائل القرن السادس عشر ومنحت الأموال لتخصيص بائئات (مهور) إلى الفتيات الفقيرات. يوجد فوق هذه البوابة صورة مصنوعة من الحديد تمثل البشارة مع جرّة الزنبق بين الملاك والعذراء. كما تظهر الجرّة بشكل أو بآخر على كافة المشغولات المخزّمة الجميلة التي تزيّن الأثواب الكهنوتية العائدة إلى القرن السابع عشر، والتي كانت تستعمل في الكاتدرائية خلال الاحتفالات الدينية الكبيرة.

لماذا تُعاد هذه الرمزية في إشبيلية إلى الحبل بلا دنس، بينما في أمكنة أخرى تتم إدخال الزنبق فقط كتكملة رائعة في الرسوم التي تمثل البشارة؟

في مصر تسيطر زنبقة النيل التي يسمّيها الشعراء إن لم يكن علماء النبات زهرة

(1) حقّق زواج أبناء العمومة، فرناندو ملك آراغون وإيزابيل ملكة قشتالة في عام 1469 وحدة واستقرار مملكتيهما. ولقد حازا على لقب «الملكين الكاثوليكيين» بعد سيطرتهم على غرناطة في العام 1492 عندما استأنفا حرب الاسترداد التي بدأها سان فرناندو قبل أكثر من مئتي عام وأعاد خلالها إشبيلية إلى الحكم المسيحي في عام 1248. (م)

(2) سجلات آراغون، أشير إليه في كتاب سورانو «تقاليد إشبيلية» Tradiciones Sevillanas.

اللّوئس، على كل أنواع الزخارف. يقول البروفسور فلندرز پتري Flinders Petrie إنها «كانت منتشرة بشكل واسع بحيث اعتبرها البعض مصدر كافة الزخارف»⁽¹⁾. كانت زهرة اللّوئس (النيلوفر) في مصر القديمة أحد رموز خيم، عنصر الحياة، الذي أخصب أوزيريس العالم بواسطته. لذلك كانت توضع زهرة اللّوئس فوق المذابح المصرية حيث ترتفع بتلاتها المستدقة كما ترتفع السنة للهب نحو المعبود؛ وهكذا، تم تبنيها باعتبارها «مصباح المذبح» رمزاً للنار الأبدية التي يعيد أوزيريس تجديد العالم بواسطتها⁽²⁾.

الأرجح أن تبني اللّوئس أوزنبقة الماء كشعار لروح الخصب كان وراء الاعتقاد الذي ساد قديماً في الأندلس، والقائل بأن المرأة التي تأكل جذور الزنبق تحمل بصورة عجائية. لذلك تقول التقاليد إنه تم تبني الزنبق كرمز لمريم، الأم العذراء المولودة هي نفسها دون فعل بشري⁽³⁾. ولكن كيف أمكن ظهور هذا التقليد المصري الأساسي حول الزنبق وخيم إن لم يكن الأقباط هم الذين جلبوا إلى هنا معتقداتهم المصرية القديمة تحت غشاء رقيق من الأسماء المسيحية؟

ليس هذا المكان المناسب لشرح كيف تحوّلت اللّوئس، مصباح المذبح لدى المصريين، بصورة تدريجية في النسيج العرفي، إلى جرة الزنابق التي برزت في القرن الخامس عشر، ومن ثم إلى أشكال أزهار لا تشبه أية زهرة في الوجود: نأمل أن نوفر في المستقبل تصاميم تبين هذا التحوّل من اللّوئس، التي تزين تاج [الملكة الفرعونية] نفرت إلى الرسوم الموجودة على المشغولات الحرفية الأندلسية في اليوم الحاضر. ولكن بإمكاننا أن نذكر كمثال على الاستمرارية المذهلة لهذا التقليد أننا سمعنا قبل فترة وجيزة عن شكل من الزهور يعود إلى القرن الثامن عشر أطلق عليه نبيل إشبيلي

(1) *Egyptian Decorative Art*, p. 61.

(2) Gayet, *L'Art Copte*, pp. 73, 104 – 5.

(3) قد يفترض المرء أنّ هذه الترمزية يمكن اعتبارها إشارة إلى الولادة العجائية للمسيح؛ لكن عيد السيدة العذراء، ورغم كونه عيداً تحتفل به الكنيسة فإنه لا يحظى بالاهتمام العام والعبادة التي يحظى بها الاحتفال بعيد الحبل بلا دنس.

اسم لوئس. أخبرنا هذا الثبيل عندما استفسرنا منه الأمر أنه ليست لديه أية فكرة على الإطلاق حول السبب الذي دفعه لإطلاق ذلك الاسم. كانت الزهرة مختلفة تماماً عن أية زهرة حقيقية، ولكنها بالتأكيد شكل معدّل من الزهرة التي سماها فيشباخ Fischbach لوئس في نماذجه الشرقية.

وقد نكون مخطئين لو اعتقدنا أنّ شعار النبالة للعدراء كرمز لولادتها بلا وصمة الخطيئة غريب عن هذا الجزء من إسبانيا، لأننا لم نتمكن من الاطلاع في إشبيلية على أعمال حول صنع الأيقونات والرموز المسيحية. ولكننا نفترض بأمان أنّ الأصل المصري لتصميم الجزّة في أعمال التطريز والتسيج غير معترف به بصورة عامة، حيث لا يأتي أيّ من المراجع المقبولة التي تمكّننا من الرجوع إليها على ذكره باعتباره من أصل مصري؛ في حين طرح أصله للفتاش، وهناك إقرار باعتباره غير معروف، والتشابه القوي بين تصميم مشغولات الإبرة المخرمة لمدينة أنتفيربن البلجيكية [أنفير بالفرنسيّة] التي اشتهرت باسم «پوتن كانت» Potten Kant منذ القرن السابع عشر، بفرعي هذا التصميم المتباعدين، وبين جزّة العدراء في القرنين الخامس عشر والسادس عشر التي تتكرّر في إشبيلية، يبدو دليلاً واضحاً يؤكد أنّ الفكرة الأولى دخلت إلى البلاد الواطئة (هولندا) عندما كانت تحت سيطرة إسبانيا. تذكر الآنسة شارپ⁽¹⁾ أنّ بعض المراجع اعتبرت أنّ تصميم «پوتن كانت» هو «امتداد لتصميم أبكر يشمل صورة العدراء والبشارة». ولكنها تضيف بأنه «لا يعرف ما إذا كان قد شوهد على الإطلاق أيّ تركيب أكبر حجماً». إنه بالتأكيد كما تقترحه الآنسة شارب تصميم تقليدي يتعلّق بالعدراء ولكنه يحتلّ في إشبيلية موقفاً أكثر أهمية بكثير كرمز لولادة مريم العجائبية نفسها من كونه تصميمًا ثانوياً في صور البشارة.

لا تنتشر زنبقة الثبيل على نطاق واسع في هذا الجزء من الأندلس. تنمو زنبقة الماء الصفراء الصغيرة كنبات برّي ولكن بصورة محدودة في نهر وادي الرّحي الذي يبعد مسافة ميلين أو ثلاثة عن إشبيلية، ولكننا نعتقد أنّ زنبقة الماء البيضاء هذه ليست من

(1) *Point and Pillow Lace*, p. 158.

نباتات المنطقة الأصلية، كما أنها لا تزرع في أي من بساطتها. لذلك لا يمكننا ان نعزو الاستعمال التقليدي للزهرة في التصميم إلى أية تأثيرات محلية، كما يجب عدم الافتراض بأن معناها الأصلي واضح في أذهان أولئك الذين ينسخون الخطوط الخارجية الجميلة لشمعة المذبح المصرية. إنها بالنسبة لهم مجرد «الزهرة» (لا فلور *la flor*). أمّا لم هي كذلك، فهم لا يسألون. إنهم يستخدمون «الزهرة» - التي هي اليوم مجرد زهرة بحكم العادة ليس إلا - في أعمالهم لأن آباءهم وأمهاتهم فعلوا ذلك من قبلهم. ويتمسك فلاحو الأندلس بقوة بالتقاليد التي يكتنون احتراماً كبيراً لها. وهم مثل المصريين في شدة تكرمهم للموتى.

قد يظن قراؤنا، الذين يملك عدد قليل منهم أية معرفة وثيقة بالتصميم التقليدي الإشبيلي، بأننا ميّالان إلى التركيز على فكرة اللؤلؤس أو زنبقة النيل؛ ولكن الذين شاهدوا مجموعتنا من نماذج تصاميم اللؤلؤس؛ «شجرة اللؤلؤس»، ولوتس «شمعة المذبح» التي تعدّ بالمشات من مختلف الأشكال، سيندهشون كما دُهشنا أمام استمرار التقليد المذهل. فالأمر لا يتعلق بتصميم واحد بين أنماط عديدة من تصاميم الأزهار، التقليدية وغير التقليدية؛ فمن غير المبالغ به القول إنّ «الزهرة» تشكّل 95% من كافة أنماط الزهور المستخدمة في إقليم إشبيلية وولبة وقادس وفي إقليم الغرب، بغض النظر عن المادة التي استُخدمت للتعبير عن هذا التصميم في الأعمال الحديثة والقديمة على حدّ سواء. كانت دائماً اللؤلؤس المصرية في أنقى أشكالها وليس اليونانية على الإطلاق، والحقيقة الأغرب في هذا النسخ المتواصل لهذا الرمز القديم للحياة هي أننا نجده في أعمال - كمثل قطع الأثاث - صُنعت قبل خمسين أو مئة سنة، مرسوماً بطريقة ممتازة في خطوطه الخارجية ولكنه مقلوب رأساً على عقب، الأمر الذي يثبت أنه لم تكن لدى الفنان أية فكرة حول ما يمثله الشكل الذي صنعه بكل طيب خاطر. نشك فيما لو أنّ تقليداً يستمر في الوجود في أي بلد آخر على هذا النحو، باستثناء مصر، حيث كما بدأنا حديثنا بالقول، تشكل زهرة اللؤلؤس على ما يبدو أساس كل الفنون الزخرفية تقريباً.



الفصل الثالث والعشرون

صناعات الأندلس تحت الحكم الإسلامي

نختم هذا الكتاب بتقديم قائمة بالمدن الكبيرة والصغيرة التي استقرّ فيها اليمانيون والمصريون في القرن الثامن وما بعده، أو التي بقي فيها سكانها المسيحيون بموجب معاهدة أو حلف عقدوه مع المسلمين؛ وقد أشار الكتاب المسلمون إليها لما اشتهرت به من الحرف والصناعات⁽¹⁾.

لم ترد في حالات عدّة أسماء القبائل أو العائلات، ولم يتم في كثير من الحالات الإشارة إلى صناعات بعينها مورست في أماكن ثانوية قطنها يمانيون أو مولّدون؛ لكن الأبحاث اللاحقة سوف تعزّز بالتأكيد الأدلة على أنّ اليمانيين والمصريين والمسيحيين القوط الذين عاشوا في ظل الحكم الإسلامي كانوا من الصّناع والحرفيين والميكانيكيين الذين لم ينتجوا الكماليات التي استخدمت في بلاط قرطبة فحسب، وإنما كذلك السلع التي شكّلت أساساً لحركة التصدير المزدهرة إلى الشرق، وكانت مصدر ثراء كبير لإمارة قرطبة في عهد الخليفة عبد الرحمن الثالث.

قلعة جابر Alcala de Guadaira (قلعة يحصّب)⁽²⁾: قبيلة يحصّب. من أملاك

(1) لا تشمل الصناعات السائدة في اليوم الحاضر ما لم يكن لها بعض العلاقة الظاهرة مع الفن العربي التقليدي.

(2) بعد قلعة جابر يورد المؤلفان داخل مزدوجين قلعة يحصّب، لكن المقرّي يورد أن قلعة بني سعيد عرفت كذلك باسم قلعة يحصّب في كتب التاريخ، نظراً لأن عدداً كبيراً منهم عاشوا فيها: «والأصبحيون من أعيان قرطبة، ومنهم من يتسب إلى يحصّب، قال ابن حزم: إنه أخو ذي أصبح وهم كثير بقلعة بني سعيد، وقد تعرف من أجملهم في التواريخ الأندلسية بقلعة يحصّب».

الأميرة سارة. الصناعات: الخبز الذي كان يستهلكه أهل إشبيلية منذ العهود الرومانية. زراعة الأزهار والأشجار المثمرة (البستنة).

الكالا لا ريال: قلعة بني سعيد. هي Alcala de Aben Zaide كما ورد في الحوليات العائدة للقرن الثالث عشر). بنو سعيد هم أحفاد الأميرة سارة.

الجزيرة: حمداني. معافري. قلعة طرش، جزء من أملاك المنصور كانت هنا. وكان لا يزال في القرن السابع عشر برج قائم يبدو أنه كان تابعاً لقلعة طرش التي كانت ملكاً للمنصور.

القنت Alicante: ولاية تدمير، احتفظ بها المسيحيون بموجب معاهدة موقعة مع عبد العزيز، ابن موسى بن نصير عام 714. كانت دائماً مسيحية ويمانية. الصناعات: الحُصر (حصائر القصب) التي لا تزال تصنع في مختلف المناطق التي كان يقطنها عدد كبير من المسيحيين تحت الحكم الإسلامي. واحتفظت هذه الصناعة بالاسم اللاتيني Esteras الذي استعمله القوط. زراعة الفاكهة، وعلى وجه الخصوص زراعة الكرمة لإعداد الزبيب.

المريّة: قبائل جُذام والأنصار من بين قبائل أخرى. كانت دائماً يمانية مع أنّ قائداً بربرياً استولى على الحكم فيها في القرن الحادي عشر واستمرّ يحكمها لسنوات عديدة. الصناعات: بناء السفن (اشتهر هنا حوض لبناء السفن منذ القرن العاشر إن لم يكن قبل ذلك)، الدباج، حرير الدمقس، الطرز، أواني الزجاج، الحديد، النحاس، الثمار المغلفة بالسكر، زراعة الأزهار والأشجار المثمرة. يقول الشقندي الذي كتب قبل عام 1231 إنّ تجاراً مسيحيين أقاموا مصانع هنا تحت حكم الأمراء اليمانيين الذين كانوا يتاجرون على نطاق واسع مع إيطاليا. (انظر الصفحة 270، المعاملات التجارية بين ابن مردنيش وبيزا وجنوة). يشير السنيور غوديول في كتابه «الآثار المقدسة»

(المقري، الجزء 1، ص 297). ولعلّ هناك خطأ مطبعياً وكان ينبغي أن يرد اسم قلعة يحصّب

بعد قلعة بني سعيد في الفقرة التالية. (م)

قلت: كذلك كانت قلعة يحصّب تُذكر في بعض الحوليات الأندلسية باسم: Calayaseb، انظر

كوندة إصدار هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، ج 3 فصل 21. (أحمد)

(*Arqueologia Sagrada* الصفحة 409، الهامش) إلى أنسجة حريرية عربية الطراز تماماً عرفت بأسماء: نسيج ذهبي إسباني، حرير إسباني، وحرير موشح إسباني⁽¹⁾ كما وجدها في سجلات الجرد الكاتالونية القديمة. هذه الأقمشة أنتجت على الأرجح في المشاغل المسيحية الإسبانية التي أقيمت في القرية وغيرها من المدن التي كانت تحت حكم ابن مردنيش في القرن الثاني عشر.

بطليوس: قبائل من حضرموت، تُجيب. بني مسلمة، من أحفاد الأميرة سارة تفرعت منهم سلالة أمراء بني الأفطس في القرن الحادي عشر. الصناعات: زراعة الأشجار المثمرة، المشغولات الخشبية والخزفية الرائعة.

يتاسة: مسيحية، جزء من أملاك الأمير أرطباس (أرطباش). العديد من اليمانيين الذين لم تذكر أسماء قبائلهم. الصناعة: الزعفران.

جزر الباليار: قبيلة جُدام. الصناعات: زراعة الأزهار والأشجار المثمرة، الصناعات الخزفية الرائعة.

باجة: هي الآن جزء من البرتغال، ولكنها كانت في السابق مشتملة ضمن حدود لاندلس التي امتدت شمالاً حتى قلنبرية. استوطنها المصريون واليمانيون ومن بينهم قبيلة يَحْصُوب. الصناعات: دباغة الجلود، صناعة المشغولات القطنية، مناجم الفضة. لا زالت تتج في مختلف أنحاء هذه المقاطعة مشغولات الدنثيلا أو الوسائد المخزّمة والمشغولات المطرزة ذات التصاميم القبطية العربية الواضحة.

قلعة رباح (إقليم): قبيلة جُدام. مدينة ألماغرو Almagro في هذه الولاية هي مركز صناعة الوسائد المخزّمة المتوارثة على مدى العصور القديمة دون معرفة منشئها. النماذج المبكرة المعروفة تقلّد تقنية تخريم الوسائد التي عُثر عليها في قبور أنطينوبوليس القديمة⁽²⁾.

(1) *drap d'aur de Spanya, ceda de Spanya, and ceda girasol de Spanya.*

(2) أنطينوبوليس Antinoë شيدها الإمبراطور اليوناني هادريان في النصف الأول من القرن الثاني بعد الميلاد، على ضفة النيل الشرقية قرب مدينة ملوي جنوب القاهرة فيما يعرف اليوم باسم الشيخ عبادة. (م)

شطرة: قبيلة لخم. الصناعات: البستنة. سجل إنتاج بطيخ بحجم هائل هنا خلال القرن الحادي عشر. يعود أصل اسمها إلى العربية «البطيخ السندي» أو «سنديالي» ومنه اشتقت كلمة *sandia* الإسبانية⁽¹⁾.

قونكة: لم يعرف بعد تاريخها المبكر. الصناعات: السجاد الصوفي. كانت المدينة في القرن الحادي عشر تابعة لسلالة اللخميين الحاكمة في إشبيلية ومُنحت كجزء من بائنة الأميرة زائدة عند زواجها من ألفونسو السادس. بنيت فيها لاحقاً مدرسة متقدمة لتعليم النقش في العاج. وتنتمي تصاميم أقدم النماذج الموجودة فيها إلى النمط القوطي العربي. يوجد أحد هذه النماذج في متحف ساوث كنزنتون ويوجد نموذج آخر في كاتدرائية پامبلونة. طالبت الكونتيسة ماري دي أُلنسون [فرنسا] في عام 1373 بملكية قونكة باعتبارها سليله فرناندو دي لا ثُرده ابن ألفونسو العاشر ملك قشتالة. أسست صناعة للدنتيلا في أورياك Aurillac [في فرنسا] في القرن الرابع عشر. وليس بوسعنا القول ما إذا كانت أورياك جزءاً من أملاك الكونت دي أُلنسون (شقيق الملك فيليب السادس، ملك فرنسا) في تلك الفترة ولكن يجب أن نذكر أن اسم قونكة ارتبط بقطعة أورياك الأنيقة وقطعة إسبانيا باهظة الكلفة في القرن السابع عشر قبل وقت قصير من إنشاء كولبير لمصنعه الذي اشتهر بقطعة أُلنسون. يقال إن أورياك أرسلت مدرّسين في المشغولات المخزّمة إلى قونكة، ولكن نظراً لأن قونكة كانت في ذلك الوقت مدينة محتضرة وكان مركزها يتراجع باستمرار منذ ذلك الوقت حتى لم تعد اليوم أكثر من مجرد قرية، يبدو لنا بناءً على ذلك أن الأرجح، نظراً لارتباطها بكونتيسة أُلنسون أنّ قونكة هي التي أرسلت مدرّسين لتعليم شغل التخريم ولم يُرسل هؤلاء إليها. (سوف نتناول هذا الموضوع في بحثنا حول قطعة إسبانيا، المجلد الثاني).

دانية: يمانية ومسيحية (أراضي تدمير). الصناعات: الخزف المصقول أو المزجج. قد تعود صناعة التزجيج الفرحي الألوان للخزف في إشبيلية إلى تاريخ زواج المُعتمد بن عباد من ابنة مجاهد العامري، أمير دانية وجزر البليار في حوالي العام 1048 مع أن

(1) كلمة *sandia* الإسبانية تعني البطيخ. (م)

هذه الصّناعة وجدت هنا على مرّ التاريخ الممّعن في القدم.

إبيرة: يهود ويمانيون. الصّناعات: البستنة.

غرناطة: معظم سكانها من المسيحيين. قبائل من حضرموت، الأزد، مذحج. الصّناعات: زراعة الأزهار والأشجار المثمرة، والحريز، وكثير غيرها.

ابن التسليم: (محافظة صيدونيا (شذونة) واليوم إقليم قادس). يمانية. صناعاتها: الملابس الصّوفية التي لا تزال تُحاك باليد هنا.

يابسة: جزر الباليار. يمانية. صناعة الملح.

جيان: إحدى المدن الرّئيسية ضمن أملاك الأمير أرتباس. مسيحية، مصرية ويمانية. بلغت تربية دود القزّ أو دود الحريز فيها شهرة متناهية، بحيث أطلق عليها المسلمون اسم «جيان الحريز»⁽¹⁾.

شاطبة: إقليم تدمير. مسيحية ويمانية. الصّناعات: صناعة نسيج الكتّان وورق الكتّان.

لشبونة وشترين: يمانية ولكن لم تُذكر القبيلة التي عاشت فيها. لكن يُستنتج من مختلف الدّلائل أن قبيلة لَحْم حكمتها. الصّناعات: الذهب والعسل.

لورقة (ولاية تدمير): مسيحية ويمانية. الصّناعة: مناجم اللازورد. كان الحجر الكريم يُقطع ويُصقل حال استخراجِه لتصديره إلى الشرق.

مالقة: قبيلة الأزد. الصّناعات: مناجم (لم يُذكر المعدن المستخرج منها)، الحريز، الدّيباج، الطّرز، الخزف المذهب، الزّعفران، الزّيبب والتّين الذي تميّز بنوعيته وذاعت شهرته في الشرق بأكمله.

مدينة صيدونيا (شذونة): مسيحية ويمانية عبر التاريخ. الصّناعات: الخزف المصنوع من صلصال أسود خاص لا يزال يوجد في حفر الصّلصال في المدينة، ولا

(1) المقرئ، ج 2، 228، ج 3، 217. (م)

يزال يستخرج ويصنع يدوياً هنا. ولا تزال حُصْر القصب تصنع هنا من قبل الغجر (مصريون) الذين يقطنون المنطقة، بتصاميم عربية ماثلة فيها بقوة أكثر من أية تصاميم أخرى شاهدناها. الزّراعة.

مُرسية. (ولاية تدمير): مسيحية ويمانية. الصّناعات: الأقمشة الحريرية، السّجاد، حُصْر القصب، وصناعات أخرى عديدة لا نستطيع حصرها» (الشّقندي. كتب في أوائل القرن الثّالث عشر). البستنة وعلى وجه الخصوص أشجار الفاكهة.

شَلطيش (اليوم إقليم ولبة): حكام مولدون من القرن التاسع حتى القرن الثّالث عشر. البكريون⁽¹⁾. لا تزال الرّوح القبطية والعربية ماثلة في التصاميم التّقليدية في كافة أنحاء هذه الولاية، كما هي السّحنة التّوتونية بين النّاس. الصّناعات: السّمك المملح للبيع في سوق إشبيلية التي كانت تستهلك منه كميات كبيرة. الخزف بأشكال رومانية. سانتا ماريّا دي أوكسونوبا (شتمرية دي أكشونة): (بين ولبة وفارو. اختفت هذه المدينة ولكن يوجد في الموقع اليوم رأس سانتا ماريّا). استوطنها المصريون واليمنيون في القرن الثّامن (انظر شَلطيش).

إشبيلية: قبائل حضرموت، هوازن، خولان، مراد، لَحْم. بقي المسيحيون في إشبيلية والمناطق المحيطة بها من دون أن يتعرّضوا لمضايقات بعد الفتح الإسلامي. كانت حاضرة بلاط الأميرة سارة حفيدة فيثيتسا (غيطشة) بعد وفاة والدها الأمير المُند.

(1) يقول المقرئ إنّ البكرين الذين نزلوا في شَلطيش ولبة وشتمرية دي أكشونة، والذين ورد ذكرهم كثيراً في الحروب التي جرت في القرنين التاسع والحادي عشر إلى جانب اليمانيين والمولدين يتسبون إلى قبيلة مُضَرّية، ولكن الشّنيور پونس يؤكّد أنهم كانوا من المولدين، ويبدو أنهم كانوا من السّلالة الحاكمة يتسبون إلى الأميرة سارة وتربطهم صلة قرابة بأبي بكر أحد أجداد ابن القوطيّة.

العائلات المتحدرة من الأميرة القوطية

سارة - عيسى بن مزاحم (الزوج الأول)

بنو إسحاق - بنو إبراهيم

مارية والدة عبد الرحمن الثالث

أحمد بن إسحاق - أمية بن إسحاق

أبو بكر بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم (ابن القوطية)

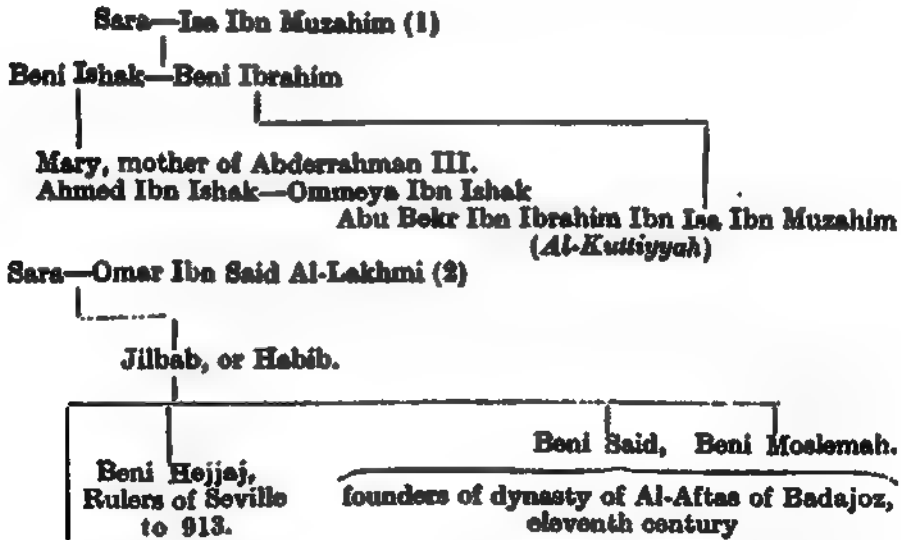
سارة - عمير بن سعيد اللخمي (الزوج الثاني)

جلباب أو حبيب

بنو حجاج، حكام إشبيلية حتى عام 913

بنو سعيد، بنو مسلمة

مؤسسو سلالة بني الألفس التي حكمت بطليوس في القرن الحادي عشر.



بنو جرج (Beni Jurz, or Jorj) (George). مسيحيون ملكوا عدة قلاع حصينة في الحرب الأهلية في القرن التاسع (مار جرجس واحد من القديسين الأقباط الأكثر شهرة بين الناس)، ومن المحتمل أنه جرت تسمية قلعة سان خورخه في طريانة نسبة إليهم، وكانت تحمل هذا الاسم قبل حرب الاسترداد.

يبدو أن أحفاد الأميرة سارة الذين اعتنقوا الإسلام اتخذوا كذلك أسماء عربية. أما الذين احتفظوا بدين جدّتهم فيمكن تتبّعهم من خلال أسمائهم المسيحية. كان بنو حجاج ذوي شأن في إشبيلية حتى الربع الأخير من القرن العاشر، ولا يظهر اسم هذه السلالة خلال احتلال المرابطين ولكن ربما تكشف أبحاث لاحقة أدلة تؤكّد أنهم بقوا فيها.

يظهر الاستمرار في استعمال اسم قلعة بني سعيد حتى عام 1263 أن هذه السلالة المتفرعة من الأسرة المالكة القوطيّة - اليمانية كانت لا تزال موجودة في الإقليم حيث كانوا يملكون أراضي وعقارات قبل قرنين منذ ذلك التاريخ على الأقل. كما أن ذكر «Venabet» (ابن عبّاد) في كتاب «ريپارتيمييتو» Repartimiento الذي يتضمّن سجلّاً للمنع الملكية للقرن الثالث عشر يبيّن أن أحفاد بني عبّاد كانوا يحفظون بمعاملة ذوي الشأن في إشبيلية في ذلك الوقت.

وصناعات إشبيلية التي ذكرها مختلف الكتاب العرب: بناء السفن والهندسة المعمارية (إشبيلية هي المدينة الوحيدة التي يتغنّى الكتاب العرب على اختلاف عصورهم بروعتها وجمال أبنيتها بوجه عام، وكان الموحدون وغيرهم من السلالات المسلمة التي حكمت المغرب، يستقدمون المهندسين من إشبيلية)، الأقمشة الحريرية، الآلات الموسيقية، وزراعة مختلف الأزهار والأشجار المثمرة. اشتهرت بصياغة الجواهر المرصّعة بالأحجار الكريمة والتي يوجد نموذج منها في المتحف الوطني في مدريد يشير إلى أنه صنّع للمُعتمِد بن عبّاد من قبل (حفيدة) ابن السّراج. ولا تزال قطع الأثاث المطعّمة تصنع في إشبيلية وفق التصاميم التقليديّة. ومن بين المنتجات التي يذكرها الكتاب الشرقيون الذين يزورون إشبيلية ويعتبرونها تستحق الثناء بشكل خاص؛ الخمور والزيتون والبرتقال والليمون، والليمون الأخضر، ونوع نادر من التين يُسمى «القوطي»، والخضار على أنواعها ومن ضمنها الخيار والملفوف.

وكانوا يربّون ويجمعون القرمز⁽¹⁾ على نطاق واسع، كما زرعوا شجرة الطقّسوس التي تصنع من أغصانها الأقواس، «التي كانت تنبت هنا بوفرة تفوق أيّ مكان في العالم». ولطالما امتدحت فاكهتها المجفّفة ومطبخها. كانت مشغولات القصب والخيزران (ولا تزال) حرفة العديد من العنجر (المصريين) في طريانة التي كان قسم كبير من سكانها منهم. أمّا صناعة الخزف فيها فموغلة في القدم.

طليطلة: عاصمة ممتلكات الأمير رُملة (رومولو) الابن الأصغر لغبطشة (فيتيسا). كان معظم سكانها مسيحيين طوال فترة الحكم الإسلامي إلى أن استعادها ألفونسو السادس عام 1085 استجابة للنداءات العاجلة التي وجهها إليه المسيحيون. عُرف هؤلاء بالمستعربين، وكانوا مثل المسيحيين القوط في أراضي إشبيلية التي كان يملكها شقيق رومولو الأكبر. استقرّت قبيلة الأزدي اليمانية في طليطلة مع المسيحيين في حين استقرّ أبناء قبيلة كنانة المضرية التي كان يوجد لها فرع هنا وبصورة رئيسية في النواحي الواقعة خارج حدود المدينة. اشتهرت طليطلة على مرّ العصور بصناعة الدروع والمصنوعات المعدنية المُكفّنة، وهي حرفة فنيّة لا تزال حيّة إلى اليوم⁽²⁾.

أبذة: يمانيون، لم يذكر اسم القبيلة. الصناعات: زراعة الكرمة.

بلنسية: لا يرد ذكر خاص للقبائل التي استوطنت هنا، ولكنها كانت قبائل يمانية

(1) أورد المؤلفان أن حشرة Cochineal كانت تربي في إشبيلية قبل سقوطها في منتصف القرن الثالث عشر، وذلك قبل أكثر من قرنين من اكتشاف أمريكا في نهاية القرن الخامس عشر حين اكتشف المستوطنون الإسبان هذه الحشرة التي موطنها الأصلي أمريكا الجنوبية والمكسيك وكان يستخدمها الأزتك والمايا لصنع اللون القرمزي بعد جمعها من على نبات الصّبار الذي تعاش عليه. استثمرها الإسبان وياتوا يصدرون الصّباغ إلى أنحاء العالم. أما في الأندلس فاستخدم القرمز لصنع اللون الأحمر القاني حيث يورد المقرّي نقلًا عن ابن البيطار أن القرمز «نوع من الثمن الذي يجمع عن الشجر». ويقول المقرّي إنه اشتهر في إشبيلية ولبلة وشذونة وبلنسية. (الجزء 1، ص 141، 208) (م)

(2) وتعرف باسم: داماسكينادوس Damasquinados نسبةً إلى مدينة دمشق، وهي تتم بتخشين سطح المعدن عن طريق تحزيزه بمبارد دقيقة، ثم تطريق خيوط ذهبية أو فضية عليه تثبت في أنلام المبرد وتُشكّل بها رسوم زخرفيّة بديعة، وتعرف هذه الصنعة بفن التكنيف. (أحمد)

بصورة رئيسية وكان لبلنسية حكام يமானيون على الدوام ما لم يستول المعسكر المعارض مؤقتاً على الحكم. اشتهرت المدينة على مر العصور بفنون البستنة وبالأخص زراعة الأزهار. أطلق الكتاب العرب على المدينة اسم «مطيب الأندلس»⁽¹⁾ و«حزمة العشب العطرة». وكان يزرع فيها الزعفران ونوع متميز من الكُمثرى (الإجاص). كتب الشقندي في القرن الثالث عشر أن بلنسية كانت جنة المسرات وأن الإزعاج الوحيد كان «رقص البراغيث فيها ... على غناء البعوض»⁽²⁾. لا تزال بلنسية مشهورة بالبستنة وأزهارها ذائعة الصيت، ولا تزال الكُمثرى «حلوة المطعم ذكية الرائحة» تزرع فيها وتصدر إلى كافة مناطق جنوب إسبانيا.

سَرُقْسطة: تقدّمت قبائل همدان، وتُجيب والخزرج على هذه المدينة منذ الفتح الإسلامي. واشتهرت بصناعة الملح، والبستنة بصورة عامة، والفاكهة المحفوظة والحمص المصري garbanzos الذي لا يزال الغذاء الرئيسي للفلاحين عبر كافة مناطق الأندلس.

شكّل أبناء القبائل المُضَرّية غالبية في عدد قليل من المدن، ولا يذكر الكتاب العرب أنّ أيّاً منها اشتهرت بصناعة معيّنة. عاشت بالتأكيد عائلات مُضَرّية في بعض الأماكن المذكورة أعلاه، ولكنها كانت دائماً أقلية فيها. ولم يشر الكتاب العرب إلى صناعة الجلود والحليّ الفضيّة المرصّعة بالألماس والصباغة التخريمية اليدوية الدقيقة للفضّة والذهب في قرطبة، على الرغم من أنها أصبحت مشهورة تحت الحكم المسيحي.

ذكرت أماكن أخرى عديدة عمرتها قبائل وعائلات ذات أصل يمانيّ، ولكننا اكتفينا في هذه القائمة بذكر تلك التي لها علاقة بالفنون والحرف والصناعات. ومع أن الطرد النهائي للمورسكيين في القرن السابع عشر ولّد ركوداً واضحاً محلاً لكافة أشكال

(1) «وأما بلنسية فإنها لكثرة بساينها تعرف بمطيب الأندلس» (المقري، 3، 221) (م)

(2) وذلك في هذين البيتين:

ضاقَت بلنسية بي	وذاد عني غموضي
رقص البراغيث فيها	على غناء البعوض

(المقري، 1، 180)، لكن المقري لم ينسب هذه الأبيات لشاعر بعينه. (م)

الحرف والصناعات التي اشتهرت بها الأندلس في السابق، لم يندثر تماماً سوى عدد قليل من الفنون والحرف القبطية أو العربية فيها؛ فحتى الآن وفي حال وُجد طلب على مثل هذه المنتجات فإنه قلماً توجد صناعة لا يمكن إعادة إحيائها من خلال استخدام الرجال والنساء الذين أتقنوا في شبابهم هذه الحرف المحلية لتدريب غيرهم على أدائها. ولا تزال تُصنع في غرناطة وإشبيلية منتجات يدوية الصنع كأشرطة الحرير وأقمشة الكتان والسلال ذات التصاميم العربية. وتعتمد مدينة غرناطليما Grazalema - ابن السليم - في نصف مدخولها على صناعة الملابس الصوفية المنسوجة يدوياً والتي تشتهر بأنها لا يعترىها البلى.

تصنع أنواع الحلوى العربية والبقاوة باتباع الوصفات العربية التقليدية في مدينة شذونة وجبل العيون؛ وتنتج مشغولات جلدية مدموغة في إشبيلية حيث لا تزال تشاهد مشغولات مطرزة بصورة رائعة بين الحين والآخر؛ ولا تزال حرفة حفر وتعشيق الخشب *artesonado* والبلاط القيشاني الملون المقطوع باليد *alicatado* التي اشتهر بها العرب تشكل جزءاً من صنعة معلّمي التجارة والبنّائين المهرة في مقاطعة إشبيلية. وتصنع الأواني الخزفية باليد في كل قرية يوجد فيها حفرة صلصال؛ وتوجد الحُصر حيث يوجد مجتمع من الفجر. ولا تزال تشاهد في كل منزل الوسائد المخرمة، والدنّتيلا المشبكة، والمطرزات التي جلبها الأقباط وأوصلوها إلى ذروة الإتقان، الأمر الذي حض الملوك على إصدار المرسوم نلّو الآخر لتحريم صنعها باعتبارها سلعاً كمالية غير ضرورية اعتباراً من القرن الخامس عشر. ولا يمكن العثور على هذه المشغولات في السوق، لأن كل امرأة تصنع الكثير من كل نوع منها بحيث لا يحتاج أو يرغب أحد في شرائها.

وفي واحدة أو اثنتين من المدن الكبرى، أصبحت المشغولات «الإنكليزية» المخرّمة المكونة من جدائل مصنوعة على الآلات منتشرة لدى الطبقة الموسرة. ولكن لا تزال النساء عموماً، بنات الطبقات الميسورة أو البسيطات، يفضلن صنع المشغولات التقليدية المخرمة والمطرزة التي تعتمد على قطبة «المية»، والتشبيك،

والتطريز المنمق بطريقة التسلسل، وشغل الإبرة بتفانيه المختلفة التي تحمل أسماء «الشموس» و«العجلات» و«الشبكات» *soles, ruedas y randas* والذنتيلا المطرزة على الوسائد وفق تصاميم عربية ومصرية.

لسوء الحظ لم يعد الإسبان الأثرياء يشترون هذه المنتجات، ويفضلون شراء السلع الأجنبية المصنوعة بالآلات في مختلف فروع الاقتصاد المحلي.

يستورد البلاط المطبوع بكلفة كبيرة من فرنسا رغم الرخص والجمال المميز لبلاط الزليج اللامع *azulejos* أو الخزف القيشاني المقطع والمصنوع باليد محلياً؛ هنا تهدم السقوف الرائعة المصنوعة من الألواح الخشبية المعشقة الغائرة والمفعمة، لتوضع مكانها نسخ من الجص لزخارف شبه كلاسيكية إيطالية؛ ويتم التخلي عن الجلود الجميلة المطرزة والمدموغة والديباج المحلي الغني بتفاصيله الدقيقة من أجل الأطلس الساتان الجديد أو البلس القטיפي في تنجيد الأثاث في المنازل الفخمة والقصور؛ وحلت قطع الأثاث التي تشكل تقليداً لأثاث «لويس الخامس عشر» محل الخزائن والكراسي والطاولات الإسبانية المتميزة المصنوعة من خشب الأرز والماهوغاني المطلق بالخشب البرتغالي التي كانت في السابق تحتل مركزاً مشرفاً في منازل الملوك.

خلال جيل واحد أو جيلين من الآن ستصبح كل هذه الفنون والحرف مندثرة لعدم توفر سوق لها، ولكن حتى ذلك الحين يمكن أن يتعشش الطلب لو لقي تقديراً لدى الأثرياء. يقوم مدير وأمين عام كلية الفنون في إشبيلية السيد پتالوغو Pitalugo والسيد ماتوني Mattoni على التوالي في الوقت الزاهر بعمل شهم لإحياء وتطوير صناعة بلاط الزليج والقيشاني في المدينة؛ ولكن الإنتاج المدهش الذي يحققه طلاب الكلية لا يلقي سوى اهتمام محدود من أثرياء المدينة. تبنى سنوياً منازل فسيحة جديدة هنا بملايين الپيسيتات⁽¹⁾ ولكن - وعلى الرغم من أن أهل الفكر الأميركيين يعتبرون

(1) استخدمت الپيسيتا peseta كعملة في إسبانيا منذ عام 1869 وحتى 2002 عندما قبضت باليورو الذي استبدل حينها مقابل حوالي 166 پيسيتاس. (م)

حرفي إشبيلية مؤهلين جيداً للعمل كمدرسين في الكليات الفنية الأميركية - يضطر أولئك الذين يحافظون على التقاليد القبطية العربية إلى قضاء عمرهم في تركيب منتجات مصانع لندن وباريس أو نيويورك بدلاً من أن يستمروا في إنتاج القطع اليدوية الجميلة التي بقيت حية بفضلهم طوال ألف عام.



ملحق

ملاحظات على الفصل الأول

يلاحظ تشامبرلين في كتابه *"Foundations of the Nineteenth Century"* (أسس القرن التاسع عشر) أنه «في إسبانيا كان القوط الغربيون هم الذين يشكلون عنصر الحياة»⁽¹⁾. وتتجلى حيوية هذا العرق في أنهم حافظوا وعلى مدى قرابة سبعمئة عام على ديانتهم وتقاليدهم وحتى على أسماء عائلاتهم بين قوم غرباء يتبعون عقيدة هي في موقع عداء مع عقيدتهم. ومنذ عام 711 إلى 1390، عندما سُمح كما رأينا لأبناء وأحفاد «القوط الصالحين» بالعودة إلى إشبيلية، احتفظوا بأسمائهم ليس فقط في أرضهم الأصلية وإنما كذلك في المغرب، عندما اضطرتهم الحرب والاضطهاد إلى ترك الأندلس للاحتماء بالحكام المسلمين الذين وبعد نحو ثلاثمئة عام من ذلك أشادوا وأثنوا عليهم لدى ملك قشتالة مستخدمين عبارات المجاملة الواردة في الصفحة 33 (طبعة الأصل).

لقد أسىء فهم تاريخ الأندلس منذ لحظة وصول موسى بن نصير وحتى سقوط دولة الموحدين في إشبيلية في عام 1248 بصورة كبيرة، فلم يتم الاعتراف بالدور الذي اضطلع به المجتمع القوطي. ويقال إنه خلال احتلال القوط الذي استمرّ لثلاثة قرون لإسبانيا، قبل الفتح الإسلامي، «غرقوا في مستنقع الشهوانية نفسه الذي كان سبباً في خراب الرومان»... «وأباحوا الفساد على نطاق واسع» و«بزوا إن لم يتفوقوا على الوثنيين في فنون المكر والخبث»⁽²⁾.

(1) i. lxvi.

(2) S. Lane Poole, *Moors in Spain*, pp. 7 – 8.

يبدو أنَّ القوط تبَنُوا إِيَّانَ وصولهم إلى إسبانيا الثقافة الرومانية بشكل تام كما فعل العرب من بعدهم. ويقول دوزي إنه «منذ زمن القوط الغربيين، كانت إشبيلية مهذاً للعلوم والحضارة الرومانية، ومعقلاً لأشرف العائلات وأكثرها ثراءً؛ وبالكاد غُيِّرَ الفتح الإسلامي شيئاً في الظروف الاجتماعية»⁽¹⁾. لقد اعتمدوا العمارة الرومانية في بناء المنازل وكأنها جزءٌ منهم وقد كانت سائدة في إشبيلية منذ وقت طويل، وحرصوا على الإقليم وعلى إصلاح الطرق الرومانية وأقنية جرّ الماء والجسور والحصون. لقد عبّر المؤرخون العرب عن إعجابهم بالمدن الحصينة التي شاهدها في جنوب غرب الأندلس، مثل قرمونة على سبيل المثال في إقليم إشبيلية، «التي على الرغم من منعها بفضل موقعها وأسوارها القديمة استسلمت إسوة بإشبيلية وغيرها من مدن الأندلس». قابل موسى وقواته أثناء سيرهم من ماردة إلى طُلبلة «جسوراً رائعة» لم يروا مثيلاً لها من قبل، «لأنها بدت وكأنها ليست من عمل الإنس وإنما من عمل الجن المُنزَلين».

ومن بين المدن المنيعَة التي استسلمت لموسى بن نُصير لبلة التي لا تزال محاطة تماماً بأسوارها الرومانية، وأكشونية ومارتلة وباجة التي لا تزال آثار أسوارها وبوابتها الرومانية ماثلة للعيان. ولا شك أن استسلام هذه الأماكن من دون قتال عائد إلى تحالف موسى مع الأمراء القوط حيث أن قوة هذه الحصون لم ترد فقط في كتب المؤرخين الذين سجّلوا أحداث الغزو، وإنما أكّدها المقاومة التي أبدتها بعضها في وقت لاحق. فعندما أصبحت لبلة فيما بعد مقر قيادة الموحدين بعد سقوط إشبيلية في عام 1248، قاومت حصار جيش قشتالة بكل قوته عدة شهور بفضل قوة ومنعة أسوارها.

المدينة الوحيدة التي واجه فيها موسى مقاومة هي ماردة التي هرب إليها أنصار لُذريق (رودريك) وكانت تعيش فيها أرملة. وقد تطابقت النتائج التي توصلت إليها الحفريات الحديثة مع الوصف الذي نقله كونه عن المدينة:

يعزو هذا الكاتب سقوط المرابطين للتعب نفسه - أي الانحدار الأخلاقي التاجم عن الفنى والأبهة الذخيلة، لكنه في هذه الحالة يعطيهم فقط عشرين سنة لكي يفقدوا عاداتهم العسكرية وحماسهم وشغفهم للقتال (4 - 183 pp).

(1) G. der M., i. 392.

«عندما رأى موسى تلك المدينة قال لقادة عسكره: «يبدو أن كل فنون وقوة البشر اجتمعت لتشيد هذه المدينة، إنه لسعيد الحظ من يفوز بها». وأرسل يدعو المدينة للإذعان وفق شروطه المعتادة؛ لكن سكانها الواثقين من أسوارهم العالية الشامخة، ردوا على خطابه باستخفاف». وعندما جُوعت ماردة بعد طول حصار واستسلمت، ودخلها موسى، «وقف مشدوهاً أمام عظمتها وروعة مبانيها»⁽¹⁾. يورد المقرئ أقل بكثير مما يورده كوندّه عن حصار المدينة، لكنه يلاحظ أن «هذه المدينة فسيحة تمتد أراضيها لمساحات شاسعة، وفيها آثار قصور وكنائس جليلة القدر، ومبانٍ فائقة الوصف، وغيرها من المباني العامة»⁽²⁾.

وتجري حالياً حفريات في مواقع «القصور والكنائس وغيرها من المباني العامة، وهي ليست فحسب بذلك البهاء الذي تغنى به العرب، وإنما تثبت أن القوط وبعيداً عن أن يهدموا أو حتى يهملوا الإنجازات المعمارية التي حققها أسلافهم، بذلوا جهدهم للحفاظ عليها؛ فالمدرّج، ومعبد فيستا Vesta وغيرها من الآثار المكتشفة في الآونة الأخيرة، تبدو رائعة وفي حالة جيدة مثلها مثل آية مبانٍ معروفة تعود إلى الحقبة ذاتها»⁽³⁾.

لقد تكوّنت لدينا قناعة شخصية بأن المباني البسيطة مثل معبد شنت ياقب في شذونة (مراجعة الصفحات 136 - 137 طبعة الأصل) لا ينبغي النظر إليها، كما يبدو أن الحال كانت عليه حتى الآن، بوصفها مثلاً يقدّم صورة عادلة للعمارة القوطيّة الغربيّة. حيث لا يمكن في أي بلد من البلدان أن يُعثر على أرقى المنجزات الفنيّة لشعب من الشعوب أو حقبة معيّنة في القرى النائية أو المعابد الجبلية. فلماذا ينبغي إذن الافتراض بأن مثل هذه الآثار في المناطق القوطيّة في إسبانيا تمثل أرقى ما بلغه قوط إسبانيا في إبداعهم؟

(1) Conde, i. 41, 44.

(2) i. 284.

(3) يمكن مقارنة ما فعله ثيودوريك، القوطي الشرقي «الذي أولى عنايته منذ البدء لاتخاذ تدابير صارمة لحماية وترميم الصروح الرومانية»، والتي كان المسيحيون المتعصبون التابعون لروما يذلون كل جهد لهدمها. (Chamberlain, *Foundations*, i. 322.)

نحن نميل للاعتقاد بأنه مع مرور الوقت سيتبين أن قسماً كبيراً مما صُنّف باعتباره ينتمي إلى فترة متأخرة من العمارة الرومانية في إسبانيا هو في الحقيقة قوطي غربي. فلو كان رومانياً حقاً لكان بعضه في حالة متقدمة من التحلل. ولكن وبالنظر إلى كونه عملاً انتجته أمة حديثة خرجت لتوها من الوحشية، نجد أن هذا الفن يحمل خصائص مثيرة للاهتمام. ولسنا هنا في مجال الخوض في تفاصيل النمط الذي في ذهننا، والذي لا يمكن أن نلقي الضوء على أهميته إلا من خلال استعراض العديد من الصور، ولكننا نأمل أن يتسنى لنا الخوض في هذا الأمر باستفاضة في المستقبل.

نسب رن⁽¹⁾ القوس المستدق المعروف باسم القوس القوطي إلى العرب، وقد أدخل عليه المسيحيون تحسينات. ونعتقد أنه بات اليوم مقبولاً بصورة عامة أن القوس المستدق جاء من الشرق، على الرغم من أن مصطلح قوطي Gothic المستخدم للإشارة إلى الطراز المعماري الذي يشكل فيه هذا القوس خاصية رئيسية، لم يحظ يوماً بشرح يفي بالغرض. وعليه فإننا نخاطر بأن نفترض بأن الاسم نشأ من الطراز المعماري الذي طوره المسيحيون القوط في جنوب إسبانيا بتأثير من الأقباط. لم تندثر تقاليد العمارة القوطية في جنوب غرب الأندلس في أي وقت من الأوقات، ولا تزال صفة «قوطي» gótico مستخدمة هنا بمعنى مختلف عما تعنيه في أماكن أخرى. فالفلاحون الأتيون في الجبال والذين لا يعرفون بالطبع أي شيء عن المصطلحات والحقبات المختلفة للفن الأوربي، يستخدمون تلك الصفة لوصف المباني والمنحوتات التي تعود إلى فترة سابقة بكثير عن أي شيء يمكن نعتة بالـ «قوطي» بالمعنى الشائع للكلمة.

إن التلميح بأن مصطلح «قوطي» استخدم بطريقة ساخرة من قبل المهندسين المعماريين الإيطاليين المثقفين لوصف العمارة القديمة المستنّة قد يكون له في الحقيقة منشؤه، حتى وإن كان يعود لتاريخ سابق عما هو منسوب له. فالفرسان الغريباء الذين كانوا يرافقون جيش قشتالة في الحروب التي خاضها فرناندو الثالث وابنه ألفونسو العاشر في القرن الثالث عشر، ربما فاجأتهم فظاظة الكنائس المسيحية

(1) المهندس الإنكليزي الشهير كريستوفر رن Wren. (م)

البازيليكية التي رأوها في إشبيلية والتي بما أنها كانت كنائس للقوط، فقد كان من الطبيعي أن توصف لهم باعتبارها قوطية.

وعلى امتداد مئة سنة على الأقل قبل حرب الاسترداد، شهدت العمارة المستدقة في إشبيلية والنواحي المجاورة لها تراجعاً مقارنة مع معدل انتشارها المتوقع بصورة طبيعية، نظراً لعشق الموحدين للعقد الشبيه بحدوة الفرس وأعمال الجص المفرغ المخترم التي كانت منتشرة حينها في البلدان الإسلامية في الشرق. ويمكن دراسة التأثير المدبر لهذه المدرسة المعمارية على الذوق القبطي القوطي في قضاء إشبيلية في كنيسة سانلوكار لا مايور والتي يشار إلى أن بناءها أنجز في سنة 1214. هنا تمتاز العقود التي ميّزت العمارة المغربية الأفريقية والزخرفة المغربية الأفريقية مع الأعمال القوطية الصرفة لتكون النتيجة مزيجاً محيراً وصفه مسلمو الأندلس والمدجنون على أنه «طراز معماري غريب صنعه الفنانون المغاربة من أجل أسيادهم النصاري بعد حرب الاسترداد». لم يكن هذا الطراز المفضل لدى إسبانيا الأندلس بعد الاسترداد، حيث أن كل كاتدرائية وكنيسة وحصن مسجلة على أنها بُنيت أو أعيد بناؤها بين القرن الثالث عشر والقرن الخامس عشر تتفق مع الطراز المعماري «القوطي» الذي كان سائداً حينها في أوروبا.

منذ منتصف القرن الثالث عشر وحتى بداية القرن السادس عشر، لا نجد شيئاً غير الأعمال القوطية، وليس هناك أي مبنى ذو أهمية بُني على الطراز «المغربي» في أي مكان في نواحي إشبيلية. وقد بُني حينها قصران شهيران أو أعادت عائلة ريبيراس Riberas بناءهما في إشبيلية، وهي واحدة من كبرى العائلات التي عاشت في تلك المدينة في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وأحدهما هو كاسادي لاس دوينياس Casa de las Dueñas، المعروف اليوم باسم قصر دوق ألفا Alva، والذي باعه المالكون الأصليون إلى عائلة ريبيراس لكي يجمعوا المال لدفع الفدية وإنقاذ كبيرهم، خوان دي فينيديا، الذي سقط في يد القراصنة المغاربة. وقامت عائلة ريبيراس بترميم القصر وإعادة تزيينه. والثاني هو ما يسمى منزل بيلاطس، ويملكه اليوم دوق

مدينة سالم، أحد أحفاد عائلة ريبيراس. وتشكل الزخارف الموجودة في هذين المنزلين نسخة من الطراز الذي نشره الموحدون وكلاهما يعودان إلى الحقبة نفسها، على الرغم من أن منزل دوق ألفا يحتوي على آثار تعود إلى فترة أقدم وهي بلا شك ما تبقى من فترة الحكم الإسلامي. ولكنهما قلما يمكن أن يشكلا مثالا للأذواق الفنية لعائلة واحدة. المباني الأخرى الرائعة التي تقدمها الأدلة السياحية بوصفها «تنتمي إلى الفن المدجن» أو «الموديخار» تعود إلى فترة احتلال الموحدين أو ما قبلها، على الرغم من أنه أضيفت في بعض الحالات زخارف وكتابات تنتمي إلى فترة لاحقة. ويرجح أن القصر الرائع العائد لدوقات مدينة صيدونيا (شذونة) والذي تحول الجزء الباقي منه اليوم إلى متجر أقمشة بالجملة، أعيدت زخرفته في أواخر القرن الرابع عشر أو بداية القرن الخامس عشر، باتباع الطراز الإسلامي المغربي القديم، لكنه لا يزال يحتفظ ببعض قطع بلاط الفسيفساء *alicatado* في الطابق السفلي. لقد كان واحداً من القصور الرومانية القوطية الغربية وتوجد فيه بركة للسّمك ونافورة رومانية عليها كتابات لاتينية في الحديقة.

لم تكن هناك على الإطلاق ميول راسخة أو تعلّق بصورة عامة بالفن «المغربي - الأفريقي» في إشبيلية، ويبدو أنه من الممكن جداً أن إعادة بناء الكاتدرائية، التي بدأت في عام 1401، تقررت لأن المجمع الكنسي رغب في تغيير الطابع الإسلامي للمسجد الذي تم تحويله إلى كنيسة، أكثر منه كون المبنى في حالة سيئة. حيث أنه ما كان يمكن لمبنى بُني قبل قرنين بقليل من ذلك الوقت (1175 - 1181) أن يكون قد تحول إلى خراب⁽¹⁾. بما أن العمارة القوطية كانت هي الاتجاه السائد في تلك الحقبة، يسهل أن نفهم الشعور بالمهانة الذي شعر به رجال الكنيسة الإشبيلية إزاء أقواس حدوة الحصان والزخارف المخترمة الخاصة بالمسلمين، وكيف أن ذوقهم الفني وأفكارهم الدينية المسبقة دفعتهم إلى التخلص من كل ما يذكر بالحكم السابق للديانة المعادية لهم.

(1) هذا ما كانت ستكون عليه الحال، لو كانت تلك الكاتدرائية القوطية القديمة التي - كما تبين الأدلة التي بحوزتنا اليوم - قام الموحدون بتوسيعها وزخرفتها.

الكنائس والرسوم، الخ بالإضافة إلى تلك الواردة أسماؤها في النص

باعتبارها وجدت خلال الحكم الإسلامي

إشبيلية - *Compas de San Miguel* كان مسكن الأساقفة «في ظل الاستعباد» وكان يسكنه المسيحيون في فترة حرب الاسترداد. وتخليداً لذكرى المطارنة، أهداه سان فرناندو للكاتدرائية. ولا يزال اليوم يستخدم كسكن لرجال الذين الأقل مرتبة وفيه مقر مدرسة الترتيل التابعة للكاتدرائية، ولا يزال يعرف باسم مدرسة سان ميغيل *Colegio de San Miguel*.

كان المسيحيون يستخدمون كنيسة سان نيكولاس الحالية للعبادة في ظل الحكم الإسلامي، وكانت تعرف باسم سانتا ماريّا سوتيرانيا أو «كهف» سانتا ماريّا. وربما عرفت بهذا الاسم لما فيها من سراديب أو قباب (رومانية على الأرجح) ذكرها أباد غورديو *Abad Gordillo* في القرن السادس عشر.

كانت توجد في سانتا ماريّا حتى القرن السادس عشر كتابة تحمل تاريخ 607 أو 670 ميلادي - تبعاً لمرجعين مختلفين. ولا نخصّص القائمة الطويلة في قائمة المهرجانات الإسبانية اليوم أيّ يوم لسانتا ماريّا (التي كُرسَت كنيسة أخرى قديمة باسمها في قرطبة). وتنتمي هذه الكنيسة مثل سان نيكولاس والعديد غيرها في إشبيلية إلى الطراز البازيليكي مع أعمدة وتيجان رومانية، وتوجد فيها إضافات من العمارة الإسلامية في الأسقف والمحاريب الجانبية. وزيّنت الواجهة الغربية برسومات تنتمي إلى القرن الحادي عشر مستوحاة من الفن المصري، بما فيها «خا» على شكل صورة أنثى تسند رقفاً تجلس عليه العذراء والطفل يسوع في وضعية شائعة في منحوتات إيزيس وحورس.

كان سان لورنثو، قبل حرب الاسترداد، ديراً ومستشفى مكرّسة للقديسة بربرة (سانتا بربرة). ويوجد فيه الرّسم الجداري المعروف باسم عذراء روكامادور وينسبه المختصّون إلى فترة لا تتعدّى القرن الثاني عشر⁽¹⁾.

(1) See Zúñiga, i. 57 – 8, and iii. 262 – 9, and Serrano, *Glorias Sevillanas*, 158, 163, 167.

وفي أناشيد *Cántigas* ألفونسو العاشر وجدنا الإشارات التالية إلى الكنائس الأولى، الخ.

كانت هناك كنيسة قديمة في مُرسية «في مكان مقدّس بالنسبة للمسلمين» رفض ملكهم (الذي لم يذكر اسمه) هدمها خشية انتقام «مريم» Mariame.

مرفا سانتا ماريّا، قبالة قادس، كان المسلمون يسمّونها القناطر، وعامية القناطر Amaría Alcanatir وترمز القناطر إلى الجسر الروماني الذي لا تزال بقاياه ماثلة إلى اليوم في النهر عند انحسار المدّ، لكنّ Amaría لا بدّ أنها تحريف عن الاسم القوطي. أمر ألفونسو العاشر في امتياز مسجّل في إشبيلية بتسمية المكان باسم «إل غران پويرتو دي سانتا ماريّا» (مرفا سانتا ماريّا الكبير)، ونجد في الأناشيد مشاعر عدم ارتياح بين الجانبين لأنّ المسيحيين المقيمين فيها قبل استسلام المكان لألفونسو أصروا على تسميته سانتا ماريّا، في حين رغب الموحّدون من سكان شريش أن تسمّى القناطر Alcanate. وعندما استولى ألفونسو على المدينة عُثِرَ على صورة للعدراء في خندق مائي حول حصن القديس مرقس، فأمر الملك على الفور بالبدء ببناء كنيسة تحفظ فيها الصورة التي نسبت إليها قوى عجائية إلهية في الأناشيد⁽¹⁾. (للحصول على وصف لهذه الكنيسة البدائية تحت هذا الحصن، انظر ص 137 طبعة الأصل). باتت اليوم كنيسة الرعية. ربما كانت المسجد الرئيسي أو الوحيد وتم تحويلها إلى مكان عبادة للمسيحيين، ولم يأمر ألفونسو العاشر ببنائها، لأنّ فيها مميّزات تختلف عن الكنائس العائدة للقرن الثالث عشر في هذه المدينة أو غيرها. وتشبه الواجهة الغربية المبنية في القرن الخامس عشر كثيراً واجهة كاتدرائية إشبيلية ولكن بأبعاد أصغر ممّا يوحي بأنّ الاثنين من عمل مهندس واحد. ولا توجد أوجّه شبه بين هذه الكنيسة وكنيسة القديسة آنا في طريانة، والتي أدخل عليها ألفونسو تعديلات في سنة 1282. ولا يزال

(1) Idrisi, p. 47, *Cántigas, Passim*. Pelayo Quintero y Atauri, in an article on Mozarabic Churches in *Diario de Cadiz*, July 30, 1910.

بيلايو كيتيرو إي أتوري في مقال عن الكنائس المستعربة في يوميات قادس، 30 يوليو، 1910.

رسم العذراء الذي عُثر عليه في خندق الحصن محفوظاً هنا باسم «باترونا»، أو شفيعة المدينة. وهي صورة صغيرة وقد غدت سوداء لقدمها.

وفي فارو Faro، في الإقليم المعروفة اليوم باسم ألغاربه Algarve (الغرب)، (في أقصى جنوب البرتغال) كانت توجد صورة للعذراء على الشاطئ «في زمن المسلمين الأفارقة» Moros. ولكن «المسلمين الأفارقة» (الموحدون) رموها في البحر، ولم يصطد أحد سمكة واحدة بعدها إلى أن استعاد المسيحيون الصورة، فصار بعدها الصيد وفيراً؛ كما تقول الأناشيد.

ويبدو أنّ شتيرية أكشونية كانت هي نفسها شتيرية الغرب، حيث كان الكتاب المسلمون والمسيحيون يشيرون إليهما بصورة متكررة. ويقول الإدريسي إنّ هذه المدينة كانت تقع في مكان ما قريب من شلب، على شاطئ البحر. «ومدينة شنت مارية على معظم البحر الأعظم، والستور منها يصعد ماء البحر فيه إذا كان المدّ. وهي مدينة متوسطة القدر حسنة الرتيب لها مسجد جامع ومنبر وجماعة، وبها المراكب واردة وصادرة». (Idrisi, p. 16). يوجد الآن رأس سائتا مارتا بالقرب من فارو. لقد اختفى الكثير من المعالم التي ذكرها الإدريسي ولكن يبدو أكيداً أنّ هذا هو المكان المذكور في الأناشيد، على الرغم من أنه، ونظراً لصعوبة الوصول إليها، لم تتمكن من زيارتها بأنفسنا لنكوّن فكرة نهائية.

في قلعة النهر على الوادي الكبير، بالقرب من إشبيلية، توجد كنيسة بازيلكية قديمة بها عقود مستدقة مبنية في الأصل وليست مضافة إليها في فترة لاحقة مثل العديد من الكنائس الأولى في إشبيلية. ولا تزال تحتفظ بالكتابة التي تكرر منها منذ البدء للقدّيس غريغوريوس، ومن المعروف أنها وُجدت بشكلها الحالي منذ ما قبل حرب الاسترداد بوقت طويل.

نشعر بقليل من الشك، انطلاقاً من تجربتنا الخاصة، أنه عندما تجري دراسة معمقة لكل الأماكن التي تعتبر مسيحية سواء من قبل الكتاب العرب أو المسيحيين، وعند الضرورة، تنبش بقايا كنائسها المهتمة، سيثبت ذلك أن المجتمعات المسيحية

المشار إليها كانت أكبر وأكثر أهمية مما يعتقد في الوقت الحالي. ومن غير الواضح ما تعنيه على وجه الدقة عبارة «مسجد الكاتدرائية» *mezquita catedral* في ترجمتها الإسبانية عن الإدريسي، ولكن مجرد أن يكون قد وجد في «شانت مارية الغرب» على مكانين مسيحيين للعبادة وعلى مسجد واحد للمسلمين، هو أمر ملفت، وخصوصاً أنه كُتب خلال فترة احتلال الموحدين عندما كان المسيحيون، إن كان هذا قد حدث على الإطلاق، يخضعون لحظر فرضته الطائفة الحاكمة.

قبل اختتام هذه الملاحظة، التي كان لا بد من إيرادها نظراً للأدلة الحديثة التي ظهرت بعد كتابة الجزء الأول من كتابنا، علينا أن نضيف بضع كلمات عن الشعائر الدينية التي كانت متبعة في الأندلس، والتي، على ما نعتقد، ليست شائعة في الكنائس الكاثوليكية في أي مكان آخر.

كان العديد من كنائس إشبيلية وغيرها يستخدم جرساً خشبياً - على شكل خشخيشة - يسمى مطرقة *matraca* في أيام خميس العهد أو خميس الصعود، عندما لا تقرب الأجراس⁽¹⁾. وهذا في الأصل تقليد شرقي وعليه لا يمكن أن يكون قد ظهر بعد حرب الاسترداد التي قام بها التصاري، وإنما لا بد أنه يشكل استمرارية لطقس أقامه المسيحيون في ظل الحكم الإسلامي.

هناك احتفال خاص جداً يعرف باسم «نشر الزاية» *Ostentacion de la bandera* يجري في كاتدرائية إشبيلية يوم خميس الصعود. ويتم خلاله التلويح بعلم كبير أخضر من التفتا⁽²⁾ *tafetán* فوق كاهنين منبطحين على وجهيهما فوق درجات المذبح. من المستحيل الحصول على أي تفسير من المراجع الرسمية لهذا الطقس الغريب الذي يقول العاملون في الكاتدرائية إن له علاقة «بالآلام السيد المسيح» *cosas de la*

(1) خميس العهد أو خميس الصعود، وهو اليوم الخامس في أسبوع الآلام الذي يبدأ الأحد، يوم الشعانين، ويسبق الفصح، وفيه يتناول المسيح العشاء الأخير مع تلامذته، وفي هذا اليوم يصعد

إلى السماء كما تقول التقاليد المسيحية. (م)

(2) قماش قديم من الحرير منشؤه شرقي.

Pasion de nuestro Señor. ونحن ننظر إلى ذلك باعتباره بقايا طقس إذعان لراية الرسول التي فرضها الموحدون على المسيحيين كشرط للإبقاء على شعائرهم الدينية في الجزء الأساسي من كاتدرائيتهم، بعد أن تم تحويل قسم منها، وليس كلها، لتصبح المسجد الرئيسي لعاصمة الأندلس في الربع الأخير من القرن الثاني عشر. توجد في الوقت الحالي أدلة لا تقبل الدحض، تم الكشف عنها حديثاً، بأنه سُمح للرسم الجداري لعذراء دي لا أنتيغوا (العذراء القديمة، أو من الزمن السالف) بالبقاء في كنيسة الصغيرة في الجدار الجنوبي للمسجد الجديد حيث كان المسلمون يتعاملون معها بقدسية مؤسّسة على الخرافات المحاكة حولها حتى العام 1248 عندما قام سان فرناندو بزيارة سرية للمزار وصلّى فيه خلال حصار إشبيلية. يشاع أنّ الكاتدرائية أعيد بناؤها من الأساس في القرن الخامس عشر، لكن مقارنة التصميم السفلي لحائط الجهة الجنوبية مع المراجع المكتوبة والمتناقلة تقليدياً، يؤكد أنّ البنايين تركوا قسماً على الأقل من هذا الحائط على ما هو انطلاقاً من دوافع الإجلال نفسها للكنيسة الصغيرة وصورة عذراء دي لا أنتيغوا التي دفعت الموحدين إلى عدم المساس بالمزار.

إنّ شعائر «نشر الزاوية» الغريبة مستمرة كذلك في قلعة جابر *Alcala de Guadaira*، ولكنها هنا تجري في الشارع خلال مسيرة خميس الصعود تجسيدا للمحطات التي سار عليها المسيح حاملاً الصليب، وتكرّر ثلاث مرات على الطريق وصولاً إلى تلة شديدة الانحدار على بعد نصف ميل، تعرف باسم كالفاري (الجلجلة) يزورها كل السكان في الليلة السابقة على صلب المسيح. وهناك شعائر أخرى يجري خلالها تحريك الهواء حول الكاهن الذي يقيم القداس وعناصر المناولة لدى رفع القربان خلال أشهر الصيف، ويعتقد أنها خاصة بإشبيلية ولا شك في أنها تعود إلى ما قبل الاسترداد. قد يكون المسيحيون الأقباط أدخلوها إلى الشعائر القوطية عندما جاؤوا إلى هنا من مصر مع العرب، أو قد يكون لها منشأ آخر قبل ذلك. وعلى أي حال، من الواضح أنها انتقلت إلى هنا خلال فترة الحكم الإسلامي.

ملاحظة على الفصل الثاني

تحمل الروايات المختلفة عن تحركات طارق بن زياد بعد سقوط طُليطلة تناقضات لا سبيل إلى التوفيق بينها. لقد درس غايانغوس بعناية فائقة كل الأدلة المتوفرة في الفترة التي كتب فيها، وذلك بهدف، إن أمكن، تحديد المدينة التي اسمها مابة Maya أو مدينة المائدة⁽¹⁾ Medinat - al - Meydah حيث يُروى أنَّ طارق بن زياد عثر على مائدة سليمان الشهيرة. يقول بعض الكتاب الإسبان، وفقاً لغايانغوس، إنه عندما سمع سندرید Sindered أسقف طُليطلة باقتراب العرب، هرب إلى جليقية مصطحباً معه حلي الكنيسة وجواهرها، وإن العديد من سكانها فعلوا مثله. ويقول إيسيدوروس پائنسيس إن سندرید ذهب إلى روما "Romanae patriae sese adventat" إن كان هذا يعني «الوطن الروماني» Romana Patria ولكنه لا يقول شيئاً عن الحلي والمجوهرات. ولكن يبدو أنَّ الوضع في مابة حُسم عندما اكتشفت مصادفة في عام 1858 مجموعة الجواهر الشهيرة بين خرائب كنيسة قوطية غربية مكرسة للقديسة مريم بالقرب من مدينة قديم Guadamur في مقاطعة طُليطلة. والمجموعة محفوظة في متحفي مدريد وكلوني.

في عمل يتعلق بفتح إسبانيا في حوزة غايانغوس - مؤلفه مشكوك في هويته ولكنه معاصر على الأرجح - رواية عن حملة موسى بن نُصير على طُليطلة. فقد وجد في تلك المدينة «قصرأ يسمى بيت الملوك، وقد سمي كذلك نظراً للعثور فيه على أربعة وعشرين تاجاً من الذهب لكل ملك من الملوك الذين حكموا الأندلس. كان على كل تاج كتابة تفيد باسم الملك الذي كان له وعدد الأولاد الذين خلفهم من بعده، وتاريخ ولادته واعتلائه العرش ووفاته؛ فقد كانت بين حكام الأندلس القوط سُنّة أن يُحفظ التاج الذي لبسه كل واحد منهم خلال حياته، في ذاك القصر بعد مماته. وبالإضافة إلى هذه التّفاصيل، عثر موسى في القصر نفسه على مائدة سميت باسم سليمان بن داود (عليهما السلام!) وطاولة أخرى من المرمر»⁽²⁾.

(1) المقرئ، ج 1، ص 264. (م)

(2) Makkari, i. App. Ixxii.

قبل سنة 1885، كان يبدو وصف حلّي مثل هذه الحلّي التي ملكها ملوك القوط في إسبانيا رومانسية مبالغاً بها، لكن كثر قديمين أنّ ما وصفه الكاتب العربي كان بالكاد يتجاوز الحقائق المجردة.

اكتشفت الكنز امرأة فقيرة جاهلة ذات يوم عندما انخفض مستوى مياه نهر وادي الرصاص بعد فيضاتها إثر عاصفة هوجاء، لتكشف في ضوء النهار ما كان مدفوناً بالقرب من مجرى النهر لأكثر من 11 قرناً. ونظراً لأنهما لم يكونا مدرّكين لقيمتها التاريخية، لم تفكر هي وزجها سوى في بيع الكنز الذي عثرا عليه بأسرع ما يمكن إلى أصحاب محلات الصّاعة في طليطلة، قبل أن تطالب السلطات به باعتباره من أملاك الدولة. وهكذا تم كسر وتذويب العديد من القطع المختلفة التي لا تُقدّر قيمتها الأثرية بثمن قبل أن يكون في وسع أيّ أحد متّين في وسعه تقدير قيمتها أن يعرف بشأن العثور عليها. هذا ما حصل حقاً، عدا عن أنّ معلماً حالفه الحظ في مدرسة قديم الابتدائية كان لديه من التّعليم ما يكفي ليتعرّف على عمرها السّحيق عندما صادف أن رأى قطعة من الحلّي في يد من عثر عليها. لقد خسر العالم الكثير من خلال فقدان ما هو حتى بمقياس هذه الأيام على الأرجح أكمل مجموعة من الحلّي المسيحية العائدة للقرن السابع المعروفة حتى الآن.

لن نمضي في سرد تفاصيل كل ما عُثر عليه، ولكن الملاحظة التي تركها المؤرّخ العربي المقتبسة آنفاً تكتسب أهمية خاصة عندما نعرف أنّ من بين القطع التي عُثر عليها على ضفاف نهر وادي الرصاص التّيجان التي كتب عليها بحجارة كريمة أسماء ريسيفيت، سفيتيلا، سوتيك، ورئيس الدّير ثيودوسيوس، بالإضافة إلى صليب نذر يحمل اسم لوسيتيوس. لقد كانت ضمن اللّقبى نفائس كنسيّة فقدت أسماء من وهبها للكنيسة.

ويحمل التّاج المُهدى من ثيودوسيوس الكتابة التّالية التي لم يتمّ تشكيلها بجواهر متدلّية كما هي الحال مع تاج سفيتيلا، وإنما حُفرت في الذّهب نفسه:

Offeret Munusculum Sco Stephano Theodosius Abba

ومعناها أنه هدية إلى القديس ستيفانو من رئيس الدّير ثيودوسيوس.

أما تيجان الملوك فقد كانت تحمل اسم الملك وكلمة «إهداء» إلى جانب كلمة «الملك»: Rex Offeret.

وعليه يبدو أنه كان لدى المؤرخ العربي سبب جيد لكي يورد قصة تيجان الملوك القوط المهداة للكنيسة وعليها أسماؤهم، وتتساءل إن لم يكن المؤرخون العرب الذين كانوا على الأرجح لا يعرفون سوى القليل أو لا شيء من اللغة اللاتينية قد ظنوا أن الكتابات الطويلة مثل تلك المتعلقة برئيس الدير ثيودوسيوس ما هي إلا سجل مقتضب لتاريخ أسرهم. لم تكن التيجان، على أي حال، هي تلك التي كان الملوك يرتدونها وأعطيت للكنيسة بعد وفاتهم، وإنما وهبوا للكنيسة كنذر في حياتهم. كان كل ملك قوطي ورع يضيف اثنين من هذه التيجان إلى الكنز الجماعي للبلاد: التاج الذي كان يلبسه هو نفسه وذلك الذي وهبه للكنيسة؛ وهي حقيقة تقدم تفسيراً بسيطاً للعدد الكبير لمثل هذه الحلّي التي يقال إن المسلمين عثروا عليها عندما غزوا إسبانيا⁽¹⁾.

يشير خوليان، رئيس أساقفة طليطلة في سنة 684، في تاريخه عن تمرّد باولوس على وامبا Wamba، على ما يبدو إلى بعض من هذه الكنوز ومن بينها تاج ريكاريد، في مقطع اقتبسه عنه السنيور ستيلاك Seior Sentenach ولكنه مليء بالأخطاء المطبعية بحيث أنه بالكاد يمكن فهمه ونحن ننقله هنا من النص الوارد في «إسبانيا المقدسة» (*España sagrada*, vi. 554)؛ بعد أن يلحظ أن باولوس أضاف إلى استبداده انتهاك حرمة المقدسات من خلال سرقة كنوز الكنيسة، يقول خوليان:

“Unde factum est, ut vasa argenti quamplurima de thesauris Dominicis rapta, et coronam illam auream, quam divae memoriae Reccaredus Princeps ad corpus beatissimi Felicis obtulerat, quam idem Paulus insano capiti suo imponere ausus est, tota haec in unum collecta studiosius ordinaret (sc. Wamba) secernere, et devotissime prout cuique competeat Ecclesiae intenderet reformare.”

(1) للحصول على وصف شامل لكنوز قديم، يمكن مراجعة:

Bosquerjo historic sobre la orfebreria española by N. Sentenach, in the *Revista de Archivos* for 1908, p. 225, and Williams, *Arts and Crafts*, i. 15 ff.

ملاحظة على الفصل الخامس

استخدم كونه على الأرجح مراجع تتعلق بحكم عبد الله لم يكن المقرئ أو دوزي أو غايانغوس على اطلاع عليها. فمجمّل الفصول التي استخلصنا منها الرواية السابقة كتبت بأسلوب لا يحتمل أي شك بشأن كونها ترجمة حرفية. فغايانغوس وفي حين يوجه انتقادات استثنائية في حديثها لعمل كونه، ويواصل باستمرار لفت الانتباه إلى أخطائه في التهجئة والترجمة، لا يشير بتاتاً إلى المقاطع التي نقلنا منها أجزاء كبيرة. لا يمكننا أن نفترض أن معلقاً على هذه الدرجة من الدقة والثاني أحجم عن التعليق على استخدام كونه لعمل كان هو نفسه على اطلاع عليه ويتعلق بمرحلة شديدة التعقيد بحيث أن فهمها «مبؤوس منه». فإما أن يقتبس عن المؤلف أو يحرص على أن يشرح أن المؤلف لا يستحق الثقل عنه. يذكر كونه في فصول أخرى ابن حبان وفيها نجد التناقضات عينها كما في عمل ابن حبان نفسه. ولكننا لم نعثر على قصة الأمير محمد وابنه، وتعلق الأمير عبد الله بعبد الرحمن في صغره في أي مكان آخر سوى لدى كونه، وبما أن أحداً لم يذهب إلى حد اقتراح أن كونه اختلق قصته، فإننا نميل إلى الاستنتاج بأنه أطلع على مخطوطة تاريخية لمؤلف شيعي تتضمن كل هذه التفاصيل عن فترة أحاطها مؤرخو بلاط قرطبة بسطار من التعتيم⁽¹⁾. وإذا أخذنا في الاعتبار أنه حتى في الوقت الحالي لا يزال العديد من المخطوطات العربية غير المحققة في مدريد وفي قصر الإسكوريال، فلا يمكن استبعاد هذا الأمر.

وكمثال على أسلوب ابن حبان في الكتابة عن المولدين يمكن إيراد ما رواه عن بني خلدون:

في سنة 889، «كانت قوة طائفة المولدين قد قويت، ونصح عبد الله بعض وزرائه بإطلاق سراح القادة العرب [بمن فيهم ابن حجاج] الذين كانوا أسجناء في قرطبة،

(1) كنت ذكرت في مقدمتي على ترجمة الجزء الثالث من تاريخ كونه التقيس والمثير للجدل، كم كان أطلع الرجل على نفائس من المخطوطات العربية التي كانت في مكتبة دير الإسكوريال وأبادهما الحدثان. وعلى الرغم من أنه كان ينقل دون الإشارة إلى مصادره، ويرد في عمله الكثير من التصحيف للأسماء، فهو يبقى مصدراً فريداً على اعتباره ناقلاً من أصول ثمينة فقدت إلى الأبد، ولا بديل عنها سوى كتابه هو على علته. (أحمد)

وبتعيينهم من جهته. وبناءً على ذلك أرسلوا إلى إشييلية وأفرج عنهم بعد أن أقسم كل منهم علانية بأنهم لن يثوروا ثانية على وليّ عهدهم، وسيوظفون كل إمكانياتهم للتقليل من عزوة طائفة المولّدين. لم يمض وقت طويل على عودة كل منهم إلى ناحيته حتى أعلنوا مجدداً العصيان ورفضوا دفع الخراج. ولكن بعد أن نجح الأمير عبد الله من خلال وزيره عبد الله بن محمّد بن أبي عبده [بن الغمري] في التفريق بينهم، انصرف الثائرون إلى القتال فيما بينهم إلى أن أسر ابن حجاج كلاً من خالد وكرّيب [بن خلدون] وقتلها، وبهذه الطريقة استعاد السلطان سيطرته على إشييلية⁽¹⁾.

لو أنّ المولّدين كانوا يزدادون قوّة، فلماذا سمح عبد الله لكبير قادتهم بالعودة إلى قومه بدلاً من احتجازه رهينة ليكون عبرةً للآخرين؟ نرى من وجهة نظرنا أنّ كلمة «أسر» هي عبارة ملطّفة استخدمها ابن حيان ليصف زيارة ابن حجاج لقرطبة التي قصدها من إشييلية ليتعامل مع الأمير معاملة الملك للملك. وفي موضع آخر يقول ابن حيان إنّ عمّر بن حفصون كان هو الآخر مُرتهناً لدى الأمير عبد الله رغماً عنه، في حين أن رواية أخرى تظهر أنه كان حراً تماماً في تنقلاته. يمكننا أن نتخيل كيف أن تابع ومسجل تاريخ الأمويين لم يكن ليقرّ بأن مثل هذه اللقاءات كان يمكن أن تحصل مع زعماء منافسين هم من وجهة نظره جديرون بالازدراء، وكيف أنه كان يفكر أن من واجبه إزاء طائفته أن يحزّف الوقائع لتضليل الأجيال المقبلة.

والفقرة اللاحقة أقلّ إقناعاً مما ورد آنفاً:

«كتب إبراهيم»، يتابع ابن حيان، «خطاباً إلى الأمير عبد الله يعلمه بانتصاره ويطلب منه تعيينه حاكماً على إشييلية. استجاب السلطان لطلبه شرط أن يقدّم لقرطبة كل سنة سبعة آلاف دينار بعد تحمّل كافة نفقات الحكم في مقاطعته. وافق إبراهيم وتقرّر تعيين قاسم بن وليد الكلبي معاوناً له، ولكن بعد فترة من الوقت استدعيّ قاسم بطلب من إبراهيم، واستقلّ ذاك القائد واستفرد بحكم إشييلية ونواحيها».

إنّ سلوك إبراهيم الذي يرسل «خطاباً يعلن فيه انتصاره» إلى السلطان الذي كان

(1) Hayyan in Makkari, ii. 450

يقاتله والذي أمر بقتل أتباعه لكي تستتب الأمور - طالما قيل لنا إنه قتل قبلها الشقيقتين كُريب وخالد بن خلدون «لأنهما عارضا الثورة ودعيا إلى طاعة الملك عبد الله»⁽¹⁾، - لا يُعقل أن يتفق مع سلوك سجين أطلق سراحه بشرط ألا يثور مجدداً على سلطة الرجل نفسه الذي يوجه إليه خطابه. كما أن طلب ابن حجاج تعيينه حاكماً مستقلاً على إشبيلية لا يعقل أن يصدر عن قائد مهزوم يتوجه بطلبه إلى سلطان مُهان. لا يوضح كوندّه، كمادته، مرجعه فيما ينقله عن تلك الحقبة، ولكنه ينهيه بإشارة مبهمّة إلى خطأ ارتكب في قُرطبة من خلال الاستخدام المجحف لرسائل كتبها إبراهيم بن حجاج إلى ابن خلدون وفيها ذكر للشاعر القلقاط («وهو رجل مكره كمثل دهائه»، راجع الصفحة 74)، والأرجح أن المقطع مأخوذ من المؤلف الذي نقل عنه دوزي فيما يتعلّق بخيانة إبراهيم عبر الخطابات التي أرسلها إلى ابن خلدون.

ملاحظة على الفصل العاشر

بشأن التدمير المزعوم لمكتبة قُرطبة

إن المرجع الرئيسي لقصة هدم المنصور لمكتبة قُرطبة الكبرى هو الكاتب ابن سعيد الطليطلي الذي توفي في طليطلة في سنة 1069 عن أربعين عاماً، وعليه فقد كتب عن الحادثة بعد نحو ثمانين أو تسعين سنة من تاريخ وقوعها المزعوم. وجاء في كتابه ما يلي:
بعد الحديث عن بناء المكتبة وتطور العلم في عهد الحكم والذي استمرّ حتى ممات ذاك الخليفة في سنة 976، يقول الكاتب:

«ومع ذلك، عندما اغتصب الوزير محمد بن أبي عامر المملكة، كما هو معروف، وأمسك بزمام الخلافة، أخذ منحى مختلفاً، ويهدف استرضاء الفقهاء وغيرهم من أهل الزهد الذين كانوا يعارضون نشر العلوم الفلسفية، أمر بالبحث في مكتبة الحكم، وبناء على أوامره أخذت منها كل كتب الفلسفة والفلك وغيرها من المواضيع التي كتب

(1) Conde, i. 337.

عنها الأقدمون، ما عدا كتب الطب والهندسة والرياضيات، وكان مصيرها إما الحرق في ميادين المدينة أو إلقتها في آبار القصر وخزاناته.. لقد عزا مؤرخو ذلك العصر ما فعله المنصور إلى رغبته في تدعيم مكانته في قلوب العامة، وبالتالي مواجهة معارضة أقل لأفكاره الطموحة، وأن يترك وصمة على ذكرى الخليفة الحكم الذي كان يسعى إلى الاستيلاء على عرشه.. وعليه كان على كل من درس أو علم العلوم الفلسفية قبل ذلك في العلن، أن يخفي علومه حتى على أقرب أصدقائه خشية أن يشوا به.. لقد استمر الوضع على هذه الحال إلى حين اندثار سلالة بني أمية عندما سقطت إمارات وممتلكات تلك السلالة القوية وسقطت في أيدي القادة الذين ثاروا عليهم.

لم يورد المقرئ أي شيء من هذا، على الرغم من أنه أفرد مساحة كبيرة لنقل الأحداث التي شهدتها حكم المنصور ورواها بالتفصيل، وهو لا يتردد بالطبع في التقليل من شأن الحاكم اليماني، ولا يمكن أن يستتر على ما من شأنه أن يطلع سمعته. يقول المقرئ نقلاً عن ابن خلدون، وهو كذلك من الشئمة، بعد أن يؤكد أن خزائن الكتب التي اجتمعت في الأندلس لم يكن لها مثيل: «ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر، وأمر بإخراجها وبيعها الحاجب وأضح من موالي المنصور بن أبي عامر، ونهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم إياها عنوة». ويضيف المقرئ أن «تليد صاحب خزانة الكتب قال للحافظ أبي محمد بن حزم» إن «عدة الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة»⁽¹⁾.

ولد ابن حزم، وهو من أصل إسباني، في قرطبة في سنة 994، وعليه فقد كان فتى عندما أخبره تليد عن الفهارس. لكنه أصبح بعدها خادماً مخلصاً للأمويين ولا يمكن أن نتصور ألا يعتبر عن الغضب والتسخط الذي كان سيركه ذلك على ذاكرة ونفسية واحد من السلالة شديد التعلق بالعلم، لو أن المكتبة كانت قد دُمّرت كما يقول ابن سعيد.

ولا يدحض صمت ابن خلدون وابن حزم فقط مزاعم ابن سعيد، بل إن المقرئ

(1) المقرئ، ج 1، ص 386، 394. (م)

يخصّص صفحات عدّة ليصف ازدهار الأدب والعلوم في قُرطبة في عهد المنصور. ويقول المقرئ إنه «حتى الصّقالبة الخصيان الحُدّام بالقصر أخذوا بأوفر نصيب من الأدب» في عهده، ويعد أن يذكر بعض الأسماء يضيف: «وسنمك عن ذكر الشعراء والفقهاء والخطباء والبلغاء الذين ظهروا في أيامه، لأنّ عددهم كان أكثر من رمال البحر. لقد وفد إلى الأندلس في عهده عدد كبير من الرّجال الذين تميّزوا بمواهبهم أو اشتهروا ببراعتهم في مجال من مجالات العلم أو الأدب، وشجّعهم انفتاح المنصور على الإقامة في قُرطبة».

يورد دوزي قصة تخريب المنصور المتعمّد للمكتبة كما أوردها ابن سعيد في الأساس، ونقلاً عنه؛ كما يقتبس عن المقرئ وابن عذارى. لا يمكننا التّحقّق من الإشارة إلى المقرئ كمصدر لأنّه ينقل عن نسخته المحزّرة للنّص العربي، والفقرة لا مكان لها في ترجمة غايانغوس. كتب ابن عذارى في منتصف القرن الثالث عشر، ووفقاً للنّقد الذي يوجّهه دوزي نفسه له، كما نقله عنه پونس، فأعماله ينقصها دائماً تقريباً الحكم الصّائب والحسّ التاريخي.

ويغضّ النّظر عن الأدلّة التي بحوزتنا، سواء الإيجابية أو السّلبية، بشأن زيف اتّهام ابن سعيد للمنصور، فإنّه لا يعقل أن رجلاً بمثل سعة صدره ورحابة أفقه وآرائه، وحرصه على رعاية أهل الأدب، أن يرتكب فعلاً يتعارض تماماً مع كل ما نعرفه عن شخصيته، «لاسترضاء الفقهاء وغيرهم من أهل الزّهد». ويدلّ عزوفه عن شرب الخمر قبل فقط ستين من وفاته (راجع الصّفحة 179 طبعة الأصل) على أنّه لم يكن يابسه لاسترضاء الفقهاء السّنة، لأنهم لم يكفّوا عن قدح ومهاجمة مثل هذا السّلوك أكثر من أيّ شيء آخر. أمّا رواية ابن سعيد فيفترض، على ما نظن، أن يطويها عالم التّسيان المليء بالخرافات التي ليس لها أساس⁽¹⁾.

(1) See Makkari, i. App. c., ii. 169, 199 ff. ; Pons, 130, 139, 414 – 5; Dozy, G. *der M.*, ii. 109 – 10.

ملاحظة على الفصل الرابع عشر

فيما يلي قائمة بالترتيب الأبجدي للمدن والحصون التي كان يحكمها اليمانيون والمولودون أو النصاري المسيحيون خلال الحرب الأهلية في القرن التاسع، مع أسماء المحافظات كما أوردها الإدريسي في القرن الثاني عشر وأسمائها الحالية. الأماكن التي لم تعد موجودة بجانبها نجمة.

*أش	*Al Ashad.	وردت لدى الإدريسي، ولكن هناك حالياً في إسبانيا مدينة تسمى أش وتكتب (م)Elche
*ألبه	*Alava.	
البلاط، إقليم بلنسية	Albalate, Province of Valencia.	
*البر	*Al Barr.	
البرخلات أو البشرات، إقليم الجزيرة، إقليم البحيرة، حالياً قádiz.	Alborgelat or Alpujerras, Province Algeciras, Province of Lago, now Cadiz.	
الحمة لا سيكا، إقليم المرية	Alhama la Seca, Province of Almeria	وردت لدى المقرئ باسم الحامة، حصن الحامة (م)
*القلية	*Al ghalyah.	
*الحدره	*Alhadrah	

حصن الحنش، إقليم ماردة	Alanje, Province of Merida	ورد اسم حصن الحنش القريب من ماردة في المراجع الإنكليزية مع تغيير طفيف في كتابته: Alange (م)
الفشاط	*Al foseca	الإدرسي
فتالة	*Al fanatayene	وردت فتالة لدى الإدرسي بوصفها ريفاً قرب مالقة، كما أورد حصن فنيانة، ويصعب تحديد أيهما أصح حيث لا يشير النص الإنكليزي إلى الموقع. لكن حصن فنيانة أقرب لفظاً إلى Finnilejat التي وردت لاحقاً (م).
لقت، أليقت، إقليم تدمير، تسمى اليوم مُرسية.	Alicante, Province of Tudmir, now Murica	
الخاية؟	*Al havia	
القط؟	*Al kutt	
القناة	*Al Kanatt	

<p>القلعة</p> <p>قلعة يحصّب</p> <p>قلعة ابن سعيد، قلعة بني سعيد</p>	<p>Alcala,</p> <p>Kalat Yahssob</p> <p>Alcala de Ibn Said</p>	<p>أورد الكتاب أن هذه القلعة تسمى Alcalá la Real في إقليم جيان. يبدو قلعة ابن سعيد أو قلعة بني سعيد عرفت على وجه التأكيد في القرن الثالث عشر أيضاً باسم «de la Real».</p> <p>وردت لدى المقرري باسم قلعة بني سعيد وأشار إلى انها كانت تعرف كذلك باسم قلعة يحصّب لأن قوم يحصّب كانوا كثيرين فيها (م)</p>
<p>❖ أليسانة</p>	<p>*Al Isannah</p>	<p>(الإدريسي)</p>
<p>❖ الحججة</p>	<p>*Al Ijjah</p>	
<p>❖ أشر (حصن)</p>	<p>*Asher</p>	<p>(الإدريسي)</p>
<p>بطليوس، إقليم كاستيو، اسمها الآن إقليم إستريمادورا</p>	<p>Badajoz, Province of Castillo, now Estremadura</p>	
<p>بياسة، إقليم فارميرا، أو پاراميرا، اسمها الآن جيان</p>	<p>Baeza, Povince of Farmera or Paramera, now Jaen</p>	
<p>❖ بلش</p>	<p>*Balagi</p>	<p>(وردت لدى الإدريسي، قرية من البحر)</p>
<p>باجة، إقليم الغرب، اليوم الغاري، البرتغال</p>	<p>Beja, Province of Al Gharb, now Algarve, Portugal.</p>	

*دار البقر	*Begrah	(وردت لدى الإدريسي، إلى الشمال من قرطبة)
بجانة	*Bejannah	
*برطانية	*Birtannieh	
*بني طارق	*Beni Tarik	
بشتر (راجع الصفحة 105)	Bishter. (See p. 105 ff.)	
برجة، إقليم سرقسطة	Borja, Province of Zaragoza.	
قبرة، إقليم الكنبانية التي هي اليوم إشبيلية.	Cabra, Province of Campania, now Seville.	
قلعة رباح، إقليم الكهوف - لاس كويكاس، الآن لا مانشا.	Calatrava, Province of Las Cuevas, now La Mancha.	
كالوسا؟، إقليم تدمير، الآن مرسية.	Callosa, Province of Tudmir, now Murcia.	الاسم الأقرب إلى اللفظ لدى المقرري هو قلعة خزم، التي قال إنها كانت ضمن أملاك الأمير أرتطباش. يورد المقرري كذلك حصن اللوز لكن موقعه غير واضح. (م)
قشتيلة، (حصن قسطله، كاستولو الرّومانية)، إقليم جيان.	Cazlona (Kashtulah, the Roman Castulo), Province of Jaen.	

إستجة، إقليم الكنانية، الآن إشبيلية.	Ecija, Province of Campania, now Seville.	
إلبيرة، إقليم البيرة، الآن غرناطة.	Elvira, Province of Elvira, now Granada.	
أستبة، إقليم إشبيلية.	Estepa, province of Seville.	
❖ فنيانة	*Finnilejat.	فنيانة حصن في منطقة بجانة كما ورد لدى الإدريسي وهو الأقرب لفظاً. (م)
جبل العيون، إقليم الشَّرف، الآن إقليم ولبة.	Gibraleon, Province of Ajarafe, now Province of Huelva.	

<p>وادي شوش، إقليم إشبيلية.</p>	<p>Guadajoz, Province of Seville.</p>	<p>كانت مدينة رومانية في هذا المكان من حيث كان يصدر زيت الزيتون من سهل قرمونة Vega de Carmona إلى إيطاليا. عُثر خلال الحفريات على أختام صانعي الفخار من وادي شوش في مونتي تستاسيو Monte Testaceo بالقرب من روما، وأهم ما فيها الجرار التي اشتهرت الجزيرة الإيبيرية بتصنيعها. George Bonson <i>Los Pueblos antiguos del Guadalquivir, Revista de Archivos Bibliotecas, y Museos,</i> Madrid 1902. وفي التصنيف الثاني من القرن الثامن كان وادي شوش ضمن ممتلكات الأمير أرطباش Artebas الابن الثاني للملك غبطشة Witiza. (راجع ص 54 طبعة الأصل).</p>
-------------------------------------	---	---

النساء؟؟؟	*Hansah.	الأقرب إلى الاسم لفظاً هو نهر وادي النساء في جزيرة طريف على البحر المتوسط الذي أطلق عليه الإدريسي اسم البحر الشامي (م).
حصن أمارينا؟؟ إقليم البحيرة، وهي اليوم قادس.	*Hisn Amarina, Province Lago, now Cadiz.	على نهر وادي لكّه Guadalekke الذي سمي خطأ وادي لكّه Guadalete في روايات غزوات طارق بن زياد. معروف اليوم باسم نهر برباط R. Barbate.
حصن بلاي	*Hisn Belay	
حصن جريشة	*Hisn Jerishah.	
حصن الركبة؟؟	*Hisn Harkabah.	لم يرد لدى الإدريسي ولا المقري ما يوازي اللفظ، ولكن هناك في حضرموت حصن بهذا الاسم وقد تشابه الأسماء (م).
ويندة، إقليم الشارات، هو اليوم طليطلة.	Huete, Province de las Sierras, now Toledo.	
شريس، إقليم البحيرة، الآن قادس.	Jerez, Province Lago, now Cadiz.	
جودر، إقليم جيان.	Jodar, Province of Jaen.	

بالش	Jubiles.	الإدريسي، حصن بالش في إقليم بجانة. (م)
*كربرب؟؟	*Karbar.	
*قلشانة، فلسانة.	*Kalsannah.	
*كورة، إقليم البحيرة، الآن قادمس.	*Kora, Province of Lago, now Cadiz. The Sultan Abdullah's stud, which was kept there, was looted by Muwallads from Lebrija.	كان حصان السلطان عبد الله الأصيل فيها وسرقه مولدون من أهل لبريخا.
*لقمش	*Lakmesh.	
لبريخا، إقليم إشبيلية.	Lebrija, Province of Seville.	
لاردة، إقليم الزيتون، وهو اليوم لاردة.	Lerida, Province de las Olivarcas, now Lerida	
لورقة، إقليم تدمير، الآن مُرسية.	Lorca, Province of Tudmir, now Murcia.	
لوشة، إقليم البيرة، الآن غرناطة.	Loja, Province of Elvira, now Granada.	

مالقة، إقليم رية، الآن مالقة.	Malaga, Province of Raya, now Malaga.	
*متلاناتا.	*Matalanata.	
مدينة ابن التسليم (مدينة سالم)، إقليم أرنيط، الآن سُرِيه (قشتالة).	Medina Beni Selim (Medina Celi), Province of Arnedo, now Soria (Castile).	
شذونة، مدينة صيدونيا، إقليم البحيرة، الآن قادس.	Medina Sidonia, Province of Lago, now Cadiz.	
ماردة، إقليم قشتالة، الآن وادي شوش.	Merida, Province of Castillo, now Badajoz.	
مارتلة، إقليم الغرب، الآن ألتيجو، البرتغال ⁽¹⁾ .	Mertola, Province of Al gharb, now Alentejo, Portugal.	
*جبل الثلج	*Monte Alesa	ورد لدى الإدريسي جبل الثلج جنوب غرناطة. (م)
*جبل مونتي فيكيو، على نهر وادي الرّحى، إقليم إشبيلية.	*Montefique, on the Guadaira, Province of Seville.	ورد لدى المقرئ (ج 4، ص 518) جبل متفريد. (م)

(1) كانت تُكتب بالبرتغالية قديماً: Além - Tejo ومعناها: ما وراء نهر التّاجة (تيجو)، ولكنها باتت تكتب اليوم: Alentejo وتلفظ: أَلَيْتِيْجُو، والواو بلفظ ou وليس o. وللغة البرتغالية مذاهب صعبة في اللفظ ولكنها لغة بديعة وجزلة. (أحمد)

متلون	Monteleon.	منت ليون (المقري). (م)
منت ميور	Monte Mayor.	
مورة أو مراد، إقليم الكنبانية، الآن مرتلة، إقليم قرطبة.	Mora, or Morad, Province of Campania, now Moratalla, Province of Cordova.	
*مورانا	*Morana.	
مُرسية، إقليم تدمير، الآن إقليم مُرسية.	Murcia, Province of Tudmir, now Province of Murcia.	
*مريانة	*Murlianah.	ورد لدى الإدريسي حصن مرشانة في إقليم بجانة.
لبلة، إقليم الشَّرف، الآن ولبة.	Niebla, Province of Ajarafe, now Huelva.	
*لام	*Nixam.	الأقرب إلى الاسم لفظاً ورد لدى الإدريسي في المَرَّة (م).
*نكور	*Nokur.	
أكشونية، إقليم الغرب، اليوم ولبة	Ocsonoba, Province of Al gharb, now Huelva.	أكشونية وردت لدى المقري (م)
أشونة، إقليم أشونة، اليوم إشبيلية	Osuna, Province of Osuna, now Seville.	

برشانة، إقليم بجانة، اليوم المَرّة.	Purchena, Province of Pechina, now Almeria.	
رّة، إقليم رّة، وهو اليوم مالقة.	Raya, Province of, now Malaga.	
روطة. تقول بعض المراجع أنها روطه اليهود في إقليم مَرْقُسطة. وهناك مكان يدعى الرّوضة في إقليم إشبيلية.	Roda. Said by some authorities to be Rotalyehud in the district of Zaragoza. There is a place named La Roda in the Province of Seville.	
شنت مريّة الغرب. هذا الموقع الذي تكرر ذكره لدى المؤرخين كان على ما يبدو في رأس سانتا ماريا بالقرب من فارو، في إقليم الغرب البرتغالي.	Santa Maria de Al gharb. This place, frequently referred to by historians, appears to have been situated at the Cape of Santa Maria, near Faro, in the Portuguese province of Algarve.	
شنت اشتين، إقليم جيان.	San Esteban, Province of Jaen.	
السّانة	*Sahnah.	
شستمرية	*Santiberia.	

شلب، إقليم، وهو اليوم الغارب (الغرب). عندما كتب الإدريسي كان لا يزال يمانيون يعيشون في شلب والمدن المجاورة.	Silves, Province of Al gharb, now Algarve. When Idrisi wrote Silves and the neighbouring towns were still populated by Yemenites.	
شمنت	*Sonmonton.	لم ترد لدى الإدريسي وإنما في مراجع أخرى (م).
طليحة	*Talheyrah.	لم ترد لدى الإدريسي وإنما في مراجع أخرى، كترتيب المدارك وتقريب المسالك، للقاضي عياض (م)
طُلبلة	Toledo.	
طرش، إقليم رية، اليوم مالقة.	Torrox, Province of Raya, now Malaga.	
تدمير، إقليم تدمير، (ثيودومير)، اليوم مُرسية	Tudmir, Province of (Theodomir), now Murcia.	
إقليم الشارات، اليوم قونكة.	Ucles, Province de las Sierras, now Cuenca.	
أم جعفر	*Umm Ja'afer.	(الإدريسي)

ذيرد، إقليم البحيرة، اليوم قادس (كانت ذيرد قرية من مدينة صيدونيا)	*Ward, Province of Lago, now Cadiz. (Ward was near Medina Sidonia).	ذيرد هي الأقرب لفظاً الواردة في «نزهة المشتاق» لدى الإدريسي.
*شمس	*Yemes	شمس هي الأقرب لفظاً لدى الإدريسي (م).
سَرْقُسطة، إقليم أرنيط، اليوم سَرْقُسطة.	Zaragoza, Province of Arnedo, now Zaragoza.	

المدن والأقاليم التي وردت بوصفها يحتلها اليمانيون أو موالية للخليفة
المخلوع هشام الثاني حتى وفاته في سنة 1059، أو متحالفة مع بني عباد في النصف
الثاني من القرن الحادي عشر. وكانت هذه الشروط الثلاثة تنطبق على بعض المدن في
العديد من الحالات.

في هذه الفترة، كان العديد من الأقاليم الواردة فيما يلي تحت حكم أمراء مستقلين
يدينون بالولاء لإشبيلية، لفترات تطول أو تقصر، ولكننا استخدمنا عبارة إقليم لتسهيل
الامر، متبعين بذلك خطى الإدريسي.

الجزيرة.	Algeciras.	
المرية، إقليم.	Almeria, Province of.	
الغرب، إقليم.	Al gharb, Province of.	
أركش، حصن	Alarcos	أركش وردت لدى الإدريسي، ولكن في مصادر أخرى الأرك (م).
البليار، جزر.	Belearic Isles.	
بطلوس، إقليم.	Badajoz, Province of.	

*حصن بيندر	*Bardania.	
*عبله	*Bala.	
*بلاط الحر	*Balaguer.	الأقرب إلى الاسم لفظا لدى المقري، وبلاط الحر قرب قرطبة. (م)
بياسة، إقليم.	Baeza, Province of.	
قلعة رباح.	Calatrava.	
قرطاجنة.	Cartagena.	
كشتالي.	Castillon.	
قونكة.	Cuenca.	
دانية، إقليم.	Denia, Province of.	
كتندة.	Gandia.	وردت لدى الإدريسي فيما يسمى إقليم مرمرية. أوردت بعض المراجع اسمها غاندية. (م)
ولبة.	Huelva.	
وشقة.	Huesca.	
*ياهوره	*Jabora.	
جيان، إقليم.	Jaen, Province of.	
شاطبة.	Jativa.	
لرية	Leiria.	لرية في بلنسية، وردت لدى المقري (م).
*الفنت	*Lenant.	الأقرب إلى اللفظ لدى الإدريسي (م).
لاردة، إقليم.	Lerida, Province of.	
لشدانية، إقليم	Lusitania, Province of.	لم أتبين الاسم ضمن تعداد الأقاليم لدى الإدريسي، لكنه ورد في مراجع عدة (م).

مرتة.	Martos.	
شدونة، مدينة صيدونيا.	Medina Sidonia.	
ماردة.	Merida.	
*مرباطر.	*Murbiter.	
مُرسية، إقليم.	Murcia, Province of.	
لبلة، إقليم.	Niebla, Province of.	
أكشونة، إقليم.	*Osconoba, Province of.	مراجعة الملاحظة السابقة (م).
روطة اليهود.	Rotalyehud.	
رندة.	Ronda.	
شلفيش، إقليم.	Saltis, Province of.	
سنت مارية الغرب، إقليم	Santa Maria de Al gharb, Province of.	
شلب، إقليم.	Silves, Province of.	
طرطوشة.	Tortosa.	
بلنسية، إقليم.	Valencia, Province of.	
الولجة.	Xelba.	إقليم قريب من إقليم القواطم كما ورد لدى الإدريسي (م).
سَرْقُسطة، إقليم.	Zaragoza, Province of.	

من بين أهم المناطق والتواحي التي ثارت على الموحدين في القرن الثاني عشر بقيادة ملوك أسرة بني مردنيش النصرانية - اليمانية⁽¹⁾: البسيط وبياسة ودانية وإفراغة⁽²⁾ وغرناطة وجيان ومُرسية وبلنسية.

ومن بين أهم المدن والأقاليم التي ثارت على الموحدين تحت حكم بني هود النصرانيين - اليمانيين، كل إقليم الغرب، والمرة وبطليوس وقاصرش «وغيرها من مدن تلك الناحية» (Makkari, ii. 329) ودانية وغرناطة وجيان وشاطبة ومالقة وماردة ومُرسية وإشبيلية وسرقسطة. وانتقلت الأراضي التي كان يسيطر عليها بنو مردنيش إلى بني هود مع أقول نفوذ بني مردنيش بسبب تحالفهم مع الموحدين.

ومن بين أولى المواقع التي خضعت أو طلبت مساعدة ابن الأحمر عندما أسس سلالة بني نصر في غرناطة: أرجونة والمرة وغرناطة وجيان وشريش ولورقة ومالقة ورُنْدَة وإشبيلية. وفي أواخر أيامه، تحالف آخر أمراء بني هود مع ابن الأحمر.

وهكذا عبر مختلف المراحل التاريخية للحكم الإسلامي في إسبانيا، نجد أنَّ الأقاليم والتواحي والمدن التي كان يحكمها أحفاد النصارى القوط المتحالفين مع العرب اليمانيين في القرن الثامن، لم تتوانَ عن التحالف مع القادة اليمانيين أو النصارى - اليمانيين الذين ثاروا، قرناً بعد قرن، وتمردوا على حكم الأقوام التي اختلفت عنهم في الدين والانتماء القومي؛ إلى أن نجح فرناندو الثالث في نهاية المطاف، في الربع الثاني من القرن الثالث عشر، وبمساعدة من حليفه اليماني ابن الأحمر ملك غرناطة، في ضم كل التواحي النصرانية - اليمانية الواقعة خارج نخوم مملكة غرناطة الحديثة التأسيس، إلى مملكته، بالطرق السلمية أو غير السلمية.

(1) لا تشير عبارة النصرانيين اليمانيين Christian - Yemenite إلى ديانة الأسر المشار إليها، وإنما إلى كونهم من أصول قوطية - يمانية.

(2) وردت في الإنكليزية Fragar لكن الأرجح أنَّ المقصود Fraga وهي إفراغة. (م)

ملاحظة على الفصل التاسع عشر

يأتي سيمونه على ذكر عدد من من الكنائس المستعربة مثل سانتا مارينا وسان پدرو، وسان أندريس، وشنت ياقب، وسان لورنتو، ولا ماغدالينا (المجدلية)، والتي يقول إنها كانت في قُرْبَة؛ لكننا نعتقد، وللأسباب التالية، أنها لم تكن في قُرْبَة وإنما في إشبيلية. صحيح أن هناك كنائس مكرسة لسانتا مارينا وسان پدرو وسان لورنتو في قُرْبَة، ولكن لا توجد أية كنيسة باسم القديسين الثلاثة الباقين. وتوجد في إشبيلية كنائس مكرسة لكل القديسين الستة الذين أوردتهم سيمونه، وتحمل خمس منها سمات أثرية تعكس تأثير المستعربين، في حين أن الكنائس الست لديها تقاليد او سجلات تظهر أنها كانت أماكن للعبادة المسيحية خلال، إن لم يكن قبل، حكم الموحدين. وسيكون من المبالغ به أن نفترض أنه كان في كل من قُرْبَة وإشبيلية ست كنائس على الطراز المستعربي مكرسة للقديسين الستة أنفسهم، في حين يتعين علينا أن نمضي قُدماً ونفترض كذلك أن ثلاثاً منها اختفت تماماً ولم يبق لها أي أثر في قُرْبَة منذ حرب الاسترداد، في حين لا تزال الكنائس الست قائمة في إشبيلية.

يذكر سيمونه كذلك سجلاً لكنيسة «بازيليكادي سانتا مارتا» في قُرْبَة حيث كان لا يزال يُسمح للمسيحيين بممارسة شعائرتهم بحرية في سنة 1147 وهي السنة التي أقيم فيها قداس جنازتي من أجل «شهيد» پرتغالي. ولكن هنا أيضاً نعتقد أن المدينة المقصودة هي إشبيلية وليست قُرْبَة لأن كاتدرائية إشبيلية هي التي يقال إنها «أعيدت» إلى عهدا الأول ككنيسة مكرسة للعذراء عندما تم استرداد المدينة (راجع الصفحة 133)، في حين أن كاتدرائية قُرْبَة الأساسية التي يظهر أنها كانت مكرسة للقديس فيثته، اشتراها عبد الرحمن الأول من الطائفة المسيحية في سنة 785 (Makkari, i. 218).

لقد ضاعت سجلات كاتدرائية إشبيلية في النصف الأول من القرن الثالث عشر عندما أخرج الموحدون آخر أسقف مُنتخب من إشبيلية؛ ولا توجد أية سجلات منذ ذلك الحين وحتى سنة 1248. ولكن من المعروف أن المسيحيين في إشبيلية كانوا على الدوام أكثر عدداً من مسيحيي قُرْبَة. (Simonet, pp. 778 – 91)

دير سيدة الثور (دي لا لوث) في المغرب، إقليم ولبة

عندما كان هذا الكتاب تحت الطبع، اكتشفنا مبنى يعزّز النتيجة التي توصلنا إليها، وهي أنّ الفن المسيحي الذي كان حتى الآن غير معترف به وُجد في شمال غرب الأندلس في ظلّ الحكم الإسلامي. والمبنى هو الدير المحصّن المعروف باسم دير الثور (كونفتو دي لا لوث) في المغرب⁽¹⁾، في قلب شلطيّش التي كانت موطناً للمولّدين، وكانت تحكمها سلالة بني أبي بكر، أحفاد الأميرة سارة وعُمير بن سعيد اللّخمي، إلى حين وصول الموحّدين. وتظهر القلعة العربية التي لا تزال أسوارها ماثلة بالقرب من الدير، الأهمية التي أوليت للدفاع عن المغرب عندما حكمها المولّدون والمستعربون.

ظلّ الدير حتى سنة 1911 تابعا لأخوية راهبات «كلارس Claras الفقيرة» (Clarices) وطالما بقيت واحدة منهنّ حية، ظلّ المكان بأكمله مغلقاً تماماً أمام العامة. ولكن قبل نحو اثني عشر شهراً توفيت آخر عضوة في الجمعية وبات يدير المبنى الضخم اليوم بأكمله فرع من طائفة «راهبات الحبل بلا دنس» يعنى بنشر التعليم ولا يضع أية عراقيل أمام دخول الطلاب لدراسة المكان. وعليه كنا نحن أول أجنبى نحصل على إذن للدخول بغرض الدراسة وكانت الساعات التي أمضيها بين جدرانها كافية لتثبت أننا عثرنا على واحد من أروع الأمثلة التي تدلّ على وجود رباط *ribat* مستعربي (راجع الصّفحة 227 طبعة الأصل، الحاشية) لم يحظ حتى الآن بالاهتمام الذي يستحقه من الفنّانين والمؤرّخين على حدّ سواء.

لقد دفعتنا القلعة - الدير في الحقيقة، إلى أن نطرح السؤال المهمّ وهو ما إذا كان الرّباط في الأصل بناءً مسيحياً وليس مسلماً. فالرّباطة، التي اشتهرت في حوليات كولومبوس، كان يفترض أنها حصلت على اسمها من رباط موحّدي بقي منه عقدان (على شكل حدوة فرس). ولكن خلال أعمال الترميم، المستمرة منذ سنوات عدّة، اكتشفت حديثاً جدارية مسيحية تحت الأعمال الموريسكية، ليظهر ذلك أنّ الرّباط كان مسيحياً قبل أن يملكه الموحّدون. ويوجد عقد أو اثنان على شكل حدوة

(1) راجع الصور المقابلة للصفحات 132، 237، 381، 398 من طبعة الأصل.

الحصان على الطراز الموخدي في دير التور كذلك، ولكن فقط فيما يسميه المحليون «القسم الحديث». لقد كان هذا القسم مستوصف راهبات «كلاريس الفقيرة» (وأصبح اليوم فصلاً للدراسة) وفيه أعمدة جميلة من الرخام ذات تيجان عربية مع خاصية امتداد البناء بالطوب والملاط المميزة والتي تلاحظ باستمرار في العمارة الإسلامية هنا. وللباحة المركزية الفسيحة التي تبلغ حوالي 150 قدماً مربعة، من جهة ثانية رواق مؤلف من عقود مستدقة قديمة تتفرع عن جدران تبلغ سماكتها ستة أقدام، وهي تختلف تماماً عن أية أبنية إسلامية معروفة في إسبانيا. وتوجد في مقصف الطعام عقود طويلة ومدببة منتظمة في أزواج، وسقف مقبب خالٍ من أية زخارف، يتصل بالعقود الزوجية لكن دون أن يتفرع منها. ولا ينير هذه القاعة العالية سوى نافذة مستديرة في كل جهة لا يتجاوز قطرها ثمانين عشرة بوصة، وهي مرتفعة قريباً من السقف؛ وتوجد نافذة مربعة صغيرة في الجهة الغربية أضيفت حديثاً كما هو ظاهر. وبنيت مقاعد بمحاذاة الجدران، ومن عمود لولبي ينبثق منبر عتيق بارز من الطوب (مطلبي بطبقة سميكة من الجير الأبيض) نُحتت فيه رؤوس ملائكة مجنحة، باستخدام تقنيات الفن العربي.

وسرعان ما يلتفت انتباه الزائر ضخامة ومثانة عمارة الباحة والمطعم، إذ يبدو أن للتأظر وكأنهما هنا منذ الأزل. ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للزوايا فوق الباحة والذي يبدو أن عائلة پورتوكازيروس Portocarreros أضافته في القرن الرابع عشر أو الخامس عشر؛ وهؤلاء هم أجداد رفيق كولومبوس مارتين ألونسو پينزون Alonso Pinzon من ناحية أمه⁽¹⁾.

توجد تسعة تماثيل من الألباستر منحوتة نحتاً رائعاً لأفراد من عائلة پورتوكازيروس في الطرف الشرقي من كنيسة الدير، وقد ورثت عائلة پينزون التي لا تزال أبرز عائلات المَغْر عنهم الحق في دفن أبنائها عند أسفل مذبح الكنيسة. قامت عائلة پورتوكازيروس

(1) بفضل منحة خاصة وهبها الإمبراطور كارلوس الخامس إلى ابن مارتين، تحمل دروع هذه العائلة ثلاثة مراكب شراعية مع الشعار نفسه الذي تحمله دروع أحفاد كولومبوس، ولكن مع تغيير في الاسم: من أجل قشتالة وليون، اكتشف عالماً جديداً پينزون.

A Castilla y á Leon, nuevo mundo dió Pinzon.

بإعلاء سقف الدّير حيث يبدو بوضوح الخط الفاصل عند حدود ما تمت إضافته باستخدام الطّوب والملاط الحديث فوق الجدران القديمة، وبيناء غرف نوم وسكن للزّاهبات المثة العضوات في الرّهنة، وأدخلت تعديلات كثيرة على الكنيسة من الدّاخل. إنه لمن الّآفت أن نرى عقوداً قوطية وتيجاناً من تلك الفترة تحملها أعمدة مصنوعة من الملاط تعود إلى القرن العاشر أو الحادي عشر، في حين تبرز أجزاء مختلفة من البناء الأصلي من الجدران هنا وهناك بصورة غير منتظمة.

مع ذلك، فقد بقي قسم من الكنيسة في الدّاخل وفي حدود معينة على ما هو منذ القرن الحادي عشر. إنه الجزء الخاص بالكورس - جوقة الترتيل - والذي يظهر من تصميمه الدّاخلّي أنه تم تحويله إلى كنيسة للزّاهبات في حوالي نهاية القرن الثالث عشر من خلال إضافة أبواب عريضة تزينها رسومات تمثل عذراء غوادالوبه Guadalupe والبشارة والمهد [ميلاد السيّد المسيح]. وتعود الملابس إلى تلك الفترة كما هو واضح في «الأناشيد» *Cántigas* وفي كتاب ألفونسو العاشر عن الشّطرنج "Book of Chess" كما أنّ كل الوجوه ذوات سحنة توتونية جرمانية، كما هي في الحقيقة تقريباً كل الرّسومات في هذا الدّير، دون استثناء تمثال للسيّدة العذراء من الخزف أعيد ترميمه في سنة 1621.

وتكتسي مقاعد غرفة الجوقة الأهمية القصوى هنا، حيث تنتهي مساند اليديّن برؤوس أسود عتيقة يظهر أحدها على غلاف هذا الكتاب. وتستند هذه الرّؤوس إلى أعمدة ذوات تيجان عربية، وفوقها كتابات بالخط الكوفي الذي ظل شائعاً حتى نهاية القرن الحادي عشر في هذه المنطقة. والكتابات ذوات طابع زخرفي أكثر ممّا هي الحال على سبيل المثال الكتابة العائدة إلى سنة 1085 والتي تشير إلى زوجة وابن المُعتمد بن عبّاد (راجع الصّفحة 217 طبعة الأصل) وتتضمّن ملامح من الخط القرمطي Karamatic المتصل سهل الانسياب الذي يظهر إلى جانب الخط الكوفي في قصر إشبيلية. لقد حالت الإضاءة الضّعيفة للأسف دون التقاط الصّور، كما أنّ الكتابات المحفورة على مساند المقاعد تحت رؤوس الأسود كانت قد تآكلت ومُحييت تقريباً

بحيث يصعب نسخها على الورق بطريقة الحكّ. كل ما أمكن الحصول عليه هو رسم للشكل الخارجي. ولم نثر على أي كتابات كاملة على أيّ من الجوانب الثلاثة، حيث كانت الكتابات على الجانب الداخلي مثلمة إلى حد كبير بسبب طول الاستخدام على مدى قرون عديدة. لكن مجرد وجود كتابة عربية على مقاعد الجوقة في مبنى لم يكن على مدى الدهر سوى كنيسة مسيحية يشهد على ما قاله ألفاروس Alvarus (راجع الصفحة 26 طبعة الأصل) بأنّ المستعربين نسوا لغتهم لكنهم ظلّوا أوفياء لدينهم.

يحتاج وصف كل النقاط المهمّة في دير التور (كونفتودي لا لوث) فصلاً طويلاً وليس مجرد ملحق مقتضب بحكم الضرورة، وعلينا أن نختصر. ويوجد في المساحة الواقعة أمام غرفة الترتيل والتي تقود إلى داخل الكنيسة من الباحة المركزية الفسيحة قبة وقُببة بنيتا على الطراز العربي ولهما سقف خشبي زخرفته بديعة يتعارض بطريقة مثيرة للفضول مع البلاط العائد للقرن السادس عشر. وفوق بوابة ثقيلة تستخدم لفصل مصلى الرهبان فتحة مستديرة تضيء صحن الكنيسة تزينها تقاطعات خشبية artesonado ذات تصميم هندسي بسيط. وتوجد في الحنية نوافذ طويلة ضيقة تنتهي بعقود مدبّبة، لكنها مسدودة، وتفصل بين النافذة والأخرى دعائم جدارية ضخمة متصلة بسور أو متراس خارجي بواسطة عقود أو قناطر تسمح بالمرور بينها، أي بين حائط الكنيسة والجدار الخارجي.

لقد رأينا الكثير من الكنائس المحصنة في جنوب غرب الأندلس إبان الحكم الإسلامي، ولكنّ أيّاً منها لا تضاهي هذه الكنيسة في متانتها، إذ ليس المبنى وحده هو المحصّن وإنما لا يزال هناك سور ارتفاعه عشرون قدماً كاملة يحيط به من ثلاث جهات، أمّا الجهة الرابعة فأزيلت لئلاّ يحيط بها من ثلاث الجهات. أمّا الجهة الرابعة فأزيلت لئلاّ يحيط بها من ثلاث الجهات. أمّا الجهة الرابعة فأزيلت لئلاّ يحيط بها من ثلاث الجهات. الفجوة في التّحصينات يمكننا أن نرى خطوط الهيكل الخارجي للكنيسة التي كانت في الأصل متوارية تماماً عن الأنظار داخل الأسوار. وإلى الجهة الشماليّة من المذبح العالي، تبلغ سماكة الجدار أكثر من ستة أقدام، وتوصل فتحة شبيهة بنفق ضيق عبره إلى ما يبدو أنه كان في الماضي غرفة للحرس على الرّغم من أنّ السّلام التي كانت

تقود إلى المتراس الخارجي لم تعد موجودة، فقد تم على الأرجح سدّها في زمن ليس بعيد.

وفي الجهة الشمالية من الحنية تتصل المتاريس الخارجية بالزّواق العلوي للباحة المركزية بممرّ ضيق عبر سماكة الجدار. ومن على المتراس هنا يمكن رؤية بساتين الذّير التي تمتدّ على مسافة بضعة فدادين، وفيها عدد من الآبار، محاطة بالأسوار العالية التي تحميها من أيّ هجوم. ويروى نقلاً عن الأقدمين أنه كان يزرع في هذه البساتين كل ما هو ضروري لتموين الذّير بما فيه القمح لصنع الخبز. ولم تكن في الأصل في البناء بأكمله نوافذ مفتوحة من أيّ شكل كان عدا عن فتحات الإضاءة الدّائرية الصّغيرة في الحائط الجنوبي لغرفة الطّعام؛ وطالما ظلّ المدخل الوحيد للذّير تحت الحراسة، فقد كان الذّير عملياً حصيناً.

في سنة 1257، أو حواليها، هزم ألفونسو العاشر أمير لبلة، وتبعاً لبعض الروايات أصبح عندها يحكم الإقليم المعروف باسم مملكة شلطيّش التي تضمّ المغرب، وبلش (بالوس دي لا فرونتيرا)، وجبل العيون، وغيرها من المدن والقرى في تلك المنطقة. وتشير أقدم السّجلات التي بحوزتنا إلى أن مدينة المغرب كانت تحت حكم عائلة تينوريو Tenorio وربما هم الذين منحوا دير دي لالوث المستعربي إلى طائفة راهبات سانتا كلارا. وفي حوالي 1335 انتقلت هذه السّيادة عبر الزّواج إلى عائلة پورتوكازيروس التي لديها روابط بكل من عائلي تينوريو وپيثون. ويتميّز أفراد عائلة پيثون بسحتهم التّوننية، فكل أفراد الجيل الحالي منهم والمتفرعين عنهم لديهم عيون رمادية اللون والعديد منهم شعر بني.

يقول آل تينوريو وكذلك پورتوكازيروس إنهم من أصل قوطي، ويزعم أرغوته دي مولينا Argote de Molina وپيفيرير Pifferer أنهما تعقبا العائلتين إلى خوان ألفونسو دي بينافيدس Juan Alfonso de Benavides الذي يصفه الكاتبان بأنه أحد أحفاد أحد ملوك ليون الأوائل. وإن كانا يختلفان فيما إذا كان هذا الملك ألفونسو السّابع أو التّاسع؛ فإنهما يتفقان على أنّ مؤسس هاتين العائلتين كان نبيلاً من أصل عريق *hijo*

d'algo notorio de sangre. ونعتقد أن هذا التيل كان بالطبع من أصل قوطي نبيل ولكنه لم يكن متفرعاً من رودريك (لُدرِيق) أو من پيلايو الأسطوري، وإنما من فيتيسا (غيطشة).

إنّ منت ميور (مونته مايور) Montemayor التي هي اليوم مجرد قرية صغيرة يقصدها الناس لزيارة صومعتها على بعد نحو ميل من المغرب، وردت بوصفها معقلاً للمولدين أثناء الحرب الأهلية في القرن التاسع⁽¹⁾، وعذراء منت ميور هي القديسة شفيعة المغرب.

في سنة 1349، وهب أسقف شلطيخ ألفارو پيلايث Alvaro Pelaez (أبرشية مستعربة اختفت منذ زمن طويل) عطية إلى دير المغرب⁽²⁾ وربما استخدمت هذه الهبة لتغيير الكنيسة كما ورد أعلاه. ولكن لا توجد سجلات رسمية متوفرة عن الدير لأنّ صديقنا رئيس شمامسة إشبيلية، وبعد أن سأل أمين السجلات في قصر الأسقف، أخبرنا أنه لا يُعرف شيء هناك عن تأسيس أو تاريخ القصر، وأنه لا يمكن الحصول على أية معلومات عن الموضوع. ونظراً للسجلات الموضوعية بعناية لكل مؤسسة دينية تأسست بعد الاسترداد في عام 1248، فإنّ غياب أية وثيقة تتعلّق بدير النور تؤكد أصله المستعربي Mozarabie، هذا عدا عن التاريخ المنقوش على خشبه والمحفور على حجارتة.



(1) Makkari, ii. 448.

(2) Zúñiga, ii. 120.



ديار النور (رقم 3). عقود عربية في «القسم الحديث».



دير التور (الرقم 4). المستوصف العربي لأخوية راهبات «كلارس الفقيرة».

مشجرات أنساب

GENEALOGICAL TABLES

OF THE

DESCENDANTS OF WITIZA,

THE LAST LEBTHIMATE KING OF THE GOTES OF SPAIN.

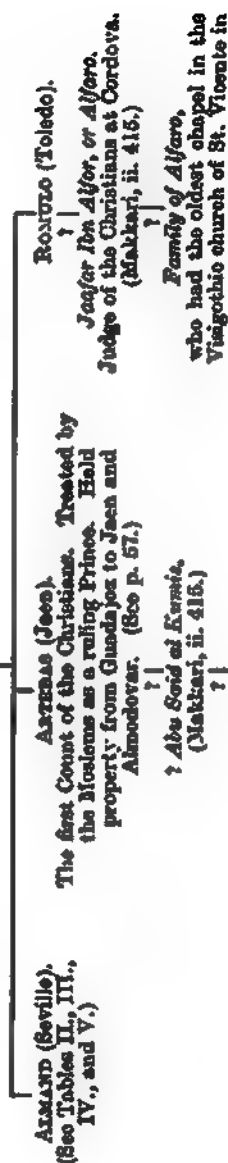
TABLE I.

DESCENDANTS OF PRINCE ASTENAS.

DESCENDANTS OF PRINCE BOUTZO.

N.B.—Genealogies which are doubtful or based on presumptive evidence only, are marked by a note of interrogation.

WITIZA L. c. 701-11.



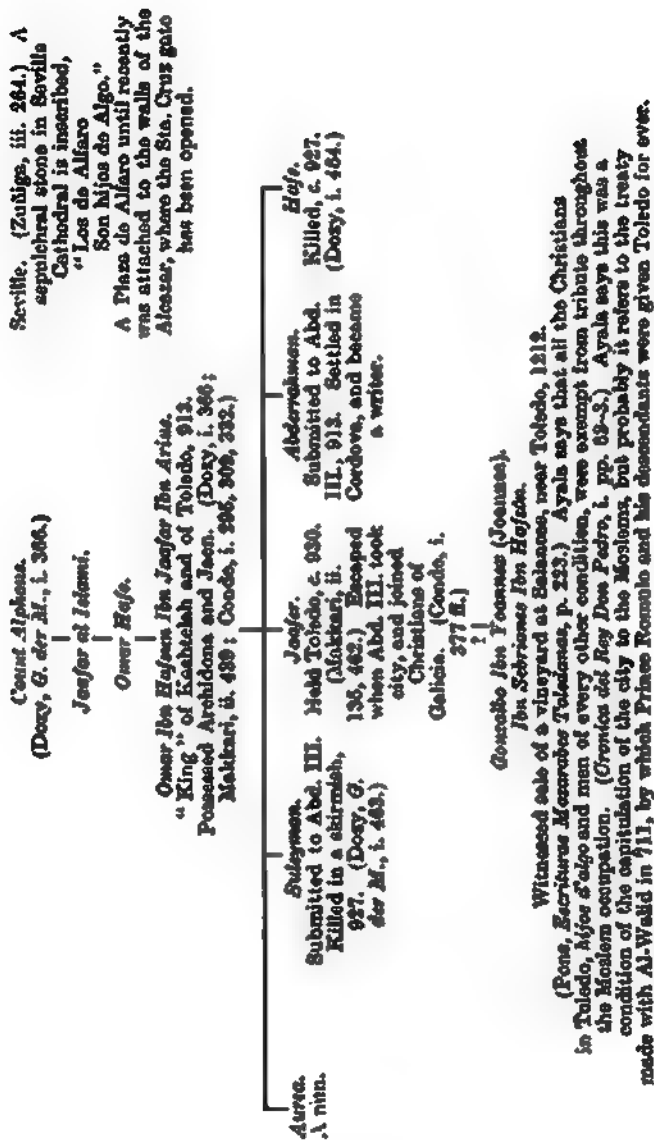
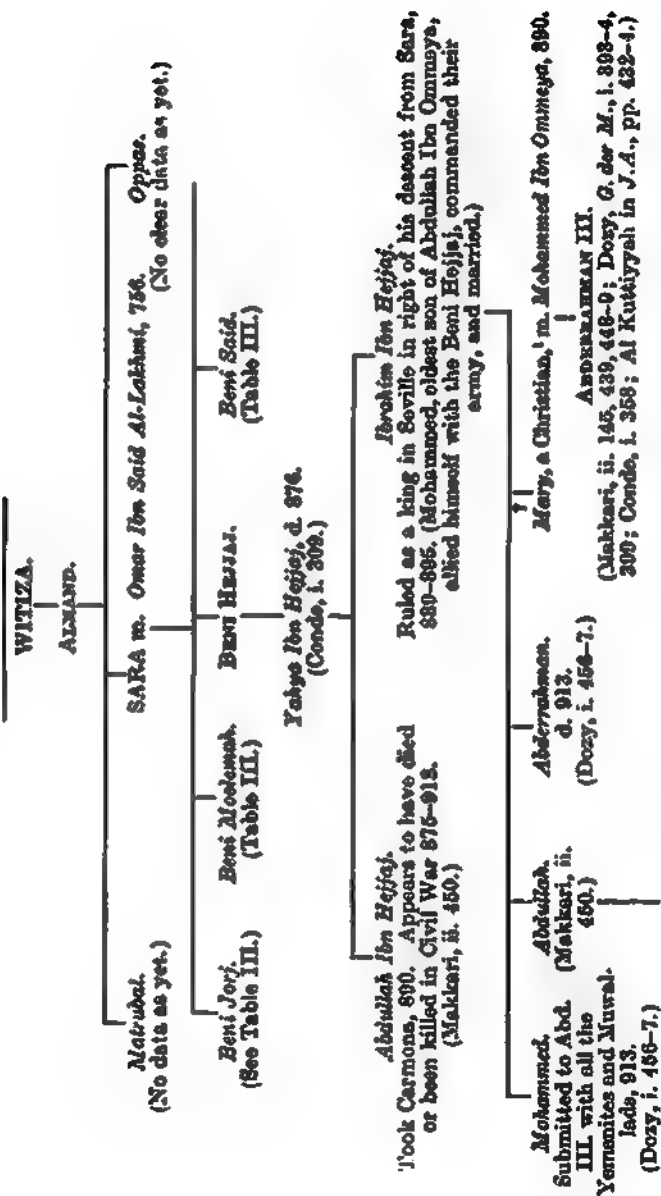
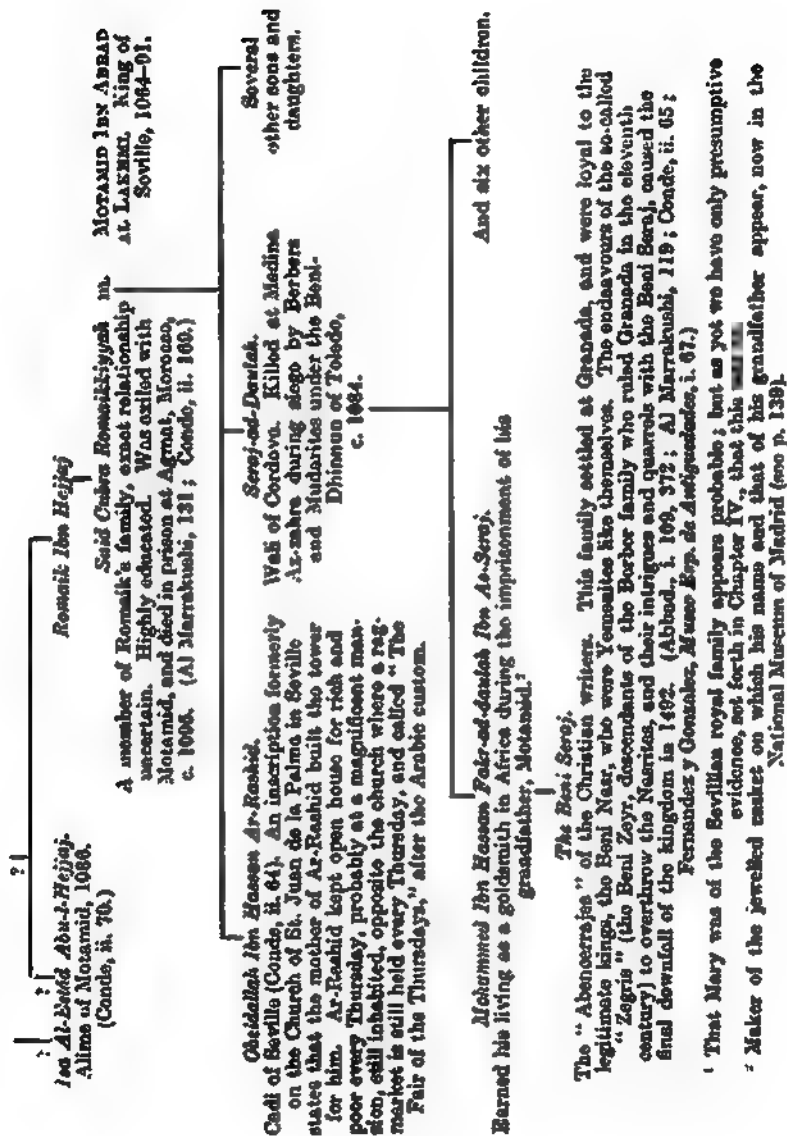


TABLE II.

DESCENDANTS OF PRINCE ALMUND THROUGH HIS DAUGHTER
SARA AND OMAR IBN SAID AL LAKHMI.
THE BENI HUSAYJ.





The "Abencerrajes" of the Christian writers. This family settled at Granada, and were loyal to the legitimate kings, the Beni Nasr, who were Yencallites like themselves. The endeavours of the so-called "Zegrins" (the Beni Zeyr, descendants of the Berber family who ruled Granada in the eleventh century) to overthrow the Nasrites, and their intrigues and quarrels with the Beni Serej, caused the final downfall of the kingdom in 1492. (Abbad, i. 169, 372; Al Marrakushi, 119; Conde, ii. 65; Fernandez y Gonzalez, *Museo Esp. de Antiguedades*, i. 87.)

That Mary was of the Sevillian royal family appears probable; but as yet we have only presumptive evidence, set forth in Chapter IV., that this was the case.

Maker of the jewelled mask on which his name and that of his grandfather appear, now in the National Museum of Madrid (see p. 139).

TABLE III.

DESCENDANTS OF SARA AND OMAR IBN SAID AL-LAKEMI.

BENI JORJ.

BENI MOLEMAN.

BENI SAID.

WITIZA.

ALMAD.

SARA m. (?) OMAR IBN SAID AL LAKEMI, 736.

JUBAR.

BENI JORJ.

Abdul Wahhab, son of Jorj.
 Held Castle of Nokdr.
 With Murwalleh of Elvira. d. 915.
 (Maktari, ii. 445.)

BENI MOLEMAN.
 (No data yet found.)

Mohammed Ibn Abderrahman Ibn Jorj.
 (cousin of Abdul Wahhab.)
 With party of Omar Ibn Hafsun. Built Castle of Morania, near Jodar, Prov. Jaen. Submitted to Abderrahman III., 918, and was given a command in the Khalif's army. Accompanied Ahmed Ibn Ishak (see Table V.) to Murcia.

BENI HÉFFOJ.
 (See Table II.)

BENI SAID.

No definite data yet found, except that the Beni Said were a very important family of *Seville*

Abu Belar Ahmed Ibn Said Ibn Mohammed Ibn Abdullah Ibn AL-FARAD. d. 1086.
 Born at Ecija, Province of Seville. Lived in Almaria. No complete copy of his historical work is known to exist, but Conde possessed quotations from it. (Pons, 138; Conde, I. xxi-xxii.)

and was killed at siege of
Alcanic. (Makkari, II. 446.)
The Castle of St. George at
Trieana, which bore that name
under Islam, may have been
built by this family.

¹ The Emirs of Badajoz in the eleventh century were known as
of the family of *Al Aftas*; but their full names suggest that they
were related to the Beni Moctamah, who sprung from the marriage
of Sara with Omar Ibn Saïd Al Lekhmi. Gayangos gives them as
followers (in Makkari, i. p. 369), but without mentioning their
tribal name:—

Abdullah Ibn Moctamah.

Ruler of Badajoz and part of the Algarve.

Abu Bahr Mohammed Ibn Abdullah Ibn Moctamah.

Succeeded his father, 1080-1.

Abu Mohammed Omar Ibn Mohammed Ibn Moctamah.
d. 1094.

(Cf. Tablas, Makkari, II. lxxxvii. Dozy, *Œ. der M.*, n. 422.)

The *Beni Saïd* in the thirteenth century were
an important family established since 1106
at Alcalá la Real (called Alcalá de Aben
Zaide in the Cron. of Alfonso X.), and appear
to have been closely connected with the
Beni Saïd (Bekrites), who governed Sivies
in the eleventh century. Their genealogy,
however, is not given in full in any
chronology as yet translated.

There is an important tribe in the Spanish
zone in Morocco, called the *Beni Saïd*. They
are fair-skinned with brown or chestnut
hair, and pride themselves on being
descended from the Goths of Spain. It
appears probable that they were among
the Yomenites driven out of Andalucía
in 1009 or in the twelfth century. (Letter
from Colonel Rebadin, Sanidad Militar,
for several years editor of the *Boletín*
Hispano-Marroquí of Ceuta.)

The chief of this tribe, which numbers about
25,000 members, was in 1893 *Si Mohammed Ar*
Rasuni, a relative of the Sultan Maley Hafid,
and of the Sherref of Wazan, whose mother
is an Englishwoman. He had about 1000
soldiers of the Beni Saïd around his residence
on the Wady Siffelan. (Gonzalez de Reparaz,
Peñitas de España en África, pp. 123, 130.)

Some of the Beni Saïd near the frontier of
Algeria have shown hostility to the Spanish troops
at Melilla; but *Ar Rasuni* and the majority
of his people have long been friendly to Spain.

TABLE IV.

DESCENDANTS OF SARA AND HER FIRST HUSBAND,
ISA IBN MUZAHIM.

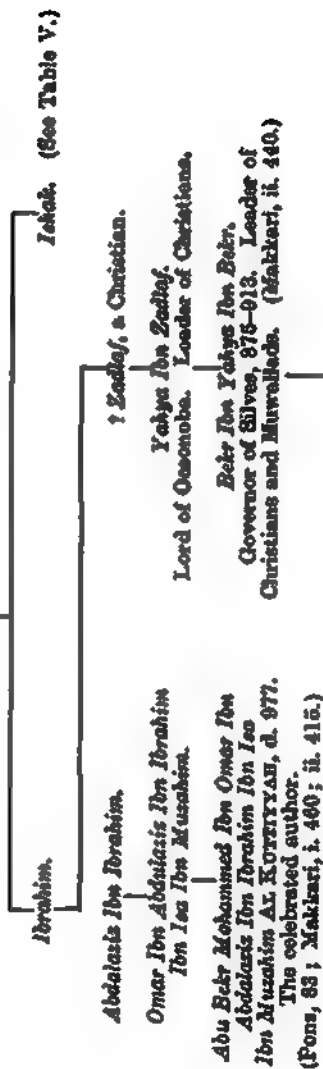
AL KUTAYYAN.

THE BAKUTAN.

WUTIZA.

ALMUND.

SARA m. (1) ISA IBN MUZAHIM.



Abu Saïd Mohammed Ibn Ayyub al Bekri.
Lord of Huétra, Ocanoba, and Sta. Maria de Algarbe ;
Kadi of Niebla, Governor of Saltil before 1066.
(*Dict. Islam*, 407.)

Abu Saïd Abdolaziz al Bekri.
Lord of Saltil and Huélva. Sold his heritage at
Saltil to Motamid. (Corda, II, 32.)

Abu-J. Moos Abdallah Ibn Abdolaziz, d. 1084. A captain in
Motamid's cavalry. Was by him made Governor of Niebla. (Corda, II, 34 ;
Pons, 100 ; Doss, *G. der M. Chron. Tafeln*.)

Abu Bekr Mohammed Ibn Is Ibn Mohammed
al Labani Ibn al Labani, d. 1113.
Brother of the geographer. Court poet and devoted ad-
herent of Motamid Ibn Abbad. Resided in Almeria, but
accompanied Motamid into exile in Africa, 1091. Died in
Mallore. (Pons, 172 ; Al Marrakushi, 124.)

Abdallah Ibn Abdolaziz Ibn Mohammed
al Bekri, d. 1094.

The celebrated geographer. Lived in Almeria.
Attended Motamid as Ambassador of the Amir
of Almeria on his African Expedition, 1085-6.
(Pons, 180 ; *Dict. Islam*, 507.)

Note to Table IV.—It may be worth remarking that two of the first chiefs of the Almoravides figuring in history
—who, according to some authorities, claimed descent from the Arabs of Yemen—were called Abu Bekr
Ibn Omar and Yahya Ibn Omar. The *Dict. of Islam* (p. 318) gives the Sanhaja, founders of the
Almoravide kingdom, as a Sahara tribe from the Sudana, and the chief who first sought education for
his tribe was called Yahya Ibn Ibrahim. In the uncertainty that still prevails as to the antecedents of
these rulers, it is interesting to note that the first four names we meet with among them are among those
of Al Kutayyah, also of Yemense extraction.

TABLE V.

DESCENDANTS OF SARA AND HER FIRST HUSBAND,

ISA IBN MU'AZIM.

THE BORN ISMA'.

WITIZA.

ALMA'AM.

SARA = m. (1) ISA IBN MU'AZIM, d. before 756.
(Tribe not stated, but apparently a
Lakhmian. See Table IV., *Al Lakhman*.)

Isma' (See Table IV.)

ISMA'.

Daughters of Isma'

Rebel Lakhmans and Murids and rebelled against Abdullah Ibn Ommeysa in the Civil War,
end of ninth century. Praised by the poet Obayda. (*Makharri*, ii. 489.)

Ibn Isahak.
Wizir of Cordova under Abderrahman III. d. 915-6. Referred to by Abderrahman
in terms which suggest that his wife may have been a Copé of Seville. (Dory,
G. der M., ii. 34-5.)

Ommeyya Ibn Isahak.
 A distinguished military commander. Taking offence at his brother's execution, he joined the Christians of Galicia under Ramiro V., and routed the Moslems at Zamora. Then offered his services to the Beni Idris of Africa against Abd. III. Finally returned to his allegiance, and was made Governor of Seutaram. (Makbari, ii. 136-7; Oude, i. 429.)

Ommeyya Ibn Isahak.
 Appointed Governor of Cordova by his cousin Mohammed al Mutad when he usurped the throne in 1009. (Makbari, ii. 488.)

Spoken of as related to the Royal house of Ommeyya. This connection must have been through Mary, a Christian of Seville, mother of Abderrahman, as the father was not an Ommeyyad.

Ahmed Ibn Isahak.
 Fiald-Marahol, and Governor of the Upper Taghber. Proposed that his cousin the Khakfi should name him heir to the throne. Executed for a civil offence. (Dory, ii. 34-5; Makbari, ii. 136.)

ثبت مراجع المؤلفين

BIBLIOGRAPHY

The following are the principal works and editions referred to in the text:—

Akhbar Majmua, Tr. EXILIO LAFUENTE (*Real Academia de la Historia*), Madrid, 1867.

ATHIR, IBN AL, *Annales du Maghreb et de l'Espagne*, Tr. E. FAGNAN, Algiers, 1901.

BUTLER, A. J., *The Arab Conquest of Egypt*, Clar. Press, 1902.

CASIRI, *Bibliotheca Arabico-hispana*, 2 vols.

CHAMBERLAIN, H. S., *The Foundations of the Nineteenth Century*, 2 vols., John Lane, 1911.

CODERA, F., *Estudios criticos de historia árabe-española*, Zaragoza, 1903.

CODERA, F., *Decadencia y desaparicion de los Almoravides en España*, Zaragoza, 1899.

CONDE, J. A., *Historia de la dominacion de los Arabes en España*, 3 vols., Madrid, 1820.

Crónica general, primera, Estoria de España que mandó componer Alfonso el Sabio, ed. R. MENENDEZ PIDAL, Madrid, 1908.

Crónica general de España, vols. VII. and VIII. by MORALES, Madrid, 1791.

Crónica general de España, vol. XIII. by SANDOVAL, Madrid, 1792.

Crónica del Rey Don Pedro, by P. LOPEZ DE AYALA, Madrid, 1799.

DOZY, R., *Geschichte der Mauren in Spanien*, 2 vols., Leipzig, 1874.

DOZY, R., *Recherches sur l'histoire et la littérature d'Espagne pendant le moyen âge*, 2 vols., Leyden, 1860.

DOZY, R., *Dictionnaire détaillé des Noms des Vêtements chez les Arabes*, Amsterdam, 1845.

- DOZY, R., *Historia Abbaditarum*, 8 vols., Leyden, 1846-68.
- Encyclopedia of Islam*, ed. HOUTSMA & SELIGSON, Leyden and London (in course of publication).
- España Sagrada*, ed. FLOREZ, 84 vols., Madrid, 1764-84.
- ESPINOZA, *Historia antigüedades y grandezas de Sevilla*, Seville, 1627.
- FISCHBACH, F., *The most important Textile Ornaments up to the XIXth Century*, Mainz, 1910.
- GAYET, AL, *L'Art Copte*, Paris, 1902.
- GAYET, AL, *L'Art Arabe*, Paris, n.d.
- GAYET, AL, *Le costume en Egypte du 3me au 18me siècle*, Paris, 1900.
- GIBBON, *Decline and Fall*, 8 vols., London, 1868.
- GUDIOL, J., *Nocions de Arqueologia sagrada Catalana*, Vich, 1902.
- IDRISI, *Descripcion de España*, tr. A. BLASQUEZ, Madrid, 1901.
- KUTTIYAH, AL, *Histoire de la conquête d'Espagne par les Musulmans*, tr. M. A. CHERBONNEAU, *Journal Asiatique*, Nov.-Dec., 1856.
- LANE-POOLE, S., *The Moors in Spain (Story of Nations)*, Unwin, 7th ed., 1897.
- LEA, H. C., *The Moriscos of Spain*, Philadelphia, 1901.
- LEA, H. C., *History of Sacerdotal Celibacy*, 3rd ed., 2 vols., New York, 1907.
- LENORMANT, *Manuel d'Histoire ancienne de l'Orient*, Paris, 1869.
- MAKKARI, AL, *History of the Mohammedan Dynasties in Spain*, tr. and ed. P. DE GAYANGOS, 2 vols., Oriental Translation Fund, 1840.
- MAKRIZI, *Histoire d'Egypte*, tr. E. BLOCHET, Paris, 1908.
- MARIANA, *Historia general de España*, ed. E. CHAO, 5 vols., Madrid, 1848.
- MARRAKUSHI, AL, *Histoire des Almohades*, tr. E. FAGNAN, Algiers, 1898.
- MORGADO, J. A., *Prelados Sevillanos*, Seville, 1899.
- PALOMO, F., *Historia de las Riadas del Guadalquivir*, Seville, 1878.
- PETRIE, W. M. FLINDERS, *Egyptian Decorative Art*, Methuen, 1895.
- PINEDA, *Memorial para la canonización del Rey Fernando III.*, Seville, 1627.

BIBLIOGRAPHY

xv

- PONS, F., *Historiadores y Geógrafos árabe-españoles*, Madrid, 1898.
 PONS, F., *Escrituras Mozárabes Toledanas*, Madrid, 1897.
 REMIRO, M. G., *Historia de Murcia musulmana*, Zaragoza, 1905.
 RIOS, AMADOR DE LOS, *Inscripciones árabes de Sevilla*, Madrid, 1875.
 RODRIGUEZ, M., *Memorias para la vida de Fernando III.*, Madrid, 1800.
 SCHOTT, *Hispania illustrata*, 5 vols., Frankfurt, 1608.
 SERRANO, M., *Glorias Sevillanas*, Seville, 1898.
 SERRANO, M., *Tradiciones Sevillanas*, Seville, 1895.
 SHARP, MARY, *Point and Pillow Lace*, 2nd ed., Murray, 1906.
 SIMONET, L. J., *Historia de los Mozárabes*, Madrid, 1906.
 STRABO, *Geography*, Bohn's trans., 3 vols., 1854.
 WATTS, H. E., *Spain (Story of Nations)*, 8rd ed., Unwin, n.d.
 WILLIAMS, LEONARD, *The Arts and Crafts of Older Spain*, 3 vols., Foulis, London and Edinburgh, 1907.
 ZUSIGA, *Anales de Sevilla*, 5 vols., Madrid, 1796.

مراجع التحقيق

«أخبار مجموعة في فتح الأندلس»، تحقيق إبراهيم الإياري، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، الطبعة الثانية، 1989.

الإدريسي: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، مطبعة بريل، لايدن 1863.

ابن بتمام الشتريني، أبو الحسن علي: «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1979.

التميمي المراكشي، محيي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي: «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»، مطبعة بريل، لايدن 1881.

الحميدي، الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبي نصر: «جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس»، الدار المصرية للتأليف والتشتر، القاهرة 1966.

ابن خلدون: «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر». ضبط النص خليل شحادة، دار الفكر، بيروت 2000.

الذهبي، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: «تاريخ الإسلام»، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت 1990.

الذهبي، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: «سير أعلام النبلاء»، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - بشار عواد معروف، حسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت 1982.

العماد الأصبهاني: «خريدة القصر وجريدة العصر»، تحقيق: شكري فيصل، أحمد أمين، إحسان عباس، شوقي ضيف، محمد المرزوقي، محمد العروسي المطوي، محمد بهجة الأثري، جميل سعيد، عدنان محمد آل طعمة. مجمع اللغة العربية بدمشق 1955 - 1968، دار الكتب المصرية 1951، الدار التونسية للنشر 1986.

ابن القوطية: «تاريخ افتتاح الأندلس»، تحقيق إبراهيم الإياري، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، 1989.

المقري: «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، 1988. ثمانية أجزاء والفهارس.



محتويات الكتاب

5	سلسلة رواد المشرق العربي.....
7	هذا الكتاب
13	نقاط حول الترجمة
21	مقدمة المؤلفين
39	إسبانيا العربية: إضاءات على تاريخها وفنّها
39	الفصل الأول: المسيحية في ظل الإسلام
59	الفصل الثاني: أبناء غيطشة (فيتيسا)
75	الفصل الثالث: السلالة المولدين الملكية
95	الفصل الرابع: الأندلس في القرن التاسع
111	الفصل الخامس: الأندلس في القرن التاسع (تتمة)
125	الفصل السادس: عُمر ملك طليطلة
145	الفصل السابع: تأثير الأقباط في إسبانيا
173	الفصل الثامن: المسيحيون والمولدون في عهد عبد الرحمن الثالث
183	الفصل التاسع: الأمراء الذين خلفوا عبد الرحمن الثالث

199	الفصل العاشر: المنصور والتّصاري
211	الفصل الحادي عشر: قصة هشام الثّاني
235	الفصل الثّاني عشر: بنو عبّاد في مملكتهم
255	الفصل الثّالث عشر: المرابطون
267	الفصل الرّابع عشر: الأندلس في القرن الحادي عشر
275	الفصل الخامس عشر: إسبانيا والمرابطون
293	الفصل السّادس عشر: بنو هود وابن مرّدينش
315	الفصل السّابع عشر: سان فرناندو وابن الأحمر
337	الفصل الثّامن عشر: اليمانيون والموحدون في إشبيلية
353	الفصل الثّاسع عشر: سقوط إشبيلية
369	الفصل العشرون: وفاة سان فرناندو
381	الفصل الحادي والعشرون: الإسلام تحت حكم المسيحيين
395	الفصل الثّاني والعشرون: مصر والكنيسة في إشبيلية
409	الفصل الثّالث والعشرون: صناعات الأندلس تحت الحكم الإسلامي
423	ملحق: ملاحظات على الفصل الأول
467	مشجرات الأنساب
479	ثبت مراجع المؤلّفين
481	مراجع التّحقيق

